مركز البحوث الإسلامية
إستانبول

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تفسير أبي السعود

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
(ت. ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)

ينشر لأول مرة عن نسخة المؤلف مع منهواته (تعليقاته) بخط يده

تحقيق

أ.م. محمد طه بويالق | أحمد أيتب

أ.م. ضياء الدين القالش | محمد عماد النابلسي

إشراف ومراجعة

أ.م. محمد طه بويالق

المجلد الخامس

نشريات وقف الديانة التركي

بسم الله الرحمن الرحيم

إرشاد العقل السليم
إلى مزايا الكتاب الكريم

مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية

تمّ إدراج "مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية" كمشروع إطاري يضم في طياته عدة مشاريع فرعية في جدول الأعمال من قِبَل مركز البحوث الإسلامية (إسام/İSAM) بهدف إخضاع التراكم الفكري فيما بين القرنين الهجريين السابع والثالث عشر (١٣-١٩م) -الذي يمكن أن يطلق عليه اسم "العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية"- لدراسة علمية كما يليق به، واستخراجِ ما حملته هذه الفترة من أبعاد علمية وفكرية لما يقارب سبعة قرون. وفي تصور كتابة التاريخ المعاصرة قد سُعي إلى كتابة تاريخ الحضارة الإسلامية على أساس فرضية أن تطور الحضارة الإسلامية بصفة عامة والفكر الإسلامي وعلومه بصفة خاصة قد تعرض للانقطاع بعد الغزو المغولي. فإن وجهة النظر هذه التي تشكلت في الغرب في القرن التاسع عشر، وانتشرت بين المسلمين أثناء فترة الاستعمار هي التي جعلت أحكامنا المتعلقة بالتاريخ الإسلامي ناقصة، مما حال بيننا وبين أن نتناول تاريخ الإسلام بفكره وفنونه ومؤسساته وشخصياته الرائدة وأدبه وأحداثه في وحدة متماسكة.

ولا تسلّط الدراسات في هذا المجال الضوء على فترة من فترات التاريخ الإسلامي فحسب؛ بل ستجلي أيضا حقبة مهمة من حقب التاريخ البشري. وإن هذا المشروع سيكون وسيلة لبعثِ المسائل العلمية المناقشة في العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية من جديد، وإلحاقِها بقضايا العالم العلمي والفكري، وبالتالي سيستفاد إلى أقصى حد من التراث العريق في بناء عهد جديد واستدراك المسائل الراهنة وتحليلها وانتقادها ومناقشتها.

وفي إطار الأعمال العلمية المتعلقة بهذه الفترة سيفسح هذا المشروع المجال لعقد دراسات عن العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي وتاريخ العلوم الإسلامية التجريبية، وكذلك العلوم البشرية وميادين الفنون في الحضارة الإسلامية إلى جانب الدراسات المقارنة بين الإسلام وسائر الحضارات الأخرى. وستركّز المشاريع المرتقبة على أراضي الدولة العثمانية وجنوب الصحراء الكبرى، وكذلك على شبه القارة الهندية منذ سلطنة دلهي، بالإضافة إلى آسيا الوسطى وإيران بعد الغزو المغولي. هذا، ويتوقع إصدار منشورات في إطار المشروع مثل الفهرسة والتأليف والتحقيق والترجمة.

المنهج الفكري عند ابن تيمية ونقده للمتكلمين (بالتركية)، مَحمَد سعيد أوزَروارلي، ٢٠٠٨؛ ٢٠١٧.
دراسة فتح الباري وعمدة القاري من جهة تحليل المتن(بالتركية)، ياووز كُوكْطاش، ٢٠٠٩؛ ٢٠٢٠.
الوزارة في العهد المملوكي (بالتركية)، فاتح يحيى آياز، ٢٠٠٩؛ ٢٠١٧.
التاريخ الإداري والاقتصادي للعثمانيين (بالتركية)، خليل إينالجيق، ٢٠١١؛ ٢٠١٨.
مدرسة فخر الدين الرازي في أصول الفقه (بالتركية)، طونجاي باش أوغلو، ٢٠١١؛ ٢٠١٤.
عبد القادر الجيلاني والقادرية، (بالتركية)، عدالت چاقر، ٢٠١٢؛ ٢٠٢١.
فخر الدين الرازي في عهد التحول للفكر الإسلامي (بالتركية)، عثمان دمير - عمر تورك أر (تحرير)، ٢٠١٣.
الكفاية في الهداية، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد آروتشي، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
المنتقى من عصمة الأنبياء، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد بولوط، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
الطرق الصوفية في تركيا: تاريخ وثقافة (بالتركية)، سميح جيحان (تحرير)، ٢٠١٥.
مرشد الشيوخ الثلاثة: الخلوتية وفرع الرمضانية وكوستندلي علي علاء الدين أفندي (بالتركية)، سميح جيحان، ٢٠١٥
تراث الحواشي في التفسير وحاشية شيخ زاده على أنوار التنزيل (بالتركية)، شكري معدن، ٢٠١٥
فهرس الوقفيات لسجلات محاكم إستانبول الشرعية (بالتركية)، إعداد: ب. آيدين، إ. يورداقول، آ. ايشيق، إ. قورت، أ. ييلديز، ٢٠١٥.
كتاب القواعد الكلّيّة في جملة من الفنون العلميّة، محمد الإصفهاني، تحقيق: منصور كوشينكاغ - بلال تاشقين، ٢٠١٧.
عضد الدين الإيجي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، أشرف آلطاش (تحرير)، ٢٠١٧.
القاضي البيضاوي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، مستقيم آريجي (تحرير)، ٢٠١٧.
العلاقة بين النحو وأصول الفقه (بالتركية)، عثمان كومان، ٢٠١٧.
سلامة الإنسان في محافظة اللسان، ميرزا زاده محمد سالم، تحقيق: مراد صولا، ٢٠١٨.
معاني الأسماء الإلٰهيّة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
شرح الفاتحة وبعضِ سورة البقرة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
دليل تحقيق النصوص لمركز البحوث الإسلامية (إسام) (بالتركية)، إعداد: أوقان قدير يلماز، ٢٠١٨.
شيخ بدر الدين: فقيه عثماني (بالتركية)، مصطفى بولند داداش، ٢٠١٨.
رسالة في أدب المفتي، محمد فقهي العيني، تحقيق: عثمان شاهين، ٢٠١٨.
كتاب تقريب الغريب، قاسم بن قطلوبغا، تحقيق: عثمان كسكين‌أر، ٢٠١٨.
كشف الأسرار وهتك الأستار، يوسف بن هلال الصفدي، تحقيق: بهاء الدين دارتما، ١-٥، ٢٠١٩.
تراث الكشاف: أثر الكشاف للزمخشري في تراث التفسير (بالتركية) مَحمَد طه بُويالِق، ٢٠١٩.
التسهيل شرح لطائف الإشارات، الشيخ بدر الدين، تحقيق: مصطفى بُولَنْدْ دَادَاش، ١-٣، ٢٠١٩.
جامع الأصول، ركن الدين السمرقندي، تحقيق: عصمت غريب الله شِمْشَك، ١-٢، ٢٠٢٠.
تسديد القواعد في شرح تجريد العقائد - حاشية التجريد - منهوات الجرجاني والحواشي الأخرى، محمود الإصفهاني - الجرجاني، تحقيق:
أ. آلطاش، م. علي قُوجَا، ص. كونْ آيْدِن، م. يتيم، ١-٣، ٢٠٢٠؛ ١-٢، ٢٠٢١.
لبّ الأصول، ابن نجيم، تحقيق: محمد فال السيد الشنقيطي، ٢٠٢٠.
التسديد في شرح التمهيد، السغناقي، تحقيق: علي طارق زياد يلماز، ١-٢، ٢٠٢٠.
نظام الحقوق العثماني: أساس الدولة العلية، مَحمَد عاكف آيدن (بالتركية)، ٢٠٢٠.
نظرية الجسم في الفلسفة الإسلامية: تراث حكمة العين، مَحمَد سامي باغا (بالتركية)، ٢٠٢٠.
تراث الشروح والحواشي في كتابة السير: مُغْلَطاي بن قليج نموذجًا، كُونْلُو ييلديز (بالتركية)، ٢٠٢٠.
علي القوشجي مفسّرًا، مَحمَد جِيجَك (بالتركية)، ٢٠٢١.
حاشية علي القوشجي على شرح الكشاف للتفتازاني، علي القوشجي علاء الدين علي بن محمد السمرقندي، تحقيق: مَحمَد جِيجَك، ٢٠٢١.
شرح عقود رسم المفتي، ابن عابدين محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الحسيني الدمشقي، تحقيق: شَنُول صَيْلان، ٢٠٢١.
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي، تحقيق: محمد طه بويالق، أحمد أيتب،
ضياء الدين القالش، محمد عماد النابلسي، ١-٩، ٢٠٢١.

مركز البحوث الإسلامية
إستانبول
سِلْسِلَةُ عيُونِ التُّرَاثِ الإسْلَامِيِّ

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تفسير أبي السعود

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
(ت. ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)

يُنشر لأول مرة عن نسخة المؤلف مع منهواته (تعليقاته) بخط يده

تحقيق

أ. د. محمد طه بويالق   أحمد أيتب

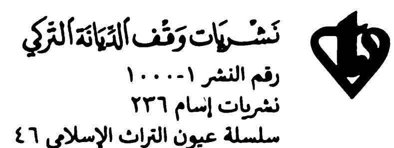
أ. د. ضياء الدين القالش   محمد عماد النابلسي

إشراف ومراجعة

أ. د. محمد طه بويالق

المجلد الخامس

نشريات وقف الديانة التركي



نشريات وقف الديانة التركي
رقم النشر ١-١٠٠٠
نشريات إسام ٢٣٦
سلسلة عيون التراث الإسلامي ٤٦

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي

المجلد الخامس

تحقيق محمد طه بُوتَايِلِق - أحمد أَيْتَبْ [المقدمة - البقرة ٩٨؛ النساء - التوبة]
ضياء الدين القَالِش [البقرة ٩٩ - آل عمران ٣٢؛ يونس - هود؛ الحجر - طه؛ الذاريات - الناس]
محمد عماد النابلسي [آل عمران ٣٣-٢٠٠؛ يوسف - إبراهيم؛ الأنبياء - ق]

تم إعداد كتاب إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
بإشراف اللجنة العلمية للتحقيق
بـ مركز البحوث الإسلامية (İSAM) التابع لوقف الديانة التركي.

İSAM YAYINLARI

İcadiye - Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
الهاتف: 50 08 474 216 90+ www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

إدارة النشر محمد سَعَادْ مَرْتْ أوغْلُو
إشراف الطبع أَزْدَالْ جَساز
تحرير قسم التحقيق أوقَانْ قَدير يِلْماز
التدقيق النهائي لقسم الدراسة (التركي) مصطفى دَمِيرْآيْ
تنقيح الأسلوب والصياغة لقسم الدراسة (التركي) مَتِين قَرَه بَاشْ أوغْلُو
الترجمة (العربي) مروة داغستاني بازْسِيكْ
التصحيح (العربي) سعيد قاياجي، منذر شيخ حسن، محمد شاهين
(التركي) عيسى قايا ألْبْ، عبد القادر شَنَلْ، عنايت بَبَكْ
التصميم علي حيدر أُولُوصُويْ، إبراهيم درويش مؤذن (تطبيق)،
حسن حسين جَانْ (غلاف)، رمزي حاج مصطفى (خط الغلاف)
سكرتير النشر منذر شيخ حسن، سماء دُوغَانْ

تم إعداد هذا الكتاب
من قبل مركز البحوث الإسلامية (إسام / İSAM)
في إطار مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية.
منسق المشروع طُونْجَايْ بَاشْ أوغْلُو

Kinci Klasik Dönem

تم طبع هذا الكتاب بقرار مجلس إدارة إسام
بتاريخ ٢٠٢٠/٠٦/٠١ ورقم ٢٠٢٠/٠٥.

الطبعة الأولى: أنقرة، يوليو ٢٠٢١م / ١٤٤٢هـ
(مجموعة) ISBN 978-625-7581-31-8
(المجلد الخامس) 978-625-7581-36-3

الطباعة والنشر والتوزيع
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.





Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No: 11 Yeni Mahalle / Ankara
الهاتف: 9131 354 312 90+ الفاكس: 9132 354 312 90+ bilgi@tdv.com.tr

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم / شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي؛ التحقيق: محمد طه بُوتَايِلِق، أحمد أَيْتَبْ، ضياء الدين القَالِش، محمد عماد النابلسي. – أنقرة: وقف الديانة التركي، ٢٠٢١.
المجلد الخامس، ٦٦٨ صفحة؛ ٢٤ سم. – (نشريات وقف الديانة التركي؛ ١-١٠٠٠. نشريات إسام؛ ٢٣٦. سلسلة عيون التراث الإسلامي؛ ٤٦)
يحتوي على الفهارس والمصادر
(المجلد الخامس) 978-625-7581-36-3 (مجموعة) ISBN 978-625-7581-31-8

فهرس المحتويات

[٢٢٨ظ]

/ سورة الرعد

مختلَف فيها،[١] وهي خمس وأربعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ①﴾

﴿الٓمٓر﴾ اسم للسورة. ومَحلُّه إمّا الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذه السورة مسمّاة بهذا الاسم، وهو أظهر مِن الرفع على الابتداء؛ إذ لم يسبق العلم بالتسمية كما مرّ مرارًا. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ على الوجه الأوّل مبتدأ مستقلّ، وعلى الوجه الثاني مبتدأ ثانٍ، أو بدلٌ مِن الأوّل، أشيرَ به إليه إيذانًا بفخامته.

وَإمّا النصبُ بتقدير فعل يناسب المقام، نحو: "اقرأ" أو "اذكُر"، فـ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، كما إذا جعل ﴿الٓمٓر﴾ مسرودًا على نمط التعديد، أو بمعنى: "أنا الله أعلَم وأرى" على ما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.[٢]

والخبر على التقادير قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: الكتاب العجيب الكامل، الغنيّ عن الوصف به، المعروف بذلك مِن بين الكتب، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به، فهو عبارة عن جميع القرآن، أو عن الجميع المنزّل حينئذ، حسبما مرّ في مطلع سورة يونس عليه السلام؛ إذ هو المتبادر مِن مطلق الكتاب المستغني عن النعت. وبه يظهر ما أريدَ مِن وصف الآيات بوصف ما أضيفت إليه مِن نعوت الكمال، بخلاف ما إذا جُعل عبارة عن السورة،

---

[١] س: مدنيّة، وقيل: مكّيّة.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٧/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣.

فإنّها ليست بتلك المثابة مِن الشهرة في الاتّصاف بذلك، المغنيةِ عن التصريح بالوصف، على أنّها عبارة عن جميع آياتها، فلا بدّ من جعل ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى كلّ واحدة منها. وفيه ما لا يخفى مِن التعسّف الذي مرّ تفصيله في سورة يونس.

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: الكتاب المذكور بكماله، لا هذه السورة وحدَها. ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت المطابِق للواقع في كلّ ما نطق به، الحقيق بأن يخصّ به الحقّيّة لعراقته فيها. وليس فيه ما يدلّ على أنّ ما عداه ليس بحقّ أصلًا، على أنّ حقّيّته مستتبعة لحقّيّة سائر الكتب السماويّة / لكونه مصدِّقًا لِما بين يديه ومهيمنًا عليه. [٢٢٩و]

وفي التعبير عنه بالموصول وإسنادِ الإنزال إليه بصيغة المبنيّ للمفعول والتعرّضِ لوصف الربوبيّة مضافًا إلى ضميره عليه السلام مِن الدلالة على فخامة المنزَّل التابعةِ لجلالة شأن المنزِّل وتشريف المُنزَّلِ إليه والإيماءِ إلى وجه بناءِ الخبر ما لا يخفى.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك الحقّ المبين، لإخلالهم بالنظر والتأمّل فيه، فعدم إيمانهم متعلّق بعنوان حقّيّته؛ لأنّه المرجع للتصديق والتكذيب، لا بعنوان كونه مُنْزَلًا كما قيل،[١] ولأنّه وارد على طريقة الوصف دون الإخبار.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: خلقهنّ مرتفعات. على طريقة قولهم: "سبحان مَن كبّر الفيل وصغّر البعوض"، لا أنّه رفعها بعد أن لم يكن كذلك. والجملة مبتدأ وخبر، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الرعد، ٣/١٣].

---

[١] انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٤٤/٦.

﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ أي: بغير دعائم، جمع "عماد"، كإهاب وأَهَب، وهو ما يُعمد به، أي: يُسنَد، يقال: عَمَدت الحائط، أي: أدْعَمته. وقُرئ: "عُمُدٍ"[1] على جمع "عَمودٍ" بمعنى عمادٍ، كرُسل ورسول. وإيراد صيغة الجمع لجمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، لا لأنّ المنفي عن كلّ واحدة منها عَمَد لا عِمادٌ.

﴿تَرَوۡنَهَا﴾ استئناف استُشهد به على ما ذكر مِن رفع السماوات بغير عَمَد. وقيل: صفة لـ﴿عَمَدٖ﴾ جيء بها إيهامًا؛ لِأنّ لها عَمَدًا غير مرئيّة، هي قدرة الله سبحانه.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ﴾ أي: استولى ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ بالحفظ والتدبير. أو استوى أمره. وعن أصحابنا أنّ الاستواء على العرش صفة لله عزّ وجلّ بلا كيف. وأيًّا ما كان فليس المراد به القصد إلى إيجاد العرش وخلقِه، فلا حاجة إلى جعل كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ ذلّلهما وجعلهما طائعين لِما أريدَ منهما مِن الحركات وغيرها. ﴿كُلّٞ﴾ مِن الشمس والقمر ﴿يَجۡرِي﴾ حسبما أريدَ منهما ﴿لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ لمدّة معيّنة / فيها تتمّ دورته، كالسنة للشمس، والشهرِ للقمر، [٢٢٩ظ] فإنّ كلًّا منهما يجري كلّ يوم على مدارٍ معيّن مِن المدارات اليوميّة، أو لمدّةٍ ينتهي فيها حركاتهما ويخرج جميعُ ما أريدَ منهما مِن القوّة إلى الفعل، أو لغاية يتمّ عندها ذلك. والجملة بيان لحِكَم تسخيرهما.

﴿يُدَبِّرُ﴾ بما صنع مِن الرفع والاستواء والتسخير، أي: يقضي ويقدّر حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ أمر الخلق كلّه، وأمر ملكوته وربوبيّته. ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدالّةَ على كمال قدرته وبالغ حكمته، أي: يأتي بها مفصّلةً وهي ما ذُكر مِن الأفعال العجيبة، وما يتلوها مِن الأوضاع الفلكيّة الحادثة شيئًا فشيئًا، المستتبعةِ للآثار الغريبة في السُفليات على موجَب التدبير والتقدير.

فالجملتان إمّا حالان مِن ضمير ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾، وقولُه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ مِن تتمّة الاستواء، وإمّا مفسّرتان له؛ أو الأُولى حال منه، والثانية مِن الضمير فيها؛

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٣.

أو كلاهما مِن ضمائر الأفعال المذكورة، وقولُه: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مِن تتمّة التسخير؛ أو خبران مِن قوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، خبرًا بعد خبر، والموصول صفة للمبتدأ جيء به للدلالة على تحقيق الخبر وتعظيم شأنه، كما في قول الفرزدق:

إنّ الـذي سمَك السماءَ بنى لنا بيتًا دعائمه أعزّ وأطولُ[1]

﴿لَعَلَّكُم﴾ عند معاينتكم لها وعثوركم على تفاصيلها ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ﴾ بملاقاته للجزاءِ ﴿تُوقِنُونَ﴾ فإنّ مَن تدبّرها حقّ التدبّر أيقن أنّ مَن قدر على إبداع هذه الصنائع البديعة على كلّ شيء قدير، وأنّ لهذه التدبيرات المتينة عواقبَ وغايات لا بدّ مِن وصولها، وقد بُيِّنت على ألسنة الأنبياءِ عليهم السلام، أنّ ذلك[2] ابتلاء المكلّفين ثمّ جزاؤهم حسب أعمالهم،[3] / فإذن لا بدّ مِن الإيقان بالجزاء. [٢٣٠و]

ولمّا قرّر الشواهد العلويّة أردفها بذكر الدلائل السفليّة فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بسطَها طولًا وعرضًا، قال الأصمّ: «المدّ: هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه»،[4] ففيه دلالة على بُعد مداها وسَعة أقطارها.[5]

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالًا ثوابت في أحيازها، مِن الرسوّ، وهو ثبات الأجسام الثقيلة. ولم يذكر الموصوف لإغناء غلبة الوصف بها عن ذلك. وانحصارُ مجيء فواعل جمعًا لفاعل في فوارس وهوالك ونواكس إنّما هو في صفات العقلاء، وأمّا في غيرهم فلا يراعى ذلك أصلًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة، ١٨٤/٢]، وقولِه: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة، ١٩٧/٢] إلى غير ذلك.

فلا حاجة إلى أن يجعل مفردها صفةً لجمع القِلّة، أعني: أجبُلًا، ويعتبر في جمع الكثرة –أعني: جبالًا– انتظامها لطائفة مِن جموع القلّة، وتنزيل كلّ منها

---

[1] ديوان الفرزدق، ٣١٨/٢. سمَكَ الله السماءَ سَمْكًا: رفعها. الصحاح للجوهري، «سمك».

[2] وفي هامش م: بدل مِن ضمير العواقب والغايات في "بُيِّنَتْ" بطريق التفسير، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر، ٦٦/١٥]. «منه».

[3] وفي هامش م: كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١]، وغير ذلك مِن النصوص. «منه».

[4] اللباب لابن عادل، ٢٤٠/١١.

[5] ط س: أقدارها.

منزلةَ مفردها كما قيل. على أنّه لا مجال لذلك، فإنّ جمعيّة كلّ مِن صيغتَي الجمعين إنّما هي باعتبار الأفراد التي تحتهما، لا باعتبار انتظام جمع القِلّة للأفراد، وجمعِ الكثرة لجموع القِلّة، فكلٌّ منهما جمع "جَبَل"، لا أنّ "جبالًا" جمع "أَجْبُل"، كما أنّ "طوائف" جمع "طائفة". ولا إلى أن يُلتَجأَ إلى جعل الوصف المذكور بالغلبة في عداد الأسماءِ التي تجمع على فواعل كما ظُنَّ، على أنّه لا وجه له لِما أنّ الغلبة إنّما هي في الجمع دون المفرد. والتعبير عن الجبال بهذا العنوان لبيان تفرّع قرار الأرض على ثباتها.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ مجاري واسعة، والمراد ما يجري فيها مِن المياه، وفي نظمها مع الجبال في معموليّة فعل واحدٍ إشارةٌ إلى أنّ الجبال منشأ للأنهار وبيان لفائدةٍ / أخرى للجبال غيرِ كونها حافظةً للأرض عن الاضطراب المخلّ بثبات الأقدام [٢٣٠ظ] وتقلّب الحيوان، متفرّعةٍ على تمكّنه وتقلّبه، وهي تعيّشه بالماء والكلأ.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ متعلّق بـ﴿جَعَلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: اثنينيّةً حقيقيّةً، وهما الفردان اللذان كلّ منهما زوج الآخر. وأكّد به ﴿زَوْجَيْنِ﴾[١] لئلّا يُفهم أنّ المراد بذلك الشّفعان، إذ يطلق الزوج على المجموع، ولكنّ اثنينيّة ذلك اثنينيّة اعتباريّة، أي: جعل مِن كلّ نوع مِن أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين، إمّا في اللون، كالأبيض والأسود، أو في الطعم، كالحُلو والحامض، أو في القَدْر، كالصغير والكبير، أو في الكيفيّة، كالحارّ والبارد، وما أشبه ذلك. ويجوز أن يتعلّق بـ﴿جَعَلَ﴾ الأوّل، ويكون الثاني استئنافًا لبيان كيفيّة ذلك الجَعل.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ استعارة تبعيّة تمثيليّة مبنيّة على تشبيه إزالة نور الجوّ بالظلمة بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية، أي: يُستر النهار بالليل. والتركيب وإن احتمل العكس أيضًا بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الأوّل، فإنّ ضوء النهار أيضًا ساتر لظلمة الليل، إلّا أنّ الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي. وعُدّ هذا في تضاعيف الآيات السفليّة -وإنْ كان تعلّقه بالآيات العلويّة ظاهرًا-

---

[١] ط س: الزوجين. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

باعتبار أنّ ظهوره في الأرض،[١] فإنّ الليل إنّما هو ظلّها، وفيما فوق موقع ظلّها لا ليل أصلًا، ولأنّ الليل والنهار لهما تعلّق بالثمرات مِن حيث العقد[٢] والإنضاج،[٣] على أنّهما أيضًا زوجان متقابلان مثلها. وقُرئ: "يُغَشِّي"[٤] مِن التغشية.

[٢٣١و] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر / مِن مدّ الأرض، وإيتادها بالرواسي، وإجراء الأنهار، وخلق الثمرات، وإغشاءِ الليل النهارَ. وفي الإشارة بذلك تنبيه على عِظم شأن المشار إليه في بابه. ﴿لَآيَاتٍ﴾ باهرةً. وهي آثار تلك الأفاعيل البديعة جلّت حكمة صانعها. فـ﴿في﴾ على معناها، فإنّ تلك الآثار مستقرّة في تلك الأفاعيل مَنوطة بها. ويجوز أن يشار بذلك إلى تلك الآثار المدلول عليها بتلك الأفاعيل، فـ﴿في﴾ تجريديّة.

﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنّ التفكّر فيها يؤدّي إلى الحُكم بأنّ تكوين كلّ مِن ذلك على هذا النمط الرائق والأسلوب اللائق لا بدّ له مِن مكوِّن قادر حكيم يفعل ما يشاء، ويختار ما يريد، لا معقِّب لحُكمه، وهو الحميد المجيد.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ جملة مستأنَفة مشتملة على طائفة أخرى مِن الآيات، أي: بِقاعٌ كثيرة مختلفة في الأوصاف، فمِن طيّبة إلى سبخة، وكريمةٍ إلى زَهيدة، وصُلبةٍ إلى رِخوة، إلى غير ذلك. ﴿مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي: متلاصِقات. وفي بعض المصاحف: "قِطَعًا مُتَجَاوِرَاتٍ"،[٥] أي: جعل في الأرض قِطَعًا. ﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: بساتينُ كثيرة منها.

﴿وَزَرْعٌ﴾ مِن كلّ نوع مِن أنواع الحبوب. وإفراده لمراعاة أصله. ولعلّ تقديمَ ذِكر الجنّات عليه مع كونه عمودَ المعاش لظهور حالها في اختلافها،

---

١ وفي هامش م: خبرُ "أنّ".
٢ وفي هامش م: ليل.
٣ وفي هامش م: نهار.
٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.
٥ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٣٤٩.

ومباينتِها لسائرها، ورسوخِ ذلك فيها.

وتأخير قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ﴾ لئلّا يقع بينها وبين صفتها -وهي قوله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾- / فاصلةٌ. و"الصِّنوان" جمع "صِنْو"، كقِنوان وقِنْو؛[١] وهي النخلة التي لها رأسان وأصلها واحد. [٢٣١ظ]

وقُرئ بضمّ الصاد[٢] على لغة بني تميم وقَيس.[٣] وقُرئ: "جَنّاتٍ"[٤] بالنصب عطفًا على ﴿زَوْجَيْنِ﴾، وبالجرّ على ﴿كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾. فلعلّ عدمَ نظم قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ في هذا السلك مع أنّ اختصاص كلّ مِن تلك القِطع بما لها مِن الأحوال والصفات بمحض جعل الخالق الحكيم جلّت قدرتُه حين مدّ الأرض ودحاها للإيماء إلى كون تلك الأحوال صفات راسخة لتلك القِطع.

وقُرئ: "وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ"[٥] بالجرّ عطفًا على ﴿أَعْنَابٍ﴾ أو "جَنَّاتٍ".[٦]

﴿يُسْقَىٰ﴾ أي: ما ذُكر مِن القِطَع والجنّات والزرع والنخيل. وقُرئ بالتأنيث[٧] مراعاةً للّفظ. والأوّل أوفق بمقام بيانِ اتّحاد الكلّ في حالة السقي ﴿بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ لا اختلاف في طبعه، سواء كان السقي بماء الأمطار أو بماء الأنهار.

﴿وَنُفَضِّلُ﴾ مع تآخذ أسباب التشابه بمحض قدرتنا واختيارنا ﴿بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر منها ﴿فِي الْأُكُلِ﴾ فيما يحصل منها مِن الثمر والطعم. وقُرئ بالياء[٨] على بناء الفاعل ردًّا على ﴿يُدَبِّرُ﴾ و﴿يُفَصِّلُ﴾[٩] و﴿يُغْشِي﴾.[١٠] وعلى بناء المفعول،[١١]

---

١ القِنْو: العِذق بما فيه مِن الرُّطَب. لسان العرب لابن منظور، «قنو».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة والمفضّل وعن عاصم مِن طريق القواس عن حفص. انظر: والكامل للهذلي، ص ٥٧٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٣.

٣ بنو قَيس قبيلة مِن مُضَر مِن العدنانيّة، وهم بنو قيس بن عَيلان، واسمه الناس -بـ"النون"- بن مضر. قال المؤيّد صاحب حماه: «وقد جعل الله في قَيس مِن الكثرة أمرًا حتّى كان منه عدّة قبائل». نهاية الأرب للقلقشندي، ٤٠٣/١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٤.

٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٩٧/٢.

٦ على قراءة الجرّ.

٧ أي: "تُسقَى". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٩٧/٢.

٨ أي: "وَيُفَضِّلُ". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٩٧/٢.

٩ الرعد، ٢/١٣.

١٠ في الآية السابقة.

١١ أي: "وَيُفَضَّلُ بَعْضُهَا". قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمَر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٤.

وفيه ما لا يخفى مِن الفخامة والدلالةِ مع أنّ عدم احتمال استناد الفعل إلى فاعل آخر مُغنٍ عن بناءِ الفعل للفاعل.[١]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي فصِّل مِن أحوال القِطَع والجنّات ﴿لَأٓيَـٰتٍ﴾ كثيرةً عظيمةً ظاهرةً ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ / يعملون على قضيّة عقولهم، فإنّ مَن عَقَلَ هذه [٢٣٢و] الأحوال العجيبة لا يَتَلَعْثَمُ في الجزم بأنّ مَن قدَر على إبداع هذه البدائع وخلقِ تلك الثمار المختلفة في الأشكال والألوان والطعوم والروائح في تلك القِطَع المتباينة المتجاورة وجَعْلِها حدائقَ ذات بهجة قادرٌ على إعادة ما أبداه؛ بل هي أهون في القياس.

وهذه الأحوال وإن كانت هي الآيات أنفسها -لا أنّها فيها- إلّا أنّه قد جُرّدت عنها أمثالُها مبالغة في كونها آية، فـ﴿فِي﴾ تجريديّة مثلَها في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ [فصلت، ٢٨/٤١]. أو المشار إليه الأحوال الكلّيّة والآياتُ أَفرادُها الحادثة شيئًا فشيئًا في الأزمنة وآحادُها الواقعة في الأقطار والأمكنة المشاهَدةُ لأهلها، فـ﴿فِي﴾ على معناها.

وحيث كانت دلالة هذه الأحوال على مدلولاتها أظهرَ ممّا سبق عُلّق كونها آياتٍ بمحض التعقّل، ولذلك لم يُتَعرّض لغير تفضيل بعضِها على بعض في الأكُل الظاهر لكلّ عاقل مع تحقّق ذلك في الخواصّ والكيفيّات ممّا يتوقّف العثور عليه على نوع تأمّل وتفكّرٍ، كأنّه لا حاجة في ذلك إلى التفكّر أيضًا. وفيه تعريض بأنّ المشركين غير عاقلين.

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ﴾ يا محمّد مِن شيء ﴿فَعَجَبٞ﴾ لا أعجبَ منه، حقيق بأن يُقصر عليه التعجّب ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾ بعد مشاهدة ما عُدّدَ لك مِن الآيات الشاهدة بأنّه تعالى على كلّ شيء قدير.

---

١ ط س: على الفاعل.

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ على طريقة الاستفهام الإنكاري المفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار. وهو في محلّ الرفع على البدليّة مِن ﴿قَوْلُهُمْ﴾ على أنّه بمعنى المَقُول، أو في محلّ النصب على المفعوليّة منه على أنّه مصدر. / فالعَجَب على الأوّل كلامُهم، وعلى الثاني تكلّمُهم بذلك. [٢٣٢ظ]

والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما دلّ عليه قوله: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو "نُبعَث أو نُعادُ". وتقديم الظرف لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إليه في حالةٍ منافيةٍ له. وتكرير الهمزة في قولهم: ﴿أَءِنَّا﴾ لتأكيد الإنكار.

وليس مدارُ إنكارهم كونَهم ثابتين في الخلق الجديد بالفعل عند كونهم ترابًا؛ بل كونُهم بعرضيّة ذلك واستعدادهم له. وفيه مِن الدلالة على عُتُوِّهم وتمادِيهم في النكير ما لا يخفى.

وقيل: وإن تعجَب مِن قولهم في إنكار البعث فعجَبٌ قولهم. والمآل وإن تعجَب فقد تعجّبت في موضع التعجّب. وقيل: وإن تعجَبِ مِن إنكارهم البعثَ فعجَبٌ قولهم الدالّ عليه، فتأمّل.

وقد جُوّز كون الخطاب لكلّ مَن يصلح له، أي: إن تعجَب يا مَن ينظر في هذه الآيات مِن قدرة مَن هذه أفعاله فَازْدَدْ تعجّبًا مِمَّن يُنكر مع هذه الدلائل قدرتَه تعالى على البعث، وهو أهون مِن هذه. والأنسب بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾[١] هو الأوّل.

وقوله: ﴿فَعَجَبٌ﴾ خبر قُدّم على المبتدأ للقصر والتسجيل مِن أوّل الأمر بِكون قولهم ذاك أمرًا عجيبًا. ويجوز أن يكون مبتدأً لكونه موصوفًا بالوصف المقدّر كما أشيرَ إليه. فالمعنى: وإن تعجَب فالعجَب الذي لا عجَب وراءه قولُهم هذا، فاعْجَب منه. وعلى الأوّل: وإن تعجَب فقولهم هذا عجَب لا عجَب فوقه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ والموصول خبره، أي: أولئك المنكِرون لقدرته تعالى على البعث ريثما عاينوا ما فُصِّل مِن الآيات الباهرة الملجِئة لهم إلى الإيمان به

---

١ في الآية التالية.

لو كانوا يبصرون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ وتمادَوْا فِي ذلك فإنّ إنكارهم لقدرته عزّ وجلّ كفر به، وأيّ كفر! ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي: مقيّدون بقيود الضلال / لا يُرجى خلاصهم، أو مغلولون يوم القيامة. [٢٣٣و]

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الصفات ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ لا ينفكّون عنها. وتوسيط ضمير الفصل ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعث خاصّة؛ بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة التي أُنذِرُوها. وذلك حين سَألوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أن يأتيهم بالعذاب استهزاءً منهم بإنذاره ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: العافية والإحسان إليهم بالإمهال، ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ﴾ أي: عقوبات أمثالهم مِن المكذّبين، فما لهم لا يعتبرون بها، ولا يحترزون حلول مثلِها بهم.

والجملة الحاليّة لبيان ركاكة رأيهم في الاستعجال بطريق الاستهزاء، أي: يستعجلونك بها مستهزئين بإنذارك، منكِرين لوقوع ما أنذرتهم إيّاه، والحال أنّه قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم مِن المكذّبين المستهزئين.

والمَثُلةُ بوزن السَّمُرة: العقوبةُ، سُمِّيت بها لِما بينها وبين المعاقَب عليه مِن المماثلة، ومنه المثال للقِصاص. وقُرِئ: "الْمُثُلَاتُ" بضمّتين[١] بإتباع الفاء العينَ. و"الْمَثْلَاتُ" بفتح الميم وسكون الثاء،[٢] كما يقال: السَّمْرة. و"الْمُثْلاتُ" بضمّ الميم وسكون الثاء[٣] تخفيف "الْمُثُلَاتُ". و"الْمُثَلَاتُ"[٤] جمع "مُثْلَة"، كرُكْبَةٍ ورُكَبات.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وابن قُطيب وأبي بكر وعاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة كذلك عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة ﴿لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أنفسَهم بالذنوب والمعاصي. ومحلّها النصب على الحاليّة، أي: ظالمين، والعامل فيه المغفرة، والمعنى: إنّ ربّك لغفور للناس، لا يعجّل لهم العقوبة وإن كانوا ظالمين؛ بل يمهلهم بتأخيرها.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يعاقب مَن يشاء منهم حين يشاء، / فتأخير ما استعجلوه ليس للإهمال. [٢٣٣ظ]

وعنه عليه السلام: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هَنأَ لأحدٍ العَيشُ، ولولا وعيده وعقابه لاتّكَل كلّ أحدٍ».[١]

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم المستَعجِلونَ أيضًا. وإنّما عُدِل عن الإضمار إلى الموصول ذمًّا لهم ونعيًا عليهم كُفْرَهم بآيات الله تعالى التي تخِرّ لها صُمّ الجبال، حيث لم يرفعوا لها رَأسًا، ولم يعدّوها مِن جنس الآيات، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مثلُ آيات موسى وعيسى عليهما السلام عِنادًا ومكابرةً، وإلّا ففِي أدنى آية أنزلت عليه عليه السلام غُنْية وعِبْرةٌ لأولي الألباب.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مرسَل للإنذار مِن سوء عاقبة ما يأتون ويذَرون،[٢] كدأب مَن قبلَك مِن الرسل، وليس عليك إلّا الإتيان بما يُعلَمُ به نبوّتُك، وقد حصل ذلك بما لا مزيد عليه، ولا حاجة إلى إلزامهم وإلقامهم الحجَر بالإتيان بما اقترحوا مِن الآيات.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ معيَّن، لا بالذات؛ بل بعنوان الهداية، يعني: لكلّ قوم نبيّ مخصوص له هداية مخصوصة يقتضي اختصاصَ كلّ منهم بما يختصّ به حِكَمٌ لا يعلمها إلّا الله تعالى، أو لِكلّ قوم هادٍ عظيمُ الشأن قادرٌ على ذلك هو الله سبحانه، وما عليك إلّا إنذارهم، فلا يهمَّنّك عنادهم وإنكارهم للآيات المنزّلة عليك وازدراؤهم بها.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧١/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٦/٣.

٢ س: وما يذرون.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ⑧﴾

ثمّ عقّبه بما يدلّ على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقَدَرِه المبنيَّين على الحِكَم والمصالح تنبيهًا على أنّ تخصيص كلِّ قوم / بنَبيّ وكلِّ نبيّ بجنس [٢٣٤و] معيّن مِن الآيات إنّما هو للحِكَم الداعية إلى ذلك إظهارًا لِكمال قدرته على هدايتهم، لكن لا يهدي إلّا مَن تعلّق بهدايته مشيئتُه التابعة لحِكمٍ استأثر بعلمها، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: تحمله. فـ﴿مَا﴾ موصولة أريدَ بها ما في بطنها مِن حين العُلوق إلى زمن الولادة، لا بعد تكامل الخلق فقط، والعِلم متعدٍّ إلى واحدٍ. أو أيَّ شيء تحمِل؟ وعلى أيّ حال هو مِن الأحوال المتواردة عليه طورًا فطورًا؟ فهي استفهاميّة معلِّقة للعِلم. أو حَمْلَها، فهي مصدريّة.

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي: تَنْقُصه وَتزداده فِي الجُثّة كالخديج والتامّ. وفي المدّة كالمولود في أقلّ مدّة الحمل والمولود في أكثرها وفيما بينهما. قيل: إنّ الضحّاك وُلِد في سنتين،[١] وهَرِم بن حيّان[٢] في أربع، ومِن ذلك سمّي هَرِمًا.[٣] وفي العدد كالواحد فما فوقه. يُروى أنّ شَريكًا[٤] كان رابعَ أربعة.[٥] أو يعلم نقصها وازديادها لِما فيها، فالفعلان متعدّيان، كما في قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود، ١١/٤٤]، وقولِه: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ [الكهف، ١٨/٢٥]، وقولِه: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف، ١٢/٦٥]، أو لازمان قد أُسنِدا إلى ﴿ٱلْأَرْحَامُ﴾ مجازًا، وهما لِما فيها.

---

١ جامع البيان للطبري، ١٣/٤٤٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٥.

٢ هرم بن حيّان العبدي البصري الأزدي مِن بني عبد قيس (ت. بعد ٢٦هـ/ بعد ٦٤٧م). قائد مِن كبار النسّاك والتابعين ولي بعض الحروب في أيّام عمر وعثمان رضي الله عنهم. حدّث عن عمر، وروى عنه الحسن البصري وغيره. عدّه ابن أبي حاتم في الزهّاد الثمانية، وسمّاه الجاحظ في النُّسّاك الزُّهّاد في أهل البيان. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/٤٨؛ والأعلام للزركلي، ٨/٨٢.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٧٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٥.

٤ هو شريك بن عبد الله بن أبي نمر المدني (ت. بعد ١٤٠هـ/٧٥٧م)، التابعي، المحدِّث. حدّث عن أنس، وسعيد بن المسيّب، وكريب، وعطاء بن يسار، وجماعة. وحدّث عنه مالك، وسليمان بن بلال، وعبد العزيز الدراوَرْدي، وإسماعيل بن جعفر، وأبو ضمرة الليثي. ورَوى عنه مِن الكبار سعيد المقبُري، وذلك في الصحيح. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٦/١٥٩؛ وتهذيب الكمال للمزي، ١٢/٤٧٥.

٥ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٥؛ اللباب لابن عادل، ١١/٢٦٠.

﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ﴾ مِن الأشياء ﴿عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ بقدرٍ لا يمكن تجاوزه عنه، كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر، ٤٩/٥٤]، فإنّ كلّ حادث مِن الأعيان والأعراض له في كلّ مرتبة مِن مراتب التكوين ومباديها وقت معيّن وحال مخصوص / لا يكاد يجاوزه. والمراد بالعنديّة الحضور العلميّ؛ بل العلم الحضوري، فإنّ تحقّق الأشياء في أنفسها في أيّ مرتبة كانت مِن مراتب الوجود والاستعداد لذلك عِلْم له بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ. [٢٣٤ظ]

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: الغائب عن الحِسّ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: الحاضر له. عُبّر عنهما بهما مبالغة. وقيل: أريدَ بـ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ المعدوم، وبـ﴿ٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الموجود. وهو خبر مبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر. وقُرئ بالنصب[١] على المدح. وهذا كالدليل على ما قبله مِن قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾... إلخ. ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ العظيم الشأنِ الذي كلّ شيء دونه ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كلّ شيء بقدرته، أو المنزّه عن نعوت المخلوقات.

وبعد ما بيّن سبحانه أنّه عالم بجميع أحوال الإنسان في مراتب فطرته ومحيطٌ بعَالَمَي الغيب والشهادة بيّن أنّه تعالى عالِم بجميع ما يأتون وما يذرون مِن الأفعال والأقوال، وأنّه لا فرق بالنسبة إليه بين السرّ والعلن، فقال: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ﴾ في نفسه ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أظهره لغيره، ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ﴾ مبالغٌ في الاختفاء، كأنّه مُخْتَفٍ ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ وطالِبٌ للزيادة ﴿وَسَارِبُۢ﴾ بارز يراه كلّ أحد ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ مِن "سَرَب سُروبًا"، أي: برز. وهو عطفٌ على ﴿مَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ﴾، أو على ﴿مُسۡتَخۡفِۭ﴾، و﴿مَن﴾ عبارة عن الاثنين،

[١] أي: "عَالِمَ الغَيْبِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

كما في قوله:

تـعـالَ فَـإنْ عَـاهَـدْتَـنِـي لا تخونني نكُـنْ مثلَ مَـن يَـا ذِئـبُ يصطَحِبانِ[١]

كأنّه قيل: سواء منكم اثنان: مُستخفٍ بالليل، وسارِبٌ بالنهار. والاستِواء وإن أُسند إلى مَن أسرّ ومَن جهَر وإلى المستخفي والسارِب لكنّه في الحقيقة مسنَد إلى ما أسرّه وما جهر به، أو إلى الفاعل مِن حيث هو فاعل، كما في الأخيرين. وتقديم الإسرار والاستخفاء لإظهار كمال علمه تعالى، فكأنّه في التعلّق / بالخفيّات أقدم منه بالظواهر، وإلّا فنسبته إلى الكلّ سواء لِما عرفته آنفًا. [٢٣٥و]

﴿لَهُۥ﴾ أي: لكلّ ممّن أسرّ أو جهر، والمستخفي والسارب ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ ملائكة تَعتَقِب في حفظه."معقِّبة"، مِن "عقَّبه" مبالغةِ "عَقَبَهُ" إذا جاء على عَقِبه، كأنّ بعضهم يعقِّب بعضًا، أو لأنّهم يعقِّبون أقواله وأفعاله فيكتبونه. أو اعتَقَب، فأُدغمت التاء في القاف، والتاءُ للمبالغة. أو المراد بـ"المعقِّبات" الجماعات. وقُرئ: "مَعَاقِيبُ"[٢] جمع "مُعَقِّب" أو "مُعَقِّبة"، على تعويض الياء مِن إحدى القافين.[٣]

﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ مِن جميع جوانبه، أو مِن الأعمال ما قدّم وأخّر، ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ مِن بأسه حين أذنب بالاستمهال والاستغفار له. أو يحفظونه مِن المَضارّ. أو يراقبون أحواله مِن أجل أَمْر الله تعالى. وقد قُرئ به.[٤] وقيل: ﴿مِنۡ﴾ بمعنى الباء. وقيل: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ صفة ثانية لـ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾. وقيل: "المُعقِّبات" الحُرّاس والجَلَاوِزَةُ حَول السلطان يحفظونه في توهّمه مِن قضاء الله تعالى.

---

[١] للفرزدق في ديوانه، ص ٥٩٠، بلفظ:
تـعَـشَّ فـإن واثَـقْـتَـنِي لا تَـخونُـني
نكنْ مثلَ مَنْ يا ذئبُ يصطحبانِ

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرَهْسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

[٣] هذا قول الزمخشري في الكشّاف، ٢/٥١٧. ونقل أبو حيّان عن ابن جنّي قوله: «هو تكسير مُعْقِب بسكون العين وكسر القاف، كمُطْعِم ومَطاعيم، ومُقْدِم ومَقاديم، وكان مُعْقِبًا جمع على مَعاقِبة، ثمّ جعلت الياء في "مَعَاقِيب" عوضًا مِن الهاء المحذوفة في مَعاقِبة». البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٣٦١.

[٤] أي: "يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ الله". وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن عبّاس رضي الله عنهم وعكرمة وزيد بن عليّ وجعفر بن محمّد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ مِن النعمة والعافية ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ مِن الأعمال الصالحة أو ملَكاتها التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها إلى أضدادها، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فلا ردّ له. والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما دلّ عليه الجواب.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ يلي أمرهم، ويدفع عنهم السوءَ الذي أراده الله بهم بما قدّمت أيديهم مِن تغيير ما بهم. وفيه دلالة على أنّ تخلّف مراده تعالى مُحال، وإيذان بأنّهم بِما باشروه مِن إنكار البعثِ واستعجال السيّئة واقتراح الآية قد غيّروا ما بأنفسهم مِن الفطرة، واستحقّوا لِذلك حلولَ غضب الله تعالى وعذابه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾

[٢٣٥ظ] ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ مِن الصاعقة ﴿وَطَمَعًا﴾ / في المطر. فوجه تقديم "الخوف" على "الطمَع" ظاهر، لِما أنّ المَخوف عليه النفس أو الرزق العَتيد،[1] والمطموعَ فيه الرزق المترقَّب. وقيل: الخوفُ أيضًا مِن المطر، لكنّ الخائف منه غير الطامع فيه، كالخزّاف والحرّاث. ويأباه الترتيب، اللّهمّ إلّا أن يُتكلّف ما أشيرَ إليه مِن أنّ المَخوف عليه[2] عتيد، والمطموع فيه مترقَّب.

وانتصابهما إمّا على المصدريّة، أي: فيخافون خوفًا، ويطمَعون طمَعًا، أو على الحاليّة مِن ﴿ٱلْبَرْقَ﴾، أو المخاطَبين بإضمار "ذوي"، أو بجَعل المصدرِ بمعنى المفعول أو الفاعل مبالغةً، أو على العلّيّة بتقدير المضاف، أي: إرادةَ خوف وطمع، أو بتأويل الإخافة والإطماع؛ ليتّحد فاعل العلّة والفعل المعلّل. وأمّا جَعلُ المعلَّل هي الرؤيةَ التي يتضمّنها الإراءة، على طريقة قول النابغة:

وحلّت بيوتي في يفاعٍ ممنّع ... تَخال به راعي الحَمولة طائرا
حِذارًا على أن لا يُنال معادني ... ولا نِسوَتي حتّى يمُتنَ حرائرا[3]

---

١ العَتيد: الحاضر المهيّأ. الصحاح للجوهري، «عتد».

٢ م ط س – عليه ["صح" في هامش م]. | فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٣ ديوان النابغة الذبياني، ص ١٣٣-١٣٤. بلفظ: "على ألّا تُنال مقادتي" بدل "على ألّا ينال معادني".

أي: أحللت بيوتي حذارًا، فلا سبيل إليه؛ لأنّ ما وقع في معرض العلّة الغائيّة -لا سيّما الخوف- لا يصلح علّةً لرؤيتهم.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ الغمام المنسحب في الجوّ ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ بالماء، وهي جمعُ "ثقيلة"، وُصف بها السحاب لكونها اسم جنس في معنى الجمع، والواحدة سحابة، يقال: سحابة ثقيلة، وسحاب ثِقال، كما يقال: امرأة كريمة، ونسوة كِرام.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ أي: سامعوه مِن العباد الراجين للمطر ملتبسين ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: يضجّون بـ"سبحان الله، والحمد لله". وإسناده إلى ﴿ٱلرَّعْدُ﴾ لحمله لهم على ذلك. أو يسبّح الرعد نفسه، على أنّ تسبيحه عبارة عن دلالته على وحدانيّته تعالى وفضله المستوجب لحمده.

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان يقول: «سبحان مَن يسبّح الرعد بحمده».[١] وإذا اشتدّ يقول: «اللّٰهمّ لا تقتلْنا بغضبك، ولا تُهلِكنا بعذابك، وعَافِنا قبلَ ذلك».[٢] وعن عليّ كرّم الله تعالى[٣] وجهه: «سبحان مَن سَبَّحْتَ له».[٤]

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ اليهود سألت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الرعد فقال: «ملَك مِن الملائكة موكَّل / بالسحاب، معه مَخَارِيقُ مِن نارٍ يسوق بها السحابَ».[٥] وعن الحسَن: «خلقٌ مِن خلق الله تعالى، ليس بملَك».[٦] [٢٣٦و]

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: يسبّح الملائكة ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ مِن هيبته وإجلاله جلّ جلاله. وقيل: الضمير لـ﴿ٱلرَّعْدُ﴾.

---

[١] جامع البيان للطبري، ٤٧٧/١٣. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، ص ٢٥٢ (٧٢٣)، مِن قول عبد الله بن الزبير.

[٢] مسند الإمام أحمد، ٤٨/١٠ (٥٧٦٣)؛ سنن الترمذي، ٥٠٣/٥ (٣٤٥٠).

[٣] ط س - تعالى.

[٤] جامع البيان للطبري، ٤٧٧/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٨/٢.

[٥] سنن الترمذي، ٢٩٤/٥ (٣١١٧)؛ الدعاء للطبراني، ١٢٦١/٢ (٩٨٦).

[٦] الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٢؛ اللباب لابن عادل، ٢٧٤/١١.

﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فيهلكه بذلك، ﴿وَهُمۡ﴾ أي: الكفرة المخاطَبون في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾.[١] وقد التُفِت إلى الغيبة إيذانًا بإسقاطهم عن درجة الخطاب، وإعراضًا عنهم، وتعديدًا لِجناياتهم لدى كلّ مَن يستحقّ الخطاب، كأنّه قيل: هو الذي يفعل أمثال هذه الأفاعيل العجيبة مِن إراءة البرق وإنشاءِ السحاب الثِّقال وإرسال الصواعق الدالّة على كمال علمه وقدرته، ويعقلها مَن يعقلها مِن المؤمنين.

أو الرعدُ[٢] نفسه، أو الملَكُ الموكّل به والملائكة، ويعملون بموجب ذلك مِن التسبيح والحمد والخوف مِن هيبته تعالى، ﴿وَهُمۡ﴾ أي: الكفَرة الذين حُكِيَتْ هناتهم مع ذُلّهم وهَوَانِهم وحقَارة شأنِهم ﴿يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في شأنه تعالى حيث يفعلون ما يفعلون مِن إنكار البعث واستعجال العذاب استهزاءً واقتراح الآيات.

فـ"الواو" لعطف الجملة على ما قبلها مِن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾... إلخ،[٣] أو على قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ﴾... إلخ.[٤] وأمّا العطفُ على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٥] كما قيل فلا مجالَ له؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾... إلخ[٦] استئناف لبيان بطلان قولِهم ذلك ونظائرِه مِن استعجال العذاب وإنكار البعث، قاطعٌ لعطف ما بعده على ما قبله. وقيل: للحال، أي: فيصيب بالصواعق مَن يشاء وهم في الجدال.

وقد أريدَ به ما أصاب أَرْبَدَ بنَ ربيعة أخا لبيدٍ فإنّه أقبل مع عامر بن الطفيل[٧] / إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبغِيانه الغوائل، فدخلا المسجد [٢٣٦ظ]

---

١ في الآية السابقة.

٢ السياق: أي: سامعوه... أو الرعد...

٣ في الآية السابقة.

٤ الرعد، ٨/١٣.

٥ الرعد، ٧/١٣.

٦ الرعد، ٨/١٣.

٧ هو عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري الجعفري. كان سيّدَ بني عامر في الجاهليّة. اختُلف في إسلامه، فأورده المستغفِري في الصحابة. قال ابن الأثير: «قول المستغفري وغيره ليس بحجّة في إسلام عامر، فإنّ عامرًا لم يَختلف أهل النقل مِن المتقدّمين أنّه مات كافرًا، وقد دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليه وعلى أربد، فقال: "اللّهمّ اكفنيهما بما شئت"، فأنزل الله تعالى على أربد صاعقة، وأخذت عامرًا الغدّة، فكان يقول: "غُدّة كغُدّة البعير، وموت في بيت سلوليّة"». انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ١٢٤/٣.

وهو عليه السلام جالس في نفر مِن الأصحاب رضي الله عنهم فاستشرفوا لِجَمالِ عامرٍ، وكان مِن أجمل الناس، وقد كان أَوْصَى إلى أَرْبَدَ أنّه إذا رَأَيْتَنِي أُكلِّمُ محمّدًا عليه السلام فَدُرْ مِن خَلفِه واضربه بالسيف. فَجَعَل يكلّمه عليه السلام فدَارَ أَرْبَدُ مِن خلفه عليه السلام،[١] فاخترَط مِن سيفه شِبْرًا فحبسه الله تعالى فلم يقدِر على سَلِّه، وجعل عامر يومئ إليه، فرأى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الحال، فقال: «اللّٰهمّ اكْفِنيهِما بما شئت». فأرسل الله عزّ وجلّ على أَرْبَدَ صَاعقةً في يوم صَحْوٍ صائفٍ فأحرقته، ووَلّى عامر هاربًا، فنزل في بيت امرأة سلوليّة، فلمّا أصبح ضمّ عليه سلاحه، وتغيّر لَونُه، وركب فرسَه، فَجعل يَرْكُض في الصحراء، ويقولُ: «ابْرُزْ يا ملَك الموت»، ويقول الشِّعر، ويقول: «واللاتِ لئن أصحَرَ[٢] لي محمّد وصاحبه -يعني: ملك الموت- لأنفذتُهما برمح». فأرسل الله تعالى ملَكًا فلطمه بجناحه، فأزداه في التراب، فخرجت على ركبته في الوقت غُدّة عظيمة، فعاد إلى بيت السلوليّة وهو يقول: «غُدّة كَغُدّة البعير ومَوْتٌ في بيت سلوليّة»، ثمّ دعا بفرسه فركبه، فأجراه حتّى مات على ظهره.[٣]

وقيل: أريدَ به ما رُوي عن الحسَن أنّه كان رجل مِن طواغيت العرب فبعث النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم نفرًا مِن أصحابه يَدْعونه إلى الله عزّ وجلّ، فقال لهم: «أخبروني عمّا تدعونني إليه ما هو وممّ هو؟ مِن ذهب، أم مِن فضّة، أم مِن نحاس، أم مِن حديد، أم مِن دُرّ؟» فاستعظموا مقالته فرجعوا إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: «ما رأينا رجلًا أكفر قَلْبًا ولا أعتى على الله منه»، فقال عليه السلام: «ارجعوا إليه»، فرجعوا إليه، فما زاد إلّا مقالته الأولى وأخبث، فرجعوا إليه عليه السلام وأخبروا بما صنع، فقال عليه السلام: «ارجعوا إليه» فرجعوا إليه، فبَينما هُم عنده ينازعونه إذ ارتفعت سحابة ورعَدت وبرقت / ورمت بصاعقة فاحترق الكافر، فجاءوا يسعَون ليخبروه عليه السلام بالخبر، [٢٣٧و]

---

١ ط س - عليه السلام.

٢ أصحَر الرجل، أي: خرجَ إلى الصحراء. الصحاح للجوهري، «صحر».

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٧/٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٣/٣.

فاستقبلهم الأصحاب، فقالوا: «احترق صاحبكم»، قالوا: «مِن أين علمتم؟» قالوا: «أوحي إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم».[١]

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي: والحال أنّه شديد المماحلة والمكابرة والمماكرة لأعدائه. مِن "محَله" إذا كاده وعرّضه للهلاك. ومنه "تمحّل" إذا تكلّف استعمالَ الحِيَل. وقيل: هو "مِحال" مِن "المَحْل" بمعنى القوّة. وقيل: محوّل مِن "الحول" أو "الحيلة"، أُعِلَّ على غير قياس. ويعضُده أنّه قُرئ بفتح الميم[٢] على أنّه مَفعَل مِن حالَ يحول إذا احتال. ويجوز أن يكون بمعنى الفِقار، فيكون مثلًا في القوّة والقدرة، كقولهم: «فساعِدُ الله أشدّ، ومُوساه أحدّ».[٣]

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الدعوة الثابتة الواقعة في محلّها، المجابة عند وقوعها. والإضافة للإيذان بملابستها للحقّ واختصاصها به، وكونه بمَعزِل مِن شائبة البطلان والضياع والضلال، كما يقال: كلمة الحقّ. وقيل: له دعوة الله سبحانه، أي: الدعوة اللائقة بحضرته، كما في قوله عليه السلام: «فمَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله»،[٤] والتعرّضُ لوصف الحقّيّة لتربية معنى الاستجابة. والأَولى هو الأوّل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

وتعلّقُ الجملتين بما قبلهما مِن حيث إنّ إهلاك أربَد وعامر مِحَال مِن الله تعالى وإجابة لدعوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليهما إن كانت الآية

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٠/٥؛ اللباب لابن عادل، ٢٧٧/١١.

٢ أي: "المَحَال". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

٣ قطعة مِن حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٤٦٤/٢٨ (١٧٢٢٨)، عن أبي الأحوَص، عن أبيه، قال: أتيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فصعّد فيّ النظر وصوّب، وقال: «أرَبّ إبل أنت أو رَبّ غنم؟» قال: مِن كلٍّ قد آتاني الله، فأكثر وأطيب، قال: «فتُنتِجها وافيةً أعينُها وآذانُها، فتَجدع هذه، فتقول: صَرما، وتقول: بَحيرةَ الله؟ فساعِدُ الله أشدّ، ومُوساه أحدّ»... الحديث. قال ابن الأثير: «أي: لو أراد الله تحريمها بشقّ آذانها لخلقها كذلك، فإنّه يقول لها: كوني، فتكون». النهاية لابن الأثير، «سعد».

٤ صحيح البخاري، ٢٠/١ (٥٤)؛ صحيح مسلم، ١٥١٥/٣ (١٩٠٧).

نزلت في شأنهما، أو مِن حيث إنّه وعيد للكفرة على مجادلة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بحلول مِحَالِه بهم، وتحذيرٌ لهم بإجابة دعوته عليهم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي: الأصنامَ الذين يدعوهم المشركون، فحُذف العائد.

[٢٣٧ظ] ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ مِن دون الله عزّ وجلّ ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ / مِن طلباتهم ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ أي: إلّا استجابة كائنة كاستجابة الماء لمَن بسَط كفّيه إليه مِن بعيدٍ. فالاستجابة مصدر مِن المبنيّ للفاعل على ما يقتضيه الفعل الظاهر، أعني: ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ﴾. ويجوز أن يكون مِن المبنيّ للمفعول، ويضاف إلى الباسط بناءً على استلزام المصدر مِن المبنيّ للفاعل للمصدر مِن المبنيّ للمفعول وجودًا وعدمًا، فكأنّه قيل: لا يستجيبون لهم بشيء، فلا يستجاب لهم استجابةٌ إلّا استجابةً كائنة كاستجابة مَن بسَط كفّيه إلى الماء، كما في قوله:

وعَضّةُ دهر يا ابنَ مروان لم يَدَعْ   مِن المال إلّا مُسْحَتٌ أو مجلّفُ[1]

أي: لم يدع فلم يبقَ إلّا مُسحَتٌ أو مجلَّفُ.

﴿لِيَبۡلُغَ﴾ أي: الماء بنفسه مِن غير أن يؤخذ بشيء مِن الإناء ونحوه ﴿فَاهُ وَمَا هُوَ﴾ أي: الماء ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾ ببالغ فيه أبدًا؛ لكونه جمادًا لا يشعر بعطشه، ولا يبسط يده إليه فضلًا عن الاستطاعة لِما أراده مِن البلوغ إلى فيه.

شُبّه حال المشركين في عدم حصولهم في دعاء آلهتهم على شيء أصلًا ورَكاكة رأيهم في ذلك بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل، قد بسط كفّيه مِن بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فيه، مِن غير ملاحظة التشبيه في جميع مفردات الأطراف، فإنّ الماء في نفسه شيء نافع بخلاف آلهتهم. والمراد نفي الاستجابة رأسًا إلّا أنّه قد أُخرج الكلام مُخرج التهكّم بهم فقيل: لا يستجيبون لهم شيئًا مِن الاستجابة إلّا استجابةً كائنة في هذه الصورة التي ليست فيها شائبة الاستجابة قطعًا، فهو في الحقيقة مِن باب التعليق بالمُحال.

---

[1] للفرزدق في ديوانه، ١١٧/٢، بلفظ: وعَضُّ زمانٍ يا ابنَ مروانَ لم يدَع   مِن المال إلّا مُسْحَتًا أو مُجرَّفُ

وقُرئ: "تَدْعُونَ" بالتاء،[١] و"كَبَاسِطٍ" بالتنوين.[٢]

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: ذهاب وضياع وخسار.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ﴾ وحدَه ﴿يَسْجُدُ﴾ يخضع وينقاد لا لشيء غيره استقلالًا ولا اشتراكًا، فالقصر ينتظم القلبَ والإفراد ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن الملائكة والثقَلَين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: طائعِين وكارهين، أو انقيادَ طوعٍ وكَرهٍ، أو حالَ طوعٍ وكَرهٍ، فإنّ خضوع الكلّ لعظمة الله عزّ وجلّ وانقيادَه / لإحداث ما أراده فيهم مِن أحكام التكوين والإعدام شاءُوا أو أَبَوا، وعدمَ مداخلة حكم غيره -بل غيرِ حكمه تعالى- في تلك الشئون ممّا لا يخفى على أحدٍ. [٢٣٨و]

﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ أي: تنقاد له تعالى ظلالُ مَن له ظلّ منهم، أعني: الإنس، حيث يتصرّف على مشيئته وتتأتّى لإرادته في الامتداد والتقلّص والفَيء والزوال ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ ظرف للسجود المقدّر، أو حال مِن "الظِّلال". وتخصيص الوقتين بالذكر مع أنّ انقيادها متحقِّق في جميع أوقات وجودها لظهور ذلك فيهما.

و﴿ٱلْغُدُوِّ﴾ جمع "غَداة"، كـ"فُتِيّ" في جمع "فتاةٍ"، و﴿ٱلْءَاصَالِ﴾ جمع "أَصِيل"، وقيل: جمع "أُصُلٍ"، وهو جمع "أصيل"؛ وهو ما بين العصر والمغرب. وقيل: ﴿ٱلْغُدُوِّ﴾ مصدر، ويؤيّده أنّه قُرئ: "وَالْإِيصَالِ"،[٣] أي: الدخول في الأصيل.

هذا وقد قيل: إنّ المراد حقيقةُ السجود، فإنّ الكفرة حالَ الاضطرار -وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿وَكَرْهًا﴾- يخصّون السجود به سبحانه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا[٤] رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت، ٦٥/٢٩]. ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهامًا وعقولًا بها تسجد لله سبحانه كما خلقها للجبال

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليزيدي وهارون النحوي عن أبي عمرو وعن الأعمش. انظر: الكامل للهذلي، ص ٥٧٨؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٦.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرَهْسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٦.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي مِجلز لاحِق السدوسي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٦.

[٤] م س: وإذا.

حتّى اشتغلت بالتسبيح، وظهر فيها آثار التجلّي، كما قاله ابن الأنباري.[١] ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهَد فيها مِن هيئة السجود تبعًا لأصحابها.

وأنت خبير بأنّ اختصاص سجود الكافر حالةَ الضرورة والشدّة بالله سبحانه لا يُجدي، فإنّ سجودهم لأصنامهم حالةَ الرخاء مُخِلّ بالقَصر المستفاد مِن تقديم الجارّ والمجرور، فالوجه حمل السجود على الانقياد، ولأنّ تحقيق انقياد الكلّ في الإبداع والإعدام له تعالى أدخَل في التوبيخ على اتّخاذ أولياء مِن دونه مِن تحقيق سجودهم له تعالى.

وتخصيص انقياد العقلاء بالذِّكر مع كون غيرِهم أيضًا كذلك لأنّهم العمدة، وانقيادهم دليل انقياد غيرهم، على أنّه بيِّن ذلك بقوله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

[٢٣٨ظ] ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ / فإنّه لتحقيق أنّ خالقهما ومتولّي أمرَهما -مع ما فيهما على الإطلاق- هو الله سبحانه.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أمرٌ بالجواب مِن قِبَله عليه السلام إشعارًا بأنّه متعيّن للجوابيّة، فهو والخصم في تقريره سواء، أو أمر بحكاية اعترافهم إيذانًا بأنّه أمر لا بدّ لهم مِن ذلك، كأنّه قيل: احكِ اعترافَهم فبكِّتْهُم بما يلزمهم مِن الحجّة وألقِمْهم الحجَر، أو أمرٌ بتَلقينهم ذلك إن تَلَعْثَمُوا في الجواب حذرًا مِن الإلزام، فإنّهم لا يتمالَكون إذ ذاك، ولا يقدرون على إنكاره.

﴿قُلْ﴾ إلزامًا لهم وتبكيتًا: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم﴾ لأنفسكم. و"الهمزة" لإنكار الواقع، كما في قولك: "أَضَربتَ أباك؟"، لا لإنكار الوقوع، كما في قوله: "أَضَربْتُ أبي؟". و"الفاء" للعطف على مقدّر بعد "الهمزةِ"، أي: أَعَلِمتم أنّ ربّهما هو الله

---

١ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٦٩/٦؛ اللباب لابن عادل، ٢٨٢/١١.

الذي ينقاد لأمره مَن فيهما كافّةً فاتّخذتم ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ عاجزين ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا﴾ يستجلبونه ﴿وَلَا ضَرّٗا﴾ يدفعونه عن أنفسهم فضلًا عن القدرة على جلب النفع لغيره، ودفع الضرر عنه، لا على أن يكون الإنكار متوجّهًا إلى المعطوفين معًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤/٢]، إذا قدّر المعطوف عليه: "ألَا تَسمعون"؛ بل إلى ترتّب الثاني على الأوّل مع وجوب أن يترتّب عليه نقيضُه.[١]

والمعنى: أَبَعْدَ أن علِمتم أنّ ربَّهما هو الله جلّ جلاله اتّخذتم مِن دونه أولياءَ عجَزَةً، والحال أنّ قضيّة العلم بذلك إنّما هو الاقتصار على تولّيه، فعكستم الأمر؟ كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف، ٥٠/١٨]. ووصفُ "الأولياءِ" ههنا بعدم المالكيّة للنفع والضرّ في ترشيح الإنكار وتأكيده كتقييد الاتّخاذ هناك بالجملة الحاليّة، أعني قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ [الكهف، ٥٠/١٨]، فإنّ كلًّا منهما / ممّا ينفي [٢٣٩و] الاتّخاذ المذكور ويؤكّد إنكارَه.

﴿قُلۡ﴾ تصويرًا لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ الذي هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحِقّها ﴿وَٱلۡبَصِيرُ﴾ الذي هو الموحِّد العالِم بذلك. أو الأوّل عبارة عن المعبود الغافل، والثاني إشارة إلى المعبود العالِم بكلّ شيء. ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ التي هي عبارة عن الكفر والضلال ﴿وَٱلنُّورُ﴾ الذي هو عبارة عن التوحيد والإيمان، وقُرئ بالياء.[٢]

ولمّا دلّ النظم الكريم على أنّ الكفرة فيما فعلوا مِن اتّخاذ الأصنام أولياء مِن دون الله سبحانه في الضلال المحض والخطأ البحت بحيث لا يخفى بطلانه على أحد، وأنّهم في ذلك كالأعمى الذي لا يهتدي إلى شيء أصلًا، وليس لهم في ذلك شبهة تصلُح أن تكون منشأً لغلطهم وخطئهم فضلًا عن الحجّة، أُكِّدَ ذلك فقيل:

---

[١] وفي هامش م: كما إذا قُدّر: "أتَسمَعون؟". «منه».

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٩٧/٢.

﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ﴾ أي: بل أجَعلُوا له ﴿شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ﴾ سبحانه، و"الهمزة" لإنكار الوقوع، لا لإنكار الواقع مع وقوعه، وقوله: ﴿خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ﴾ هو الذي يتوجّه إليه الإنكار، وأمّا نفس الجعل فهو واقع لا يتعلّق به الإنكار بهذا المعنى. والمعنى: أنّهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ بسبب ذلك وقالوا: هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى، فاستحقّوا بذلك العبادةَ كما استحقّها، ليكون ذلك منشأً لخطئهم؛ بل إنّما جعلوا له شركاء ما هو بمَعزِل مِن ذلك بالمرّة. وفيه ما لا يخفى مِن التعريض بركاكة رأيهم، والتهكّم بهم.

﴿قُلِ﴾ تحقيقًا للحقّ وإرشادًا لهم إليه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كافّةً، لا خالقَ سواه فيشارِكه في استحقاق العبادة ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتوحّد بالألوهيّة، المتفرّد بالربوبيّة، ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ لكلّ ما سواه، فكيف يُتوهَّم أن يكون له شريك؟

[٢٣٩ظ] وبعد ما مُثِّل المشرك والشِّرك بـ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ و﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾، / والموحّد والتوحيد بـ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ و﴿ٱلنُّورُ﴾ مُثِّل الحقّ الذي هو القرآن العظيم في فيضانه مِن جناب القدس على قلوبٍ خالية عنه متفاوتةِ الاستعداد، وفي جريانه عليها ملاحظةً وحِفظًا، وعلى الألسنة مذاكرةً وتلاوةً، وفي ثباته فيها مع كونه مُمِدًّا لِحَياتها الروحانيّة وما يتلوها مِن الملَكات السنيّة والأعمال المرضيّة، بالماء النازل مِن السماء، السائلِ في أودية يابسة لم تجرِ عادتها بذلك، سَيَلَانًا مُقَدَّرًا بمِقدارٍ اقتضَتْه الحكمة في إحياء الأرض وما عليها، الباقِي فيها حسبما يدور عليه منافع الناس، وفي كونه حِلية يتحلّى به النفوس، وتصل إلى البَهجة الأبديّة، ومتاعًا يُتمتّع به في المعاش والمعاد؛ بالذهب والفضّة وسائر الفِلِزّات[١] التي يُتّخذ منها أنواع الآلات والأدوات، وتبقى منتفَعًا بها مدّةً طويلة.

ومُثِّل الباطِلُ الذي ابتُلِي به الكفرة لقُصورِ نظرهم بما يظهر فيهما مِن غير مداخلة له فيهما وإخلالٍ بصَفائهما مِن الزبَد الرابي فوقَهما المُضمَحِلّ سريعًا، فقيل:

---

[١] الفِلِزّات جمع الفِلِزّ؛ وهو جميع جواهر الأرض مِن الذهب والفضّة والنحاس وأشباهها. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فلز».

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مِن جهتها ﴿مَآءً﴾ أي: كثيرًا، أو نوعًا منه، وهو ماء المطر ﴿فَسَالَتْ﴾ بذلك ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ واقعة في مواقعه، لا جميع الأودية، إذ الأمطار لا تستوعب الأقطار. وهو جمع "وادٍ"، وهو مَفرَجٌ بين جبالٍ أو تِلال أو آكام على الشذوذ، كنادٍ وأندية، وناجٍ وأنجية. قالوا: وَجهُه أنّ "فاعلًا" يجيء بمعنى "فَعيل"، كناصر ونصير، وشاهد وشهيد، وعالِم وعليم. وحيث جُمع "فَعيل" على "أفعِلة" -كجَريب وأجْرِبة- جُمِع "فاعل" أيضًا على "أَفعِلة"، فإن أريدَ بها ما يسيل فيها مجازًا فإسناد السيلان إليها حقيقي، وإن أريدَ معناها الحقيقي فالإسناد مجازي، كما في "جرى النهرُ". وإيثار التمثيل بها على الأنهار المستمرّة الجريان لوضوح المماثلة بين شأنها وشأن ما مثّل بها كما أشيرَ إليه.

﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي: سالت ملتبِسةً بمِقدارها الذي / عيّنه الله تعالى واقتضته حكمته في نفع الناس، أو بمقدارها المتفاوِت قلّةً وكثرةً بحسب تفاوُت محالّها[1] صِغَرًا وكِبَرًا، لا بكونها مالئةً لها منطبِقةً عليها؛ بل بمجرّد قِلّتها بصِغرها المستلزِم لقِلّة موارد الماء وكثرتها بكِبَرها المستدعي لكثرة الموارد، فإنّ مَورِد السيل الجاري في الوادي الصغير أقلُّ مِن موارد السيل الجاري في الوادي الكبير. [٢٤٠و]

هذا إن أريدَ بالأودية ما يسيل فيها، أمّا إن أريدَ بها معناها الحقيقي فالمعنى: سالت مياهها بقدر تلك الأودية على نحو ما عرفته آنفًا، أو يراد بضميرها مياهُها بطريق الاستخدام،[2] ويراد بـ﴿قَدَرِهَا﴾ ما ذُكر أوّلًا مِن المعنيَين.

---

[1] ط س: محلّها. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[2] الاستخدام: هو أن يُذكر لفظ له معنيان، فيُراد به أحدُهما، ثمّ يُراد بالضمير الراجع إلى ذلك اللفظ معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحد معنييه، ثمّ بالآخر معناه الآخر. التعريفات للجرجاني، ص ٢٢.

﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ﴾ الجاري في تلك الأودية، أي: حَملَ معه ﴿زَبَدًا﴾ أي: غُثاءً ورغوةً، وإنّما وُصِف ذلك بقوله تعالى: ﴿رَّابِيًا﴾ -أي: عاليًا منتفخًا فوقه- بيانًا لِما أريدَ بالاحتمال المحتمِل لكون الحَمِيل غيرَ طافٍ كالأشجار الثقيلة. وإنّما لم يُدْفَعْ ذلك الاحتمال -بأن يقال: فاحتمل السيل فوقَه- للإيذان بأنّ تلك الفوقيّة مقتضى شأن الزبَد، لا مِن جهة المحتمِل تحقيقًا للمماثلة بينه وبين ما مثّل به مِن الباطل الذي شأنه الظهور في بادي الرأي مِن غير مداخلة في الحقّ.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: يفعلون الإيقاد عليه كائنًا في النار. والضمير للناس، أُضمِر مع عدم سبق الذِّكر لظهوره. وقُرئ بالخطاب.[١] ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ أي: لِطلب اتّخاذِ حلية؛ وهي ما يُتزيّن ويُتجمَّلُ به، كالحُلِيّ المتّخذة مِن الذهب والفضّة، أو اتّخاذِ متاعٍ؛ وهو ما يُتمتَّع به مِن الأواني والآلات المتّخَذة مِن الرصاص والحديد وغير ذلك مِن الفِلِزَّات. ﴿زَبَدٞ﴾ خَبَثٌ ﴿مِّثۡلُهُۥ﴾ مثل ما ذُكر مِن زبَد الماء في كونه رابيًا فوقَه. فقوله: ﴿زَبَدٞ﴾ مبتدأ خبره الظرف المقدَّم.

[٢٤٠ظ] و﴿مِن﴾ ابتدائيّة دالّة على مجرّد كونه مبتدِأً وناشِئًا منه، لا تبعيضيّة / معرِبة عن كونه بعضًا منه كما قيل،[٢] لِإخلالِ ذلك بالتمثيل. وفي التعبير عن ذلك بالموصول والتعرّضِ لِما في حيّز الصلة مِن إيقادِ النار عليه جَرْيٌ على سَنن الكبرياء بإظهار التهاون به، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص، ٣٨/٢٨]، وإشارة إلى كيفيّة حصول الزبَد منه بذَوَبانِه.

وفي زيادة ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ إشعار بالمبالغة في الاعتمال للإذابة وحصولِ الزبَد كما أشيرَ إليه. وعدم التعرّض لإخراجه مِن الأرض لعدم دخل ذلك العنوان في التمثيل، كما أنّ لعنوان إنزال الماء مِن السماء دخلًا فيه حسبما فُصّل فيما سلف؛ بل له إخلال بذلك.

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٩٧/٢.

[٢] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٢٣/٢؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ١٨٥/٣.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثل ذلك الضرب البديع المشتمِل على نُكت رائقة ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: مَثَلَ الحقِ ومَثَلَ الباطلِ، والحذف للإنباء عن كمال التماثل بين الممثَّل والممثَّل به، كأنّ المَثَل المضروب عينُ الحقّ والباطل.

وبعد تحقيق التمثيل مع الإيماء في تضاعيف ذلك إلى وجوه المماثلة على أبدع وجوهٍ وآنقِها حسبما أشيرَ إليه في مواقعها بُيّن عاقبة كلّ مِن الممثّلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض ما به المماثلة مِن الذهاب والبقاء تتمّةً للغرض مِن التمثيل مِن الحثّ على اتّباع الحقّ الثابتِ والرَّدْعِ عن الباطل الزائل، فقيل:

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ مِن كلّ منهما ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ أي: مَرْمِيًّا به. وقُرئ: "جُفَالًا"،[1] والمعنى واحد. ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ منهما كالماء الصافي والفِلِزّ الخالص ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أمّا الماء فيثبت بعضُه في مَناقِعه،[2] ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقَنَا والآبار، وأمّا الفِلِزّ فيصاغ مِن بعضه أنواعُ الحليّ ويتّخذ مِن بعضه أصنافُ الآلات والأدوات، فيُنتفَع بكلّ مِن ذلك أنواعَ الانتفاعات مدّةً طويلة.

[٢٤١و] فالمراد بالمُكث / في الأرض ما هو أعمّ مِن المُكث في نفسها ومِن البقاء في أيدي المتقلّبين فيها. وتغيير ترتيب اللفّ الواقع في الفذلكة[3] الموافق للترتيب الواقع في التمثيل[4] لمراعاة المُلاءَمةِ بين حالتَي الذهاب والبقاء وبين ذِكريهما، فإنّ المعتبر إنّما هو بقاء الباقي بعد ذهاب الذاهب، لا قبله.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي: مثل ذلك الضرب العجيب يضرب ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ في كلّ باب إظهارًا لِكمال اللطف والعناية في الإرشاد والهداية. وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل، وتأكيدٌ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ إمّا باعتبار ابتِناءِ هذا على التمثيل الأوّل، أو بجعل ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إليهما جميعًا.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن رؤبة بن العجاج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٦.

[2] المَنقَع، بالفتح: الموضع يَستنقِع فيه الماء، أي: يحبس، والجمع مَناقع. الصحاح للجوهري، «نقع».

[3] وفي هامش م: هو قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾. «منه».

[4] وفي هامش م: هو قوله تعالى: ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا﴾. «منه».

وبعد ما بيّن شأن كلّ مِن الحقّ والباطل حالًا ومآلًا أكملَ بيانٍ شُرع في بيان حالِ أهل كلّ منهما مآلًا تكميلًا للدعوة ترغيبًا وترهيبًا فقيل:

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٨﴾

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ إذ دعاهم إلى الحقّ بفنون الدعوة التي مِن جملتها ضرب الأمثال، فإنّه ألطف ذريعة إلى تفهيم القلوب الغبيّة، وأقوى وسيلة إلى تسخير النفوس الأبيّة، كيف لا وهو تصوير للمعقول بصورة المحسوس، وإبراز لِأَوابِدِ[1] المعاني في هَيئة المأنوس؟ فأيُّ دعوةٍ أَولى منه بالاستجابة والقبول؟ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبة الحُسنى، وهي الجنّة.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ وعاندوا الحقّ الجَليّ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مِن أصناف الأموال ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لم يشذّ منه شاذّ في أقطارها، أو مجموعًا غير متفرّق بحسب الأزمان ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾ أي: بما في الأرض ومثله معه جميعًا ليتخلّصوا عمّا بهم. وفيه مِن تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان.

فالموصول مبتدأ، والشرطيّة كما هي خبره، لكن لا على أنّها وُضعت موضع السُّوأى -فوقعت في مقابلة الحسنى الواقعة في القرينة الأولى لمراعاة حسن المقابلة، فصار كأنّه قيل: وللذين لم يستجيبوا له السُّوأى- كما تُوهِّم، فإنّ الشرطيّة وإن دلّت على كمال سوء حالهم لكنّها بمَعزِل مِن القيام مَقام لفظ السُّوأى مصحوبًا باللام الداخلة على الموصول / أو ضميرِه، وعليه يدور حُصُول المرام. [٢٤١ظ]

وإنّما الواقع في تلك المقابلة ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾. وحيث كان اسم الإشارة الواقعُ مبتدأً في هذه الجملة عبارةً عن الموصول الواقع مبتدأً في الجملة السابقة كان خبرها -أعني الجملة الظرفيّة- خبرًا عن الموصول في الحقيقة، ومبيّنًا لإبهام مضمون الشرطيّة الواقعة خبرًا عنه أوّلًا، ولذلك تُرك العطف، فصار كأنّه قيل: والذين لم يستجيبوا له لهم سوء الحساب،

[1] الأوابِد: الوحوش. الصحاح للجوهري، «أبد».

وذلك في قوّة أن يُقال: وللذين لم يستجيبوا له سوء الحساب، مع زيادة تأكيد، فتمّ حسن المقابلة على أبلغ وجهٍ وآكَده.

ثمّ بيّن مؤدّى ذلك فقيل: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مرجِعُهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ وفيه نوعُ تأييد لتفسير ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالجنّة. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: المستقَرّ. والمخصوص بالذمّ محذوف.

وقيل: "اللام" في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ متعلِّقة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1] أي: الأمثالَ السالفةَ. وقوله: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ صفة للمصدر، أي: استجابوا الاستجابةَ الحسنى، وقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ معطوف على الموصول الأوّل، وقولُه: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم﴾... إلخ كلام مستأنَف مَسوق لبيان ما أُعِدّ لغير المستجيبين مِن العذاب. والمعنى: كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين، أي: هما مَثَلا الفريقين.

وأنت خبير بأنّ عنوانَ الاستجابة وعدمَها لا مناسبةَ بينه وبين ما يدور عليه أمرُ التمثيل، وَأنّ الاستعمال المستفيض دخول اللام على مَن يُقصد تذكيره بالمَثَل، نعم قد يستعمل في هذا المعنى أيضًا كما في قوله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم، ١١/٦٦] ونظائره. على أنّ بعض الأمثال المضروبة لا سيّما المَثَل الأخير الموصول بالكلام ليس مَثَلَ الفريقين؛ بل مَثَلٌ للحقّ والباطل، ولا مَسَاغَ لجعل الفريقين مضروبًا لهم أيضًا بأن يُجعل في حكم أن يقال: كذلك يضرب الله الأمثال للناس، إذ لا وجه حينئذ لتنويعهم إلى المستجيبين وغير المستجيبين، فتأمّل.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾

/ ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مِن القرآن الذي مُثّل بالماء المنزّل [٢٤٢و] مِن السماء والإبريزِ[2] الخالص في المنفعة والجدوى ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا حقَّ وراءه،

---

[1] في الآية السابقة.

[2] الإبريز: الذهب الخالص. لسان العرب لابن منظور، «برز».

أو الحقّ الذي أشيرَ إليه بالأمثال المضروبة، فيستجيب له ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عمى القلب، لا يشاهِدُه وهُوَ نارٌ على عَلَمٍ، ولا يقدِر قدرَه وهو في أقصى مراتب العُلوّ والعِظَمِ، فيبقى حائرًا في ظلمات الجهل وغَياهب الضلال، أو لا يتذكّر بما ضُرِب مِن الأمثال، أي: كمَن لا يعلم ذلك، إلّا أنّه أُريدَ زيادة تقبيح حاله فعُبّر عنه بالأعمى.

وإيراد "الفاء" بعد "الهمزة" لتوجيه الإنكار إلى ترتّب توهّم المماثلة على ظهور حال كلٍّ منهما بما ضُرب مِن الأمثال، وبُيّن المصير والمآل، كأنّه قيل: أبَعدَ ما بُيّن حال كلّ مِن الفريقين ومآلهما يُتوهّم المماثلة بينهما.[١]

ثمّ استؤنف فقيل: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بما ذكر مِن المذكّرات فيَقِفُ على ما بينهما مِن التفاوت والتنائِي ﴿أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: العقولِ الخالصة المبرَّأة مِن[٢] مُشايعة الإلْف ومُعارضة الوَهم.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ بما عقدوا على أنفسهم مِن الاعتراف بربوبيّته حين قالوا: "بلى"،[٣] أو ما عَهِد الله عليهم في كتبه. ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ ما وثّقوه على أنفسهم وقَبِلُوه مِن الإيمان بالله وغيرِه مِن المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد، وهو تعميم بعد تخصيص. وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم مِن صيغة المستقبل.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ مِن الرحِم وموالاة المؤمنين والإيمانِ بجميع الأنبياء المجمِعين على الحقّ مِن غير تفريق بين أحد منهم، ويندرج فيه مراعاةُ جميع حقوق الناس؛ بل حقوقُ كلّ ما يتعلّق بهم مِن الهِرّ والدجاج.

---

[١] وفي هامش م: والجملةُ لتقرير ما قبلها مِن اختصاص المستجيبين بالجنّة، وابتلاء غير المستجيبين بجهنّم، وتوضيحه حسبما يُعرِب عنه ما سيأتي مِن قوله تعالى في حقّ الفريقين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد، ٢٢/١٣]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد، ٢٥/١٣]. «منه».

[٢] س: عن.

[٣] يعني: الميثاق الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف، ١٧٢/٧].

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ خشية جَلالٍ وهَيْبةٍ ورَهْبةٍ، فلا يعصونه فيما أمَر به، ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ فيحاسِبون أنفسهم قَبل أن يحاسَبُوا. وفيه دلالة على كمال فطاعته / حسبما ذُكر فيما قبل. [٢٤٢ظ]

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على كلّ ما يكرهه النفس مِن الأفعال والتروك ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلبًا لرضاه خاصّةً مِن غير أن يَنظُروا إلى جانب الخلق رياءً أو سُمعة، ولا إلى جانب النفس زينة وعجبًا.

وحيث كان الصبر على الوجه المذكور ملاكَ الأمر في كلّ ما ذُكر مِن الصِّلات السابقة واللاحقة أُورِدَ على صيغة الماضي اعتناءً بشأنه، ودلالةً على وجوب تحقّقه، فإنّ ذلك ممّا لا بدّ منه، إمّا في أنْفُس الصِّلات، كما فيما عدا الأولى والرابعةَ والخامسةَ، أو في إظهار أحكامها، كما في الصِّلات الثلاث المذكورات، فإنّها وإن استغنت عن الصبر في أنفُسها حيث لا مشقّة على النفس في الاعتراف بالربوبيّة والخشية والخوف، لكنّ إظهار أحكامها والجريَ على موجَبها غيرُ خالٍ عن الاحتياج إليه.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضةَ ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي: بعضه الذي يجب عليهم إنفاقه ﴿سِرًّا﴾ لمَن لم يُعرَف بالمال، أو لمَن لا يُتّهم بترك الزكاة، أو عند إنفاقه وإعطائه مَن يمنعه المروءة مِن أخذه ظاهرًا، ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ لمَن لم يكن كما ذُكر، أو الأوّلُ في التطوّع، والثاني في الفَرْض.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يُجَازُونَ الإساءةَ بالإحسان، أو يُتبِعون الحسنة السيّئة فتمحوها. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «يَدفَعون بالحسَن مِن الكلام ما يَرِد عليهم مِن سيّء غيرِهم».[1] وعن الحسَن: «إذا حُرِموا أَعطَوا،

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢. وفي الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٦/٥، عن ابن عبّاس رضي الله عنه في رواية الضحّاك عنه قال: «يدفعون بالصالح مِن العمل الشرَّ مِن العمل».

وإذا ظُلِموا عفَوا، وإذا قُطِعُوا وَصَلُوا».[١] وعن ابن كَيسان:[٢] «إذا أذْنَبوا تابوا».[٣] وقيل: إذا رأَوا منكَرًا أمَرُوا بِتَغْيِيره.[٤] وتقديمُ المجرور على المنصوب لإظهار كمال العناية بالحسنة.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة والمَلَكات الجميلة. وهو مبتدأ، خبره الجملة الظرفيّة، أعني: قولَه: ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عاقبة الدنيا / وما ينبغي [٢٤٣و] أن يكون مآل أمر أهلها وهي الجنّة. وقيل: الجارّ والمجرور خبر لـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، و﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ فاعل الاستقرار، وأيًا ما كان فليس فيه قصر حتّى يرِد أنّ بعض ما في حيّز الصلة ليس مِن العزائم التي يُخِلُّ إخلالها بالموصول إلى حسن العاقبة.

والجملة خبر للموصولات المتعاطفة، أو استئناف لبيان ما استوجبوه بتلك الصفات، إن جُعلت الموصولات المتعاطفة صفاتٍ لأولي الألباب على طريقة المدح مِن غير أن يُقصد أن يكون للصِّلات المذكورة مدخل في التذكّر.

﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل مِن ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾،[٥] أو مبتدأٌ خبره: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ والعَدْن: الإقامة، ثمّ صار علَمًا لجنّةٍ مِن الجِنان، أي: جنّاتٌ يقيمون فيها. وقيل: هو بُطْنَانُ الجنّة.

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ جمعُ أَبَوَي كلِّ واحد منهم، فكأنّه قيل: مِن آبائهم وأمّهاتهم ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾ وهو عطفٌ على المرفوع في ﴿يَدْخُلُونَ﴾،

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

٢ هو محمّد بن أحمد بن كَيسان، أبو الحسن (ت. ٢٩٩هـ/٩١٢م)، النحوي. كان أحدَ المشهورين بالعلم، والمعروفين بالفهم؛ أخذ عن أبي العبّاس المبرّد، وأبي العبّاس ثعلب، وكان قيّمًا بمعرفة البصريّين والكوفيّين، و"كيسان" لقب لأبيه. وكان لابن كيسان مصنّفات كثيرة؛ منها المهذّب في النحو، وغلط أدب الكاتب، وغريب الحديث، ومعاني القرآن. انظر: نزهة الألبّاء للأنباري، ص ١٧٨؛ وبغية الوعاة للسيوطي، ١٩/١؛ والأعلام للزركلي، ٣٠٨/٥.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

٥ في الآية السابقة.

وإنّما ساغ ذلك للفصل بالضمير الآخِر، أو مفعول معه، والمعنى: أنّه يُلحَق بهم مَن صلَح مِن أهلهم وإن لم يبلغ مَبلغ فضلهم تبعًا لهم تعظيمًا لشأنهم. وهو دليل على أنّ الدرجةَ تعلو بالشفاعة، وأنّ الموصوف بتلك الصفات يُقْرَنُ بَعضُهم ببعضٍ لِما بينهم مِن القرابة والوُصلة في دخول الجنّة زيادةً في أُنسهم. وفي التقييد بالصلاح قطعٌ للأطماع الفارغة لمَن يتمسّك بمجرّد حبل الأنساب.

﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ مِن أبواب المنازل، أو مِن أبواب الفتوح والتُّحَف قائلين: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم﴾ بِشارة لهم بدوام السلامة ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلّق بـ﴿عَلَيْكُم﴾، أو بمحذوف، أي: هذه الكرامة العظمى بما صبرتم، أي: بسبب صبركم، أو بدل ما احتملتم مِن مشاقّ الصبر / ومتاعبِه. والمعنى: لئن تعبتم [٢٤٣ظ] في الدنيا لقد استرحتم الساعةَ. وتخصيص الصبر بما ذُكر مِن بين الصلاتِ السابقة لِما قدّمناه مِن أنّ له دخلًا في كلّ منها ومزيّةً زائدةً مِن حيث إنّه مَلاك الأمر في كلّ منها، وأنّ شيئًا منها لا يُعتدّ به إلّا بأن يكون لابتغاء وجه الربّ تعالى وتقدّس.

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: فنِعم عُقبى الدار الجنّة. وقُرئ بفتح النون،[١] والأصل "نَعِمَ" فسُكِّن العين بنقل حركتِها إلى النون تارةً وبدونه أخرى.

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان يأتي قبُورَ الشهداء على رأس كلّ حَول، فيقول: «سلام عليكم بما صبرتم، فنِعم عُقبى الدار»،[٢] وكذا عن الخلفاء الأربعة،[٣] رضوان الله تعالى[٤] عليهم أجمعين.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٢٥﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ أريدَ بهم مَن يقابل الأوّلين ويعاندهم في الاتّصاف

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٨٢/٦؛ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣١٠/٣.

٢ جامع البيان للطبري، ٥١٣/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٧/٥. وأخرجه عبد الرزّاق في المصنّف، ٥٧٣/٣ (٦٧١٦).

٣ جامع البيان للطبري، ٥١٣/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٧/٥. وأخرجه عبد الرزّاق في المصنّف، ٥٧٣/٣ (٦٧١٦).

٤ س – تعالى.

بنقائض صفاتِهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ مِن بعد ما أَوثقوه به مِن الاعتراف والقبول. ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ مِن الإيمان بجميع الأنبياء المجمِعين على الحقّ حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعضهم، ومِن حقوق الأرحام وموالاة المؤمنين وغير ذلك ممّا لا يراعون حقوقه مِن الأمور المعدودة فيما سلف.

وإنّما لم يُتعرّض لنفي الخشية والخوف عنهم صريحًا لدلالة النقض والقطع على ذلك. وأمّا عدم التعرّض لنفي الصبر المذكور فلأنّه إنّما اعتُبر تحقّقه في ضمن الحسنات المعدودة لِيَقَعْنَ مُعْتَدًّا بهِنّ، فلا وجه لنفيه عمّن بينه وبين الحسنات بُعدُ المَشرِقين، كما لا وجه لنفي الصلاة والزكاة ممّن لا يحوم حول أصل الإيمان بالله تعالى فضلًا عن فروع الشرائع. وإن أُريدَ بالإنفاق التطوّع فنفيه مندرج تحت قطع ما أمر الله تعالى بوصله.

[٢٤٤و] وأمّا دَرءُ السيّئة بالحسنة / فانتفاؤه عنهم ظاهر ممّا سبَق ولحِق، فإنّ مَن يجازي إحسانَه عزّ وجلّ بنقضِ العهد ومخالفة الأمر ويباشر الفساد بدءًا حسبما يحكيه قوله عزّ وعلا: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بالظلم وتهييج الفِتَن، كيف يُتصوّر منه مُجازاة الإساءة بالإحسان؟ على أنّ ذلك يُشعر بأنّ له دخلًا في الإفضاء إلى العُقُوبة التي يُنْبِئ عنها قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾... إلخ، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن القبائح ﴿لَهُمُ﴾ بسبب ذلك ﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾ أي: الإبعادُ مِن رحمة الله تعالى، ﴿وَلَهُمۡ﴾ مع ذلك ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: سوءُ عاقبة الدنيا، أو عذابُ جهنّم، فإنّها دارهم؛ لأنّ ترتيب الحُكم على الموصول مشعِر بعلّيّة الصلة له.

ولا يخفى أنّه لا دخلَ له في ذلك على أكثر التفاسير، فإنّ مُجازاة السيّئة بمثلها مأذون فيها. ودفعُ الكلام السيّئ بالحسَن، وكذا الإعطاء عند المنع، والعفوُ عند الظلم، والوصلُ عند القطع، ليس ممّا يورِث تركُه تبِعةً. وأمّا ما اعتُبر اندراجُه تحت الصلة الثانية مِن الإخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضَيرَ في ذلك؛ لأنّ اعتباره مِن حيث إنّه مِن مستتبِعات الإخلال بالعزائم، بالكفر ببعض الأنبياء، وعقوقِ الوالدين، وترك سائر الحقوق الواجبة. وتكريرُ ﴿لَهُمۡ﴾ للتأكيد والإيذان باختلافهما، واستقلال كلّ منهما في الثبوت.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: يوسّعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ مِن عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيّقه على مَن يشاء حسبما يقتضيه الحكمة، مِن غير أن يكون لأحد مدخل في ذلك، ولا شعورٌ بحكمته، فربّما يبسطه للكافر إملاءً واستدراجًا، وربّما يضيّقه / على [٢٤٤ظ] المؤمن زيادةً لأجره، فلا يغترّ ببسطه الكافر، كما لا يَقنط بقَدْره المؤمنُ.

﴿وَفَرِحُواْ﴾ أي: أهلُ مكّة فرحَ أَشَرٍ وبَطَرٍ، لا فرحَ سرورٍ بفضل الله تعالى ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وما بُسط لهم فيها مِن نعيمها، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وما يتبعها مِن النعيم ﴿فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ في جَنْبِ نعيم الآخرة ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ إلّا شيءٌ نَزْرٌ يُتمتَّع به كَعُجالة الراكب وزادِ الراعي. والمعنى: أنّهم رضوا بحظّ الدنيا مُعرِضين عن نعيم الآخرة، والحال أنّ ما أَشِرُوا به في جنب ما أَعْرَضُوا عنه شيء قليل النفع سريع النَّفاد.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أهلُ مكّة، وإيثارُ هذه الطريقة على الإضمار مع ظهور إرادتهم عقيب ذكر فرحهم بالحياة الدنيا لذمّهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حُكي عنهم مِن قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فإنّ ذلك في أقصى مراتب المكابَرة والعناد، كأنّ ما أُنزل عليه عليه السلام مِن الآيات العظام الباهرة ليس بآية حتّى اقترحوا ما لا يقتضيه الحِكمة مِن الآيات المحسوسة التي لا يبقى لأحد بعد ذلك طاقة بعدم القبول، ولذلك أُمِر في الجواب بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية إليها، أي: يخلق فيه الضلال لصَرفه اختيارَه إلى تحصيله ويَدعُه منهمِكًا فيه لعلمه بأنّه لا ينجَع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد، كمَن كان على صفتكم في المكابرة والعناد وشدّة الشكيمة والغلوّ في الفساد، فلا سبيل له إلى الاهتداء ولو جاءَته كلّ آية.

﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى جنابه العليّ الكبير هدايةً موصلةً إليه، لا دلالةً مطلَقة على ما يوصل إليه، فإنّ ذلك غير مختصّ بالمهتدين، وفيه مِن تشريفهم ما لا يوصف. ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ / أقبل إلى الحقّ، وتأمّل في تضاعيف ما نزّل مِن دلائله الواضحة. وحقيقة الإنابة الدخول في نَوبة الخير. [٢٤٥و]

وإيثار إيرادها في الصلة على إيراد المشيئة كما في الصلة الأولى للتنبيه على الداعي إلى الهداية؛ بل إلى مشيئتها والإشعار بما دعا إلى المشيئة الأولى مِن المكابرة. وفيه حثّ للكفرة على الإقلاع عمّا هم عليه مِن العتوّ والعناد. وإيثار صيغة الماضي للإيماء إلى استدعاء الهداية لسابقة الإنابة، كما أنّ إيثار صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدل مِن ﴿مَنْ أَنَابَ﴾،[١] فإن أريدَ بالهداية الهدايةُ المستمِرّة فالأمر ظاهر لظهور كون الإيمان مؤدّيًا إليها، وإن أريدَ إحداثُها فالمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الذين صار أمرهم إلى الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، ٢/٢]، أي: الصائرين إلى التقوى، وإلّا فالإيمان لا يؤدّي إلى الهداية نَفْسِها. أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هم الذين آمنوا، أو منصوب على المدح.

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ أي: تستقرّ وتسكن ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بكلامه المعجِز الذي لا ريب فيه، كقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء، ٥٠/٢١]، وقولِه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر، ٩/١٥]، ويعلمون أن لا آيةَ أعظمُ منه فيقترحوها. والعدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان وتجدّده حسب تجدّد الآيات وتعدّدها.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وحدَه ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ دون غيره مِن الأمور التي تميل إليها النفوس مِن الدنياويّات، وهذا ظاهرٌ، أمّا سائر المعجزات فالقصر مِن حيث إنّها ليست / في إفادة الطمأنينة بالنسبة إلى مَن لم يشاهدها بمثابة القرآن المجيد، [٢٤٥ظ]

---

[١] في الآية السابقة.

فإنّه معجزة باقية إلى يوم القيامة يشاهدها كلّ أحد، وتطمئنّ به القلوب كافّةً. وفيه إشعار بأنّ الكفرة ليست لهم قلوب، وأفئدتُهم هَواءٌ، حيث لم يطمئنّوا بذكر الله تعالى، ولم يعدّوه آية، وهو أظهر الآيات وأبهرها.

وقيل: تطمئنّ قلوبُهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب مِن خشيته، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر، ٢٣/٣٩]، أو بذكر دلائله الدالّة على وحدانيّته، أو بذكره جلّ وعلا أُنسًا به وتبتّلًا إليه، فالمراد بالهداية دوامها واستمرارها.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝٢٩﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾[1] على حذف المضاف، بدلَ الكلّ حسبما رُمز إليه، أي: قلوب الذين آمنوا. وفيه إيماء إلى أنّ الإنسان إنّما هو القلب. أو مبتدأ خبرُه الجملة الدعائيّة على التأويل، أعني: قوله: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أو خبر مبتدأ مضمَر، أو نصب على المدح، فـ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ حال عامِلُها الفعلان.

و﴿طُوبَىٰ﴾ مصدر مِن "طاب"، كـ"بُشرى" و"زُلفى"، والواو منقلِبة مِن الياء، كـ"موقِن" و"موسِر". وقرأ مَكْوَزَةُ الأعرابي:[2] "طِيبَى"[3] ليَسلم الياء، والمعنى: أصابوا خيرًا، ومحلُّها النصب، كـ"سلامًا لك"، أو الرفع على الابتداء وإن كانت نكرةً لكونها في معنى الدعاء، كـ"سلام عَليك"، يدلّ على ذلك القراءةُ في قوله تعالى: ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ بالنصب[4] والرفع. واللام في ﴿لَهُمْ﴾ للبيان مثلها في "سُقيًا لك".

---

[1] في الآية السابقة.

[2] هو مَكْوَزة الأعرابي (ت. نحو ٢١٠هـ/٨٢٥م)، أحد الفصحاء الذين رأى النديم كتُبهم بخطوط علماء اللغة. وكان ممّن روى عنه أبو عبيدة وأبو محلّم الشيباني. وثمّة نُقول عن مَكْوَزة في: **الألفاظ** لابن السكّيت، و**المزهر** للسيوطي. **تاريخ التراث العربي** لسزكين، ٦١/١.

[3] قراءة شاذّة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٥٢٨/٢؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٨٦/٦؛ و**شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٨.

[4] القراءة بنصب ﴿وَحُسْنُ﴾ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وعيسى الكوفة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٨.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثلُ ذلك الإرسال العظيم الشأن المصحوبِ بهذه المعجزة الباهرة ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مَضت ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ كثيرة قد أرسلَ إليهم رُسل ﴿لِّتَتْلُوَا۟﴾ لتقرأ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ مِن الكتاب العظيم الشأن، وتهديهم إلى الحقّ رحمةً لهم. وتقديم المجرور / على المنصوب مِن قَبيل الإبهام ثمّ البيان، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح، ٢/٩٤]، وفيه ما لا يخفى مِن ترقّب النفس إلى ما سيَرِد، وحسنِ قبولها عند وُرُودِه عليها. [٢٤٦و]

﴿وَهُمْ﴾ أي: والحال أنّهم ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالبليغ الرحمة، الذي وسعت كلَّ شيء رحمته، وأحاطت به نعمته. والعدول إلى المظهر المتعرّض لوصف الرحمة مِن حيث إنّ الإرسال ناشئٌ منها، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ١٠٧/٢١]، فلم يَقدُروا قدرَه، ولم يشكروا نِعَمَهُ، لا سيّما ما أنعم به عليهم بإرسال مِثلك إليهم، وإنزالِ القرآن الذي هو مدارُ المنافع الدينيّة والدنياويّة عليهم. وقيل: نزلت في مشركي مكّة حين أُمِرُوا بالسجود فقالوا: وما الرحمن؟[1]

﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته ﴿رَبِّى﴾ "الربّ" في الأصل بمعنى التربية؛ وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئًا فشيئًا، ثمّ وُصف به مبالغةً، كالصوم والعدل. وقيل: هو نعت، أي: خالقي ومُبَلّغي إلى مراتب الكمال. وإيراده قَبل قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ -أي: لا مستحقّ للعبادة سواهُ- تنبيهٌ على أنّ استحقاق العبادة مَنوط بالربوبيّة.

وقيل: إنّ أبا جهل سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «يا الله، يا رحمن»، فرجع إلى المشركين فقال: «إنّ محمّدًا يدعو إلَهَين»، فنزلت، ونزل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الآية [الإسراء، ١١٠/١٧].[2]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٢/٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٧/٢.

[2] التفسير الوسيط للواحدي، ١٦/٣. ونحوه في جامع البيان للطبري، ١٢٣/١٥.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ في جميع أموري، لا سيّما في النصرة عليكم، لا على أحد سواه. ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ خاصّةً ﴿مَتَابِ﴾ أي: توبتي، كقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر، ٤٠/٥٥].

أُمِر[١] عليه السلام بذلك إبانةً لفضل التوبة ومقدارِها عند الله تعالى، وأنّها صفة الأنبياء، وبعثًا للكفرة على الرجوع عمّا هم عليه بأبلغ وجه وألطفه، فإنّه عليه السلام حيث أُمِر بها وهو منزّه عن شائبة اقتِراف ما يوجبها مِن الذنب وإن قَلّ، فتوبتُهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصي ممّا لا بدّ منه أصلًا.

/ وقد فُسِّر "المتَابُ" بمطلق الرجوع، فقيل: مَرجعي ومَرجعكم،[٢] وزِيدَ: فيحكم بيني وبينكم. وقد قيل: فيُثيبني على مُصابرتكم،[٣] فتأمّل. [٢٤٦ظ]

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ أي: قرآنًا ما، وهو اسم ﴿أَنَّ﴾، والخبر قوله تعالى: ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾، وجوابُ ﴿لَوۡ﴾ محذوف لانسياق الكلام[٤] إليه بحيث يتلقّفه السامع مِن التالي. والمقصود إمّا بيان عِظم شأن القرآن العظيم وفسادِ رأي الكفرة حيث لم يَقدُروا قدرَه العليّ، ولم يَعدّوه مِن قَبيل الآيات، فاقترحوا غيرَه ممّا أوتي موسى وعيسى عليهما السلام، وإمّا بيان غلوّهم في المُكابَرة والعناد، وتماديهم في الضلال والفساد.

فالمعنى على الأوّل: لو أنّ قرآنًا سُيِّرت به الجبال -أي: بإنزاله، أو بتلاوته عليها- وزُعزعت عن مَقارّها، كما فُعِل ذلك بالطور لموسى عليه السلام، ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: شُقّقَتْ وجعلت أنهارًا وعيونًا، كما فُعِل بالحَجَر

---

[١] وفي هامش م: إذ هو داخل تحت الأمر. «منه».
[٢] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٨٨/٣.
[٣] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٢٩/٢.
[٤] وفي هامش م: النظم.

حين ضربه عليه السلام بعصاه، أو جُعِلت قِطعًا متصدّعة، ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: بعد أن أُحْيِيَتْ[١] بقراءته عليها كما أُحيِيَت لعيسى عليه السلام، لَكان ذلك هذا القرآنَ؛ لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عزّ وجلّ، كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر، ٢١/٥٩]، لا في الإعجاز، إذ لا مدخلَ له في هذه الآثار، ولا في التذكير والإنذار والتخويف؛ لاختصاصها بالعقلاء، مع أنّه لا علاقةَ لها بتكليم الموتى. واعتبار فيض العقول إليها مُخِلّ بالمبالغة المقصودة.

وتقديم المجرور في المواضع الثلاثة على المرفوع لِما مرّ غيرَ مرّة مِن قصد الإبهام ثمّ التفسير لزيادة التقرير؛ لأنّ بتقديم ما حقّه التأخير تبقى النفس مستشرِفة ومترقِّبة إلى المؤخَّر أنّه ماذا؟ فيتمكّن عند وروده عليها فضل تمكّن. وكلمة ﴿أَوْ﴾ في الموضعين لمنع الخلوّ، لا لمنع الجمع.

واقتراحُهم وإن كان متعلّقًا بمجرّد ظهور مثل هذه الأفاعيل العجيبة على يده عليه السلام، لا بظهورها بواسطة القرآن، لكنّ ذلك حيث كان مبنيًّا / على عدم [٢٤٧و] اشتماله في زعمهم على الخوارق نِيط ظهورها به مبالغةً في بيان اشتماله عليها، وأنّه حقيق بأن يكون مصدرًا لكلّ خارق، وإبانةً لرَكاكة رأيهم في شأنه الرفيع، كأنّه قيل: لو أنّ ظهور أمثال ما اقترحوه مِن مقتضيات الحكمة لكان مَظهرها هذا القرآن الذي لم يعدّوه آية. وفيه مِن تفخيم شأنه العزيزِ ووصفِهم برَكاكة العقل ما لا يخفى.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: له الأمر الذي عليه يدور فَلَكُ الأكوان وجودًا وعدمًا، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لِما يدعو إليه مِن الحِكَم البالغة. وهو إضراب عمّا تضمّنه الشرطيّة مِن معنى النفي، لا بحسب منطوقه؛ بل باعتبار موجَبه ومؤدّاه، أي: لو أنّ قرآنًا فُعِل به ما ذُكِر لكان ذلك هذا القرآنَ، ولكن لم يُفْعَل؛ بل فُعِل ما عليه الشأن الآن؛ لأنّ الأمر كلَّه له وحدَه، فالإضراب ليس بمتوجِّه إلى كون الأمر لله سبحانه؛ بل إلى ما يؤدّي إليه ذلك مِن كون الشأن على ما كان لِما يقتضيه الحكمة مِن بناء التكليف على الاختبار.

---

[١] ط س: أحيى. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: أفلم يعلموا؟ على لغة هَوازِنَ، أو قومٍ مِن النخع، أو على استعمال اليأس في معنى العِلم لتضمّنه له. ويؤيّده قراءة عليّ وابنِ عبّاس وجماعةٍ مِن الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين: "أَفَلَمْ يَتَبَيَّنِ"[1] بطريق التفسير.

و"الفاء" للعطف على مقدَّر، أي: أَغَفِلوا عن كون الأمر جميعًا لله تعالى، فلم يعلموا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ على حذف ضمير الشأن، وتخفيفِ ﴿أَن﴾، ﴿لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ بإظهار أمثال تلك الآثار العظيمة؟ فالإنكار متوجِّه إلى المعطوفِين جميعًا، أو أَعَلِمُوا كَوْنَ الأمر جميعًا لِله، فلم يعلموا ما يوجبه ذلك العلمُ مِمّا ذُكر؟ فهو متوجّه إلى وقوع[2] المعطوف بعد[3] المعطوف عليه، أي: تخلّفِ العلم الثاني عن العلم الأوّل.

وعلى التقديرين فالإنكار إنكار الوقوع، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ [طه، ٢٠/٨٦]، لا إنكار الواقع، كما في قولك: ألم تخَفِ الله حتّى عصيتَه. ثمّ إنّ مناطَ الإنكار ليس عدمَ علمهم بمضمون الشرطيّة فقط؛ بل مع عدم علمهم بعدم تحقّق مقدَّمها، كأنّه قيل: ألم يَعلموا أنّ الله تعالى لو شاء هدايتهم لَهَداهُم، وأنّه لم يشأها؛[4] / وذلك لأنّهم كانوا يوَدّون أن يظهر ما اقترحوا مِن الآيات ليجتمعوا على الإيمان. [٢٤٧ظ]

وعلى **الثاني**:[5] لو أنّ قرآنًا فُعِل به ما فصِّل مِن التعاجيب لَما آمنوا به، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية [الأنعام، ٦/١١١]، فالإضراب حينئذ متوجِّه إلى ما سلف مِن اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شُرِح، أي:

---

[1] قراءة شاذّة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٨.

[2] م ط س: ترتّب [صُحّح في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

[3] م ط س: على [صُحّح في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

[4] وفي هامش م: أي: أصلها، على أنّ الاستمرار المستفاد مِن صيغة الاستقبال معتبَر في النفي الذي يُنبئ عنه "لو" الامتناعيّة، لا في المنفي لفساد المعنى، فإنّ مدار عدم هدايتهم استمرار عدم مشيئته تعالى لها، لا عَدم استمرار مشيئته تعالى لها، وقد مرّ تحقيقه في سورة يونس عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ الآية [يونس، ١٠/١١]. «منه».

[5] وفي هامش م: وهو كون المقصود بيان غلوّهم في المكابرة والعناد. «منه».

فليس لهم ذلك، بل لله الأمر جميعًا، إن شاء أتى بما اقترحوا، وإن شاء لم يأتِ به حسبما يستدعيه داعية الحِكمة مِن غير أن يكون لأحدٍ عليه تحكّم أو اقتراح.

واليأس بمعنى القنوط، أي: ألم يعلم الذين آمنوا حالَهم هذه فلم يقنطوا مِن إيمانهم حتّى أَحَبُّوا ظهورَ مقترحاتهم؟ فالإنكار متوجّه إلى المعطوفَينِ، أو أَعلموا ذلك فلم يقنطوا مِن إيمانهم؟ فهو متوجّه إلى وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه، أي: إلى تخلّف القُنوط عن العلم المذكور.

والإنكار على التقديرين إنكار الواقع، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف، ٦٥/٧] ونظائرِه، لا إنكارُ الوقوع، فإنّ عدم قُنوطهم منه ممّا لا مردَّ له.

وقوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾... إلخ متعلّق بمحذوف، أي: أفلم ييأسوا مِن إيمانهم عِلمًا منهم أو عالمين بأنّه لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا، وأنّه لم يشأ ذلك، أو بـ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: أفلم يقنط الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا؟ على معنى: أفلم ييأس مِن إيمانهم المؤمنون؟ بمضمون الشرطيّة، وبعدم تحقّق مقدَّمها المنفهِم مِن مكابرتهم حسبما يَحكيه كلمة ﴿لَوْ﴾، / فالوصف المذكور مِن دواعي إنكار يأسهم. [٢٤٨و]

وقيل: إنّ أبا جهل وأضرابَه قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إن كنت نَبيًّا سَيِّر بقرآنك الجبالَ عن مكّة حتّى تتّسعَ لنا ونتّخذَ فيها البساتين والقطائع، وقد سُخّرت لداود، فلستَ بأهون على الله منه إن كنتَ نبيًّا كما زعمتَ، أو سخِّرْ لنا به الريح كما سُخِّرَتْ لسليمان عليه السلام لنتّجِر عليها إلى الشام، فقد شقّ علينا قطع الشُقَّة البَعيدة، أو ابعث لنا به رَجلين أو ثلاثةً ممّن مات مِن آبائنا»، فنزلت.[1]

فمعنى "تقطيع الأرض" حينئذ: قطعها بالسير، ولا حاجةَ حينئذ إلى الاعتذار في إسناد الأفاعيل المذكورة إلى القرآن كما احتيج إليه في الوجهين الأوّلَين. وعن الفرّاء[2] أنّه متعلّق بما قبله مِن قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾،[3] وما بينهما اعتراض،

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٢/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٢.

٢ انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٦٣/٢.

٣ في الآية السابقة.

وهو بالحقيقة دالّ على الجواب، والتقدير: ولو أنّ قرآنًا سُيّرت به الجبال، أو قُطّعت به الأرض، أو كُلّم به الموتى، لَكفروا بالرحمن.

والتذكير في ﴿كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لتغليب المذكّر مِن الموتى على غيره.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مِن أهل مكّة ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟﴾ أي: بسبب ما صنعوه مِن الكفر والتمادي فيه. وعدمُ بيانه إمّا للقصد إلى تهويله أو استهجانه، وهو تصريح بما أَشعر به بناء الحكم على الموصول مِن علّيّة الصِلة له مع ما في صيغة "الصُنْع" مِن الإيذان برسوخهم في ذلك.

﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تقرعهم وتُقْلِقُهم، وهو ما كان يُصيبهم مِن أنواع البلايا والمصائبِ مِن القتل والأَسْر والنَّهب والسَّلْب. وتقديم المجرور على الفاعل لِما مرّ مرارًا مِن إرادة التفسير إثر الإبهام لزيادة التقرير والإحكام، مع ما فيه مِن بيان أنّ مدار الإصابة مِن جهتهم آثِرَ ذِي أثِيرٍ.

﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ تلك القارعة ﴿قَرِيبًا﴾ أي: مكانًا قريبًا ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾ فيَفزَعُون منها، ويتطايَر إليهم شَرارُها. شُبِّهَت القارعة بالعدوّ المتوجِّه إليهم، / فأسندَ إليها الإصابة تارة، والحلول أخرى، ففيه استعارة بالكناية، وتخييل، وترشيح. [٢٤٨ظ]

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ أي: موتُهم أو القيامةُ، فإنّ كلًّا منهما وعد مَحتوم لا مردّ له. وفيه دلالة على أنّ ما يصيبهم عند ذلك مِن العذاب في غاية الشدّة، وأنّ ما ذُكِر سابقًا نفحة يسيرة بالنسبة إليه، ثمّ حُقّق ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: الوعدَ، كالميلاد والميثاق بمعنى الوِلادة والتَّوثقة؛ لاستحالة ذلك على الله سبحانه.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أراد بـ"القارعة" السرايا التي كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبعثها»،[١] وكانوا بين إغارة واختطاف وتخويف بالهُجوم عليهم في ديارهم، فالإصابة والحلول حينئذ مِن أحوالهم، ويجوز على هذا

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٤/٥. وفي التفسير الوسيط للواحدي، ١٧/٣، عن أبي سعيد الخدري ومجاهد.

أن يكون قوله تعالى: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ خطابًا للرسول صلّى الله عليه وسلّم مرادًا به حلوله الحديبية. والمراد بـ﴿وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ ما وعد به مِن فتح مكّة.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ كثيرة خلَت ﴿مِن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: تركتُهم ملاوةً[1] مِن الزمان في أمْن ودَعَةٍ، كما يُملَى للبَهيمة في المَرعى. وهذا تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا لقي مِن المشركين مِن التكذيب والاقتراح على طريقة الاستهزاء به، ووَعيد لهم.

والمعنى: أنّ ذلك ليس مختصًّا بك؛ بل هو أمر مطّرد قد فُعِل ذلك برُسل كثيرة كائنة مِن قبلك، فأمهلت الذين فعلوه بهم. والعدول في الصلة إلى وصف الكفر ليس لأنّ المُملَى لهم غير المستهزئين؛ بل لإرادة الجمع بين الوصفَين، [٢٤٩و] / أي: فأمليت للذين كفروا مع استهزائهم، لا باستهزائهم فقط.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: عقابي إيّاهم. وفيه مِن الدلالة على تناهي كيفيّته في الشدّة والفظاعة ما لا يخفى.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أي: رقيب مهيمن ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ كائنةً مَن كانت ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ مِن خير أو شرّ، لا يخفى عليه شيء مِن ذلك؛ بل يُجازي كلًّا بعمله، وهو الله سبحانه. والخبر محذوف، أي: كمَن ليس كذلك إنكارًا لِذلك. وإدخال "الفاء" لتوجيه الإنكار إلى توهّم المماثلة غِبَّ ما عُلِم ممّا فعل تعالى بالمستهزئين مِن الإملاء المديد والأخذ الشديد ومِن كون الأمرِ كلِّه لله تعالى،

[1] أقمتُ عنده مَلاوَةً مِن الدهر ومُلاوةً ومِلاوَةً، أي: حينًا وبرهةً. **الصحاح** للجوهري، «ملو».

وكونِ هداية الناس جميعًا مَنوطة بمشيئته[١] تعالى، ومِن تواتر القوارع على الكفرة إلى أن يأتي وعد الله، كأنّه قيل: أَالْأَمرُ كذلك؟ فَمَن هذا شأنه كما ليس في عِداد الأشياء حتّى تشركوه به؟ فالإنكار متوجّه إلى ترتّب المعطوف -أعني: توهّم المماثلة- على المعطوف عليه المقدّر، أعني: كون الأمر كما ذكر، كما في قولك: "أتعلم الحقّ، فلا تعمل به؟" لا إلى المعطوفِين جميعًا، كما إذا قلت: "ألا تعلمه؟" فلا تعمل به.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ جملة مستقلّة جيء بها للدلالة على الخبر، أو حاليّة، أي: أفمَن هذه صفاته كما ليس كذلك، وقد جعلوا له شركاء لا شريكًا واحدًا؟ أو معطوفةٌ على الخبر إن قُدّر ما يصلح لذلك، أي: أفمَن هذا شأنه لم يوحِّدوه وجعلوا له شركاءَ؟ ووضع المظهَر موضع المضمَر للتنصيص على وحدانيّته ذاتًا واسمًا، وللتنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادة، مع ما فيه مِن البيان بعد الإبهام بإيراده موصولًا للدلالة على التفخيم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تبكيت لهم إثر تبكيت، أي: سمّوهم مَنْ هُم؟ وماذا أسماؤُهم؟ أو صِفُوهم وانظروا هل لهم ما يستحِقّون به العبادةَ ويستأهلون الشركة؟ ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ أي: بل / أتنبّئون الله ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بشركاءَ مُستَحِقّين للعبادة لا يعلمهم الله تعالى، ولا يعزُب عنه مثقالُ ذرّة في السماوات والأرض؟ وقُرئ بالتخفيف.[٢] [٢٤٩ظ]

﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ بل أَتُسمّونهم بشركاءَ بظاهر مِن القول مِن غير أن يكون له معنى وحقيقة، كتسمية الزنجي كافورًا، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة، ٣٠/٩].

وهاتِيك الأساليب البديعة التي ورد عليها الآية الكريمة منادية على أنّها خارجة عن قدرة البشر مِن كلام خلّاق القوى والقُدَر، فتبارك الله ربّ العالمين.

---

[١] ط س: لمشيئته.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٧.

﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وضع الموصول موضع المضمَر ذمًّا لهم، وتسجيلًا عليهم بالكفر، ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾ تمويههم الأباطيل، أو كيدهم للإسلام بشركهم، ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: سبيل الحقّ، مِن صدَّه صدًّا. وقُرئ بكسر الصاد[1] على نقل حركة الدال إليها، وقُرئ بفتحها،[2] أي: صدّوا الناس، أو مِن "صَدّ صُدُودًا".

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: يخلُقْ فيه الضلالَ بسوء اختياره أو يخذُلْه، ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ يوفّقه للهُدى.

﴿لَّهُمۡ عَذَابٌ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾

﴿لَّهُمۡ عَذَابٌ﴾ شاقّ ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم مِن المصائب، فإنّها إنّما تصيبهم عقوبة على كفرهم. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّ﴾ مِن ذلك بالشدّة والمدّة ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مِن عذابيه المذكورين ﴿مِن وَاقٖ﴾ مِن حافظ يعصِمهم مِن ذلك، فـ﴿مِنَ﴾ الأولى صلة للوقاية، والثانية مزيدة للتأكيد.

﴿۞مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥﴾

﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: صفتُها العجيبةُ الشأنِ التي في الغرابة كالمَثَل ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر والمعاصي. وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه،[3] أي: فيما قصصنا عليك مَثَل الجنّة. وقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ تفسير لذلك المَثَل، على أنّه حال مِن الضمير المحذوف مِن الصلة العائد إلى ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾، أي: وُعِدَها، وهو الخبر عند غيره، كقولك: شأن زيد يأتيه الناس ويعظّمونه، / أو على حذف موصوف، أي: مَثَل الجنّةِ جنّةٌ تجري... إلخ. [٢٥٠و]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٣١٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٣٩٤.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبوعمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٨.

[3] انظر: الكتاب لسيبويه، ١/١٤٣؛ وشرح كتاب سيبويه للسيرافي، ١/٤٩٨.

﴿أُكُلُهَا﴾ ثمرها ﴿دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع ﴿وَظِلُّهَا﴾ أيضًا كذلك لا تنسخه الشمسُ كما تَنْسَخُ ظِلالَ الدنيا.

﴿تِلْكَ﴾ الجنّة المنعوتة بما ذُكر ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الكفر والمعاصي، أي: مآلهم ومنتهى أمرهم. ﴿وَعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ لا غير، وفيه ما لا يخفى مِن إطماع المتّقين، وإقناطِ الكافرين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم المسلمون مِن أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما، ومَن آمَن مِن النصارى، وهم ثمانون رجلًا: أربعون بنَجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون بِالحَبَشَة. ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إذ هو الكتاب الموعود في التوراة والإنجيل.

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: مِن أحزابهم، وهم كَفَرتُهم الذين تحزّبوا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالعداوة، نحو كعب بن الأشرف والسيّد والعاقب أُسْقُفَي نجران وأتباعهما ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ وهو الشرائع الحادثة إنشاءً أو نَسخًا، لا ما يوافق ما حرّفوه، وإلّا لَنُعِيَ عليهم مِن أوّل الأمر أنّ مدار ذلك إنّما هو جنايات أيديهم، وأمّا ما يُوَافِق كتبَهم فلم ينكروه وإن لم يفرحوا به.

وقيل: يجوز أن يراد بالموصول الأوّل عامّتهم، فإنّهم أيضًا يفرحون به لكونه مصداقًا لكتبهم في الجملة، فحينئذ يكون قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾... إلخ تَتِمّةً بمنزلة أن يقال: ومنهم مَن ينكر بعضَه.

﴿قُلْ﴾ إلزامًا لهم وردًا لإنكارهم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦ﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء، أو لا أفعل الإشراك به، والمراد قصر الأمر بالعبادة على الله تعالى، لا قصر الأمر مطلقًا على عبادته خاصّةً، أي: قل لهم: إنّما أمرت فيما أنزل إليّ بعبادة الله وتوحيده، وظاهر أن لا سبيل لكم إلى إنكاره؛ لإطباق جميعِ الأنبياء والكتب على ذلك، / كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ [٢٥٠ظ]

سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران، ٦٤/٣]، فما لكم تشركون به عُزيرًا والمسيحَ؟

وقُرِئ: "وَلَا أُشْرِكُ بِهِ"[1] بالرفع على الاستئناف، أي: وأنا لا أشرك به.

﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الله تعالى خاصّة على النهج المذكور مِن التوحيد، أو إلى ما أُمرتُ به مِن التوحيد ﴿أَدْعُواْ﴾ الناسَ، لا إلى غيره، أو لا إلى شيء آخر ممّا لم يُطبِق عليه الكتب الإلهيّة والأنبياءُ عليهم السلام، فما وجه إنكاركم؟

﴿وَإِلَيْهِ﴾ إلى الله تعالى وحدَه ﴿مَـَٔابِ﴾ مَرجعي للجزاء.

وحيث كانت هذه الحجّة الباهرة لازمةً لهم لا يجدون عنها محيصًا أُمر عليه السلام بأن يخاطِبَهم بذلك إلزامًا وتبكيتًا لهم. ثمّ شُرع في ردّ إنكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداءً أو بدلًا مِن الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة في ذلك فقيل:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ٣٧﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: مَا أُنزِلَ إليك، و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أو أُنزِل إليك، ومحلّه النصب على المصدريّة، أي: مثل ذلك الإنزال البديع المنتظِم لأصولٍ مُجمَع عليها وفروع متشعِّبة إلى موافِقة ومخالِفة حسبما يقتضيه قضيّة الحكمة والمصلحة أنزلناه ﴿حُكْمًا﴾[2] حاكمًا يحكم في القضايا والواقعات بالحقّ، أو يُحكَم به كذلك. والتعرّض لذلك العنوان مع أنّ بعضه ليس بحُكم لِتربية وجوب مراعاته وتحتّم المحافظة عليه.

﴿عَرَبِيًّا﴾ مترجمًا بلسان العرب. والتعرّض لذلك للإشارة إلى أنّ ذلك إحدى موادّ المخالَفة للكتب السابقة، مع أنّ ذلك مقتضى الحكمة، إذ بذلك يسهل فهمه،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جليد عن نافع. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٩٦/٦.

[2] وفي هامش م: أطلق عليه "الحكم" لكونه حاكمًا، كما يطلق عليه "الفرقان" لكونه فارقًا بين الحقّ والباطل. «منه».

وإدراك إعجازه. والاقتصار على اشتمال الإنزال على أصول الديانات المُجمَع عليها[١] حسبما يفيده قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾... إلخ،[٢] يأباه التعرّض لاتّباع أهوائهم، وحديث المحو والإثبات، وأنّه لكلّ أجل كتاب، فإنّ المُجمَع عليه / لا يتصوّر فيه الاستتباع والاتّباع.[٣] [٢٥١و]

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ التي يدعونك إليها مِن تقرير الأمور المخالِفة لِما أنزل إليك مِن الحقّ كالصلاة إلى بيت المقدس بعد التحويل ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ العظيم الشأن الفائض مِن ذلك الحُكم العربي، أو العِلم بمضمونه ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ مِن جنابه العزيز. والالتفات مِن التكلّم إلى الغيبة وإيراد الاسم الجليل لتربية المهابة. قال الأزهريّ: «لا يكون إلهًا حتّى يكون معبودًا، وحتّى يكون خالقًا ورازقًا ومدبّرًا».[٤]

﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أمرك وينصرك على مَن يبغيك الغوائل، ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يَقيك مِن مصارع السوء. وحيث لم يستلزم نفي الناصر على العدوّ نفيَ الواقي مِن نكايته أدخل على المعطوف حرف النفي للتأكيد، كقولك: ما لي دينار ولا درهم، أو ما لك مِن بأس الله مِن ناصر وواقٍ لاتّباعك أهواءهم. وأمثال هاتيك القوارع إنّما هي لقطع أطماع الكفرة وتهييج المؤمنين على الثبات في الدين. و"اللام" في ﴿لئن﴾ موطِّئة، و﴿مَا لَكَ﴾ سادّ مسدّ جوابَي الشرط والقسَم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ كثيرة كائنة ﴿مِن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نِساءً وأولادًا، كما جعلناها لك. وهو ردّ لما كانوا يَعيبونه صلّى الله عليه وسلّم بالزواج والولاد، كما كانوا يقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾... إلخ [الفرقان، ٢٥/٧].

---

[١] وفي هامش م: مِن غير تعرّض للفروع المتشعّبة إلى الموافقة والمخالفة. «منه». | انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٩٠.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] وفي هامش م: ولا المحو والإثبات، ولا التبدّل بتبدّل الآجال والأوقات. «منه».

[٤] تهذيب اللغة للأزهري، «لاه».

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ منهم، أي: ما صحّ وما استقام، ولم يكن في وسعه ﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ ممّا اقترِح عليه، وحكمٍ ممّا التمس منه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ومشيئته المبنيّة على الحِكَم والمصالح التي عليها يدور أمر الكائنات، لا سيّما مثل هذه الأمور العظام. والالتفات لِما قدّمناه، ولتحقيق مضمون الجملة بالإيماء إلى العلّة.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أي: لكلّ مدّة ووقت مِن المُدَدِ والأوقاتِ ﴿كِتَابٌ﴾ حُكم معيّن يكتَبُ على العباد حسبما يقتضيه الحكمة، فإنّ الشرائع كلّها لإصلاح أحوالهم في المبدأ والمعاد، / ومِن قضيّة ذلك أن يختلف حسب اختلاف أحوالهم [٢٥١ظ] المتغيّرة حسبَ تغيّر الأوقات، كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوال المرضى بحسب الأوقات.

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: ينسخ ما يشاء نسخَه مِن الأحكام لِما يقتضيه الحكمة بحسب الوقت، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بدلَه ما فيه المصلحة، أو يُبْقِيه على حاله غيرَ مَنْسوخ، أو يُثبِت ما يشاء إثباتَه مطلقًا أعمّ منهما ومِن الإنشاء ابتداءً، أو يمحو مِن ديوان الحفَظة الذين دَيْدَنُهم كِتْبَةُ كلِّ قولٍ وعَملٍ ما لا يتعلّق به الجزاء ويُثبِت الباقيَ، أو يمحو سيّئات التائب ويُثبِت مكانها الحسنة، أو يمحو قَرنًا ويُثبِت آخرين، أو يمحو الفاسدات مِن العالم الجسماني، ويثبت الكائنات، أو يمحو الرزق ويزيد فيه، أو يمحو الأجل أو السعادة والشقاوة، وبه قال ابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهم.[١] والقائلون به يتضرّعون إلى الله تعالى أن يجعلهم سُعَداءَ، وهذا رواه جابر عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[٢]

والأنسب تعميم كلّ مِن المحو والإثبات ليشمل الكلّ، ويدخل في ذلك موادُّ الإنكار دخولًا أوّليًا. وقُرئ بالتشديد.[٣] ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصله،

---

[١] التفسير الوسيط للواحدي، ١١٩/٣؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٤/٤.

[٢] التفسير البسيط للواحدي، ٣٧٨/١٢. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٦٦/١٣.

[٣] أي: "ويُثَبِّتُ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلَف. النشر لابن الجزري، ٢٩٨/٢.

وهو اللوح المحفوظ، إذ ما مِن شيء مِن الذاهب والثابت إلّا وهو مكتوبٌ فيه كما هو.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ۝٤٠ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٤١﴾

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصلُه "إنْ نُرِكَ"، و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد معنى الشرط، ومِن ثمّة أُلحقت النون بالفعل. ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ أو وعدناهم مِن إنزال العذاب عليهم، والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، أو نعِدهم وعدًا متجدِّدًا حسبما يقتضيه الحكمة مِن إنذارٍ غِبَّ إنذارٍ، وفي إيراد "البعض" رمز إلى إراءة بعض الموعود.

﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ أي: تبليغُ أحكام الرسالة بتمامها، لا تحقيقُ مضمون ما بلّغته مِن الوعيد الذي هو مِن جملتها، / ﴿وَعَلَيۡنَا﴾ لا عليك ﴿ٱلۡحِسَابُ﴾ محاسبة أعمالهم السيّئة والمؤاخذة بها، [٢٥٢و] أي: كيفما دارت الحال أريناك بعضَ ما وعدناهم مِن العذاب الدنيوي أو لم نُرِكَهُ فعلينا ذلك، وما عليك إلّا تبليغ الرسالة، فلا تهتمَّ بما وراء ذلك، فنحن نكفيكَه، ونُتِمّ مَا وعدناك مِن الظفَر، ولا يُضجِرْك تأخّرُه، فإنّ ذلك لِما نعلم مِن المصالح الخفيّة.

ثمّ طيّب نفسه عليه السلام بطلوع تباشيره فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ استفهام إنكاري، والواو للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أَأَنكرُوا نزولَ ما وعدناهم؟ أوْ أَشكّوا؟ أوْ أَلَم ينظروا في ذلك، ولم يرَوا ﴿أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: أرضَ الكفر ﴿نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَا﴾ بأن نفتحها على المسلمين شيئًا فشيئًا، وَنُلْحِقَها بدار الإسلام، ونُذهِبَ منها أهلَها بالقتل والأسر والإجلاءِ؟ أَلَيس هذا مِن ذلك؟ ومثلُه قوله عزّ سلطانه: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء، ٢١/٤٤].

وقوله: ﴿نَنقُصُهَا﴾ حال مِن فاعل ﴿نَأْتِي﴾ أو مِن مفعوله. وقُرئ: "نُنَقِّصُهَا" بالتشديد.[١] وفي لفظ الإتيان المُؤذِن بالاستواء المحتوم والاستيلاءِ العظيم مِن الفخامة ما لا يخفى، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٣].

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ ما يشاء كما يشاء، وقد حكم للإسلام بالعزّة والإقبال، وعلى الكفر بالذِّلّة والإدبار حسبما يشاهَد مِن المخائل والآثار. وفي الالتفات مِن التكلّم إلى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الجليل مِن الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلّة ما لا يخفى. وهي جملة اعتراضيّة جيء بها لتأكيد فحوى ما تقدّمها.

وقوله تعالى: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ اعتراض في اعتراض لبيان علوّ شأن حُكمه / جلّ جلاله. [٢٥٢ظ] وقيل: نصب على الحاليّة، كأنّه قيل: والله يحكم نافِذًا حكمُه، كما تقول: جاء زيد لا عِمامةَ على رأسه، أي: حاسِرًا. والمُعقِّب: مَن يَكُرُّ على الشيء فيبطله، وحقيقته مَن يُعَقِّبُه ويُقَفِّيه بالردّ والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحقّ: مُعقِّب؛ لأنّه يقفّي غريمَه بالاقتضاء والطلب.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فعَمّا قليل يحاسبهم ويجازيهم في الآخرة بأفانين العذاب غِبَّما عذّبهم بالقتل والأسر والإجلاء حسبما يُرَى. وقال ابن عبّاس رضي الله عنه: «سريع الانتقام».[٢]

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾ الكفّار ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خلَوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن قَبل كفّار مكّة بأنبيائهم وبالمؤمنين كما مكَر هؤلاء. وهذا تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنّه لا عبرةَ بمكرهم ولا تأثيرَ؛ بل لا وجود له في الحقيقة، ولم يُصرِّحْ بذلك

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وعطيّة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٧.

٢ التفسير البسيط للواحدي، ١٢/٣٨٥؛ اللباب لابن عادل، ١١/٣٢٣.

اكتفاءً بدلالة القصر المستفاد مِن تعليله، أعني: قولَه تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾ أي: جنس المكر ﴿جَمِيعًا﴾ لا وجودَ لِمَكرِهم أصلًا، إذ هو عبارة عن إيصال المكروه إلى الغير مِن حيث لا يشعر به، وحيث كان جميع ما يأتون وَما يَذرون بعلم الله تعالى وقدرته وإنّما لهم مجرّد الكسب مِن غير فعل ولا تأثيرٍ حسبما يبيّنه قوله عزّ وجلّ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ومِن قضيّته عِصمة أوليائه وعقابُ الماكرين بهم توفيةً لكلّ نفس جزاءَ ما تكسبُه؛ ظهر أن ليس لمَكرهم بالنسبة إلى مَن مكروا بهم عين ولا أثر، وأنّ المَكر كلَّه لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا مِن فنون المعاصي التي مِن جملتها مَكرُهم مِن حيث لا يحتسبون.

أو لله المكرُ الذي باشروه جميعًا، لا لهم، على معنى أنّ ذلك ليس مكرًا منهم بالأنبياء؛ بل هو بعينه مَكر مِن الله تعالى بهم وهم لا يشعرون، حيث لا يَحيق المكر السيّء إلّا بأهله.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾ حين يقضي بمقتضى علمه فيوفّي كلّ نفس / جزاءَ ما [٢٥٣و] تَكسبه ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: العاقبة الحميدة مِن الفريقين وإن جهلوا ذلك يومئذ. وقيل: "السين" لتأكيد وقوع ذلك وعلمهم به حينئذ. وقُرئ: "سَيَعْلَمُ الْكَافِرُ"[١] على إرادة الجنس، و"الْكَافِرُونَ"،[٢] و"الْكُفْرُ"،[٣] أي: أهلُه، و"الَّذِينَ كَفَرُوا"،[٤] و"سَيُعْلَمُ" على صيغة المجهول[٥] مِن الإعلام، أي: سَيُخْبَر.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قيل: قاله رؤساء اليهود.[٦] وصيغة الاستقبال

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٧.

[٣] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري ولم أجد قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣٥. وذكر الكرماني عن ابن عمير: "وَسَيَعْلَمُ الْكَفَرَةُ". انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٧.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٧.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حُبيش. **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣٥؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٦/٤٠٢.

[٦] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣/١٩١.

لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاءِ تعجيبًا منها، أو للدلالة على تجدّد ذلك واستمراره منهم.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنّه قد أظهر على رسالتي مِن الحجج القاطعة والبيّنات الساطعة ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر، ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: علم القرآن وما عليه مِن النظم المعجز، أو مَن هو مِن علماء أهل الكتاب الذين أسلموا؛ لأنّهم يشهدون بنَعته عليه السلام في كتبهم، والآيةُ مدنيّة بالاتّفاق، أو مَن عنده علم اللوح المحفوظ، وهو الله سبحانه، أي: كفى شاهدًا بيننا بالذي يستحقّ العبادة، فإنّه قد شحَن كتابه بالدعوة إلى عبادته، وأيّدَني بأنواع التأييد، وبالذي يختصّ بعلمِ ما في اللوح مِن الأشياء الثابتة[1] التي مِن جملتها رسالتي. وقُرئ: "مِنْ عِنْدِهِ" بالكسر.[2] و﴿عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على الأوّل مرتفع بالظرف المعتمد على الموصول، أو مبتدأ خبره الظرف، وهو متعيّن على الثاني، و"مِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الْكِتَابُ" بالكسر وبناء المفعول ورفع ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾.[3]

عن رسول الله صلّى الله[4] عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الرعد أُعطي مِن الأجر عشر حسنات بوزن كلّ سحابٍ مضى، وكلّ سحاب يكون إلى يوم القيامة، وبُعث يوم القيامة مِن الموفِّين بعَهد الله عزّ وجلّ».[5]

والله تعالى أعلم.

---

[1] م ط س: الكائنة [صُحّح في هامش م]. ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وأُبيّ بن كعب وابن عبّاس رضي الله عنهم والحسن ومجاهد وعكرمة والضحّاك وغيرهم. انظر: **المحتسب** لابن جنّي، ١/٣٥٨؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٧.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه أيضًا وابن السميفع والحسَن بخلاف عنه. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٦/٤٠٣.

[4] س + تعالى.

[5] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٥/٢٦٧؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

[٢٥٣ظ]

/ سورة إبراهيم عليه السلام

وهي إحدى وخمسون آيةً.[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾

﴿الٓر﴾ مرّ الكلام فيه وفي محلّه غير مرّة. وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر له على تقدير كون ﴿الٓر﴾ مبتدأً، أو لمبتدأ مضمَر على تقدير كونه خبرًا لمبتدأٍ محذوف، أو مسرودًا على نمط التعديد، ويجوز أن يكون خبرًا ثانيًا لهذا المبتدأ المحذوف. وقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ صفة له.

وقوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ متعلّق بـ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، أي: لتخرجهم كافّةً بما في تضاعيفه مِن البيّنات الواضحة المُفصِحةِ عن كونه مِن عند الله عزّ وجلّ، الكاشفةِ عن العقائد الحقّة. وقُرئ: "لِيَخْرُجَ النَّاسُ"،[2] أي: لِيَخرُج به الناسُ ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ مِن عقائد الكفر والضلال التي كلّها ظلمات محضة وجهالات صِرفة ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الحقّ الذي هو نور بَحت، لكن لا كيف ما كان، فإنّك لا تهدي مَن أحببت؛ بل ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: بتيسيره وتوفيقه.

وللإنباء عن كون ذلك مَنوطًا بإقبالهم إلى الحقّ -كما يُفصِح عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ [الرعد، ٢٧/١٣]- استُعِير له الإذنُ الذي هو عبارة عن تسهيل الحجاب لمَن يقصد الورودَ، وأُضِيفَ إلى ضميرهم اسمُ الربِّ المُفصحُ عن التربية التي هي عبارة عن تبليغ الشيء إلى كماله المتوجِّهِ إليه.

---

[1] س: سورة إبراهيم، مكيّة، وهي إحدى وخمسون أو ثنتان أو أربع أو خمس.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عياض. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.

وشمول الإذن بهذا المعنى للكلّ واضح، وعليه يدور كون الإنزال لإخراجهم جميعًا. وعدمُ تحقّق الإذن بالفعل في بعضهم لعدم تحقّق شرطه[١] المستنِد إلى سوء اختيارهم غيرُ مخِلّ بذلك.

و"الباء" متعلّقة بـ﴿تُخْرِجَ﴾، أو بمُضمَر وقع حالًا مِن مفعوله، أي: ملتبسين بإذن ربّهم. وجعلُه حالًا مِن فاعله[٢] يأباه إضافة الربّ إليهم، لا إليه.

وحيث كان الحقّ مع وضوحه في نفسه وإيضاحِه لغيره موصلًا إلى الله عزّ وجلّ استُعير له "النور" تارةً و"الصراط" أخرى، فقيل: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ على وجه الإبدال بتكرير العامل، كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف، ٧/٧٥]، وإخلالُ البدل والبيان بالاستعارة إنّما هو في الحقيقة لا في المجاز، كما في قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة، ٢/١٨٧].

وقيل: هو استئناف مبنيّ على سؤال، كأنّه قيل: إلى أيّ نور؟ فقيل: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾. وإضافة "الصراط" / إليه تعالى لأنّه مَقصِده أو المبيِّن له. وتخصيص الوصفين بالذكر للترغيب في سلوكه ببيان ما فيه مِن الأمن والعاقبةِ الحميدة. [٢٥٤و]

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾

﴿ٱللَّهِ﴾ بالجرّ عطف بيان لـ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾؛ لجريانه مَجرى الأعلام الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحقّ، كالنجم في الثريّا. وقُرئ بالرفع[٣] على "هُوَ اللهُ"،[٤] أي: العزيزُ الحميد -الذي أضيفَ إليه الصراطُ- اللهُ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ مِلكًا ومُلكًا ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما وجد فيهما داخلًا فيهما أو خارجًا عنهما متمكّنًا فيهما، كما مرّ في آية الكرسي. ففيه على القراءتين بيانٌ لكمال فَخامة

---

١ وفي هامش م: أي: التوجّه والإقبال. «منه».
٢ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٢/٣.
٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر، وقرأ رُويس برفع الهاء في الابتداء وخفضِها في الوصل. النشر لابن الجزري، ٢٩٨/٢.
٤ أي: على تقدير: "هو اللهُ".

شأن الصراط، وإظهارٌ لتحتّم سلوكه على الناس قاطبةً. وتجويز الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرًا[١] مبناه الغُفول عن هذه النكتة.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وعيد لمَن كفر بالكتاب ولم يخرج به مِن الظلمات إلى النور بالويل، وهو نقيض الوَأل؛ وهو النجاة. وأصله النصب كسائر المصادر ثمّ رُفِعَ رَفعَها للدلالة على الثبات، كـ"سلامٌ عليك". ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ متعلّق بـ﴿وَيْلٌ﴾ على معنى: يُوَلْوِلُون[٢] ويضجّون منه قائلين: يا وَيلاه، كقوله تعالى: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان، ١٣/٢٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يُؤثِرونها، استفعال مِن المحبّة، فإنّ المُؤثِر للشيء على غيره كأنّه يطلب مِن نفسه أن يكون أحبّ إليها وأفضل عندها مِن غيره. ﴿عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: الحياةِ الآخرة الأبديّة.

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التي بيّن شأنها. والاقتصار على الإضافة إلى الاسم الجليل المنطوي على كلّ وصف جميلٍ لزومُ الاختصار. وهو مِن "صَدّه صَدًّا". وقُرئ: "يُصِدُّونَ"[٣] مِن "أَصَدّ" المنقول مِن "صَدَّ صُدودًا" إذا نكَبَ، وهو غير فصيح كـ"أَوْقَفَ"، فإنّ في "صَدَّه ووقَفَه" لَمَنْدُوحَةً عن تكلّف النقل.

﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي: يبغون لها، فحُذف الجارّ وأُوصِل الفعل إلى الضمير، أي: يطلبون لها ﴿عِوَجًا﴾ أي: زَيغًا واعوِجاجًا وهي أبعد شيء مِن ذلك، أي: يقولون لمَن يريدون صدّه وإضلاله: إنّها سبيل ناكِبة وزائغة غيرُ مستقيمة.

ومحلُّ موصولِ هذه الصلات الجرُّ على أنّه بدل مِن ﴿الْكَٰفِرِينَ﴾، أو صفةٌ لَهُ فيُعتبر كلُّ وَصْفٍ مِن أوصافهم بإزاء ما يناسبه مِن المعاني / المعتبرة في "الصراط". فالكفر المنبئ عن الستر بإزاء كونه نورًا، واستحبابُ الحياة الدنيا [٢٥٤ظ]

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٢/٣.

٢ وفي هامش م: أي: يكرّرُون الوَيل.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.

الفانيةِ المُفصِحةِ عن وَخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه محمودَ العاقبة، والصدُّ عنه بإزاء كونه مأمونًا. وفيه مِن الدلالة على تماديهم في الغيّ ما لا يخفى.

أو النصب على الذمّ، أو الرفع على الابتداء، والخبر قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾، وعلى الأوّل جملة مستأنَفة وقعت معلِّلةً لِما سبق مِن لحوق الويل بهم، تأكيدًا لِما أَشعر به بناءُ الحكم على الموصول، أي: أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة -مِن استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، وصدِّ الناس عن سبيل الله المستقيمة، ووصفِها بالاعوجاج وهي منه بِنُزْهٍ- في ضلال عن طريق الحقّ بعيدٍ بالغٍ في ذلك غايةَ الغايات القاصية. والبعد وإن كان مِن أحوال الضالّ إلّا أنّه قد وُصف به وصفُه مجازًا للمبالغة، كـ"جَدّ جِدّه"، و"داهية دهياء". ويجوز أن يكون المعنى في ضلال ذي بُعد، أو فيه بعد، فإنّ الضالّ قد يضلّ عن الطريق مكانًا قريبًا، وقد يضلّ بعيدًا. وفي جَعل الضلال محيطًا بهم إحاطةَ الظرف بما فيه ما لا يخفى مِن المبالغة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ أي: في الأمم الخالية مِن قَبلك -كما سَيُذكَرُ إجمالًا- ﴿مِن رَّسُولٍ إِلَّا﴾ ملتبسًا ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ متكلّمًا بلغة مَن أرسلَ إليهم مِن الأمم المتّفقة على لغةٍ، سواء بعث فيهم أو لا. وقُرئ: "بِلِسْنِ"، وهو لغة فيه، كـ"رِيش ورِياش"، و"بِلُسُنِ" بضمّتين، وضمّة وسكون،[١] كعُمُدٍ وَعُمْدٍ.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ ما أُمروا به، فيتلقَّوه منه بيُسر وسرعة، ويعملوا بموجَبه مِن غير حاجةٍ إلى الترجمة ممَّن لم يؤمر به.

وحيث لم يمكن مراعاة هذه القاعدة في شأن سيّدنا صلّى الله عليه[٢] وعليهم أجمعين؛ لعموم بعثته الثقلينِ كافّةً على اختلاف لغاتهم، وكان تعدُّد

---

[١] القراءات الثلاث شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. وعن الأعمش: "بِلَسْنِ" بفتح اللام وسكون السين. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.

[٢] س + وسلّم.

نظم الكتاب[١] المنزّل إليه حسب تعدّد ألسنة الأمم أدعى إلى التنازع واختلاف الكلمة وتطرّق أيدي التحريف، مع أنّ استقلال بعضٍ مِن ذلك بالإعجاز دون غيره مئِنّة لقدح القادحين، واتّفاقَ الجميع / فيه أمر قريب مِن الإلجاء، وحصل البيان بالترجمة والتفسير؛ اقتضت الحكمة اتّحاد النظم المنبئ عن العزّة وجلالة الشأن المستتبع لفوائدَ غنيّة عن البيان، على أنّ الحاجة إلى الترجمة تتضاعف عند التعدّد، إذ لا بدّ لكلّ أمّة مِن معرفة توافق الكلّ وتحاذيه حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّة[٢] مِن غير مخالفة ولو في خَصلة فذّةٍ،[٣] وإنّما يتمّ ذلك بمَن يترجم عن الكلّ واحدًا أو متعدّدًا، وفيه مِن التعذّر ما يتاخم الامتناع. [٢٥٥و]

ثمّ لمّا كان أشرف الأقوام وأولاهم بدعوته عليه السلام قومه الذين بُعث فيهم ولغتُهم أفضلَ اللغات نزل الكتاب المتين بلسان عربي مبين، وانتشرت أحكامه فيما بين الأمم أجمعين.

وقيل:[٤] الضمير في ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، فإنّه تعالى أنزل الكتب كلّها عربيّة ثمّ ترجمها جبريل عليه السلام، أو كلّ مَن نزل عليه مِن الأنبياء عليهم السلام بلغة مَن نزل عليهم. ويردّه قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾، فإنّه ضمير القوم، وظاهر أنّ جميع الكتب لم ينزل لتبيين العرب. وَفي رَجْعِه إلى قوم كلّ نبيّ -كأنّه قيل: وما أرسلنا مِن رسول إلّا بلسان قوم محمّد عليه السلام ليبيّن الرسول لقومه الذين أرسل إليهم-[٥] ما لا يخفى مِن التكلّف.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه، أي: يخلق فيه الضلال لِمباشرة أسبابه المؤدّية إليه، أو يخذله ولا يلطف به لِما يَعلم أنّه لا ينجع فيه الإلطاف. ﴿وَيَهۡدِي﴾ بالتوفيق ومنح الإلطاف ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه لِما فيه مِن الإنابة والإقبال إلى الحقّ.

---

[١] س - الكتاب.

[٢] أي: مِثلًا بمِثل. وهو مَثَل يُضرب في التسوية بين الشيئين. ومثله "حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعل". والقُذَّة: مِن القَذِّ وهو القطع، يعني: قَطع الريشة المقذوذة على قدر صاحبتها في التسوية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٩٥.

[٣] الفَذُّ: الفردُ. الصحاح للجوهري، «فذذ».

[٤] ذكره الزمخشري، وقال: «روَوه عن الضحّاك... وليس بصحيح». انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٩.

[٥] انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٨/٥٤٩.

والالتفات بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل المنطوي على الصفات لتفخيم شأنهما وترشيح مَناط كلّ منهما. و"الفاء" فصيحة، مثلها في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ[1] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٦٣]، كأنّه قيل: فبيَّنوه لهم، فأضلّ الله منهم مَن شاء إضلالَه لِما لا يليق إلّا به، وهدى مَن شاء هدايته لاستحقاقه لها. والحذف للإيذان بأنّ مسارعة كلّ رسول إلى ما أُمِرَ به وجريانَ كلّ مِن أهل الخذلان والهداية على سُننه أمرٌ محقّق غنيّ عن الذكر والبيان.

[٢٥٥ظ] والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار / الصورة، أو للدلالة على التجدّد والاستمرار، حسب تجدّد البيان مِن الرسل المتعاقِبة عليهم السلام. وتقديم الإضلال على الهداية إمّا لأنّه إبقاءُ ما كان على ما كان، والهداية إنشاءُ ما لم يكن، أو للمبالغة في بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير مِن قِبَل الرسل، وأنّ مدار الأمر إنّما هو مشيئته تعالى بإيهام أنّ ترتّب الضلالة على ذلك أسرع مِن ترتّب الاهتداء، وهذا محقِّق لِما سلف مِن تقييد الإخراج مِن الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يغالَبُ في مشيئته ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل شيئًا مِن الإضلال والهداية إلّا لحكمةٍ بالغة. وفيه أنّ ما فُوِّض إلى الرسل إنّما هو تبليغ الرسالة وتبيين طريق الحقّ، وأمّا الهداية والإرشاد إليه فذلك بيد الله سبحانه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ شروع في تفصيل ما أُجمِلَ في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ الآيةَ.[2] ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: ملتبِسًا بها، وهي معجزاته التي أظهرها لبني إسرائيل. ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ بمعنى: أي: أَخرِجْ؛

---

[1] م س - ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ﴾؛ م س + فقلنا.

[2] في الآية السابقة.

لأنّ الإرسال فيه معنى القول، أو بأن أَخرِجْ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [يونس، ١٠/١٠٥]، فإنّ صيغ الأفعال في الدلالة على المصدر سواء، وهو المدار في صحّة الوصل. والمراد بذلك إخراج بني إسرائيل بعد مَهلِك فرعون.

﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ مِن الكفر والجهالات التي أدّتهم[1] إلى أن يقولوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف، ٧/١٣٨]. ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الإيمان بالله وتوحيده وسائرِ ما أُمروا به. ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي: بنَعمائه وبلائه كما يُنبئ عنه قوله عليه السلام: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾،[2] لكن لا بما جرى عليهم فقط؛ بل عليهم وعلى مَن قبلهم مِن الأمم في الأيّام الخالية حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآيات،[3] أو بأيّامه المنطوية على ذلك كما يلوّح به قوله: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم﴾.[4]

والالتفات مِن التكلّم إلى الغيبة بإضافة "الأيّام" إلى الاسم الجليل للإيذان بفخامة شأنها، والإشعارِ بعدم اختصاص ما فيها مِن المعاملة بالمخاطَب وقومه كما يوهمه الإضافة إلى ضمير التكلّم، أي: عِظْهُم بالترغيب والترهيب والوعدِ والوعيد.

وقيل:[5] / ﴿أَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ وقائعِه التي وقعت على الأمم قبلَهم، و"أيّامُ العرب": وقائعها وحروبها وملاحمها، أي: أنذِرهم وقائعَه التي دَهِمَت الأمم الدارجة. ويردّه ما تصدّى له عليه السلام بصدد الامتثال مِن التذكير بكلٍّ مِن السرّاء والضرّاء ممّا جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يُتلى عليك. [٢٥٦و]

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في التذكير بها، أو في مجموع تلك النعماءِ والبلاء، أو في أيّامها ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمةً أو كثيرةً دالّةً على وحدانيّة الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته. فهي على الأوّل[6] عبارة عن الأيّام سواء أُريدَ بها أنفسُها أو ما فيها

---

[1] ط س: أدّاهم. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[2] في الآية التالية.

[3] إبراهيم، ١٤/٩.

[4] في الآية التالية.

[5] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٥٤٠؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/١٩٣.

[6] وفي هامش م: هو كون ذلك إشارة إلى التذكير. «منه».

مِن النعماء والبلاء، ومعنى ظرفيّة التذكير لها كونه مناطًا لظهورها. وعلى الثالث[١] عن تلك النعماء والبلاء، ومعنى الظرفيّة ظاهر. وأمّا على الثاني[٢] فعن كلّ واحدة مِن تلك النعماء والبلاء، والمشارُ إليه المجموع المشتمل عليها مِن حيث هو مجموع، أو كلمةُ ﴿فِي﴾ تجريديّة، مثلها في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت، ٢٨/٤١].

﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنَعمائه. وقيل: لكلّ مؤمن، والتعبير عنهم بذلك للإشعار بأنّ الصبر والشكر عنوان المؤمن، أي: لكلّ مَن يليق بكمال الصبر والشكر أو الإيمان ويصير أمره إليها، لا لِمَن اتّصف بها بالفعل؛ لأنّه تعليل للأمر بالتذكير المذكور السابق على التذكّر المؤدّي إلى تلك المرتبة، فإنّ مَن تذكّر ما فاض أو نزل عليه أو على مَن قبله مِن النعماء والبلاء وتنبّه لعاقبة الشكر والصبر أو الإيمان لا يكاد يفارقها. وتخصيص الآيات بهم لأنّهم المنتفِعون بها، لا لأنّها خافية عن غيرهم، فإنّ التبيين حاصل بالنسبة إلى الكلّ. وتقديم "الصبّار" على "الشكور" لتقدّم متعلَّق الصبر –أعني: البلاء– على متعلَّق الشكر –أعني: النعماء–، وكونِ الشكر عاقبة الصبر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ شروع في بيان تصدّيه عليه السلام لِما أُمِر به مِن التذكير للإخراج المذكورِ. و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمُضمَر خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وتعليق الذكر بالوقت مع أنّ المقصود تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث قد مرّ سرّه غيرَ مرّة،[٣] أي: اذكر لهم وقتَ قوله عليه السلام لقومه: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بدأ عليه السلام بالترغيب لأنّه عند النفس أقبَل، وهي إليه أميَل.

---

١ وفي هامش م: وهو كونه إشارة إلى أيّامها. «منه».

٢ وفي هامش م: وهو كونه إشارةً إلى مجموع النعماء والبلاء. «منه».

٣ وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة، ٣٠/٢]، وغيره مِن المواقع. «منه».

والظرف متعلّق بنفس النعمة إن جُعلت مصدرًا، وبمحذوف وقع حالًا منها إن جعلت اسمًا، أي: اذكروا إنعامه عليكم، أو اذكروا نعمته كائنةً عليكم. وكذا كلمةُ ﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ / أي: اذكروا إنعامه عليكم وقت إنجائه إيّاكم مِن آل فرعونَ، أو اذكروا نعمة الله مستقرّةً عليكم وقتَ إنجائه إيّاكم منهم. أو بدلُ اشتمال مِن ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ مرادًا بها الإنعام أو العطيّة. [٢٥٦ظ]

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يبغونكم، مِن "سامَهُ خَسْفًا" إذا أولاه ظلمًا، وأصل السَّوم الذهاب في طلب الشيء. ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ "السوء" مصدر "ساءَ يسُوء"، والمراد به جنس العذاب السيّء، أو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقّة والاستهانةُ بهم وغيرُ ذلك ممّا لا يُحصر. ونصبه على أنّه مفعول لـ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾.

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ المولودين. وإنّما عطفه على ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ إخراجًا له عن مرتبة العذاب المعتاد. وإنّما فعلوا ذلك لأنّ فرعونَ رأى في المنام -أو قال له الكهنة- أنّه سيولد منهم مَن يذهب بمُلكه، فاجتهدوا في ذلك، فلم يغنِ عنهم مِن قضاء الله شيئًا.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: يُبقونهنّ في الحياة مع الذلّ والصَّغار، ولذلك عُدّ مِن جملة البلاء. والجُمل أحوال مِن ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، أو مِن ضمير المخاطبِين، أو منهما جميعًا؛ لأنّ فيها ضمير كلّ منهما.

﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ أي: فيما ذكر مِن أفعالهم الفظيعة ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: ابتلاء منه، لا أنّ البلاء عين تلك الأفعال، اللّهمّ إلّا أن يُجعل ﴿فى﴾ تجريديّة، فنسبته إلى الله تعالى إمّا مِن حيث الخلقُ أو الإقدارُ والتمكين. ﴿عَظِيمٌ﴾ لا يطاق. ويجوز أن يكون المشار إليه الإنجاءَ مِن ذلك. و"البلاء": الابتلاءُ / بالنعمة، وهو الأنسب كما يلوِّح به التعرّض لوصف الربوبيّة. وعلى الأوّل يكون ذلك باعتبار المآل الذي هو الإنجاء، أو باعتبار أنّ بلاء المؤمِن تربيةٌ له. [٢٥٧و]

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ مِن جملة مقال موسى عليه السلام لقومه، معطوف على ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾، أي: اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذّن ربُّكم، أي:

آذن إيذانًا بليغًا لا تبقى معه شائبةُ شبهةٍ، لِما في صيغة التفعّل مِن معنى التكلّف المحمول في حقّه سبحانه على غايته التي هي الكمال. وقيل: هو معطوف على قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنجَىٰكُم﴾،[1] أي: اذكروا نعمته تعالى في هذين الوقتين، فإنّ هذا التأذّن أيضًا نعمة مِن الله تعالى عليهم ينالون بها خيرَي الدنيا والآخرة. وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ".[2]

ولقد ذكّرهم عليه السلام أوّلًا بنَعمائه تعالى عليهم صريحًا، وضمّنه تذكيرَ ما أصابهم قبل ذلك مِن الضرّاء، ثمّ أمرهم ثانيًا بذكر ما جرى مِن الله سبحانه مِن الوعد بالزيادة على تقدير الشكر، والوعيدِ بالعذاب على تقدير الكفر. والمراد بتذكير الأوقات تذكير ما وقع فيها مِن الحوادث مفصّلةً، إذ هي محيطة بذلك، فإذا ذُكرت ذُكر ما فيها كأنّه مشاهَد مُعايَنٌ.

﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ﴾ يا بني إسرائيل ما خوّلتُكم مِن نعمة الإنجاء وإهلاك العدوّ وغير ذلك مِن النعم والآلاء الفائتة للحصر وقابلتموه بالإيمان والطاعة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ نعمةً إلى نعمةٍ، ﴿وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ﴾ ذلك وغمَطتُموه ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم.

ومِن عادة الكرام التصريح بالوعد، والتعريضُ بالوعيد، فما ظنّك بأكرم الأكرمين؟ ويجوز أن يكون المذكور تعليلًا للجواب المحذوف، أي: لَأعذِّبنّكم.

و"اللام" في الموضعين موطّئة للقسَم، وكلٌّ مِن الجوابين سادّ مَسدّ جوابَي الشرط والقسَم. والجملة إمّا مفعول / لـ﴿تَأَذَّنَ﴾ لأنّه ضرب مِن القول، أو لقولٍ مقدّر بعده، كأنّه قيل: وإذ تأذّن ربّكم فقال... إلخ. [٢٥٧ظ]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩﴾

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ١٣/٦٠١، والكشف والبيان للثعلبي، ٥/٣٠٦.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ﴾ نِعَمَهُ تعالى ولم تشكروها ﴿أَنتُمۡ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن الخلائق ﴿جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم وشكر غيركم، ﴿حَمِيدٌ﴾ مستوجِب للحمد بذاته لكثرة ما يوجبه مِن أياديه وإن لم يحمَده أحد، أو محمود يحمَده الملائكة؛ بل كلّ ذرّة مِن ذرّات العالم ناطقة بحمده. والحمد حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها مِن الفضائل كان أدلّ على كماله سبحانه. وهو تعليل لِما حُذف مِن جواب ﴿إن﴾، أي: إن تكفروا لم يرجع وَباله إلّا عليكم فإنّ الله تعالى لغنيّ عن شكر الشاكرين.

ولعلّه عليه السلام إنّما قاله عندما عايَن منهم دلائلَ العناد، ومخائلَ الإصرار على الكفر والفساد، وتيقّن أنّه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريضُ بالترهيب، أو قاله غِبَّ تذكيرهم بما ذُكر مِن قول الله عزّ سلطانه تحقيقًا لمَضمونه وتحذيرًا لهم مِن الكفران.

ثمّ شرع في الترهيب بتذكير ما جرى على الأمم الخالية فقال: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ ليتدبّروا ما أصاب كلّ واحد مِن حِزبَيِ المؤمِن والكافر، فيُقْلِعُوا عمّا هم عليه مِن الشرّ، ويُنِيبوا إلى الله تعالى. وقيل:[1] هو ابتداءُ كلام مِن الله سبحانه خطابًا للكفرة في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيختصّ تذكير موسى عليه السلام بما اختصّ ببني إسرائيل مِن السرّاء والضرّاء، والأيّامُ بالأيّام الجارية عليهم فقط. وفيه ما لا يخفى مِن البُعد، وأيضًا لا يظهر حينئذ وجه تخصيصِ تذكير الكفرة الذين في عهد النبيّ عليه الصلاة والسلام[2] بما أصاب أولئك المعدودين مع أنّ غيرهم أسوة لهم في الخلوّ قبل هؤلاء.

﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ بدل مِن الموصول، أو عطف بيان، ﴿وَعَادٖ﴾ معطوف على ﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾، ﴿وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بعد هؤلاءِ المذكورين، عطفٌ على ﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ وما عُطف عليه.

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/١٩٤.

٢ م: عليه الصلاة؛ س: عليه السلام. | والمثبت مِن ط.

[٢٥٨و] وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ / اعتراض، أو الموصول مبتدأ، و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ﴾ إلى آخره خبره، والجملة اعتراض، والمعنى: أنّهم مِن الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلّا اللهُ سبحانه. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «بين عدنانَ وإسماعيلَ ثلاثون أبًا لا يُعرفون».[١] وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية قال: «كذَب النسّابون»،[٢] يعني: أنّهم يَدَّعون عِلْمَ الأنساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ استئناف لبيان نبَئِهم ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ بالمعجزات الظاهرة والبيّنات الباهرة، فبَيَّنَ كلُّ رسول لأمّتِه طريقَ الحقّ، وهداهم إليه ليخرجهم مِن الظلمات إلى النور، ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ مشيرين بذلك إلى ألسنتهم وما يصدر عنها مِن المقالة اعتناءً منهم بشأنها، وتنبيهًا للرسل على تلقّيها والمحافظة عليها، وإقناطًا لهم عن التصديق والإيمان بإعلام أن لا جواب لهم سِواه.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: على زعمكم، وهي البيّنات التي أظهروها حجّةً على صحّة رسالاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [هود، ٩٦/١١]، ومرادهم بالكفر بها الكفرُ بدلالتها على صحّة رسالاتهم، أو فَعَضُّوها غَيْظًا وضجَرًا مِمّا جاءت به الرسل، كقوله تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران، ١١٩/٣]، أو وَضعوها عليها تعجّبًا منه واستهزاءً به، كمَن غلبه الضحِك، أو إسكاتًا للأنبياء وأمرًا لهم بإطباق الأفواه، أو ردّوها في أفواه الأنبياء عليهم السلام يمنعونهم مِن التكلّم تحقيقًا أو تمثيلًا، أو جعلوا أيدي الأنبياء في أفواههم تعجّبًا مِن عتوّهم وعنادهم، كما ينبئ عنه تعجّبهم[٣] بقولهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾... إلخ.[٤]

وقيل: الأيدي بمعنى الأيادي، عبّر بها عن مواعظهم ونصائحهم وشرائعهم التي هي مدار النعم الدينيّة والدنياويّة؛ لأنّهم لمّا كذّبوها فلم يقبلوها فكأنّهم ردّوها إلى حيث جاءت منه.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٢؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٢٦/٣؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ١٠/٥.

[٢] جامع البيان للطبري، ٦٠٤/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٧/٥.

[٣] وفي هامش م: أي: تعجّب الرسل. «منه».

[٤] في الآية التالية.

﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ مِن الإيمان بالله والتوحيد، فلا ينافي شكّهم في ذلك كفرَهم القطعي بما أرسل به الرسل مِن البيّنات، فإنّهم كفروا بها قطعًا حيث لم يعتدّوا بها / ولم يجعلوها مِن جنس المعجزات، [٢٥٨ظ] ولذلك قالوا: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.[١] وقُرِئ: "تَدْعُونَّا" بالإدغام.[٢] ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، مِن "أرابَه"، أو ذي ريبة، مِن "أرابَ الرجل"، وهي قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشيء.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ينساق إليه المقال، كأنّه قيل: فماذا قالت لهم رسلهم؟ فأجيبَ بأنّهم قالوا منكرِين عليهم ومتعجّبين مِن مقالتهم الحمقاء: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ بإدخال الهمزة على الظرف؛ للإيذان بأنّ مدار الإنكار ليس نفسَ الشكّ؛ بل وقوعُه فيما لا يكاد يُتَوَهّم فيه الشكّ أصلًا، مُتَفادين عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا: أأنتم في شكّ مريب مِن الله تعالى؟ مبالغةً في تنزيه ساحة السُّبْحان[٣] عن شائبة الشكّ، وتسجيلًا عليهم بسخافة العقول، أي: أفِي شأنه سبحانه مِن وجوده ووحدته ووجوبِ الإيمان به وحدَه شكٌّ ما، وهو أظهر مِن كلّ ظاهر، وأجلى مِن كلّ جليّ، حتّى تكونوا مِن قِبَلِه في شكّ مريب؟

وحيث كان مقصدهم الأقصى الدعوةَ إلى الإيمان والتوحيد، وكان إظهار البيّنات وسيلةً إلى ذلك، لم يَتعرّضوا للجواب عن قول الكفرة: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾، واقتَصَروا على بيان ما هو الغاية القصوى، ثمّ عقّبوا ذلك الإنكارَ

---

[١] في الآية التالية.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.

[٣] قال أبو حيّان: «سُبحان: هو اسم وُضع موضع المصدر الذي هو التسبيح، وأصله الإضافة، ثمّ استعمل مقطوعًا عنها منوّنًا في الشعر وغير منوّن، وقيل: وُضع نكرة جارية مَجرى المصادر، فعُرِّف بالإضافة، وبـ"ال"، قال:

سُبحانك اللّهمّ ذا السُّبحان»

ارتشاف الضرَب لأبي حيّان، ١٣٦٦/٣.

بما يوجبه مِن الشواهد الدالّة على انتفاء المنكَر فقالوا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مبدعِهما وما فيهما مِن المصنوعات على نظام أنيق شاهد بتحقّق ما أنتم منه في شكّ. وهو صفة للاسم الجليل، أو بدل منه. وَ﴿شَكٌّ﴾ مرتفع بالظرف لاعتماده على الاستفهام. وجعلُه مبتدأً على أنّ الظرف خبره يفضي إلى الفصل بين الموصوف والصفة بالأجنبي، أعني: المبتدأ، والفاعلُ ليسَ بأجنبي مِن رافعه، وقد جُوّز ذلك أيضًا.

﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان بإرساله إيّانا، لا أنّا ندعوكم إليه مِن تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾.[1] ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ بسببه، أو يدعوكم لأجل المغفرة، كقولك: "دعوتُه ليأكلَ معي". ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعضَها، وهو / ما [٢٥٩و] عدا المظالم ممّا بينهم وبينه تعالى، فإنّ الإسلام يَجبُّه.

قيل: هكذا وقع في جميع القرآن في وعد الكفرة دون وعد المؤمنين تفرقةً بين الوعدين، ولعلّ ذلك لِما أنّ المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفرة مرتّبة على مَحض الإيمان، وفي شأن المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنّب عن المعاصي ونحو ذلك، فيتناول الخروج عن المظالم. وقيل: المعنى: ليغفر لكم بدلًا مِن ذنوبكم.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقتٍ سمّاه الله تعالى وجعله منتهى أعماركم على تقدير الإيمان.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف كما سبَق: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ مِن غير فضل يؤهّلكم لِما تدّعونه مِن النبوّة، ﴿تُرِيدُونَ﴾ صفة ثانية لـ﴿بَشَرٌ﴾ حملًا على المعنى، كقوله تعالى: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن، ٦/٦٤]، أو كلام مستأنَف، أي: تريدون بما تَتَصَدَّونَ له مِن الدعوة والإرشاد ﴿أَن تَصُدُّونَا﴾ بتخصيص العبادة بالله سبحانه ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: عن عبادة ما استمرّ آباؤنا على عبادته مِن غير شيء يوجبه، وإلّا ﴿فَأْتُونَا﴾ أي: إن لم يكن الأمر كما قلنا -بل كنتم رسلًا مِن جهة الله تعالى كما تدّعونه- فأتونا ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ يدلّ على فضلكم

[1] في الآية السابقة.

واستحقاقكم لتلك الرتبة، أو على صحّة ما تدّعونه مِن النبوّة حتّى نترك ما لم نَزَلْ نعبده أبًا عن جدّ.

ولقد كانوا آتوهم مِن الآيات الظاهرة والبيّنات الباهرة ما تخِرّ له صُمّ الجبال، ولكنّهم إنّما يقولون ما يقولون مِن العظائم مكابرةً وعنادًا وإراءةً لمَن وراءهم أنّ ذلك ليس مِن جنس ما ينطلق عليه السلطان المبين.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مُجاراةً معهم في أوّل مقالتهم، وإنّما قيل: ﴿لَهُمْ﴾ لاختصاص / الكلام بهم حيث أريدَ إلزامهم، بخلاف ما سلف مِن إنكار وقوعِ الشكّ في الله سبحانه، فإنّ ذلك عامّ وإن اختصّ بهم ما يعقُبه. [٢٥٩ظ]

﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما تقولون ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ﴾ بالنبوّة ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يعنون أنّ ذلك عطيّة مِن الله تعالى[١] يعطيها مَن يشاء مِن عباده بمحض الفضل والامتنان مِن غير داعية توجبه، قالوه تواضعًا وهضمًا للنفس، أو ما نحن مِن الملائكة؛ بل نحن بشر مثلكم في الصورة، أو في الدخول تحت الجنس، ولكنّ الله تعالى يمُنّ بالفضائل والكمالات والاستعدادات[٢] على مَن يشاء المَنّ بها، وما يشاء ذلك إلّا لعلمه باستحقاقه لها، وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادات هي التي يدور عليها فلَك الاصطفاءِ للنبوّة.

﴿وَمَا كَانَ﴾ وما صحّ وما استقام ﴿لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بحجّة مِن الحجج فضلًا عن السلطان المبين بشيء مِن الأشياء وسبب مِن الأسباب ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإنّه أمر يتعلّق بمشيئته تعالى، إن شاء كان، وإلّا فلا.

---

١ س - تعالى.

٢ م ط - والاستعدادات [هو في هامش م بدون إشارة إلى مكانه، ووُضع في ط قبل "والكمالات" وفي س بعده كما اثبتناه].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحدَه دون ما عداه مطلقًا ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أمرٌ منهم للمؤمنين بالتوكّل، ومقصودهم حمل أنفسهم عليه آثِرَ ذِي أَثِيرٍ، ألا يُرى إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا لَنَآ﴾ أي: أيّ عذر لنا ﴿أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في أن لا نتوكل عليه. والإظهار لِإظهار النشاط بالتوكّل عليه والاستلذاذِ بذكر اسمه تعالى وتعليلِ التوكّل. ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾ أي: والحال أنّه قَد فَعَل بنا ما يوجبه ويستدعيه حيث هدانا / ﴿سُبُلَنَا﴾ [٢٦٠و] أي: أرشد كلًّا منّا سبيلَه ومنهاجه الذي شرَع له وأوجب عليه سلوكه في الدين.

وحيث كانت أذيّة الكفّار مِمّا يوجب القلقَ والاضطراب القادح في التوكّل قالوا على سبيل التوكيد القسَمي مظهرين لكمال العزيمة: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك ممّا لا خير فيه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ خاصّةً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: فليثبت المتوكّلون على ما أحدثوه مِن التوكّل. والمراد هو المراد ممّا سبق مِن إيجاب التوكّل على أنفسهم، والمراد بـ"المتوكّلين" المؤمنون، والتعبيرُ عنهم بذلك لسبق ذكر اتّصافهم به، ويجوز أن يراد: وعليه فليتوكّلْ مَن يتوكّل دون غيره.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لعلّ هؤلاء القائلين بعضُ المتمرّدين العاتين الغالِين في الكفر مِن أولئك الأممِ الكافرة التي نُقِلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب وأضرابهم، ولذلك لم يُقَل: "وقالوا" ﴿لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ لم يقتنعوا بعصيانهم الرسل ومعاندتهم الحقّ بعد ما رأوا البيّنات الفائتةَ للحصر حتّى اجترأوا على مثلِ هاتِيك العظيمة التي لا يكاد يحيط بها دائرة الإمكان، فحلَفوا على أن يكون أحد المُحالَين. والعَوْدُ إمّا بمعنى مطلق الصيرورة، أو باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل، وقد مرّ في الأعراف،[1] وسيأتي في الكهف.[2]

---

[1] الأعراف، ٨٨/٧.

[2] الكهف، ٢٠/١٨.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى الرسل ﴿رَبُّهُمْ﴾ مالك أمرهم عند تناهي كفر الكفرة وبلوغهم مِن العتوّ إلى غاية لا مَطمَع بعدها في إيمانهم: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على إضمار القول، أو على إجراء الإيحاءِ مُجراه؛ لكونه ضربًا منه.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ / أي: أرضَهم وديارَهم عقوبةً لهم بقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾،[1] كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف، ١٣٧/٧]. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: مِن بعد إهلاكهم. [٢٦٠ظ]

وقُرئ: "لَيُهْلِكَنَّ"، "وَلَيُسْكِنَنَّكُمْ" بالياء[2] اعتبارًا لِـ﴿أَوْحَىٰ﴾، كقولهم: "حلَف زيد لَيَخرجَنّ غدًا".

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الموحى به، وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارَهم، أي: ذلك الأمر محقّق ثابت ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ مَوقفي، وهو الموقف الذي يقف فيه العباد يوم يقوم الناس لربّ العالمين، أو قيامي عليه وحفظي لأعماله. وقيل: لفظ "المقام" مُقحَم.

﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وعيدِي بالعذاب، أو عذابي الموعود للكفّار، والمعنى أنّ ذلك حقّ للمتقين، كقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف، ١٢٨/٧].

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي: استنصروا الله على أعدائهم، كقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال، ١٩/٨]، أو استحكموا وسألوه القضاء بينهم، مِن "الفَتاحة"، وهي الحكومة، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف، ٨٩/٧]، فالضمير للرسل، وقيل: للكفرة، وقيل: للفريقين، فإنّهم سألوا أن ينصُر المحقّ ويُهلك المُبطل، وهو معطوف على ﴿أَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾.[3]

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم النخعي وأبي البرهسم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٠.

[3] إبراهيم، ١٣/١٤.

وقُرئ بلفظ الأمرِ[١] عطفًا على ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾،[٢] أي: أَوحى إليهم ربُّهم: لَنُهلكنّ، وقال لهم: استفتِحوا.

﴿وَخَابَ﴾ أي: خَسِرَ وهلك ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ متّصف بضدّ ما اتّصف به المتّقون، أي: فنُصِروا عند استفتاحهم، وظَفِروا بما سألوا، وأفلحوا، وخاب كلّ جبّارٍ عنيد، وهم قومُهم المعانِدون. فالخيبة بمعنى مطلق الحرمان، دون الحرمان / عن المطلوب، أو ذلك باعتبار أنّهم كانوا يزعمون أنّهم على الحقّ، [٢٦١و] أو استفتح الكفّار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا.

وإنّما قيل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبّر والعناد، لا أنّ بعضهم ليسوا كذلك وأنّه لم يُصبهم الخيبة، أو استفتحوا جميعًا، فنُصر الرسل، وأُنجِزَ لهم الوعدُ، وخاب كلّ عاتٍ متمرِّد. فالخيبة بمعنى الحرمان غِبَّ الطلب. وفي إسناد الخيبة إلى كلّ منهم ما لا يخفى مِن المبالغة.

﴿مِن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦﴾

﴿مِن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: بين يديه، فإنّه مُرصَد لها،[٣] واقف على شفيرها في الدنيا، مبعوث إليها في الآخرة. وقيل: مِن وراء حياته، وحقيقته ما تَوارى عنك. ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ معطوف على مقدّر جوابًا عن سؤال سائل، كأنّه قيل: فماذا يكون إذن؟ فقيل: يُلقى فيها، ويُسقى ﴿مِن مَّآءٍ﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة ﴿صَدِيدٍ﴾ وهو قيح، أي: دم مختلط بمِدّةٍ يسيل مِن الجرح. قال مجاهد وغيره: «هو ما يسيل مِن أجساد أهلِ النار».[٤] وهو عطف بيان لِـ﴿مَآءٍ﴾، أُبهِمَ أوّلًا ثمّ بيّنَ بـ"الصَّدِيد" تهويلًا لأمره. وتخصيصه بالذكر مِن بين عذابها يدلّ على أنّه مِن أشدّ أنواعه.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٠.

٢ إبراهيم، ١٣/١٤.

٣ ط س: بها.

٤ جامع البيان للطبري، ٦١٨/١٣؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٣١/٣.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قيل: هو صفة لـ﴿مَآءٍ﴾، أو حال منه، والأظهر أنّه استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا يَفعل به؟ فقيل: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾، أي: يتكلّف جَرعه مرّة بعد أخرى؛ لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: لا يقارب أن يسيغه فضلًا عن الإساغة؛ بل يغصّ به فيشربه بعد اللّتيّا والتي،[١] جَرعةً غِبّ جَرعة، / فيطول عذابه، تارة بالحرارة والعطش، وأخرى بشربه على تلك الحال، فإنّ السوغ انحدار الشراب في الحلق بسهولةٍ وقبولِ نفسٍ، ونفيُه لا يوجب نفي ما ذكر جميعًا. وقيل: لا يكاد يُدخله في جوفه، وعُبّر عنه بالإساغة لِما أنّها المعهودة في الأشربة. وهو حال مِن فاعل ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾، أو مِن مفعوله، أو منهما جميعًا. [٢٦١ظ]

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: أسبابه مِن الشدائد ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ ويحيط به مِن جميع الجهات، أو مِن كلّ مكان مِن جسده حتّى مِن أصول شعره وإبهام رجله. ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: والحال أنّه ليس بميّت حقيقةً كما هو الظاهر مِن مجيء أسبابه لا سيّما مِن جميع الجهات حتّى لا يتألّم بما غشيه مِن أصناف المُوبِقات.

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ مِن بين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ يستقبل كلّ وقت عذابًا أشدّ وأشقّ ممّا كان قبله، ففيه دفع ما يتوهّم مِن الخِفّة بحسب الاعتياد، كما في عذاب الدنيا. وقيل: هو الخلود في النار. وقيل: هو حبس الأنفاس. وقيل: المراد بـ"الاستفتاح والخيبة" استسقاء أهل مكّة في سِنِيهِم التي أرسلها الله تعالى عليهم بدَعوته صلّى الله عليه وسلّم وخيبتهم في ذلك، وقد وَعَدَ لهم بدلَ ذلك صديدَ أهل النار.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ١٨﴾

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أي: صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التي هي كالمَثَل في الغرابة، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ كقولك:

---

[١] اللّتيّا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٦٤.

"صفة زيد عِرضه مَهتوك وماله مَنهوب". والجملة[١] استئناف مبنيّ على سؤال مَن قال: ما بَالُ أعمالهم التي عملوها في وجوه البِرّ مِن صلة الأرحام، وإعتاقِ الرقاب، وفداء الأسارى، وإغاثة الملهوفين، / وقِرَى الأضياف، وغيرِ ذلك ممّا هو مِن باب المكارم، حتّى آل أمرُهم إلى هذا المآل؟ فأجيب بأنّ ذلك كرمادٍ ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ حملَتْه وأسرعَتْ الذهابَ به ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ﴾ العصف اشتداد الريح، وُصف به زمانها مبالغةً، كقولك: "ليلة ساكرة"،[٢] وإنّما السُّكورُ لريحها. شُبِّهَتْ[٣] صنائعُهم المعدودة -لابتنائها على غير أساسٍ مِن معرفة الله تعالى والإيمان به والتوجّه بها إليه تعالى- برماد طيّرته الريح العاصفة. [٢٦٢و]

أو استئناف مسوق لبيان أعمالهم للأصنام، أو مبتدأ خبره محذوف، كما هو رأي سيبويه،[٤] أي: فيما يتلى عليك مَثَلُهم. وقوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ جملة مستأنَفة مبنيّة على سؤال مَن يقول: كيف مَثَلهم؟ فقيل: أعمالهم كَيت وكَيت، سواء أريدَ بها صنائعهم أو أعمالهم لأصنامهم. وقيل: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بدل مِن ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ﴾، وقولُه: ﴿كَرَمَادٍ﴾ خبره.

﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ مِن تلك الأعمال ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ ما، أي: لا يرَون له أثرًا مِن ثواب أو تخفيف عذاب كدأب الرماد المذكور، وهو فَذْلكة التمثيل. والاكتفاء ببيانِ عدم رؤية الأثر لِأعمالهم للأصنام مع أنّ لها عقوباتٍ هائلةً للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنّها شفعاءُ لهم عند الله تعالى، وفيه تهكّم بهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دلّ عليه التمثيل دلالةً واضحةً مِن ضلالهم مع حسبانهم أنّهم على شيء ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ عن طريق الحقّ والصواب، أو عن نيل الثواب.

---

[١] م ط: وهو؛ س: أو هو [صُحّح في هامش م].

[٢] ليلةٌ ساكِرةٌ، أي: ساكنةٌ. **الصحاح** للجوهري، «سكر».

[٣] م + أو.

[٤] انظر: **الكتاب** لسيبويه، ١٤٣/١؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٧/٢.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، والمراد به أمّته. وقيل: لكلّ أحد مِن الكفرة؛ لقوله تعالى: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾. والرؤية رؤية القلب، وقولُه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ سادّ مسدَّ مفعولَيها،[1] أي: ألم تعلم أنّه تعالى خلقهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ / ملتبسةً بالحكمة والوجهِ الصحيح الذي يحقّ أن تُخلَق عليه. وقُرئ: "خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ".[2] [٢٦٢ظ]

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يُعدِمكم بالمرّة ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: يَخلُق بدلكم خلقًا آخر مستأنَفًا لا علاقة بينكم وبينهم، رتّب قدرته تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السماوات والأرض على هذا النمط البديع إرشادًا إلى طريق الاستدلال، فإنّ مَن قدر على خلق مثل هاتِيك الأجرام العظيمة كان على تبديل خلقٍ آخرَ بهم أقدَر، ولذلك قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: إذهابكم والإتيانُ بِخَلقٍ جديد مكانكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذّر أو متعسّر، فإنّه قادر لذاته على جميع الممكنات، لا اختصاصَ له بمقدور دون مقدور، ومَن هذا شأنه حقيقٌ بأن يؤمَن به، ويُرجَى ثوابُه، ويُخشى عقابه.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ۝٢١﴾

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: يبرزون يوم القيامة. وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقّق وقوعه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف، ٤٤/٧]، أو لأنّه لا مضيّ ولا استقبال بالنسبة إليه سبحانه. والمراد بُروزهم مِن قبورهم لأمر الله تعالى ومحاسبته، أو لله على ظنّهم، فإنّهم كانوا يظنّون

---

[1] س: مفعوليهما.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف. النشر لابن الجزري، ٢٩٨/٢.

عند ارتكابهم الفواحش سرًا أنّها تخفى على الله سبحانه، فإذا كان يومُ القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم.

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ الأتباعُ، جمع "ضَعيف"، والمراد ضعف الرأي، وإنّما كُتب بالواو على لفظ مَن يفخّم الألف قبل الهمزة.[1] ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ لرؤسائهم الذين استتبعُوهم واسْتَغْوَوهُم: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ في تكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم. وهو جمع "تابع"، كـ"غَيَب" في جمع "غائب"، أو مصدر نُعِتَ به مبالغةً، أو على إضمارٍ، أي: ذَوِي تَبَع.

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ﴾ دافعون ﴿عَنَّا﴾ و"الفاء" للدلالة على سببيّة الاتّباع للإغناء. والمراد التوبيخ والعتاب والتقريع والتبكيت. / [٢٦٣و] ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ ﴿مِنۡ﴾ الأولى للبيان واقعةً موقع الحال، والثانية للتبعيض واقعةً موقع المفعول، أي: بعض الشيء الذي هو عذاب الله تعالى، ويجوز كونهما للتبعيض، أي: بعض شيء هو بعض عذاب الله، والإعراب كما سبق. ويجوز أن يكون الأولى مفعولًا، والثانية مصدرًا، أي: فهل أنتم مُغنون عنّا بعض العذاب بعض الإغناء؟ ويعضد الأوّل قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [غافر، ٤٠/٤٧].

﴿قَالُواْ﴾ أي: المستكبرون جوابًا عن معاتبة الأَتْباعِ، واعتذارًا عمّا فعلوا بهم: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: للإيمان وَوَفَّقَنا له ﴿لَهَدَيۡنَٰكُمۡ﴾ ولكن ضَلَلْنا فأضلَلْناكم، أي: اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا، أو لو هدانا الله طريق النجاة مِن العذاب لهديناكم وأغنَينا عنكم كما عرّضناكم له، ولكن سَدَّ دُوننا طريق الخلاص، ولاتَ حينَ مَناص.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ﴾ ممّا لقينا ﴿أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ على ذلك، أي: مستَوٍ علينا الجزَعُ والصبر في عدم الإنجاء. و"الهمزة" و"أَم" لتأكيد التسوية، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة، ٢/٦]. وإنّما أسندوهما ونسبوا استواءَهما

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٤٨/٢. وقال أبو داود سليمان بن نَجاح: «وكتبوا هنا ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ بواو بعد الفاء وألِف بعدها تقويةً للهمزة لخفائها، مِن غير ألف قبلها استغناءً بحركة الفاء عنها». مختصر التبيين لسليمان بن نَجاح، ٧٤٩/٣.

إلى ضمير المتكلِّم المنتظِم للمخاطبين أيضًا مبالغةً في النهي عن التوبيخ بإعلام أنّهم شركاءُ لَهم فيما ابْتُلُوا به وتسليةً لهم.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَا﴾... إلخ مِن كلام الفريقين، على منوال قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ [يوسف، ٥٢/١٢]، ويؤيّده ما رُوي أنّهم يقولون: تَعالَوا نَجْزَعْ، فيَجْزَعون خمسمائة عامٍ، فلا ينفعهم، فيقولون: تَعالَوا نصبِر، فيصبرون كذلك، فلا ينفعهم، فعند ذلك يقولون ذلك.[١]

[٢٦٣ظ] / ولمّا كان عتاب الأَتباع مِن باب الجَزَعِ ذَيَّلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى في ذلك فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ مِن مَنجَى ومَهرَب مِن العذاب، مِن "حاصَ الحِمار" إذا عدل بالفِرار. وهو إمّا اسم مكان، كالمَبيت والمَصيف، أو مصدر، كالمَغيب والمَشيب. وهي جملة مفسِّرة لإجمال ما فيه الاستواء، فلا محلّ لها مِن الإعراب، أو حال مؤكِّدة، أو بدل منه.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الذي أضلَّ كلا الفريقين واستتبعهما عندما عَتَباهُ بما قاله الأَتباعُ للمستكبرين ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: أُحكمَ وفُرِغَ منه، وهو الحساب، ودخل أهل الجنّة الجنّةَ، وأهلُ النارِ النارَ، خطيبًا في محفل الأشقياء مِن الثقلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: وعدًا مِن حقّه أن يُنْجَز فأَنْجزه، أو وَعدًا أَنْجَزَهُ، وهو الوعدُ بالبعث والجزاء، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ أي: وعدَ الباطل، وهو أن لا بعث ولا حساب، ولئن كان فالأصنام شفعاؤكم، ولم يصرِّح ببطلانه لِما دلّ عليه قوله: ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي: مَوعدي، على حذف المفعول الثاني، أي: نقضته، جعل خُلفَ وعده كالإخلاف منه، كأنّه كان قادرًا على إنجازه، وأنَّى لَهُ ذلك.

---

[١] قاله مقاتل. انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٨٤٠/٤؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣١٣/٥.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: تسلّطٍ أو حجّةٍ تدلّ على صدقي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إلّا دعائي إيّاكم إليه وتسويله، وهو وإن لم يكن مِن باب السلطان، لكنّه أبرَزَه في مَبرَزه على طريقة:

تحيّةُ بينِهم ضَربٌ وجيعُ[1]

مبالغةً في نفي السلطان عن نفسه، كأنّه قال: إنّما يكون لي عليكم سلطان إذا كان / مجرّد الدعاء مِن بابه، ويجوز كون الاستثناء منقطعًا. ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [٢٦٤و] فأسرعتم إجابتي، ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ بوعدي إيّاكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القَسْرِ والإلجاء كما يدلّ عليه الفاء. وقُرئ بالياء[2] على وجه الالتفات، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس، ٢٢/١٠].

﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ حيث استجبتم لي باختياركم حينَ دعوتكم بلا حجّة ولا دليل بمجرّد تزيينٍ وتسويلٍ، ولم تستجيبوا ربّكم إذ دعاكم دعوةَ الحقّ المقرونةَ بالبيّنات والحُجج، وليس مراده التَنصُّلَ عن توجّه اللائمة إليه بالمرّة؛ بل بيانُ أنّهم أحقّ بها منه. وليس فيه دلالة على استقلال العبد في أفعاله كما زعمت المعتزلة؛ بل يكفي في ذلك أن يكون لقدرته الكاسبة التي عليها يدور فلَكُ التكليف مدخل فيه، فإنّه سبحانه إنّما يخلق أفعاله حسبما يختاره، وعليه يترتّب السعادة والشقاوة. وما قيلَ مِن أنّه يستدعي أن يُقال: فلا تلوموني ولا أنفسَكم، فإنّ الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه؛[3] مبنيّ على عدم الفرق بين مذهب أهل الحقّ وبين مسلك الجبريّة.

---

[1] صدره:

وخيلٍ قد دَلَفْتُ لها بخيلٍ

وهو منسوب إلى عمرو بن مَعدي كَرِب. قال البغدادي: «وهذا البيت نسبه شرّاح أبيات الكتاب وغيرهم إلى عمرو بن مَعدِي كَرِب الصحابي، ولم أرَه في شعره». خزانة الأدب للبغدادي، ٢٦٥/٩. وانظر: شعر عمرو بن معدي كرب، ص ١٤٩. الشاهد فيه أنّه جعَل الضرب بالسيوف تحيّةً بينهم. ودلَفْت لها: قصَدت إليها وقرُبَت منها ولقيتها. يريد أنّه كان يجمع الجيوش فيلقَى بهم أمثالَهم، وعنَى أنّه كان يرأسهم؛ لأنّ الرؤساء يجهّزون الجيوش ويسيّرونهم. شرح كتاب سيبويه للسيرافي، ١٨٧/٢.

[2] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٥٢/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٢٨/٦.

[3] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٥٠/٢.

﴿مَآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي: بمُغيثِكم مِمّا أنتم فيه مِن العذاب، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ ممّا أنا فيه. وإنّما تَعرَّضَ لذلك مع أنّه لم يكن في حيّز الاحتمال مبالغةً في بيان عدم إصراخه إيّاهم، وإيذانًا بأنّه أيضًا مبتلًى بمثل ما ابتُلُوا به،[1] ومحتاج إلى الإصراخ، فكيف مِن إصراخ الغير، ولذلك آثر الجملة الاسميّة، فكأنّ ما مضى كان جوابًا منه عن توبيخهمَ وتقريعهم، وهذا جواب عن استغاثتهم واستعانتهم به في استدفاع / ما دهِمَهُم مِن العذاب. وقُرئ بكسر الياء.[2] [٢٦٤ظ]

﴿إِنِّي كَفَرۡتُ﴾ اليوم ﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾ أي: بإشراككم إيّاي، بمعنى: تبرّأتُ منه واستنكرته، كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ [فاطر، ١٤/٣٥]، يعني: أنّ إشراككم لي بالله سبحانه هو الذي يُطمِعكم في نصرتي لكم بأن كان لكم عليّ حقّ حيث جعلتموني معبودًا، وكنتُ أوَدّ ذلك وأرغب فيه، فاليوم كفرتُ بذلك ولم أحمَده، ولم أقبَله منكم؛ بل تبرّأت منه ومنكم، فلم يبقَ بيني وبينكم علاقة.

أو كفرتُ مِن قبلُ حين أبيتُ السجود لآدم بالذي أَشۡرَكۡتُمُونِيهِ وهو الله عزّ وجلّ، كما في قوله: "سبحان ما سخّركُنّ لنا"،[3] فيكون تعليلًا لعدم إصراخه، فإنّ الكافر بالله سبحانه بمَعزِل مِن الإغاثة والإعانة، سواء كان ذلك بالمُدافعة أو الشفاعة. وأمّا جعله تعليلًا لعدم إصراخهم إيّاه فلا وجه له، إذ لا احتمال له حتّى يحتاج إلى التعليل، ولأنّ تعليل عدم إصراخهم بكُفره يوهم أنّهم بسبيل مِن ذلك لولا المانعُ مِن جهته.

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ تتمّة كلامه، أو ابتداء كلام مِن جهة الله عزّ وعلا.[4] وفي حكاية أمثاله لطف للسامعين وإيقاظ لهم حتّى يحاسِبوا أنفسهم ويتدبّروا عواقبهم.

---

[1] س - به.

[2] قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٢٩٨/٢.

[3] انظر: المفصّل للزمخشري، ص ١٨٦.

[4] س: عزّ وجلّ.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره، أو بتوفيقه وهدايته. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرهم إظهارُ مزيد اللطف بهم. والمُدخِلون هم الملائكة عليهم السلام. وقُرئ على صيغة التكلّم،[1] فيكون قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلّقًا بقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: يحيّيهم الملائكة بالسلام بإذن ربّهم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، وقد عُلِّق بما بعده مِن قوله تعالى: ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: كيف اعتمده ووضعه في موضعه اللائق به ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ منصوب بمُضمَر، أي: جعل كلمةً طيّبةً / هي كلمة التوحيد، أو [٢٦٥و] كلَّ كلمة حسنة، كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة. ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي: حَكَم بأنّها مثلُها، لا أنّه تعالى صيّرها مِثلَها في الخارج، وهو تفسير لقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ كقولك: "شرّف الأمير زيدًا؛ كساه حُلّة، وحمله على فرَس". ويجوز أن يكون ﴿كَلِمَةً﴾ بدلًا مِن ﴿مَثَلًا﴾، و﴿كَشَجَرَةٍ﴾ صفتها، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي كشجرة، وأن يكون أوّلَ مفعولَيْ ﴿ضَرَبَ﴾ إجراءً له مُجرى "جعل" قد أخّر عن ثانيهما -أعني: ﴿مَثَلًا﴾- لئلّا يبعد عن صفته التي هي ﴿كَشَجَرَةٍ﴾. وقد قُرئت بالرفع على الابتداء.[2]

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: ضارب بعروقه في الأرض. وقرأ أنس بن مالك رضي الله عنه: "كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ثَابِتٍ أَصْلُهَا".[3] وقراءة الجماعة أقوى سبكًا وأنسب بقرينته،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٠.

[2] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٨/٣. والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٣٢/٦.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦١.

أعني: قوله عزّ وجلّ:[١] ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أي: أعلاها ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ في جهة العلوّ، ويجوز أن يُراد "وفروعها" على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع.

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾ تعطي ثمرها ﴿كُلَّ حِينِۭ﴾ وقّته الله تعالى لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادة خالقها. والمراد بالشجرة المنعوتة إمّا النخلة، كما رُوي مرفوعًا،[٢] أو شجرة في الجنّة. ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأنّ في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإنّه تصوير للمعاني بصور المحسوسات.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر والدعاءُ إليه، أو تكذيبُ الحقّ، أو ما يعمّ الكلَّ، أو كلُّ كلمة قبيحة ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ أي: كمِثل شجرة خبيثة. قيل: هي كلّ شجرة لا يطيب ثمرها كالحَنظَل والكَشُوثِ[٣] ونحوهما. وتغيير الأسلوب للإيذان بأنّ ذلك غيرُ مقصودِ الضربِ والبيانِ، وإنّما ذلك أمر ظاهر يعرفه كلّ أحد.

﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ استؤصلت وأخذت جثّته بالكلّيّة ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ لكون عروقها قريبة منها. ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ / استقرار عليها. [٢٦٥ظ]

---

١ س: تعالى.

٢ منه ما أخرجه البخاري في صحيحه، ٣٤/٨ (٦١٤٤)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أخبروني بشجرة مَثَلها مَثَل المسلم، تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربّها، ولا تَحُتُّ ورقَها» فوقع في نفسي أنّها النخلة، فكرِهت أن أتكلّم وثَمّ أبو بكر وعمر، فلمّا لم يتكلّما، قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «هي النخلة» الحديث. وما أخرجه الترمذي في سننه، ٢٩٥/٥ (٣١١٩)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: أُتي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقِناع عليه رُطب، فقال: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم، ٢٤/١٤]، قال: «هي النخلة»، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم، ٢٦/١٤]، قال: «هي الحنظل». وروى الترمذي مثله موقوفًا على أنس رضي الله عنه وقال: «هذا أصحّ» يعني الموقوف.

٣ الكَشُوث: نبت يتعلّق بأغصان الشجر مِن غير أن يضرب بعِرْقٍ في الأرض. **الصحاح** للجوهري، «كشث».

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي ثَبَتَ بالحجّة عندهم، وتمكّن في قلوبهم، وهو الكلمة الطيّبة التي ذُكرت صفتها العجيبة. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا يُزَالون عنه إذا افتتنوا في دينهم، كزكريّا ويحيى وجرجيس[1] وشمسون[2] والذين فتنهم أصحاب الأخدود، ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فلا يتلعثَمون إذا سُئِلوا مِن معتقَدهم في الموقف، ولا يُدْهِشُهم أهوالُ القيامة، أو عند سؤال القبر.

رُوي أنّه عليه السلام ذَكر قبض روح المؤمِن فقال: «ثمّ يعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيُجلِسانِه في قبره، فيقولانِ: "مَن رَبّك؟ وما دينك؟ ومَن نبيّك؟" فيقول: "ربّي الله، وديني الإسلامُ، ونبيّي محمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم"، فينادي منادٍ مِن السماء أنّه صدَق عبدي»، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾.[3] وهذا مثالُ إيتاء الشجرة المذكورة أُكلَها كلَّ حينٍ.

---

[1] قال الطيبي: «وجدت في كتاب المبتدأ المنسوب إلى أبي عبد الله محمّد بن عبد الله الكسائي أنّه قال: إنّ جَرجيس كان مِن الحواريّين أصحاب عيسى عليه السلام، وعلّمه الله الاسمَ الذي يحيا به الموتى، وكان بأرض الموصِل جبّار يعبد الصنم، فدعاه جرجيس إلى عبادة الله، ونهاه عن عبادة الصنم، فأمَر به، فشَدّ يديه ورجليه، ودعا بأمشاط مِن الحديد فسرح بها صدره وبدنه، ثمّ صبّ عليه ماء الملح، فصبّره الله عليه، ثمّ دعا بمسامير مِن حديد فسمَر عينيه وأذنيه، فصبّره الله عليه، ثمّ دعا بحوض مِن نحاس فأوقد عليه حتى ابيضّ، ثمّ ألقي عليه وأطبق رأسه، فجعله الله له بردًا وسلامًا، وزاده حسنًا وجمالًا، ثمّ قطّع إربًا إربًا، فأحياه الله، ودعاهم إلى الله، فلم يؤمن الملك، فأمر الله أن يغيّر بهم، وقلب بالمدينة عاليَها وسافلَها». فتوح الغيب للطيبي، ٥٩٤/٨.

[2] قال الثعلبي: «كانت قصّته على ما ذكر وهب بن منبّه: أنّه كان رجلًا مسلمًا، وكانت أمّه قد جعلته نذيرًا، وكان مِن أهل قرية مِن قرى الروم كانوا يعبدون الأصنام، وكان منزله منها على أميال غير كثيرة، فكان يغزوهم وحدَه، ويجاهدهم في الله فيصيب منهم»... وفيه: «فأخذوه فجدعوا أنفَه وانفذوا أذنيه وفقَئوا عينيه...، فدعا شمسون ربّه حين مثّلوا ووقفوه أن يسلّطه عليهم، فأمر أن يأخذ بعمودين مِن عُمد المدينة التي عليها الملِك والناس الذين معه، فاجتذبهما جميعا فجذبهما، فردّ الله تعالى إليه بصره وما أصابوا مِن جسده، ووقعت المئذنة بالملِك ومَن عليها مِن الناس، فهلكوا فيها هدمًا». انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٧/١٠ (سورة القدر).

[3] الكشّاف للزمخشري، ٥٥٤/٢. وأخرجه بنحوه أبو داود في سننه، ١٣١/٧ (٤٧٣٥). وأخرجه البخاري في صحيحه، ٨٠/٦ (٥٦٩٩) مختصرًا.

قال الثعلبي في تفسيره:[١] «أخبرني أبو القاسم بن حبيب[٢] في سنة ستٍّ وثمانين وثلاثمائة، قال: سمعت أبا الطيّب محمد بنَ عليّ الخيّاطَ[٣] يقول: سمعتُ سَهلَ بنَ عمّار العملي[٤] يقول: رأيت يَزيدَ بنَ هارون[٥] في منامي بعد موته فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أتاني في قبري ملكان فَظَّانِ، فقالا: مَن ربّك؟ وما دينك؟ ومَن نبيّك؟ فأخذتُ بلحيتي البيضاء، فقلت لهما: أَلِمِثْلِي يقالُ هذا، وقد علَّمتُ الناسَ جوابَكما ثمانين سنةً؟ فذهبا».

/ ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: يخلق فيهما الضلال عن الحقّ الذي ثبّت المؤمنين عليه حَسْبَ إرادتِهم واختيارهم، والمراد بهم الكفرة، بدليل ما يقابله. ووَصْفُهم بالظلم إمّا باعتبار وضعهم للشيء في غير موضعه، وإمّا باعتبار ظلمهم لأنفسهم حيث بدّلوا فطرة الله التي فطَر الناس عليها، فلم يهتدوا إلى القول الثابت، أو كلُّ مَن ظلم نفسه بالاقتصار على التقليد والإعراض عن البيّنات الواضحة، [٢٦٦و]

---

[١] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣١٨/٥.

[٢] هو الحسن بن محمّد بن حبيب بن أيوب النيسابوري، أبو القاسم (ت. ٤٠٦هـ/١٠١٦م)، الواعظ، المفسِّر. كان أديبًا نحويًّا، عارفًا بالمغازي والقصص والسير، انتشر عنه بنيسابور العلم الكثير، وسارت تصانيفه الحِسان في الآفاق، وكان أبو القاسم الثعلبي مِن خواصّ تلاميذه. صنّف في القراءات، والتفسير، والآداب. انظر: **طبقات المفسّرين** للسيوطي، ص ٤٥؛ **والأعلام** للزركلي، ٢١٣/٢.

[٣] هو محمّد بن عليّ بن الحسن، الخيّاط، النيسابوري، أبو الطيّب، سمِع أبا يحيى سهلَ بن عمّار العَتكي، وعنه أبو عبد الله الحاكم، ووَصَفه بالزاهد، وذكر أنّه حدّثه مِن أصل كتابه، وأبو الحسن محمّد بن الحسين بن داود العلوي، ووصفه بالصوفي. ترجمه الحاكم في **تاريخ نيسابور**، ص ١٠٦، وذكَر أنّه كان مجابَ الدعوة. **الروض الباسم** للمنصوري، ١١٤٢/٢.

[٤] كذا في الأصول الخطّيّة، والصواب: "العَتكي". وهو سهل بن عمّار العَتكي، النيسابوري، أبو يحيى (ت. ٢٦٧هـ/٨٨٠م)، القاضي، العلّامة، الحنفي، شيخ أهل الرأي بخراسان، وقاضي هراة. ارتحل في الحديث. وسمع مِن يزيد بن هارون، وشَبابة بن سوار، وجعفر بن عون، وعبد الرحمن بن قيس، والواقدي، وعدّة. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣٢/١٣.

[٥] هو يزيد بن هارون بن زاذي السلمي مولاهم، الواسطي، أبو خالد (ت. ٢٠٦هـ/٨٢١م)، الإمام، القدوة، الحافظ، شيخ الإسلام. سمع مِن عاصم الأحول، ويحيى بن سعيد الأنصاري القاضي، وسليمان التيمي، وخلق كثير. وحدّث عنه بقيّة بن الوليد -مع تقدّمه- وعليّ بن المديني، وأحمد بن حنبل، وأبو بكر بن أبي شيبة. وكان رأسًا في العلم والعمل، ثقة، حجّة، كبير الشأن. قال عليّ بن المديني: «ما رأيت أحفظَ مِن يزيد بن هارون». انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣٥٩/٩؛ **والأعلام** للزركلي، ١٩٠/٨.

فلا يَتَثَبّتُ في مواقف الفِتَن، ولا يهتدي إلى الحقّ، فالمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حينئذ المخلصون في الإيمان، الراسخون في الإيقان، كما يُنبئ عنه التثبيت، لكنّه يوهم كون كلمة التوحيد إذا كانت لا عن إيقان داخلةً تحت ما لا قرارَ له مِن الشجرة المضروبة مثلًا.

﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن تثبيت بعضٍ وإضلالِ آخرين حسبما يوجبه مشيئته التابعة للحِكَمِ البالغة المقتضية لذلك.

وفي إظهار الاسم الجليل في الموضعين مِن الفخامة وتربية المَهابة ما لا يخفى، مع ما فيه مِن الإيذان بالتفاوت في مبدأَي التثبيت والإضلال، فإنّ مبدأ صدور كلّ منهما عنه سبحانه وتعالى مِن صفاته العُلَا غيرُ ما هو مبدأ صدور الآخَر.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تعجيب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم -أو لكلّ أحد- ممّا صنع الكفرة مِن الأباطيل التي لا تكاد تصدر عمّن له أدنى إدراك، أي: ألم تنظر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: شكر نعمته تعالى، بأن وضَعُوا مَوضعَه ﴿كُفۡرٗا﴾ عظيمًا وغَمْطًا لَها، أو بدّلوا نفسَ النعمة كفرًا، فإنّهم لَمّا كَفروها سُلِبُوها، فصاروا مستبدِلين بِها كفرًا، كأهل مكّة حيث خلقهم الله سبحانه وأسكنهم حرمَه الآمِن الذي يُجبى إليه ثمرات كلّ شيء، وجعلهم قُوّام بيته، وشرّفهم بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، فكفروا ذلك، فقُحِطوا سبعَ سنين، وقُتِلوا وأُسِروا [٢٦٦ظ] / يوم بدر، فصاروا أذِلّاء مسلوبي النعمة، باقين بالكفر بدلَها.

وعن عُمَرَ وعليّ رضي الله تعالى[1] عنهما: «هم الأفجران مِن قريش: بنو[2] المُغِيرة وبنو[3] أُميّة، أمّا بنو[4] المغيرة فكُفِيتُمُوهم يومَ بدر، وأمّا بنو[5] أميّة فَمُتِّعوا إلى حين».[6] كأنّهما يتأوّلان ما سيُتلى مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ﴾ الآية.[7]

---

١ ط س - تعالى.

٢ م: بنوا.

٣ م: بنوا.

٤ م: بنوا.

٥ م: بنوا.

٦ **جامع البيان للطبري**، ١٣/٦٦٩-٦٧٣؛ **أنوار التنزيل للبيضاوي**، ٣/١٩٩.

٧ إبراهيم، ١٤/٣٠.

﴿وَأَحَلُّواْ﴾ أي: أنزلوا ﴿قَوۡمَهُمۡ﴾ بإرشادهم إيّاهم إلى طريقة الشرك والضلال. وعدم التعرّض لِحُلولهم لدلالة الإحلال عليه، إذ هو فرع الحلول، كقوله تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود، ٩٨/١١]. ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ دار الهلاك الذي لا هَلاكَ وراءَه.

﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ۝٢٩﴾

﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيان لها. وفي الإبهام ثمّ البيانِ ما لا يخفى مِن التهويل. ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ حال منها، أو مِن ﴿قَوۡمَهُمۡ﴾، أي: داخلين فيها، مُقَاسِينَ لحَرّها. أو استئناف لبيان كيفيّة الحلول، أو مفسّر لفعل يقدَّر ناصبًا لـ﴿جَهَنَّمَ﴾. فالمراد بالإحلال المذكور حينئذ تعريضهم للهلاك بالقَتل والأسر، لكنّ قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[١] أنسبُ بالتفسير الأوّل.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ على حذف المخصوص بالذمّ، أي: بئس المَقرّ جهنّمُ، أو بئس القرار قَرارُهم فيها. وفيه بيان أنّ حلولهم وصِلِيّهم على وجه الدوام والاستمرار.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٠﴾

﴿وَجَعَلُواْ﴾ عطفٌ على ﴿أَحَلُّواْ﴾[٢] وما عُطف عليه، داخل معهما في حيّز الصِّلة وحكمِ التعجيب، أي: جعلوا في اعتقادهم وحكمِهم ﴿لِلَّهِ﴾ الفردِ الصمَد الذي ليس كمثله شيء وهو الواحد القهّار ﴿أَندَادٗا﴾ أشباهًا في التسمية، أو في العبادة؛ ﴿لِّيُضِلُّواْ﴾ قومَهم الذين يُشايِعُونهم حسبما ضلّوا ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ القَويم الذي هو التوحيد، ويُوقِعُوهم في وَرطة الكفر والضلال.

ولعلّ تغييرَ الترتيب -مع أنّ مقتضى ظاهر النظم أن يذكر كُفرانهم نعمةَ الله تعالى، / ثمّ كفرَهم بذاته تعالى باتّخاذ الأنداد، ثمّ إضلالَهم لقومهم المؤدّي إلى إحلالهم دار البوار- لِتثنِيَةِ التعجيب وتكريرِه، والإيذانِ بأنّ كلّ واحد مِن وضع الكفر موضع الشكر، وإحلالِ القومِ دارَ البوار، واتّخاذِ الأنداد للإضلال، [٢٦٧و]

---

[١] في الآية التالية.

[٢] إبراهيم، ٢٨/١٤.

أمرٌ يُقضى منه العجَب. ولو سيق النظم على نسق الوجود لَربّما فُهِم التعجيبُ مِن مجموع الهَنَاتِ الثلاث، كما في قصّة البقرة. وقُرِئ: "لِيَضِلُّوا" بالفتح.[١] وأيًّا ما كان فليس ذلك غرضًا حقيقيًّا لهم مِن اتّخاذ الأنداد، لكن لمّا كان ذلك نتيجةً له شُبّه بالغرَض، وأُدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعيّة.

﴿قُلْ﴾ تهديدًا لأولئك الضالّين المضلّين، ونعيًا عليهم، وإيذانًا بأنّهم لِشدّة إبائهم قبولَ الحقّ، وفرطِ انهماكهم في الباطل، وعدمِ ارعوائهم عن ذلك بحالٍ؛ أحِقّاءُ بأن يُضرَب عنهم صفحًا، ويُعطف عنهم عنانُ العِظة، ويُخَلَّوا وشأنَهم، ولا يُنهَوا عنه؛ بل يُؤمَرُوا بمباشرته مبالغةً في التخلية والخذلان، ومسارعةً إلى بيان عاقبته الوخيمة، ويقالَ لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ بما أنتم عليه مِن الشهوات التي مِن جملتها كفران النِّعم العظام، واستتباعُ الناس في عبادة الأصنام.

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ليسَ إلّا، فلا بدّ لكم مِن تعاطي ما يوجب ذلك ويقتضيه مِن أحوالكم؛ بل هي في الحقيقة صورة لدخولها، ومثال له حسبما يلوِّح به قوله سبحانه: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾... إلخ،[٢] فهو تعليل للأمر[٣] المأمور. وفيه مِن التهديد الشديد والوعيد الأكيد ما لا يوصف.

أو قل لهم تصويرًا لِحالهم وتعبيرًا عمّا يُلجئهم إلى ذلك: تمتّعوا؛ إيذانًا بأنّهم لفَرْط انغماسهم في التمتّع بما هم فيه مِن غير صارف يَلويهم ولا عاطفٍ يثنيهم مأمورون بذلك مِن قِبَلِ آمرِ الشهوة، مُذعِنُون لحُكمِه، منقادون لِأَمرِه، / كدأب مأمورٍ ساعٍ في طاعة آمرٍ مطاعٍ، فليس قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ حينئذ تعليلًا للأمر؛ بل هو جواب شرط ينسحب عليه الكلام، كأنّه قيل: هذه حالكم، فإن دمتم عليه فإنّ مصيركم إلى النار. وفيه التهديد والوعيد، لا في الأمر. [٢٦٧ظ]

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ۝٣١﴾

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خصّهم بالإضافة إليه تنويهًا لهم، وتنبيهًا على أنّهم

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورُويس. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٩.

٢ إبراهيم، ٢٨/١٤.

٣ وفي هامش م: أي: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾. «منه».

المقيمون لوظائف العبوديّة، الموفون بحقوقها. وترك العطف بين الأمرين للإيذان بتباين حالهما باعتبار المَقول تهديدًا وتشريفًا.[١] والمقول ههنا محذوف دلّ عليه الجواب، أي: قل لهم: أقيموا وأنفِقوا. ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ أي: يُداوِمُوا على ذلك. وفيه إيذان بكمال مطاوعتهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وغايةِ مسارعتهم إلى الامتثال بأوامره.

وقد جوّزوا أن يكون المقول ﴿يُقِيمُواْ﴾ ﴿وَيُنفِقُواْ﴾ بحذف لام الأمر عنهما، وإنّما حسُن ذلك دون الحذف في قوله:

محمّدُ تَفدِ نفسَك كلُّ نفسٍ إذا ما خِفْتَ مِن أمرٍ تَبالا[٢]

لدلالة ﴿قُل﴾ عليه.

وقيل: هما جوابا "أقيموا" و"أنفقوا" قد أُقيما مُقامهما،[٣] وليس بذاك.

﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ منتصبان على المصدريّة مِن الأمر المقدّر، لا مِن جواب الأمر المذكور، أي: أنفقوا إنفاق سرّ وعلانية، والأحبّ في الإنفاق إخفاء المتطوَّع به وإعلانُ الواجب. والمراد حثّ المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنيّة[٤] والماليّة، وتركِ التمتّع بمتاع الدنيا والركونِ إليها كما هو صنيع الكفرة.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ / يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ فيبتاعَ المقصِّر ما يَتَلافَى به تقصيرَه أو يفتدي به نفسه. والمقصود نفي عقد المعاوضة بالمرّة، وتخصيصُ البيع بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نفي العقد، إذ انتفاء البيع يستلزم انتفاءَ الشراء على أبلغ وجه، وانتفاؤه ربّما يتصوّر مع تحقّق الإيجاب مِن قِبل البائع. [٢٦٨و]

---

١ وفي هامش م س: فإنّ مقول الأوّل الأمر التهديدي ومقول الثاني الأمر التشريفي.

٢ بغير نسبة في الكتاب لسيبويه، ٨/٣. ونسب إلى أبي طالب في شرح شذور الذهب لابن هشام، ص ٢٧٥. قال السيوطي: «و"تَفْدِ" على إظهار الجازم وهو اللام ضرورة، وفيه الشاهد. وقيل: هو مرفوع حذفت ياؤه ضرورة واكتفي بالكسرة. قال الأعلم: وهذا أشهر في الضرورة وأقرب. و"التَّبال": بفتح المثنّاة وتخفيف الموحّدة: الفساد». شرح شواهد المغني للسيوطي، ٥٩٧/٢.

٣ ذكره البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٩٩/٣، وضعّفه. وقال الشهاب الخفاجي: «قولٌ لبَعض النحاة، وعُزِي للمبرّد رحمه الله». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٦٧/٥.

٤ س – البدنيّة.

﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ ولا مُخالّة، فيشفع له خليل أو يسامحه بمالٍ يفتدي به نفسه. أو مِن قَبل أن يأتي يوم لا أثرَ فيه لِما لَهِجوا بتعاطيه مِن البيع والمخالّة، ولا انتفاعَ بذلك، وإنّما الانتفاع والارتفاق فيه بالإنفاق لوجه الله سبحانه. والظاهر أنّ ﴿مِن﴾ متعلّقة بـ"أنفِقوا".

وتذكير إتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه -كما في سورة البقرة-[1] مِن حيث إنّ كلًّا مِن فقدان الشفاعة، وما يُتدارك به التقصير معاوضةً وتبرّعًا، وانقطاعِ آثار البيع والخلال الواقعَين في الدنيا، وعدمِ الانتفاع بهما؛ مِن أقوى الدواعي إلى الإتيان بما يبقى عوائده ويدوم فوائده مِن الإنفاق في سبيل الله عزّ وجلّ.

أو مِن حيث إنّ ادّخار المال وتركَ إنفاقه إنّما يقع غالبًا للتجارات والمُهاداة، فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة فلا وجه لادّخاره إلى وقت الموت. وتخصيص التأكيد بذلك لمَيل الطباع إلى المال وكونها مجبولة على حبّه والضِّنّةِ به. ولا يبعُد أن يكون تأكيدًا لِمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضًا مِن حيث إنّ تركها كثيرًا ما يكون بالاشتغال بالبِياعات والمُخالّات، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة، ٦٢/١١].

[٢٦٨ظ] وقُرئ بالفتح فيهما[2] على إرادة النفي العامّ، ودلالةُ الرفع على ذلك / باعتبارٍ خطابيٍّ هو وقوعه في جواب: هل فيه بيع أو خِلال؟

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وما فيها مِن الأجرام العلويّة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيها مِن أنواع المخلوقات.

---

[1] في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة، ٢/٢٥٤].

[2] أي: "لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ". قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١١.

لمّا ذكَر أحوالَ الكافرين لنِعم الله تعالى وأمرَ المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكرًا لنِعَمِه شرَع في تفصيل ما يستوجب على كافّة الأنام المثابرةَ على الشكر والطاعة مِن النِّعم العِظام والمِنَن الجِسام، حثًّا للمؤمنين عليها، وتقريعًا للكفرة المخِلّين بها، الواضعين موضعَها الكفرَ والمعاصي. وفي جعل المبتدأ الاسمَ الجليل والخبرِ الاسمَ الموصولَ بتلك الأفاعيل العظيمة مِن خلق هذه الأجرام العِظام وإنزالِ الأمطار وإخراجِ الثمرات وما يتلوها مِن الآثار العجيبة ما لا يخفى مِن تربية المهابة والدلالة على قوّة السلطان.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحابِ، فإنّ كلّ ما علاك سماء، أو مِن الفَلك، فإنّ المطر منه يبتدئ إلى السحاب، ومنه إلى الأرضِ على ما دلّت عليه ظواهر النصوص،[1] أو مِن أسباب سماويّة تثير الأجزاء الرطبة مِن أعماق الأرض إلى الجوّ فينعقد سحابًا ماطرًا. وأيًّا ما كان فـ﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة.

﴿مَآءً﴾ أي: نوعًا منه، هو المطر. وتقديم المجرور على المنصوب إمّا باعتبار كونه مبدأً لنزوله، أو لتشريفه كما في قولك: "أعطاه السلطان مِن خِزانته مالًا"، أو لِما مرّ مِرارًا مِن التشويق إلى المؤخّر.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ بذلك الماء ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الفائتة للحصر، / إمّا لأنّ صيغ الجموع يتعاور بعضها موضعَ بعض، وإمّا لأنّه أريدَ بمفردها جماعة الثمرة التي في قولك: "أدركتُ ثمرة بستانِ فلان". ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تعيشون به، وهو بمعنى المرزوق، شامل للمطعوم والملبوس، مفعول لـ﴿أَخْرَجَ﴾، و﴿مِنْ﴾ للتبيين، كقولك: "أنفقْتُ مِن الدراهم ألفًا". [٢٦٩و]

ويجوز أن يكون ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مفعولًا و﴿رِزْقًا﴾ حالًا منه، أو مصدرًا مِن ﴿أَخْرَجَ﴾؛ لأنّه بمعنى "رَزَق"، أو للتبعيض بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾

[1] كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة، ٢/١٩]، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [المؤمنون، ٢٣/١٨]، ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر، ٣٩/٢١]. وأخرج أبو الشيخ ابن حيّان في العظمة عن الحسَن، أنه سئل: المطر مِن السماء، أم مِن السحاب؟ قال: «مِن السماء، إنّما السحاب علَم ينزل عليه الماء مِن السماء». نواهد الأبكار للسيوطي، ٢/٨٣.

[فاطر، ٢٧/٣٥]، كأنّه قيل: أنزل مِن السماء بعضَ الماء، فأخرج به بعضَ الثمرات، ليكون بعضُ رزقكم، إذ لم يُنزل مِن السماء كلّ الماء، ولا أخرج بالمطر كلّ الثمار، ولا جعل كلّ الرزق ثمرًا.

وخروج الثمرات وإن كان بمشيئته عزّ وجلّ وقدرته، لكن جرت عادته تعالى بإفاضة صُوَرِها وكيفيّاتها على الموادّ الممتزَجة مِن الماء والتراب، أو أودع في الماء قوّة فاعلة وفي الأرض قوّة قابلة يتولّد مِن اجتماعهما أنواع الثمار، وهو قادر على إيجاد الأشياء بلا أسباب وموادَّ كما أبدع نفوس الأسباب كذلك؛ لِما أنَّ له تعالى في إنشائها مدرّجًا مِن طورٍ إلى طورٍ صنائعَ وحِكَمًا، يُجدِّد فيها لأولي الأبصار عِبَرًا وسكونًا إلى عظيم قدرته، ليس ذلك في إبداعها دفعةً.

وقوله: ﴿لَكُمْ﴾ صفة لقوله: ﴿رِزْقًا﴾ إن أريدَ به المَرزوق، ومفعول به إن أريدَ به المصدر، كأنّه قيل: رزقًا إيّاكم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ بأن أقدَركم على صَنعتها واستعمالها بما ألهمكم كيفيّة ذلك ﴿لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ جريًا تابعًا لإرادتكم ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بمشيئته التي بها نِيطَ كلُّ شيء. وتخصيصه بالذكر للتنصيص على أنّ ذلك ليس بمزاولة الأعمال / واستعمالِ الآلات كما يتراءى مِن ظاهر الحال. [٢٦٩ظ]

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ إن أريدَ بها المياه العظيمة الجارية في الأنهار العظام -كما يومئ إليه ذِكرها عند البحر- فتسخيرُها جعلُها مُعَدَّة لانتفاع الناس حيث يتّخذون منها جداولَ يسقون بها زروعهم وجِنانهم وما أشبه ذلك. وإن أريدَ بها نفس الأنهار فتسخيرُها تيسيرُها لهم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ يدأَبانِ في سيرهما وإنارَتِهما أصالةً وخلافةً، وإصلاحِهما لِما نِيط بهما صلاحُه مِن المكوِّنات. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقَبان خِلْفة لمَنامكم ومَعاشكم، ولعَقد الثمار وإنضاجِها.

ذكر سبحانه وتعالى أنواع النعم الفائضةِ عليهم، وأبرز كلّ واحدة منها في جملة مستقلّة تنوِيهًا لِشأنها وتنبيهًا على رفعة مكانها وتنصيصًا على كون كلّ منها نعمةً جليلةً مستوجِبةً للشكر.

وفي التعبير عن التصريف المتعلّق بما ذكر مِن الفلك والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار بالتسخير مِن الإشعار بما فيها مِن صعوبة المأخذ وعِزّة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدّة المِحَال ما لا يخفى.

وتأخير تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدّمه مِن الأمور المعدودة مع ما بينه[١] وبين خلق السماوات مِن المناسبة الظاهرة لاستتباع ذكرِها لذِكر الأرض المستدعي لذِكر إنزال الماء منها إليها الموجِبِ لذِكر إخراج الرزق الذي مِن جملته ما يحصل بواسطة الفَلَك والأنهار، أو للتفادي عن توهّم كون الكلّ –أعني: خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر– نعمةً واحدةً، كما مرّ في قصّة البقرة.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: أعطاكم بعضَ جميعِ ما سألتموه حسبما يقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة، كقوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ / ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء، ١٨/١٧]. أو آتاكم مِن كلّ ذلك [٢٧٠و] ما احتجتم إليه ونِيط به انتظامُ أحوالكم على الوجه المقدّر، فكأنكم سألتموه، أو كلَّ ما طلبتموه بلسان الاستعداد، أو كلَّ ما سألتموه، على أنّ ﴿مِن﴾ للبيان، وكلمة ﴿كُلِّ﴾ للتكثير، كقولك: "فلان يعلم كلّ شيء"، و"أتاه كلُّ الناس"، وعليه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام، ٤٤/٦].

وقيل: الأصل: وآتاكم مِن كلّ ما سألتموه وما لم تسألوه، فحُذف الثاني لدلالة ما أُبقيَ على ما أُلقِي.

---

١ وفي هامش م: مع ما بينهما وبين السماوات. «منه».

وقُرئ بتنوين ﴿كُلٍّ﴾[١] على أنّ ﴿مَا﴾ نافية، ومحلّ ﴿مَاسَأَلْتُمُوهُ﴾ النصب على الحاليّة، أي: آتاكم مِن كلٍّ غيرَ سائِليه.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ التي أنعم بها عليكم ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تطيقوا بِحصرِها ولو إجمالًا، فإنّها غير متناهية. وأصل الإحصاء أنّ الحاسب إذا بلغ عقدًا معيّنًا مِن عقود الأعداد وضع حَصاةً ليحفظ بها. ففيه إيذان بعدم بلوغ مرتبة معتدٍّ بها مِن مراتبها فضلًا عن بلوغ غايتها. كيف لا وما مِن فردٍ مِن أفراد الناس وإن كان في أقصى مراتب الفقر والإفلاس ممنوًّا بأصناف العَنايا مبتلى بأنواع الرزايا فهو بحيث لو تأمّلته ألفيتَه متقلّبًا في نِعمٍ لا تُحدّ ومِنَنٍ لا تُحصى ولا تُعدّ، كأنّه قد أعطي كلَّ ساعةٍ وآنٍ مِن النعماء ما حواه حيطة الإمكان؟

وإن كنت في ريب مِن ذلك فَقَدِّر أنّه مَلِكٌ مَلك أقطارَ العالَم، ودانت له كافّة الأمم، وأذعنت لطاعته السَّراة،[٢] وخضعت لهيبته رقابُ العُتاة، وفاز بكلّ مَرام، ونال كلّ مَنال، وحاز جميع ما في الدنيا مِن أصناف الأموال مِن غير ندٍّ يزاحمه، ولا شريك يساهمه؛ بل قَدِّر أنّ جميع ما فيها مِن حجَر ومدَرٍ يواقيتُ غالية ونفائسُ دُرَرٍ، ثمّ قَدِّر أنّه قد وقع مِن فقْدِ مشروب أو مطعوم في حالة بلغت نفسُه الحلقوم، فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع ما لَه مِن المُلك والمال لُقمةً تنجّيه عن رِواه،[٣] / أو شربةً تُرويه مِن ظَماه، أم يختار الهلاك فيذهب الأموالُ والأملاكُ بغير بدل يبقى عليه، ولا نفعٍ يعود إليه؟ كلّا؛ بل يبذل لذلك كلَّ ما تحويه اليدان كائنًا ما كان، وليس في صفقته شائبةُ الخسران، فإذن تلك اللقمة والشربة خيرٌ ممّا في الدنيا بألفِ رُتْبة مع أنّهما في طرَف الثُّمام،[٤] ينالهما متى شاء مِن الليالي والأيّام. [٢٧٠ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والضحّاك وزيد عن يعقوب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٦١.

٢ السَّراة: الأشراف، وسَراة كلِّ شيء ما ارتفع منه وعَلا. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «سرو».

٣ ماء رَواء بالفتح ممدود، أي: عَذْب. وإذا كسرتَ الراء قصَرته وكتبته بالياء وقلت: ماءٌ رِوى. ويقال: هو الذي فيه للواردة رِيّ. **الصحاح** للجوهري، «روى».

٤ «هو على طرَف الثُّمام» مَثَل يضرب في تسهيل الحاجة وقرب النجاح. والثُّمام: نبت ضعيف سهل التناول يُسدّ به خُصاص البيوت، وقالوا: إنه ينبت على قدر قامة المَرء. **مجمع الأمثال** للميداني، ٣٩٨/٢.

أو قَدِّر أنّه قد احتبس عليه النفَس، فلا دخَل منه ما خرَج، ولا خرَج منه ما ولَجَ، والحَيْنُ[١] قد حان، وأتاه الموت مِن كلّ مكان، أمَا يُعطي ذلك كلَّه[٢] بمقابلة نفَس واحد؟ بل يعطيه وهو لرأيه حامد، فإذن هو خير مِن أموال الدنيا بجملتها، ومطالبها برمّتها، مع أنّه قد أُتيح له كلّ آنٍ مِن آنات الليالي والأيّام، حال اليقظة والمنام.

هذا مِن الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد مِن العقلاء. وإن رُمتَ العثور على حقيقة الحقّ، والوقوفَ على كلّ ما جلّ مِن السرّ ودقّ، فاعلم أنّ الإنسان بمقتضى حقيقته المُمكنة بمَعزِل عن استحقاق الوجود وما يتبعه مِن الكمالات اللائقة والملكاتِ الرائقة بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الإلهيّة مِن العلاقة لَمَا استقرّ له القرار، ولا اطمأنّت به الدار، إلّا في مطمورة العدَم والبوار، ومهاوي الهلاك والدمار، لكن يفيض عليه مِن الجَناب الأقدس تعالى شأنه وتقدّس في كلّ زمانٍ يمضي وكلّ آنٍ يمرّ وينقضي مِن أنواع الفيوض المتعلّقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانيّة والنفسانيّة والجسمانيّة ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلمه إلّا العليم الخبير.

وتوضيحه أنّه كما لا يستحقّ الوجودَ ابتداءً لا يستحقّه بقاءً، وإنّما ذلك مِن جانب المبدأ الأوّل عزّ وجلّ، فكما لا يتصوّر وجودُه ابتداءً ما لم ينسدّ عليه جميع أنحاء عدمِه الأصلي لا يتصوّر بقاؤه على الوجود بعد تحقّقه بعِلّته ما لم ينسدّ عليه جميع أنحاء عدمه الطارئ؛ لأنّ الاستمرار والدوام مِن خصائص الوجود الواجبي.

وأنت خبير بأنّ ما يتوقّف عليه وجوده مِن الأمور الوجوديّة التي هي علله وشرائطه وإن وجب كونها متناهيةً لوجوب تناهي ما دخل تحت الوجود، لكنّ الأمور العدميّة التي لها دخل في وجوده ليست كذلك، إذ لا استحالةَ في أن يكون لشيء واحد موانعُ غير متناهية، وإنّما الاستحالة في دخولها تحت الوجود،

---

[١] الحَين، بالفتح: الهلاك. لسان العرب لابن منظور، «حين».

[٢] س - كلّه.

فارتفاع تلك الموانع التي لا تتناهى -أعني: بقاءَها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسها في كلّ آنٍ مِن آنات وجوده- نِعَمٌ غير متناهية حقيقةً لا ادّعاءً، وكذا الحال في وجودات عِلله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداءً وبقاءً، وكذا في كمالاته التابعة لوجوده.

فاتّضح أنّه يَفيض عليه كلَّ آنٍ نِعمٌ لا تتناهى مِن وجوهٍ شتّى، فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانَك، لا يلاحظك العيون بأنظارها، ولا يطالعك العقول بأفكارها، شأنك لا يُضاهى، وإحسانك لا يَتناهى، ونحن في معرفتك حائرون، وفي إقامة مراسم شكرك قاصرون، نسألك الهداية إلى مناهج معرفتك، والتوفيقَ لأداءِ حقوقِ نعمتك، لا نحصي ثناءً عليك، لا إله إلّا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

[٢٧١و] / ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ﴾ يظلم النعمةَ بإغفال شكرها، أو بوضعه في غير موضعه، أو يظلم نفسَه بتعريضها للحِرمان ﴿كَفَّارٞ﴾ شديدُ الكُفران. وقيل: ظَلوم؛ في الشدّة يشكو ويجزع، كَفّار؛ في النعمة يجمع ويمنع. و"اللام" في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للجنس، ومصداق الحُكم بالظلم والكفرانِ بعضُ مَن وُجِدَا فيه مِن أفراده، ويدخل في ذلك ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾... إلخ[١] دخولًا أوّليًا.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ أي: واذكر[٢] وقتَ قوله عليه السلام. والمقصود مِن تذكيره تذكيرُ ما وقع فيه مِن مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل. والمراد به تأكيد ما سلف مِن تعجيبه صلّى الله عليه وسلّم ببيان فنٍّ آخر مِن جناياتهم، حيث كفروا بالنِّعم الخاصّة بهم بعدما كفروا بالنِّعم العامّة، وعَصَوْا أباهم إبراهيم عليه السلام حيثُ أسكنهم بمكّة شرّفها الله تعالى لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر لنِعَم الله تعالى، وسألَه تعالى أن يَجْعَلَه[٣] بلدًا آمنًا، ويرزقَهم مِن الثمرات،

---

[١] إبراهيم، ٢٨/١٤.

[٢] ط س: اذكر.

[٣] وفي هامش م: التذكير باعتبار الخبر.

ويهوي قلوب الناس إليهم مِن كلّ أَوب سحيق، فاستجاب الله سبحانه دعاءَه، وجعله حرمًا آمنًا يُجْبَى إليه ثمرات كلّ شيء، فكفروا بتلك النِّعم العظام، واستبدلوا بالبلد الحرام دارَ البوار، وجعلوا لله تعالى أندادًا، وفعلوا ما فعلوا.

/ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ يعني مكّة شرّفها الله سبحانه ﴿ءَامِنًا﴾ أي: ذا أمنٍ، أو آمِنًا أهلُه بحيث لا يُخاف فيه، على ما مرّ في سورة البقرة. والفرق بينه وبين ما فيها مِن قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة، ١٢٦/٢] أنّ المسئول هناك البلديّةُ والأمنُ معًا، وههنا الأمنُ فقط، حيث جُعِل هو المفعولَ الثاني للجَعل، وجُعِل البلد صفةً للمفعول الأوّل. [٢٧١ظ]

فإن حُمل على تعدّد السؤال فلعلّه عليه السلام سأل أوّلًا كِلا الأمرين فاستُجيب له في أحدهما وتأخّر الآخر إلى وقته المقدّر لِما يقتضيه مِن الحكمة الداعية إليه، ثمّ كرّر السؤال كما هو المعتاد في الدعاء والابتهال، أو كان المسئول أوّلًا مجرّدَ الأمن المصحِّحِ للسكنى كما في سائر البلاد، وقد أجيبَ إليه، وثانيًا الأمنَ المعهودَ، أو كان هو المسئول فيهما، وقد أجيب إليه أيضًا، لكنّ السؤالَ الثاني للاستدامة، والاقتصارُ على ذلك لأنّه المقصود الأصلي، أو لأنّ المعتاد في البلديّة الاستمرار بعد التحقّق، بخلاف الأمن.

وإن حُمل على وحدة السؤال وتكرّر الحكاية كما هو المتبادَر فالظاهر أنّ المسئول كِلا الأمرين، وقد حُكي أوّلًا،[١] واقتُصر ههنا على حكاية سؤال الأمن، لا لمجرّد أنّ نعمة الأمن أدخلُ في استيجاب الشكر، فذِكره أنسب بمقام تقريع الكفَرة على إغفاله كما قيل؛ بل لأنّ سؤال البلديّة قد حُكي بقوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾،[٢] إذ المسئول هُوِيّتُهَا إليهم للمساكنة معهم لا للحجّ فقط، وهو عين سؤال البلديّة قد حكي بعبارة أخرى، وكان ذلك أوّلَ ما قدِم عليه السلام مكّة، كما روى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه عليه السلام لمّا أسكن إسماعيل وهاجَر هناك وعاد متوجّهًا إلى الشام

---

[١] وفي هامش م: أي: في سورة البقرة.[(١)] «منه».
| [(١)] البقرة، ١٢٦/٢.

[٢] إبراهيم، ٣٧/١٤.

تبعَتْهُ هاجَر وجَعَلَتْ تقول: «إلى مَن تكِلُنا في هذا البَلْقَعِ؟»[١] وهو لا يردّ عليها جوابًا، حتّى قالت: «آللهُ أمرك بهذا؟» فقال: «نعم»، قالت: «إذًا لا يُضيِّعنا»، فَرَضِيَتْ، ومضى حتّى إذا استوى على ثنيّة كَداء أقبل على الوادي فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ الآية.[٢] وإنّما فصل[٣] ما بينهما تثنيةً للامتنان، وإيذانًا بأنّ كلًّا منهما نعمة جليلة مستَتبِعة لشكر كثير.

﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ﴾ بعّدني وإيّاهم ﴿أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ واجعلنا مِنه[٤] في جانب بعيد، أي: ثَبِّتنا على ما كنّا عليه مِن التوحيد وملّة الإسلام والبعدِ عن عبادة الأصنام. وقُرئ: "أَجْنِبْنِي"[٥] مِن الإفعال، وهما لغة أهل نجدٍ، يقولون: / "جَنَبَنِي شَرَّهُ" و"أَجْنَبَنِي شَرَّه"، وأمّا أهل الحجاز فيقولون: "جَنَّبَنِي شَرَّه"، وفيه دليل على أنّ عصمة الأنبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى. [٢٧٢و]

والظاهر أنّ المراد بِبَنِيهِ أولادُه الصلبيّة، فلا احتجاج به لابن عُيَيْنة رضي الله عنه على أنّ أحدًا مِن أولاد إسماعيل عليه السلام لم يعبُد الصنَم، وإنّما كان لكلّ قومٍ حَجَرٌ نَصَبُوه، وقالوا: هو حَجر والبيت حَجر، فكانوا يدورون به ويسمّونه الدُّوار، فاستُحِبّ أن يقال: طاف بالبيت، ولا يقالَ: دار بالبيت.[٦] وليت شِعري كيف ذهب عليه ما في القرآن العظيم مِن قَوارعَ تَنْعي على قريش عبادةَ الأصنام؟ على أنّ فيما ذكره كرًّا على مَا فَرَّ منه.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي: الأصنامَ ﴿أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: تسبّبن له، كقوله تعالى:

---

١ البَلْقَع والبَلْقَعة: الأرضُ القَفرُ التي لا شيء بها. الصحاح للجوهري، «بلقع».

٢ إبراهيم، ١٤/٣٧. | جامع البيان للطبري، ٦٩٢/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/٥.

٣ وفي هامش م: ولم يجمع بينهما كما جمع أوّلًا. «منه».

٤ وفي هامش م: كما في قصّة البقرة. «منه».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري والثقفي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦١.

٦ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٥٨/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٠/٣.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام، ٧٠/٦]. وهو تعليل لدعائه، وإنّما صدّره بالنداء إظهارًا لاعتنائه به ورغبته في استجابته.

﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ منهم في ما[١] أدعو إليه مِن التوحيد وملّة الإسلام ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي: بَعضي، قاله عليه السلام مبالغةً في بيان اختصاصه به، أو متّصل بي لا ينفكّ عنّي في أمر الدين.

﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ أي: لم يتّبعني. والتعبير عنه بالعصيان للإيذان بأنّه عليه السلام مستمرّ على الدعوة، وأنّ عدم اتّباع مَن لم يتّبعه إنّما هو لعصيانه، لا لِأنّه لم يبلغه الدعوة. ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قادر على أن تغفِر له وترحَمَه ابتداءً، أو بعد توبته، وفيه أنّ كلّ ذنب فللّٰه تعالى أن يغفِره حتّى الشركِ، خلا أنّ الوعيد قضى بالفرق بينه وبين غيره.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾

﴿رَّبَّنَا﴾ آثر عليه السلام ضميرَ الجماعة لا لِما قيل[٢] مِن تقدّم ذِكره وذِكرِ بَنيه، وإلّا لَراعاه في قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾... إلخ؛[٣] لأنّ الدُّعاء المصدَّر به وما أورده بصدَد تمهيد مبادي إجابته مِن قوله: ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ﴾ الآيةَ متعلّق بذرّيّته، فالتعرّض لوصف ربوبيّته تعالى لهم / أدخَل في القبول وإجابةِ المسئول. ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: بعضَهم، أو ذرّيّةً مِن ذرّيّتي، فحُذف المفعول، وهو إسماعيل عليه السلام وما سيولَد له، فإنّ إسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمّن لإسكانهم. [٢٧٢ظ]

رُوي أنّ هاجر أمّ إسماعيل كانت لسارة، فوهبتْها مِن إبراهيم عليه السلام، فلمّا ولدت له إسماعيل عليه السلام غارَت عليها، فناشدته أن يُخرجها مِن عندها، فأخرجها إلى أرض مكّة، فأظهر الله تعالى عين زمزم.

---

١ س: فيما.

٢ قاله أبو حيّان في البحر المحيط، ٤٤٦/٦.

٣ في الآية السابقة.

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ لا يكون فيه زرع أصلًا، وهو وادي مكّة شرّفها الله سبحانه. ﴿عِندَ بَيْتِكَ﴾ ظرف لـ﴿أَسْكَنتُ﴾، كقولك: "صلّيت بمكّة عند الركن"، لا أنّه صفة لـ﴿وَادٍ﴾ أو بدل منه، إذ المقصود إظهار كون ذلك الإسكان مع فقدان مباديه بالمرّة لِمَحض التقرّب إلى الله تعالى والالتجاءِ إلى جواره الكريم، كما ينبئ عنه التعرّض لعنوان الحرمة المؤذِن بعزّة الملتجئ وعصمته عن المكاره في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾ حيث حُرِّم التعرّض له والتهاون به، أو لم يزل معظّمًا ممنّعًا يَهَابُه الجبابرةُ في كلّ عصر، أو مُنع منه الطوفانُ فلم يستولِ عليه، ولذلك سُمّي "عَتيقًا".

وتسميته إذ ذاك "بيتًا" ولم يكن له بناءٌ -وإنّما كان نَشَزًا مثلَ الرابية، تأتيه السيول فتأخذ ذات اليمين وذات الشمال- ليست باعتبار ما سيئول إليه الأمر مِن بنائه عليه السلام، فإنّه ينزِع إلى اعتبار عنوان الحرمة أيضًا كذلك؛ بل إنّما هي باعتبار ما كان مِن قبل، فإنّ تعدّد بناء الكعبة المعظّمة ممّا لا ريب فيه، وإنّما الاختلاف في كمّيّة عدده، وقد ذكرناها في سورة البقرة بفضل الله سبحانه.

[٢٧٣و] / ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ متوجّهين إليه متبرّكين به، وهو متعلّق بـ﴿أَسْكَنتُ﴾، وتخصيصها بالذِّكر مِن بين سائر شعائر الدين لفضلها. وتكرير النداء وتوسيطه لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة، / والاهتمامِ بِعَرَض أنّ الغَرَض مِن إسكانهم [٢٧٣ظ] بذلك الوادي البَلْقَع ذلك المقصِدُ الأقصى والمطلبُ الأسنى، وكلّ ذلك لتمهيد مبادي إجابة دعائه وإعطاء مسئوله الذي لا يتسنّى ذلك المرام إلّا به، ولذلك أدخل عليه "الفاء" فقال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أَفْئِدةً مِن أفئدتهم. فـ﴿مِن﴾ للتبعيض، ولذلك قيل: لو قال: "أفئدةَ الناس" لازدحمت عليهم فارس والروم، وأمّا ما زيد عليه مِن قولهم: "ولحجّت اليهود والنصارى"[1] فغير مناسب للمقام، إذ المسئول توجيه القلوب إليهم للمُساكنة معهم، لا توجيهُها إلى البيت للحجّ، وإلّا لقيل: تهوي إليه، فإنّه عين الدعاء بالبلديّة قد حُكي بعبارة أخرى كما مرّ. أو لابتداء الغاية[2] كقولك: "القلب منّي سقيم"، أي: أفئدةَ ناسٍ.

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/٢٠١.
[2] السياق: فـ(مِن) للتبعيض... أو لابتداء الغاية...

وقُرئ: "آفِدَةً"[١] على القلب، كـ"آدُر" في "أَدْوُرٍ"،[٢] أو على أنّه اسم فاعل مِن "أَفِدَتِ الرحلةُ"، أي: عجِلت، أي: جماعةً مِن الناس. و"أَفِدَةً"[٣] بطرح الهمزة مِن "الأفئدة"، أو على النعت مِن "أَفِدَ".[٤]

﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ تُسرع إليهم شوقًا ووِدادًا. وقُرئ على البناء للمفعول[٥] مِن "أهواه غيرَه"، و"تَهْوَى"[٦] مِن باب عَلِم، أي: تحبّ، وتعديته بـ"إلى" لتضمّنه معنى الشوق والنزوع.

وأوّل آثار هذه الدعوة ما رُوي أنّه مرّت رُفقةٌ مِن جُرهم تريد الشام، فرأوا الطيرَ تحوم على الجبل، فقالوا: «إنّ هذا الطائر لَعائِف[٧] على الماء»، فأشرفوا، فإذا هم بهاجَر، فقالوا لها: «إن شئتِ كنّا معكِ وَأَنِسناكِ، والماءُ ماؤكِ»، فأذِنَتْ لهم، وكانوا معها إلى أن شَبّ إسماعيل عليه السلام وماتت هاجر، فتزوّج إسماعيل منهم كما هو المشهور.[٨]

﴿وَٱرْزُقْهُم﴾ أي: ذرّيتي الذين أسكنتهم هناك، أو مع مَن ينحاز إليهم مِن الناس. وإنّما لم يخصّ الدعاء بالمؤمنين منهم -كما في قوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ / ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة، ١٢٦/٢]- اكتفاءً بذكر إقامة الصلاة. ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مِن أنواعها بأن يُجعل بقرب منه قُرًى يحصل فيها ذلك، أو يُجبى إليه مِن الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلاهما، حتّى إنّه يجتمع فيه الفواكه الربيعيّة والصيفيّة والخريفيّة في يوم واحدٍ. [٢٧٤و]

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٥٩/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٧/٦.

٢ في جمع "دار". انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «دار».

٣ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٥٩/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٧/٦.

٤ أَفِدَ الرجل -بالكسر- يَأْفَد أفدًا، أي: عَجِل، فهو أَفِد على فَعِل، أي: مستعجلٌ. وأَفِدَ الترَحُّل، أي: دنا وأزِف. الصحاح للجوهري، «أفد».

٥ أي: "تُهْوَى". قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ والحسين بن عليّ وعن سلمة بن عبد الله. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ ومحمد بن عليّ وجعفر بن محمد ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

٧ عافَتِ الطيرُ تَعيفُ عَيْفًا، إذا كانت تحوم على الماء وتتردّد ولا تمضي تريد الوقوع، فهي عائفة. الصحاح للجوهري، «عيف».

٨ انظر: جامع البيان للطبري، ٦٩٠/١٣؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/٥.

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما «أنّ الطائف كانت مِن أرض فلسطين، فلمّا دعا إبراهيم عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها حيث وضعها رزقًا للحرَم».[١] وعن الزهري «أنّه تعالى نقل قرية مِن قُرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم عليه السلام».[٢]

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمةَ بإقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبوديّة.

وقيل:[٣] "اللام" في ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ لام الأمر، والمراد أمرهم بإقامة الصلاة والدعاء مِن الله تعالى بتوفيقهم لها، ولا يناسبه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ﴾... إلخ.

وفي دعائه عليه السلام مِن مراعاة حسن الأدب والمحافظة على قوانين الضَّراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة ما لا يخفى، فإنّه عليه السلام بذكر كون الوادي غيرَ ذي زرعٍ بيَّنَ كمال افتقارهم إلى المسئول، وبذكر كون إسكانهم عند البيت المحرّم أشار[٤] إلى أنّ جوار الكريم يستوجب إفاضة النعيم، وبعرض كون ذلك الإسكان مع كمال إعواز مرافق المعاش لمَحض إقامة الصلاة وأداء حقوق البيت مهّد جميع مبادي إجابةِ السؤال، ولذلك قرنت دعوته عليه السلام بحُسن القبول.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٖ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ مِن الحاجات وغيرها، والمراد بـ﴿مَا نُخْفِي﴾ ما يقابل ﴿مَا نُعْلِنُ﴾، سواء تعلّق به الإخفاء أو لا، أي: تعلم ما نُظهره وما لا نُظهره، فإنّ علمه تعالى متعلِّق بما لا يخطر بباله ممّا فيه مِن الأحوال الخفيّة فضلًا عن إخفائه. وتقديم ﴿مَا نُخْفِي﴾[٥] على ﴿مَا نُعْلِنُ﴾ لتحقيق المساواة بينهما / في تعلّق العلم بهما على أبلغ وجه، فكأنّ تعلّقه بما يُخفى أقدم منه [٢٧٤ظ]

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٦٢. وفي جامع البيان للطبري، ١٣/٧٠١، نحوه مِن قول محمّد بن مسلم الطائفي.

[٢] تفسير ابن أبي حاتم، ١/٢٣٠؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ١/٣٠٣.

[٣] ذكره البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/٢٠١؛ وابن عادل في اللباب، ١١/٣٩٦.

[٤] س: إشارة.

[٥] م: ما نُخف.

بما يُعلَن، أو لأنّ مرتبة السرّ والخفاء متقدّمة على مرتبة العلَن، إذ ما مِن شيء يُعلَن إلّا وهو قبل ذلك خفيّ، فَتَعلُّقُ علمِه سبحانه بحالتِه الأولى أقدم مِن تعلّقه بحالته الثانية.

ومقصده عليه السلام أنّ إظهار هذه الحاجات وما هو مِن مباديها وتتمّاتها ليس لكونها غير معلومة لك؛ بل إنّما هو لإظهار العبوديّة والتخشّعِ لعظمتك، والتذلّلِ لعزّتك، وعرضِ الافتقار إلى ما عندك، والاستعجالِ لنَيل أياديك.

وتكرير النداء للمبالغة في الضراعة والابتهال. وضمير الجماعة لأنّ المراد ليس مجرّدَ علمه تعالى بسرّه وعلنه؛ بل بجميع خفايا المُلك والملَكوت، وقد حقّقه بقوله على وجه الاعتراض: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لِما أنّه العالِم بالذات، فما مِن أمر يدخل تحت الوجود كائنًا ما كان في زمان مِن الأزمان إلّا ووجوده في ذاته عِلم بالنسبة إليه سبحانه.

وإنّما قال: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾... إلخ -دون أن يقول: "ويَعلم ما في السماوات والأرض"- تحقيقًا لِما عناه بقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ مِن أنّ علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة إلى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة إلى علوم المخلوقات.

وكلمة ﴿فِي﴾ متعلّقة بمحذوف وقع صفة لـ﴿شَيْءٍ﴾، أي: مِن شيء كائنٍ فيهما، أعمّ مِن أن يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما، أو على وجه الجزئيّة منهما، أو بـ﴿يَخْفَىٰ﴾. وتقديم ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾[1] مع توسيط ﴿لَا﴾ بينهما باعتبار القربِ والبُعد منّا المستدعِيَين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا.

والالتفات مِن الخطاب إلى اسم الذات المستجمِعة للصفات لتربية المَهابة والإشعار بعلّة الحكم[2] على نهج قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك، ٦٧/١٤]، والإيذانِ بعمومِه؛ لأنّه ليس بشأن يختصّ به أو بمَن يتعلّق به؛ بل شامل لجميع الأشياء، فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحّح لمبدئيّة الكلّ.

---

١ س - على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾.

٢ وفي هامش م: وهو عدم الخفاء. «منه».

[٢٧٥و] / وقيل: هو مِن كلام الله عزّ وجلّ وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [النمل، ٣٤/٢٧]. و﴿مِن﴾ للاستغراق على الوجهين.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ أي: مع كِبَري ويأسي عن الولد. قيّد الهبة به استعظامًا للنعمة وإظهارًا لِشكرها. ﴿إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ رُوي أنّه وُلد له إسماعيل وهو ابن تسعٍ وتسعين سنةً، ووُلد له إسحاق وهو ابن مائةٍ واثنتي عشرةَ سنةً،[1] أو مائةٍ وسبعَ عشرةَ سنةً.[2]

﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ومالكَ أمري ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ لَمجيبه، مِن قولهم: "سمِع الملِك كلامَه" إذا اعتدّ به، وهي مِن أبنية المبالغة العاملةِ عملَ الفعل، أضيفَ إلى مفعوله أو فاعله بإسناد السماع إلى دعاء الله تعالى مجازًا، وهو مع كونه مِن تتمّة الحمد والشكر -إذ هو وَصْف له تعالى بأنّ ذلك الجميل سُنّته المستمِرّة- تعليل على طريقة التذييل للهبة المذكورة. وفيه إيذان بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات، ١٠٠/٣٧]، فاقترنت الهبة بقَبول الدعوة. وتوحيد ضمير المتكلِّم وإن كان عقيب ذِكر هبتهما لِما أنّ نعمة الهبة فائضة عليه خاصّةً، وهما مِن النِّعم، لا مِن المنعَم عليهم.

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مثابرًا عليها مُعَدِّلًا لها. وتوحيد ضمير المتكلّم مع شمول دعوته لذرّيّته أيضًا -حيث قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: بعضَهم مِن المذكورين ومَن يسير سيرتهما مِن أولادهما- للإشعار بأنّه المقتدَى في ذلك، وذرّيّتُه أتباع له، وأنّ ذِكرهم بطريق الاستطراد، لا كما في قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾... إلخ،[3] فإنّ إسكانه مع عدم تحقّقه بلا ملابسةٍ لِمَن أسكنه

---

[1] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٣/٥، والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٤/٣.

[2] عن سعيد بن جبير في معالم التنزيل للبغوي، ٣٥٧/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٦١/٢.

[3] إبراهيم، ٣٧/١٤.

إنّما هو مذكور بطريق التمهيد للدعاء الذي هو مخصوص بذرّيّته، وإنّما خصّ هذا الدعاء ببعض ذرّيّته لعلمه مِن جهة الله تعالى أنّ بعضًا منهم لا يكون مقيمَ الصلاة، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة، ١٢٨/٢].

/ ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أي: دعائي هذا المتعلّق بجعلي وجعل بعض ذرّيّتي مقيمي الصلاة، ثابتين على ذلك، مجتنبين عن عبادة الأصنام، ولذلك جيء بضمير الجماعة. [٢٧٥ظ]

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ أي: ما فرَط منّي مِن ترك الأَولى في باب الدين وغير ذلك ممّا لا يسلَم منه البشر ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ وقُرئ بالتوحيد،[١] و"لِأَبَوَيَّ".[٢] وهذا الاستغفار منه عليه السلام إنّما كان قبل تبيُّن الأمرِ له عليه السلام. وقيل: أراد بوالدَيه آدم وحوّاء. وقيل: بشرط الإسلام،[٣] ويردّه قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية [الممتحنة، ٤/٦٠]، وقد مرّ في سورة التوبة[٤] نوع تحقيق للمقام، وسيأتي تمامه في سورة مريم[٥] بفضل الله عزّ وجلّ.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كافّة مِن ذرّيّته وغيرهم، وللإيذان باشتراك الكلّ في الدعاء بالمغفرة جيء بضمير الجماعة. ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يثبُت ويتحقّق محاسبة أعمال المكلّفين على وجه العدل، استُعير له مِن ثبوت القائم على الرِّجل بالاستقامة، ومنه "قامت الحَرب على ساقٍ"، والمراد تهويله. وقيل: أسندَ إليه قيامُ أهله مجازًا، أو حُذف المضاف كما في ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف، ٨٢/١٢].

واعلم أنّ ما حُكي عنه عليه السلام مِن الأدعية والأذكار وما يتعلّق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المحكي ولا على وجه المعيّة؛ بل صَدر عنه

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٢/٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٢/٢.

٣ ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٥٦٢/٢.

٤ انظر: التوبة، ١١٤/٩.

٥ انظر: مريم، ٤٧/١٩.

في أزمنة متفرّقةٍ، حكي مرتّبًا للدلالة على سوء حال الكفرة بعد ظهور أمره في الملّة، وإرشاد الناس إليها والتضرّعِ إلى الله تعالى لمصالحهم الدينيّة والدنيويّة.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والمراد تثبيته على ما كان عليه مِن عدم حسبانه عزّ وجلّ كذلك، نحو قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ١٤/٦] ونظائره، مع ما فيه مِن الإيذان بكونه واجِبَ الاحتراز عنه في الغاية حتّى نُهِي عنه مَن لا يمكن تعاطيه، [٢٧٦و] / أو نهيُه عليه السلام عن حسبانه تعالى تاركًا لعقابهم على طريقة العفو. والتعبير عنه بذلك للمبالغة في النهي، والإيذانِ بأنّ ذلك الحسبان بمنزلة حسبانه تعالى غافلًا عن أعمالهم؛ إذ العلم بذلك مستوجِب لعقابهم لا محالةَ، فتركُه لو كان لَكان للغفلة عمّا يوجبه مِن أعمالهم الخبيثة. وفيه تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ووعدٌ له أكيدٌ[1] ووعيد للكفرة وسائر الظالمين شديد.

أو لكلّ أحد[2] ممّن يستعجل عذابهم أو يتوهّم إهمالهم للجهل بصفاته تعالى والاغترار بإمهاله. وقيل: معناه لا تحسبنّه تعالى يعاملهم معاملة الغافل عمّا عملوا؛ بل معاملةَ مَن يحافظ على أعمالهم ويجازيهم بذلك نقيرًا وقطميرًا.

والمراد بالظالمين أهلُ مكّة ممّن عُدّت مَساويهم، مِن تبديل نعمة الله كفرًا، وإحلالِ قومهم دارَ البوار، واتّخاذِ الأنداد، كما يُؤذن به التعرّض لحكمةِ التأخير المنبئ عنه قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ الآية،[3] أو جنسُ الظالمين، وهم داخلون في الحكم دخولًا أوّليًّا.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يمهلهم متمتّعين بالحظوظ الدنيويّة، ولا يعجّل عقوبتهم حسبما يشاهَد. وهو استئناف وقع تعليلًا للنهي السابق، أي: دُم على ما كنت عليه مِن عدم حسبانه تعالى غافلًا عن أعمالهم، ولا تحزن بتأخير ما تستوجبه

---

[1] ط س: أكيدٌ.
[2] السياق: خطاب لرسول الله... أو لكلّ أحد...
[3] إبراهيم، ٣٠/١٤.

مِن العذاب الأليم، إنّ تأخيره للتشديد والتغليظ، أو لا تحسبنّه تعالى تاركًا لعقوبتهم لِما ترى مِن تأخيرها، إنّما ذلك لأجل هذا، أو لا تحسبنّه تعالى يعاملهم معاملة الغافل ولا يؤاخذهم بما عملوا لِما ترى مِن التأخير، إنّما هو لهذه الحكمة. وقُرئ بالنون.[١]

وإيقاع التأخير عليهم مع أنّ المؤخَّر إنّما هو عذابهم لتهويل الخَطب وتفظيع الحال ببيان أنّهم متوجّهون إلى العذاب، مُرصَدون لأمر ما، لا أنّهم باقون باختيارهم، وللدلالة على أنّ حقّهم / مِن العذاب هو الاستئصال بالمرّة، [٢٧٦ظ] وأن لا يبقى منهم في الوجود عينٌ ولا أثرٌ، وللإيذان بأنّ المؤخَّر له مِن جملة العذاب وعنوانه، ولو قيل: إنّما يؤخِّر عذابَهم... إلخ لَما فُهم ذلك.

﴿لِيَوْمٍ﴾ هائل ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ ترتفع أبصارُ أهل الموقف، فيدخل في زُمرتهم الكفرة المعهودون دخولًا أوّليًا، أي: تبقى مفتوحة لا تتحرّك أجفانهم مِن هَول ما يرونه. واعتبار عدم قرارها في أماكنها إمّا باعتبار الارتفاع الحِسّي في جِرم العين، وإمّا بجعل الصيغة مِن "شَخَصَ مِن بلد إلى بلد، وسار في ارتفاع".

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعي، مُقبلين عليه بالخوف والذلّ والخشوع، أو مُقبلين بأبصارهم عليه، لا يُقلِعون عنه، ولا يَطرِفُون هيبةً وخوفًا. وحيث كان إدامة النظر ههنا بالنظر إلى الداعي قيل: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعيها مع إدامة النظر مِن غير التفات إلى شيء، قاله العَيني[٢] وابن عرفة.[٣] أو ناكسيها، ويقال:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وقتادة والسلمي وعبّاس عن أبي عمرو والمفضّل عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

[٢] هو محمود بن أحمد بن موسى العينتابي العيني، بدر الدين (ت. ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، الحنفي، قاضي القضاة. ولد في عينتاب. وتفقّه بها ثمّ قدِم حلب، وأخذ بها عن الجمال يوسف الملطي. ثمّ قدم القاهرة فأخذ عن مشايخها، وبرَع في الفنون، وولي حُسبة القاهرة، وقضاء الحنفيّة، وله عدّة مصنّفات، منها: شرح البخاري، وشرح معاني الآثار للطحاوي، وشرح الشواهد الكبرى. انظر: نظم العقيان للسيوطي، ص ١٧٤؛ والأعلام للزركلي، ١٦٣/٧.

[٣] انظر: شرح سنن أبي داود للعيني، ٣١٦/٣. والعبارة في تفسير القرطبي، ٣٧٦/٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٣/٦: "قاله ابن عرفة »

"أقنَع رأسَه"، أي: طأطأها ونكَّسَها، فهو مِن الأضداد. وهما حالان ممّا دلّ عليه ﴿ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ مِن أصحابها، أو الثاني حال متداخِلة مِن الضمير في الأوّل، وإضافته غير حقيقيّة، فلا ينافي الحاليّة.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا يرجِع إليهم تحريكُ أجفانهم حسبما كان يرجع إليهم كلّ لحظة؛ بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تَطرِف، أو لا ترجع إليهم أجفانهم التي هي آلة الطَّرْف، فيكون إسناد الرجوع إلى الطَّرْف مَجازيًا، أو هو نفس الجَفن. قال الفيروزاباديّ:[١] «الطَّرْف: العَين، لا يُجمع؛ لأنّه مصدر في الأصل، أو اسم جامع للعين».

[٢٧٧و] أو لا يرجع نظرهم إلى أنفسهم فضلًا / عن أن يرجع إلى شيء آخر فيَبقَون مَبهوتين، وهو أيضًا حال أو بدل مِن ﴿مُقْنِعِي﴾... إلخ، أو استئناف، والمعنى: لا يزول ما اعتراهم مِن شُخوص الأبصار، وتأخيره عمّا هو مِن تتمّته مِن الإهطاع والإقناع مع ما بينه وبين الشُّخوص المذكور مِن المناسبة لتربية هذا المعنى.

﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ خالية مِن العقل والفهم لفَرط الحيرة والدهش، كأنّها نفس الهواء الخالي مِن كلّ شاغل، ومنه قيل للجبان والأحمق: "قلبه هواء"،

< والقُتَبي". | ابن عرفة: هو محمّد بن محمّد بن عرفة بن حمّاد الوَرْغَمي، أبو عبد الله (ت. ٨٠٣هـ/١٤٠٠م). فقيه تونس وإمامها وعالمها وخطيبها، تبحّر في العلوم، وفاقَ في الأصول والكلام، وتقدّم في الفقه والنحو والتفسير، قرأ القراءات على محمّد بن محمّد بن سلامة، وأخذ العلم عن جماعة مِن العلماء الجلّة، منهم والده أبو عبد الله بن الوادياشي وغيره، قال ابن الجزري: «لم يخلِّف بعدَه مثله». مِن كتبه: **المختصر الكبير في فقه المالكيّة، والمختصر الشامل في التوحيد، ومختصر الفرائض، والمبسوط في الفقه، والطرق الواضحة في عمل المناصحة، والحدود في التعاريف الفقهيّة**. انظر: **غاية النهاية** لابن الجزري، ٢/٢٤٣؛ **والأعلام** للزركلي، ٧/٤٣.

[١] **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «طرف». | هو محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم، الشيرازي، الفيروزابادي، مجد الدين، أبو طاهر (ت. ٨١٧هـ/١٤١٥م)، مِن أئمّة اللغة والأدب. وُلد بكارِزين مِن أعمال شيراز، وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند. ورحل إلى زَبيد فأكرمه ملِكها الأشرف إسماعيل وقرأ عليه، فسكَنها، وولي قضاءها، وانتشر اسمه في الآفاق، حتّى كان مرجعَ عصره في اللغة والحديث والتفسير، أشهر كتبه **القاموس المحيط**، وله **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ونزهة الأذهان في تاريخ أصبهان**. انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ١/٢٧٣؛ **والأعلام** للزركلي، ٧/١٤٦.

أي: لا قوّةَ ولا رأيَ فيه، واعتبارُ خلوّها عن كلّ خير[١] لا يناسب المقام، وهو إمّا حال عاملُها ﴿لَا يَرْتَدُّ﴾ مفيدة لكون شخوص أبصارهم وعدمِ ارتداد طرفهم بلا فَهم ولا اختيار، أو جملةٌ مستقِلّة.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد إعلامه أنّ تأخيرهم لماذا، وأمرٌ له بإنذارهم وتخويفهم منه. والمراد بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الكفّار المعبّر عنهم بالظالمين، كما يقتضيه ظاهر إتيان العذاب، والعدول إليه مِن الإضمار للإشعار بأنّ المراد بالإنذار هو الزجر عمّا هم عليه مِن الظلم شفقةً عليهم، لا التخويف للإزعاج والإيذاء، فالمناسب عدم ذكرِهم بعنوان الظلم. أو الناسُ جميعًا، فإنّ الإنذار عامّ للفريقين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس، ١١/٣٦]، والإتيان يعمّهما مِن حيث كونُهما في الموقف، وإن كان لحوقه بالكفّار خاصّةً، أي: أنذرهم وخوّفهم.

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المعهود، وهو اليوم الذي وُصِف بما لا يوصف مِن الأوصاف الهائلة، أعني: يوم القيامة، وقيل: هو يوم موتهم معذَّبين بالسكَرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، أو يومُ هلاكهم بالعذاب العاجل، ويأباهُ القصر السابق.

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: فيقولون، والعدول عنه إلى ما عليه النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم، وللإشعار بأنَّ مَا لَقُوه مِن الشدّة إنّما هو لظلمهم. وإيثارُه على صيغة الفاعل حسبما ذُكر أوّلًا للإيذان بأنّ الظلم / في الجملة كافٍ [٢٧٧ظ] في الإفضاء إلى ما ذُكر مِن الأهوال مِن غير حاجة إلى الاستمرار عليه كما يُنبئ عنه صيغة الفاعل.

وعلى تقدير كون المراد بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مَن يعمّ المسلمين أيضًا، فالمعنى: الذين ظلموا منهم وهم الكفّار. أو يقول:[٢] كلُّ مَن ظلَم بالشرك والتكذيب مِن المنذرين

---

١ ذكره الزمخشري عن ابن جريج. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٤/٢.

٢ وفي هامش م: على التقديرين. «منه».

وغيرهم مِن الأمم الخالية فإنّ إتيان العذاب يعمّهم كما يُشعر بذلك وَعدُهم باتّباع الرسل.

﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ﴾ رُدّنا إلى الدنيا وأمهلنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ إلى أَمدٍ وحدٍّ مِن الزمان قريب ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾ أي: الدعوةَ إليكَ وإلى توحيدك، أو دعوتَك لنا على ألسنة الرسل، ففيه إيماء إلى أنّهم صدّقوهم في أنّهم مرسلون مِن عند الله تعالى. ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيما جاءونا به، أي: نتدارك ما فرّطنا فيه مِن إجابة الدعوة واتّباع الرسل. والجمع إمّا باعتبار اتّفاق الجميع على التوحيد، وكونِ عصيانهم للرسول عليه السلام عِصيانًا لهم جميعًا عليهم السلام، وإمّا باعتبار أنّ المحكي كلام ظالِمي الأمم جميعًا، والمقصودُ بيانُ وَعد كلّ أمّة باتّباع رسولها.

﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ على إضمار القول معطوفًا على ﴿فَيَقُولُ﴾ أي: فيقال لهم توبيخًا وتبكيتًا: ألَم تؤخَّروا في الدنيا؟ ولم تكونوا أقسمتم إذ ذاك بألسنتكم بطَرًا وأَشَرًا وجهلًا وسفهًا: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ ممّا أنتم عليه مِن التمتّع بالحظوظ الدنياويّة؟ أو بألسنة الحال حيث بنيتم مَشيدًا وَأَمّلتُم بَعِيدًا، ولم تحدّثوا أنفسكم بالانتقال منها إلى هذه الحالة؟ وفيه إشعار بامتداد زمان التأخير وبُعدِ مَدَاه، أو ما لكم مِن زوالٍ مِن هذه الدار إلى دار أخرى للجزاء، كقوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل، ٣٨/١٦].

[٢٧٨و] وصيغة الخطاب / في جواب القسَم لمراعاة حال الخطاب في ﴿أَقۡسَمۡتُم﴾ كما في قوله: "حلَف بالله ليخرُجَنّ"، وهو أدخل في التوبيخ مِن أن يقال: "ما لنا" مراعاةً لحال المُقسِم.

ذكر البيهقيّ[١] عن محمّد بن كعب القرظي رحمه الله أنّه قال: لأهل النار خمسُ دعوات يجيبهم الله تعالى في أربعٍ منها، فإذا كانت الخامسة لم يتكلّموا بعدها أبدًا، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر، ١١/٤٠]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [غافر، ١٢/٤٠]، ثمّ يقولون:

---

[١] الأسماء والصفات للبيهقي، ٥٥٥/١ (٤٨٢)؛ البعث والنشور للبيهقي، ص ٣٢٨-٣٢٩ (٦٠١).

﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة، ١٢/٣٢]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ الآية [السجدة، ١٤/٣٢]، ثمّ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم﴾ الآية، ثمّ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ [فاطر، ٣٧/٣٥]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر، ٣٧/٣٥]، فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون، ١٠٦/٢٣]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون، ١٠٨/٢٣]، فلا يتكلّمون بعدها أبدًا، إن هو إلّا زفير وشهيق، وعند ذلك انقطع رجاؤهم، وأقبل بعضهم يَنْبُحُ في وجه بعضٍ، وأُطبقت عليهم جهنّم. اللّهمّ إنّا بك نعوذ وبكنَفك نلوذ، عزّ جارك، وجلّ ثناؤك، ولا إله غيرك.

﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ٤٥﴾

﴿وَسَكَنتُمۡ﴾ مِن السُّكنى بمعنى التَبَوُّء والإيطان، وإنّما استُعمل بكلمة ﴿فِي﴾ حيث قيل: ﴿فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ جريًا على الأصل؛ لأنّه منقول عن مطلق السكون الذي حقّه التعدية بها، أو مِن السكون واللبث، / أي: قرَرتم في مساكنهم مُطْمَئنّين سائرين سيرتَهم في الظلم بالكفر والمعاصي غير محدِّثين لأنفسكم بما لقيه الأوّلون بسبب ما اجترحوا مِن الموبقات. وفي إيقاع الظلم على أنفسهم بعد إطلاقه فيما سلف إيذانٌ بأنّ غائلة الظلم آيِلة[١] إلى صاحبه. [٢٧٨ظ]

والمراد بهم إمّا جميعُ مَن تقدّمَ مِن الأمم المهلَكة عن تقدير اختصاص الاستمهال، والخطاب السابق بالمنذَرين، وإمّا أوائلهم مِن قوم نوح وهود على تقدير عمومهما للكلّ، وهذا الخطاب وما يتلوه باعتبار حال أواخرهم.

---

١ س: آئِلة.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ مِن الإهلاك والعقوبة بما فعلوا مِن الظلم والفساد، و﴿كَيْفَ﴾ منصوب بما بعده مِن الفعل. وليس الجملة فاعلًا لـ﴿تَبَيَّنَ﴾ كما قاله بعض الكوفيين؛[١] بل فاعله ما دلّت هي عليه دلالة واضحة، أي: فعلُنا العَجيبُ بهم،[٢] كما مرّ في قوله تعالى: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ [يوسف، ٣٥/١٢]. وقُرئ: "يُبَيِّنُ".[٣]

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: بيّنّا لكم في القرآن العظيم -على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذَرين- أو على ألسنة الأنبياء عليهم السلام -على تقدير عمومه لجميع الظالمين- صفاتِ ما فعلوا وما فُعِل بهم مِن الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكلّ ظالم؛ لتعتبروا بها، وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم، ومآلَكم على مآلهم، وتنتقلوا مِن حلول العذاب العاجل إلى حلول العذاب الآجل، فترتدعوا عمّا كنتم فيه مِن الكفر والمعاصي، أو بيّنّا لكم أنكم مثلُهم في الكفر واستحقاق العذاب.

والجمل الثلاث في موقع الحال مِن ضمير ﴿أَقْسَمْتُم﴾،[٤] أي: أقسمتم بالخلود والحال أنكم سكنتم في مساكنِ المهلَكين بظلمهم، وتبيّن لكم فِعلُنا العجيبُ بهم، / ونبهناكم على جَليّة الحال بضرب الأمثال. [٢٧٩و]

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۝٤٦﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ حال مِن الضمير الأوّل في ﴿فَعَلْنَا بِهِمْ﴾،[٥] أو مِن الثاني، أو منهما جميعًا. وإنّما قُدّم عليه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٦] لشدّة ارتباطه بما قبله، أي: فَعلنا بهم ما فَعلنا، والحال أنّهم قد مكروا

---

[١] انظر: شرح شذور الذهب لابن هشام، ص ٢١٧.

[٢] وفي هامش م: وفيه مِن المبالغة ما ليس في أن يقال: ما فعلنا بهم.

[٣] لم أجد مَن ذكَر القراءة بالياء. والمذكور في المصادر: "وَنُبَيِّنُ" بنون مضمومة ورفع النون الأخيرة، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وحكاها أبو عمرو الداني عن السُّلمي. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٣/٦؛ واللباب لابن عادل، ٤١٠/١١.

[٤] في الآية السابقة.

[٥] في الآية السابقة.

[٦] في الآية السابقة.

في إبطال الحقّ وتقريرِ الباطل مكرَهم العظيم، الذي استفرغوا في عمله المجهودَ، وجاوزوا فيه كلّ حدٍّ معهود، بحيث لا يقدِر عليه غيرهم. فالمراد بيان تناهيهم في استحقاق ما فُعِل بهم. أو قد مكروا مكرَهم المذكورَ في ترتيب مبادي البقاء ومدافعةِ أسباب الزوال، فالمقصود إظهارُ عجزهم واضمحلال قُدرتهم وحقارتها عند قدرة الله سبحانه[١] وتعالى.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي: جزاءُ مَكرهم الذي فعلوه، على أنّ المَكر مضاف إلى فاعله، أو أخذُه تعالى بهم، على أنّه مضاف إلى مفعوله، وتسميته "مكرًا" لكونه بمقابلة مكرهم وجودًا وذِكرًا، أو لكونه في صورة المكرِ في الإتيان مِن حيث لا يشعرون. وعلى التقديرين فالمراد به ما أفاده قوله عزّ وجلّ: ﴿كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾،[٢] لا أنّه وعيد مستأنَف. والجملة حال مِن الضمير في ﴿مَكَرُواْ﴾، أي: مكروا مكرَهم وعند الله جزاؤه أو ما هو أعظم منه. والمقصود بيان فساد رأيهم حيث باشروا فعلًا مع تحقّق ما يوجب تركه.

﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾ في العِظم والشدّة ﴿لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ أي: وإن كان مكرهم في غاية المتانة والشدّة، وعبّر عن ذلك بكونه مسوًّى ومُعَدًّا لإزالة الجبال عن مقارّها لكونه مَثلًا في ذلك. والجملة المصدّرة بـ﴿إِن﴾ الوصليّة معطوفة على جملة مقدّرة، والمعنى: وعند الله جزاء مكرهم أو المكرُ الذي يحيق بهم إن لم يكن مكرهم لِتزول منه الجبال وإن كان... إلخ، وقد حُذف ذلك حذفًا مطّردًا لدلالة المذكور عليه دلالة واضحة، فإنّ الشيء إذا تحقّق عند وجود المانع القويّ فلأن يتحقّق عند عدمه أَولى. / وعلى هذه النكتة يدور ما في ﴿إِن﴾ الوصليّة مِن التأكيد المعنوي. والجواب محذوف دلّ عليه ما سبق، وهو قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾. [٢٧٩ظ]

وقيل: ﴿إِن﴾ نافية، و"اللام" لتأكيدها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾ [الأنفال، ٨/٣٣]، وينصره قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "وَمَا كَانَ مَكْرُهُمْ".[٣] فالجملة حينئذ حال مِن الضمير في ﴿مَكَرُواْ﴾، لا مِن قوله تعالى:

---

١ ط: تعالى.
٢ في الآية السابقة.
٣ قراءة شاذّة، عزاها الزمخشري إليه رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٦٦.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾، أي: مكروا مكرَهم والحالُ أنّ مكرَهم لم يكن لِتزول منه الجبال، على أنّها عبارة عن آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدي الرسل السالفة عليهم السلام التي هي بمنزلة الجبال الراسيات في الرسوخ.

وأمّا كونها عبارة عن أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأمرِ القرآن العظيم -كما قيل-[1] فلا مجالَ له، إذ الماكرون هم المهلَكون لا الساكنون في مساكنهم مِن المخاطَبين، وإن خُصّ الخطاب بالمنذَرين.

وقيل: هي مخففة مِن "إنّ"، والمعنى: إنّه كان بمكرهم لِتزول منه ما هو كالجبال في الثبات ممّا ذُكر مِن الآيات والشرائع والمعجزات، والجملة كما هي حال مِن ضمير ﴿مَكَرُواْ﴾، أي: مكروا مكرَهم المعهودَ، وإنّ الشأن كان مكرهم لإزالة الآيات والشرائع، على معنى أنّه لم يكن يصحّ أن يكون منهم مكر كذلك، وكان شأن الآيات والشرائع مانعًا مِن مباشرة المكر لإزالته.

وقد قرأ الكسائيّ: "لَتَزُولُ" بفتح اللام[2] على أنّها الفارقة، والمعنى تعظيم مكرهم، فالجملة حال مِن قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾، أي: عنده تعالى جزاءُ مكرهم، أو المكرُ بهم، والحالُ أنّ مكرهم بحيث تزول منه الجبال، أي: في غاية الشدّة. وقُرئ بالفتح والنصب[3] على لغة مَن يفتح لام "كي". وقُرئ: "وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ"،[4] هذا هو الذي يقتضيه النظم الكريم، وينساق إليه الطبع السليم.

وقد قيل: إنّ الضمير في ﴿مَكَرُواْ﴾ للمنذَرين، والمراد بـ﴿مَكۡرَهُمۡ﴾ ما أفاده قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾ الآية [الأنفال، ٨/٣٠]، / وغيرُه مِن أنواع مكرهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم. [٢٨٠و]

ولعلّ الوجهَ حينئذ أن يكون قولُه تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ﴾... إلخ حالًا مِن القول المقدّر، أي: فيقال لهم ما يقال والحال أنّهم مع ما فعلوا مِن الإقسام المذكور

---

[1] قاله الثعلبي في الكشف والبيان، ٥/٣٢٦؛ والواحدي في التفسير الوسيط، ٣/٣٦.

[2] انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٠.

[3] أي: "لَتَزُولَ". قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٤٥٥؛ واللباب لابن عادل، ١١/٤١٣.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو وعليّ وابن مسعود وأبيّ وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو إسحاق السبيعي وزيد بن عليّ. انظر: شواذ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٤٥٤.

مع ما ينافيه مِن السكون في مساكن المهلَكين وتبيُّنِ أحوالهم وضرب الأمثال قد مكروا مَكْرَهم العظيم، أي: لم يكن الصادر عنهم مجرّدَ الإقسام الذي وُبِّخُوا به؛ بل اجترءوا على مثل هذه العظيمة. وقوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ حال مِن ضمير ﴿مَكَرُواْ﴾ حسبما ذكرنا مِن قبل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ مسوق لبيان عدم تفاوت الحال في تحقيق الجزاء بين كون مكرهم قويًا أو ضعيفًا كما مرّ هناك. وعلى تقدير كون ﴿إِن﴾ نافيةً فهو حال مِن ضمير ﴿مَكَرُواْ﴾، والجبال عبارة عن أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أي: وقد مكروا والحال أنّ مكرهم ما كان لتزول منه هاتِيك الشرائعُ والآيات التي هي في القوّة كالجبال. وعلى تقدير كونها مخفّفة مِن المثقّلة و"اللامُ" مكسورة يكون حالًا منه أيضًا، على معنى أنّ ذلك المكر العظيم منهم كان لهذا الغرَض، على معنى أنّه لم يكن يصحّ أن يكون منهم مكر لذلك، لِما أنّ شأن الشرائع أعظمُ مِن أن يَمكُر بها ماكر. وعلى تقدير فتح "اللام" فهو حال مِن قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ كما ذكرنا مِن قبلُ، فليتأمّل.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ لم يُرد به -والله سبحانه أعلم- ما وعده بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية [غافر، ٥١/٤٠]، وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة، ٢١/٥٨] كما قيل،[١] فإنّه لا اختصاصَ له بالتعذيب لا سيّما الأخرويّ؛ بل ما سلف آنفًا مِن وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ الآية،[٢] كما يُفصِح عنه الفاء الداخلة على النهي الذي أُريدَ به تثبيته عليه السلام على ما كان عليه مِن الثقة بالله تعالى والتيقّن بإنجاز وعده المذكور المقرون بالأمر بإنذارهم يومَ إتيان العذاب المتضمّن لذكر تعذيب الأمم السالفة، بسبب كفرهم وعصيانهم رسلَهم بعد ما وعدهم بذلك كما فُصِّلت قصّة كلّ منهم في القرآن العظيم، فكأنّه قيل: وإذ قد وعدناك بعذاب / الظالمين يوم القيامة، [٢٨٠ظ]

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٦٦/٢؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٠٣/٣.

٢ إبراهيم، ٤٢/١٤.

وأخبرناك بما يلقَونه مِن الشدائد، وبما يسألونه مِن الردّ إلى الدنيا، وبما أجبناهم به، وقرّعناهم بعدم تأمّلهم في أحوال مَن سبقهم مِن الأمم الذين أهلكناهم بظلمهم بعد ما وعدنا رسلَهم بإهلاكهم، فَدُم على ما كنت عليه مِن اليقين بعدم إخلافنا رسلَنا وعدَنا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُماكَرُ، وقادِر لا يُقادَر، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائه مِن أعدائه. والجملة تعليل للنهي المذكور، وتذييل له. وحيث كان الوعد عبارة عمّا ذكرنا مِن تَعذيبهم خاصّةً لم يُذيّل بأن يقال: "إنّ الله لا يُخلِف الميعاد"؛ بل تعرّض لوصف العزّة والانتقام المشعِرَين بذلك. والمراد بالانتقام ما أشيرَ إليه بالفعل،[1] وعُبّر عنه بالمكر.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ ظرف لمُضمَر مستأنَف ينسحب عليه النهي المذكور، أي: يُنجِزُه[2] يومَ... إلخ، أو معطوف عليه، نحو: وارْتَقِبْ يومَ تُبدّلُ الأرض غيرَ الأرض. أو لـ﴿ٱنتِقَامٍ﴾، وهو ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾[3] بعينه، ولكن له أحوال جمّة يُذكر كلّ مرّة بعنوان مخصوص. والتقييد به مع عموم انتقامه للأوقات كلّها للإفصاح عمّا هو المقصود به مِن تعذيب الكفرة المؤخَّر إلى ذلك اليوم بموجَب الحكمة الداعية إليه.

وقيل: بدل مِن ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾،[4] أو نصب بـ"اذكر"، أو بإضمار "لا يُخلِف وعده يومَ تُبدّل"... إلخ، وفيه أيضًا ما في الوجه الثالث مِن الحاجة إلى الاعتذار. ولا يجوز أن ينتصب بقوله: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ﴾؛[5] لأنّ ما قبل "إنّ" لا يعمل فيما بعده. وقيل: هو غيرُ مانع؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[6] جملة اعتراضيّة، فلا يُبالى بها فاصلًا.

---

[1] وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم، ١٤/٤٥]. «منه».
[2] وفي هامش م: أحد.
[3] إبراهيم، ١٤/٤٤.
[4] إبراهيم، ١٤/٤٤.
[5] في الآية السابقة.
[6] في الآية السابقة.

واعلم أنّ التبديل قد يكون في الذات، كما في: "بدَّلتُ الدراهمَ دنانيرَ"، وعليه قوله عزّ وجلّ: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء، ٥٦/٤]، وقد يكون في الصفات كما في قولِك: "بدّلتُ الحلْقةَ خاتمًا" إذا غيّرتَ شكلَها، ومنه قوله تعالى: / ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ [الفرقان، ٧٠/٢٥] على بعض الأقوال، [٢٨١و] والآية الكريمة ليست بنصّ في أحد الوجهين.

فعن عليّ كرّم الله تعالى[١] وجهه: «يبدّل أرضًا مِن فضّة، وسماواتٍ مِن ذهب».[٢] وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «يبدّل الأرض بأرض كالفضّة بيضاء نقيّة لم يُسفك فيها دم، ولم يُعمل عليها خطيئة».[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى[٤] عنهما: «هي تلك الأرض وإنّما تُغيَّر صفاتُها»، وأنشَد:

وما النـاسُ بالناس الذين عَهِدتُهم وما الـدارُ بـالـدارِ التي كنت تعلمُ[٥]

ويُبدَّلُ السماوات بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبوابًا، ويدلّ عليه ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال: «تُبدّل الأرض غيرَ الأرض، فتُبسَط وتُمَدُّ مدَّ الأديم العُكاظي، لا ترى فيها عِوجًا ولا أمْتًا».[٦]

﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ﴾ أي: ويبدّل السماوات غير السماوات حسبما مرّ مِن التفصيل. وتقديم تبديل الأرض لقُربها منّا، ولكون تبديلها أعظمَ أثرًا بالنسبة إلينا.

﴿وَبَرَزُوا۟﴾ أي: الخلائق، أو الظالمون المدلول عليهم بمعونة السباق. والمراد بروزهم مِن أجداثهم التي في بطون الأرض، أو ظهورُهم بأعمالهم

---

١ س - تعالى.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٧/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٣/٣. ولفظه في جامع البيان للطبري، ٧٣٣/١٣: «الأرض مِن فضّة، والجنّة مِن ذهَب».

٣ جامع البيان للطبري، ٧٣٠/١٣؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٧/٣.

٤ ط س - تعالى.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٨/٥؛ التفسير البسيط للواحدي، ٥١٤/١٢. وأخرج ابن بطّة في الإبانة الكبرى، ٥٧٤/٢ (٧٢١)، بسنده أنّ ابن عبّاس رضي الله عنهما كان يتمثّل بهذا البيت. والبيت للعبّاس بن عبد المطّلب في التذكرة الحمدونيّة لابن حمدون، ٢٩٦/٧؛ وجمهرة الأمثال للعسكري، ٩٦/١.

٦ جامع البيان للطبري، ٧٣٥/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٨/٥. وأخرجه في حديث طويل أبو الشيخ في العظمة، ٨٢١/٣ (٣٨٦)؛ والبيهقي في البعث والنشور، ص ٣٣٨-٣٤٤ (٦٠٩).

التي كانوا يعملونها سرًا ويزعمون أنّها لا تظهر، أو يعملون عملَ مَن يزعم ذلك. ولعلّ إسنادَ البُروز إليهم مع أنّه لأعمالهم للإيذان بتشكّلهم بأشكالٍ تناسِبُها. وهو معطوف على ﴿تُبَدَّلُ﴾، والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقّق وقوعه، أو حالٌ مِن ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بتقدير "قد"، والرابط بينها وبين صاحبِها "الواو".

﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ للحساب والجزاء. والتعرّض للوصفين لتهويلِ الخطب، وتربية المهابة، وإظهارِ بطلان الشرك، وتحقيقِ الانتقام في ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفًا له، وتحقيقِ إتيان العذاب / الموعود على تقدير كونه بدلًا مِن ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾،[1] فإنّ الأمر إذا كان لواحدٍ غلّابٍ لا يُعازّ وقادرٍ لا يُضارّ ولا يُعارّ كان في غاية ما يكون مِن الشدّة والصعوبة. [٢٨١ظ]

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ عطفٌ على ﴿بَرَزُواْ﴾،[2] والعدول إلى صيغة المضارع لاستحضار الصورة، أو للدلالة على الاستمرار. وأمّا البروز فهو دفعيّ لا استمرارَ فيه. وعلى تقدير حاليّة ﴿بَرَزُواْ﴾[3] فهو معطوف على ﴿تُبَدَّلُ﴾،[4] ويجوز عطفه على عامل الظرف المقدّم، على تقدير كونِهِ يُنْجِزُهُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يومَ إذ برزوا له عزّ وجلّ، أو يومَ إذ تُبدَّل الأرض، أو يومَ إذ يُنجِزُ[5] وعدَه.

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قُرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم في الجرائم والجرائر، أو قُرِنوا مع الشياطين الذين أغوَوهم، أو قُرنوا مع ما اقترفوا مِن العقائد الزائغة والملَكات الرديّة والأعمال السيّئة غِبّ تَصوّر كلّ منها وتَشكّلها بما يناسبها مِن الصور الموحشة والأشكال الهائلة، أو قُرنت أيديهم وأرجلُهم إلى رقابهم. وهو حال مِن ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ في القيود أو الأغلال. وهو إمّا متعلّق بقوله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، أو حال مِن ضميره، أي: مصفَّدين.

---

١ إبراهيم، ١٤/٤٤.

٢ في الآية السابقة.

٣ في الآية السابقة.

٤ في الآية السابقة.

٥ ط س: ينجزه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝﴾

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي: قُمصانهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، محلُّها النصب على الحاليّة مِن ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾،[١] أو مِن ضميرهم في ﴿مُقَرَّنِينَ﴾،[٢] رابطتها الضمير فقط، كما في "كلّمتُه فُوهُ إلى فِيّ"، أو مستأنَفة.

و"القَطران": ما يتحلّب مِن الأَبْهُل،[٣] فيُطبَخ فتُهْنَأُ به الإبل الجَرْبَى، فيُحرق الجرَب بما فيه مِن الحدّة الشديدة، وقد يصل حرارته إلى الجوف، وهو أسود مُنتِن، يُسرع فيه اشتعال النار، يُطلى به جلود أهل النار حتّى يعود طلاؤه لهم كالسراويل؛ ليجتمع عليهم الألوان الأربعة مِن العذاب؛ لذعه، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الموحش / والنتن، على أنّ التفاوت بينه وبين ما [٢٨٢و] نشاهده وبين النارين لا يكاد يُقادَر قدره، فكأنّ ما نشاهِدُه منهما أسماءٌ مسمّياتها في الآخرة، فبكرمه العميم نعوذ، وبكنفه الواسع نلوذ.

ويحتمل أن يكون ذلك تمثيلًا لِما يُحيط بجوهر النفس مِن الملَكات الرديّة والهيئات الموحشة، فتَجلب إليها الآلامَ والغموم؛ بل وأن يكون القَطران المذكور عينَ ما لابَسوه في هذه النشأة وجعلوه شِعارًا لهم مِن العقائد الباطلة والأعمال السيّئة المستجلِبة لفنون العذاب، قد تجسّدت في النشأة الآخرة بتلك الصورة المستتبِعة لاشتداد العذاب، عصمَنا الله سبحانه عن ذلك بمنّه ولطفه. وقُرئ: "مِن قَطْرٍ آنٍ"،[٤] أي: نُحاس مُذاب متناهٍ حرُّه.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تعلوها وتحيط بها النار التي تمسّ جسدَهم المُسَرْبَلَ بالقَطران. وتخصيص الوجوه بالحُكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائهم لكونها أعزَّ الأعضاء الظاهرةِ وأشرفَها، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾... إلخ [الزمر، ٢٤/٣٩]، ولكونها مَجمع المشاعرِ والحواسّ

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] الأبهَل: شجر الغَرب: شجر كبير، ورقه كالطرفاء، وثمَره كالنبق، أو ورقه كالسرو، كثير الشوك، شجر العرعر أو ثمره، وهو شجر يستخرج منه القَطران. انظر: لسان العرب لابن منظور، «بهل»؛ ومعجم متن اللغة لأحمد رضا، «بهل».

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير وعكرمة وزيد عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣.

التي خُلقت لإدراك الحقّ، وقد أعرضوا عنه، ولم يستعملوها في تدبّره، كما أنّ الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحلُّ المعرفة، وقد مَلَئوها بالجهالات، ولذلك قيل: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة، ٧/١٠٤]، أو لخلوّها عن القَطران المغني عن ذكر غَشَيان النار لها. ولعلّ تخليتَها عنه ليتعارفوا عند انكشاف اللهَب أحيانًا، ويتضاعف عذابهم بالخِزي على رءوس الأشهاد.

وقُرئ: "تَغَشّى"،[1] أي: تتغشّى، بحذف إحدى التاءين. والجملة نصب على الحاليّة، لا على أنّ الواو حاليّة؛ لأنّه مضارع مثبَت؛ بل على أنّها معطوفة على الحال، قاله أبو البقاء.[2]

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ﴾ متعلّق بمُضمَر، أي: يفعل بهم ذلك ليجزي ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ مجرمة ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ مِن أنواع الكفر والمعاصي جزاءً موافقًا لعملها. وفيه إيذان بأنّ جزاءهم مناسب لأعمالهم. أو بقوله: ﴿بَرَزُواْ﴾[3] على تقدير كونه معطوفًا على ﴿تُبَدَّلُ﴾،[4] والضمير للخلق، وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾... إلخ[5] اعتراض بين المتعلِّق والمتعلَّق به، أي: برزوا للحساب ليجزي الله كلَّ نفس مطيعة أو عاصية ما كسبت مِن خير أو شرّ. وقد اكتُفي بذكر عقاب العُصاة تعويلًا على شهادة الحال لا سيّما مع ملاحظة سبق الرحمة الواسعة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إذ لا يشغله شأن عن شأن، فيتمّه في أعجل ما يكون مِن الزمان، فيوفّي الجزاء بحسبه، أو سريعُ المجيء يأتي عن قريب، أو سريعُ الانتقام كما قال ابن عبّاس رضي الله عنهما / في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد، ٤١/١٣].[6] [٢٨٢ظ]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣.

[2] انظر: التبيان لأبي البقاء العكبري، ٧٧٥/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤١٩/١١.

[3] إبراهيم، ٤٨/١٤.

[4] إبراهيم، ٤٨/١٤.

[5] في الآية السابقة.

[6] التفسير البسيط للواحدي، ٣٨٥/١٢ (الرعد، ٤١/١٣)؛ اللباب لابن عادل، ٣٢٣/١١ (الرعد، ٤١/١٣).

﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾

﴿هَٰذَا﴾ أي: ما ذُكر مِن قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾[1] إلى قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[2] ﴿بَلَٰغٞ﴾ كفاية في العِظة والتذكير مِن غير حاجة إلى ما انطوى عليه السورة الكريمة أو كلُّ القرآن المجيد مِن فنون العظات والقوارعِ. ﴿لِّلنَّاسِ﴾ للكفّار خاصّةً على تقدير اختصاص الإنذار بهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾،[3] أو لهم وللمؤمنين كافّةً على تقدير شموله لهم أيضًا، وإن كان ما شُرِح مختصًّا بالظالمين.

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ عطفٌ على مقدّر، و"اللام" متعلّقة بالبلاغ، أي: كفاية لهم في أن يُنْصَحُوا ويُنذَروا به، أو هذا بلاغ لهم ليفهموه وليُنذَروا به، على أنّ البلاغ بمعنى الإبلاغ، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [المائدة، ٩٩/٥]، أو متعلّقة بمحذوف، أي: وليُنذَروا به أُنزل أو تُلِيَ. وقُرئ: "لِيَنْذَرُوا بِهِ"[4] مِن "نذِر بالشيء" إذا علمه وحذِره واستعدّ له.

﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ بالتأمّل فيما فيه مِن الدلائل الواضحة التي هي إهلاك الأمم وإسكانُ آخَرين مساكنَهم وغيرُهما ممّا سبَق ولحِق ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ لا شريكَ له. وتقديم الإنذار لأنّه الداعي إلى التأمّل المؤدّي إلى ما هو غاية له مِن العلم المذكور والتذكّر في قوله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: ليتذكّروا ما كانوا يعملونه مِن قبلُ مِن التوحيد وغيرِه مِن شُئُون الله عزّ وجلّ ومعاملته مع عباده، فيرتدعوا عمّا يُرْديهم مِن الصفات التي يتّصف بها الكفّار، ويتدرّعوا بما يُحْظِيهم مِن العقائد الحقّة والأعمال الصالحة.

وفي تخصيص التذكّر بـ"أولي الألباب" تلويح باختصاص العلم بالكفّار، ودلالةٌ على أنّ المشار إليه بهذا ما ذكرنا مِن القوارع المسوقة لشأنهم، لا كلُّ السورة المشتملة عليها وعلى ما سيق للمؤمنين أيضًا، فإنّ فيه ما يُفيدهم فائدة جديدةً.

---

[1] إبراهيم، ٤٢/١٤.
[2] في الآية السابقة.
[3] إبراهيم، ٤٤/١٤.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن عمارة وأحمد بن يزيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣.

وحيث كان ما يفيده البلاغ مِن التوحيد وما يترتَّب عليه مِن الأحكام بالنسبة إلى الكفرة أمرًا حادثًا وبالنسبة إلى أولي الألباب الثباتَ على ذلك حسبما أشيرَ إليه عُبّر عن الأوّل بالعلم، وعن الثاني بالتذكّر، وروعي ترتيب الوجود، مع ما فيه مِن الختم بالحُسنى، والله سبحانه أعلم. ختمَنا الله بالسعادة والحُسنى، ورزقَنا الفوز بمَرضاته في الأولى والعُقبى، آمين.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة إبراهيم أُعطي مِن الأجر عشرُ حسنات بعدد مَن عبد الأصنام ومَن لم يعبُدْ».[1]

والحمد لله وحدَه.[2]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٤/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٢/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

[2] وفي هامش م: إلى هنا انتهت المطالعة بفضل الله سبحانه وتعالى وقت الضحوة الكبرى مِن يوم الاثنين السادس مِن المحرّم المحترم، سنة ستّ وخمسين وتسعمائة، حامدًا لله تعالى ومصلّيًا على نبيّه عليه السلام، حسبنا الله تعالى ونعم الوكيل.

/ سورة الحجر [٢٨٣و]

مكيّة، وهي تسع وتسعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾

﴿الٓر﴾ قد مرّ الكلام فيه وفي محلّه في مطلع سورة الرعد وأخواتها.

﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إليه، أي: تلك السورة العظيمة الشأنِ ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الكامل المعهود الغنيّ عن الوصف به المشهور بذلك مِن بين الكتب الحقيقُ باختصاص اسم الكتاب به على الإطلاق، أي: بعضٌ منه مترجَم مستقلّ باسم خاصّ، فهو عبارة عن جميع القرآن، أو عن الجميع المنزَل إذ ذاك؛ إذ هو المتسارع إلى الفهم حينئذ عند الإطلاق، وعليه يترتّب فائدة وصف الآيات بنعت ما أضيفت إليه مِن نعوت الكمال لا على جَعْله عبارةً عن السورة؛ إذ هي في الاتّصاف بذلك ليست بتلك المرتبة مِن الشهرة حتّى يُستغنى عن التصريح بالوصف على أنّها عبارة عن جميع آياتها، فلا بدّ مِن جَعْل ﴿تِلۡكَ﴾ إشارةً إلى كلّ واحدة منها، وفيه مِن التكلّف ما لا يخفى، كما ذُكر في سورة الرعد.[1]

﴿وَقُرۡءَانٖ﴾ أي: قرآن عظيم الشأنِ ﴿مُّبِينٖ﴾ مظهِر لِما في تضاعيفه مِن الحِكَم والأحكام أو لسبيل الرشد والغيّ، أو فارقٍ بين الحقّ والباطل والحلالِ والحرام. ولقد فُخّم شأنه العظيم مع ما جُمع فيه مِن وصفَي الكتابيّة والقرآنيّة على طريقتين: **إحداهما**: اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الإلهيّة فكأنّه كلّها، **والثانية**: طريقة كونه ممتازًا عن غيره نسيجَ وحدِه بديعًا في بابه خارجًا عن دائرة البيان.

---

[1] في الآية الأولى منها.

وأُخِرت الطريقة الثانية لِما أنّ الإشارة إلى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره مِن الكتب أدخَلُ في المدح، كيلا يُتوَهَّم مِن أوّل الأمر أنّ امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصّة به مِن غير اشتمال على نعوت كمالِ سائرِ الكتب الكريمة. وهكذا الكلام / في فاتحة سورةِ النمل، [٢٨٣ظ] خلا أنّه قُدّم فيها القرآنُ على الكتاب لِما سيُذكر هناك.[١]

ولمّا بيّن كونُ السورة الكريمة بعضًا مِن الكتاب والقرآن لتوجيه المخاطَبين إلى حُسن تلقّي ما فيها مِن الأحكام والقِصص والمواعظ شُرع في بيان ما تتضمّنه فقيل: ﴿رُبَمَا﴾ بضمّ الراء وتخفيف الباء المفتوحة، وقُرئ بالتشديد[٢] وبفتح الراء مخفَّفًا[٣] وبزيادة التاء مشدَّدًا.[٤] وفيه ثماني لغات: فتح الراء وضمُّها مشدَّدًا ومخفَّفًا وبزيادة التاء أيضًا مشدَّدًا ومخفَّفًا.

و"رُبَّ" حرفُ جرّ لا يدخُل إلّا على الاسم، و"ما" كافّة مصحِّحة لدخوله على الفعل، وحقُّه الدخول على الماضي، ودخولُه على قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لِما أنّ المترقَّب في أخباره تعالى كالماضي المقطوع في تحقّق الوقوع، فكأنّه قيل: ربّما وَدّ الذين كفروا، والمراد كفرهم بالكتاب والقرآن وبكونه مِن عند الله تعالى.

﴿لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ منقادين لحكمه ومذعِنين لأمره، وفيه إيذان بأنّ كفرهم إنّما كان بالجحود بعد ما علموا كونَه مِن عند الله تعالى، وتلك الوَدادة يوم القيامة أو عند موتهم أو عند معاينة حالِهم وحال المسلمين، أو عند رؤيتهم خروجَ عُصاة المسلمين مِن النار.

روى أبو موسى الأشعريُّ أنّه قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إذا كان يومُ القيامة واجتمع أهل النار في النار ومعهم مَن شاء الله تعالى مِن أهل القِبلة

---

[١] وفي هامش م: مِن تقدّم حال القرآنيّة على الكتابيّة. «منه».

[٢] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠١/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي قُرّة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال والضحّاك وزيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٨٣.

قال لهم الكفّارُ: "ألستُم مسلمين؟" قالوا: "بلى"، قالوا: "فما أغنى عنكم إسلامُكم وقد صِرتُم معنا إلى النار؟" قالوا: "كانت لنا ذنوب فأُخِذنا بها"، فيغضب الله سبحانه لهم[1] بفضل رحمته، فيأمُر بكلّ مَن كان مِن أهل القِبلة في النار فيخرجون منها، فحينئذ يوَدّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين».[2] وروى مجاهد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: «لا يزال الربُّ يرحم ويُشفَع إليه حتّى يقول: "مَن كان مِن المسلمين فليدخُل الجنّة"، / فعند ذلك يتمنّون الإسلام».[3] [٢٨٤و] والحقُّ أنّ ذلك محمول على شدّة وَدادتهم وأمّا نفس الودادةِ فليست بمختصّة بوقت دون وقت؛ بل هي مقرَّرة مستمِرّة في كلّ آنٍ يمرّ عليهم، وأنّ المراد بيانُ ذلك على ما هو عليه مِن الكثرة.

وإنّما جيء بصيغة التقليلِ جريًا على سَنن العرب فيما يقصِدون به الإفراط فيما يعكسون عنه، تقول لبعض قوّاد العساكر: "كم عندكَ مِن الفرسان؟" فيقول: "رُبَّ فارسٍ عندي" أو "لا تَعدَم عندي فارسًا"، وعنده مقانبُ[4] جمّةٌ مِن الكتائب، وقصدُه في ذلك التمادي في تكثير فرسانه، ولكنّه يريد إظهار براءته مِن التزيّد وإبرازَ أنّه ممّن يقلِّل لعُلوّ الهمّة كثيرَ ما عنده فضلًا عن تكثير القليل.

وهذه طريقةٌ إنّما تُسلَك إذا كان الأمر مِن الوضوح بحيث لا تحوم حوله شائبة ريب فيُصار إليه هضمًا للحقّ،[5] فدلّ النظم الكريم على وَدادةِ الكافرين للإسلام في كلّ آنٍ مِن آنات اليوم الآخر، وأنّ ذلك مِن الظهور بحيث لا يشتبِه على أحد ولو جيء بكلام يدلّ على ضدّه، وعلى أنّ تلك الوَدادة مع كثرتها في نفسها ممّا يُستقلّ بالنسبة إلى جَناب الكبرياء، وهذا هو الموافق لمقام بيان حقارة شأنِ الكفّار وعدمِ الاعتداد بما هم فيه مِن الكفر والتكذيب، كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ﴾ الآية.[6]

---

[1] وفي هامش م: أي: لأجلهم.

[2] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٨/١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٦٨/٤.

[3] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٩/١٤؛ والمستدرك للحاكم، ٣٨٤/٢ (٣٣٤٥)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٥٣٨/١٢.

[4] المقانب جمع مِقنَب: جماعة الخيل والفرسان. لسان العرب لابن منظور، «قنب».

[5] وفي هامش م: أي: حقّ المتكلِّم.

[6] في الآية الآتية.

أو ذهابًا[١] إلى الإشعار بأنّ مِن شأن العاقل إذا عنّ له أمر يكون مظنون الحمد، أو قليلًا ما يكون كذلك ألّا يفارقَه ولا يقارِفَ ضدّه، فكيف إذا كان متيقِّن الحمد؟ كما في قولهم: لعلّك ستندم على ما فعلتَ، وربّما ندِم الإنسان على ما فعل، فإنّ المقصود ليس بيانَ كونِ الندم مرجوَّ الوجود بلا تيقّن به أو قليلَ الوقوع؛ بل التنبيهُ على أنّ العاقل لا يُباشر ما يُرجى فيه الندم أو يقِلّ وقوعه فيه، فكيف بقطعيّ الوقوع؟ وأنّه يكفي قليل الندم في كونه حاجزًا عن ذلك الفعل، فكيف كثيرُه؟ والمقصود مِن سلوك هذه الطريقة إظهارُ الترفّع والاستغناءِ عن التصريح بالغرض بناءً على ادِّعاء ظهوره، فالمعنى لو كانوا يودُّون الإسلام مرّة واحدة لَوجب عليهم أن يُفارقوه، فكيف وهم يودُّونه كلّ آنٍ؟ وهذا أوفَقُ بمقام استنزالهم عمّا هم عليه مِن الكفر، وهذان طريقان متمايزان / ذاتًا ومقامًا [٢٨٤ظ] فمَن ظنَّهما واحدًا فقد نأى عن توفية المقام حقَّه.

﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣﴾

﴿ذَرۡهُمۡ﴾ دعْهم عن النهي عمّا هم عليه بالتذكرة والنصيحة، إذ لا سبيل إلى ارعوائهم عن ذلك، وبالِغْ في تخليتهم وشأنَهم؛ بل مُرْهم بتعاطي ما يتعاطَونه ﴿يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بدنياهم. وفي تقديم "الأكل" إيذانٌ بأنّ تمتّعهم إنّما هو مِن قبيل تمتّع البهائم بالمآكل والمشارب. والمراد دوامهم على ذلك لا إحداثه، فإنّهم كانوا كذلك، أو تمتُّعُهم بلا استمتاعٍ ما يُنغِّص عيشهم مِن القوارع والزواجر، فإنّ التمتّع على ذلك الوجه أمر حادث يصلُح أن يكون مترتِّبًا على تخليتهم وشأنهم.

﴿وَيُلۡهِهِمُ﴾ ويَشْغَلْهم عن اتّباعك، أو عن التفكّر فيما هم يصيرون إليه، أو عن الإيمان والطاعة، فإنّ الأكل والتمتّع يُفضِيَان إلى ذلك. ﴿ٱلۡأَمَلُ﴾ والتوقّع لطول الأعمار وبلوغِ الأوطار واستقامةِ الأحوال وألّا يَلقَوا في العاقبة[٢] والمآل إلّا خيرًا.

---

[١] وفي هامش م: عطفٌ على "جريًا". «منه».

[٢] س: الآخرة.

فالأفعال الثلاثة مجزومة على الجوابيّة للأمر حسبما عرفتَ مِن تضمّن الأمر بالترك للأمر بها على طريقة المجاز، أو على أن يكون المراد بالأفعال المرقومة مباشرتَهم لها غافلين عن وَخامة عاقبتها غيرَ سامعين لسوء مَغَبَّتها أصلًا، ولا ريبَ في ترتّب ذلك على الأمر بالترك، فإنّ النهي عمّا هم عليه مِن ارتكاب القبائح ممّا يُشوّش عليهم تمتُّعَهم ويُنغِّص عليهم عيشَهم فأُمِر عليه السلام بتركه ليتمرَّغوا فيما هم فيه مِن حظوظهم فيَدهَمَهم ما يَدهَمُهم وهم عنه غافلون.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوءَ صنيعهم أو وخامةَ عاقبته أو حقيقةَ الحال التي ألجأتْهم إلى التمنّي[1] المذكور، حيث لم يعلموا ذلك مِن جهتك، وهو -مع كونه وعيدًا أيّما وعيد وتهديدًا غِبَّ تهديد- تعليلٌ للأمر بالتَّرْك، فإنّ علمَهم ذلك علّة لتَرْك النهي والنصيحةِ لهم، وفيه إلزامٌ للحجة ومبالغة في الإنذار إذ لا يتحقَّق الأمر بالضدّ إلّا بعد تكرُّر الإنذار وتقرُّرِ الجحود والإنكار، وكذلك ما ترتَّب[2] عليه مِن الأكل / والتمتّع والإلهاء. [٢٨٥و]

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا﴾ شروع في بيان سرّ تأخير عذابهم إلى يوم القيامة وعدمِ نظمهم في سِلك الأُمم الدارجة في تعجيل العذاب، أي: ما أهلكنا ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ مِن القُرى بالخَسف بها وبأهلها كما فُعل ببعضها، أو بإخلائها عن أهلها غِبَّ إهلاكِهم كما فُعل بآخرين.

﴿إِلَّا وَلَهَا﴾ في ذلك الشأن ﴿كِتَابٌ﴾ أي: أجل مقدَّر مكتوب في اللوح، واجبُ المراعاة بحيث لا يمكن تبديله لوقوعه حسب الحكمة المقتضية له. ﴿مَّعْلُومٌ﴾ لا يُنسى ولا يُغفل عنه حتّى يُتصور التخلّف عنه بالتقدّم والتأخّر.

فـ﴿كِتَابٌ﴾ مبتدأ خبرُه الظرف، والجملةُ حال مِن ﴿قَرْيَةٍ﴾، فإنّها لعمومها لاسيّما بعد تأكّدِه بكلمة ﴿مِن﴾ في حكم الموصوفة، كما أُشِيرَ إليه، والمعنى:

---

[1] وفي هامش م: هو تمنّيهم الإسلام. «منه».

[2] م: رُتِّب.

ما أهلكنا قرية مِن القرى في حال مِن الأحوال إلّا حالَ أن يكون لها كتاب، أي: أجَل مؤقَّت لمهلِكها قد كتبناه لا نُهلكها قبل بلوغه، معلومٌ لا يُغفَل عنه حتّى يمكن مخالفته بالتقدّم والتأخّر.

أو مرتفعٌ بالظرف،[١] والجملةُ كما هي حالٌ، أي: ما أهلكنا قرية مِن القرى في حال مِن الأحوال إلّا وقد كان لها في حقّ هلاكها كتابٌ، أي: أجلٌ مقدَّر مكتوب في اللوح معلومٌ لا يُغفَل عنه، أو صفةٌ[٢] لكن لا للقرية المذكورة؛ بل للمُقدَّرة التي هي بدل مِن المذكورة على المختار، فيكون بمنزلة كونه صفةً للمذكورة، أي: ما أهلكنا قرية مِن القرى إلّا قريةً لها كتابٌ معلوم، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۞ لَّا يُسْمِنُ﴾ [الغاشية، ٨٨/٦-٧]، فإنّ قوله تعالى: ﴿لَا يُسْمِنُ﴾ صفة، لكن لا للطعام المذكور، لأنّه إنّما يدلّ على انحصار طعامِهم الذي لا يُسمن في الضريع، وليس المراد ذلك؛ بل للطعام المُقدَّر بعد ﴿إِلَّا﴾، أي: ليس لهم طعام مِن شيء مِن الأشياء إلّا طعامٌ لا يُسمِن، فليس فيه فصل بين الموصوف والصفة بكلمة "إلّا" كما تُوُهّم.[٣]

وأمّا توسيط الواو بينهما -وإن كان القياس عدمَه- فللإيذان بكمال الالتصاق بينهما مِن حيث إنّ الواو / شأنها الجمع والربط، فإنّ ما نحن فيه مِن الصفة أقوى لُصوقًا بالموصوف منها به في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٢٠٨]، فإنّ امتناع انفكاك الإهلاك عن الأجل المقدَّر عقليٌّ، وعن الإنذار عاديٌّ جرى عليه السنّة الإلهيّة. [٢٨٥ظ]

ولمّا بيّن أنّ الأُمم المُهلَكة كان لكلّ منهم وقت معيَّن لهلاكهم وأنّ هلاكهم لم يكن إلّا حسبما كان مكتوبًا في اللوح، بيّن أنّ كلّ أمّة مِن الأمم منهم ومِن غيرهم لها كتابٌ لا يمكن التقدّم عليه ولا التأخّر عنه فقيل: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمم المُهلَكة وغيرهم ﴿أَجَلَهَا﴾ المكتوبَ في كتابها، أي: لا يجيء هلاكها قبل مجيء كتابها، أو لا تمضي أمّة قبل مُضيّ أجلها، فإنّ السّبق إذا كان واقعًا

---

١ السياق: فـ﴿كِتَابٌ﴾ مبتدأ... أو مرتفعٌ بالظرف...

٢ السياق: والجملة كما هي حال... أو صفة...

٣ في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤١٩.

على زماني فمعناه المجاوزة والتخليف، فإذا قلت: "سبق زيد عَمرًا" فمعناه أنّه جازه وخلّفه وراءه، وإذا كان واقعًا على زمان كان الأمر بالعكس.

والسرُّ في ذلك أنّ الزمان يعتبر فيه الحركة والتوجّه إلى المُتكلِّم فما سبقه يتحقَّق قبل تحقُّقه، وأمّا الزمانيُّ فإنّما يعتبر فيه الحركة والتوجّه إلى ما سيأتي مِن الزمان، فالسابقُ ما تقدَّم إلى المَقصِد. وإيراده بعنوان الأجل باعتبار ما يقتضيه مِن السَّبق، كما أنّ إيراده بعنوان الكتاب المعلوم باعتبار ما يُوجِبه مِن الإهلاك.

﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي: وما يتأخّرون، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعَجْزهم عن ذلك مع طلَبهم له.

وإيثار صيغةِ المضارع في الفعلين بعد ما ذُكر نفيُ الإهلاكِ بصيغة الماضي، لأنّ المقصود بيان دوامهما واستمرارِهما فيما بين الأمم الماضية والباقية. وإسنادهما إلى "الأمّة" بعد إسناد الإهلاك إلى "القرية" لِما أنّ السبق والاستئخار حالُ الأمّة دون القرية مع ما في الأمّة مِن العموم لأهل تلك القُرى وغيرهم ممِن أُخِّرت عقوباتهم إلى الآخرة.

/ وتأخير ذِكر عدمِ تأخّرهم عن ذِكر عدم سبقهم مع كون المقام مقامَ المبالغة [٢٨٦و] في بيان تحقّق عذابهم: إمّا باعتبار تقدّم السبقِ في الوجود، وإمّا باعتبار أنّ المراد بيان سرِّ تأخير عذابهم مع استحقاقهم لذلك. وإيراد الفعل على صيغة جمع المُذكَّر للحَمْل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل، ولذلك حُذف الجارّ والمجرور.

والجملة مبيّنة لِما سبَق. والمعنى أنّ تأخير عذابِهم إلى يوم القيامة حسبما أشيرَ إليه ببيان وَدادتهم للإسلام إذ ذاك، وبالأمر بتركهم وشأنهم إلى أن يعلموا حقيقة الحال إنّما هو لتأخّر أجلهم المقدَّر لِما يقتضيه مِن الحِكَم البالغة، ومِن جملتها ما عَلِم الله تعالى مِن إيمان بعضِ مَن يخرُج منهم إلى يوم القيامة.

﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ شروع في بيان كفرهم بمَن أُنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب وما يئول إليه حالهم، والقائلون مشركو مكّةَ لغاية تماديهم في العتوّ والغيّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ خاطبوا به رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم لا تسليمًا لذلك واعتقادًا له؛ بل استهزاءً به عليه السلام وإشعارًا بعِلّة حكمهم الباطل في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، كدأب فرعونَ إذ قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء، ٢٧/٢٦]، يعنُون: يا مَن يدّعي مثل هذا الأمر البديع الخارق للعادات، إنّك بسبب تلك الدعوى أو بشهادة ما يعتريك عندما تدّعي أنّه ينزل عليك لَمجنون.

وتقديم الجارّ والمجرور على القائم مقامَ الفاعل لأنّ إنكارهم متوجِّه إلى كون النازل ذِكرًا مِن الله، لا إلى كون المنزَّل عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد تسليم كون النازل منه تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]، فإنّ الإنكار هناك متوجِّه إلى كون المنزَّل عليه رسولَ الله تعالى. وإيراد الفعل على صيغة المجهول / لإيهام أنّ ذلك ليس بفعل له فاعل، أو لتوجيه الإنكار إلى كون التنزيل عليه لا إلى استناده إلى الفاعل. [٢٨٦ظ]

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا﴾ كلمة "لو" عند تركّبها مع "ما" تفيد ما تفيده عند تركّبها مع "لا" مِن معنى امتناعِ الشيء لوجود غيرِه ومعنى التحضيض، خلا أنّه عند إرادتِه لا يليها إلّا فعلٌ ظاهرًا أو مضمرًا، وعند إرادةِ المعنى الأوّل لا يليها إلّا اسمٌ ظاهرٌ أو مقدَّر عند البصريّين، والمراد ههنا هو الثاني، أي: هلّا تأتينا ﴿بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يشهدون بصحّة نبوّتِك ويعضدونك في الإنذار كقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ[1] مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان، ٧/٢٥]، أو يعاقبوننا على التكذيب كما تأتي الأممَ المكذِّبةَ لرسلهم.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك، فإنّ قدرة الله تعالى على ذلك ممّا لا ريبَ فيه، وكذا احتياجُك إليه في تمشية أمرِك فإنّا لا نُصدِّقك بدون ذلك، أو إن كنتَ مِن جملة تلك الرسل الصادقين الذين عُذِّبت أممهم المكذِّبة لهم.

---

[1] م س: عليه.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ٨﴾

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة مِن التنزيل، وقُرئ مِن الإنزال،[١] وقُرئ: "تُنَزَّلُ"[٢] مضارعًا مِن التنزيل على صيغة البناء للمفعول، ومِن التنزُّل بحذف إحدى التاءين،[٣] وماضيًا منه[٤] ومِن التنزيل[٥] ومِن الثلاثي.[٦]

وهو كلامٌ مَسوق إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم جوابًا لهم عن مقالتهم المَحْكيّة وردًّا لاقتراحهم الباطل، ولشدّة استدعاء ذلك للجواب قُدِّم ردّه على ما هو جواب عن أوّلها، أعني قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ الآية،[٧] كما فُعل في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [هود، ٣٣/١١]، فإنّه مع كونه جوابًا عن قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [هود، ٣٢/١١] قُدِّم على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾ الآية، [هود، ٣٤/١١]، مع كونه جوابًا عن أوّل كلامهم الذي هو قولهم: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ [هود، ٣٢/١١] لِما ذُكر مِن شدّة اقتضائه للجواب، وليكونَ أحدُ الجوابين متّصلًا بالسؤال، وفي العكس يلزَم / انفصال كلّ مَن الجوابين عن سؤاله. [٢٨٧و]

والعدول عن تطبيقه لظاهر كلامهم بصدد الاقتراح، وهو أن يقال: ما تأتيهم بهم للإيذان بأنّهم قد أخطأوا في التعبير حسبما أخطأوا في الاقتراح، وأنّ الملائكة لعُلوّ رتبتهم أعلى مِن أن يُنسَبَ إليهم مطلقُ الإتيان الشامل للانتقال مِن أحد الأمكنة المتساوية إلى الأخر،[٨] بل مِن الأسفل إلى الأعلى، وأن يكون مقصِد حركاتهم أولئك الكفرة، وأن يدخلوا تحت ملكوتِ أحدٍ مِن البشر، وإنّما الذي يليق بشأنهم النزولُ مِن مقامهم العالي، وكونُ ذلك بطريق التنزيل مِن جناب الربّ الجليل.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وسهل. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٨٥.
٢ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٠١/٢.
٣ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠١/٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٤.
٥ ما وقفتُ عليها فيما بين يديّ من المظانّ.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وزيد بن عليّ وعُبيد بن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٨٥.
٧ في الآية الآتية.
٨ س + منها.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ملتبِسًا بالوجه الذي يحِقّ ملابسةُ التنزيل به ممّا تقتضيه الحكمة وتجري به ألسنة الإلهيّة، كقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر، ٨٥/١٥]، والذي اقترحوه مِن التنزيل لأجل الشهادة لديهم وهُم هُم ومنزلتُهم في الحقارة والهوان منزلتُهم، ممّا لا يكاد يدخل تحت الصِحّة والحِكمة أصلًا، فإنّ ذلك مِن باب التنزيل بالوحي الذي لا يكاد يُفتَح على غير الأنبياء الكرام مِن أفراد كُمَّل المؤمنين، فكيف على أمثال أولئك الكفَرة اللئامِ؟ وإنّما الذي يدخُل في حقّهم تحت الحكمة في الجملة هو التنزيل للتعذيب والاستئصال، كما فُعِل بأضرابهم مِن الأُمم السالفة، ولو فُعِل ذلك لاستؤصلوا بالمرّة.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ جزاءُ الشرط مقدَّر، وفيه إيذان بإنتاج مقدِّماتهم لنقيض مطلوبهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء، ٧٦/١٧]. «قال صاحب النظم:[١] لفظةُ "إذن" مركّبة مِن "إذ" وهو اسم بمعنى الحين، تقول: أتيتُك إذ جئتَني، أي: حين جئتَني، ثمّ ضُمّ إليه "أنْ" فصار "إذْ أنْ" ثمّ استثقلوا الهمزة فحذفوها».[٢] فمجيء لفظة "أنْ" دليلٌ على إضمار فعل بعدها، والتقدير: وما كانوا إذن كانَ ما طلبوه منظَرين.

والمعنى: لو نزّلناهم ما كانوا مؤخَّرين كدأب سائر الأمم المكذِّبة المستهزِئة، ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة حسبما أُجمِل في قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾... إلخ [الحجر، ٣/١٥]، وحالَ حائلُ الحكمة بينهم وبين استئصالِهم لتعلُّق العِلم والإرادة بازديادهم عذابًا وبإيمان بعض ذراريّهم، وأمّا نَظْم إيمان بعضهم في سِمْط الحكمة فيأباه مقامُ بيان تماديهم في الكفر والفساد ولَجاجهم في المكابرة والعِناد. هذا هو الذي يستدعيه إعجازُ التنزيل الجليل.

---

[١] الظاهر أنّه ابن مالك ناظم الألفيّة المشهورة. والقول المذكور عنه ههنا في "إذن" نقله عن الخليل ورجّحه. انظر: شرح التسهيل لابن مالك، ٢٠/٤.

[٢] اللباب لابن عادل، ٤٣٢/١١.

وأمّا ما قيل في تعليل عدمِ موافقةِ التنزيل للحكمة مِن أنّهم حينئذ يكونون مصدِّقين عن اضطرار، أو أنّه لا حكمةَ في أن تأتيَكم بصور يُشاهدونها فإنّه لا يزيدكم إلّا لَبسًا،[1] أو أنّ إنزال الملائكة لا يكون إلّا بالحقّ وحصولِ الفائدةِ بإنزالهم، وقد عَلِم الله تعالى مِن حال هؤلاء الكفّار أنّه لو أُنزل إليهم الملائكة لبقُوا مُصرّين على كفرهم، فيصير إنزالهم عبثًا باطلًا ولا يكون حقًّا، فمع إخلال[2] كلٍّ مِن ذلك بقطعيّة الباقي / لا يلزَم مِن فَرْض وقوع شيء مِن ذلك [٢٨٧ظ] تعجيلُ العذاب الذي يفيده قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذَا مُّنظَرِينَ﴾. هذا على تقدير كون اقتراحهم لإتيان الملائكة لأجل الشهادة.

أمّا على تقدير كون ذلك لتعذيبهم فالمعنى: إنّا ما نُنزّل الملائكة للتعذيب إلّا تنزيلًا ملتبِسًا بالحقّ الذي يقتضيه الحِكمة ويستدعيه المصلحة حتمًا، بحيث لا محيدَ عنه، ولو نزّلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك التنزيلُ ملتبِسًا بمقتضى الحِكمة الموجِبة لتأخير عذابهم إلى يوم القيامة، لا رفقًا بهم؛ بل تشديدًا عليهم كما مرّ مِن قبل، وحيث كان في نسبة تنزيلهم للتعذيب إلى عدم موافقته الحكمةَ نوعُ إيهام عدم[3] استحقاقهم التعذيب عُدِل عمّا يقتضيه الظاهرُ إلى ما عليه النظم الكريم، فكأنّه قيل: لو نزّلناهم ما كانوا منظَرين، وذلك غيرُ موافق للحِكمة الموجِبة لتأخير عذابهم لتشديد عقابهم. وقيل: المراد بالحقّ الوحيُ. وقيل: العذابُ.[4] فتأمّل.[5]

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ ردٌّ لإنكارهم التنزيلَ واستهزائهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم بذلك وتسليةٌ له، أي: نحن بعِظَم شأننا وعلوّ جنابنا نزّلنا ذلك الذِّكرَ الذي أنكروه وأنكروا نزوله عليك ونسبوك بذلك إلى الجنون وعَمَّوا مُنزِّله، حيث بنَوا الفعل للمفعول إيماء إلى أنّه أمر لا مصدرَ له وفعلٌ لا فاعلَ له.

---

[1] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤١٩؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٣٥..

[2] السياق: وأمّا ما قيل... فمع إخلال...

[3] س: لعدم.

[4] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٠.

[5] س: فتدبّر.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ مِن كلّ ما لا يليق به، فيدخل فيه تكذيبهم له واستهزاؤهم به دخولًا أوّليًا، فيكون وعيدًا للمستهزئين به، وأمّا الحفظ مِن مجرّد التحريف والزيادة والنقص وأمثالها فليس بمقتضى المقام. فالوجهُ الحَمْل على الحفظ مِن جميع ما يقدَح فيه مِن الطعن فيه والمجادلة في حقّيّته، ويجوز أن يُراد حفظه بالإعجاز دليلًا على التنزيل مِن عنده تعالى، إذ لو كان مِن عند غير الله سبحانه[1] لتطرّق عليه الزيادة والنقص والاختلاف. وفي سَبْك الجملتين مِن الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأنِ التنزيل ما لا يخفى، وفي إيراد الثانية بالجملة الاسميّة دلالةٌ على دوام الحفظ، والله سبحانه أعلمُ. وقيل: الضمير المجرورُ للرسول صلّى الله عليه وسلّم، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة، ٥/٦٧].[2]

وتأخير هذا الكلام وإن كان جوابًا عن أوّل كلامهم الباطل ردًّا له لِما ذُكِر آنفًا ولارتباطه بما يعقُبه مِن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: رسلًا، وإنّما لم يُذكَر لدلالة ما بعده عليه. / ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ متعلّق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أو بمحذوف هو نعت للمفعول المحذوف، أي: رسلًا كائنةً مِن قبلك. [٢٨٨و]

﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: فِرَقِهم وأحزابهم جمع "شِيعة": وهي الفِرقةُ المتّفقة على طريقة ومذهب، مِن "شاعه إذا تبِعه". وإضافتُه إلى ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِن إضافة الموصوف إلى صفته[3] عند الفرّاء،[4] ومِن حذف الموصوف عند البصريّين، أي: شِيَع الأُمم الأوّلِين، ومعنى إرسالهم فيهم: جَعْلُ كلّ منهم رسولًا فيما بين طائفة منهم ليُتابعوه في كلّ ما يأتي ويذَر مِن أمور الدِّين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ المراد نفيُ إتيانِ كلّ رسول لشِيعته الخاصّة به لا نفيُ إتيان كلّ رسول لكلّ واحدة مِن تلك الشِّيَع جميعًا، أو على سبيل البدل.

---

[1] س ط – سبحانه.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٠.

[3] س: الصفة؛ ط: موصوفه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[4] لم يرد القول في معاني القرآن للفرّاء، وهو له في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٧/١٤٦؛ واللباب لابن عادل، ١١/٤٣٣.

وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة على طريقة حكاية الحال الماضية، فإنّ "ما" لا تدخل في الأغلب على مضارع إلّا وهو في معنى الحال، ولا على ماضٍ إلّا وهو قريب مِن الحال، أي: ما أتى شيعةً مِن تلك الشِّيَع رسولٌ خاصٌّ بها ﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، كما يفعله هؤلاء الكفَرة.

والجملة في محلّ النصب على أنّها حال مقدَّرة مِن ضمير المفعول في ﴿يَأْتِيهِم﴾ إذا كان المرادُ بالإتيان حدوثَه، أو في محلّ الرفع على أنّها صفةُ ﴿رَسُولٍ﴾ فإنّ محلَّه الرفع على الفاعليّة، أي: إلّا رسولٌ كانوا به يستهزءون. وأمّا الجرّ على أنّها صفة باعتبار لفظِه فيُفضي إلى زيادة ﴿مِن﴾ الاستغراقيّةِ في الإثبات.[1] ويجوز أن يكون منصوبًا على الوصفيّة بأن يُقدَّر الموصوفُ منصوبًا على الاستثناء.[2] وإن كان المختار الرفعَ على البدليّة.

وهٰذا كما ترى تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنّ هذه عادة الجهّال مع الأنبياء عليهم الصلاة السلام. وحيث كان الرسول مصحوبًا بكتاب مِن عند الله تعالى تُضمِّن ذِكرُ استهزائِهم بالرسول استهزاءَهم بالكتاب، ولذلك قيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما دلّ عليه الكلام السابق مِن إلقاء الوحي مقرونًا بالاستهزاء، أي: مثلَ ذلك السَّلْكِ الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاءوا به مِن الكتب ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ / أي: الذِّكرَ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [٢٨٨ظ] أي: أهل مكّةَ أو جنس المجرمين، فيدخلون فيه دخولًا أوّليًّا.

ومحلُّه النصب على أنّه نعت لمصدر محذوف أو حال منه، أي: نسلُكه سَلْكًا مثلَ ذلك السَّلْك أو نسلُك السَّلكَ حالَ كونِه مثلَه، أي: مقرونًا بالاستهزاء، غيرَ مقبول لِما تقتضيه الحكمة، فإنّهم مِن أهل الخِذلان ليس لهم استحقاق لقبول الحقّ. وصيغة المضارع لكون المشار إليه[3] مُقدَّمًا في الوجود، وهو السَّلْك الواقع في الأمم السالفة، أو للدلالة على استحضار الصورة. والسَّلْكُ: إدخالُ الشيء في آخرَ، يقال: سَلكتُ الخيطَ في الإبرة والرُّمحَ في المطعون.[4]

---

١ وفي هامش م: إذ التقدير حينئذ: إلّا من رسول كانوا به يستهزءون. «منه».
٢ وفي هامش م: أي: إلّا رسولًا كانوا به يستهزءون. «منه».
٣ م ط س: المشبّه به [صحح في هامش م ط].
٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٠.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالذِكر، حال مِن ضمير ﴿نَسْلُكُهُ﴾، أي: غيرَ مؤمَن به، أو بيانٌ للجملة السابقة فلا محلّ لها، وقد جُعل الضمير[١] للاستهزاء فيتعيَّن البيانيّة إلّا أن يُجعَل الضمير المجرور أيضًا له، على أنّ الباء للمُلابَسة، أي: نسلُك الاستهزاء في قلوبهم حالَ كونهم غيرَ مؤمنين بملابسته، والحالُ إمّا مقدَّرةٌ أو مقارِنة للإيذان بأنّ كفرهم مقارن للإلقاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة، ٨٩/٢]. ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: قد مضت طريقتهم التي سنّها الله تعالى في إهلاكهم حين فعلوا ما فعلوا مِن التكذيب والاستهزاء، وهو استئناف جيء به تكملة للتسلية وتصريحًا بالوعيد والتهديد.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤﴾

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: على هؤلاء المقترِحين المعاندين ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: بابًا ما -لا بابًا مِن أبوابها المعهودة كما قيل-[٢] ويسَّرنا لهم الرُّقيَّ والصعودَ إليه ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ﴾ في ذلك الباب ﴿يَعْرُجُونَ﴾ بآلة أو بغيرها ويرَون ما فيها مِن العجائب عِيانًا كما يفيده الظُّلول، أو فظلّ الملائكة الذين اقترحوا إتيانَهم يعرُجون / في ذلك الباب، وهم يرَونه عِيانًا مستوضِحين طولَ نهارهم. [٢٨٩و]

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾

﴿لَقَالُوٓاْ﴾ لفَرْط عِنادهم وغُلوّهم في المكابرة وتفاديهم عن قَبول الحقّ: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ أي: سُدَّت مِن الإحساس مِن "السِّكر"، كما يدلّ عليه القراءةُ بالتخفيف،[٣] أو حُيِّرت كما يعضُده قراءة مَن قرأ "سَكِرَتْ"[٤] أي: حارت.

---

[١] وفي هامش م: في ﴿نَسْلُكُهُ﴾.

[٢] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٢.

[٣] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٠١/٢.

[٤] م س: سُكِرتْ. | والمثبتُ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة والزُّهري وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٤.

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أي:[١] قد سحَرنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، كما قالوه عند ظهور سائر الآيات الباهرة. وفي كلمتَي الحصر والإضراب دلالة على أنّهم يبتُّون القول بذلك، وأنّ ما يرَونه لا حقيقةَ له وإنّما هو أمر خُيِّل إليهم بالسِّحر. وفي اسميّة الجملة الثانية دلالةٌ على دوام مضمونها، وإيرادُها بعد تسكير الأبصار لبيان إنكارهم لغير ما يرونه، فإنّ عُروج كلّ منهم إلى السماء وإن كان مرئيًا لغيره فهو معلوم له بطريق الوجدان مع قطع النظر عن الأبصار، فهم يدَّعون أنّ ذلك نوع آخرُ مِن السِّحر غيرُ تسكير الأبصار.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قصورًا ينزلها السيّارات، وهي البروج الاثنا عشرَ المشهورة المختلفةُ الهيئاتِ والخواصِّ حسبما يدلّ عليه الرصد والتجربة مع ما اتّفق عليه الجمهور مِن بساطة السماء. والجعل إن جُعِل بمعنى الخَلْق والإبداع -وهو الظاهر- فالجارُّ متعلِّق به، وإن جُعل بمعنى التصييرِ فهو مفعول ثانٍ له متعلِّق بمحذوف، أي: جعلنا بروجًا كائنة في السماء.[٢]

﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ أي: السماء بتلك البروج المختلفةِ الأشكال والكواكب سيّاراتٍ كانت أو ثوابتَ. ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ إليها، فمعنى التزيين ظاهرٌ، أو للمُتفكِّرين المُعتبِرين المُستدلِّين بذلك على قدرة مُقدِّرها وحكمةِ مُدبِّرها، فتزيينُها ترتيبها على نظام بديع مستتبع للآثار الحسنة.

﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ مَرميّ بالنجوم، فلا يقدِر أن يصعَد إليها، ويوسوسَ في أهلها، / ويتصرّفَ فيها ويقفَ على أحوالها. [٢٨٩ظ]

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ محلُّه النصب على الاستثناء المتّصلِ إن فُسِّر الحِفظ بمَنْع الشياطين عن التعرّض لها على الإطلاق والوقوف على ما فيها في الجملة،

---

[١] م - أي.

[٢] وفي هامش م: تحقيقه في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة، ٢/٣٠].

أو المنقطِعِ إن فُسِّر ذلك بالمَنْع عن دخولها والتصرّف فيها. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّهم كانوا لا يُحجَبون عن السماوات، فلمّا وُلد عيسى عليه السلام مُنعوا مِن ثلاث سماوات، ولمّا وُلد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مُنِعوا مِن السماوات كلِّها».[١] واستراق السمع اختلاسُه سِرًّا، شُبِّه به خَطفتُهم اليسيرة مِن قُطّان السماوات بما بينهم مِن المناسبة في الجوهر، أو بالاستدلال مِن الأوضاع.[٢]

﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ أي: تبِعه ولحِقه ﴿شِهَابٌ﴾ لهب مُحرِق، وهي شعلة نار ساطعةٌ، وقد يطلَق على الكوكب والسِّنان لِما فيهما مِن البريق. ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهرٌ أمرُه للمبصِرين.

قال مَعمَر:[٣] قلتُ لابن شِهاب الزُّهري: «أكان يُرمى بالنجوم في الجاهليّة؟» قال: «نعم، وإنّ النجم ينقضّ ويرمي الشيطان فيقتله أو يُخبّله لئلّا يعود إلى استراق السمع، ثمّ يعود إلى مكانه»، قال: «أفرأيت قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ﴾ الآية، [الجن، ٩/٧٢]»، قال: «غُلِّظت وشُدِّد أمرها حين بُعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم».[٤] قال ابن قتيبة:[٥] إنّ الرجم كان قبل مبعثِه صلّى الله عليه وسلّم، ولكن لم يكن في شدّة الحراسة كما بَعْد مبعثِه عليه السلام.[٦] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ الشياطين يركَب بعضهم بعضًا إلى السماء الدنيا يسترقون السمعَ مِن الملائكة، فيُرمَون بالكواكب فلا يخطئ أبدًا،

---

١ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٢/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٢.

٢ وفي هامش م: على أنّ المراد بالقطّان: ما يعمّ الكواكب. «منه».

٣ هو معمر بن راشد بن أبي عمرو الأزدي البصري، أبو عروة (ت. ١٥٣هـ/٧٧٠م). الإمام الفقيه الحافظ المتقِن الثقة شيخ الإسلام، نزيل اليمن. عُرف بالتحرّي والورع والجلالة وحُسن التصنيف. وهو مِن مؤرّخي رجال الحديث. طلب العلم وهو حَدَث. حدّث عن قتادة والزهري وعروة بن دينار وعاصم بن أبي النَّجود ويحيى بن أبي كثير وغيرهم، وحدّث عنه أيّوب وأبو إسحاق وعمرو بن دينار وغيرهم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/٧-١٧؛ والأعلام للزركلي، ٢٧٢/٧.

٤ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٤/٤؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٠/١١-٤٤١.

٥ هو عبد الله بن مسلم بن قُتيبة، وقيل: المروزي، أبو محمد (ت. ٢٧٦هـ/٨٨٩م). النحوي اللغوي الفاضل الثقة، ومِن أئمّة الأدب ومِن المصنِّفين المكثرين، وُلد ببغداد وتوفّي فيها وسكن الكوفة، أشهر مؤلّفاته: أدب الكاتب، والشعر والشعراء، وعيون الأخبار، والمعارف، وتأويل مشكل القرآن، وتفسير غريب القرآن، وتأويل مختلف الحديث، وهي مطبوعة. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ٤٢/٣؛ والأعلام للزركلي، ٣٧/٤.

٦ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٤/٤؛ واللباب لابن عادل، ٤٤١/١١.

فمنهم مَن يقتله ومنهم مَن يُحرِق وجهَه وجنبَه ويدَه حيث يشاء الله تعالى، ومنهم مَن يُخبِّله فيصير غُولًا فيُضلّ الناس في البوادي».[١] قال القرطبيّ: «اختلفوا في أنّ الشهاب هل يقتُل أم لا؟ قال ابن عبّاس: "يجرَح ويُحرِق ويُخبِّل ولا يقتُل"،[٢] وقال الحسن وطائفة: "يقتل"». قال: «والأوّل أصحّ».[٣]

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩﴾

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ بسطناها، وهو بالنصب على الحذف على شريطة التفسير، ولم يُقرأ بالرفع لرجحان النصب / للعطف على الجملة الفعليّة، أعني قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا﴾... إلخ،[٤] وليُوافقَ ما بعده، أعني قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالًا ثوابتَ، وقد مرّ بيانه في أوّل "الرعد". [٢٩٠و]

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض أو فيها وفي رواسيها ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ بميزان الحِكمة ذاتًا وصفةً ومِقدارًا. وقيل: ما يُوزَن مِن نحو الذهب والفضّة وغيرهما، أو مِن كلّ شيء مستحسَن مناسِب، أو ما يُوزَن ويُقدَّر مِن أبواب النعمة.[٥]

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ ما تعيشون به مِن المطاعم والملابس وغيرهما ممّا يتعلّق به البقاء، وهي بياء صريحة، وقُرئ بالهمزة[٦] تشبيهًا له بـ"الشمائل". ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ عطفٌ على ﴿مَعَٰيِشَ﴾ أو على محلّ ﴿لَكُمۡ﴾، كأنّه قيل: جعلنا لكم معايشَ وجعلنا لكم مَن لستم برازقيه مِن العِيال والمماليك والخدَم والدوابِّ وما أشبهها على طريقة التغليب، وذِكرُهم بهذا العنوان لردّ حسبانهم أنّهم يَكفُون مئوناتِهم، ولتحقيق أنّ الله تعالى هو الذي يرزقهم وإيّاهم، أو وجعلنا[٧] لكم فيها معايشَ ولمَن لستُم له برازقين.

---

١ معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٢/٤؛ اللباب لابن عادل، ٤٤٠/١١.

٢ جامع البيان للطبري، ٣٣/١٤.

٣ من قوله: "قال القرطبي" بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ٤٤١/١١. وانظر: تفسير القرطبي، ١١/١٠.

٤ الحجر، ١٦/١٥.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٢.

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٢.

٧ السياق: جعلنا لكم معايش... أو جعلنا...

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ ﴿إِن﴾ للنفي و﴿مِن﴾ مَزيدة للتأكيد، و﴿شَيْءٍ﴾ في محلّ الرفع على الابتداء، أي: ما مِن شيء مِن الأشياء المُمكنة، فيدخُل فيها ما ذُكر دخولًا أوّليًا.

﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ الظرف خبر للمبتدأ. و﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ مُرتفِع به على أنّه فاعله لاعتماده، أو خبر له، والجملة خبر للمبتدأ الأوّل. والخزائن: جمع "الخِزانة" وهي ما يحفظ فيه نفائسُ الأموال لا غيرُ، غلَب في العُرف على ما للملوك والسلاطين مِن خزائن أرزاقِ الناس، شُبّهت مقدوراته تعالى الفائقة للحصر المندرجة تحت قدرتِه الشاملة في كونها مستورةً عن علوم العالَمين ومَصونةً عن وصول أيديهم مع كمال افتقارِهم إليها ورغبتِهم فيها، وكونِها مهيّأة متأتّية لإيجاده وتكوينه، بحيث متى تعلّقت الإرادة بوجودها وُجدت / بلا تأخُّر بنفائس الأموال المخزونة [٢٩٠ظ] في الخزائن السلطانيّة، فذِكرُ الخزائن على طريقة الاستعارةِ التخييليّة.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ أي: ما نُوجِد وما نكوّن شيئًا مِن تلك الأشياء ملتبسًا بشيء مِن الأشياء ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: إلّا ملتبِسًا بمقدار معيَّن تقتضيه الحكمة وتستدعيه المشيئةُ التابعة لها، لا بما تقتضيه القدرة، فإنّ ذلك غيرُ متناهٍ، فإنّ تخصيص كلّ شيء بصفة معيّنة وقدر معيّن ووقت محدود دون ما عدا ذلك، مع استواء الكلّ في الإمكان واستحقاق تعلُّق القدرة به، لا بدّ له مِن حكمة تقتضي اختصاصَ كلّ مِن ذلك بما اختصّ به، وهذا البيان سرُّ عدم تكوين الأشياء على وجه الكثرة حسبما هو في خزائن القدرة.

وهو إمّا عطفٌ على مقدَّر، أي: نُنزِّله وما نُنزّله... إلخ، أو حال ممّا سبق، أي: عندنا خزائنُ كلّ شيء، والحال أنّا ما نُنزّله إلّا بقدر معلوم، فالأوّل لبيان سَعة القدرة والثاني لبيان بالغ الحِكمة، وحيث كان إنشاء ذلك بطريق التفضّل مِن العالم العُلوي إلى العالم السفلي، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر، ٦/٣٩]، وكان ذلك بطريق التدريج عُبّر عنه بالتنزيل، وصيغةُ المضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ۝٢٢﴾

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾ عطفٌ على ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾،[1] وما بينهما اعتراض لتحقيق ما سبق وترشيحِ ما لحِق، أي: أرسلنا الرياح ﴿لَوَٰقِحَ﴾ أي: حواملَ، شُبِّهت الريح التي تجيء بالخير مِن إنشاء سحاب ماطر بالحامل كما شُبِّه بالعقيم ما لا يكون كذلك، أو ملقِّحات بالشجر والسحاب، ونظيره "الطوائح" بمعنى المُطيحات، في قوله:

ومُختبِطٍ ممّا تُطيح الطوائحُ[2]

أي: المُهلِكات. وقُرئ: "وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ"[3] على إرادة الجنس.

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بعد ما أنشأنا بتلك الرياح سحابًا ماطرًا. ﴿مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: جعلناه لكم سُقيًا وهو أبلغ مِن "سقيناكموه"، / لِما فيه مِن الدلالة على جَعْل الماء مُعدًّا لهم ينتفعون به متى شاءوا. [٢٩١و]

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ نفى عنهم ما أثبته لجنابه بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾،[4] كأنّه قيل: نحن القادرون على إيجاده وخَزْنه في السحاب وإنزاله وما أنتم على ذلك بقادرين. وقيل: ما أنتم بخازنين له بعدما أنزلناه في الغُدران والآبار والعيون؛ بل نحن نخزُنه فيها لنجعلَها سقيًا لكم مع أنّ طبيعةَ الماء تقتضي الغَوْر.[5]

---

١ الحجر، ٢٠/١٥.

٢ عجز بيت صدره:

لِيُبكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ

واختُلف في نسبتِه: فهو للبيد بن ربيعة في ملحق ديوانه، ص ٣٦٢؛ وللحارث بن نَهيك في كتاب سيبويه ٢٨٨/١؛ وشرح الرضي على الكافية ١٩٨/١؛ ولنَهشل بن حَرّيّ في التفسير البسيط للواحدي، ٥٧٨/١٢، وللحارث بن ضِرار النهشلي في الحماسة البصرية للبصري، ٧٥٦/٢؛ ولضِرار بن نَهشل في المطوّل للتفتازاني، ص ١٤٤؛ ومعاهد التنصيص للعبّاسي، ٢٠٣/١. والعجز بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٢/٢. وأورد البغدادي في خزانة الأدب، ٣٠٣/١-٣١٣، نسبته إلى هؤلاء وإلى غيرهم، ورجّح نسبته إلى نَهشل بن حَرّي. | والمختبط: طالب العطاء مِن غير سابق معرفة ولا وسيلة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «خبط».

٣ قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٢٤/٢، ٣٠١.

٤ الآية السالفة.

٥ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٧/٢.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها عنها، وقد يُعمِّم الإحياء والإماتة لِما يشمل الحيوان والنبات. وتقديم الضمير للحصر، وهو إمّا تأكيد للأوّل أو مبتدأ خبرُه الفعل، والجملةُ خبرٌ لـ"إنّ". ولا يجوز كونه ضميرَ الفصل، لا لأنّ اللام مانعة عن ذلك كما قيل،[1] فإنّ النحاة جوّزوا دخولَ لام التأكيد على ضمير الفصل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران، ٦٢/٣]؛[2] بل «لأنّه لم يقع بين اسمين».[3]

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أي: الباقون بعد فناء الخلق قاطبة، المالكون للمُلك عند انقضاء زمان المُلك المجازي، الحاكمون في الكلّ أوّلًا وآخرًا، وليس لهم إلّا التصرّف الصُّوري والمُلك المجازي، وفيه تنبيهٌ على أنّ المتأخِّر ليس بوارث للمتقدِّم كما يتراءى مِن ظاهر الحال.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ مَن تقدَّم منكم ولادةً وموتًا ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ مَن تأخَّر ولادةً وموتًا، أو مَن خرج مِن أصلاب الآباء ومَن لم يخرُج بعدُ، أو مَن تقدَّم في الإسلام والجهاد / وسبق إلى الطاعة ومَن تأخّر في ذلك، لا يخفى علينا شيء مِن أحوالكم، وهو بيان لكمال علمِه تعالى بعد الاحتجاج على كمال قدرته، فإنّ ما يدلّ عليها دليل عليه، وفي تكرير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ ما لا يخفى مِن الدلالة على كمال التأكيد. [٢٩١ظ]

وقيل: رغَّب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الصفّ الأوّل فازدحموا

---

[1] قاله أبو البقاء في التبيان، ٧٨٠/٢؛ ونقله السمين الحلبي في الدرّ المصون، ١٥٥/٧؛ ابن عادل في اللباب، ٤٤٨/١١.

[2] هذا الردُّ في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٥٥/٧؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٨/١١.

[3] اللباب لابن عادل، ٤٤٨/١١.

عليه، فنزلت.[١] وقيل: إنّ امرأة حسناءَ كانت تصلّي خلف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فتقدَّم بعض الناس لئلّا يراها وتأخَّر آخرون ليرَوها، فنزلت.[٢]

والأوّل هو المناسب لِما سبق وما لحق مِن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي:[٣] للجزاء. وتوسيط ضمير العظَمة للدلالة على أنّه هو القادر على حَشْرهم والمتولّي له لا غير، لأنّهم كانوا يستبعدون ذلك ويستنكرونه ويقولون: مَن يحيي العظام وهي رميم؟ أي: هو يحشُرهم لا غيرُ. وفي الالتفات والتعرّض لعنوان الربوبيّةِ إشعارٌ بعلّة الحُكم، وفي الإضافة إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم دلالة على اللطف به عليه السلام.

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ بالغ الحكمة متقِن في أفعاله، فإنّها عبارة عن العِلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، والإتيانِ بالأفعال على ما ينبغي. ﴿عَلِيمٌ﴾ وسِع عِلمُه كلّ شيء. ولعلّ تقديمَ صفة الحكمة للإيذان باقتضائها للحشر والجزاء.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: هذا النوع بأن خلقنا أصله وأوّل فرد مِن أفراده خلقًا بديعًا منطويًا على خلق سائر أفراده انطواء إجماليًا كما مرّ تحقيقه في سورة الأنعام.

﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ مِن طين يابس غير مطبوخ، يُصلصل، أي: يصوِّت عند نقره. قيل: إذا توهَّمت في صوته مدًّا فهو صليل، وإن توهَّمت فيه ترجيعًا فهو صلصلة. وقيل: هو تضعيف "صلّ" إذا أنتن.[٤]

﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ مِن طين تغيّر واسودّ بطول مجاورة الماء، وهو صفة لـ﴿صَلْصَٰلٍ﴾ أي: مِن صلصال[٥] كائن مِن حمإ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ أي: مصوَّر، / مِن "سُنّة الوجه" وهي صورته، [٢٩٢و]

---

[١] لم أجده في مظانّه. وهو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٣٧-٢٣٨.

[٢] مرويّ عن ابن عبّاس بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٤/٥٣-٥٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٣؛ اللباب لابن عادل، ١١/٤٤٨.

[٣] ط س - أي.

[٤] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٣.

[٥] وفي هامش م: أو مكوَّنٍ كما يدلّ عليه ﴿خَلَقْنَا﴾. «منه».

أو مصبوب، مِن "سَنّ الماء": صبّه، أي: مُفرَغ على هيئة الإنسان كما تُفرَغ الصور مِن الجواهر المُذابة في القوالب. وقيل: مُنتن فهو صفة لـ﴿حَمَإٍ﴾.[١] وعلى الأوّلَين حقُّه أن يكون صفة لـ﴿صَلْصَٰلٍ﴾،[٢] وإنّما أُخِّر عن ﴿حَمَإٍ﴾ تنبيهًا على أنّ ابتداء مسنونيّته ليس في حال كونه صلصالًا؛ بل في حال كونه حمأ، كأنّه سبحانه أفرغ الحمأ فصوَّر مِن ذلك تمثال إنسان أجوفَ فيَبِس حتّى إذا نُقر صوَّت ثمّ غيَّره إلى جوهر آخرَ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين.

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ أبا الجنّ. وقيل: إبليس.[٣] ويجوز أن يُراد به الجنس كما هو الظاهر مِن الإنسان لأنّ تشعُّب الجنس لمّا كان مِن فرد واحد مخلوق مِن مادّة واحدة كان الجنس بأسره مخلوقًا منها. وقُرئ بالهمز.[٤] وانتصابه بفعل يفسّره.

﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ وهو أقوى مِن الرفع للعطف على الجملة الفعلية. ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبل خلق الإنسان. ومِن هذا يظهر جواز كون المراد بـ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ أحدَ الثقلين وبـ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ الآخرَ، والخطاب بقوله: ﴿مِنكُمْ﴾[٥] للكلّ.

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ مِن نار الحرّ الشديد النافذ في المسامّ. ولا امتناعَ في خَلْق الحياة في الأجرام البسيطة كما لا امتناعَ في خَلْقها في الجواهر المجرَّدة، فضلًا عن الأجسام المؤلَّفة التي غالب أجزائها الجزء الناري، فإنّها أقبل لها مِن التي غالب أجزائها الجزء الأرضي. وقوله تعالى: ﴿مِن نَّارٍ﴾ باعتبار الغالب كقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم، ٢٠/٣٠]. ومَساق الآية الكريمة كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين، فهو للتنبيه على المقدِّمة الثانية التي يتوقَّف عليها إمكان الحشر، وهو قبول الموادّ للجمع والإحياء.

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٣/٢.

[٢] وفي هامش م: وإن أمكن كونه صفة لـ﴿حَمَإٍ﴾ أيضًا؛ لأنّه المُصوَّر والمُفرَغ. «منه».

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٣/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعمرو بن عُبيد وأبي السَّمّال وأيوب السَّختِياني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٤-٧٥؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٠٨٨.

[٥] الحجر، ٢٤/١٥.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ نَصْب بإضمار "اذكُر"، وتذكير الوقت لِما مرّ مرارًا مِن أنّه أدخَل في تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث، وفي التعرّض لوصف الربوبيّة المنبِئة عن تبليغ الشيء / إلى كماله اللائق به شيئًا فشيئًا مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إشعار بعلّة الحُكم وتشريف له صلّى الله عليه وسلّم، أي: اذكُر وقت قوله تعالى: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌ﴾ فيما سيأتي. وفيه ما ليس في صيغة المضارع مِن الدلالة على أنّه تعالى فاعل له البتّةَ مِن غير صارف يثنيه ولا عاطف يَلويه. [٢٩٢ظ]

﴿بَشَرًا﴾ أي إنسانًا. قيل: ليس هذا عين العبارة الجارية وقت الخطاب؛ بل الظاهر أن يكون قد قيل لهم: إنّي خالق خلقًا مِن صفته كيت وكيت، ولكن اقتُصر عند الحكاية على الاسم. وقيل:[١] جسمًا كثيفًا يُلاقى ويُباشَر. وقيل: خلقًا بادي البشرة بلا صوف ولا شعر.

﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ متعلِّق بـ﴿خَٰلِقٌ﴾، أو بمحذوف وقَع صفة لمفعوله، أي: بشرًا كائنًا مِن صلصال كائن. ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ تقدَّم تفسيره، ولا يُنافي هذا ما في قوله تعالى في سورة ص مِن قوله: ﴿بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص، ٧١/٣٨]، فإنّ عدم التعرّض عند الحكاية لوصف الطين مِن التغيّر والاسوداد -ولِما ورد عليه مِن آثار التكوين-[٢] لا يستلزم عدم التعرّض لذلك عند وقوع المحكي، غايته أنّه لم يتعرَّض له هناك اكتفاء بما شُرح ههنا.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: صوَّرتُه بالصورة الإنسانيّة والخِلقة البشريّة، أو سوَّيتُ أجزاء بدنه بتعديل طبائعه. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ النَّفْخ: إجراء الرِّيح إلى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها. وليس ثمّة نَفْخ ولا منفوخ وإنّما هو تمثيل لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادّة القابلة لها، أي: فإذا كمَلتُ استعداده

[١] وفي هامش م: إمام رازي. | انظر: تفسير الرازي، ١٣٩/١٩.

[٢] وفي هامش م: هي المسنونيّة. «منه».

وأفضتُ عليه ما يحيا به مِن الرُّوح التي هي مِن أمري ﴿فَقَعُواْلَهُۥ﴾ أَمر مِن "وقَع يقَع"، وفيه دليل على أن ليس المأمور به مجرَّد الانحناء كما قيل، أي: اسقُطوا له ﴿سَٰجِدِينَ﴾ تحيّة له وتعظيمًا، أو اسجدوا الله تعالى على أنّه عليه السلام بمنزلة القِبلة، حيث ظهر فيه تعاجيبُ آثار قدرته تعالى وحكمته، كقول حسّان رضي الله عنه:

أليسَ أوّلَ مَن صلّى لقبلتكم   وأعلمَ الناس بالقرآن والسُّننِ[١]

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: فخلقه فسوّاه فنفخ فيه الروح فسجد له الملائكة ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يشذّ منهم أحد ﴿أَجْمَعُونَ﴾ بحيث لم يتأخّر في ذلك أحد منهم عن أحد، ولا اختصاصَ لإفادة هذا المعنى بالحاليّة؛ بل يفيده التأكيد أيضًا، فإنّ الاشتقاق الواضح يُرشِد إلى أنّ فيه معنى الجَمْع والمعيّة بحسب الوضع، والأصل في الخطابي التنزيل على أكمَل أحوال الشيء، ولا ريبَ في أنّ السجود معًا أكملُ أصناف السجود، لكن شاع استعماله تأكيدًا وأُقيم مُقامَ "كلّ" في إفادة معنى الإحاطة مِن غير نظر إلى الكمال، فإذا فُهِمت الإحاطة مِن لفظ آخر لم يكن بدّ مِن مراعاة الأصل صونًا للكلام عن الإلغاء.[٢]

وقيل: أُكِّد بتأكيدين مبالغة في التعميم.[٣] هذا وأمّا أنّ سجودهم هذا هل ترتّب على ما حُكيَ مِن الأمر التعليقي كما تقتضيه هذه الآية الكريمة والتي في سورة ص، أو على الأمر التنجيزي كما يستدعيه ما في غيرهما، فقد خرجنا بفضل الله عزّ وجلّ عن عُهدة تحقيقه في تفسير سورة البقرة.[٤]

---

١ هو لحسّان بن ثابت في تفسير الرازي، ٤٢٧/٢ (البقرة، ٣٤/٢)؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٧/١ (البقرة، ٣٤/٢)؛ واللباب لابن عادل، ٢١٤/١١ (يوسف، ١٠٠/١٢)، وليس في ديوان حسّان بن ثابت ولا في ملحقاته.

٢ ما ذكره المُصنِّف ههنا هو قول المبرّد، وهو خلافُ مذهب سيبويه فيه. قال الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه، ١٧٩/٣: «قال سيبويه والخليل ﴿أَجْمَعُونَ﴾ توكيد بعد توكيد، وقال محمّد بن يزيد: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ يدلُّ على اجتماعهم في السجود، والمعنى: فسجدوا كلُّهم في حالة واحدة. وقولُ سيبويهِ والخليل أجودُ؛ لأنّ أجمعين معرفة فلا يكون حالًا». انظر: كتاب سيبويه ٢٨٧/٢؛ ومعاني القرآن للأخفش ١٧٥/١ (البقرة، ١٩٦/٢).

٣ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٩/٢.

٤ في الآية الرابعة والثلاثين منها.

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ استثناء متّصل إمّا لأنّه كان جنّيًا مفرَدًا مغمورًا بألوف مِن الملائكة فعُدّ منهم تغليبًا، وإمّا لأنّ مِن الملائكة جنسًا يتوالدون وهو منهم. وقوله تعالى: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ استئناف مبيّن لكيفيّة عدم السجود المفهوم مِن الاستثناء، فإنّ مطلق عدم السجود قد يكون مع التردّد وبه عُلِم أنّه مع الإباء والاستكبار، أو مُنقطِع[1] فيتّصل به ما بعده، أي: / لكنّ إبليسَ أبى أن يكون معهم. [٢٩٣و]

وفيه دلالة على كمال رَكاكة رأيه حيث أدمَج في معصية واحدة ثلاثَ معاصٍ: مخالفةَ الأمر، والاستكبارَ مع تحقير آدم عليه السلام، ومفارقةَ الجماعة والإباءَ عن الانتظام في سِلك أولئك المقرَّبين الكرام.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال مَن قال: فماذا قال تعالى عند ذلك؟ فقيل: قال: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ﴾ أي: أيُّ سبب لك؟ لا أيُّ غرض لك؟ كما قيل؛[2] لقوله تعالى: ما منعك ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ في ألّا تكون ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ لآدم مع أنّهم هم ومنزلتُهم في الشرف منزلتُهم، وما كان التوبيخ عند وقوعه لمجرّد تخلُّفه عنهم؛ بل على كلّ[3] مِن المعاصي الثلاث المذكورة، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ [الأعراف، ١٢/٧]، وفي سورة ص: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص، ٧٥/٣٨]، ولكن اقتُصر عند الحكاية في كلّ موطن على ما ذُكر فيه اجتزاء بما ذُكر في موطن آخرَ، وإشعارًا بأنّ كلّ واحدة مِن تلك المعاصي الثلاث كافية في التوبيخ وإظهار بطلان ما ارتكبه. وقد تُرِكت حكاية التوبيخ رأسًا في سورة البقرة وسورة بني إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه.

---

١ السياق: استثناء متّصل... أو منقطع...

٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٤/٢.

٣ م س: لكلّ. [صُحّح في هامش م].

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ٣٣﴾

﴿قَالَ﴾ أي: إبليس، وهو أيضًا استئناف مبنيّ على السؤال الذي ينساق إليه الكلام. ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ "اللام" لتأكيد النفي، أي: يُنافي حالي ولا يستقيم منّي لأنّي مخلوق مِن أشرف العناصر وأعلاها أن أسجُد ﴿لِبَشَرٍ﴾ أي: جسم كثيف ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ اقتُصر ههنا على الإشارة الإجماليّة إلى ادِّعاء الخيريّة وشرفِ المادّة اكتفاء بما صرَّح به حين قال: أنا خير منه خلقتني مِن نار وخلقته مِن طين، ولم يكتفِ اللعين بمجرَّد ذِكر كونه عليه السلام مِن التراب الذي هو أخسّ العناصر وأسفَلُها؛ بل تعرَّض لكونه مخلوقًا منه في أخسّ أحواله مِن كونه طينًا متغيّرًا، / وقد اكتفى في سورة الأعراف [٢٩٣ظ] وسورة ص بما حُكيَ عنه ههنا فاقتُصر على حكاية تعرُّضه لخَلْقه عليه السلام مِن طين، وكذا في سورة بني إسرائيل حيث قيل: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء، ٦١/١٧].

وفي جوابه دليل على أنّ قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ﴾[1] ليس استفسارًا عن الغرض؛ بل هو استفسار عن السبب. وفي عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال رَوْمٌ للتفصّي[2] عن المناقشة، وأنّى له ذلك؟ كأنّه قال: لم أمتنع عن امتثال الأمر ولا عن الانتظام في سِلك الملائكة؛ بل عمّا لا يليق بشأني مِن الخضوع للمفضول، ولقد جرى -خذَله الله تعالى- على سَنن قياس عقيم، وزلّ عنه أنّ ما يدور عليه فلَك الفضل والكمال هو التحلّي بالمعارف الربانيّة والتخلّي عن المَلَكات الرَّدِيّة، التي أقبحُها التكبّر والاستعصاء على أمر ربّ العالمين جلّ جلاله.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٣٤﴾

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: مِن زُمرة الملائكةِ المعزَّزين لا مِن السماء، فإنّ وسوسته لآدمَ عليه السلام في الجنّة إنّما كانت بعد هذا الطرد، وقوله تعالى:

---

١ في الآية السابقة.

٢ التفصّي: التخلّص، وأصله أن يكون الشيء في مضيق ثمّ يخرج إلى غيره. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فصي».

﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ [الأعراف، ١٣/٧] ليس نصًا في ذلك، فإنّ الخروج مِن بين الملإ الأعلى هبوطٌ وأيُّ هبوط؟ أو مِن الجَنّة.[١] على أنّ وسوسته كانت بطريق النداء مِن بابها كما رُوي عن الحسن البصري رضي الله عنه،[٢] أو بطريق المشافهة بعد أن احتال في دخولها وتوسّل إليه بالحيّة كما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما،[٣] ولا ينافي هذا طردَه على رءوس الأشهاد لِما يقتضيه مِن الحِكَم البالغة.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود مِن كلّ خير وكرامةٍ، فإنّ مَن يُطرَدْ يُرجَمْ بالحجارة، أو شيطان يُرجَمُ بالشهب وهو وعيد يتضمّن الجوابَ عن شبهته، فإنّ مَن عارض النصَّ بالقياس فهو رجيم ملعون.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦﴾

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ الإبعادَ عن الرحمة، وحيث كان ذلك مِن جهة الله سبحانه وإن كان جاريًا على ألسنة العبادِ، قيل: في سورة ص ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ [ص، ٧٨/٣٨].

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ / إلى يوم الجزاء والعقوبة. وفيه إشعار بتأخير عقابه وجزائِه إليه، وأنّ اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاءً لفعله، وإنّما يتحقّق ذلك يومئذ، وفيه مِن التهويل ما لا يُوصَف، وجَعْلُ ذلك أقصى أمَد اللعنة ليس لأنّها تنقطِع هنالك؛ بل لأنّه عند ذلك يُعذَّب بما يَنسى به اللعنة مِن أفانين العذابِ، فتصير هي كالزائل. [٢٩٤و]

وقيل: إنّما حُدّت به لأنّه أبعد غاية يُضَرّ بها الناس،[٤] كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [هود، ١٠٨/١١]، وحيث أمكَن كون تأخير العقوبة مع الموت كسائر مَن أُخِّرت عقوباتهم إلى الآخرة مِن الكفَرة، طلَب اللعين تأخيرَ موته كما حُكيَ عنه بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ أي: أمهلني وأخِّرني ولا تُمِتْني، و"الفاء" متعلِّقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام، أي: إذا جعلتني رجيمًا

---

[١] السياق: مِن زمرة الملائكة... أو مِن الجنّة...
[٢] ما وجدتُه فيما بين يديّ من المظانّ.
[٣] ما وجدتُه فيما بين يديّ من المظانّ.
[٤] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٠/٢.

فأمهِلني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: آدمُ وذرّيّته للجزاء بعد فنائهم، وأراد بذلك أن يجِد فُسحة لإغوائهم ويأخذَ منهم ثأره وينجوَ مِن الموت لاستحالته بعد يوم البعث.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧﴾

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ ورودُ الجواب بالجملة الاسميّة مع التعرّض لشمول ما سأله الآخرين على وجه يُؤذِن بكون السائل تبَعًا لهم في ذلك دليلٌ على أنّه إخبار بالإنظار المقدَّر لهم أزَلًا، لا إنشاءٌ لإنظارٍ خاصٍّ به وقَع إجابةً لدعائه، أي: إنّك مِن جملة الذين أُخِّرت آجالُهم أزَلًا حسبما يقتضيه حكمة التكوين، فـ"الفاء" ليست لربط نفس الإنظار بالاستنظار؛ بل لربط الإخبار المذكور به، كما في قوله:

فـإن تـرحَـم فـأنـت لـذاك أهـل[١]

فإنّه لا إمكانَ لجَعْل "الفاء" فيه لربط ما فيه تعالى مِن الأهليّة القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة؛ بل هي لرَبْط الإخبار بتلك الأهليّة للرحمة بوقوعها، وأنّ استنظاره كان طلبًا لتأخير الموت إذ به / يتحقَّق كونه مِن جملتهم، [٢٩٤ظ] لا لتأخير العقوبة كما قيل.

ونظمُه في ذلك في سِلك مَن أُخِّرت عقوبتُهم إلى الآخرة في عِلم الله تعالى ممّن سبَق مِن الجنّ ولحِق مِن الثقلين لا يُلائم مَقام الاستنظار مع الحياة، ولأنّ ذلك التأخير معلوم مِن إضافة "اليوم" إلى "الدِّين" مع إضافته في السؤال إلى البعث كما عرفته، وفي سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف، ٧/١٤-١٥]، بترك التوقيت والنداء والفاء في الاستنظار والإنظار تعويلًا على ما ذُكِر ههنا وفي سورة ص، فإنّ إيراد كلام واحد على أساليبَ متعدِّدة غيرُ عزيز في الكتاب العزيز.

---

[١] وفي هامش م: تمامه:

وإن تـطـرُد فـمَـن يـرحَـم سواكـا

وما عرفتُ قائله، وهو بلا نسبة في معاهد التنصيص للعبّاسي، ١/١٧٠.

وأمّا أنّ كلّ أسلوب مِن أساليب النظم الكريم لا بدّ أن يكون له مقام يقتضيه مُغاير لمقام غيره، وأنّ ما حُكي مِن اللعين إنّما صدر عنه مرّة، وكذا جوابُه لم يقع إلّا دَفعة، فمقامُ المحاورة إن اقتضى أحدَ الأساليب المذكورة فهو المطابق لمقتضى الحال والبالغُ إلى طبقة الإعجاز وما عداه قاصر عن رُتبة البلاغة فضلًا عن الارتقاء إلى معالم الإعجاز، فقد مرّ تحقيقه بتوفيق الله تعالى في سورة الأعراف.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وهو وقت النفخة الأولى التي عُلم أنّه يُصعَق عندها مَن في السماوات ومَن في الأرض إلّا مَن شاء الله تعالى، ويجوز أن يكون المراد بالأيّام واحدًا، والاختلافُ في العبارات لاختلاف الاعتبارات: فالتعبيرُ بـ"يوم البعث" لأنّ غرض اللعين به يتحقّق، وبـ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[١] لِما ذُكر مِن الجزاء، وبـ﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ لِما ذُكر، أو لاستئثاره تعالى بعِلمه، فلعلّ كلًّا مِن هلاك الخلق جميعًا وبَعْثهم وجزائهم في يوم واحد، يموت اللعين في أوّله ويُبعث في أواسطه ويعاقب في بقيّته. يُروى أنّ بين موتِه وبعثه أربعين سنة مِن سِني الدنيا مقدارَ ما بين النفختين.[٢]

ونُقل عن / الأحنف بن قيس[٣] رحمه الله أنّه قال: قدِمتُ المدينة أريدُ أمير المؤمنين عمرَ رضي الله تعالى عنه، فإذا أنا بحلقة عظيمة وكعبُ الأحبار فيها يُحدِّث الناس وهو يقول: «لمّا حضر آدمَ عليه السلام الوفاةُ قال: "يا ربّ سيشمت بي عدوّي إبليسُ إذا رآني ميّتًا وهو مُنظَر إلى يوم القيامة"، فأجيبَ [٢٩٥و]

---

١ الحجر، ١٥/٣٥.

٢ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٤/٣٨١.

٣ هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المرّي السعدي المنقري التميمي، أبو بحر (ت. ٧٢هـ/٦٩١م). هو سيّد تميم، والعالم النبيل، وأحد العظماء الدُّهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. يُضرب بحلمه وسؤدده المَثل. وُلد في البصرة وأدرك النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يرَه. شهد الفتوح في خراسان وشهد صفّين مع عليّ رضي الله عنه واعتزل الفتنة يوم الجمل، وولي خراسان. وله خطب وكلمات متفرّقة في كتب التاريخ والأدب. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/٨٦؛ والأعلام للزركلي، ١/٢٧٦.

"أن يا آدمُ إنّك ستَرِد إلى الجنّة ويُؤخَّر اللعين إلى النظِرة ليذوقَ ألم الموت بعدد الأوّلين والآخِرين"، ثمّ قال لملَك الموت: "صِف كيف تُذيقه الموت"، فلمّا وصفه قال: "يا ربّ حسبي"». فضجّ الناسُ وقالوا: «يا أبا إسحاقَ كيف ذلك؟» فأبى، فألحّوا فقال: «يقول الله سبحانه وتعالى لمَلَك الموت عقِيبَ النفخةِ الأولى: "قد جعلتُ فيك قوّة أهل السماوات[1] وأهلِ الأرضِين السبع، وإنّي ألبستُك اليوم أثواب السخط والغضب كلَّها، فانزِلْ بغضبي وسطوتي على رجيمي إبليسَ فأذِقْه الموتَ واحمِلْ عليه فيه مرارة الأوّلين والآخِرين مِن الثقلين أضعافًا مضاعَفة، وليكن معك مِن الزبانية سبعون ألفًا قد امتلئوا غيظًا وغضبًا، وليكُن مع كلّ منهم سِلسلةٌ مِن سلاسل جهنّم وغُلٌّ مِن أغلالها، وانزع روحَه المُنتِن بسبعين ألف كُلّاب مِن كلاليبها، ونادِ مالكًا ليفتح أبواب النيران". فينزِل مَلَك الموت بصورةٍ لو نظر إليها أهل السماوات والأرضِين لَماتوا بغتةً مِن هولها، فينتهي إلى إبليس فيقول: "قِف لي يا خبيثُ لأُذيقنّك الموت! كم مِن عمر أدركتَ وقرونٍ أضللتَ! وهذا هو الوقتُ المعلوم"».

قال: «فيهرُب اللعين إلى المشرِق فإذا هو بمَلَك الموت بين عينيه، فيهرُب إلى المغرِب فإذا هو به بين عينيه، فيغوص البحارَ فتنِزُّ منه البحار فلا تقبله، فلا يزال يهرُب في الأرض ولا محيصَ له[2] / ولا ملاذَ، ثمّ يقوم في وسط الدنيا عند قبر آدمَ عليه السلام، ويتمرَّغ في التراب مِن المشرِق إلى المغرِب ومِن المغرِب إلى المشرِق، حتّى إذا كان في الموضع الذي أُهبِط فيه آدمُ عليه السلام، وقد نَصبت له الزبانية الكلاليب وصارت الأرض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه بالكلاليب، ويبقى في النزع والعذاب إلى حيث يشاء الله تعالى، ويقال لآدمَ وحواءَ: اطّلِعا اليوم إلى عدوّكما كيف يذوق الموت، فيطّلِعان فينظران إلى ما هو فيه مِن شدّة العذاب فيقولان: ربّنا أتممتَ علينا نعمتكَ».[3]

[٢٩٦و]

---

[1] س + السبع.

[2] ظهر اللوح ٢٩٥ مِن نسخة المؤلّف أبيض، والكلام متّصل بعده.

[3] ما وجدت مصدر المُصنِّف في هذا الخبر.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝﴾

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ "الباء" للقسم، و﴿مَا﴾ مصدريّة، والجواب ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أي: أقسِم بإغوائك إيّايَ لأزيننّ[1] لهم المعاصيَ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في الدنيا التي هي دارُ الغرور، كقوله تعالى: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف، ١٧٦/٧]. وإقسامُه بعزّة الله المُفسَّرة بسلطانه وقهره لا يُنافي إقسامه بهذا، فإنّه فَرْع مِن فروعها وأثر مِن آثارها، فلعلّه أقسَم بهما جميعًا فحُكي تارة قسمُه بهذا وأخرى بذاك، أو للسببيّة. وقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ جوابُ قسَم محذوف، والمعنى: بسبب تسبيبك لإغوائي أقسِم لأفعلنّ بهم مثلَ ما فعلتَ بي مِن التسبيب لإغوائهم بتزيين المعاصي وتسويل الأباطيل.

والمعتزلة أوّلوا الإغواء بالنسبة إلى الغيّ أو التسبّب له بأمره إيّاه بالسجود لآدم عليه السلام، واعتذروا عن إمهال الله تعالى وتسليطه له على إغواء بني آدم بأنّه تعالى قد علِم منه وممّن تبِعه أنّهم يموتون على الكفر ويصيرون إلى النار، أُمهِل أم لم يُمهَل، وأنّ في إمهاله تعريضًا لمَن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب.[2]

/ ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأحمِلنّهم على الغواية، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [٢٩٦ظ] الذين أخلصتَهم لطاعتك وطهّرتَهم مِن الشوائب، فلا يعمل فيهم كيدي، وقُرئ بكسر اللام،[3] أي: الذين أخلصوا نفوسَهم لله عزّ وجلّ.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝﴾

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ أي: حقّ عليَّ أن أُراعيَه ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا عِوجَ فيه، والإشارة إلى ما تضمّنه الاستثناء وهو تخلّص المخلَصين مِن إغوائه، أو الإخلاصُ على معنى أنّه طريق يؤدّي إلى الوصول إليّ مِن غير اعوجاج وضلال،

---

[1] س: لأزيّنَنّ.

[2] الكلام بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤١/٢.

[3] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.

والأظهرُ أنّ ذلك لِما وقع في عبارة إبليسَ حيث قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية، [الأعراف، ٧/١٦-١٧]، وقُرئ: "عَلِيٌّ"[١] مِن عُلوّ الشرف.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ وهم المشار إليهم بالمخلَصين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ تسلُّط وتصرُّف بالإغواء ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ وفيه مع كونه تحقيقًا لِما قاله اللعين تفخيمٌ لشأن المخلَصين وبيانٌ لمنزلتهم ولانقطاع مَخالِب الإغواء عنهم، وأنّ إغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان؛ بل بطريق اتّباعهم له بسوء اختيارهم.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣﴾

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ أي: موعدُ المتّبِعين أو الغاوين، والأوّلُ أنسَب وأدخَل في الزجر عن اتّباعه، وفيه دلالةٌ على أنّ جهنّم مكان الوعد وأنّ الموعود ممّا لا يُوصَف في الفظاعة. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير أو حال، والعاملُ فيها الوعد إن جُعل مصدرًا على تقدير المضاف، أو معنى الإضافة إن جُعل اسم مكان.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ يدخُلونها لكثرتهم، أو سبعُ طبقات ينزِلونها بحسب مراتبهم في الغَواية والمُتابعة، وهي: جهنّم، ثمّ لظى، ثمّ الحُطَمة، ثمّ السعير، ثمّ سَقَر، ثمّ الجحيم، ثمّ الهاوية.

﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ مِن الأتباع أو الغُواة ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ حزب مُعيَّن مُفرَز مِن غيره حسبما يقتضيه استعداده: / فأعلاها للموحِّدين، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ جهنّم لمَن ادّعى الربوبيّة، [٢٩٧و]

---

[١] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠١.

ولظى لعبَدة النار، والحُطَمة لعبدة الأصنام، وسَقَر لليهود، والسعير للنصارى، والجحيم للصابئين، والهاوية للموحِّدين».[١]

ولعلّ حصْرَها في السبع لانحصار المهلِكات في المحسوسات بالحواسّ الخمس ومقتضياتِ القوّة الشهويّة والغضبيّة. وقُرئ بضمّ الزاي،[٢] وبحذف الهمزة وإلقاءِ حركتها إلى ما قبلها مع تشديدها في الوقف والوصل.[٣] و﴿مِنْهُمْ﴾ حال مِن ﴿جُزْءٌ﴾ أو مِن ضميره في الظرف لا في ﴿مَقْسُومٌ﴾، لأنّ الصفة لا تعمل فيما تقدّم موصوفَها.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مِن اتّباعه في الكفر والفواحش فإنّ غيرهما مُكفَّرة. ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: مستقرّون فيها خالدين، لكلّ واحد منهم جنّة وعين، أو لكلّ منهم عدةٌ منهما، كقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن، ٤٦/٥٥]. وقُرئ بكسر العين[٤] حيث وقع في القرآن العظيم.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ على إرادة القول أمرًا مِن الله تعالى لهم بالدخول. وقُرئ: "أَدْخِلُوهَا"[٥] أمرًا منه تعالى للملائكة بإدخالهم، وقرأ الحسن: "أُدْخِلُوهَا"[٦] مبنيًّا للمفعول على صيغة الماضي مِن الإدخال. ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ ملتبِسين بسلام، أي: سالمين أو مسلَّمًا عليكم، ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن الآفات والزوال.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: حقدٍ كان في الدنيا، وعن عليّ رضي الله عنه:

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٢٥/٢. وقريب منه عن الضحّاك في معالم التنزيل للبغوي، ٣٨٢/٤-٣٨٣. ولم أجده في مظانّه.

٢ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢١٥/٢.

٣ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٤٠٦/١.

٤ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وابن ذكوان وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢٢٦/٢.

٥ قرأ بها يعقوب. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٦١/٧؛ واللباب لابن عادل، ٤٦٣/١١.

٦ قرأ بها رويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠١/١. ونسبها الزمخشري إلى الحسن في الكشّاف، ٤٢٥/٢.

«أرجو أن أكون أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبير منهم».[١] رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ﴿إِخْوَٰنًا﴾ حال مِن الضمير في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾،[٢] / أو مِن فاعل ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾،[٣] أو مِن الضمير في ﴿ءَامِنِينَ﴾،[٤] أو الضمير المضاف إليه، والعامل فيها معنى الإضافة، وكذلك قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾. ويجوز كونهما صفتين لـ﴿إِخْوَٰنًا﴾ أو حالين مِن ضميره، لأنّه بمعنى متصافِين، وكونُ الثاني حالًا مِن المستكنّ في الأوّل. وعن مجاهد: تدور بهم الأسرّة حيثما داروا فهم متقابلون في جميع أحوالهم. [٢٩٧ظ]

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب بألّا يكونَ لهم فيها ما يُوجِبه مِن الكدّ في تحصيل ما لا بُدّ لهم منه، لحصول كلّ ما يريدونه مِن غير مزاولة عمل أصلًا، أو بألّا يعتريَهم ذلك وإن باشروا الحركاتِ العنيفة لكمال قوتِهم، وهو استئناف أو حال بعد حال أو حال مِن الضمير في ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾.

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أبدَ الآباد لأنّ تمام النعمة بالخلود.

﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ وهم الذين عُبِّر عنهم بالمتّقين ﴿أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ فذلكة لِما سلَف مِن الوعد والوعيد وتقريرٌ له، وفي ذِكر المغفرة إشعارٌ بأن ليس المراد بالمتّقين مَن يتّقي جميع الذنوب كبيرَها وصغيرَها. وفي وَصْف ذاته تعالى بها وبالرحمة على وجه القَصْر دون التعذيب إيذانٌ بأنّهما ممّا تقتضيهما الذات وأنّ العذاب إنّما يتحقّق بما يُوجِبه مِن خارج.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾،[٥] والمقصود اعتبارُهم بما جرى

---

[١] بمعناه في جامع البيان للطبري، ١٤/٧٦-٧٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٥.
[٢] الحجر، ١٥/٤٥.
[٣] في الآية السابقة.
[٤] في الآية السابقة.
[٥] الحجر، ١٥/٤٩.

على إبراهيمَ عليه السلام مِن البشرى في تضاعيف الخوف، وبما حلّ بقوم لوط مِن العذاب ونجاته عليه السلام مع أهله التابعين له في ضمن الخوف، وتنبُّههم لحلول انتقامه تعالى مِن المجرمين، وعِلمُهم بأنّ عذاب الله هو العذاب الأليم.

﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عن ابن عبّاس: أنّهم جبريلُ عليه السلام وملكانِ معه،[1] وقال محمّد بن كعب: وسبعةٌ معه عليه السلام. وقيل: جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ عليهم السلام. / وقال الضحّاك: كانوا تسعةً، وعن السُّدّي: كانوا أحدَ عشرَ على صور الغلمان الوِضاءِ وجوهُهم، وعن مقاتل: أنّهم كانوا اثني عشَرَ ملَكًا عليهم السلام.[2] وإنّما لم يتعرّض لعنوان رسالتهم لأنّهم لم يكونوا مرسَلين إلى إبراهيمَ عليه السلام؛ بل إلى قوم لوط حسبما يأتي ذِكره. [٢٩٨و]

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ نصب بفعل مضمَر معطوف على ﴿نَبِّئْ﴾، أي: واذكر وقت دخولهم عليه، أو خبرٌ مُقدَّر مضاف إلى ﴿ضَيْفِ﴾،[3] أي: خبر ضيف إبراهيمَ حين دخولهم عليه، أو بنفس ﴿ضَيْفِ﴾[4] على أنّه مصدر في الأصل. ﴿فَقَالُواْ﴾ عند ذلك ﴿سَلَٰمًا﴾ أي: نُسلِّم سلامًا أو سلَّمنا أو سَلِمتَ سلامًا.

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون، فإنّ الوجَل: اضطراب النفس لتوقّع مكروه. قاله عليه السلام حين امتنعوا مِن أكل ما قرَّبه إليهم مِن العجل الحنيذ، لِما أنّ المعتاد عندهم إذا نزَل بهم ضيف فلم يأكُل مِن طعامهم ظنُّوا أنّه لم يجئ بخير، لا عند ابتداء دخولهم، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود، ٧٠/١١]، فلا مجالَ لكون خوفه عليه السلام بسبب دخولِهم بغير إذن ولا بغير وقت، إذ لو كان كذلك

---

[1] عن ابن عبّاس في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٢ (هود، ٦٩/١١)، وبلا نسبة في جامع البيان للطبري، ٤٦٥/١٢ (هود، ٦٩/١١).

[2] هذه الأقوال الخمسة في معالم التنزيل للبغوي، ١٨٧/٤ (هود، ٦٩/١١)؛ وبعضها في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٢ (هود، ٦٩/١١)؛ وجامع البيان للطبري، ٤٦٥/١٢ (هود، ٦٩/١١).

[3] في الآية السابقة.

[4] في الآية السابقة.

لأجابوا حينئذ بما أجابوا به، ولم يتصدَّ عليه السلام لتقريب الطعام إليهم، وإنّما لم يُذكَر ههنا اكتفاءً بما بُيِّن في غير هذا الموضع، ألا يُرى إلى أنّه لم يُذكر ههنا ردُّه عليه السلام لسلامهم.

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف، وقُرئ: "لَا تَأْجَلْ"،[١] و"لَا تُوْجَلْ"[٢] مِن أَوجَله، أي: أخافَه، و"لا تُواجَلْ"[٣] مِن واجله بمعنى أَوجَله. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف لتعليل النهي عن الوجَل، فإنّ المُبشَّر به لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حُزن، كيف لا، وهو بِشارة ببقائه وبقاء أهله في عافية وسلامة زمانًا طويلًا.

﴿بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحاقُ عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود، ٧١/١١]، ولم يتعرَّض ههنا لبِشارة يعقوبَ عليه السلام / اكتفاءً بما ذُكِر في سورة هود. [٢٩٨ظ] ﴿عَلِيمٍ﴾ إذا بلغ، وفي موضع ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات، ١٠١/٣٧].

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بذلك ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ وأثَّر فيَّ، تعجَّب عليه السلام مِن بِشارتهم بالولد في حالة مُباينة للولادة، وزاد في ذلك فقال: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي: بأيِّ أعجوبة تبشِّرونني أو بأيِّ شيء تُبشِّرونني، فإنّ البِشارة بما لا يُتصوَّر وقوعه عادة بِشارة بغير شيء، أو بأيِّ طريقة تُبشِّرونني. وقُرئ بتشديد النون المكسورة[٤] على إدغام نون الجمع في نون الوقاية.

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بما يكون لا محالةَ، أو باليقين الذي لا لَبسَ فيه، أو بطريقة هي حقّ وهو أمرُ الله تعالى.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ النحوي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٥.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٥.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أصحاب ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٥.

[٤] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٠٢/٢.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ مِن الآيسين مِن ذلك، فإنّ الله تعالى قادر على أن يخلُق بشرًا بغير أبوين، فكيف مِن شيخ فانٍ وعجوز عاقر، وقُرئ: "مِنَ القَنِطِينَ".[١] وكان مقصِده عليه السلام استعظامَ نعمته تعالى عليه في ضمن التعجّب العادي المبنيّ على سُنّة الله تعالى المَسلوكة فيما بين عباده، لا استبعادَ ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه، كما ينبئ عنه قولُ الملائكة: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾، دون أن يقولوا: مِن المُمتَرين أو نحوه.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ﴾ استفهام إنكاري، أي: لا يقنَط ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[٢] المخطِئون طريقَ المعرفة والصواب، فلا يعرِفون سَعةَ رحمته وكمالَ عِلمه وقدرته، كما قال يعقوبُ عليه السلام: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف، ٨٧/١٢]، ومرادُه نفي القُنوط عن نفسه على أبلغ وجه، أي ليس بي قنوط مِن رحمته تعالى، وإنّما الذي أقول لبيان منافاة حالي لفيضان تلك النعمة الجليلة عليّ. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة والرحمة / ما لا يخفى مِن الجزالة. [٢٩٩و] وقُرئ بضمّ النون،[٣] وبكسرها[٤] مِن "قنَط" بالفتح. ولم يكن هذه المفاوضة مِن الملائكة مع إبراهيمَ عليه السلام خاصّة؛ بل مع سارَةَ أيضًا حسبما شُرح في سورة هود،[٥] ولم يُذكر ذلك ههنا اكتفاءً بما ذُكِر هناك، كما أنّه لم تُذكَر هذه هناك اكتفاء بما ذُكر ههنا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى والأعمش، والجعفيُّ عن أبي عمرو، وطلحة بن مصرف وابن أبي عبلة، وابن الصبّاح عن حمزة، والصوفي والعنبري والكفَرتوثي والبصريُّ كلُّهم عن أبي عمرو. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٧٥؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٦٦؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٠٩٢.

[٢] س + أي.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر والأشهب العقيلي وأبي عمرو وعيسى بن عُمر والأعمش وأبي البَرَهسم، والعنبري عن أبي بكر، وأبي طاهر عن أبي الحارث عن الكسائي، وطَلحة والزعفراني وزيد بن علي. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٧٥؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٦٦؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٠٩٢.

[٤] قرأ بها الكسائي وأبو عمرو ويعقوب وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٣٠٢/٢.

[٥] في الآية التاسعة والستّين منها.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝﴾

﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيمُ، وتوسيطُه بين قوله السابق وبين قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: أمرُكم وشأنكم الخطيرُ الذي لأجله أُرسلتم سوى البِشارة ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ صريحٌ[1] في أنّ بينهما مقالة مطويّة لهم أشيرَ به إلى مكانها، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ الآية، [الإسراء، ٦١/١٧-٦٢]، فإنّ قوله الأخير ليس موصولًا بقوله الأوّل، بل هو مبنيٌّ على قوله تعالى: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾،[2] فإنّ توسيط ﴿قَالَ﴾ بين قوليه للإيذان بعدم اتّصال الثاني بالأوّل وعدم ابتنائه عليه؛ بل على غيره.

ثمّ خطابُه لهم عليهم السلام بعنوان الرسالة بعد ما كان خطابه السابق مجرّدًا عن ذلك مع تصديره بـ"الفاء" دليلٌ على أنّ مقالتهم المطويّة كانت متضمِّنةً لبيان أنّ مجيئهم ليس لمجرّد البِشارة؛ بل لهم شأنٌ آخَرُ لأجله أُرسلوا فكأنّه قال عليه السلام: إن لم يكن شأنكم مجرّد البِشارة فماذا هو؟ فلا حاجةَ إلى الالتجاء إلى أنّ عِلمه عليه السلام بأنّ كلّ المقصود ليس البِشارة بسبب أنّهم كانوا ذوي عدد، والبِشارةُ لا تحتاج إلى عدد، ولذلك اكتُفيَ بالواحد في زكريا عليه السلام ومريمَ، ولا إلى أنّهم بشّروه[3] في تضاعيف الحالِ / لإزالة الوجَل، ولو كانت تمامَ المقصود لابتدءوا بها. فتأمّل. [٢٩٩ظ]

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا امْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَٰبِرِينَ ۝﴾

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ هم قوم لوط، لكن وُصِفوا بالإجرام، وجيء بهم بطريق التنكير ذمًّا لهم واستهانة بهم.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ استثناء متّصل مِن الضمير في ﴿مُّجْرِمِينَ﴾،[4] أي: إلى قوم أَجرموا جميعًا إلّا آلَ لوط، فـ"القوم" و"الإرسال" شاملان للمجرمين وغيرهم،

[1] السياق: وتوسيطه... صريح...
[2] الحجر، ٣٤/١٥.
[3] لسياق: فلا حاجةَ إلى الالتجاء... ولا إلى أنّهم...
[4] في الآية السابقة.

والمعنى: إنّا أُرسِلنا إلى قوم أجرَم كلُّهم إلّا آلَ لوط، لنُهلِك الأوّلين ونُنجّيَ الآخِرين، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ أي: لوطًا وآله ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي: ممّا يُصيب القوم، فإنّه استئناف للإخبار بنجاتهم لعدم إجرامهم، أو لبيان ما فُهم مِن الاستثناء مِن مطلَق عدم شمول العذاب لهم، فإنّ ذلك قد يكون بكون حالهم بينَ بينَ، أو لتعليله، فإنّ مَن تعلّق بهم التنجيةُ بِمَنجى مِن شمول العذاب.

أو منقطِعٌ[1] مِن ﴿قَوْمٍ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ متصلٌ بـ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ جارٍ مَجرى خبر "لكنّ"، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناء مِن ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ أو مِن ضميرهم، وعلى الأوّل مِن الضمير خاصّة لاختلاف الحُكمين، اللّهمّ إلّا أن يُجعَل ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ اعتراضًا. وقُرئ بالتخفيف.[3]

﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين مع الكفَرة لتُهلَك معهم، وقُرئ: "قَدَرْنا"[4] بالتخفيف، وإنّما عُلِّق فعل التقدير مع اختصاص ذلك بأفعال القلوب لتضمُّنه معنى العِلم، ويجوز حمله على معنى "قلنا" لأنّه بمعنى: القضاء قول، وأصلُه جَعْل الشيء على مِقدار غيره، / وإسنادُهم له إلى أنفسهم وهو فعل الله سبحانه لِما لهم مِن الزُّلفى والاختصاص. [٣٠٠و]

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ شروع في بيان كيفيّة إهلاك المجرمين وتنجية آل لوط حسبما أُجمِل في الاستثناء[5] ثمّ فُصِّل في التعليل[6] نوعَ تفصيل. ووضعُ المظهرِ موضعَ المضمر للإيذان بأنّ مجيئهم لتحقيق ما أُرسلوا به مِن الإهلاك والتنجية، وليس المراد به ابتداءَ مجيئهم؛ بل مطلقُ كينونتهم عند آل لوط، فإنّ ما حُكيَ عنه عليه السلام بقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾

---

١ السياق: استثناء متّصل... أو منقطع...
٢ في الآية السابقة.
٣ قرأ بها حمزة والكسائي ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٥٨/٢.
٤ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٠٢/٢.
٥ وفي هامش م: بقوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾. «منه».
٦ وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الآية.

إنّما قاله عليه السلام[١] بعد اللُّتيا والتي[٢] حين ضاقت عليه الحِيَل وعيَّت به العِللُ، لِما لم يشاهِد مِن المرسَلين عند مُقاساته الشدائدَ ومُعاناته المكائدَ مِن قومه الذين يريذُون بهم ما يُريدون ما هو المعهودُ والمعتاد مِن الإعانة والإمداد فيما يأتي ويذَر عند تجشّمه في تخليصهم إنكارًا لخذلانهم له وتركِ نصرته في مثل تلك المضايقة المعترية له بسببهم، حيث لم يكونوا مباشِرين معه لأسباب المدافَعة والممانَعة حتّى ألجأته إلى أن قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود، ١١/٨٠]، حسبما فُصِّل في سورة هود.

لا أنّه قاله عند ابتداء ورودهم له خوفًا أن يطرُقوه بشَرّ كما قيل، كيف لا، وهم بجوابهم المَحكي بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: بالعذاب الذي كنتَ تتوعّدهم به فيمترون فيه ويُكذِّبونك، قد قشَروا العصا وبيَّنوا له عليه السلام / جليّةَ الأمر، فأنّى يمكن أن يعتريَه بعد ذلك المَساءةُ وضيق الذَّرْع؟ [٣٠٠ظ]

وليست كلمةُ ﴿بَلْ﴾ إضرابًا عن مُوجَب الخوف المذكور على معنى: ما جئناك بما تُنكِرنا لأجله؛ بل بما يسُرّك وتقَرّ به عينُك؛ بل هي إضراب عمّا فهمه عليه السلام مِن تَرْك النُّصرة له، والمعنى: ما خذلناك وما خلَّينا بينك وبينهم؛ بل جئناك بما يدمّرهم مِن العذاب الذي كانوا يُكذِّبونك حين كنتَ تتوعَّدهم به.

ولعلّ تقديمَ هذه المقاولة على ما جرى بينه وبين أهل المدينة مِن المجادلة للمسارعة إلى ذِكر بِشارة لوطٍ عليه السلام بإهلاك قومه وتنجية آله عَقيبَ ذِكر بِشارة إبراهيمَ بهما، وحيث كان ذلك مستدعيًا لبيان كيفيّة النجاة وترتيبِ مباديها أشيرَ إلى ذلك إجمالًا، ثمّ ذُكر ما فَعل القوم وما فُعل بهم ولم يُبالَ بتغيير الترتيب الوقوعي ثقةً بمراعاته في مواقعَ أُخَرَ.

ونسبة المجيء بالعذاب إليه عليه السلام مع أنّه نازل بالقوم بطريق تفويض أمره إليه لا بطريق نزوله عليه، كأنّهم جاءوه به وفوّضوا أمره إليه، ليُرسله عليهم حسبما كان يتوعَّدهم به.

---

[١] م - عليه السلام.

[٢] اللُّتيا والَّتِي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. **مجمع الأمثال** للميداني، ١/١٦٤.

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ٦٥﴾

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: باليقين الذي لا مجالَ فيه للامتراء والشكّ وهو عذابهم، عُبِّر عنه بذلك تنصيصًا على نفي الامتراء عنه، أو المرادُ بـ﴿ٱلْحَقِّ﴾ الإخبارُ بمجيءِ العذاب المذكور. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ تأكيد له، أي: آتيناك فيما قلنا بالخبر الحقّ، أي: المطابق للواقع، وإنّا لصادقون في ذلك الخبر أو في كلّ كلام، فيكون كالدليل على صدقهم فيه، وعلى الأوّل تأكيدٌ إثرَ تأكيد.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ شروع[1] في ترتيب مبادي النجاة، أي: اذهب بهم في الليل، وقُرئ بالوصل،[2] وكلاهما مِن "السُّرى" وهو: السير في الليل. وقُرئ: "فَسِرْ"[3] مِن "السَّير". ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بطائفة منه، أو مِن آخره، قال:

افتحي البابَ وانظُري في النجومِ كم علينا مِن قِطْعِ ليلٍ بهيمِ[4]

وقيل: هو بعد ما مضى منه شيءٌ صالح.[5]

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ وكن على أثرهم تذُودهم وتُسرع بهم وتطّلع على أحوالهم. ولعلّ إيثارَ الاتّباع على السَّوق مع أنّه المقصود بالأمر المبالغةُ في ذلك، إذ السَّوق ربّما يكون بالتقدّم / على بعض مع التأخّر عن بعض ويلزمه عادة الغفلة عن حال المتأخِّر والالتفاتُ[6] المنهيّ عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ﴾ أي: منك ومنهم ﴿أَحَدٌ﴾ فيرى ما وراءه مِن الهَول فلا يُطيقَه أو يُصيبَه ما أصابهم، أو ولا ينصرفْ منكم أحد ولا يتخلفْ لغرض فيُصيبَه العذاب. [٣٠١و]

وقيل: نُهوا عن ذلك ليوطِّنوا أنفسهم على المهاجرة، أو هو نهي عن ربط القلب بما خلّفوه، أو هو للإسراع في السير فإنّ الملتفِت قلّما يخلو عن أدنى وَقْفَة.[7]

---

١ م: شروعي. | وهو سهو.
٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٠.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٦.
٤ مضى بتخريجه في تفسير الآية السابعة والعشرين من سورة يونس.
٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٨.
٦ وفي هامش م: عطفٌ على "الغفلة". «منه».
٧ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٨.

وعدمُ ذِكر استثناء المرأة عن الإسراء أو الالتفات لا يستدعي عدم وقوعه، فإنّ ذلك كما عرفتَ مرارًا للاكتفاء بما ذُكر في مواضعَ أُخَرَ.

﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ إلى حيث أمركم الله تعالى بالمُضيّ إليه وهو الشام أو مصر. وحذفُ الصلتين على الاتّساع المشهور، وإيثارُ المُضيّ إلى ما ذُكر على الوصول إليه واللُّحوق به للإيذان بأهميّة النجاة ولمراعاة المناسبة بينه وبين ما سلف مِن الغابرين.

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ۝٦٦﴾

﴿وَقَضَيۡنَآ﴾ أي: أوحينا ﴿إِلَيۡهِ﴾ مَقضيًّا، ولذلك عُدِّيَ بـ"إلى". ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾ مُبهَمٌ، يُفسِّره ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ﴾ على أنّه بدل منه. وإيثار اسم الإشارة على الضمير للدلالة على اتّصافهم بصفاتهم القبيحة التي هي مدار ثبوت الحُكم، أي: دابرَ هؤلاء المجرمين. وإيراد صيغة المفعول بدلَ صيغة المضارع لكونها أدخَل في الدلالة على الوقوع.

وفي لفظ "القضاء" والتعبير عن العذاب بـ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ والإشارة إليه بذلك وتأخيره عن الجارّ والمجرور وإبهامِه أوّلًا ثمّ تفسيره ثانيًا مِن الدلالة على فخامة الأمر وفظاعته ما لا يخفى. وقُرئ بالكسر على الاستئناف، والمعنى: أنّهم يُستأصَلون عن آخرهم حتّى لا يبقى منهم أحد.

﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ داخلين في الصُّبح، وهو حال مِن هؤلاء أو مِن الضمير في ﴿مَقۡطُوعٞ﴾، وجمَعه للحمل على المعنى، فإنّ ﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بمعنى: مُدبري هؤلاء.

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٦٧﴾

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ شروع في حكاية ما صدَر عن القوم عند وقوفهم على مكان الأضياف مِن الفعل والقول، وما ترتّب عليه بعدما أُشيرَ إلى ذلك إجمالًا حسبما نُبّه عليه، أي: جاء أهل سذومَ منزلَ لوطٍ عليه السلام ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ أي: مستبشِرين بأضيافه عليه السلام طمعًا فيهم.

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١﴾

[٣٠١ظ] / ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي﴾ الضيف حيث كان مصدرًا في الأصل أطلقَ على الواحد والمتعدِّد والمذكّر والمؤنّث، وإطلاقُه على الملائكة بحسب اعتقاده عليه السلام لكونهم في زِيّ الضيف. والتأكيد ليس لإنكارهم بذلك؛ بل لتحقيق اتّصالهم به وإظهار اعتنائه بشأنهم وتشمُّره لمراعاة حقوقهم وحمايتهم عن السوء، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ أي: عندهم بأن تتعرَّضوا لهم بسوء فيعلموا أنّه ليس لي عندكم قدر وحُرمة، أو لا تفضحونِ بفضيحة ضيفي فإنّ مَن أسيءَ إلى ضيفه فقد أسيءَ إليه، يقال: فضحَه فَضْحًا وفضيحةً إذا أظهَر مِن أمره ما يلزمه العار.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مباشرتكم لِما يسوءني، ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي: لا تُذِلّوني ولا تُهِينوني بالتعرّض لمَن أجَرْتُهم بمثل تلك الفَعْلة الخبيثة. وحيث كان التعرّض لهم بعد أن نهاهم عليه السلام عن ذلك بقوله: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾[١] أكثرَ تأثيرًا في جانبه عليه السلام وأجلبَ للعار إليه، إذ التعرّض للجارّ قبل شعور المُجير بذلك ربّما يُتسامَح فيه، وأمّا بعد الشعورِ به والمُناصَبةِ لحمايته والذبِّ عنه فذاك أعظم العار، عبَّر عليه السلام[٢] عمّا يعتريه مِن جهتهم بعد النهي المذكور بسبب لَجاجهم ومُجاهرتهم بمخالفته بالخِزي وأمرَهم بتقوى الله في ذلك، وإنّما لم يصرِّح بالنهي عن نفس تلك الفاحشة لأنّه كان يعرِف أنّه لا يفيدهم ذلك.

وقيل: المراد تقوى الله تعالى في ركوب الفاحشة.[٣] ولا يساعده توسيطُه بين النهيَين عن أمرين متعلِّقين بنفسه عليه السلام، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عن التعرّض لهم بمنعهم عنّا وضيافتهم. و"الهمزة" للإنكار و"الواو" للعطف على مقدَّر، أي: ألم نتقدَّم إليك ولم ننْهَك عن ذلك، فإنّهم كانوا يتعرَّضون / لكلّ أحد مِن الغرباء بالسوء، وكان عليه السلام [٣٠٢و]

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] السياق: وحيث كان... عبَّر عليه السلام...

[٣] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٤٦.

ينهاهم عن ذلك بقدر وُسعِه، وكانوا قد نهَوْه عليه السلام عن أن يُجير أحدًا، فكأنّهم قالوا: ما ذكرتَ مِن الفضيحة والخِزي إنّما جاءك مِن قِبَلك لا مِن قِبَلنا إذ لولا تعرُّضك لِما نتصدَّى له لَما اعتراك تلك الحالة.

ولمّا رآهم لا يُقلِعون عمّا هم عليه ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ يعني: نساءَ القوم، فإنّ نبيّ كلّ أمّة بمنزلة أبيهم أو بناته حقيقةً، أي: فتزوّجوهنّ، وقد كانوا مِن قبلُ يطلبُونهنّ ولا يُجيبهم لخُبثهم وعدم كفاءتهم، لا لعدم مشروعيّة المُناكحة بين المسلمات والكفّار. وقد فُصِّل ذلك في سورة هود.[١]

﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ أي: قضاءَ الوطر، أو ما أقول لكم.

﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾

﴿لَعَمۡرُكَ﴾ قسَم مِن الله تعالى بحياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أو مِن الملائكة بحياة لوطٍ عليهم السلام، والتقدير: لعَمرُك قسَمي، وهي لغة في "العُمر" يختصّ به القَسَم إيثارًا للخِفّة لكثرة دوَرانه على الألسنة.

﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ غَوَايتهم أو شدّة غِلْمتهم التي أزالت عقولَهم وتمييزَهم بين الخطأ والصواب ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يتحيَّرون ويتمادَون فكيف يسمعون النصح؟ وقيل: الضمير لقريش والجملةُ اعتراض.[٢]

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ أي: الصيحة العظيمة الهائلة. وقيل: صيحة جبريلَ عليه السلام.[٣] ﴿مُشۡرِقِينَ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس.

﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾

﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا﴾ عاليَ المدينة أو عاليَ قُراهم، وهو المفعول الأوّل لـ﴿جَعَلۡنَا﴾.

---

١ في الكلام على تفسير الآية الثامنة والسبعين منها.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٤٦.

٣ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٩.

وقوله تعالى: ﴿سَافِلَهَا﴾ مفعول ثانٍ له، وهو أدخَل في الهَول والفظاعة مِن العكس كما مرّ.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلاب ﴿حِجَارَةً﴾ كائنة ﴿مِن سِجِّيلٍ﴾ مِن طين متحجِّر، أو طينٍ عليه كتاب، وقد فُصِّل ذلك في سورة هود.[١]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر / مِن القصّة ﴿لَآيَاتٍ﴾ لَعلاماتٍ يُستدلّ بها على حقيقة الحقّ ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: المتفكِّرين المتفرِّسين الذين يتثبَّتون في نظرهم حتّى يعرِفوا حقيقة الشيء بسِمَته. [٣٠٢ظ]

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: المدينة أو القُرى ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: طريق ثابت يسلُكه الناس ويرَون آثارها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذُكر مِن المدينة أو القُرى، أو في كونها بمَرأى مِن الناس يشاهدونها في ذهابهم وإيابهم ﴿لَآيَةً﴾ عظيمةً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله، فإنّهم الذين يعرِفون أنّ ما حاق بهم مِن العذاب الذي ترك ديارَهم بلاقعَ[٢] إنّما حاق بهم لسوء صنيعهم، وأمّا غيرُهم فيحمِلون ذلك على الاتّفاق أو الأوضاع الفلَكيّة. وإفراد "الآية" بعد جَمْعها فيما سبق لِما أنّ المشاهد ههنا بقيّةُ الآثار لا كلُّ القصّة كما فيما سلف.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَإِن كَانَ﴾ ﴿إِن﴾ مخففة مِن "إنّ"، وضميرُ الشأن الذي هو اسمها محذوف، و"اللام" هي الفارقة، أي: وإنّ الشأن كان ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام، والأيكة واللَّيْكة: الشجرة الملتفّة المتكاثفة، وكانت عامّة شجرهم المُقْل وكانوا يسكنونها، فبعثه الله تعالى إليهم. ﴿لَظَالِمِينَ﴾ متجاوزين مِن الحدّ.

---

[١] في الكلام على تفسير الآية الثانية والثمانين منها.

[٢] البلاقع جمع بَلْقَع: وهو الخالي. انظر: لسان العرب لابن منظور، «بلقع».

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩﴾

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالعذاب. رُوي أنّ الله تعالى سلّط عليهم الحَرّ سبعة أيّام، ثمّ بعث سحابة فالتجئوا إليها يلتمسون الرَّوْح،[١] فبعث الله تعالى عليهم منها نارًا فأحرقتهم، فهو عذابُ يوم الظُّلَّة. ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني سذوم والأيكة. وقيل: الأيكة ومَديَنَ، فإنّه عليه السلام كان مبعوثًا / إليهما، فذِكرُ أحدهما مُنبِّه على الآخر.[٢] [٣٠٣و]

﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ لبطريق واضح. والإمام: اسم ما يؤتمّ به سُمِّيَ به الطريق ومَطمَر البنّاء[٣] واللوح الذي يُكتَب فيه لأنّها ممّا يؤتمّ به.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠﴾

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ يعني ثمود ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: صالحًا، فإنّ مَن كذّب واحدًا مِن الأنبياء فقد كذّب الجميع لاتّفاقهم على التوحيد والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار. وقيل: المراد صالحٌ ومَن معه مِن المؤمنين، كما قيل: الخُبَيْبُون لخُبيب بن عبدِ الله بن الزُّبير[٤] وأصحابه.[٥] والحِجْر: وادٍ بين المدينة والشام كانوا يسكنونه.[٦]

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١﴾

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ وهي الآياتُ المنزلة على نبيّهم، أو المعجزاتُ مِن الناقةِ وسَقْيها وشِرْبها ودرّها، أو الأدلّةُ المنصوبة لهم. ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ إعراضًا كليًّا، بل كانوا معارِضين لها حيث فعلوا بالناقة ما فعلوا.

---

١ الرَّوْح: نسيم الرِّيح. انظر: لسان العرب لابن منظور، «روح».

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٠/٢.

٣ المِطمَر: الخيط الذي يُقوّم عليه البناء. انظر: لسان العرب لابن منظور، «طمر».

٤ هو خبيب بن عبد الله بن الزبير بن العوّام الأسدي (ت. ٩٢هـ/٧١٠م). كان عالمًا، روى عن أبيه وعن عائشة رضي الله عنها. ذكروا أنّه كان يعلم علمًا كثيرًا لا يعرفون وجهه ولا مذهبه فيه، يشبه ما يدّعي الناس مِن علم النجوم. كتب الوليد بن عبد الملك إلى عامله في المدينة عمر بن عبد العزيز أن يضربه خمسين سوطًا ففعل وصبّ على رأسه قربة في يوم بارد، وأوقفه على باب المسجد يومًا فمات، فندم عمر على ذلك وسقط في يديه واستعفى مِن المدينة. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، ١٠٨٩/٢.

٥ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٠/٢.

٦ انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٢٠/٢.

﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣﴾

﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ مِن الانهدام ونقب اللصوص وتخريبِ الأعداء لوثاقتها، أو مِن العذاب لحُسبانهم أنّ ذلك يحميهم منه. عن جابر رضي الله عنه أنّه قال: «مررنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الحِجْر فقال: "لا تدخُلوا مساكنَ الذين ظلموا أنفسهم إلّا أن تكونوا باكين حذرًا أن يصيبَكم مثلُ ما أصاب هؤلاء"، ثمّ زجَر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم راحلته فأسرع حتّى خلّفها».[١]

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ وهكذا وقع في سورة هود. قيل: صاح بهم جبريلُ عليه السلام. وقيل: أتتهم مِن السماء صيحة فيها صوتُ كلّ صاعقة وصوتُ كلّ شيء في الأرض، فتقطّعت قلوبهم في صدورهم. وفي سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف، ٧/٧٨] أي: الزلزلة، ولعلّها مِن روادف الصيحة المستتبِعة لتموّج الهواء تموّجًا شديدًا يُفضي إليها كما مرّ في سورة هود.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ ولم يدفع عنهم ما نزل بهم ﴿مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ مِن بناء البيوت الوثيقة والأموال الوافرة والعُدد المتكاثرة، وفيه تهكّمٌ بهم، و"الفاء" لترتيب عدم الإغناء الخاصّ بوقت نزول العذاب / حسبما كانوا يرجونه لا عدمِ الإغناء المطلَق فإنّه أمر مستمرّ. [٣٠٣ظ]

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلّا خلقًا ملتبِسًا بالحقّ والحكمة والمصلحة بحيث لا يلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور،

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٤٩/٤ (٣٣٨١)؛ وصحيح مسلم، ٢٢٨٦/٤ (٢٩٨٠)؛ وجامع البيان للطبري، ١٠٣/١٤-١٠٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٣٠/٢.

ولذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء دفعًا لفسادهم وإرشادًا لمَن بقيَ إلى الصلاح، أو إلّا بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ فينتقم الله تعالى لك فيها ممّن كذّبك، ﴿فَٱصۡفَحِ﴾ أي: أعرِض عنهم ﴿ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ إعراضًا جميلًا وتحمَّلْ أذِيَّتهم ولا تعجَلْ بالانتقام منهم، وعامِلْهم معاملة الصفوح الحليم. وقيل: هي منسوخة بآية السيف.[١]

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي يُبلِّغك إلى غاية الكمال ﴿هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ﴾ لك ولهم ولسائر الموجودات على الإطلاق، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بأحوالك وأحوالِهم بتفاصيلها، فلا يخفى عليه شيء ممّا جرى بينك وبينهم، فهو حقيق بأن تكِل جميع الأمور إليه ليحكُم بينكم، أو هو الذي خلقكم وعلِم تفاصيل أحوالكم وقد علِم أنّ الصفح اليوم أصلحُ إلى أن يكون السيف أصلح، فهو تعليل للأمر بالصفح على التقديرين، وفي مصحف عثمانَ وأُبيّ رضي الله عنهما: "هُوَ الخَالِقُ"[٢] وهو صالح للقليل والكثير، و﴿ٱلۡخَلَّٰقُ﴾ مختصّ بالكثير.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

[٣٠٤و] ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا﴾ / سبع آيات[٣] وهي "الفاتحة"، وعليه عمرُ وعليّ وابنُ مسعود وأبو هريرة رضي الله عنهم، والحسنُ وأبو العالية ومجاهد والضحّاك وسعيد بن جُبير وقَتادة رحمهم الله تعالى.[٤] وقيل: سبعُ سور وهي الطوال التي سابعتها "الأنفال" و"التوبة" فإنّهما في حُكم سورة واحدة،

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٠/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن مالك بن دينار وسليم التيمي والجَحدري والمُعلّى وزائدة عن الأعمش، وهي كذلك في مصحف أُبيّ وعثمان. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٩٢.

[٣] وفي هامش م: وتنكير ﴿سَبۡعٗا﴾ للتفخيم، وفي الإبهام والتفسير ما لا يخفى من التمكين والتقرير.

[٤] انظر: جامع البيان للطبري، ١١٣/١٤-١١٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٣١/٢.

ولذلك لـم يُفصَل بينهما بالتسمية.[١] وقيل: "يونسُ" أو الحواميم السبع. وقيل: الصحائف السبع وهي الأسباع.[٢]

﴿مِنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ بيان للسبع مِن التثنية وهي التكرير: فإن كان المراد "الفاتحة" وهو الظاهر، فتسميتها مثانيَ لتكرّر قراءتها في الصلاة، وأمّا تكرّر قراءتها في غير الصلاة كما قيل فليس بحيث يكون مدارًا للتسمية، ولأنّها تُثنى بما يقرأ بعدها في الصلاة، وأمّا تكرّر نزولها فلا يكون وجهًا للتسمية لأنّها كانت مسمّاة بهذا الاسم قبل نزولها الثاني، إذ السورة مكيّة بالاتّفاق؛ وإن كان المراد غيرها مِن السوَر[٣] فوجه كونها مِن المثاني أنّ كلًّا مِن ذلك يُكرَّر قراءته وألفاظه أو قصصه ومواعظه، أو مِن الثناء لاشتماله على ما هو ثناء على الله تعالى، واحدتها "مَثْناة" أو "مَثْنية" صفة للآية.

وأمّا الصحائف[٤] وهي[٥] الأسباع فلِما وقَع فيها مِن تكرير[٦] القِصص والمواعظ والوعد والوعيد وغيرِ ذلك، ولِما فيها مِن الثناء على الله تعالى كأنّها تُثنى عليه سبحانه بأفعاله وصفاتِه الحسنى. ويجوز أن يُراد بـ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾ القرآن لِما ذُكر، أو لأنّه مُثْنى عليه بالإعجاز؛ أو كُتُب الله كلُّها فـ﴿مِنَ﴾ للتبعيض، وعلى الأوّل للبيان.

﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾[٧] إن أريدَ بـ"السبع" الآياتُ أو السوَر فمِن عَطْف الكلّ على البعض أو العامّ على الخاصّ، وإن أريدَ به الأسباع أو كلّ القرآن فهو عطفُ أحد الوصفين على الآخر كما في قوله:

إلى الملِكِ القَرْم وابنِ الهُمامِ ... وليثِ الكتائبِ في المُزدَحَمْ[٨]

أي: ولقد آتيناك ما يقال له: السبع المثاني والقرآن.

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري، ١٤/١٠٧-١١١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣١.

[٢] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣١.

[٣] ط س - من السوَر.

[٤] ط س: السُوَر. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٥] ط س: أو. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٦] س: تكرُّر.

[٧] وفي هامش م: أي: العظيم القدر. «منه».

[٨] مضى بتخريجه وشرحه في الكلام على تفسير الآية الرابعة والعشرين من سورة هود.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمَحْ ببَصَرك طُموحَ راغب ولا تُدِمْ نظرك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ مِن زخارف الدنيا وزينتها ومحاسنها وزَهرتها.

﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾[١] أصنافًا مِن الكفَرة فإنّ ما في الدنيا مِن أصناف الأموال والذخائر بالنسبة إلى ما أوتيتَه مستحقَر لا يُعبأ به أصلًا، وفي حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه: / «مَن أوتيَ القرآن فرأى أنّ أحدًا أوتيَ أفضل ممّا أوتيَ فقد صغّر عظيمًا وعظّم صغيرًا»،[٢] ورُوي أنّه وافَت مِن بُصرى[٣] وأذرِعاتٍ سبعُ قوافلَ ليهود بني قُريظةَ والنَّضير فيها أنواعُ البَزِّ والطِّيب والجواهر وسائرُ الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوَّينا بها وأنفقناها في سبيل الله، فقيل لهم: قد أُعطِيتُم سبع آياتٍ وهي خير مِن هذه القوافل السبع.[٤] [٣٠٤ظ]

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث لم يؤمنوا ولم ينتظِموا في سِلك أتباعك ليتقوّى بهم ضعفاء المسلمين. وقيل: أو أنّهم المتمتّعون به.[٥] ويأباه كلمة "على" فإنّ تمتّعهم به لا يكون مدارًا للحزن عليهم. ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تواضَعْ لهم، وارفُق بهم، وألِنْ جانبك لهم، وطِبْ نفسًا مِن إيمان الأغنياء.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: المنذِر المُظهِر لنزول عذاب الله وحلوله.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قيل:[٦] إنّه متعلّق بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾... إلخ،[٧] أي: أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب.

---

١ وفي هامش م: وفي إبهامه تحقير له.

٢ جامع البيان للطبري، ١٢٧/١٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٣١/٢-٤٣٢.

٣ بُصرى: بالضمّ والقصر، إحداهما: بالشام مِن أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران، مشهورة عند العرب قديمًا وحديثًا ذكروها كثيرًا في أشعارهم، والثانية: بُصرى مِن قرى بغداد قرب عكبراء. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤٤١/١.

٤ الخبر في أسباب النزول للواحدي، ص ٢٨٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٨/٢.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٨/٢.

٦ وفي هامش م: صاحب الكشّاف. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٢.

٧ الحجر، ٨٧/١٥.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أي: قسموه إلى حقّ وباطل، حيث قالوا عِنادًا وعدوانًا: بعضُه حقّ موافِق للتوراة والإنجيل، وبعضُه باطل مخالف لهما، أو اقتسموه لأنفسهم استهزاءً حيث كان يقول بعضهم: سورة البقرة لي، وبعضُهم: سورةُ آل عمران لي، وهكذا؛[١] أو قسموا ما قرءوا مِن كتبهم وحرّفوه فأقرّوا ببعضه وكذّبوا بعضه.

وحُمِل توسُّط قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾[٢] على إمداد ما هو المراد بالكلام مِن التسلية.[٣] وعُقِّب[٤] ذلك بأنّه جلّ المقامُ عن التشبيه، ولقد أُوتيَ عليه السلام ما لم يؤتَ أحدٌ قبله ولا بعده مثلَه.[٥]

وقيل: إنّه متعلِّق بقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ فإنّه في قوّة الأمرِ بالإنذار، كأنّه قيل: أنذِرْ قريشًا مثلَ ما أنزلنا مِن العذاب[٦] على المقتسِمين، يعني اليهودَ، وهو ما جرى على بني قريظةَ والنَّضير بأن جُعل المتوقَّع كالواقع وقد وقَع كذلك.[٧]

وأنت خبير بأنّ ما يُشبَّه به العذاب المنذَر لا بدّ أن يكون محقَّقَ الوقوع / معلومَ الحال عند المنذَرين إذ به يتحقّق فائدة التشبيه، وهي تأكيد الإنذار [٣٠٥و] وتشديده، وعذابُ بني قريظةَ والنَّضير مع عدم وقوعه إذ ذاك لم يسبِق به وعد ووعيد فهم منه في غفلة مَحْضة وشكّ مُريب، وتنزيلُ المتوقَّع منزلةَ الواقع له موقع جليل مِن الإعجاز، لكن إذا صادف مقامًا يقتضيه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح، ١/٤٨] ونظائرِه، على أنّ تخصيص الاقتسام باليهود بمجرّد اختصاص العذاب المذكور بهم مع شِركتهم للنصارى في الاقتسام المتفرِّع على الموافقة والمخالفة، وفي الاقتسام بمعنى التحريف الشامل للكتابين؛ بل تخصيصُ العذاب المذكور بهم مع كونه مِن نتائج الاقتسامِ تخصيصٌ مِن غير مخصِّص.

---

[١] وفي هامش م: فهو تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. «منه».

[٢] الحجر، ٨٨/١٥.

[٣] كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٢.

[٤] وفي هامش م: المُعقِّب صاحب الكشف.

[٥] انظر: الكشف لسراج الدين القزويني، ١٧٦ظ-١٧٧و.

[٦] ط س - من العذاب.

[٧] كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٢.

وقد جُعل الموصول مفعولًا أوّلَ لـ"أَنْذِرْ"، أي: أَنْذِرْ المُعَضِّين الذين يُجزّئون القرآن إلى سِحر وشِعر وأساطيرَ، مثلَ ما أنزلنا على المقتسِمين وهم الاثنا عشرَ الذين اقتسموا مداخلَ مكّة أيّام الموسِم فقعد كلّ منهم في مَدخَل ليُنفِّروا الناس عن الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يقول بعضُهم: لا تغترّوا بالخارج منّا فإنّه ساحر، ويقول الآخر: شاعر، والآخر: كذّابٌ، فأهلَكهم الله تعالى يوم بدر وقبله بآفاتٍ.[١]

وفيه -مع ما فيه مِن الاشتراك لِما سبق في عدم كون العذاب الذي شُبِّه به العذاب المنذَر واقعًا ولا معلومًا للمنذَرين ولا موعودَ الوقوع- أنّه لا داعيَ إلى تخصيص وصف التعضِية بهم وإخراجِ المقتسِمين مِن بينهم مع كونهم أسوةً لهم في ذلك، فإنّ وصفهم لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بما وصفوا مِن السِّحر والشِّعر والكذب متفرّع على وصفهم للقرآن بذلك، وهل هو إلّا نفسُ التعضية، ولا إلى إخراجهم مِن حُكم الإنذار على أنّ ما نزل بهم مِن العذاب لم يكن مِن الشدّة بحيث يُشبَّه به عذاب غيرهم ولا مخصوصًا بهم، بل عامًّا لكلا الفريقين، أعني المعضِّين والمُقتسِمين[٢] وغيرِهم مع أنّ بعض المنذَرين كالوليد بن المغيرة والعاصِ بن وائل[٣] والأسودِ بن المطلّب[٤] قد هلكوا قبل مهلِك أكثرِ المقتسِمين يوم بدر، ولا إلى تقديم المفعول الثاني على الأوّل كما ترى.

---

[١] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣٢.

[٢] ط س - أعني المُعضِّين والمقتسمين.

[٣] هو العاص أو العاصي بن وائل بن هاشم السهمي مِن قريش (ت. نحو ٦٢٠م). هو أحد الحكّام في الجاهليّة وكان نديمًا لهشام بن المغيرة. أدرك الإسلام وظلّ على الشِرك ويُعدّ مِن المستهزئين الذين ماتوا كفّارًا، وكان على رأس بني سهم في حرب الفجّار، وهو والد الصحابي عمرو بن العاص، نزل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر، ١٠٨/٣]. ولوفاته خبر عجيب في كتب التراجم. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ١/١١٠؛ **والأعلام** للزركلي، ٣/٢٤٧.

[٤] وفي هامش م: هؤلاء أشراف قريش ورؤساؤهم، ومنهم الأسود بن عبد يغوث والحارث بن قيس بن الطّلاطلة، وكان رئيسهم الوليد بن المغيرة، وهم المستهزءون بأعيانهم، والمُقتسمون للقرآن العظيم بقول بعضهم: هذه السورة لي، وبعضهم: هذه السورة لي، وأمّا المُقتسمون لمداخل مكّة وعِقابها لتنفير الناس وصدّهم عن الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهم بمَعزِل مِن الانتظام في سِلك هؤلاء الماردين، وإنّما هم مِن أعقاب الناس تابعون لأوامر هؤلاء فيما يأتون وما يذرون. قال مقاتل بن سليمان: كانوا ستّة عشرَ رجلًا بعثهم الوليد بن المغيرة أيّام الموسم، »

وقيل:[١] إنّه وصف لمفعول ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ أقيمَ مُقامه، والمقتسِمون هم القاعدون في مداخل مكّة كما حُرِّر.[٢]

وفيه مع ما مرّ أنّ قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ صريحٌ في أنّه مِن قول الله تعالى لا مِن قول الرسول عليه السلام، والاعتذارُ بأنّ ذلك مِن باب ما يقوله بعض خواصّ المَلِك: "أُمرنا بكذا" وإن كان الآمر هو المَلِك حسبما سلَف في قوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر، ١٥/٦٠] تعسّفٌ لا يخفى،[٣] / وأنّ إعمال الوصف[٤] الموصوف ممّا لم يُجوّزه البصريّون،[٥] فلا بدّ مِن الهرَب إلى مَسلَك الكوفيّين أو المصيرِ إلى جَعْله مفعولًا غيرَ صريح، أي: أنا النذير المُبين بعذاب مثل عذابِ المقتسِمين.[٦] [٣٠٥ظ]

وقيل: المراد بـ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾[٧] الرهطُ الذين تقاسموا على أن يُبيّتوا صالحًا عليه السلام فأهلكهم الله تعالى.[٨]

وأنت تدري أنّ عذابهم حيث كان متحقِّقًا ومعلومًا للمنذَرين حسبما نطَق به القرآن العظيم صالح لأن يقع مشبَّهًا به للعذاب المنذَر، لكنّ الموصول المذكور عَقيبَه حيث لم يُمكن كونه صفةً لـ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ حينئذ، فسواء جعلناه مفعولًا أوّلَ لـ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾[٩] أو لِما دلّ هو عليه مِن "أَنْذِرْ" لا يكون للتعرّض لعنوان التعضِية

= فاقتسموا عِقاب مكّة وطرقها قعدوا على أبوابها وأنقابها، فإذا جاء الحاجّ قال فريق منهم: لا تغترّوا بالخارج منّا والمدّعي للنبوّة، فإنّه مجنون، وقال فريق منهم: إنّه كاهن، وقال فريق آخرُ: إنّه عرّاف، وقال فريق آخرُ: إنّه شاعر، والوليد قاعد على باب المسجد نصّبوه حكمًا، فإذا سئل عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: صدق هؤلاء المقتسمون. وُروي عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه يقرب عددهم مِن أربعين. وقيل: هم اثنا عشرَ رجلًا فعلوا ما فعلوا فأهلكهم الله تعالى يوم بدر بعد هلاك الوليد وأصحابه حسبما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّهم ماتوا قبل بدر فمن لم يفرق بين الفريقين فقد اشتبه عليه الشئون. «منه». | انظر: جامع البيان للطبري، ١٤/١٤٧-١٥٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤/٣٩٤.

١ وفي هامش م: أي: قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾. «منه».

٢ القول في اللباب لابن عادل، ١١/٤٩٠.

٣ السياق: وفيه... تعسّف...

٤ وفي هامش م: وهو ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ الموصوف بـ﴿ٱلْمُبِينُ﴾. «منه».

٥ وفي هامش م: والسرّ في ذلك أنّ بالوصف يترجّح جانب الأهمّيّة ويزول عنه ما كان فيه من الدلالة على الحدث فلا يعمل. «منه».

٦ انظر: اللباب لابن عادل، ١١/٤٩٠.

٧ في الآية السابقة.

٨ القول في اللباب لابن عادل، ١١/٤٩٠.

٩ الحجر، ١٥/٨٩.

في حيّز الصلة ولا لعنوان الاقتسام بالمعنى المزبور في حيّز المفعول الثاني فائدة، لِما أنّ ذلك إنّما يكون للإشعار بعليّة الصلة والصفة للحُكم الثابت للموصول والموصوف، فلا يكون هناك وجه شبَه يدور عليه تشبيه عذابهم بعذابهم خاصّة لعدم اشتراكهم في السبب، فإنّ المُعَضّين بمَعزِل مِن التقاسُم على التبييت الذي هو السبب لهلاك أولئك، كما أنّ أولئك بمَعزِل مِن التعضِية التي هي السبب لهلاك هؤلاء، ولا علاقةَ بين السببين مفهومًا ولا وجودًا تُصحِّح وقوعَ أحدِهما في جانب والآخرِ في جانب، واتّفاقُ الفريقين على مطلَق الاتّفاق على الشرّ المفهوم مِن الاتّفاق على الشرّ المخصوص الذي هو التبييت المدلول عليه بالتقاسُم غير مفيد، إذ لا دلالةَ لعنوان التعضِية على ذلك، وإنّما يدلّ عليه اقتسامُ المداخِل.

وجعلُ الموصول مبتدأ على أنّ خبره الجملة القَسَميّة لا يليق بجزالة التنزيل وجلالة شأنِه الجليل.

إذا عرفتَ هذا فاعلم أنّ الأقرب مِن الأقوال المذكورة أنّه متعلِّق بالأوّل، وأنّ المراد بـ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾[1] أهلُ الكتابَين، وأنّ الموصول مع صلته صفة مُبيّنة لكيفيّة اقتسامهم، ومحلُّ الكاف النصب على المصدريّة، وحديثُ جلالة المقام عن التشبيه مِن لوائح النظر الجليل، والمعنى: لقد آتيناك سبعًا مِن المثاني والقرآنَ العظيم إيتاءً مماثِلًا لإنزال الكتابَين على أهلهما.

وعدمُ التعرّض لذِكر ما أُنزلَ عليهم مِن الكتابين لأنّ الغرض بيان المماثلة بين الإيتاءين لا بين متعلَّقَيهما. والعدول عن تطبيق ما في جانب المشبَّه به على ما في جانب المشبَّه[2] بأن يقال: كما آتينا المقتسِمين حسبما وقَع في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾... إلخ [البقرة، ٢/١٢١]، للتنبيه على ما بين الإيتاءين مِن التنائي،[3] فإنّ الأوّل على وجه التكرِمة والامتنان فشتّان بينه وبين الثاني.

ولا يقدح ذلك في وقوعه مشبَّهًا به، فإنّ ذلك إنّما هو لمُسلَّميّته عندهم وتقدّمِ وجوده على المشبَّه زمانًا لا لمَزيّة تعود إلى ذاته كما في الصلوات الخليليّة،

---

[1] في الآية السابقة.

[2] س - على ما في جانب المشبَّه.

[3] في هامش م: أي التباعُد.

فإنّ التشبيه فيها ليس لكون رحمة الله تعالى الفائضة على إبراهيمَ عليه السلام وآله أتمَّ وأكملَ ممّا فاض على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما ذلك للتقدّم في الوجود والتنصيصِ عليه في القرآن العظيم، فليس في التشبيه شائبةُ إشعار بأفضليّة المشبَّه به مِن المشبَّه، فضلًا عن إيهام أفضليّة ما تعلّق به الأوّل ممّا تعلّق به الثاني.[١]

وإنّما ذُكروا بعنوان الاقتسام إنكارًا لاتّصافهم به مع تحقّق ما ينفيه مِن الإنزال المذكور وإيذانًا بأنّه كان مِن حقّهم أن يؤمنوا بكُلّه حسب إيمانهم بما أُنزل عليهم بحُكم الاشتراك في العلّة والاتّحادِ في الحقيقة التي هي مطلق الوحي.

/ وتوسيطُ قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾... إلخ،[٢] لكمال اتّصاله بما هو المقصود [٣٠٦و] مِن بيان حال ما أوتيَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولقد بُيّن أوّلًا علوُّ شأنه ورفعة مكانه بحيث يستوجِب اغتباطَه عليه السلام بمكانه واستغناءَه به عمّا سواه، ثمّ نُهي عن الالتفات إلى زَهرة الدنيا، وعُبّر عن إيتائها لأهلها بالتمتيع المُنبئ عن وَشْك زوالها عنهم ثمّ عن الحزَن بعدم إيمان المنهمكين فيها، وأُمر بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم وبإظهار قيامه بمواجب الرسالة ومراسمِ النِّذارة حسبما فُصّل في تضاعيف ما أوتيَ مِن القرآن العظيم، ثمّ رُجع إلى كيفيّة إيتائه على وَجْه أُدمِج فيه ما يُزيح شُبَهَ المنكِرين ويستنزِلهم مِن العِناد مِن بيان مشاركته لِما لا ريبَ لهم في كونه وحيًا صادقًا، فتأمَّل، والله عنده عِلم الكتاب.

هذا وقد قيل:[٣] المعنى: قل إنّي أنا النذير المُبين كما قد أنزلنا في الكتب أنّك ستأتي نذيرًا على أنّ المقتسِمين أهل الكتاب.[٤] يريد أنّ ﴿مَا﴾ في ﴿كَمَا﴾[٥] موصولةٌ، والمراد بالمشابهة المستفادة مِن الكاف الموافقةُ، وهي مع ما في حيّزها في محلّ النصب على الحاليّة مِن مفعول ﴿قُلْ﴾،[٦] أي: قل هذا القول حالَ كونه كما أنزلنا على أهل الكتابين، أي: موافقًا لذلك.

---

[١] في هامش م: فيما نحن فيه.

[٢] الحجر، ١٥/٨٨.

[٣] وفي هامش م: قاله صاحب اللباب. وعبارته: ويحتمل أن يكون المعنى... إلخ. | انظر: اللباب لابن عادل، ١١/٤٩١.

[٤] وفي هامش م: انتهى.

[٥] الحجر، ١٥/٩٠.

[٦] الحجر، ١٥/٨٩.

فالأنسبُ حينئذ حَمْل الاقتسام على التحريف ليكون وَصْفهم بذلك تعريضًا بما فعلوا مِن تحريفهم وكِتمانهم لنَعْت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

وقوله تعالى: ﴿عِضِينَ﴾ جَمْع "عِضَة" وهي الفِرقة، أصلها عِضْوَة "فِعْلَة" مِن "عضّى الشاة تعضِيَة" إذا جعلها أعضاءَ، وإنّما جُمعت جمع السلامة جبرًا للمحذوف كـ"سِنين" و"عِزين". والتعبير عن تجزئة القرآن بالتعضِيَة -التي هي: تفريق الأعضاء مِن ذي الروح المستلزمُ لإزالة حياته وإبطال اسمه دون مطلَق التجزئة والتفريق اللذَين ربّما يوجدان فيما لا يضرّه التبعيض مِن المِثليّات- للتنصيص على كمال قُبْح ما فعلوه بالقرآن العظيم، وقيل: هي فِعلة مِن "عضهتُه" إذا بهتُّه. وعن عكرِمةَ: العَضْهُ:[1] السِّحر بلسان قريش،[2] فنقصانها على الأوّل واو وعلى الثاني هاء.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لنسألنَّ يوم القيامة أصناف الكفَرة مِن المقتسِمين وغيرهم سؤالَ توبيخ وتقريع.

﴿عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن قول وفعل وتَرْك، فيدخُل فيه ما ذُكِر مِن الاقتسام والتعضِيَة دخولًا أوّليًا، ولنجزيَنَّهم بذلك جزاءً موفورًا. وفيه مِن التشديد وتأكيد الوعيد ما لا يخفى. و"الفاء" لترتيب الوعيدِ على أعمالهم التي ذُكِر بعضها. وفي التعرّض لوَصْف الربوبيّة مضافًا إليه عليه السلام إظهارُ اللطف به عليه السلام.

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجهر به، مِن "صَدَع بالحجّة" إذا تكلّم بها جهارًا، أو افرُق بين الحقّ والباطل، وأصلُه الإبانة والتمييز، و﴿مَا﴾ مصدريّة أو موصولة والعائد محذوف، أي: ما تؤمَر به مِن الشرائع المُودَعة في تضاعيف ما أوتيتَه

---

[1] س: العِضَة.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣٣.

مِن المثاني السبع والقرآنِ العظيم. ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: لا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبالِ بهم ولا تتصدَّ للانتقام منهم.

﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ بقمعهم وتدميرهم، / قيل: كانوا خمسة مِن أشراف قريش: الوليدُ بن المغيرة، والعاصُ بن وائل، والحارثُ بن قيس بن الطُّلاطِلة،[١] والأسوَدُ بن عبد يغُوثَ،[٢] والأسودُ بن المطّلب، يبالغون في إيذاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والاستهزاء به، فنزل جبريلُ عليه السلام فقال: «أُمِرت أن أكفيَكَهم»، فأومأ إلى ساق الوليد، فمرَّ بنبّال فتعلّق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظُّمًا لأخذه، فأصاب عِرقًا في عَقِبه فقطَعه فمات؛ وأومأ إلى أخمَص العاص، فدخلت فيها شوكةٌ، فقال: «لُدِغتُ لُدِغتُ»، وانتفخت رجلُه حتّى صارت كالرَّحى فمات؛ وأشار إلى عينَي الأسود بن المطَّلب، فعمِيَ؛ وإلى أنف الحارث، فامتخط قيحًا فمات، وإلى الأسوَد بن عبد يغوثَ وهو قاعد في أصل شجرة، فجعَل ينطح برأسه الشجرة ويضرِب وجهه بالشوكة حتّى مات.[٣] [٣٠٦ظ]

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وصَفهم بذلك تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتهوينًا للخَطْب عليه بإعلام أنّهم لم يقتصروا على الاستهزاء به

---

١ هو الحارث بن قيس بن الطُّلاطلة، وأمّه غيطلة، وهو مِن المستهزئين بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكان مِن بين مَن نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ [الحجر، ٩٥/١٥]. قيل: كان يطوف بالكعبة ومرّ به النبيّ ومعه جبريل عليه السلام فأشار إلى رأسه فامتخط قيحًا فمات. انظر: سيرة ابن هشام، ٨/٤؛ والروض الأنف للسهيلي، ١٧/٤؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١٧/٥.

٢ هو الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو ابن أخي آمنة بنت وهب أمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وذكر البيهقي أنّه كان شديد العداوة والاستهزاء للنبيّ عليه الصلاة والسلام، وأصيبَ له ثلاثة مِن أبنائه في بدر: زمعة وعقيل والحارث. خرج يومًا إلى البريّة فعطش فاسودّ وجهه فأتى داره فلم يعرفوه وأغلقوا الباب في وجهه فمات عطشًا. انظر: نشوة الطرب لابن سعيد الأندلسي، ٣٦٦/١؛ والكامل لابن الأثير، ١٣٢/٢.

٣ بمعناه في السنن الكبرى للبيهقي، ١٤/٩-١٥ (١٧٧٣١)؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٣/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلَعي، ٢٢٠/٢.

عليه السلام، بل اجترءوا على العظيمة التي هي الإشراك بالله سبحانه. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ ما يأتون ويذَرون.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ مِن كلمات الشِّرك والطعن في القرآن والاستهزاء به وبك. وتحليةُ الجملة بالتأكيد لإفادة تحقيق ما تضمّنه مِن التسلية، وصيغةُ الاستقبال لإفادة استمرار العِلم حسب استمرار متعلَّقه باستمرار ما يُوجبه مِن أقوال الكفَرة.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فافزع إلى الله تعالى فيما نابَك مِن ضيق الصدر والحرَج بالتسبيح والتقديس ملتبِسًا بحمده. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام ما لا يخفى مِن إظهار اللطف به عليه السلام والإشعارِ بعلّة الحُكم، أعني الأمرَ بالتسبيح والحمد.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: المصلّين يَكْفِك ويكشِفِ الغُمَم عنك، أو فنزِّهه عمّا يقولون ملتبِسًا بحمده على أنْ هداك للحقّ المُبين، وعنه عليه السلام أنّه «كان إذا حزَبه أمرٌ فزِع إلى الصلاة».[1]

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ دُمْ على ما أنت عليه مِن عبادته تعالى. وإيثار الإظهار بالعنوان السالف آنفًا لتأكيد ما سبق مِن إظهار اللطف به عليه السلام والإشعارِ بعلّة الأمرِ بالعبادة.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي: الموت، فإنّه مُتيقَّن اللُّحوقِ بكلّ حيّ مخلوق. وإسنادُ الإتيان إليه للإيذان بأنّه متوجِّه إلى الحيّ طالب للوصول إليه، والمعنى: دُمْ على العبادة ما دمت حيًّا مِن غير إخلال بها لحظةً.

---

[1] جامع البيان للطبري، ١٥٤/١٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٧/٤. وبلفظ «إذا حزبه أمر صلّى» في مسند أحمد، ٣٣٠/٣٨ (٢٣٢٩٩)؛ وسنن أبي داود، ٤٨٥/٢ (١٣١٩)؛

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ الحِجْر كان له مِن الأجر عشرُ حسنات بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمّد»[١] صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا كثيرًا.[٢]

---

[١] بلفظه في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٢٦/١٥ (الحجر، ١/١٥)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٣٤/٢. وهو جزء من حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٢١/٢.

[٢] س + والحمد لله ربّ العالمين. | وفي هامش م: إلى هنا انتهت المطالعة بفضل الله سبحانه في آواخر شهر ربيع الأوّل، سنة ستّ وخمسين وتسعمئة، حامدًا لله سبحانه ومُصلّيًا على سيّدنا محمّد عليه السلام.

/ سورة النحل [٣٠٧و]

وتسمّى سورة النعم، وهي مكّيّة غيرَ ثلاث آيات في آخرها، وهي مائة وثمان وعشرون آيةً.[١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الساعةُ أو ما يعُمّها وغيرَها مِن العذاب الموعود للكفَرة، عُبّر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللإيذان بأنّ تحقّقه في نفسه وإتيانه مَنوطٌ بحُكمه النافذ وقضائه الغالب. وإتيانه عبارة عن دنوِّه واقترابه على طريقة نَظْم المتوقَّع في سِلك الواقع، أو عن إتيان مباديه القريبة على نهج إسناد حال الأسباب إلى[٢] المسبَّبات.

وأيًّا ما كان ففيه تنبيه على كمال قربه مِن الوقوع واتّصالِه به، وتكميلٌ لحُسن موقع التفريع في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فإنّ النهي عن استعجال الشيء وإن صحّ تفريعه على قُرب وقوعه أو على وقوع أسبابه القريبة لكنّه ليس بمثابة تفريعه على وقوعه، إذ بالوقوع يستحيل الاستعجال رأسًا لا بما ذُكِر مِن قُرب وقوعه ووقوع مباديه.

والخطاب للكفَرة خاصّة كما يدلّ عليه القراءةُ على صيغة نهِي الغائبِ. واستعجالُهم وإن كان بطريق الاستهزاء لكنّه حُمل على الحقيقة ونُهوا عنه بضرب مِن التهكّم لا مع المؤمنين، سواءٌ أريدَ بـ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ ما ذُكر أو العذابُ الموعودُ للكفَرة خاصّة.

---

[١] س – سورة النحل، وتسمى سورة النعم، وهي مكّيّة غير ثلاث آيات في آخرها، وهي مائة وثمان وعشرون آية؛ س: سورة النحل، مائة وعشرون وثمان آيات، مكّيّة.

[٢] س + حال.

أمّا الأوّل فلأنّه لا يتصوَّر مِن المؤمنين استعجالُ الساعة أو ما يعمّها وغيرها[١] مِن العذاب حتّى يعمّهم النهيُ عنه، وأمّا الثاني فلأنّ استعجالهم له بطريق الحقيقة واستعجالَ الكفَرة بطريق الاستهزاءِ كما عرَفتَه فلا ينتظمهما صيغة واحدة. والالتجاء إلى إرادة معنًى مجازي يعمُّهما معًا مِن غير أن يكون هناك رعايةُ نكتة سَرِيّة تعسُّف لا يليق بشأن التنزيل الجليل.

وما رُوي مِن أنّه لمّا نزلت ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر، ١/٥٤] قال الكفّار فيما بينهم: «إنّ هذا يزعُم أنّ القيامة قد قرُبت فأمسِكوا عن بعض ما تعملون حتّى ننظر ما هو كائن»، فلمّا تأخّرت / قالوا: «ما نرى شيئًا»، فنزلت ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء، ١/٢١] فأشفقوا وانتظروا قُربها، فلمّا امتدّت الأيّام قالوا: «يا محمّد ما نرى شيئًا ممّا تُخوِّفنا به»، فنزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، فوثب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فرفَع الناس رءوسهم، فلمّا نزل ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ اطمأنّوا.[٢] [٣٠٧ظ]

فليس فيه دلالة[٣] على عموم الخطاب كما قيل،[٤] لا لِما تُوهِّم مِن أنّ التصدير بـ"الفاء" يأباه، فإنّه بمَعزِل عن إبائه حسبما تحققْتَه؛ بل لأنّ مَناط اطمئنانهم إنّما هو وقوفهم على أنّ المراد بالإتيان هو الإتيان الادّعائي لا الحقيقي الموجِب لاستحالة الاستعجال المستلزِمة لامتناع النهي عنه، لِما أنّ النهيَ عن الشيء يقتضي إمكانَه في الجملة.

ومدار ذلك الوقوف إنّما هو النهي عن الاستعجال المستلزِم لإمكانه المقتضي لعدم وقوع المستعجَل بعدُ، ولا يختلف ذلك باختلاف المستعجِل كائنًا مَن كان؛ بل فيه[٥] دلالة واضحة على عدم العموم؛ لأنّ المراد بأمر الله إنّما هو الساعة، وقد عرفتَ استحالة صدور استعجالها عن المؤمنين، نعم يجوز تخصيص الخطاب بهم على تقدير كون أَمر الله عبارة عن العذاب

---

١ ط س - وغيرها.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥٩/١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٧/٥-٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٣٥/٢.

٣ السياق: وما رُوِيَ... فليس فيه دلالة...

٤ في هامش م: قاضي وطيبي. | انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥١/٢؛ وفتوح الغيب للطِّيبي، ٧١/٩.

٥ في هامش م: أي: فيما رُوي.

الموعود للكفَرة خاصّة، لكن الذي يقضي به الإعجازُ التنزيليُّ أنّه خاصّ بالكفَرة كما ستقف عليه.

ولمّا كان استعجالهم ذلك مِن نتائج إشراكهم المستتبع لنسبة الله عزّ وجلّ إلى ما لا يليق به مِن العجز والاحتياج إلى الغير، واعتقاد أنّ أحدًا يحجُزه عن إنجاز وَعْده أو إمضاء وعيده، وقد قالوا في تضاعيفه: إن صحّ مجيء العذاب فالأصنام تُخلِّصنا عنه بشفاعتها، رُدَّ ذلك فقيل بطريق الاستئناف: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزّه وتقدّس بذاته وجلّ عن إشراكهم المؤدِّي إلى صدور أمثالِ هذه الأباطيلِ عنهم، أو عن أن يكون له شريك فيدفعَ ما أراد بهم بوجه مِن الوجوه.

وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدّد إشراكهم واستمراره. والالتفات إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء ذِكر / قبائحهم للإعراض عنهم وطرحِهم عن رتبة الخِطاب، [٣٠٨و] وحكايةِ شنائعهم لغيرهم، وعلى تقدير تخصيص الخِطاب بالمؤمنين تفوت هذه النُّكتة كما يفوت ارتباط المَنهيّ عنه بالمتنزِّه عنه. وقُرئ على صيغة الخطاب.[١]

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بيان لتحتّم التوحيد حسبما نُبِّه عليه تنبيهًا إجماليًّا ببيان تقدُّس جناب الكبرياء وتعاليه عن أن يحوم حوله شائبة أن يُشاركه شيء في شيء، وإيذانٌ بأنّه دِين أجمع عليه جمهور الأنبياء عليهم السلام، وأُمروا بدعوة الناس إليه، مع الإشارة إلى سرّ البَعثة والتشريع وكيفيّة إلقاء الوحي، والتنبيهِ على طريق عِلم الرسول صلّى الله عليه وسلّم بإتيان ما أَوْعَدهم به، وباقترابه إزاحةً لاستبعادهم اختصاصَه عليه السلام بذلك، وإظهارًا لبُطلان رأيهم في الاستعجال والتكذيب.

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٢.

وإيثارُ صيغة الاستقبال للإشعار بأنّ ذلك عادة مستمرّة له سبحانه. والمراد بـ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ إمّا جبريلُ عليه السلام، قال الواحديّ: يُسمّى الواحد بالجميع إذا كان رئيسًا أو هو ومَن معه مِن حفَظة الوحي بأمر الله تعالى.[1] وقرئ: "يُنْزِلُ"[2] مِن الإنزال، و"تَنَزَّلُ"[3] بحذف إحدى التاءين، وعلى صيغة المبنيّ للمفعول مِن التنزيل.[4]

﴿بِٱلرُّوحِ﴾ أي: بالوحي الذي مِن جملته القرآن على نهج الاستعارة، فإنّه يُحيي القلوب الميّتة بالجهل، أو يقوم في الدِّين مَقام الروح في الجسد، و"الباء" متعلِّقة بالفعل أو بما هو حال مِن مفعوله، أي: ملتبِسين بالروح.

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بيان للروح الذي أُريدَ به الوحي، فإنّه أمر بالخير، أو حال منه، أي: حال كونه ناشئًا ومبتدأ منه، أو صفةٌ له على رأي مَن جوَّز حذف الموصول مع بعض صلته، أي: بالروح الكائن مِن أمره الناشئ منه، أو متعلِّق بـ﴿يُنَزِّلُ﴾، / و﴿مِنْ﴾ للسببيّة كـ"الباء" مثلُ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ [نوح، ٧١/٢٥]، أي: ينزّلهم بأمره. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: ينزِّلهم به عليهم لاختصاصهم بصفات تؤهّلهم لذلك. [٣٠٨ظ]

﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ بدل مِن ﴿ٱلرُّوحِ﴾، أي: ينزِّلهم ملتبِسين بـ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾، أي: بهذا القول، والمخاطَبون به الأنبياء الذين نُزِّلت الملائكة عليهم عليهم السلام. والآمرُ هو الله سبحانه، والملائكةُ نَقَلة للأمر كما يُشعِر به الباء في المبدَل منه. و﴿أَنْ﴾: إمّا مخفَّفة مِن "أنّ"، وضميرُ الشأن الذي هو اسمها محذوف، أي: ينزِّلهم ملتبِسين بأنّ الشأن أقول لكم: أَنذِروا؛ أو مفسِّرةٌ على أنّ تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول، كأنّه قيل: يقول بواسطة الملائكة لمَن يشاء مِن عباده: "أنذروا" فلا محلّ لها مِن الإعراب؛ أو مصدريّة لجواز كون صلتها إنشائيّة،

---

١ ما وقفتُ عليه فيما بين يديّ من كتب الواحدي.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورويس. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وسلّام والفضل وزيد ورَوح وأبي حَيْوَة وأبي بكر من طريق ابن جُبير وأبي الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٩٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن قُطيب والمِنهال عن يعقوب وأبي الحسن عن أبي بكر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٩٩.

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [يونس، ١٠/١٠٥]، حسبما ذُكِر في أوائل سورة هود، فمَحلُّها الجرّ على البدليّة أيضًا.

و"الإنذارُ": الإعلام، خلا أنّه مختصّ بإعلام المحذور مِن "نذِر بالشيء" إذا عَلِمه فحذِره، و"أنذَره بالأمر إنذارًا"، أي: أعلَمه وحذّره وخوّفه في إبلاغه. كذا في **القاموس**،[١] أي: أعلِموا الناس ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، فالضمير للشأن، ومدارُ وضعه موضعَه ادّعاءُ شهرته المغنِية عن التصريح به.

وفائدةُ تصدير الجملة به الإيذان مِن أوّل الأمر بفخامة مضمونها مع ما فيه مِن زيادة تقرير له في الذهن، فإنّ الضمير لا يُفهَم منه ابتداءً إلّا شأن مُبهَم له خَطَر، فيبقى الذهن مترقّبًا لِما يعقُبه فيتمكّن لديه عند وروده فضلَ تمكُّن، كأنّه قيل: أنذِروا أنّ الشأن الخطير هذا، وإنباءُ مضمونه عن المحذور ليس لذاته؛ بل مِن حيث اتّصافُ المنذَرين بما يضادُّه مِن الإشراك وذلك كافٍ في كون إعلامه إنذارًا.

وقوله سبحانه: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ خِطاب للمستعجِلين على طريقة الالتفات، و"الفاء" فصيحة، أي: إذا كان الأمر كما ذُكِر / مِن جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على الأنبياء عليهم السلام وأَمْرِهم بأن يُنذِروا الناس أنّه لا شريكَ له في الألوهيّة، فاتّقوني في الإخلال بمضمونه ومباشرة ما ينافيه مِن الإشراك وفروعه التي مِن جملتها الاستعجال والاستهزاء. [٣٠٩و]

وبعد تمهيد الدليل السمعيّ للتوحيد شُرِع في تحرير الأدلّة العقليّة، فقيل: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أوجَدهما على ما هما عليه مِن الوجه الفائق والنمط اللائق. ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ وتقدّس بذاته لاسيّما بأفعاله التي مِن جملتها إبداع هذين المخلوقَين. ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم المعهود، أو عن شركة ما يشركونه به مِن الباطل الذي لا يُبدئ ولا يعيد.

وبعد ما نبّه على صُنعه الكلّي المنطوي على تفاصيل مخلوقاته شرَع في تعداد ما فيه مِن خلائقه، فبدأ بفعله المتعلّق بالأنفس فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي:

---

١ انظر: **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «نذر».

هذا النوعَ غيرَ الفرد الأوّل منه ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ جمادٍ لا حسَّ له ولا حَراكَ، سيّالٍ لا يحفظ شكلًا ولا وضعًا.

﴿فَإِذَا هُوَ﴾ بعد الخلق ﴿خَصِيمٌ﴾ مِنطيق مُجادِل عن نفسه مُكافِح للخصوم ﴿مُبِينٌ﴾ لحجّته لَقِن بها. وهذا أنسَب بمقام الامتنان بإعطاء القدرة على الاستدلال بذلك على قدرته تعالى ووحدته، أو مخاصِمٌ لخالقه منكِر له قائل: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس، ٧٨/٣٦]، وهذا أنسَب بمقام تعداد هَنات الكفَرة. رُوي أنّ أُبيّ بن خلَف الجُمَحي[1] أتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم بعَظْم رميم فقال: يا محمّد أترى الله تعالى يُحيي هذا بعد ما قد رمّ، فنزلت.[2]

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾

[٣٠٩ظ] ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾ / وهي الأزواج الثمانية مِن الإبل والبقر والضأن والمَعْز، وانتصابُها بمضمر يفسِّره قوله تعالى: ﴿خَلَقَهَا﴾، أو بالعطف على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾،[3] وما بعده بيانُ ما خُلِق لأجله والذي بعده تفصيل لذلك. وقوله: ﴿لَكُمْ﴾ إمّا متعلِّق بـ﴿خَلَقَهَا﴾، وقوله: ﴿فِيهَا﴾ خبر مقدَّم، وقوله: ﴿دِفْءٌ﴾ مبتدأ وهو ما يُدفأ به، فيَقي مِن البرد، والجملةُ حال مِن المفعول، أو الظرفُ الأوّل خبر للمبتدأ المذكور و﴿فِيهَا﴾ حال مِن ﴿دِفْءٌ﴾، إذ لو تأخَّر لكان صفة.

﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ هي دَرّها ورُكوبها وحَملها والحِراثة بها وغيرُ ذلك، وإنّما عُبِّر عنها بها ليتناول الكلّ مع أنّه الأنسَب بمقام الامتنان بالنعم. وتقديم "الدفء" على "المنافع" لرعاية أسلوب الترقّي إلى الأعلى.

---

[1] أُبيّ بن خلف الجمحي مِن المشركين المعادين للنبيّ عليه الصلاة والسلام، أُسِر يوم بدر، فلمّا أُفتدي مِن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال له: «إنّ لي فرسًا أعلفها كلّ يوم لعلّي أقتلك عليها»، فقال له النبيّ عليه الصلاة والسلام: «بل أنا أقتلك عليها إن شاء الله»، فلمّا كان أُحُد رماه النبيّ بحربة وقتله، وهو قاتل شمّاس بن عثمان بن الشريد الأنصاري في أحد. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤٢/٢-٤٣.

[2] بلفظ قريب في **معالم التنزيل** للبغوي، ٩/٥؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٣٦/٢؛ **واللباب** لابن عادل، ١١/١٢.

[3] في الآية السابقة.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: تأكُلون ما يؤكَل منها مِن اللحوم والشحوم وغيرِ ذلك. وتغيير النظم للإيماء إلى أنّها لا تبقى عند الأكل كما في السابق واللاحق، فإنّ الدفء والمنافع والجمال يحصُل منها وهي باقية على حالها، ولذلك جُعلت محالًا[١] لها بخلاف الأكل. وتقديم الظرف للإيذان بأنّ الأكل منها هو المعتاد المُعتمَد في المعاش، وأنّ الأكل ممّا عداها مِن الدجاج والبطّ وصيد البرّ والبحر مِن قبيل التفكُّه مع أنّ فيه مراعاةً للفواصل، ويحتمل أن يكون معنى الأكل منها أكلَ ما يحصُل بسببها، فإنّ الحبوب والثمار المأكولة تُكتسَب بإكراء الإبل وبأثمان نِتاجها وألبانها وجلودها.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ مع ما فُصِّل مِن أنواع المنافع الضروريّة ﴿جَمَالٌ﴾ أي: زينة في أعيُن الناس ووَجاهة عندهم ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ ترُدّونها مِن مراعيها إلى مَراحها بالعشيّ، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تُخرِجونها بالغداة مِن حظائرها / إلى مَسارحها. فالمفعول محذوف مِن كلا الفعلين لرعاية الفواصل. [٣١٠و]

وتعيين الوقتين لأنّ ما يدور عليه أمر الجَمال مِن تزيّن الأفنية والأكناف بها وبتجاوُب ثُغائها ورُغائها إنّما هو عند ورودها وصدورها في ذينك الوقتين، وأمّا عند كونها في المراعي فينقطِع إضافتها الحسّيّة إلى أربابها، وعند كونها في الحظائر لا يراها راءٍ ولا ينظر إليها ناظر.

وتقديم الإراحة على السَّرْح لتقدّم الوُرود على الصُّدور، ولكونها أظهر منه في استتباع ما ذُكر مِن الجَمال وأتمَّ في استجلاب الأُنس والبهجة، إذ فيها حضور بعد غَيبة وإقبال بعد إدبار على أحسن ما يكون، ملأى البطون مرتفعةَ الضلوع[٢] حافلةَ الضُّروع.

وقرئ: "حِينًا تُرِيحُون وحِينًا تَسْرَحُون"[٣] على أنّ كلا الفعلين وَصْف لـ"حينًا"، بمعنى: تُريحون فيه وتَسرَحون فيه.

---

١ كذا في م س، وهو ممنوع من الصرف، فلا ينوّن.
٢ س: الظلوع.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والضحّاك. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٦.

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧﴾

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ جَمع "ثِقْل"، وهو متاعُ المسافر. وقيل: أثقالكم: أجرامكم.[١] ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: أريدَ به اليمن ومصرُ والشام.[٢] ولعلّه نظَر إلى أنّها متاجرُ أهل مكّة، وقال عكرمةُ: أريدَ به مكّةُ.[٣] ولعلّه نظَر إلى أنّ أثقالهم وأحمالهم عند القُفول مِن متاجرهم أكثرُ، وحاجتَهم إلى الحمولة أمَسُّ، والظاهرُ أنّه عامّ لكل بلد سحيق.

﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ واصلين إليه بأنفسكم مجرَّدين عن الأثقال لولا الإبل ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ فضلًا عن استصحابها معكم. وقُرئ بفتح الشين،[٤] وهما لغتان بمعنى الكُلفة والمشقّة. وقيل: المفتوح مصدر مِن "شَقّ الأمر عليه شقًّا"، وحقيقتُه راجعة إلى الشَّقّ الذي هو الصَّدْع، والمكسورُ النِّصف، كأنّه يُذهِب نصف القوّة لِما يناله مِن الجُهد،[٥] فالإضافة إلى ﴿ٱلۡأَنفُسِ﴾ مجازيّة، أو على تقدير مضاف / أي: إلّا بشِقّ قُوى الأنفس. وهو استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأشياء، [٣١٠ظ] أي: لم تكونوا بالغيه بشيء مِن الأشياء إلّا بشِقّ الأنفس.

ولعلّ تغييرَ النظم الكريم السابق الدالّ على كون الأنعام مدارًا للنِّعم السابقة إلى الجملة الفعليّة المفيدة لمجرَّد الحدوث للإشعار بأنّ هذه النِّعمة ليست في العموم بحسب المنشأ وبحسب المتعلِّق، وفي الشمول للأوقات والاطّراد في الأحيان المعهودة بمثابة النِّعم السالفة، فإنّها بحسب المنشأ خاصّة بالإبل وبحسب المتعلِّق بالضاربين في الأرض المتقلِّبين فيها للتجارة وغيرها في أحايينَ غير مطّردة.

وأمّا سائر النِّعم المعدودة فموجودة في جميع أصناف الأنعام وعامّة لكافّة المخاطَبين دائمًا، أو في عامّة الأوقات. ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ ولذلك أسبغ عليكم هذه النِّعم الجليلة ويسّر لكم الأمور الشاقّة.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٧/٢.

٢ ولم أجِده في مظانّه، وهو بلفظ قريب في تفسير الرازي، ١٧٦/١٩؛ واللباب لابن عادل، ١٥/١٢.

٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٦٩/١٤-١٧٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٩/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٣٧/٢.

٤ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٠٢/٢.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٣/٢.

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ⑧﴾

﴿وَٱلْخَيْلَ﴾ هو اسم جنس للفَرس لا واحد له مِن لفظه كـ"الإبل"، وهو عطفٌ على ﴿ٱلْأَنْعَٰمَ﴾،[١] أي: خلق الخيل ﴿وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ تعليل بمعظَم منافعها، وإلّا فالانتفاع بها بالحمل أيضًا ممّا لا ريبَ في تحقّقه. ﴿وَزِينَةً﴾ عطفٌ على محلّ ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾، وتجريدُه عن "اللام" لكونه فعلًا لفاعل الفعل المعلَّل دون الأوّل. وتأخيره لأنّ الرُّكوب أهمّ منه، أو مصدرٌ لفعل محذوف، أي: وتتزيّنوا بها زينةً. وقُرئ بغير واو،[٢] أي: خلَقها زينة لتَركبوها. ويجوز أن يكون مصدرًا واقعًا موقع الحال مِن فاعل تركبوها أو مفعوله، أي: متزيِّنين بها أو متزيَّنًا بها.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: يخلق في الدنيا غيرَ ما عُدِّد مِن أصناف النِّعم فيكم ولكم ما لا تعلمون كنهَه وكيفيّة خَلْقه، فالعدول إلى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدّد أو لاستحضار الصورة، أو يخلُق لكم في الجنّة / غيرَ ما ذُكِر مِن النِّعم الدنيويّة ما لا تعلمون، أي: ما ليس مِن شأنكم أن تعلموه، وهو ما أشيرَ إليه بقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله عزّ وجلّ: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمِعت ولا خطَر على قلب بشَر».[٣] [٣١١و]

ويجوز أن يكون هذا إخبارًا بأنّه سبحانه يخلق مِن الخلائق ما لا علمَ لنا به دلالةً على قدرته الباهرة الموجِبة للتوحيد كنعمته الباطنة والظاهرة. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ عن يمين العرش نهرًا مِن نور مثلَ السماوات السبع والأرضِين السبع والبحار السبعة، يدخُل فيه جبريلُ عليه السلام كلّ سَحَر فيغتسِل فيزداد نورًا إلى نور وجمالًا إلى جمال وعِظَمًا إلى عِظَم، ثمّ ينتفض فيخلق الله تعالى مِن كلّ قطرة تقع مِن ريشه كذا وكذا ألفَ ملَك،

---

[١] النحل، ١٦/٥.
[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأبي عِياض. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٠٠.
[٣] مضى بتخريجه في هامش للمُصنِّف عند الكلام على الآية الثامنة بعد المئة مِن سورة هود.

فيدخُل منهم كلّ يوم سبعون ألفَ ملَك البيت المعمور وسبعون ألف ملَك الكعبة لا يعودون إليه إلى يوم القيامة.[١]

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ القَصْد مصدر بمعنى الفاعل، يقال: سبيل قَصْد وقاصد، أي مستقيم، على طريقة الاستعارة، أو على نهج إسنادِ حال سالكِه إليه، كأنّه يقصِد الوجهَ الذي يؤمّه السالك لا يعدِل عنه، أي: حقّ عليه سبحانه وتعالى بموجَب رحمته ووعدِه المحتوم بيانُ الطريق المستقيم الموصلِ لمَن يسلكه إلى الحقّ الذي هو التوحيد بنصب الأدلّة وإرسال الرسل وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه.

أو مصدرٌ بمعنى الإقامة والتعديل،[٢] قاله أبو البقاء،[٣] أي عليه عزّ وجلّ تقويمها وتعديلها، أي: جعلُها بحيث يصِل سالكه إلى الحقّ، لكن لا بعد ما كانت في نفسها منحرفةً عنه؛ بل إبداعُها ابتداءً كذلك على نهج قوله: "سبحان مَن صغّر البعوض وكبّر الفيل".

[٣١١ظ] / وحقيقتُه راجعة إلى ما ذُكِر مِن نَصْب الأدلّة، وقد فعَل ذلك حيث أبدع هذه البدائع التي كلّ واحد منها لاحِبٌ[٤] يُهتدى بمناره وعَلَمٌ يُستضاء بناره، وأَرسل رُسلًا مبشِّرين ومنذِرين، وأنزَل عليهم كُتبًا مِن جملتها هذا الوحيُ الناطق بحقيقة الحقّ الفاحصُ عن كلّ ما جلّ مِن الأسرار ودقّ، الهادي إلى سبيل الاستدلال بتلك الأدلّة المفضِية إلى معالم الهدى، المنْجِية عن فيافي الضلالة ومَهاوي الردى.

ألا يُرى كيف بيَّن أوّلًا تنزُّهَ جَناب الكبرياء وتعاليَه بحسب الذات عن أن يحوم حوله شائبة توهّمِ الإشراك، ثمّ أوضح سِرَّ إلقاء الوحي على الأنبياء

---

[١] بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤/١٦؛ وتفسير الرازي، ١٧٨/١٩؛ واللباب لابن عادل، ١٨/١٢. ولم أجِده في مظانّه.

[٢] السياق: مصدر بمعنى الفاعل... أو مصدر...

[٣] انظر: التبيان للعكبري، ٧٩٠/٢؛ واللباب لابن عادل، ١٩/١٢

[٤] اللاحب: الطريق الواسع المُنقاد الذي لا ينقطع. لسان العرب لابن منظور، «لحب».

عليهم السلام وكيفيّةَ أَمرهم بإنذار الناس ودعوتِهم إلى التوحيد ونهيِهم عن الإشراك، ثمّ كرّ على بيان تعاليه عن ذلك بحسب الأفعال مرشِدًا إلى طريقة الاستدلال، فبدأ بفعله المتعلِّق بمحيط العالم الجسماني ومركزِه بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ[١] تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾،[٢] ثمّ فصّل أفعاله المتعلِّقة بما بينهما فبدأ بفعله المتعلِّق بأنفس المخاطَبين، ثمّ ذكَر ما يتعلّق بما لا بدّ لهم منه في معايشهم، ثمّ بيَّن قدرته على خَلْق ما لا يحيط به عِلم البشر بقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾،[٣] وكلُّ ذلك كما ترى بيان لسبيل التوحيد غِبَّ بيانٍ وتعديلٌ له أيّما تعديل.

فالمراد بـ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ على **الأوّل**[٤] الجنسُ بدليل إضافة "القصد" إليه، وقوله تعالى: **﴿وَمِنْهَا﴾** في محلّ الرفع على الابتداء، إمّا باعتبار مضمونه وإمّا بتقدير الموصوف، كما في قوله: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن، ١١/٧٢]، وقد مرّ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾... إلخ [البقرة، ٨/٢]، أي: بعضُ السبيل أو بعضٌ مِن السبيل، فإنّها تؤنَّث وتُذكَّر. **﴿جَآئِرٌ﴾** أي: مائل عن الحقّ منحرِف عنه لا يُوصِل سالكَه إليه، وهو طُرق الضلال التي لا يكاد يحصى عددها المندرجُ كلُّها تحت الجائر.

وعلى **الثاني**[٥] نفسُ السبيل المستقيم، والضمير في ﴿مِنْهَا﴾ راجع إليها / بتقدير المضاف، أي: ومِن جنسها، لِما عرفتَ مِن أنّ تعديل السبيل وتقويمَه إبداعُه ابتداءً على وَجْه الاستقامة والعدالة لا تقويمُه بعد انحرافه. [٣١٢و]

وأيًّا ما كان فليس في النظم الكريم تغييرُ الأسلوب رعايةً لأمر مطلوب كما قيل.[٦] فإنّ ذلك إنّما يكون فيما اقتضى الظاهر سَبكًا معيّنًا ولكن يُعدَل عن ذلك لنُكتة أهمّ منه، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى هُوَ[٧] يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء، ٧٩/٢٦-٨٠]، فإنّ مقتضى الظاهر أن يقال: "والذي يُسقِمني ويشفين"، ولكن غُيّر إلى ما عليه النظم الكريم تفاديًا عن إسناد ما تكرَهه النفس إليه سبحانه.

---

١ م س - بِٱلْحَقِّ.
٢ النحل، ٣/١٦.
٣ في الآية السابقة.
٤ وفي هامش م: وهو كون القصد بمعنى الفاعل. «منه».
٥ وفي هامش م: وهو كون القصد مصدرًا. «منه».
٦ في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٨/٢.
٧ م س - هُوَ.

وليس المراد ببيان قَصْد السبيل مجرّدَ إعلام أنّه مستقيم حتّى يصِحّ إسناد أنّه جائرٌ إليه تعالى، فيُحتاجَ إلى الاعتذار عن عدم ذلك، على أنّه لو أُريدَ ذلك لم يوجد لتغيير الأسلوب نكتةٌ، وقد بُيِّن ذلك في مواضعَ غير معدودة؛ بل المرادُ ما مرّ مِن نَصْب الأدلّة لهداية الناس إليه، ولا إمكانَ لإسناد مثله إليه تعالى بالنسبة إلى الطريق الجائر بأن يقال: "وجائرُها" حتّى يُصرَف ذلك الإسناد منه تعالى إلى غيره لنكتة تستدعيه، ولا يتوهَّمه متوهِّم حتّى يقتضيَ الحال دفعَ ذلك بأن يقال: "لا جائرُها"، ثمّ يُغيَّر سبك النظم عن ذلك لداعية أقوى منه؛ بل الجملة الظرفيّة اعتراضيّة جيء بها لبيان الحاجة إلى البيان والتعديل وإظهارِ جلالة قدر النعمة في ذلك، والمعنى: على الله تعالى بيانُ الطريق المستقيم الموصلِ إلى الحقّ وتعديلُه بما ذُكِر مِن نَصْب الأدلّة ليسلُكَه الناس باختيارهم ويصلوا إلى المقصِد.

وهذا هو الهداية المفسَّرة بالدلالة على ما يوصِل إلى المطلوب لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتّةَ، فإنّ ذلك ممّا ليس بحقّ على الله تعالى لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته؛ / بل هو مُخِلّ بحكمته حيث يستدعي تسوية المحسِن والمسيء والمطيعِ والعاصي بحسب الاستعداد، وإليه أشيرَ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لو شاء أن يهديَكم إلى ما ذُكِر مِن التوحيد هداية موصِلة إليه البتّةَ مستلزِمة لاهتدائكم أجمعين لفعَل ذلك، ولكن لم يشأه لأنّ مشيئته تابعة للحكمة الداعية إليها، ولا حكمةَ في تلك المشيئة، لِما أنّ الذي عليه يدور فلَك التكليف وإليه ينسحِب الثواب والعقاب إنّما هو الاختيار الجُزئي الذي عليه تترتّب الأعمال التي بها نِيط الجزاء. هذا هو الذي يقتضيه المقام ويستدعيه حُسن الانتظام. [٣١٢ظ]

وقد فُسِّر كون قَصْد السبيل عليه تعالى بانتهائه إليه على نهج الاستقامة، وإيثارُ حرف الاستعلاءِ على أداة الانتهاء لتأكيد الاستقامة على وجه تمثيلي مِن غير أن يكون هناك استعلاء لشيء عليه سبحانه وتعالى عنه عُلوًّا كبيرًا، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر، ٤١/١٥]. فـ"القَصْد" مصدر بمعنى الفاعل،

والمراد بـ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ الجنس كما مرّ، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ معطوف على الجملة الأولى، والمعنى أنّ قَصْد السبيل واصل إليه تعالى بالاستقامة وبعضُها منحرِف عنه ولو شاء لهداكم جميعًا إلى الأوّل.

وأنت خبيرٌ بأن هذا حقّ في نفسه، ولكنّه بمَعزِل عن نكتة موجِبة لتوسيطه بين ما سبَق مِن أدلّة التوحيدِ وبين ما لحِق.

ولمّا بُيِّن الطريق السمعي للتوحيد علىٰ وجه إجمالي وفصِّل بعض أدلّته المتعلِّقة بأحوال الحيوانات، وعُقِّب ذلك ببيان السرّ الداعي إليه بعثًا للمخاطَبين على التأمُّل فيما سبَق وحثًّا على حُسن التلقّي لِما لحِق، أُتبِع ذلك[١] ذِكرُ ما يدلّ عليه مِن أحوال النبات فقيل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ بقدرته القاهرة ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مِن السحاب أو مِن جانب السماء ﴿مَآءً﴾ أي: نوعًا منه وهو المطر. وتأخيره عن المجرور / لِما مرّ مِرارًا مِن أنّ المقصود هو الإخبار بأنّه أنزل مِن السماء [٣١٣و] شيئًا هو الماء لا أنّه أنزله مِن السماء، والسرُّ فيه ما سلَف مِن أنّ عند تأخيرِ ما حقُّه التقديمُ يبقى الذهن مترقِّبًا له مشتاقًا إليه فيتمكّن لديه عند وروده عليه فضلَ تمكّن.

﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أي: ما تشربونه، وهو إمّا مرتفعٌ بالظرف الأوّل أو مبتدأٌ وهو خبره والجملةُ صفة لـ﴿مَآءً﴾، والظرفُ الثاني نصبٌ على الحاليّة مِن ﴿شَرَابٌ﴾، و﴿مِن﴾ تبعيضيّة. وليس في تقديمه إيهامُ حَصْر المشروب فيه حتّى يفتقر إلى الاعتذار بأنّه لا بأسَ به؛ لأنّ مياه العيون والآبار[٢] منه لقوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر، ٢١/٣٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون، ١٨/٢٣].[٣]

وقيل: الظرف الأوّل متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾، والثاني خبر لـ﴿شَرَابٌ﴾، والجملةُ صفة لـ﴿مَآءً﴾.[٤]

---

١ السياق: ولمّا بُيِّن... أُتبِع ذلك...

٢ رسمت في م: الأبئار. | ولعلّ المُصنِّف أراد لفظ الأصل فيها وهو "الأبآر"

٣ هذا الاعتذار في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٤/٢.

٤ انظر: اللباب لابن عادل، ٢١/١٢.

وأنت خبير بأنّ ما فيه مِن توسيط المنصوب بين المجرورين وتوسيطِ الثاني منهما بين "الماء" وصفتِه ممّا لا يليق بجزالة نَظْم التنزيل الجليل.

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ ﴿مِن﴾ ابتدائيّة، أي: ومنه يحصُل شجر ترعاه المواشي، والمراد به ما ينبُت مِن الأرض سواء كان له ساق أو لا، أو تبعيضيّة مجازًا؛ لأنّه لمّا كان سقيُه مِن الماء جُعِل كأنّه منه، كقوله:

أسـنـمـةُ الآبـالِ فـي رَبـابـهِ[١]

يعني به المطرَ الذي ينبت به الكلأ الذي تأكله الإبل فتسمَن أسنِمتُها. وفي حديث عكرِمةَ: «لا تأكُلوا ثمن الشجر فإنّه سُحْت»،[٢] يعني الكلأ. ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ترعَون مِن "سامَت الماشية، وأسامَها صاحبها"، وأصلُها "السُّومة" وهي: العلامة؛ لأنّها تؤثِّر بالرعي علاماتٍ في الأرض.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿يُنۢبِتُ﴾ أي: الله عزّ وجلّ، وقُرئ بالنون.[٣] ﴿لَكُم بِهِ﴾ أي:[٤] بما أنزل مِن السماء ﴿ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ﴾ بيان للنِّعم الفائضة عليهم مِن الأرض بطريق الاستئناف. وإيثار صيغة الاستقبالِ للدلالة على التجدّد والاستمرار وأنّها سنّته الجارية على مرّ الدهور، / أو لاستحضار صورة الإنبات. [٣١٣ظ]

وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لِما مرّ آنفًا مع ما في تقديم أوّلهما مِن الاهتمام به لإدخال المسرّة ابتداءً. وتقديم ﴿ٱلزَّرْعَ﴾ على ما عداه؛

---

١ في هامش م: وهو السحاب الأبيض. | والرجز ما عرفتُ قائله. وهو بلا نسبة في الكامل للمبرّد، ٤٢٦/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٤١٦/٣ (الأحزاب، ٤٩/٣٣)؛ ومفتاح العلوم للسكّاكي، ٣٦٥/١، وفيها «سحابه» مكان «ربابه»؛ واللباب لابن عادل، ٢١/١٢، وهو فيها جميعًا على ما نحن فيه. وقال المبرّد في شرحه: «أراد أنّ ذلك السّحاب يُنبِت ما تأكله الإبل؛ فيصير شُحومًا في أسنِمتها».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٨/٢؛ تفسير الرازي، ١٨٠/١٩؛ اللباب لابن عادل، ٢١/١٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٢٥/٢.

٣ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٠٢/٢.

٤ م – أي.

لأنّه أصل الأغذية وعَمود المعاش. وتقديم ﴿ٱلزَّيْتُونَ﴾ لِما فيه مِن الشرف مِن حيث إنّه إدام مِن وجه وفاكهةٌ مِن وجه. وتقديم ﴿ٱلنَّخِيلَ﴾ على ﴿ٱلْأَعْنَٰبَ﴾ لظهور أصالتها وبقائها. وجُمع ﴿ٱلْأَعْنَٰبَ﴾ للإشارة إلى ما فيها مِن الاشتمال على الأصناف المختلفة.

وتخصيص الأنواع المعدودة بالذِّكر مع اندراجها تحت قولِه تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ للإشعار بفضلها. وتقديم "الشجر"[١] عليها مع كونه غذاءً للأنعام لحصوله بغير صُنع مِن البشر، أو للإرشاد إلى مكارم الأخلاق، فإنّ مقتضاها أن يكون اهتمام الإنسان بأمر ما تحت يده أكملَ مِن اهتمامه بأمر نفسه، أو لأنّ أكثر المخاطَبين مِن أصحاب المواشي ليس لهم زرعٌ ولا ثمرٌ. وقيل: المراد تقديم ما يُسام لا تقديمُ غذائه، فإنّه غذاء حيواني للإنسان، وهو أشرف الأغذية.[٢] وقُرئ: "يَنْبُتُ"[٣] مِن الثلاثي مسندًا إلى ﴿ٱلزَّرْعَ﴾ وما عُطف عليه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنزال الماء وإنباتِ ما فُصِّل ﴿لَأٓيَةً﴾ عظيمة دالّة على تفرّده تعالى بالألوهيّة لاشتماله على كمال العِلم والقدرة والحكمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنّ مَن تفكّر في أنّ الحبّة أو النواة تقع في الأرض وتصِل إليها نداوة تنفُذ فيها فينشقّ أسفلها فيخرُج منه عروق تنبسِط في أعماق الأرض، وينشقّ أعلاها وإن كانت مُنتكِسة في الوقوع، ويخرُج منه ساق فينمو وتخرُج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتمِلة على أجسام مختلفةِ الأشكال والألوان والخواصّ والطبائع، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثالِ على النمط المحرَّر لا إلى نهاية، مع اتّحاد الموادّ واستواء نسبة الطبائع السفليّة والتأثيرات العُلويّة بالنسبة إلى الكلّ، عَلِمَ[٤] أنّ مَن هذه أفعالُه وآثارُه لا يُمكِن أن يشبِهه شيء في شيء مِن صفات الكمال فضلًا / عن أن تُشاركه أخسُّ الأشياء في أخصّ صفاته [٣١٤و] التي هي الألوهيّة واستحقاق العبادة، تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا. وحيث افتقر سلوكُ هذه الطريقة إلى ترتيب المقدِّمات الفكريّة قطَع الآية الكريمة بالتفكّر.

---

١ في الآية السابقة.

٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٥٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٦.

٤ السياق: فإنّ مَن تفكّر... عَلِمَ...

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان خِلْفةً لمنامكم ومعاشكم ولعَقد الثمار وإنضاجها ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ يَدْأبان في سَيرهما وإنارتهما أصالةً وخلافةً وإصلاحِهما لِما نِيط بهما صلاحه مِن المكوِّنات التي مِن جملتها ما فُصِّل وأُجمِل، كلُّ ذلك لمصالحكم ومنافعكم، وليس المراد بتسخيرها لهم تمكينَهم مِن تصرّفها كيف شاءوا، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ [الزخرف، ١٣/٤٣] ونظائرِه؛ بل هو تصريفه تعالى لها حسبما تترتّب عليه منافعهم ومصالحهم، كأنّ ذلك تسخير لهم وتصرّف مِن قِبَلهم حسب إرادتهم.

وفي التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير إيماءٌ إلى ما في المسخَّرات مِن صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطَبين، وإيثارُ صيغة الماضي للدلالة على أنّ ذلك أمر واحد مستمرّ وإن تجدَّدت آثاره.

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ مبتدأ وخبر، أي: سائر النجوم في حركاتها وأوضاعها مِن التثليث والتربيع ونحوهما مسخَّراتٌ لله تعالى أو لِما خُلقن له بإرادته ومشيئته، وحيث لم يكن عَودُ منافع النجوم إليهم في الظهور بمثابة ما قبلها مِن المَلَوَين[١] والقمَرَين لم يُنسَب تسخيرها إليهم بأداة الاختصاص؛ بل ذُكر على وجه يفيد كونَها تحت ملكوته تعالى مِن غير دلالة على شيء آخرَ، ولذلك عُدِل عن الجملة الفعليّة الدالّة على الحدوث إلى الاسميّة المفيدة للدوام والاستمرار.

وقُرئ برفع ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أيضًا،[٢] وقرئ بنصب ﴿ٱلنُّجُومُ﴾[٣] على أنه مفعول أوّلُ لفعل مقدَّر يُنبئ عنه الفعل المذكور و"مُسخَّراتٍ" / مفعولٌ ثانٍ له، [٣١٤ظ]

---

[١] الملوان: الليل والنهار. لسان العرب لابن منظور، «ملو».

[٢] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٠٢/٢.

[٣] قرأ بها العشرة إلّا ابن عامر وحفصًا. النشر لابن الجزري، ٣٠٣/٢.

أي: وجعَل النجوم مسخَّراتٍ بأمره، أو على أنّه معطوف على المنصوبات المتقدِّمة و"مُسخَّراتٍ" حال مِن الكلّ، والعامل ما في ﴿سَخَّرَ﴾ مِن معنى نفَع، أي: نفَعكم بها حالَ كونها مسخَّراتٍ لله الذي خلَقها ودبَّرها كيف شاء، أو لِما خُلقنَ له بإيجاده وتقديره، أو لحُكمه، أو مصدرٌ ميميّ جُمع لاختلاف الأنواع، أي: أنواعًا مِن التسخير.

وما قيل مِن أنّ فيه إيذانًا بالجواب عمّا عسى يقال إنّ المؤثِّر في تكوين النبات حركاتُ الكواكب وأوضاعُها، بأنّ ذلك إن سَلِم فلا ريبَ في أنّها أيضًا أمور ممكِنةُ الذات والصفات واقعةٌ على بعض الوجوه الممْكِنة، فلا بدّ لها مِن مُوجِد مخصِّص مختار واجبِ الوجود دفعًا للدَّور والتسلسل،[1] فمبناه حِسبان ما ذُكر أدلّةً على وجود الصانع تعالى وقدرته واختياره، وأنت تدري أن ليس الأمر كذلك فإنّه ليس ممّا يُنازع فيه الخصم ولا يتلعثم في قَبوله، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت، ٦١/٢٩]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ الآية [العنكبوت، ٦٣/٢٩]، وإنّما ذلك أدلّة التوحيد مِن حيث إنّ مَن هذا شأنه لا يتوهَّم أن يُشارِكه شيء في شيء فضلًا عن أن يُشارِكه الجماد في الألوهيّة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن التسخير المتعلِّق بما ذُكر مُجمَلًا ومُفصَّلًا ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ باهرةً متكاثِرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وحيث كانت هذه الآثار العُلويّة متعدِّدةً ودلالةُ ما فيها مِن عظيم القدرة والعِلم والحكمة على الوحدانيّة أظهرَ جُمع الآيات وعُلِّقت بمجرّد العقل مِن غير حاجة إلى التأمّل والتفكّر، ويجوز أن يكون المراد "لِقوم يعقلون ذلك"، فالمشار إليه / حينئذ تعاجيب الدقائق المُودَعةِ في العُلويّات المدلولِ عليها بالتسخير التي لا يتصدّى لمعرفتها إلّا المهَرة مِن أساطين علماء الحكمة، ولا ريبَ في أنّ احتياجها إلى التفكّر أكثر. [٣١٥و]

---

[1] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٥/٢.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾[1] رفعًا ونصبًا على أنّه مفعول لـ"جعَل"،[2] أي: وما خلَق ﴿لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مِن حيوان ونبات حال كونه ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: أصنافُه، فإنّ اختلافها غالبًا يكون باختلاف اللون مسخَّرٌ لله تعالى أو لِما خُلق له مِن الخواصّ والأحوال والكيفيّات، أو جُعل ذلك مختلفَ الألوان، أي: الأصنافِ لتتفنّنوا في التمتّع بها،[3] وقد عُطف على ما قبله مِن المنصوبات، وعُقِّب بأنّ ذِكر الخلق لهم مغنٍ عن ذِكر التسخير.

واعتُذر بأنّ الأوّل لا يستلزم الثانيَ لزومًا عقليًّا لجواز كون ما خُلق لهم عزيزَ المرام صعبَ المنال. وقيل:[4] هو منصوب بفعل مقدَّر، أي: "خلَق وأنبَت"، على أن قوله: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ حال مِن مفعوله.[5]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن التسخيرات ونحوها ﴿لَءَايَةً﴾ بيّنةَ الدلالة على أنّ مَن هذا شأنه واحد لا نِدَّ له ولا ضِدَّ.

﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فإنّ ذلك غيرُ محتاج إلّا إلى تذكّر ما عسى يُغفَل عنه مِن العلوم الضروريّة، وأمّا ما يقال مِن أنّ اختلافها في الطباع والهيئات والمناظر ليس إلّا بصُنع صانع حكيم فمدارُه ما لوّحنا به مِن حِسبان ما ذُكر دليلًا على إثبات الصانع تعالى، وقد عرفتَ حقيقة الحال فإنّ إيراد ما يدلّ على اتّصافه سبحانه بما ذُكر مِن صفات الكمال ليس بطريق الاستدلال عليه؛ بل مِن حيث إنّ ذلك مِن المقدِّمات المسلَّمة، جيء به للاستدلال به على ما يقتضيه ضرورةً مِن وحدانيّته تعالى واستحالةِ أن يشارِكه شيء في الألوهيّة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

---

[1] في الآية السابقة.

[2] المُقدَّر، كما مضى في وجوه إعراب ﴿ٱلنُّجُومُ﴾.

[3] م ط س: لتتمتَّعوا مِن ذلك بأيّ صنف شئتم [صُحّح في هامش م].

[4] وفي هامش م: أبو البقاء.

[5] انظر: التبيان للعكبري، ٢/٧٩١، وهو عنه في اللباب لابن عادل، ١٢/٢٧.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ شروع في تعداد النِّعم / المتعلِّقة بالبحر إثرَ تفصيل [٣١٥ظ] النِّعم المتعلِّقة بالبرّ حيوانًا ونباتًا، أي: جعَله بحيث تتمكّنون مِن الانتفاع به بالركوب والغَوص والاصطياد ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمَك. والتعبير عنه بـ"اللحم" مع كونه حيوانًا للتلويح بانحصار الانتفاع به في الأكل، ووصفُه بـ"الطراءة" للإشعار بلطافته والتنبيهِ على وجوب المسارَعة إلى أكْله كيلا يتسارع إليه الفساد، كما يُنبئ عنه جَعْل البحر مبتدأً أكلِه، وللإيذان بكمال قدرته تعالى في خَلْقه عذبًا طريًّا في ماء زُعاق.[١]

ومِن إطلاق اللحم عليه ذهَب مالك والثوريّ إلى أنّ مَن حلَف لا يأكل اللحم حنِث بأكله. والجواب أنّ مبنى الأيمان العُرف، ولا ريبَ في أنّه لا يُفهَم مِن اللحم عند الإطلاق، ولذلك لو أمَر خادمه بشراء اللحم فجاء بالسمك لم يكن ممتثِلًا بالأمر، ألا يُرى إلى أنّ الله تعالى سمّى الكافر دابّة حيث قال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال، ٨/٥٥]، ولا يحنَث بركوبه مَن حلَف لا يركبُ دابّة.[٢]

﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً﴾ كاللؤلؤ والمَرْجان ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ عُبّر في مقام الامتنان عن لُبس نسائهم بلُبْسهم لكونهنّ منهم أو لكون لُبسِهنّ لأجلهم.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ السُّفن ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جواريَ فيه مُقبِلةً ومُدبِرة ومعترِضة بريح واحدة، تشقُّه بحَيْزُومها،[٣] مِن المَخْر: وهو شقُّ الماء، وقيل: هو صوت جَرْي الفُلك.[٤]

﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾ عطفٌ على ﴿تَسْتَخْرِجُواْ﴾ وما عُطِف هو عليه، وما بينهما اعتراض لتمهيد مبادي الابتغاء ودَفْع توهُّم كونه باستخراج الحِلية، أو على علّة محذوفة، أي: لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا، ذكَره ابن الأنباري،[٥] أو متعلِّقة بفعل محذوفٍ، أي: وفعَل ذلك لتبتغوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ مِن سَعة رزقِه بركوبها للتجارة.

---

١ الماء الزُّعاق: المُرّ الغليظ الذي لا يُطاق شربه من ملوحته. لسان العرب لابن منظور، «زعق».

٢ الكلام على ما ذهبا إليه بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٥٥؛ وبمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣٩.

٣ الحيزوم: الصدر. لسان العرب لابن منظور، «حزم».

٤ هو قول الفرّاء في معاني القرآن، ٢/٩٨، وذكَره عنه الزمخشري في الكشّاف، ٢/٤٣٩؛ وابن عادل في اللباب، ١٢/٢٩.

٥ هو له في اللباب لابن عادل، ١٢/٣١.

[٣١٦و] ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: / تعرِفون حقوق نِعَمه الجليلة فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد، ولعلّ تخصيصَ هذه النعمة بالتعقيب بالشكر مِن حيث إنّ فيها قطعًا لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة في مدّة قليلة مِن غير مزاولة أسباب السفر؛ بل مِن غير حركة أصلًا مع أنّها في تضاعيف المهالك. وعدمُ توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر للإيذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معًا.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالًا ثوابتَ، وقد مرّ تحقيقُه في أوّل سورة الرعد.[١]

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهةَ أن تميل بكم وتضطربَ، أو لئلّا تميدَ بكم، فإنّ الأرض قبل أن تُخلَق فيها الجبال كانت كُرَة حقيقيّة بسيطة الطبع، وكان مِن حقّها أن تتحرّك بالاستدارة كالأفلاك أو تتحرّكَ بأدنى سبب مُحرِّك، فلمّا خُلقت الجبال تفاوتت حافّاتها وتوجّهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد. وقيل: لمّا خلَق الله تعالى الأرض جعلَت تَمور فقالت الملائكة: ما هي بمَقَرِّ أحدٍ على ظهرها[٢] فأصبحت وقد أُرسِيت بالجبال.[٣]

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي: وجعَل فيه أنهارًا؛ لأنّ في ﴿أَلْقَىٰ﴾ معنى الجَعْل ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بها إلى مقاصدكم.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ معالمَ يَستدِلّ بها السابلة بالنهار مِن جبل ومَنهَل وريح، وقد نُقل أنّ جماعة يشمّون الترابَ ويتعرّفون به الطرقات.

﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بالليل في البراري والبحار حيث لا علامةَ غيرُه. والمراد بالنجم الجنسُ. وقيلَ: هو الثُّريّا والفَرْقدان وبنات النَّعْش والجَدْيُ.[٤]

---

١ في تفسير الآية الثالثة منها.

٢ وفي هامش م: صفة "أحد"، أي: كائن على ظهرها. «منه».

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٠.

٤ مرويّ عن السدّي في معالم التنزيل للبغوي، ١٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٠.

وقُرئ بضمّتين،[1] وبضمّة وسكون،[2] وهو جمع كـ"رَهْن" و"رُهُن" و"رُهْن". وقيل: الأوّل بطريق حذف الواو مِن "النجوم" للتخفيف.[3] ولعلّ الضميرَ لقريش فإنّهم / كانوا كثيري التردّد للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم في أسفارهم. [٣١٦ظ] وصَرْفُ النظم عن سَنَن الخطاب وتقديمُ ﴿ٱلنَّجۡمِ﴾ وإقحامُ الضمير للتخصيص، كأنّه قيل: وبالنجم خصوصًا هؤلاء خصوصًا يهتدون، فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزَمُ لهم وأوجَب عليهم.

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هاتيك الأفاعيلَ البديعة، أو يخلُق كلّ شيء ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُ﴾ شيئًا أصلًا، وهو تبكيت للكفَرة وإبطال لإشراكهم وعبادتِهم للأصنام بإنكار ما يستلزمه ذلك مِن المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى بعد تعداد ما يقتضي ذلك اقتضاء ظاهرًا. وتعقيبُ الهمزة بـ"الفاء" لتوجيه الإنكار إلى ترتُّب توهُّم المشابهة المذكورة على ما فُصِّل مِن الأمور العظيمة الظاهرة الاختصاصِ به تعالى المعلومة كذلك فيما بينهم، حسبما يُؤذِن به ما تلَوناه مِن قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ الآيتين [العنكبوت، ٦١/٢٩، ٦٣].

والاقتصار على ذِكر الخلق مِن بينها لكونه أعظمَها وأظهرَها واستتباعِه إيّاها، أو لكون كلّ منها خَلْقًا مخصوصًا، أي: أبَعْدَ ظهورِ اختصاصه تعالى بمبدئيّة هذه الشئون الواضحة الدلالة على وحدانيّته تعالى وتفرُّده بالألوهيّة واستبداده باستحقاق العبادة، يُتصوَّر المشابهة بينه وبين ما هو بمَعزِل مِن ذلك بالمرّة كما هو قضيّة إشراككم، ومدارُها وإن كان على تشبيه غير الخالق بالخالق، لكنّ التشبيه حيث كان نسبةً تقوم بالمنتسِبين اختير ما عليه النظم الكريم مراعاةً لحَقّ سَبْق الملَكة على العدم وتفاديًا عن توسيط عدمها بينها وبين جزئيّاتها

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ومجاهد وابن قُطيب والأديب عن أبي بكر عن عاصم. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٧٦؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٦٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٠٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٦٩.

[3] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٤٠/٢.

المفصَّلة قبلها وتنبيهًا على كمال قُبْح ما فعلوه مِن حيث إنّ ذلك ليس مجرّد رَفْع الأصنام عن محلِّها؛ بل هو حطّ لمنزلة الربوبيّة إلى مرتبة الجمادات، / ولا [٣١٧و] ريبَ في أنّه أقبح مِن الأوّل.

والمراد بـ﴿مَن لَّا يَخْلُقُ﴾ كلُّ ما هذا شأنه كائنًا ما كان، والتعبيرُ عنه بما يختصّ بالعقلاء للمشاكلة، أو العقلاء خاصّة، ويُعرَف منه حال غيرهم بدلالة النصّ فإنّ مَن يخلُق حيث لم يكن كمَن لا يخلق وهو مِن جملة العقلاء، فما ظنُّك بالجماد؟ وأيًّا ما كان فدخول الأصنام في حُكم عدم المماثلة والمشابهة: إمّا بطريق الاندراج تحت الموصول العامّ، وإما بطريق الانفهام بدلالة النصّ على الطريقة البرهانيّة، لا بأنّها هي المرادة بالموصول خاصّة.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ألا تلاحظون فلا تتذكَّرون ذلك فإنّه لوضوحه بحيث لا يفتقِر إلى شيء سوى التذكُّر.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨﴾

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ تذكير إجمالي لِنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها، وكان الظاهر إيرادَه عقيبَها تكملةً لها على طريقة قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.[١] ولعلّ فصْلَ ما بينهما بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ للمبادرة إلى إلزام الحجّة وإلقامِ الحجر إثْرَ تفصيل ما فُصِّل مِن الأفاعيل التي هي أدلّة الوحدانيّة مع ما فيه مِن سرّ ستقف عليه، ودلالتها عليها وإن لم تكن مقصورة على حيثيّة الخَلْق ضرورةَ ظهور دلالتها عليها مِن حيثيّة الإنعام أيضًا، لكنّها حيث كانت مِن مستتبعات الحيثيّة الأولى استُغنِيَ عن التصريح بها ثمّ بُيِّن حالها بطريق الإجمال، أي: إن تعدّوا نعمته الفائضة عليكم ممّا ذُكِر وما لم يُذكَر حسبما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، ٢/٢٩].

﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تُطيقوا بحَصْرها وضبط عددها ولوْ إجمالًا، فضلًا عن القيام بشُكرها، وقد خرجنا عن عُهدة تحقيقه في سورة إبراهيمَ[٢] بفضل الله سبحانه.

---

[١] النحل، ١٦/٨.

[٢] في تفسير إبراهيم، ١٤/٣٤.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ حيث يَستُر ما فرَط منكم مِن كفرانها والإخلال بالقيام بحقوقها، ولا يُعاجلكم بالعقوبة على ذلك، / ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث يُفيضها عليكم [٣١٧ظ] مع استحقاقكم للقطع والحِرمان بما تأتون وتذرون مِن أصناف الكفر التي مِن جملتها عدم الفرق بيَن الخالق وغيره،[١] وكلٌّ مِن ذلك نعمة وأيُّما نعمة، فالجملةُ تعليل للحكم بعدم الإحصاء، وتقديمُ وصف المغفرة على نعت الرحمة لتقدّم التخلية على التحلية.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝١٩﴾

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ تُضمِرونه مِن العقائد والأعمال، ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: تُظهرونه منهما، وحُذف العائد لمراعاة الفواصل، أي: يستوي بالنسبة إلى عِلمه المحيط سِرُّكم وعَلَنكم، وفيه مِن الوعيد والدلالة على اختصاصه سبحانه بنعوت الإلهيّة ما لا يخفى. وتقديم السرّ على العلن لِما ذكرناه في سورة البقرة وسورة هود[٢] مِن تحقيق المساواة بين عِلمَيه المتعلِّقَين بهما على أبلغ وجه، كأنّ عِلمه تعالى بالسرّ أقدم منه بالعلن، أو لأنّ كلّ شيء يُعلَن فهو قبل ذلك مُضمَر في القلب، فتعلّقُ عِلمه تعالى بحالته الأُولى أقدم مِن تعلّقه بحالته الثانية.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ شروع في تحقيق كون الأصنام بمَعزِل مِن استحقاق العبادة وتوضيحِه بحيث لا يبقى فيه شائبة ريب بتعديد أوصافها وأحوالها المنافية لذلك منافاة ظاهرة، وتلك الأحوال وإن كانت غنيّة عن البيان، لكنّها شُرِحت للتنبيه على كمال حماقة عبَدَتها وأنّهم لا يعرِفون ذلك إلّا بالتصريح، أي: والآلهة الذين يعبدهم الكفّار ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه. وقُرئ على صيغة

---

[١] وفي هامش م: وهذا هو السرّ الموعود. «منه».

[٢] وفي هامش م: وقد فُصِّل الأمر هناك بما لا مزيدَ عليه. «منه».

المبنيّ للمفعول[١] وعلى الخطاب.[٢] ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ مِن الأشياء أصلًا، أي: ليس مِن شأنهم ذلك.

ولمّا لم يكن بين نفي الخالقيّة وبين المخلوقيّة تلازُم بحسب المفهوم وإن تلازما في الصدق أثبِتَ لهم ذلك صريحًا فقيل: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: شأنُهم ومقتضى ذاتِهم المخلوقيّة؛ لأنّها ذوات ممكِنة مفتقِرة في ماهيّاتها ووُجُوداتها إلى المُوجِد. وبناءُ الفعل للمفعول لتحقيق التضادّ والمقابلة بين ما أثبِتَ لهم وبين ما نُفي عنهم / مِن وصفَي المخلوقيّة والخالقيّة، وللإيذان بعدم الافتقار إلى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله جلّ جلاله. [٣١٨و]

ويجوز أن يُجعَل الخَلْق الثاني عبارةً عن النحت والتصوير رعاية للمشاكلة بينه وبين الأوّل ومبالغة في كونهم مصنوعين لعبدتهم وأعجز عنهم وإيذانًا بكمال ركاكة عقولهم، حيث أشركوا بخالقهم مخلوقَهم، وأمّا جعلُ الأوّل أيضًا عبارةً عن ذلك كما فُعل فلا وجهَ له، إذ القدرة على مثل ذلك الخلق ليست ممّا يدور عليه استحقاق العبادة أصلًا.

ولِما أنّ إثبات المخلوقيّة لهم غير مستدعٍ لنفي الحياة عنهم لِما أنّ بعض المخلوقين أحياء صُرِّح بذلك فقيل: ﴿أَمْوَٰتٌ﴾ وهو خبر ثانٍ للموصول لا للضمير كما قيل، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ. وحيث كان بعض الأموات ممّا يعتريه الحياة سابقًا أو لاحقًا كأجساد الحيوان والنُّطف التى يُنشِئها الله تعالى حَيَوَانًا احترُز عن ذلك فقيل: ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أي: لا يعتريها الحياة أصلًا فهي أمواتٌ على الإطلاق.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: ما يشعر أولئك الآلهة أيّان يُبعث عَبَدتهم فعلى طريقة التهكّم بهم؛ لأنّ شعور الجماد بالأمور الظاهرة بديهيُّ الاستحالة عند كلّ أحدٍ فكيف بما لا يعلمه إلّا العليم الخبير؟ وفيه إيذان بأنّ البعث مِن لوازم التكليف وأنّ معرفة وقته ممّا لا بدّ منه في الألوهيّة.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني والزعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٦؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١١٠٢.

[٢] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وابن عامر وحمزة وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٣.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا يشاركه شيء في شيء، وهو تصريح بالمُدّعى وتلخيص للنتيجة غِبَّ إقامةِ الحجّة. ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وأحوالِها التي مِن جملتها ما ذُكِر مِن البعث وما يعقُبه مِن الجزاء المستلزِم لعقوبتهم وذِلّتهم ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ للوَحدانيّة جاحدة لها أو للآيات الدالّة عليها. ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتراف بها، / أو عن الآيات الدالّة عليها. [٣١٨ظ]

و"الفاء" للإيذان بأنّ إصرارهم على الإنكار واستمرارهم على الاستكبار وقَع مَوقِع النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة، والمعنى أنّه قد ثبَت بما قُرّر مِن الحُجَج والبيِّنات اختصاص الإلهيّة به سبحانه، فكان مِن نتيجة ذلك إصرارهم على ما ذُكر مِن الإنكار والاستكبار.

وبناءُ الحكم المذكورِ على الموصول للإشعار بكونه معلَّلًا بما في حيّز الصلة، فإنّ الكفر بالآخرة وبما فيها مِن البعث والجزاء المتنوّع إلى الثواب على الطاعة والعقابِ على المعصية يؤدِّي إلى قَصْر النظر على العاجل والإعراضِ عن الدلائل السمعيّة والعقليّة الموجبِ لإنكارها وإنكارِ مؤدّاها والاستكبارِ عن اتّباع الرسول عليه السلام وتصديقِه، وأمّا الإيمان بها وبما فيها فيدعو لا محالةَ إلى التأمّل في الآيات والدلائل رغبةً ورهبة فيُورث ذلك يقينًا بالوحدانيّة وخضوعًا لأمر الله تعالى.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا، وقد مرّ تحقيقُه في سورة هود[١] ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مِن إنكار قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مِن استكبارهم وقولِهم للقرآن: أساطيرُ الأولين وغيرِ ذلك مِن قبائحهم فيُجازيهم بذلك.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ تعليل لِما تضمَّنه الكلام مِن الوعيد، أي: لا يحِبّ المستكبِرين عن التوحيد أو عن الآيات الدالّة عليه، أو لا يحِبّ جنس المستكبِرين فكيف بمن استكبر عمّا ذُكر.

---

[١] في تفسير الآية الثانية والعشرين منها.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٢٤﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ أي: لأولئك المنكِرين المستكبِرين، وهو بيان لإضلالهم غِبَّ بيان ضلالهم. ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ القائلُ الوافدون عليهم أو المسلمون أو بعضٌ منهم على طريق التهكُّم. و﴿مَاذَا﴾ منصوب[1] بما بعده، أو مرفوع،[2] أي: أيَّ شيء أنزل؟ أو ما الذي أنزله؟

[٣١٩و] / ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما تدّعون نزوله، أو المنزَلُ بطريق السخرية أحاديثُ الأوّلين وأباطيلهم، وليس مِن الإنزال في شيء. قيل: هؤلاء القائلون هم المقتسِمون الذين اقتسموا مداخلَ مكّةَ ينفِرون عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند سؤال وفود الحاجّ عمّا نزل عليه عليه السلام.

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾ متعلّق بـ"قالوا"، أي قالوا ما قالوا ليحملوا ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ الخاصّة بهم، وهي أوزار ضلالهم ﴿كَامِلَةً﴾ لم يُكفَّر منها شيء بنكبة أصابتهم في الدنيا كما يُكفَّر بها أوزار المؤمنين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾.

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ وبعضِ أوزار مَن ضلّ بإضلالهم وهو وِزر الإضلال لأنّهما شريكان، هذا يُضلّه وهذا يُطاوعه فيتحاملان الوِزر. و"اللام" للتعليل في نفس الأمر مِن غير أن يكون غرَضًا، وصيغةُ الاستقبال للدلالة على استمرار الإضلالِ أو باعتبار حال قولِهم لا حالِ الحَمْل.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال مِن الفاعل، أي: يضلّونهم غيرَ عالمين بأنّ ما يدّعون إليه طريق الضلال. وأمّا حملُه على معنى غيرَ عالمين بأنّهم يحمِلون يوم القيامة أوزار الضلال والإضلال على أن يكون العامل في الحال "قالوا" وتأييدُه بما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[3] مِن حيث إنّ حَمل ما ذُكر

---

[1] وفي هامش م: على أنّه اسم واحد بمعنى: أيُّ شيء؟ «منه».

[2] وفي هامش م: على أنّ "ما" استفهاميّة و"ذا" بمعنى "الذي". «منه».

[3] في الآية التالية.

مِن أوزار الضلال والإضلال مِن قبيل إتيان العذاب مِن حيث لا يشعرون، فيردُّه[1] أنّ الحَمل المذكور إنّما هو يوم القيامة والعذابَ المذكور إنّما هو العذاب الدنيوي، كما ستقف عليه.

أو حال مِن المفعول،[2] أي: يضلُّون مَن لا يعلم أنّهم ضُلّال. وفائدة التقييد بها الإشعارُ بأنّ مَكرهم لا يرُوج عند ذي لُبّ، وإنّما يتبعهم الأغبياء والجهَلة، والتنبيهُ على أنّ جهلهم ذلك لا يكون عُذرًا؛ إذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميّزوا بين المُحِقّ الحقيق بالاتّباع وبين المُبطِل.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: بئس شيئًا يزرونه ما ذُكر.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

/ ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وعيد لهم برجوع غائلة مكرِهم إلى أنفسهم كدأب مَن قبلهم مِن الأمم الخالية الذين أصابهم ما أصابهم مِن العذاب العاجل، أي: قد سوَّوا مَنْصُوباتٍ ليمكروا بها رسلَ الله تعالى، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ﴾ أي: أمره وحُكمه ﴿بُنْيَـٰنَهُم﴾ وقُرئ: "بَيْتَهُمْ"[3] و"بُيُوْتَهُمْ"[4] ﴿مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ مِن جهة القواعد وهي الأساطين التي تعمِده أو أساسُه فضُعضِعَتْ أركانُه ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ أي: سقط عليهم سقف بنيانهم، إذ لا يتصوَّر له القيام بعد تهدّم القواعد. [٣١٩ظ]

شُبّهت حال أولئك الماكرين في تسويتهم المكائدَ والمنصوباتِ التي أرادوا بها الإيقاعَ برسل الله سبحانه، وفي إبطاله تعالى تلك الحيلَ والمكائدَ وجَعْلِه إيّاها أسبابًا لهلاكهم بحال قوم بنَوا بنيانًا وعمَدوه بالأساطين فأُتيَ ذلك

---

[1] السياق: وأمّا حَمله... فيردُّه...

[2] السياق: حال مِن الفاعل... أو حال مِن المفعول...

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن عليّ وجعفر بن محمّد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٠.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس عن أبي عمرو برواية بن مسلم عبد الرحمن بن واقد عن العبّاس عنه وعن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٠.

مِن قِبَل أساطينِه بأن ضُعْضِعت فسقَط عليهم السقف وهلكوا، وقُرئ: "فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السُّقُفُ"[١] بضمّتين.

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: الهلاك والدمار ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه منه؛ بل يتوقّعون إتيان مقابله ممّا يُريدون ويشتهون، والمعنى أنّ هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير الأوّلين سيأتيهم مِن العذاب مثلُ ما أتاهم وهم لا يحتسِبون.

والمراد به العذابُ العاجل لقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ فإنّه عطفٌ على مقدّر ينسحِب عليه الكلام، أي: هذا الذي فُهم مِن التمثيل مِن عذاب هؤلاء أو ما هو أعمّ منه وممّا ذُكر مِن عذاب أولئك جزاؤهم في الدنيا ويوم القيامة يُخزيهم، أي: يُذِلّهم بعذاب الخِزْي على رءوس الأشهاد.

وأصلُ الخِزي: ذُلّ يُستحيى منه. و﴿ثُمَّ﴾ للإيماء إلى ما بين الجزاءين مِن التفاوت[٢] / مع ما يدلّ عليه مِن التراخي الزماني. وتغيير السبك بتقديم الظرف ليس لقصر الخِزي على يوم القيامة كما هو المتبادر مِن تقديم الظرف على الفعل؛ بل لأنّ الإخبار بجزائهم في الدنيا مؤذِن بأنّ لهم جزاءً أُخرويًا فتبقى النفسُ مترقّبة إلى وروده سائلةً عنه بأنّه ماذا؟ مع تيقّنها بأنّه في الآخرة فسِيق الكلام على وَجه يؤذِن بأنّ المقصود بالذِّكر إخزاؤهم لا كونُه يوم القيامة. [٣٢١و]

والضمير إمّا للمفترين في حقّ القرآن الكريم أو لهم ولمَن مُثِّلوا بهم مِن الماكرين، كما أشيرَ إليه وتخصيصُه بهم يأباه السِّباق والسِّياق كما ستقف عليه.

﴿وَيَقُولُ﴾ لهم تفضيحًا وتوبيخًا، فهو إلىٰ آخره بيان للإخزاء ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أضافهم إليه سبحانه حكاية لإضافتهم الكاذبة، ففيه توبيخ إثرَ توبيخ مع استهزاء بهم ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: تُخاصمون الأنبياء والمؤمنين في شأنهم بأنّهم شركاء حقًّا حين بيّنوا لكم بطلانها.

والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة أو المدافعةُ على طريقة الاستهزاء والتبكيت، والاستفسارُ عن مكانهم لا يُوجِب غَيبتهم حقيقة حتّى يُعتذَر بأنّه يجوز

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج ومجاهد وابن محيصن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٦.

[٢] وقع في ترقيم ألواح م ههنا اضطراب، إذا تقدم اللوح ٣٢٠ على اللوح ٣٢١.

أن يُحال بينهم وبين عبدَتهم حينئذ ليتفقَّدوها في ساعة علَّقوا بها الرجاء فيها، أو بأنّهم لمّا لم ينفعوهم فكأنّهم غُيَّب؛ بل يكفي في ذلك عدم حضورهم بالعنوان الذي كانوا يزعُمون أنّهم متّصفون به مِن عنوان الإلهيّة، فليس هناك شركاء ولا أماكنها، على أنّ قوله: "ليتفقّدوا"[1] ليس بسديد، فإنّه قد تبيَّن عندهم الأمرُ حينئذ فرجعوا عن ذلك الزعم الباطل فكيف يُتصوَّر منهم التفقّد. وقرئ بكسر النون،[2] أي: تشاقّونني على أنّ مُشاقّة الأنبياء والمؤمنين لاسيّما في شأن متعلِّق به سبحانه مُشاقَّة له عزّ وجلّ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ مِن أهل الموقف وهم الأنبياء والمؤمنون الذين أوتوا علمًا بدلائل التوحيد وكانوا يدعونهم في الدنيا إلى التوحيد فيُجادلونهم ويتكبَّرون عليهم، أي: يقولون توبيخًا لهم وإظهارًا للشماتة بهم / وتقريرًا لِما كانوا يعِظونهم وتحقيقًا لِما أوعدوهم به. وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقّقه وتحتُّم وقوعه حسبما هو المعتاد في إخباره سبحانه وتعالى، كقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف، ٤٤/٧]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف، ٤٨/٧]. [٣٢١ظ]

﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ﴾ الفضيحة والذلّ والهوان ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ منصوب بالخِزي على رأي مَن يرى إعمال المَصدر المُصدَّر باللام، أو بالاستقرار في الظرف، وفيه فَصْل بين العامل والمعمول بالمعطوف إلّا أنّه مغتفَر في الظروف، وإيرادُه للإشعار بأنّهم كانوا قبل ذلك في عزّة وشِقاق، ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله تعالى وبآياته ورسله.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بتأنيث الفعل، وقُرئ بتذكيره[3] وبإدغام التاء في التاء.[4] والعدول إلى صيغة المضارع لاستحضار صورة تَوفِّيهم إيّاهم لِما فيها

---

[1] ما وقفت على صاحب القول فيما بين يديّ من المظانّ.
[2] قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٣٠٣/٢.
[3] قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٣/٢.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧١.

مِن الهَول، والموصولُ في محلّ الجرّ على أنّه نَعْت للكافرين أو بدل منه أو في محلّ النصب أو الرفع على الذمّ، وفائدتُه تخصيص الخِزي والسوء بمَن استمرّ كُفره إلى حين الموت دون مَن آمن منهم ولو في آخر عُمره، أي: على الكافرين المُستمرّين على الكفر إلى أن تتوفّاهم الملائكة ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: حالَ كونهم مستمرّين على الكفر، فإنّه ظلم منهم لأنفسهم وأيُّ ظلم؟ حيث عرّضوها للعذاب المخلَّد وبدّلوا فطرةَ الله تبديلًا.

﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: فيُلقُون. والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقّق الوقوع، وهو عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾،[1] وما بينهما جملة اعتراضيّة جيءَ بها تحقيقًا لِما حاق بهم مِن الخِزي على رءوس الأشهاد، أي: فيُسالِمون ويتركون المُشاقّة وينزِلون عمّا كانوا عليه في الدنيا مِن الكِبْر وشدّة الشكيمة قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ﴾ في الدنيا ﴿مِن سُوٓءٍ﴾ أي: مِن شِرك، قالوه منكِرين لصدوره عنهم، كقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ٦/٢٣].

وإنّما عبّروا عنه بالسوء اعترافًا بكونه سيّئًا لا إنكارًا لكونه كذلك مع الاعتراف بصدوره عنهم. ويجوز أن يكون تفسيرًا لـ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ على أن يكون المراد به الكلامَ الدالّ عليه، وعلى التقديرين فهو جواب عن قوله سبحانه: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾[2] كما في سورة الأنعام[3] / [٣٢٢و] لا عن قول أولي العِلم ادّعاء لعدم استحقاقهم لِما دهمهم مِن الخِزي والسوء.

﴿بَلَىٰٓ﴾ ردّ عليهم مِن قِبَل أولي العِلم وإثبات لِما نفَوه، أي: بلى كنتُم تعملون ما تعملون. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أوانُه.

﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٢٩﴾

﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: كلّ صنف بابَه المُعَدَّ له. وقيل: أبوابها أصناف

---

[1] في الآية السابقة.
[2] في الآية السابقة.
[3] وفي هامش م: من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ٦/٢٢-٢٣]. «منه».

عذابها، فالدخولُ عبارة عن الملابسة والمقاساة. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ إن أُريدَ بالدخول حدوثُه فالحال مقدَّرة، وإن أُريدَ مطلق الكون فيها فهي مقارِنة.

﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: عن التوحيد، كما قال تعالى: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [النحل، ١٦/٢٢]. وذِكرُهم بعنوان التكبّر للإشعار بعلّيّته لثوائهم فيها، والمخصوصُ بالذمّ محذوف، أي: جهنّمُ. وتأويلُ قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾[١] بأنّا ما كنّا عاملين ذلك في اعتقادنا رَوْمًا للمحافظة على ألّا كذِبَ ثمّة يردّه الردّ المذكور وما في سورة الأنعام مِن قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنعام، ٦/٢٤].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠﴾

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ أي: المؤمنين، وُصفوا بالتقوى إشعارًا بأنّ ما صدَر عنهم مِن الجواب ناشئ عن التقوى: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗا﴾ سلكوا في الجواب مَسلَك السؤال مِن غير تلعثُم ولا تغيير في الصورة، والمعنى: أي: أنزل خيرًا فإنّه جواب مطابق للسؤال سبكًا وللواقع في نفس الأمر مضمونًا، وأمّا الكفَرة فإنّهم خذلهم الله تعالى كما غيَّروا الجواب عن نهج الحقّ الواقع الذي ليس له مِن دافع غيَّروا صورته وعدَلوا بها عن سَنن السؤال، حيث رفعوا الأساطير رَومًا لِما مرّ مِن إنكار النزول.

رُوي أنّ أحياء العرب كانوا يبعثون أيّام الموسم مَن يأتيهم بخبر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فإذا جاء الوافد كفَّه المقتسِمون وأمروه بالانصراف وقالوا: إن لم تلقَه كان خيرًا لك، فيقول: أنا شرُّ وافد إن رجعت / إلى قومي دون أن أستطلع أمرَ محمّد وأراه، فيلقى أصحابَ النبي صلّى الله عليه وسلّم ورضي عنهم فيخبرونه بحقيقة الحالِ فهم الذين قالوا خيرًا.[٢] [٣٢٢ظ]

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٧؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٣.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أي: أعمالَهم أو فعلوا الإحسانَ ﴿فِى هَٰذِهِ﴾ الدار ﴿ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: مثُوبة حسنة مكافأةً فيها.

﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: مثوبتهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ ممّا أوتوا في الدنيا مِن المثوبة، أو خيرٌ على الإطلاق فيجوز إسناد الخيريّة إلى نفس دار الآخرة.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: دار الآخرة، حُذف لدلالة ما سبَق عليه. وهذا كلام مبتدأ مدَح الله تعالى به المتّقين وعدّ جوابَهم المَحكيّ مِن جملة إحسانهم ووعدهم بذلك ثوابَي الدنيا والآخرة فلا محلّ له مِن الإعراب، أو بدلٌ مِن ﴿خَيْرًا﴾ أو تفسير له، أي: أنزل خيرًا هو هذا الكلام الجامع، قالوه ترغيبًا للسائل.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، أي: لهم جنّات، ويجوز أن يكون هو المخصوص بالمدح. ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ صفة لـ﴿جَنَّٰتُ﴾ على تقدير تنكير ﴿عَدْنٍ﴾، وكذلك ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أو كلاهما حال على تقدير عَلَميّته.

﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ في تلك الجنّات ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾ الظرف الأوّل خبرٌ لـ﴿مَا﴾ والثاني حال منه، والعامل ﴿مَا﴾ في الأوّل، أو متعلِّق به، أي: حاصل لهم فيها ما يشاءون مِن أنواع المشتَهيات. وتقديمُه للاحتراز عن توهّم تعلّقِه بالمشيئة، أو لِما مرّ مرارًا مِن أنّ تأخير ما حقُّه التقديم يُوجِب ترقّبَ النفسِ إليه فيتمكّن عند وروده عليها فضلَ تمكّن.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الجزاء الأوفى ﴿يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ "اللام" للجنس، أي: كلّ مَن يتّقي مِن الشِّرك والمعاصي، ويدخُل فيه المتّقون المذكورون دخولًا أوّليًا، ويكون فيه بَعْث لغيرهم على التقوى، أو للعهد فيكون فيه تخسير للكفَرة.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ نعت للمتّقين، وقوله تعالى: ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي:[١] طاهرين عن دنَس الظلم لأنفسهم، حال مِن الضمير، وفائدتُه الإيذان بأنّ مَلاك الأمر في التقوى هو الطهارة عمّا ذُكر إلى وقت توفّيهم، ففيه حثّ للمؤمنين على الاستمرار على ذلك، / ولغيرهم على تحصيله. وقيل: فرحين طيِّبي [٣٢٣و] النفوس ببِشارة الملائكة إيّاهم بالجنّة، أو طيِّبين بقبض أرواحِهم لتوجّه نفوسهم بالكلّيّة إلى جناب القُدس.[٢]

﴿يَقُولُونَ﴾ حال مِن الملائكة، أي: قائلين لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ قال القُرَظي رحمه الله: إذا استُدعيَت نفس المؤمن جاءه ملَك الموت عليه السلام، فقال: «السلامُ عليك يا وليَّ الله، الله تعالى يقرأ عليك السلام»، وبشّره بالجنّة.[٣]

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ "اللام" للعهد، أي: جنّات عدن... إلخ، ولذلك جُرِّدت عن النعت، والمراد دخولهم لها في وقته، فإنّ ذلك بِشارةِ عظيمة وإن تراخى المبشَّر به لا دخولَ القبر الذي هو روضة مِن رياضها، إذ ليس في البِشارة به ما في البِشارة بدخول نفس الجنّة.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة، أو بالذي كنتم تعملونه مِن ذلك. وقيل: المراد بالتوفّي التوفّي للحشر، لأنّ الأمر بالدخول حينئذ يتحقّق.[٤]

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظر كفّار مكّةَ المارُّ ذكرُهم ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم بالعذاب، جُعلوا منتظِرين لذلك وشتّان بينهم وبين انتظاره،

---

١ ط س – أي.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٦٠.
٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٤/٢١٣؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٣.
٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٦٠.

لا لأنّه يلحقهم البتّةَ لحوق الأمر المنتظَر؛ بل لمباشرتهم لأسبابه الموجبة له المؤدِّية إليه، فكأنّهم يقصِدون إتيانه ويترصّدون لوروده، وقُرئ بتذكير الفعل.[١]

﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ التعرّض لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إشعار بأنّ إتيانه لطف به صلّى الله عليه وسلّم وإن كان عذابًا عليهم، والمرادُ بالأمر العذاب الدنيويُّ لا القيامة، لكن لا لأنّ انتظارها بجامع انتظار إتيان الملائكة، فلا يلائمه العطف بـ﴿أَوۡ﴾ لأنّها ليست نصًّا / في العِناد، إذ يجوز [٣٢٣ظ] أن يعتبَر منع الخلوّ ويرادَ بإيرادها كفاية كلّ واحد مِن الأمرين في عذابهم؛ بل لأنّ قوله تعالى فيما سيأتي: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ فَأَصَابَهُمۡ﴾ الآية، صريحٌ في أنّ المراد به[٢] ما أصابهم مِن العذاب الدنيوي.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ فعل هؤلاء مِن الشِّرك والظلم والتكذيب والاستهزاء ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ﴾ خلَوا ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِن الأمم.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما سيُتلى مِن عذابهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ﴾ بما كانوا مستمرِّين عليه مِن القبائح الموجبةِ لذلك ﴿أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ كان الظاهر أن يقال: ولكن كانوا هم الظالمين كما في سورة الزخرف،[٣] لكنّه أوثر ما عليه النظم الكريم لإفادة أنّ غائلة ظلمهم آيلة إليهم وعاقبتَه مقصورةٌ عليهم، مع استلزام اقتصارِ ظُلم كلّ أحد على نفسه مِن حيث الوقوعُ اقتصارَه عليه مِن حيث الصدور. وقد مرّ تحقيقُه في سورة يونس.[٤]

﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾

﴿فَأَصَابَهُمۡ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[٥] وما بينهما اعتراض لبيان أنّ فعلهم ذلك ظُلم لأنفسهم. ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ أي: أجزِيةُ أعمالِهم السيّئة على طريقة تسمية المُسبَّب باسم سببِه إيذانًا لفظاعته، لا على حذف المضاف؛ فإنّه يوهِم أنّ لهم أعمالًا غيرَ سيّئاتهم.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٣/٢.
٢ س – به.
٣ في الآية السادسة والسبعين منها.
٤ في تفسير الآية الرابعة والأربعين منها.
٥ في الآية السابقة.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم مِن الحَيق الذي هو إحاطةُ الشرّ، وهو أبلغ مِن الإصابة وأفظع ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مِن العذاب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٣٥﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ أي: أهل مكّة، وهو بيان لفنّ آخرَ مِن كفرهم، والعدول عن الإضمار إلى الموصول لتقريعهم بما في حيّز الصلة وذمّهم بذلك مِن أوّل الأمر.

﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ أي: لو شاء عدم عبادتنا لشيء غيره كما تقول لَما عبدنا ذلك ﴿نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الذين نقتديهم في ديننا، ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ مِن السوائب والبحائر وغيرها. وإنّما قالوا ذلك تكذيبًا للرسول عليه السلام وطعنًا في الرسالة رأسًا متمسّكين بأنّ ما شاء الله تعالى يجِب وما لم يشأ يمتنع، / فلو أنّه شاء أن نوحِّده ولا نُشرِكَ به شيئًا ولا نُحرِّمَ [٣٢٠و] ممّا حرّمنا شيئًا -كما يقوله الرسل وينقُلونه مِن جهة الله عزّ وجلّ- لكان الأمر كما شاء مِن التوحيد ونفي الإشراك وما يتبعهما، وحيث لم يكن كذلك ثبُت أنّه لم يشأ شيئًا مِن ذلك.

وإنّما يقوله الرسل مِن تلقاء أنفسهم فأجيبَ عنه بقوله عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الفعل الشنيع ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم، أي: أشركوا بالله وحرّموا حِلّه وردّوا رسله وجادلوهم بالباطل حين نبّهوهم على الخطأ وهَدَوْهم إلى الحقّ.

﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾ الذين يبلّغون رسالات الله وعزائمَ أمره ونهيه ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ليست وظيفتهم إلّا تبليغ الرسالة تبليغًا واضحًا أو موضحًا، وإبانةُ طريق الحقّ وإظهار أحكام الوحي الذي مِن جملتها تحتُّم تعلُّق مشيئةِ الله تعالى باهتداء مَن صَرَف قدرته واختياره إلى تحصيل الحقّ، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت، ٢٩/٦٩].

وأمّا إلجاؤهم إلى ذلك وتنفيذ قولهم عليهم شاءوا أو أبَوا كما هو مقتضى استدلالهم، فليس ذلك مِن وظيفتهم ولا مِن الحكمة التي عليها يدور أمَر التكليف في شيء حتّى يُستدلَّ بعدم ظهور آثاره على عدم حقّيّة الرسل أو على عدم تعلُّق مشيئته تعالى بذلك، فإنّ ما يترتّب عليه الثواب والعقاب مِن أفعال العباد لا بدّ في تعلّق مشيئته تعالى بوقوعه مِن مباشرتهم الاختياريّة له وصرفِ اختيارهم الجزئي إلى تحصيله، وإلّا لكان الثواب والعقاب اضطراريَّين، فـ"الفاءُ" للتعليل، كأنّه قيل: كذلك فعَل أسلافهم، وذلك باطل فإنّ الرسل ليس شأنهم إلّا تبليغَ أوامر الله سبحانه ونواهيه لا تحقيقَ مضمونهما وإجراءَ موجَبهما على الناس قسرًا وإلجاءً، وإيرادُ كلمة ﴿عَلَى﴾ للإيذان بأنّهم في ذلك مأمورون أو بأنّ ما يبلغونه حقٌّ للناس عليهم إيفاؤه. وبهذا ظهر أنّ حَمْل قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾... إلخ، على الاستهزاء لا يلائم الجواب، والله تعالى أعلمُ بالصواب.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ تحقيق لكيفيّة تعلّقِ مشيئته تعالى بأفعال العباد بعد بيان أنّ الإلجاء ليس مِن وظائف الرسالة / ولا مِن باب المشيئة [٣٢٠ظ] المتعلِّقة بما يدور عليه الثواب والعقاب مِن الأفعال الاختياريّة لهم، أي: بعثنا في كلّ أمّة مِن الأمم الخالية رسولًا خاصًّا بهم ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يجوز أن يكون ﴿أَنِ﴾ مفسِّرةً لِما في البعث مِن معنى القول وأن يكون مصدريّةً، أي: بعثنا بأن اعبدوا الله وحدَه، ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ هو الشيطانُ وكلُّ ما يدعو إلى الضلالة.

﴿فَمِنْهُم﴾ أي: مِن تلك الأمم، و"الفاء" فصيحة، أي: فبلَّغوا ما بُعثوا به مِن الأمر بعبادة الله وحدَه واجتناب الطاغوت فتفرَّقوا، فمنهم ﴿مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ إلى الحقّ الذي هو عبادته واجتنابُ الطاغوت بعد صَرْف قدرتهم واختيارهم الجزئي إلى تحصيله، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: وجبَت وثبَتت إلى حين الموت لعِناده وإصراره عليها وعدم صَرْف قدرته إلى تحصيل الحقّ.

وتغيير الأسلوب للإشعار بأنّ ذلك لسوء اختيارهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء، ٨٠/٢٦]. فلم يكن كلٌّ مِن مشيئة الهداية وعدمها إلّا حسبما حصَل منهم مِن التوجّه إلى الحقّ وعدمه، لا بطريق القسر والإلجاء حتّى يُستدلّ بعدمهما على عدم تعلُّق مشيئته تعالى بعبادتهم له تعالى وحدَه.

﴿فَسِيرُواْ﴾ يا معشرَ قريش ﴿فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾ في أكنافها ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ مِن عاد وثمودَ ومَن سار سِيرتَهم ممّن حقّت عليهم الضلالة لعلّكم تعتبرون حين تشاهدون في منازلهم وديارهم آثارَ الهلاك والعذاب. وترتيب الأمر بالسير على مجرّد الإخبار بثبوت الضلالة عليهم مِن غير إخبار بحلول العذاب للإيذان بأنّه غنيّ عن البيان وأن ليس الخبرُ كالعِيان، وترتيبُ النظر على السير لِما أنّه بعده وأنّ مَلاك الأمر في تلك العاقبة هو التكذيب والتعلّل بأنّه لو شاء الله ما عبدنا مِن دونه مِن شيء.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إِن تَحْرِصْ﴾ خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقرئ بفتح الراء[١] وهي لُغَيّة. ﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ أي: إن تطلُب هدايتهم بجهدك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ أي: فاعلم أنّه / تعالى لا يخلق الهداية جبرًا وقسرًا فيمَن يخلُق فيه [٣٢٤و] الضلالة بسوء اختياره، والمرادُ به قريش، وإنّما وُضِع الموصول مَوضعَ الضمير للتنصيص على أنّهم ممّن حقّت عليه الضلالة والإشعارِ بعلّة الحُكم.

ويجوز أن يكون المذكور علّة للجزاء المحذوف، أي: إن تحرِص على هداهم فلست بقادر على ذلك؛ لأنّ الله لا يهدي مَن يُضلّه وهؤلاء مِن جملتهم. وقُرئ: "لَا يُهْدَى"[٢] على بناء المفعول، أي: لا يقدِر أحد على هداية مَن يُضلّه الله تعالى، وقُرئ: "لَا يَهَدِّيْ"[٣] بفتح الهاء وإدغام تاء يهتدي في الدال،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن النخَعي والحسن وأبي البرَهسَم وأبي حَيْوَة والسُلمي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٦-٧٧؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٠٦.

[٢] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠٤/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٤٤٥/٢.

ويجوز أن يكون يهدي بمعنى يهتدي، وقرئ: "يَضِلُّ"[١] بفتح الياء، وقُرئ: "لَا هَادِيَ لِمَنْ يُضِلُّ وَلِمَنْ أَضَلَّ".[٢]

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم في الهداية أو يدفَعون العذاب عنهم، وصيغة الجمع في "الناصرين" باعتبار الجمعيّة في الضمير، فإنّ مقابلة الجمع بالجمع يقتضي انقسام الآحاد إلى الآحاد، لا لأنّ المراد نفي طائفة مِن الناصرين مِن كلّ منهم.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ شروع في بيان فنّ آخرَ مِن أباطيلهم وهو إنكارهم البعث ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ مَصْدر في موقع الحال، أي: جاهدين في أيمانهم ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ ولقد ردّ الله تعالى عليهم أبلغَ ردّ بقوله الحقّ.

﴿بَلَىٰ﴾ أي: بلى يبعَثهم ﴿وَعْدًا﴾ مَصْدر مؤكِّد لِما دلّ عليه ﴿بَلَىٰ﴾، فإنّ ذلك موعد مِن الله سبحانه، أو لِمحذوف، أي: وعَد بذلك وَعْدًا ﴿عَلَيْهِ﴾ صفة لـ﴿وَعْدًا﴾، أي: وعدًا ثابتًا عليه إنجازه لامتناع الخُلف في وَعْده، أو لأنّ البعث مِن مقتضيات الحِكمة. ﴿حَقًّا﴾ صفة أخرى له، أو نصبٌ على المصدريّة، أي: حقّ حقًّا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ لجهلهم بشئون الله عزّ شأنه مِن العِلم والقدرة والحكمة وغيرها مِن صفات الكمال، وبما يجوز عليه وما لا يجوز وعدم وقوفهم على سرّ التكوين والغاية القصوى منه، وعلى أنّ البعث ممّا يقتضيه الحكمة التي جرت عادته سبحانه بمراعاتها. ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّه يبعثهم فيبُتّون[٣] القول بعدمه أو أنّه وَعْد عليه حقّ فيكذبونه قائلين: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون، ٢٣/٨٣].

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧١.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٥.

[٣] س: فبتّون.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾

/ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُم﴾ غاية لِما دلّ عليه ﴿بَلَىٰ﴾[١] مِن البعث، والضمير لمَن يموت، [٣٢٤ظ] إذ التبيين يعمّ المؤمنين أيضًا فإنّهم وإن كانوا عالمين بذلك لكنّه عند معاينة حقيقة الحال يتّضح الأمر فيصِل علمهم إلى مرتبة عين اليقين، أي: يبعثهم ليبيّنَ لهم بذلك وبما يحصُل لهم مِن مشاهدة الأحوال كما هي ومعاينتها بصورها الحقيقيّة الشأنِ ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ مِن الحقّ المنتظِم لجميع ما خالفوه ممّا جاء به الشرعُ المُبين، ويدخُل فيه البعث دخولًا أوّليًّا.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالله سبحانه بالإشراك وإنكار البعث وتكذيب وعده الحقّ ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ في كلّ ما يقولون لاسيّما في قولهم: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾.[٢]

والتعبير عن الحقّ بالموصول للدلالة على فخامته، وللإشعار بعلّيّة ما ذُكر في حيّز الصلة للتبيين وما عُطف عليه، وجعلِهما غاية للبعث المشار إليه باعتبار وروده في معرِض الردّ على المخالِفين، وإبطالِ مقالة المعاندين المستدعي للتعرّض لِما يردعهم عن المخالفة ويُلجِئهم إلى الإذعان للحقّ؛ فإنّ الكفَرة إذا علِموا أنّ تحقيق البعث إذا كان لتبيين أنّه حقّ وليعلموا أنّهم كاذبون في إنكاره كان ذلك أزجر لهم عن إنكاره وأدعى إلى الاعتراف به ضرورةَ أنّه يدلّ على صدق العزيمةِ على تحقيقه، كما تقول لمَن ينكر أنّك تصلّي: "لأصلّينّ رغمًا لأنفك وإظهارًا لكذبك"، ولأنّ تكرّر الغايات أدلُّ على وقوع الفعل المُغيّا بها، / وإلّا فالغاية الأصليّة للبعث باعتباره ذاتَه إنّما هو الجزاء الذي هو الغاية [٣٢٥و] القصوى للخَلْق المُغيّا بمعرفته عزّ وجلّ وعبادته، وإنّما لم يُذكر ذلك لتكرّر ذِكره في مواضعَ أُخَرَ وشهرته.

وإنّما لم يُدرَج عِلم الكفّار بكذبهم تحت التبيين بأن يقال: وإنّ الذين كفروا كانوا كاذبين؛ بل جيء بصيغة العِلم؛ لأنّ ذلك ليس ممّا تعلّق به التبيين الذي هو عبارة عن إظهار ما كان مُبهَمًا قبل ذلك بأن يُخبَر به فيُختلفَ فيه،

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] في الآية السابقة.

كالبعث الذي نطق به القرآن فاختلف فيه المختلفون، وأمّا كَذِب الكافرين فليس مِن هذا القبيل، فما يتعلّق به عِلم ضروريّ حاصل لهم مِن قِبَل أنفسهم، وقد مرّ تحقيقه في سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [التوبة، ٤٣/٩]. وإنّما خُصّ الإسناد بهم حيث لم يقل: "وليعلموا أنّ الكافرين" الآية، لأنّ عِلمَ المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك أيضًا.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ استئناف لبيان كيفيّة التكوين على الإطلاق إبداءً وإعادةً بعد التنبيه على آنيّة البعث، ومنه يظهر كيفيّته، فـ﴿مَا﴾ كافّة و﴿قَوْلُنَا﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿لِشَىْءٍ﴾ أي: أيّ شيء كان ممّا عزّ وهان متعلّق به، على أنّ "اللام" للتبليغ كهي في قولك: "قلتُ له قُم فقام"، وجعلها الزجّاج سببيّة، أي: لأجل شيء.[1] وليس بواضح.[2] والتعبير عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلّق مشيئته تعالى به، لا أنّه كان شيئًا قبل ذلك. ﴿إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ﴾ ظرف لـ﴿قَوْلُنَا﴾، أي: وقت إرادتنا لوجوده.

﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ خبر للمبتدأ. ﴿فَيَكُونُ﴾ إمّا عطفٌ على مقدَّر يُفصِح عنه "الفاء" وينسحب عليه الكلام، أي: فنقول ذلك فيكون كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر، ٦٨/٤٠]، وإمّا جواب[3] لشرط محذوف، أي: فإذا قلنا ذلك فهو يكون.

وليس هناك قول ولا مَقول له ولا أمر ولا مأمور حتّى يقال إنّه يلزَم منه أحد المُحالين، إمّا خطابُ المعدوم أو تحصيل الحاصل، أو يقال إنّ ما يستدعيه انحصار قوله تعالى في قوله تعالى: ﴿كُن﴾، وليس يلزَم منه انحصار أسباب التكوين فيه كما يُفيده قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس، ٨٢/٣٦]، فإنّ المراد بالأمر هو الشأن الشامل للقول والفعل، ومِن ضرورة انحصاره في كلمة ﴿كُن﴾ انحصارُ أسبابه على الإطلاق فيه؛

---

[1] انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ١٩٩/٣.

[2] قول الزجّاج مع الردّ عليه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٢٠/٧؛ واللباب لابن عادل، ٥٧/١٢.

[3] السياق: إمّا عطفٌ... وإمّا جواب...

بل إنّما هو تمثيل لسهولة تأتّي المقدورات حسب تعلّق مشيئته تعالى بها، وتصويرٌ لسرعة حدوثها بما هو عَلَم في ذلك مِن طاعة المأمور المطيع / لأمر [٣٢٥ظ] الآمر المُطاع، فالمعنى إنّما إيجادنا لشيء عند تعلّق مشيئتنا به أن نُوجده في أسرع ما يكون، ولمّا عُبِّر عنه بالأمر الذي هو قول مخصوص وجَب أن يُعبَّر عن مطلَق الإيجاد بالقول المطلَق، فتأمّل.

وفي الآية الكريمة مِن الفخامة والجزالة ما يحار فيه العقولُ والألباب. وقرئ بنصب ﴿يَكُونُ﴾[1] عطفًا على ﴿نَقُولَ﴾ أو تشبيهًا له بجواب الأمر.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في شأن الله تعالى ورِضاه وفي حقّه ولوجهه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ ولعلّهم الذين ظلمهم أهل مكّة مِن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأخرجوهم مِن ديارهم، فهاجروا إلى الحبَشة، ثمّ بوّأهم الله تعالى المدينةَ حسبما وعد بقوله سبحانه: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: مَباءة حسنة، أو تبوِئةً حسنة كما قال قتادة.[2] وهو الأنسب لما هو المشهور مِن كون السورة غيرَ ثلاثِ آياتٍ مِن آخرها مكّيّةً.

وأمّا ما نُقل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما مِن أنّها نزلت في صهيب وبلال وعمّار وخبّاب وعابس وجُبير وأبي جندل بن سهيل،[3] أخذهم المشركون فجعلوا يعذّبونهم ليردّوهم عن الإسلام، فأمّا صهيب فقال لهم: «أنا رجل كبير إن كنتُ معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضرَّكم»، فافتدى منهم بماله وهاجر،

---

١ قرأ بها ابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٠.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ١٤/٢٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٠.

٣ هو العاص بن سهيل بن عمرو العامري بن عبد شمس بن عبد ودّ بن نصر بن حسل بن عامر بن لؤيّ بن غالب بن فهر العامري القرشي، أبو جندل. كان مِن السابقين إلى الإسلام وقد حبسه أبوه وقيّده بسبب إسلامه، فلمّا كان صلح الحديبية هرب يحجل في قيوده وأبوه حاضر بين يدي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لكتاب الحديبية، ثمّ خلص وهاجر وجاهد، وكان مِن خيار الصحابة. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٤/١٦٢١؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١/١٩٢.

فلمّا رآه أبو بكر رضي الله عنه قال: «ربِحَ البيع يا صهيبُ»، وقال عمرُ رضي الله عنه: «نعم العبدُ صُهيب لو لم يخِفِ الله لم يَعْصِه»،[١] فإنّما يُناسِب[٢] ما حُكي عن الأصمّ مِن كون كلّ السورة مدنيّة.[٣]

وما نُقل عن قتادةَ مِن كون هذه الآية إلى آخر السورة مدنيّة[٤] فيُحمَل ما نقلنا عنه مِن نزول الآية في أصحاب الهجرتَين، على أن يكون نزولها بالمدينة بين الهجرتَين. وأمّا جَعْل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن جملتهم فلا يُساعده نظم التنزيل ولا شأنه الجليل. وقرئ: "لنُثْوِيَنَّهُمْ"،[٥] ومعناه إثواءةً حسَنة أو لنُنزِّلنّهم في الدنيا منزلةً حسَنة، وهي الغَلبة على مَن ظلَمهم مِن أهل مكّةَ وعلى العَرب قاطبةً وأهلِ الشرق والغرب كافّة.

[٣٢٦و] ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: أجر أعمالهم المذكورة في الآخرة ﴿أَكْبَرُ﴾ / ممّا يعجَّل لهم في الدنيا، وعن عمر رضي الله عنه أنّه كان إذا أعطى رجلًا مِن المهاجرين عطاءً قال له: «خُذ بارك الله تعالى لك فيه، هذا ما وعدك الله تعالى في الدنيا وما ادّخر في الآخرة أفضلُ».[٦]

﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ الضمير للكفّار، أي: لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خيرَ الدارين لوافقوهم في الدين، وقيل: للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا في الاجتهاد أو لَما تألموا لِما أصابهم مِن المهاجَرة وشدائدِها.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على الشدائد مِن أذيّة الكفّار ومفارقة الأهل والوطن وغير ذلك، ومحلُّه النصب أو الرفع على المدح.

---

١ الكلام كلُّه من قوله: "ابن عبّاس" بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ٥٩/١٢؛ وبعضه في أسباب النزول للواحدي، ص ٢٨٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٠/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٤٦/٢.

٢ السياق: وأمّا ما نُقِل... فإنّما يُناسِب...

٣ انظر: اللباب لابن عادل، ٣/١٢ (النحل، ١/١٦).

٤ انظر: اللباب لابن عادل، ٣/١٢ (النحل، ١/١٦).

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ والأعمش والربيع بن خُثيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٠٧.

٦ معالم التنزيل للبغوي، ٢٠/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٤٦/٢.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ خاصّة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ منقطعين إليه تعالى مُعرِضين عمّا سواه مفوِّضين إليه الأمرَ كلّه، والجملةُ إمّا معطوفة على الصلة، وتقديمُ الجارّ والمجرور للدلالة على قَصْر التوكّل على الله تعالى، وصيغةُ الاستقبال للدلالة على دوام التوكّل؛ أو حال[1] مِن ضمير ﴿صَبَرُوا﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ وقرئ بالياء مبنيًّا للمفعول[2] وهو ردّ لقريش حين قالوا: الله أجلُّ مِن أن يكون له رسول مِن البشر، كما هو مبنى قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا﴾... إلخ،[3] أي: جرت السنّة الإلهيّة حسبما اقتضته الحكمة بألّا يَبعَث للدعوة العامّة إلّا بشرًا يوحي إليهم بواسطة الملَك أوامرَه ونواهيَه ليُبلّغوها الناس.

ولمّا كان المقصود مِن الخِطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم تنبيه الكفّار على مضمونه صُرف الخطاب إليهم فقيل: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: أهلَ الكتاب أو علماءَ الأخبار أو كلَّ مَن يُذكَر بعِلم وتحقيق ليعلِّموكم ذلك.

﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ حُذف جوابُه لدلالة ما قبله عليه، وفيه دلالة على أنّه لم يُرسِل للدعوة العامّة ملَكًا، وقولُه تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر، ١/٣٥] معناه: رُسلًا إلى الملائكة / أو إلى الرسل، ولا امرأةً ولا صبيًّا، ولا ينافيه نبوّة عيسى عليه السلام وهو في المهد لأنّها أعمُّ مِن الرسالة، وإشارة إلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يُعلم. [٣٢٦ظ]

﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ بالمعجزات والكتُب، والباءُ متعلّقة بمقدَّر وقَع جوابًا عن سؤال مَن قال: بمَ أُرسلوا؟ فقيل: أرسلوا بالبيّنات والزُّبر، أو بـ﴿مَآ أَرْسَلْنَا﴾[4]

---

[1] السياق: إمّا معطوفة... أو حال...

[2] قرأ بها العشرة إلّا حفصًا. النشر لابن الجزري، ٢٩٦/٢.

[3] النحل، ٣٥/١٦.

[4] في الآية السابقة.

داخلًا تحت الاستثناء مع ﴿رِجَالًا﴾[١] عند مَن يُجوِّزه، أي ما أرسلنا إلّا رجالًا بالبيّنات، كقولك: "ما ضربتُ إلّا زيدًا بالسوط"، أو على نيّة التقديم قبل أداة الاستثناء، أي: ما أرسلنا مِن قبلك بالبيّنات والزُّبر إلّا رجالًا عند مَن يُجوّز تأخّر صلةِ "ما" قبل إلّا إلى ما بعده، أو بما وقع صفةً للمستثنى، أي: إلّا رجالًا ملتبِسين بالبيّنات، أو بـ﴿نُوحِى﴾[٢] على المفعوليّة أو الحاليّة[٣] مِن القائم مقامَ فاعل "يُوحَى" وهو ﴿إِلَيْهِمْ﴾، على أنّ قوله تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓا۟﴾[٤] اعتراض، أو بقوله ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥] على أنّ الشرط للتبكيت كقول الأجير: "إن كنتُ عمِلتُ لك فأعطِني حقّي".

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القرآن، وإنّما سُمّي به لأنّه تذكير وتنبيه للغافلين؛ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كافّةً ويدخُل فيهم أهل مكّة دخولًا أوّليًا. ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في ذلك الذِّكر مِن الأحكام والشرائع وغير ذلك مِن أحوال القرون المُهلَكة بأفانين العذاب حسب أعمالهم الموجِبة لذلك على وجه التفصيل بيانًا شافيًا، كما ينبئ عنه صيغةُ التفعيل في الفعلين لاسيّما بعد ورودِ الثاني، أو لا على صيغة الإفعال، ولِما أنّ التبيين أعمّ مِن التصريح بالمقصود ومِن الإرشاد إلى ما يدلّ عليه دخَل تحته القياسُ على الإطلاق سواء كان في الأحكام الشرعيّة أو غيرها، ولعلّ قولَه عزّ وجلّ: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إشارة إلى ذلك، أي: إرادةَ أن يتأمّلوا فيتنبّهوا للحقائق وما فيه مِن العِبَر، ويحترزوا عمّا يؤدّي إلى مِثل ما أصاب الأوّلين مِن العذاب.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هم أهلُ مكّةَ الذين مكروا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وراموا صدَّ أصحابه عن الإيمان عليهم الرضوان، لا الذين احتالوا

---

[١] في الآية السابقة.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] السياق: والباء متعلِّقة بمقدَّر... أو بـ﴿مَآ أَرْسَلْنَا﴾... أو بـ﴿نُوحِى﴾.
[٤] في الآية السابقة.
[٥] في الآية السابقة.

لهلاك الأنبياء كما قيل،[١] ولا مَن يعُمّ الفريقين، لِما أنّ المراد تحذير هؤلاء عن إصابة مثل ما أصاب أولئك مِن فنون العذاب المعدودة.

و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ نعت لمصدر محذوف، أي: مكروا المكَراتِ السيّئاتِ التي قُصّت عنهم، / أو مفعولٌ به للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل، أي: عمِلوا السيّئات، فقوله تعالى: ﴿أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ مفعول لـ﴿أَمِنَ﴾، أو ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صفة لِما هو المفعول، أي: أفأمن الماكرون العقوباتِ السيّئة، وقوله: ﴿أَن يَخۡسِفَ﴾... إلخ، بدل مِن ذلك. [٣٢٧و]

وعلى كلّ حال فـ"الفاء" للعطف على مقدَّر ينسحِب عليه النظم الكريم، أي: أنزلنا إليك الذِّكر لتُبيّن لهم مضمونه الذي مِن جملته إنباء الأمم المهلَكة بفنون العذاب ويتفكّروا في ذلك، ألم يتفكّر فأمن الذين مكروا السيّئات أن يخسِف الله بهم الأرضَ كما فعل بقارون، على توجيه الإنكار إلى المعطوفين معًا، أو أتَفكّروا فأمِنوا، على توجيهه إلى المعطوف، على أنّ الأمن بعد التفكّر ممّا لا يكاد يفعله أحد. وقيل:[٢] هو عطفٌ على مقدَّر تنبئ عنه الصلةُ، أي: أَمَكَر فأمِن الذين مكروا... إلخ.[٣]

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بإتيانه، أي: في حالة غفلتهم، أو مِن مأمنهم، أو مِن حيث يرجون إتيانَ ما يشتهون، كما حُكي فيما سلف ممّا نزَل بالماكرين.

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦﴾

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾ أي: في حالة تقلّبهم في مسائرهم ومتاجرهم، ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ بمُمتنعين أو فائتين بالهرب والفِرار، على ما يوهِمه حال التقلّب والسير. و"الفاء" إمّا لتعليل الأخذ أو لترتيب عدم الإعجاز عليه دلالة على شدّته وفظاعته، حسبما قال صلّى الله عليه وسلّم: «إن الله لَيُملي للظالم حتّى إذا أخذه لم يُفْلته».[٤] وإيراد الجملة الاسميّة للدلالة على دوام النفي لا نفي الدوام.

---

١ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٦٣.

٢ وفي هامش م: جاربردي. «منه».

٣ في هامش حاشية الجاربردي على الكشّاف، ٦٠و.

٤ صحيح البخاري، ٦/٧٤ (٤٦٨٦)؛ سنن الترمذي، ٥/٢٨٨ (٣١١٠)؛ جامع البيان للطبري، ١٢/٥٧٢ (هود، ١١/١٠٢)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٩٩ (هود، ١١/١٠٢).

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: مخافة وحذَر عن الهلاك والعذاب بأن يُهلِك قومًا قبلهم فيتخوّفوا فيأخذَهم العذاب وهم متخوِّفون، / وحيث كانت حالتا [٣٢٧ظ] التقلّب والتخوّف مَظِنةً للهرب عُبِّر عن إصابة العذاب فيهما بالأخذ وعن إصابته حالة الغفلة المنبِئة عن السكون بالإتيان. وقيل: التخوّف: التنقّص، قال قائلهم:

تخوَّفَ الرحلُ منها تامكًا قَرِدًا كما تخوَّفَ عُودَ النَّبْعةِ السَّفَنُ[1]

أي: يأخذهم على أن يتنقّصهم شيئًا بعد شيءٍ في أنفسهم وأموالهم حتّى يهلِكوا، والمرادُ بذِكر الأحوال الثلاث بيان قدرة الله سبحانه على إهلاكهم بأيّ وجه كان لا الحصر فيها. ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث لا يُعاجلكم بالعقوبة، ويحلُم عنكم مع استحقاقكم لها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ۝٤٨ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ استفهام إنكاري، وقرئ على صيغة الخِطاب،[2] و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: ألم ينظروا ولم يرَوا متوجِّهين ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي: مِن كلّ شيء ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أي ترجِع شيئًا فشيئًا حسبما تقتضيه إرادة الخالق تعالى، فإنّ التفيُّؤ مُطاوِعُ الإفاءة، وقرئ بتأنيث الفعل.[3]

---

[1] البيت مختلف في نسبته: فهو لأبي كبير الهذلي في الكشف والبيان للثعلبي، ٥١/١٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٤٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبَيضاوي، ٢٦٣/٢؛ وهو لذي الرُّمّة في الصحاح للجوهري، «خوف»، «سفن»؛ وهو في ملحق ديوانه ١٩١٧/٣. ويُروى لغيرهما. انظر تفصيل ذلك في تخريج مُحقِّق ديوان ذي الرُّمّة ١٩١٧/٣-١٩١٨. | والتامك: السنام المرتفع. القَرِد: الذي أكله القُراد. النبعة: مفرد النبع وهو شجر تتّخذ منه القِسيّ. والسَّفَن: ما يُنحت به الشيء. انظر: لسان العرب لابن منظور، «تمك»، «قرد»، «نبع»، «سفن».

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٤/٢.

[3] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠٤/٢.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ أي: ألم يرَوا الأشياء التي لها ظلال متفيّئة عن أيمانها وشمائلها، أي: عن جانبَي كلّ واحد منها، استُعير لهما ذلك مِن يمين الإنسان وشِماله.

﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ حال مِن الظلال كقوله تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد، ١٥/١٣]. والمراد بسجودها تصرّفها على مشيئة الله سبحانه وتأتّيها لإرادته تعالى في الامتداد والتقلّص وغيرهما غيرَ ممتنِعة عليه فيما سخّرها له.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: صاغرون منقادون، حال مِن الضمير في ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾، والجمعُ باعتبار المعنى، وإيرادُ الصيغة الخاصّة بالعقلاء لِما أنّ الدُّخور مِن خصائصهم، / [٣٢٨و] والمعنى: ترجع الظلال مِن جانب إلى جانب بارتفاع الشمس وانحدارها، أو باختلاف مشارقها ومغاربها، فإنّها كلّ يوم مِن أيّام السنة تتحرَّك على مدار معيَّن مِن المدارات اليوميّة بتقدير العزيز العليم منقادةً لِما قُدِّر لها مِن التفيُّؤ أو واقعةً على الأرض ملتصقةً بها على هيئة الساجد، والحالُ أنّ أصحابها مِن الأجرام داخرة منقادة لحُكمه تعالى، ووصفُها بالدُّخور مغنٍ عن وصف ظلالها به، أو كلاهما حال مِن الضمير المشار إليه، والمعنى: ترجع ظلال تلك الأجرام حالَ كونها منقادةً لله تعالى داخرةً، فوصفُها بهما مغنٍ عن وصف ظلالها بهما.

ولعلّ المرادَ بالموصول الجماداتُ مِن الجبال والأشجار والأحجار التي لا يظهَر لظلالها أثر سوى التفيُّؤ بما ذُكر مِن ارتفاع الشمس وانحدارها أو اختلاف مشارقها ومغاربها، وأمّا الحيوان فظلُّه يتحرّك بتحرّكه. وقيل: المراد بـ﴿ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ يمينُ الفَلك وهو جانبه الشرقيّ؛ لأنّ الكواكب منه تظهر آخذةً في الارتفاع والسطوع، وشمالُه وهو جانبُه الغربيُّ المقابل له، فإنّ الظلال في أوّل النهار تبتدئ مِن الشرق واقعةً على الرُّبع الغربي مِن الأرض وعند الزوال تبتدئ مِن الغرب واقعةً على الربع الشرقي منها.[١]

وبعد ما بيّن سجود الظلال وأصحابها مِن الأجرام السفليّة الثابتة في أحيازها ودخورُهما له سبحانه وتعالى شُرع في بيان سجود المخلوقات المتحرِّكة بالإرادة

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦٤/٢.

سواء كانت لها ظلال أو لا، فقيل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي: له تعالى وحدَه يخضع وينقاد لا لشيء غيره استقلالًا أو اشتراكًا، فالقصرُ ينتظم القلبَ والإفراد إلّا أن الأنسب بحال المخاطَبين قصرُ الإفراد، كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾.[١]

[٣٢٨ظ] / ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قاطبة ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كائنًا ما كان ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ بيان لِما في الأرض. وتقديمه لقلّته ولئلّا يقعَ بين المُبيِّن والمُبيَّن فَصل، والإفرادُ مع أنّ المراد الجمع لإفادة وضوح شمول السجود لكلّ فرد مِن الدوابّ. قال الأخفش: «هو كقولك: ما أَتَانِي مِن رَجُلٍ مثلِه وما أتاني مِن الرجال مثلُه».[٢]

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عطفٌ على ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عطفَ جبريلَ على الملائكة تعظيمًا وإجلالًا، أو على أن يُراد بـ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الخلقُ الذي يقال له: الروح، أو يراد به ملائكةُ السماوات، وبقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ملائكةُ الأرض مِن الحفَظة وغيرِهم.

﴿وَهُمۡ﴾ أي: الملائكةُ مع عُلوّ شأنهم ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عن عبادته عزّ وجلّ والسجود له. وتقديم الضمير ليس للقصر، والجملة إمّا حال مِن فاعل ﴿يَسۡجُدُ﴾ مسنَدًا إلى ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أو استئنافٌ أُخبر عنهم بذلك.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۞﴾

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ أي: مالكَ أمرهم، وفيه تربية للمهابة وإشعار بعلّة الحُكم. ﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ أي: يخافونه جلّ وعلا خوفَ هَيبة وإجلال وهو فوقهم بالقهر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام، ٦/١٨]، أو يخافون أن يُرسِل عليهم عذابًا مِن فوقهم، والجملة حال مِن الضمير في لا يستكبرون أو بيان له وتقرير لأنّ مَن يخاف الله سبحانه لا يستكبر عن عبادته.

---

[١] النحل، ١٦/٥١.

[٢] معاني القرآن للأخفش، ٢/٤١٦؛ وهو عنه في اللباب لابن عادل، ١٢/٧٣.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩﴾ أي: ما يؤمَرون به مِن الطاعات والتدبيرات، وإيرادُ الفعل مبنيًا للمفعول جَرْي على سَنن الجلالة وإيذانٌ بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة استناده إلى غيره سبحانه، وفيه أنّ الملائكة مكلّفون مُدارون بين الخوف والرجاء.

وبعد ما بُيِّن أنّ جميع الموجودات يُخصّون الخضوع والانقياد الطبيعي وما يجري مجراه مِن عبادة الملائكة حيث لا يتصوَّر منهم عدم الانقياد أصلًا لله عزّ وجلّ، أُردِف / ذلك بحكاية نهْيِه سبحانه وتعالى للمكلَّفين عن الإشراك [٣٢٩و] فقيل: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ عطفًا على قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾، وإظهارُ الفاعل وتخصيص لفظة الجلالة بالذِّكر للإيذان بأنّه متعيّنُ الألوهيّة، وإنّما المنهيّ عنه هو الإشراك به لا أنّ المنهيّ عنه مطلَق اتّخاذِ إلهين بحيث يتحقّق الانتهاء عنه برفض أيّهما كان، أي: قال تعالى لجميع المكلّفين: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾.

وإنّما ذُكر العدد مع أنّ صيغة التثنية مُغنِية عن ذلك دلالة على أنّ مَساق النهي هو الاثنَينيّة وأنّها منافيةٌ للألوهيّة، كما أنّ وَصْف الإله بالوَحدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ للدلالة على أنّ المقصود إثبات الوحدانيّة وأنّها مِن لوازم الإلهيّة، وأمّا الإلهيّة فأمر مُسلَّمُ الثبوت له سبحانه، وإليه أشيرَ حيث أسندَ إليه القول. وفيه التفاتٌ مِن التكلّم إلى الغَيبة على رأي مَن اكتفى في تحقّق الالتفات بكون الأسلوب الملتفَت عنه حقَّ الكلام، ولم يشترِط سبقَ الذِّكر على ذلك الوجه.[1]

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ التفات مِن الغيبة إلى التكلّم لتربية المهابة وإلقاء الرهبة في القلوب، ولذلك قُدِّم المفعول وكُرِّر الفعلُ، أي: إن كنتم راهبين شيئًا فإيايَ ارهبوا فارهبون لا غيرُ، فإنّي ذلك الواحد الذي يسجُد له ما في السماوات والأرض.

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢﴾

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خلقًا ومُلكًا، تقرير لعلّة انقياد ما فيهما له سبحانه خاصّة، وتحقيق لتخصيص الرهبة به تعالى. وتقديم الظرف لتقوية

---

[1] كما هو مذهب السّكّاكي في الالتفات، وقد يُفهَم مِن كلام الزمخشري. انظر: **مفتاح العلوم** للسّكّاكي، ص ٢٩٩، و**المطوّل** للتفتازاني، ص ١٣١-١٣٢.

ما في "اللام" مِن معنى الاختصاصِ. وكذا في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ أي: الطاعة والانقياد.

﴿وَاصِبًا﴾ أي: واجبًا ثابتًا، لا زوالَ له لِما تقرَّر أنّه الإله وحدَه الحقيقُ بأن يُرهَب، وقيل: واصبًا مِن الوصَب، أي: وله الدين ذا كُلفة. وقيل: الدِّينُ: الجزاء، أي: وله الجزاء الدائم بحيث لا ينقطع ثوابه لمَن آمن وعقابُه لمَن كفَر.[1]

[٣٢٩ظ] ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ الهمزة للإنكار، و"الفاء" للعطف / على مقدَّر ينسحب عليه السياق، أي: أعَقيبَ تقرُّر الشئون المذكورة مِن تخصيص جميع الموجودات للسجود به تعالى، وكون ذلك كلّه له، ونهيِه عن اتّخاذ الأنداد، وكونِ الدِّين له واصبًا المستدعي ذلك لتخصيص التقوى به سبحانه، غيرَ الله الذي شأنُه ما ذُكر تتّقون فتطيعون؟

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣﴾

﴿وَمَا بِكُم﴾ أي: أيُّ شيء يُلابسكم ويصاحبكم ﴿مِّن نِّعْمَةٍ﴾ أيّة نعمة كانت ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ فهي مِن الله، فـ﴿مَا﴾ شرطيّة أو موصولة متضمِّنة لمعنى الشرط باعتبار الإخبارِ دون الحصول، فإنّ ملابَسة النعمة بهم سبب للإخبار بأنّها منه تعالى، لا لكونها منه تعالى. ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ مِساسًا يسيرًا ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾: تتضرّعون في كشفه لا إلى غيره. والجُؤار: رفعُ الصوت بالدعاء والاستغاثة، قال الأعشى:

يـــراوِحُ مِـــن صـلَـــواتِ الـمليـ ـك طـورًا سجـودًا وطـورًا جـؤارا[2]

وقُرِئ: "تَجَرُوْنَ"[3] بطرح الهمزة وإلقاء حركتها إلى ما قبلها.

وفي ذكر المِساس المُنبِئ عن أدنى إصابة، وإيرادِه بالجملة الفعليّة المعربةِ عن الحدوث، مع ﴿ثُمَّ﴾ الدالّة على وقوعه بعد برهة مِن الدهر، وتحليةِ الضُّر

---

[1] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٦٥.

[2] البيت للأعشى في ديوانه، ص ٥٣؛ وهو له في جامع البيان للطبري، ١٤/٢٥١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٩.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري وأبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٢.

بلام الجنس المفيدة لمِساس أدنى ما ينطلِق عليه اسم الجنس، مع إيراد النعمة بالجملة الاسميّة الدالّة على الدوام، والتعبيرِ عن ملابستها للمخاطبين بباء المصاحبة، وإيرادِ ﴿مَا﴾ المعرِبة عن العموم، ما لا يخفى[١] مِن الجزالة والفخامة. ولعلّ إيرادَ ﴿إِذَا﴾ دون "إن" للتوسّل به إلى تحقّق وقوع الجواب.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤﴾

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ وقُرئ: "كَاشَفَ الضُّرَّ"،[٢] وكلمةُ ﴿ثُمَّ﴾ ليست للدلالة على تمادي زمان مِساس الضرّ ووقوع الكشف بعد برهة مديدة؛ بل للدلالة على تراخي رتبة ما يترتّب عليه مِن مفاجأة الإشراك المدلول عليها بقوله سبحانه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، فإنّ ترتّبها على ذلك في أبعد غاية مِن الضلال، ثمّ إن وُجِّه الخطاب / إلى الناس جميعًا فـ"مِن" للتبعيض، [٣٣٠و] والفريقُ فريق الكفَرة، وإن وُجِّه إلى الكفَرة فـ"مِن" للبيان، كأنّه قيل: إذا فريق كافر وهم أنتم.

ويجوز أن يكون فيهم مَن اعتبر وازدجر، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان، ٣٢/٣١] فـ"مِن" تبعيضيّة أيضًا. والتعرّض لوصف الربوبيّة للإيذان بكمال قُبح ما ارتكبوه مِن الإشراك والكفران.

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٥٥﴾

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ مِن نعمة الكشف عنهم، كأنّهم جعلوا غرضهم في الشِّرك كُفرانَ النعمة وإنكارَ كونها مِن الله عزّ وجلّ. ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ أمرُ تهديد. والالتفاتُ إلى الخطاب للإيذان بتناهي السخط، وقُرئ بالياء[٣] مبنيًا للمفعول عطفًا على ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾، على أن يكون كُفران النعمة والتمتّع غرضًا لهم مِن الإشراك. ويجوز أن تكون "اللام" لام الأمر الوارد للتهديد.

---

١ السياق: وفي ذِكر... ما لا يخفى...

٢ وفي هامش م: بمعنى "كَشَفَ"، وفيه مبالغة تُنبئ عنها صيغة المغالبة. «منه». | والقراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي العالية. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٧.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ أمرِكم، وما ينزل بكم مِن العذاب. وفيه وعيدٌ أكيد، مُنبئ عن أَخْذ شديد، حيث لم يُذكر المفعول إشعارًا بأنّه ممّا لا يوصف.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ لعلّه عطفٌ على ما سبق، بحسب المعنى، تعدادًا لجناياتهم، أي: يفعلون ما يفعلون مِن الجُؤار إلى الله تعالى عند مِساس الضرّ، ومِن الإشراك به عند كشفِه، ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لِما لا يعلمون حقيقته وقَدْره الخسيسَ مِن الجمادات التي يتّخذونها شركاء لله سبحانه جهالةً وسَفاهًا، ويزعُمون أنّها تنفَعهم وتشفع لهم، على أنّ ﴿مَا﴾ موصولة والعائد إليها محذوف، أو لِما لا علمَ له أصلًا، وليس مِن شأنه ذلك، فـ﴿مَا﴾ موصولة أيضًا والعائد إليها ما في الفعل مِن الضمير المستكِنّ، وصيغةُ جَمْع العقلاء لكون ﴿مَا﴾ عبارةً عن آلهتهم التي وصفوها بصفات العقلاء، أو مصدريّةٌ[1] و"اللام" للتعليل، أي: لعدم علمِهم، والمجعول له محذوف للعِلم بمكانه.

﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مِن الزرع والأنعام وغيرهما تقرّبًا إليها.

[٣٣٠ظ] / ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ سؤالَ توبيخ وتقريع ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا بأنّها آلهة حقيقةٌ بأن يُتقرَّب إليها. وفي تصدير الجملة بالقسم وصرفِ الكلام مِن الغَيبة إلى الخطاب المُنبئ عن كمال الغضب مِن شدّة الوعيد ما لا يخفى.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ هم خُزاعةُ وكِنانةُ[2] الذين يقولون: الملائكة بنات الله. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه وتقديس له عزّ وجلّ عن مضمون قولهم ذلك، أو تعجُّب مِن جُرأتهم على التفوُّه بمثل تلك العظيمة.

---

[1] السياق: على أنّ ﴿مَا﴾ موصولة... أو مصدريّة...

[2] كِنانة: مِن مشاهير العرب المستعربة، وهم بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس، وله مِن الولد على عمود النسب النبوي ابنه النضر، وبنو كنانة بطن مِن مضر القحطانيّة، وأمّهم مُرّة بن مُرّ بن أُدّ. انظر: **قلائد الجمان** للقلقشندي، ١/١٣٤؛ **ونهاية الأرب** للقلقشندي، ١/٤٠٨.

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ مِن البنين. و﴿مَا﴾ مرفوعةُ المحلّ على أنّه مبتدأ والظرف المقدَّم خبره، والجملة حاليّة. و﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ اعتراض في حاقّ موقعه، وجعلُها منصوبةً بالعطف على ﴿ٱلْبَنَـٰتِ﴾ أي: يجعلون لأنفسهم ما يشتهون مِن البنين، يؤدّي إلى جَعْل الجَعْل بمعنًى يعمّ الزَّعْمَ والاختيار.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: أُخبِر بولادتها ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾ أي: صار، أو دام النهارَ كلَّه ﴿مُسْوَدًّا﴾ مِن الكآبة والحياء مِن الناس، واسودادُ الوجه كناية عن الاغتمام والتشوير.[١] ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ممتلئ حَنقًا وغيظًا.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾

﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾ يستخفي ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ مِن أجل سوئه، والتعبيرُ عنها بـ﴿مَا﴾ لإسقاطها عن درجة العقلاء. ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ أي: متردّدًا في أمره محدِّثًا نفسَه في شأنه: أيُمسِكه ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ ذلّ، وقُرئ: "هوانٍ"،[٢] ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ﴾ يُخفيه ﴿فِى ٱلتُّرَابِ﴾ بالوأد، والتذكيرُ باعتبار لفظ ﴿مَا﴾، وقُرئ بالتأنيث.[٣]

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون ما هذا شأنُه عندهم مِن الهُون والحقارة لله المتعالي عن الصاحبة والولد، والحالُ أنّهم يتحاشَون عنه ويختارون / لأنفسهم البنين، فمدارُ الخطأ جعلُهم ذلك لله سبحانه مع إبائهم [٣٣١و] إيّاه، لا جعلُهم البنين لأنفسهم ولا عدمُ جعلهم له سبحانه.[٤] ويجوز أن يكون مداره التعكيس، لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم، ٢٢/٥٣].

---

١ التشوير: مِن "شوَّر به" إذا أخجله. **الصحاح** للجوهري، «شور».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري وعيسى بن عمر وابن أبي عبلة وابن مَقسَم والزَّعفراني. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٧٧؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٣؛ **المغني في القراءات** للنَّوزاوازي، ص ١١١٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٣.

٤ وفي هامش م: أي: عدم جَعْل البنين له سبحانه. «منه».

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ممّن ذُكرت قبائحُهم ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ صفةُ السَّوْء الذي هو كالمَثل في القُبح، وهي الحاجة إلى الولد ليقوم مقامَهم عند موتهم، وإيثارُ الذكور للاستظهار بهم، ووأدُ البنات لدفع العار وخشيةِ الإملاق، المنادي كلّ ذلك بالعجز والقصور والشحّ البالغ. ووضعُ الموصول موضعَ الضمير للإشعار بأنّ مدار اتّصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة.

﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الصفة العجيبة الشأنِ، التي هي مثَل في العُلوّ مطلقًا، وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلَق والجود الواسع والنزاهة عن صفات المخلوقين، ويدخُل فيه علوُّه تعالى عمّا قالوه عُلوًّا كبيرًا.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المتفرِّد بكمال القدرة لاسيّما على مؤاخذتهم بذنوبهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يفعَل كلّ ما يفعَل بمقتضى الحكمة البالغة، وهذا أيضًا مِن جملة صفاته العجيبة تعالى.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ الكفّارَ ﴿بِظُلْمِهِم﴾ بكفرهم ومعاصيهم التي مِن جملتها ما عُدِّد مِن قبائحهم، وهذا تصريح بما أفاده قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١] وإيذانٌ بأنّ ما أتَوه مِن القبائح قد تناهى إلى أمَد لا غايةَ وراءه، ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ على الأرض المدلولِ عليها بـ﴿النَّاسَ﴾ وبقوله تعالى: ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ أي: ما ترك عليها شيئًا مِن دابّة قطُّ؛ بل أهلَكها بالمرّة بشؤم ظُلم الظالمين، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً/ لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال، ٢٥/٨]. [٣٣١ظ]

وعن أبي هريرة رضيَ الله عنه أنّه سمع رجلًا يقول: «إنّ الظالم لا يضُرّ إلّا نفسه»، فقال: «بلى والله، حتّى إنّ الحُبارَى لَتموت في وَكرها بظُلم الظالم».[٢]

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] جامع البيان للطبري، ٢٦٠/١٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٠/٢.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «كاد الجُعَل يهلِك في جُحره بذنب ابن آدمَ»،[١] أو مِن دابّة ظالمة. وقيل: لو أُهلِك الآباءَ لم يكن الأبناءُ، فيلزَم ألّا يكون في الأرض دابّة لِما أنّها مخلوقة لمنافع البشر، لقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، ٢/٢٩].

﴿وَلَٰكِن﴾ لا يؤاخِذهم بذلك؛ بل ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لأعمارهم، أو لعذابهم كي يتوالدوا، أويكثُر عذابهم، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ المسمّى ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عن ذلك الأجل، أي: لا يتأخّرون. وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعَجْزهم عنه مع طلبهم له. ﴿سَاعَةً﴾ فذّةً، وهي مَثَل في قلّة المدّة، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يتقدّمون.

وإنّما تعرَّض لذِكره مع أنّه لا يُتصوَّر الاستقدام عند مجيء الأجل مبالغة في بيان عدم الاستئخار بنَظْمه في سِلك ما يمتنع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء، ٤/١٨]، فإنّ مَن مات كافرًا مع أنّه لا توبةَ له رأسًا قد نُظم في سِمْط مَن لم تُقبل توبته للإيذان بأنّهما سِيّان في ذلك، وقد مرّ في تفسير سورة يونس.[٢]

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾ أي: يُثبتون له سبحانه، وينسُبون إليه في زعمهم ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم ممّا ذُكر، وهو تكرير لِما سبق تثنيةً للتقريع وتوطئةً لقوله تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: يجعلون له تعالى ما يجعلون ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذب، وهو ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ / العاقبةَ الحسنى عند الله تعالى، كقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت، ٤١/٥٠]. وقُرئ: "الكُذُبُ"[٣] وهو جمع "كَذوب"، على أنّه صفة "الألسنة". [٣٣٢و]

---

١ جامع البيان للطبري، ١٤/٢٦٠-٢٦١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٠.

٢ في تفسير الآية التاسعة والأربعين منها، ومرّ أيضًا في تفسير الآية التاسعة والثلاثين مِن سورة الأعراف.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن معاذ بن جبل وابن أبي عبلة والزّعفراني وابن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١١١.

﴿لَا جَرَمَ﴾ ردّ لكلامهم ذلك وإثباتٌ لنقيضه، أي: حقًّا ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ مكانَ ما أمّلوا مِن الحسنى ﴿ٱلنَّارَ﴾ التي ليس[1] وراء عذابها عذابٌ، وهي[2] عَلَم في السُّوآى.

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي: مقدَّمون إليها، مِن "أفرطتُه"، أي: قدّمتُه في طلب الماء، وقيل: مَنسيّون، مِن "أفرطتُ فلانًا خلفي" إذا خلّفتَه ونسِيتَه، وقُرئ بالتشديد وفتح الراء،[3] مِن "فرّطتُه في طلب الماء"، وبكسر الراء المشدّدة،[4] مِن التفريط في الطاعات، وبكسر المخفّفة،[5] مِن الإفراط في المعاصي، فلا يكونان حينئذ مِن أحوالهم الأخرويّة، كما عُطف عليه.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا يناله مِن جهالات الكفَرة، ووعيدٌ لهم على ذلك، أي: أرسلنا إليهم رسلًا، فدعَوهم إلى الحقّ، فلم يجيبوا إلى ذلك، ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحةَ، فعكفوا عليها مُصِرّين.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ أي: قرينُهم، وبئس القرينُ. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي: يوم زيَّن لهم الشيطان أعمالهم فيه؛ على طريق حكاية الحال الماضية، أو في الدنيا، أو يوم القيامة على طريقة حكاية الحال الآتية، وهي حال كونهم معذَّبين في النار، والوليُّ بمعنى: الناصر، أي: فهو ناصرهم اليوم لا ناصرَ لهم غيره، مبالغةً في نفي الناصر عنهم. ويجوز أن يكون الضمير عائدًا إلى مشركي قريش، والمعنى: زيَّن للأمم السالفة أعمالهم، فهو وليّ هؤلاء لأنّهم منهم. وأن يكون على حذف المضاف، أي: وليّ أمثالهم.

﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو عذاب النار.

---

[1] ط س: ليست.

[2] س: هو.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٣.

[4] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.

[5] قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾

/ ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمِّ العِلَل، أي: ما أنزلناه عليك لعلّة مِن العِلَل إلّا لتبيّن ﴿لَهُمُ﴾ أي: للناس ﴿ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ مِن التوحيد والقدَر وأحكام الأفعال وأحوال المعاد. [٣٣٢ظ]

﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ معطوفان على محلّ ﴿لِتُبَيِّنَ﴾، أي: وللهداية والرحمة ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، وإنّما انتصبا لكونهما إثرَي فاعل الفعل المعلَّل، بخلاف "التبيين" حيث لـم ينتصِب لفقدان شرطه، ولعلّ تقديمَه عليهما لتقدّمِه في الوجود، وتخصيصُ كونهما هدًى ورحمة بالمؤمنين لأنّهم المغتنِمون آثارَه.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥﴾

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِن السحاب أو مِن جانب السماء حسبما مرّ، وهذا تكرير لِما سبَق تأكيدًا لمضمونه وتوطئةً لِما يعقُبه مِن أدلّة التوحيد. ﴿مَآءٗ﴾ نوعًا خاصًّا مِن الماء هو المطر، وتقديمُ المجرور على المنصوب لِما مرّ مرارًا مِن التشويق إلى المؤخَّر. ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بما أنبت به فيها مِن أنواع النباتات ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ أي: بعد يُبسها، وما تفيده "الفاء" مِن التعقيب العادي لا ينافيه ما بين المعطوفين مِن المُهلة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنزال الماء مِن السماء وإحياءِ الأرض الميتة به ﴿لَأٓيَةٗ﴾ وأيّةَ آيةٍ دالّةً على وحدته سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته. ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ هذا التذكيرَ ونظائره سماعَ تفكّر وتدبّر، فكأنّ مَن ليس كذلك أصمُّ.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾ عظيمةً وأيَّ عبرةٍ تحار في دَرْكها العقول وتهيم في فهمها ألباب الفُحول. ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ استئناف لبيان ما أُبهِم أوّلًا مِن "العِبرة".

[٣٣٣و] / ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ أي: بطون الأنعام، والتذكيرُ هنا لمراعاة جانبِ اللفظ؛ فإنّه اسم جمع، ولذلك عدّه سيبويه في المفردات المبنيّة على "أفعال"، كـ"أكياش"[١] و"أخلاق"،[٢] كما أنّ تأنيثه في سورة المؤمنين لرعاية جانب المعنى، ومَن جعَله جَمْع "نَعَمٍ" جعَل الضمير للبعض، فإنّ اللبَن ليس لجميعها، أو له على المعنى، فإنّ المراد به الجنس، وقرئ بفتح النون ههنا وفي سورة المؤمنين.[٣]

﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا﴾ الفَرْث: فضالةُ ما يبقى مِن العلَف في الكَرِش المُنهضِمة بعضَ الانهضام، وكثيفُ ما يبقى في المِعا. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ البهيمة إذا اعتلفت وانطبخ العلفُ في كَرِشها كان أسفله فَرْثًا وأوسطُه لبنًا، وأعلاه دمًا.[٤] ولعلّ المرادَ به: أنّ أوسطه يكون مادّةَ اللبن، وأعلاه مادّةَ الدم الذي يغذو البدن؛ لأنّ عدم تكوّنهما في الكَرِش ممّا لا ريبَ فيه؛ بل الكبِدُ تجذب صفاوة الطعام المنهضِم في الكَرِش، ويبقى ثُفله وهو: الفَرْثُ، ثمّ يُمسكها ريثما يهضِمها، فيُحدث أخلاطًا أربعة معها مائيّةً، فتُميِّز القوّة المميّزة تلك المائيّة بما زاد على قدر الحاجة مِن المِرَّتين الصفراء والسوداء، ويدفعها إلى الكِلْية والمَرارة والطِّحال، ثمّ تُوزِّع الباقي على الأعضاء بحسبها، فتُجري على كلّ حقَّه على ما يليق به بتقدير العزيز الحكيم، ثمّ إن كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قَدْر غِذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مِزاجها، فيندفع الزائد أوّلا لأجل الجنين إلى الرحِم، فإذا انفصل انصبّ ذلك الزائد / أو بعضُه إلى الضروع، فيبيَضّ لمجاورته لحومها [٣٣٣ظ] الغُدديّة البِيض ويلَذّ طعمُه فيصير لبنًا. ومَن تدبَّر في بدائع صُنع الله تعالى فيما ذُكِر مِن الأخلاط والألبانِ، وإعداد مقارّها ومجاريها، والأسبابِ المولِّدة لها،

---

١ وفي هامش م: وهو الذي أُعيد غَزْله. «منه».

٢ انظر: كتاب سيبويه، ٢٣٠/٣، وفيه أنّ أفعال قد يقع للواحد، فتقول العرب: "هو أنعام"، كما في هذه الآية، كما تقول: "هذا ثوب أكياش". والكلام عنه في الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٢.

٣ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٠٤/٢.

٤ مروي عنه بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٨/٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦٨/٢؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٢/٢.

وتسخيرِ القُوى المتصرِّفة فيها، كلَّ وقت على ما يليق به، اضطُرّ[1] إلى الاعتراف بكمال عِلمه وقدرته وحكمته وتناهي رأفته ورحمتِه.[2]

فـ﴿مِن﴾ الأُولى تبعيضيّة، لِما أنّ اللبَن بعض ما في بطونه؛ لأنّه مخلوق مِن بعض أجزاء الدم المتولِّد مِن الأجزاء اللطيفة التي في الفَرْث، حسبما فُصِّل، والثانيةُ: ابتدائيّة، كقولك: "سقَيتُ مِن الحوض"؛ لأنّ بين الفَرْث والدم مبدأ الإسقاء، وهي متعلِّقة بـ﴿نُسْقِيكُم﴾.

وتقديمه على المفعول لِما مرّ مرارًا مِن أنّ تقديم ما حقُّه التأخيرُ يبعث للنفس شوقًا إلى المؤخَّر موجِبًا لفَضْل تمكّنِه عند وروده عليها، لاسيّما إذا كان المقدَّم متضمِّنًا لوَصْف مُنافٍ لوَصْف المؤخَّر، كالذي نحن فيه، فإنّ بين وصفَي المقدَّم والمؤخَّر تنافيًا وتنائيًا، بحيث لا يتراءى ناراهما، فإنّ ذلك ممّا يزيد الشوق والاستشراف إلى المؤخَّر، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ[3] لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس، ٨٠/٣٦]، أو حالٌ[4] مِن ﴿لَبَنًا﴾ قُدِّم عليه لتنكيره، وللتنبيه على أنّه موضع العِبرة.

﴿خَالِصًا﴾ عن شائبة ما في الدم والفَرْث مِن الأوصاف، ببرزخ مِن القدرة القاهرة الحاجزة عن بغي أحدهما عليه، مع كونهما مكتنِفين له. ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ سهلَ المرور في حلقهم. قيل: لم يغَصَّ أحد باللبن.[5] وقرئ: "سَيِّغًا" بالتشديد[6] وبالتخفيف،[7] مثل "هَيِّن" و"هَيْن".

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ / متعلِّق بما يدلّ عليه الإسقاء مِن مطلَق [٣٣٤و]

---

١ السياق: ومَن تدبّر... اضطُر...

٢ الكلام كلّه بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٦٨-٢٦٩.

٣ م س: هو الذي أخرج.

٤ السياق: والثانية: ابتدائيّة... أو حالٌ...

٥ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٣.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر، مع رفع الغين. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٣.

الإطعام المنتظِم لإعطاء المطعوم والمشروب؛ فإنّ اللبن مطعوم، كما أنّه مشروب، أي: ونطعِمكم مِن ثمرات النخيل ومِن الأعناب، أي: مِن عصيرهما.

وقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ استئناف لبيان كُنه الإطعام وكشفِه؛ أو بقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾.[١] وتكرير الظرف للتأكيد، أو خبر لمبتدأ محذوف، صفتُه ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، أي: ومِن ثمرات النخيل والأعناب ثمَر تتّخذون منه، وحذف الموصوف إذا كان في الكلام كلمةُ "مِن" شائع نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات، ١٦٤/٣٧]. وتذكيرُ الضمير على الوجهين الأوّلين؛ لأنّه للمضاف المحذوفِ، أعني: العصير، أو لأنّ المراد هو الجنس. و"السَّكَر" مصدر سُمّيَ به الخمر. وقيل: هو النبيذ،[٢] وقيل: هو الطُّعم.[٣]

﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتّمْر والدِّبس والزبيب والخلّ، والآية إن كانت سابقةَ النزول على تحريم الخمر فدالّة على كراهتها وإلّا فجامعةٌ بين العِتاب والمِنّة. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ باهرةً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولَهم في الآيات بالنظر والتأمّل.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أي: ألهَمها وقذَف في قلوبها وعلّمها بوجه لا يعلمه إلّا العليم الخبير. وقُرئ بفتحتين.[٤] ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ أي: بأن اتخذي، على أنّ ﴿أَن﴾ مصدريّة. ويجوز أن تكون مفسِّرة؛ لِما في الإيحاء مِن معنى القول. وتأنيثُ الضمير مع أنّ ﴿ٱلنَّحْلِ﴾ مذكَّر للحمل على المعنى أو لأنّه جمعُ "نَحلة"، والتأنيثُ لغة أهل الحِجاز.

﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي: أوكارًا مع ما فيها مِن الخلايا، وقُرئ: "بِيُوتًا"[٥] بكسر الباء. ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ / أي: يعرِشه الناس، أي: يرفعه مِن كَرْم [٣٣٤ظ]

---

[١] السياق: متعلّق بما يدلّ... أو بقوله...

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٢/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦٩/٢.

[٣] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦٩/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب وأبان بن تغلب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٤.

[٥] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/٢.

أو سقف. وقيل: المراد به ما يرفَعه الناس ويبنونه للنحل،[١] والمعنى: اتّخذي لنفسكِ بيوتًا مِن الجبال والشجر إذا لم يكن لك أرباب، وإلّا فاتّخذي ما يعرِشونه لك. وإيراد حرفِ التبعيض لِما أنّها لا تُبنى في كلّ جبل وكلّ شجر وكلّ عرش ولا في كلّ مكان منها.

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مِن كلّ ثمرة تشتهينها حُلوِها ومُرِّها ﴿فَٱسْلُكِى﴾ ما أكلتِ منها ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي: مسالكَه التي برأها، بحيث يُحيل فيها بقدرته القاهرة النَّوْر[٢] المُرَّ عسلًا مِن أجوافك، أو فاسلكي الطُّرق التي ألهَمك في عمَل العسل، أو فاسلكي راجعةً إلى بيوتك سُبل ربّك، لا تتوعّر عليك ولا تلتبِس. ﴿ذُلُلًا﴾ جمع "ذَلول"، وهو حال مِن "السبل"، أي: مذلَّلة غيرَ متوعِّرة، ذلَّلها الله سبحانه وسهَّلها لك، أو مِن الضمير في ﴿ٱسْلُكِى﴾، أي: اسلكي منقادةً لما أُمرتِ به.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ استئناف عُدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهَر منها مِن تعاجيب صُنع الله تعالى، التي هي موضع العِبرة، بعد ما أُمِرت بما أُمِرت.

﴿شَرَابٌ﴾ أي: عسَل؛ لأنّه مشروب. واحتجّ به وبقوله تعالى: ﴿كُلِى﴾ مَن زعَم أنّ النحل تأكُل الأزهار والأوراق العطِرة فتستحيل في بطنها عسَلًا، ثمّ تقيءُ ادّخارًا للشتاء. ومَن زعم أنّها تلتقط بأفواهها أجزاءً قليلة حُلوة صغيرة متفرّقة على الأزهار والأوراق وتضعها في بيوتها، / فإذا اجتمع فيها شيءٌ كثيرٌ [٣٣٥و] يكون عسلًا، فسّر[٣] "البطون" بالأفواه. ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أبيضُ وأسودُ وأصفرُ وأحمرُ حسب اختلاف سنّ النحل أو الفصل أو الذي أخذت منه العسل.

﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ إمّا بنفسه كما في الأمراض البلغميّة، أو مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلّما يكون معجون لا يكون فيه عسل، مع أنّ التنكير فيه

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٣.
٢ النَّوْر: الزَّهر، وقيل: الأبيض منه. لسان العرب لابن منظور، «نور».
٣ السياق: ومَن زعم... فسّر...

مُشعِر بالتبعيض، ويجوز كونه للتفخيم. وعن قتادةَ أنّ رجلًا جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «إنّ أخي يشتكي بطنه»، فقال عليه السلام: «اسقِه العسل»، فذهب ثمّ رجع فقال: «قد سقَيتُه فما نفع»، فقال: «اذهبْ فاسقِه عسلًا، فقد صدق الله، وكذب بطنُ أخيك»، فسقاه فشفاه فبرئ كأنّما أُنشِط مِن عِقال.[1] وقيل: الضمير للقرآن، أو لِما بيَّن الله تعالى مِن أحوال النحل.[2] وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «العسَل شفاء لكلّ داء، والقرآنُ شفاء لِما في الصدور»،[3] «فعليكم بالشفاءين: العسل والقرآن».[4]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن أعاجيب آثار قدرة الله تعالى ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنّ مَن تفكَّر في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة المشتملة على حُسن الصنعة وصحّة القِسمة التي لا يقدِر عليها حُذّاقُ المهندسين إلّا بآلات رقيقةٍ وأدواتٍ أنيقة وأنظار دقيقة، جزَم[5] قطعًا بأنّ له خالقًا قادرًا حكيمًا يُلهِمها ذلك ويهديها إليه جلّ جلاله.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ لمّا ذكَر سبحانه مِن عجائب أحوال ما ذَكَر مِن الماء والنبات والأنعام والنحل أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر، / مِن أوّل [٣٣٥ظ] عمُره إلى آخره وتطوّراتِه فيما بين ذلك، وقد ضبطوا مراتب العمُر في أربع: الأُولى: سنُّ النشوء والنماء، والثانية: سنُّ الوقوف وهي سنّ الشباب، والثالثة: سنُّ الانحطاط القليل وهي سنُّ الكهولة، والرابعة: سنُّ الانحطاط الكبير، وهي:

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٢٣/٧ (٥٦٨٤)؛ وصحيح مسلم، ١٧٣٦/٤ (٢٢١٧)؛ وجامع البيان للطبري، ٢٩٠/١٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٥٤/٢.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٧٠/٢.

٣ جامع البيان للطبري، ٢٩٠/١٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٠/٥.

٤ عن ابن مسعود في المصنَّف لابن أبي شيبة، ٦٠/٥ (٢٣٦٨٩)؛ وسنن ابن ماجه، ٥٠٧/٤ (٣٤٥٢)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠/٥، بلفظ «عليكم» مكان «فعليكم». وأوردهما الزمخشري في حديث واحد بلفظه ههنا في الكشّاف، ٤٥٤/٢.

٥ السياق: مَن تفكّر... جزم...

سنُّ الشيخوخة. ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على حِكَم بالغةٍ بآجال مختلفة، أطفالًا وشبابًا وشيوخًا.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾ قبل توفّيه، أي: يعاد ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي: أخسّه وأحقره، وهو خمس وسبعون سنة، على ما رُوي عن عليّ رضي الله عنه،[1] وتسعون سنة على ما نُقل عن قتادة رضي الله عنه،[2] وقيل: خمسٌ وتسعون. وإيثارُ "الردّ" على الوصول والبلوغ ونحوهما للإيذان بأنّ بلوغه والوصول إليه رجوعٌ في الحقيقة إلى الضّعف بعد القوّة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس، ٣٦/٦٨]، ولا عُمرٌ أسوأَ حالًا مِن عُمُر الهَرِم الذي يُشبِه الطفل في نقصان العقل والقوّة.

﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ﴾ كثير ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن العِلم، أو مِن المعلومات، أو لكيلا يعلم شيئًا بعد عِلمٍ بذلك الشيء، وقيل: لئلّا يعقِل بعد عَقْله الأوّل شيئًا.[3]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقادير أعماركم، ﴿قَدِيرٌ﴾ على كلّ شيء، يُميت الشابَّ النشيط، ويُبقي الهَرِم الفانيَ. وفيه تنبيه على أنّ تفاوت الآجال ليس إلّا بتقدير قادر حكيم، ركّب أبنيتهم وعدّل أمزجتهم على قدَر معلوم، ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لَما بلغ التفاوت هذا المبلغ.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ أي: جعلكم متفاوتين فيه، فأعطاكم منه أفضل ممّا أعطى مماليككم. ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾ فيه على غيرهم / ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ﴾ الذي رزقهم إيّاه ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ على مماليكهم الذين هم شركاؤهم في المخلوقيّة والمرزوقيّة. [٣٣٦و]

﴿فَهُمْ﴾ أي: المُلّاك والمماليك ﴿فِيهِ﴾ أي: في الرزق ﴿سَوَآءٌ﴾ أي: لا يردُّونه عليهم، بحيث يُساوونهم في التصرّف ويشاركونهم في التدبير. و"الفاء" للدلالة

---

[1] جامع البيان للطبري، ١٤/٢٩٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ٥/٣٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٤.

[2] معالم التنزيل للبغوي، ٥/٣٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٤.

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٤.

على ترتّب التساوي على الردّ، أي: لا يردُّونه عليهم ردًّا مستتبعًا للتساوي، وإنّما يردُّون عليهم منه شيئًا يسيرًا، فحيث لا يرضَون بمساواة مماليكهم لأنفسهم وهم أمثالهم في البشريّة والمخلوقيّة لله عزّ سلطانه في شيء لا يختصّ بهم؛ بل يعُمّهم وإيّاهم مِن الرزق الذي هم أُسوة لهم في استحقاقه، فما بالهم يُشرِكون بالله سبحانه وتعالى فيما لا يليق إلّا به مِن الألوهيّة والمعبوديّة الخاصّة بذاته تعالى لذاته بعضَ[1] مخلوقاته الذي هو بمَعزِل مِن درجة الاعتبار! وهذا كما ترى مثَل ضُرِب لكمال قباحة ما فعَله المشركون تقريعًا عليهم، كقوله تعالى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن[2] شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ[3] فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ الآية [الروم، ٢٨/٣٠].

﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حيث يفعلون ما يفعلون مِن الإشراك، فإنّ ذلك يقتضي أن يُضيفوا نِعَم الله سبحانه الفائضة عليهم إلى شركائهم، ويجحدوا كونها مِن عند الله تعالى، أو حيث أنكروا أمثال هذه الحُجج البالغةِ بعد ما أنعم الله بها عليهم. والباء لتضمين الجحود معنى الكفر، نحو ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ [النمل، ١٤/٢٧]. و"الفاء" للعطف على مقدَّر، وهي داخلة في المعنى على الفعل، أي: أيُشرِكون به فيجحدون نعمته؟ وقُرِئ: "تَجْحَدُوْنَ"[4] على الخطاب. أو ليس الموالي برادّي رزقهم على مماليكهم، بل أنا الذي / أرزقهم وإيّاهم، فلا يحسبوا أنّهم يُعطونهم شيئًا، وإنّما هو رزقي أُجريه على أيديهم، فهم جميعًا في ذلك سواء، لا مزيّةَ لهم على مماليكهم، ألا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله؟ [٣٣٦ظ]

فهو ردّ على زَعْم المفضَّلين، أو على فعلهم المؤذِن بذلك، أو ما المفضَّلون برادّي بعضِ فضلهم على مماليكهم فيتساووا في ذلك جميعًا، مع أنّ التفضيل ليس إلّا ليبلوَهم أيشكُرون أم يكفرون، ألا يعرِفون ذلك فيجحدون نعمةَ الله تعالى؟ كأنّه قيل: فلم يردُّوه عليهم.

والجملة الاسميّة للدلالة على استمرارهم على عدم الردّ. يُحكى عن أبي ذرّ رضيَ الله عنه أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إنّما هم إخوانكم،

---

[1] السياق: يُشرِكون... بعض...
[2] م س – من.
[3] م س: آتيناكم.
[4] قرأ بها أبو بكر ورُويس. النشر لابن الجزري، ٣٠٤/٢.

فاكسُوهم ممّا تلبَسون، وأطعِموهم ممّا تَطعَمون».[١] فما رُؤِيَ عبده بعد ذلك إلّا ورداؤه رداؤه وإزارُه إزاره مِن غير تفاوت.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ۝٧٢﴾

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: مِن جنسكم ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم، ويكون أولادكم أمثالَكم. وقيل: هو خلقُ حوّاءَ مِن ضِلْع آدمَ عليه السلام.[٢]

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾ وُضِع الظاهر موضعَ المُضمَر للإيذان بأنّ المراد: جعَل لكلِّ منكم مِن زوجه لا مِن زوج غيره ﴿بَنِينَ﴾، وبأنّ نتيجة الازدواج هو التوالد. ﴿وَحَفَدَةٗ﴾ جَمْع "حافد"، وهو الذي يُسرِع في الخِدمة والطاعة، ومنه قول القانت: «وإليك نسعى ونحفِد»،[٣] أي: جعَل لكم خدَمًا يُسرِعون في خِدمتكم وطاعتكم. فقيل: المراد بهم: أولاد الأولاد، وقيل: البناتُ، عُبّر عنهنّ بذلك إيذانًا بوجه المِنّة فإنّهنّ يخدُمن البيوت أتمَّ خِدمة، وقيل: أولادُ المرأة مِن الزوج الأوّل، وقيل: البنون، والعطفُ لاختلاف الوصفين، وقيل: الأختان على البنات.[٤]

وتأخيرُ المنصوب في الموضعين عن المجرور لِما مرّ مِن التشويق، وتقديمُ المجرور / بـ"اللام" على المجرور بـ﴿مِن﴾ للإيذان مِن أوّل الأمر بعَود منفعة الجعل إليهم إمدادًا للتشويق وتقويةً له، أي: جعَل لمصلحتكم ممّا يناسِبكم أزواجًا، وجعَل لمنفعتكم مِن جهة مناسبة لكم بنين وحفَدة. [٣٣٧و]

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مِن اللذائذ أو مِن الحلالات، و﴿مِن﴾ للتبعيض؛ إذ المرزوق في الدنيا أنموذج لِما في الآخرة.

---

[١] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٦/٨ (٦٠٥٠)؛ وصحيح مسلم، ١٢٨٢/٣ (١٦٦١)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٥٥/٢.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٥/٢.

[٣] المُصنَّف لابن أبي شيبة، ٩٥/٢ (٦٨٩٣)؛ الدعاء للطبراني، ص ٢٣٨ (٧٥٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٥/٢.

[٤] الأقوال في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٥/٢.

﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ وهو أنّ الأصنام تنفعهم، وأنّ البحائر ونحوها حرام. و"الفاء" في المعنى داخلة على الفعل، وهي للعطف على مقدَّر، أي: أيكفُرون بالله الذي شأنه هذا، فيُؤمنون بالباطل؟ أو أبَعْد تحقّقِ ما ذُكر مِن نِعَم الله تعالى بالباطل يؤمنون دون الله سبحانه.

﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ تعالى الفائضة عليهم ممّا ذُكر وممّا لا تحيط به دائرة البيان. ﴿هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ حيث يضيفونها إلى الأصنام. وتقديم الصلة على الفعل للاهتمام، أو لإيهام الاختصاص مبالغةً، أو لرعاية الفواصل. والالتفات إلى الغيبة للإيذان باستيجاب حالهم للإعراض عنهم وصرفِ الخطاب إلى غيرهم مِن السامعين تعجيبًا لهم ممّا فعلوه.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لعلّه عطفٌ على ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ داخلٌ تحت الإنكار التوبيخي، أي: أيكفرون بنعمة الله؟ ويعبدون مِن دونه ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا﴾، إن جُعل "الرزق" مصدرًا، فـ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نَصْب على المفعولية منه، أي: ما لا يقدِر على أن يرزقهم شيئًا، لا مِن السماوات مطرًا، ولا مِن الأرض نباتًا، وإن جُعل اسمًا للمرزوق فنصبٌ على البدليّة منه، بمعنى: قليلًا، ومِن السماوات والأرض: صفةٌ لـ﴿رِزۡقٗا﴾، أي: كائنًا منهما، ويجوز كونه تأكيدًا لِـ﴿لَا يَمۡلِكُ﴾، أي: لا يملك رزقًا ما شيئًا مِن المُلك، ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ / أن يملكوه؛ إذ لا استطاعةَ لهم رأسًا، لأنّها مَوات لا حَراك بها، فالضميرُ للآلهة، ويجوز أن يكون للكفرة، على معنى أنّهم مع كونهم أحياء متصرِّفين في الأمور لا يستطيعون مِن ذلك شيئًا، فكيف بالجماد الذي لا حِسّ به؟ [٣٣٧ظ]

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ التفات إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي، أي: لا تُشركوا به شيئًا، والتعبيرُ عن ذلك بضرب المثَل للقصد إلى النهي عن الإشراك به تعالى في شأن مِن الشئون، فإنّ ضرب المثَل مبناه تشبيهُ حالة بحالة وقصّة بقصّة، أي: لا تُشبّهوا بشأنه شأنًا مِن الشئون، و"اللامُ" مثلها في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ﴾ [التحريم، ١٠/٦٦]، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [التحريم، ١١/٦٦]، لا مثلُها في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ[١] لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [يس، ١٣/٣٦] ونظائرِه.

و"الفاء" للدلالة على ترتّب النهي على ما عدَّد مِن النِّعم الفائضة عليهم مِن جهته سبحانه، وكونِ ما يشركون به تعالى بمَعزِل مِن أن يملِك لهم مِن أقطار السماوات والأرض شيئًا مِن رزق ما، فضلًا عمّا فُصِّل مِن نعمة الخلق والتفضيل في الرزق ونعمةِ الأزواج والأولاد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ تعليل للنهي المذكور ووعيدٌ على المنهيّ عنه، أي: إنّه تعالى يعلم كُنهَ ما تأتون وما تذرون، وأنّه في غاية العِظم والقبح، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك، وإلّا لَما فعلتموه، أو أنّه تعالى يعلم كُنهَ الأشياء، وأنتم لا تعلمونه، فدعوا رأيَكم، وقِفوا في مواقف الامتثال بما ورَد عليكم مِن الأمر والنهي. ويجوز أن يُراد: فلا تضربوا لله الأمثال، إنّ الله يعلم كيف يضرب الأمثال، وأنتم لا تعلمون ذلك، فتقعون فيما تقعون فيه مِن مهاوي الردى والضلال.

ثمّ علّمهم كيفيّة ضَرْب الأمثال في هذا الباب فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: ذكر وأورد شيئًا يُستدل به على تبايُن الحال بين جنابه عزّ وجلّ وبين ما أشركوا به وعلى تباعدهما، بحيث يُنادى بفساد / ما ارتكبوه نداء جليًّا. [٣٣٨و]

﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ بدل مِن ﴿مَثَلًا﴾ وتفسير له، والمثَل في الحقيقة حالته العارضة له مِن المملوكيّة والعجز التامّ وبحسَبها ضُرِب نفسه مثلًا، ووَصفُ العبد بالمملوكيّة للتمييز عن الحرّ لاشتراكهما في كونهما عبدًا لله سبحانه، وقد أُدمج فيه أنّ الكلّ عبيد له تعالى، وبعدم القدرة لتمييزه

---

[١] وفي هامش م: على أحد الوجهين. «منه».

عن المُكاتَب والمأذون، اللّذين لهما التصرّف في الجملة. وفي إبهام "المَثَل" أوّلًا ثمّ بيانه بما ذُكر ما لا يخفى مِن الفخامة والجزالة.

﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ﴾ ﴿مَن﴾ موصوفة معطوفة على ﴿عَبْدًا﴾، أي: رزقناه بطريق المُلك. والالتفاتُ إلى التكلّم للإشعار باختلاف حالَي ضَرْب المَثل والرزق. ﴿مِنَّا﴾ مِن جنابنا الكبير المتعالي، ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالًا طيّبًا أو مستحسَنًا عند الناس مرضيًا ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ تفضُّلًا وإحسانًا. و"الفاءُ" لترتيب الإنفاق على الرزق، كأنّه قيل: ومَن رزقناه منّا رزقًا حسنًا فأنفق. وإيثار ما عليه النظم الكريم مِن الجملة الاسميّة الفعليّةِ الخبرِ للدلالة على ثبات الإنفاق واستمرارِه التجددي.

﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ أي: حالَ السرّ والجهر، أو إنفاقَ سرّ وإنفاقَ جَهْر، والمراد بيانُ عموم إنفاقه للأوقات وشمولِ إنعامه لمَن يجتنب عن قبوله جهرًا، والإشارةُ إلى أصناف نِعَم الله تعالى الباطنة والظاهرة.

وتقديم السرّ على الجهر للإيذان بفضله عليه، والعدولُ عن تطبيق القرينتين بأن يقال: "وحرًّا مالكًا للأموال" مع كونه أدلَّ على تبايُن الحال بينه وبين قسيمه، لتوخّي تحقيق الحقّ بأنّ الأحرار أيضًا تحت رِبقة عبوديّته سبحانه وتعالى، / وأنّ مالكيّتهم لِما يملِكونه ليست إلّا بأن يرزُقَهم الله تعالى إيّاه مِن غير أن يكون لهم مدخلٌ في ذلك، مع محاولة المبالغة في الدلالة على ما قُصد بـ"المَثَل" مِن تباين الحال بين الممثَّلَين، فإنّ العبد المملوك حيث لم يكن مثلَ العبد المالك، فما ظنُّك بالجماد ومالكِ المُلك خلّاق العالمين؟ [٢٣٨ظ]

﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ جَمْعُ الضمير للإيذان بأنّ المراد بما ذُكر مَن اتّصف بالأوصاف المذكورة مِن الجنسين المذكورين، لا فردان مُعيَّنان منهما، أي: هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بما ذُكر مِن الصفات؟ مع أنّ الفريقين سِيّان في البشريّة والمخلوقيّة لله سبحانه، وأنّ ما ينفِقه الأحرار ليس ممّا لهم دَخْل في إيجاده ولا في تملّكه؛ بل هو ممّا أعطاه الله تعالى إيّاهم، فحيث لم يستوِ الفريقان، فما ظنُّكم بربّ العالمين؟ حيث تُشركون به ما لا ذليلَ أذلُّ منه، وهو الأصنام.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: كلُّه له؛ لأنّه مَولى جميع النِّعم لا يستحقّه أحد غيره، وإن ظهرت على أيدي بعض الوسائط فضلًا عن استحقاق العبادة، وفيه إرشاد إلى ما هو الحقّ مِن أنّ ما يظهَر على يد مَن ينفِق فيما ذُكر راجعٌ إلى الله سبحانه كما لوّح به قوله تعالى: ﴿رَزَقْنَٰهُ﴾؛ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما ذُكر فيُضيفون نِعَمه تعالى إلى غيره، ويعبدونه لأجلها. ونفيُ العِلم عن أكثرهم للإشعار بأنّ بعضهم يعلمون ذلك، وإنّما لا يعملون بموجَبه عنادًا، كقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل، ١٦/٨٣].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ / أي: مثلًا آخرَ يدلّ على ما دلّ عليه المَثل السابق على وجه أوضحَ وأظهرَ، وبَعْد ما أُبهِم ذلك لتنتظرَ النفس إلى وروده وتترقَّبه حتّى يتمكّن لديها عند ورودِه، بُيِّن فقيل: ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ وهو مَن وُلد أخرسَ ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ مِن الأشياء المتعلِّقة بنفسه أو بغيره، بحَدْس أو فِراسة لقِلّة فهمه وسوءِ إدراكه. ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ ثِقَل وعِيال ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ على مَن يعوله ويلي أمرَه، وهذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذِكر عدم قدرته على شيء مطلقًا. [٣٣٩و]

وقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي: حيث يرسله مولاه في أمر، بيانٌ لعدم قدرته على إقامة مصالح مولاه ولو كانت مصلحة يسيرة. وقُرئ: "يُوَجَّهُ"[١] على البناء للمفعول،[٢] وعلى صيغة الماضي مِن التوجّه.[٣] ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بنُجح وكفاية مُهِمّ البتّةَ.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود ومجاهد وعلقمة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٤.

[٢] وفي هامش م: وقُرئ: "يُوَجِّهُ" على البناء للفاعل بمعنى يتوجّه، من قولهم: «أينما أُوَجِّه ألقَ سعدًا»، ولعلّ ذلك مَبنيّ على تنزيل المتعدّي منزلة اللازم، لاتّحاد الفاعل والمفعول، ويجوز أن يُحمَل على حَذْف المفعول. «منه». | والقراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وعلقمة ويحيى وطلحة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٤. والقول المذكور من أمثال العرب. انظر: مجمع الأمثال للميداني، ١/٥٣.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٤.

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾ مع ما فيه مِن الأوصاف المذكورةِ ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: مَن هو مِنطيق فَهِم ذو رأي وكِفاية ورُشد، ينفع الناس بحَثّهم على العدل الجامع لمجامع الفضائل، ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه، مع ما ذُكر مِن نَفْعه التامّ للخاصّ والعامّ، ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. ومقابلةُ الصفاتِ المذكورة بهذين الوصفين لأنّهما في حاقّ ما يقابِلها، فإنّ محصِّل الصفاتِ المذكورة عدم استحقاق المأموريّة. وملخَّص هذين استحقاق كمال الآمريّة المستتبع لحيازة المحاسن بأجمعها. وتغييرُ الأسلوب، حيث لم يقل: "والآخرُ / آمرٌ بالعدل" الآية، لمراعاة الملاءمة [٣٣٩ظ] بينه وبين ما هو المقصود مِن بيان التبايُن بين القرينتين.

واعلم أنّ كلًّا مِن الفعلين ليس المراد بهما حكاية الضرب الماضي؛ بل المراد إنشاؤه بما ذُكر عَقيبه، ولا يبعُد أن يقال: إنّ الله تعالى ضرَب مثَلًا بخَلْق الفريقين على ما هما عليه، فكان خلقُهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يُشرِكون، فيكون كلّ مِن الفعلين حكايةً للضرب الماضي.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ﴾ تعالى خاصّةً، لا لأحد غيره استقلالًا ولا اشتراكًا، ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبةً، بحيث لا سبيلَ لهم إليها لا مشاهدةً ولا استدلالًا، ومعنى الإضافة إليهما: التعلّق بهما إمّا باعتبار الوقوع فيهما حالًا أو مآلًا، وإمّا باعتبار الغَيبة عن أهلهما، والمراد بيان الاختصاص به تعالى مِن حيث المعلوميّة حسبما ينبئ عنه عنوان الغيبيّة، لا مِن حيث المخلوقيّة والمملوكيّة، وإن كان الأمر كذلك في نفس الأمر، وفيه إشعارٌ بأنّ عِلمه سبحانه حضوري، فإنّ تحقّق الغيوب في أنفسها عِلم بالنسبة إليه تعالى، ولذلك لم يقل: ولله عِلم غيب السماوات والأرض.

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي هي أعظم ما وقَع فيه المماراة مِن الغيوب المتعلِّقة بهما، مِن حيث غيبتها عن أهلهما، أو ظهور آثارها فيهما عند وقوعها،

فإنّ وقت وقوعها بعينه مِن الغيوب المختصّة به سبحانه، وإن كان إنيّتُها مِن الغيوب التي نُصبت عليها الأدلّة، أي: ما شأنها في سرعة المجيء ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ أي: كرَجْع الطَّرْف مِن أعلى الحدَقة / إلى أسفلها، ﴿أَوْ هُوَ﴾ أي: بل أمرُها فيما ذُكر ﴿أَقْرَبُ﴾ مِن ذلك وأسرع زمانًا، بأن يقع في بعض مِن زمانه، فإنّ ذلك وإن قصُر حركةٌ أينيّة لها هُوِيّة اتصاليّة منطبِقة على زمان له هُوِيّة كذلك، قابلٌ للانقسام إلى أبعاض هي أزمنة أيضًا؛ بل في آن غير منقسِم مِن ذلك الزمان، وهو آن ابتداء تلك الحركة، أو ما أمرها إلّا كالشيء الذي يُستقرَب ويقال: هو كلمح البصر أو هو أقرب. وأيًّا ما كان، فهو تمثيل لسرعة مجيئها حسبما عُبّر عنها في فاتحة السورة الشريفة بالإتيان. [٣٤٠و]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومِن جملة الأشياء أن يجيء بها أسرعَ ما يكون، فهو قادر على ذلك، أو وما أمرُ إقامة الساعة التي كُنهها وكيفيّتها مِن الغيوب الخاصّة به سبحانه، وهي إماتة الأحياء وإحياءُ الأموات مِن الأوّلين والآخِرين، وتبديلُ صور الأكوان أجمعين، وقد أنكرها المنكِرون وجعلوها مِن قبيل ما لا يدخُل تحت الإمكان في سرعة الوقوع وسهولة التأتّي، إلّا كلمح[١] البصر أو هو أقربُ على ما مرّ مِن الوجهين، إنّ الله على كلّ شيء قدير فهو قادر على ذلك لا محالةَ. وقيل: غيب السماوات والأرض عبارة عن يوم القيامة بعينه؛ لِما أنّ عِلمه بخصوصه غائب عن أهلهما،[٢] فوضعُ الساعة موضعَ الضمير لتقوية مضمون الجملة.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾،[٣] منتظِم معه في سِلك أدلّة التوحيد مِن قوله تعالى:

---

١ السياق: وما أمر... إلّا كلمح...

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٧-٤٥٨.

٣ النحل، ١٦/٧٢.

[٣٤٠ظ] ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾،[١] / وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾،[٢] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.[٣] والأمّهات: بضمّ الهمزة، وقرئ بكسرها أيضًا،[٤] جَمْعُ "الأمّ" زِيدَت الهاء فيه، كما زِيدَت في "أهراق" مِن "أراق"، وشذّت زيادتُها في الواحدة، قال:

أُمَّهتي خِندِفُ[٥] والياسُ[٦] أبي[٧]

﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ في موقع الحال، أي: غيرَ عالمين شيئًا أصلًا.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ عطفٌ على ﴿أَخْرَجَكُم﴾، وليس فيه دلالة على تأخّر الجَعْل المذكور مِن الإخراج؛ لِما أنّ مدلول الواو هو الجمع مطلقًا لا الترتيب، على أنّ أثَر ذلك الجعل لا يظهر قبل الإخراج، أي: جعَل لكم هذه الأشياء آلاتٍ تُحصِّلون بها العِلم والمعرفة، بأن تُحِسُّوا بمشاعركم جزئيّاتِ الأشياء وتُدرِكوها بأفئدتكم، وتتنبَّهوا لِما بينها مِن المشاركات والمبايَنات بتكرّر الإحساس، فتحصُل لكم علوم بديهيّة تتمكّنون بالنظر فيها مِن تحصيل العلوم الكسبيّة.

والأفئدة: جمع "فؤاد"، وهو وسط القلب، وهو مِن القلب كالقلب مِن الصدر، وهو مِن جموع القلّة التي جرَت مَجرى جموع الكثرة. وتقديم المجرور على المنصوبات لِما مرّ مِن الإيذان مِن أوّل الأمر بكون المجعول نافعًا لهم، وتشويقِ النفس إلى المؤخّر ليتمكّن عند وروده عليها فضلَ تمكّن.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تعرِفوا ما أنعَم به عليكم طورًا غِبَّ طَور فتشكروه.

---

[١] النحل، ٦٥/١٦.

[٢] النحل، ٧٠/١٦.

[٣] النحل، ٧١/١٦.

[٤] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢، ٣٠٤.

[٥] خِندف: مِن مشاهير العرب المستعربة، وهم بنو إلياس بن مضر بن نزار بن عدنان بن معدّ بن عدنان، وخِندف: اسم امرأته عُرف بها بنوه، وله مِن الولد على عمود النسب النبوي مُدرِكة. انظر: قلائد الجمان للقلقشندي، ١٣٢/١-١٣٣؛ ونهاية الأرب للقلقشندي، ٢٤٨/١.

[٦] الياس: هو ولد مُضر وبه كان يُكنّى. انظر: أنساب الأشراف للبلاذري، ٣١/١.

[٧] الرجز لقُصيّ بن كلاب جدّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في معجم ديوان الأدب للفارابي، ١٧٥/٤؛ وشرح التسهيل لابن مالك، ٩٩/١. وبلا نسبة في الصحاح للجوهري، «أمم»؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٥٨/٢.

وتقديم ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ على "البصر" لِما أنّه طريق تلقّي الوحي، / أو لأنّ إدراكه أقدم [٣٤١و] مِن إدراك البصر، وإفرادُه باعتبار كونه مصدرًا في الأصل.

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، وقرئ بالتاء.[١] ﴿إِلَى ٱلطَّيۡرِ﴾ جمع "طائر"، أي: ألم ينظروا إليها ﴿مُسَخَّرَٰتٖ﴾ مذلَّلاتٍ للطيران بما خلَق لها مِن الأجنحة والأسباب المساعِدة له، وفيه مبالغةٌ مِن حيث إنّ معنى التسخير: جعلُ الشيء منقادًا لآخرَ يتصرَّف فيه كيف يشاء، كتسخير البحر والفُلك والدوابّ للإنسان، والواقعُ ههنا تسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء، فكان مقتضى طبيعة الطير السقوطَ، فسخَّرها الله تعالى للطيران، وفيه تنبيهٌ على أنّ الطيران ليس بمقتضى طَبْع الطير، بل ذلك بتسخير الله تعالى.

﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في الهواء المتباعِد مِن الأرض، والسُّكاك واللُّوح أبعدُ منه، وإضافتُه إلى السماء لِما أنّه في جانبها مِن الناظر ولإظهار كمال القُدرة. ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ﴾ في الجوّ حين قَبْض أجنحتهنّ وبَسْطِها ووُقوفِهنّ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ عزّ وجلّ بقدرته الواسعة، فإنّ ثِقَل جسدها ورِقّةَ قوام الهواء يقتضيان سقوطها، ولا عِلاقةَ مِن فوقها ولا دِعامة مِن تحتها، وهو إمّا حال مِن الضمير المستتر في ﴿مُسَخَّرَٰتٖ﴾ أو مِن ﴿ٱلطَّيۡرِ﴾، وإمّا مستأنَف.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن تسخير الطير للطيران بأن خلَقها خِلْقةً تتمكّن بها منه، بأن جعَل لها أجنحة خفيفة وأذنابًا كذلك، وجعَل أجسادها مِن الخِفّة / بحيث إذا بسطت أجنحتَها وأذنابَها لا يُطيق ثقلها بخرقِ ما تحتها مِن الهواء [٣٤١ظ] الرقيق القِوام، وتَخرِقُ ما بين يديها مِن الهواء؛ لأنّها لا تُلاقيه بحجم كبير. ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ ظاهرة ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: مِن شأنهم أن يؤمنوا، وإنّما خص ذلك بهم لأنّهم المنتفِعون به.

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ معطوف على ما مرّ، وتقديمُ ﴿لَكُم﴾ على ما سيأتي مِن المجرور والمنصوب لِما مرّ مِن الإيذان مِن أوّل الأمر بأنّه لمصلحتهم ومنفعتهم؛ لتشويق النفس إلى وروده. وقولُه تعالى: ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: مِن بيوتكم المعهودة التي تبنونها مِن الحَجر والمَدَر، تبيين لذلك المجعول المُبْهم في الجملة، وتأكيدٌ لِما سبَق مِن التشويق ﴿سَكَنًا﴾ "فَعَلٌ"، بمعنى: مفعول، أي: موضعًا تسكنون فيه وقت إقامتكم، أو تسكنون إليه مِن غير أن ينتقل مِن مكانه، أي: جعَل بعض بيوتكم بحيث تسكنون إليه وتطمئنّون به.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ أي: بيوتًا أُخَرَ مُغايِرةً لبيوتكم المعهودة، هي الخِيام والقِباب والأخبية والفَساطِيطُ. ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفةً سهلةَ المأخذ. ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وقت تَرحالكم في النقض والحَمْل والنقل، وقُرئ: بفتح العين.[1] ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وقت نزولِكم في الضرب والبناء.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿مِّن جُلُودِ﴾، والضمائر للأنعام على وَجْه التنويع، أي: وجعَل لكم مِن أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المَعْز ﴿أَثَٰثًا﴾ أي: متاعَ البيت، وأصلُه الكثرة والاجتماع، / ومنه "شَعْرٌ أثيثٌ".[2] ﴿وَمَتَٰعًا﴾ أي: شيئًا يُتمتّع به بفنون التمتّع. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أن تقضوا منه أوطارَكم، أو إلى أن يبلى ويفنى، فإنّه في معرِض البِلى والفناء، وقيل: إلى أن تموتوا.[3] والكلام في ترتيب المفاعيل مِثل ما مرّ مِن قبل. [٣٤٢و]

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ مِن غير صُنع مِن قِبَلكم، ﴿ظِلَٰلًا﴾ أشياءَ تستظلّون بها مِن الحرّ، كالغمام والشجر والجبل وغيرها. امتنّ سبحانه بذلك

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٤.

[2] أي: غزير طويل. لسان العرب لابن منظور، «أثث».

[3] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٩.

لِما أنّ تلك الديار غالبة الحرارة. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ مواضعَ تسكنون فيها مِن الكهوف والغِيران والسُّروب. والكلام في الترتيب الواقع بين المفاعيل كالذي مرَّ غيرَ مرّة.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ جمع "سِربال"، وهو كلّ ما يُلبَس، أي: جعَل لكم ثيابًا مِن القُطن والكَتان والصوف وغيرها. ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ خصّه بالذِّكر اكتفاء بذِكر أحد الضدّين عن ذِكر الآخر، أو لأنّ وقايته هي الأهمّ عندهم لِما مرّ آنفًا. ﴿وَسَرَٰبِيلَ﴾ مِن الدروع والجواشن،[1] ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أي: البأس الذي يصِل إلى بعضكم مِن بعض في الحرب مِن الضرب والطعن.

ولقد منّ الله سبحانه علينا حيث ذكَر جميع نِعَمه الفائضة على جميع الطوائف، فبدأ بما يخُصّ المقيمين حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾،[2] ثمّ بما يخصّ المسافرين ممّن لهم قدرة على الخِيام وأضرابها حيث قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾... إلخ،[3] ثمّ بما يعمّ مَن لا يقدِر على ذلك ولا يُثويه إلّا الظلال حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ[4] جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾... إلخ، ثمّ بما لا بدّ منه لأحد حيث قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾... إلخ، ثمّ بما لا غنى عنه في الحروب حيث قال: ﴿وَسَرَٰبِيلَ / تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾. [٣٤٢ظ]

ثمّ قال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الإتمام البالغ ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي: إرادةَ أن تنظُروا فيما أسبَغ عليكم مِن النِّعَم الظاهرة والباطنة والأنفسيّة والآفاقيّة، فتعرفوا حقَّ مُنعمِها، فتُؤمنوا به وحدَه وتذروا ما كنتُم به تشركون وتنقادوا لأمره. وإفرادُ النعمة إمّا لأنّ المراد بها المصدر، أو لإظهار أنّ ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شيءٌ قليل، وقُرئ: "تَسْلَمُوْنَ"،[5] أي: تَسلَمون مِن العذاب أو مِن الشِّرك، وقيل: مِن الجراح بلُبْس الدُّروع.[6]

---

[1] الجواشن جمع جَوْشَن: وهو الدِّرع. لسان العرب لابن منظور، «جشن».

[2] النحل، ٨٠/١٦.

[3] النحل، ٨٠/١٦.

[4] م س – الله.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعِكرمة وعمرو بن عُبيد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٤.

[6] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٩/٢.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ فعل ماض على طريقة الالتفات، وصَرْفُ الخطاب عنهم إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تسليةً له، أي: فإن أعرضوا عن الإسلام، ولم يقبلوا منك ما أُلقيَ إليهم مِن البيّنات والعِبر والعظات ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: فلا قصورَ مِن جهتك؛ لأنّ وظيفتك هي البلاغ المُوضِح أو الواضح، وقد فعلتَه بما لا مزيدَ عليه، فهو مِن باب وَضْع السبب موضعَ المُسبَّب.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ۝﴾

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ استئناف لبيان أنّ تولّيَهم وإعراضَهم عن الإسلام ليس لعدم معرفتهم بما عُدِّد مِن نِعَم الله تعالى أصلًا، فإنّهم يعرِفونها ويعترفون أنّها مِن الله تعالى، ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بأفعالهم حيث يعبدون غيرَ مُنعِمها، أو بقولهم: إنّها بشفاعة آلهتنا أو بسبب كذا. وقيل: نعمة الله تعالى نبوّةُ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، عرَفوها بالمعجزات كما يعرِفون أبناءهم، ثمّ أنكروها عِنادًا.[١] ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنكار بعد المعرفة؛ لأنّ حقّ مَن عرف النعمة الاعترافُ بها لا الإنكارُ.

[٣٤٣و] وإسناد "المعرفة" و"الإنكار" / المتفرّع عليها إلى ضمير المشركين على الإطلاق مِن باب إسناد حال البعض إلى الكلّ كقولهم: "بنو فلان قتلوا فلانًا" وإنّما القاتل واحد منهم، فإنّ بعضهم ليسوا كذلك لقوله سبحانه: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: المنكِرون بقلوبهم غيرُ المعترفين بما ذُكر، والحُكم عليهم بمطلَق الكفر المؤذِن بالكمال مِن حيث الكميّةُ لا ينافي كمال الفِرقة الأولى مِن حيث الكيفيّةُ. هذا، وقد قيل: ذِكر الأكثر إمّا لأنّ بعضهم لم يَعرِفوا لنقصان العقل أو التفريطِ في النظر، أو لم يقُم عليه الحجّة لأنّه لم يبلغ حدّ التكليف،[٢] فتدبّر.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝﴾

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهَد لهم بالإيمان والطاعة وعليهم بالكفر

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٩.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٧٥.

والعصيان وهو نبيُّها، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في الاعتذار إذ لا عذرَ لهم. و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنّ ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المُنبئ عن الإقناط الكلّي -وهو عندما يقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون، ١٠٨/٢٣]- أشدُّ مِن ابتلائهم بشهادة الأنبياء عليهم السلام عليهم وأطمُّ، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يُستَرضَون، أي: لا يقال لهم: أرضُوا ربكم إذ الآخرةُ دار الجزاء لا دارُ العمل. وانتصاب الظرف بمحذوف تقديرُه: اذكرْ أو خوِّفْهم يوم نبعث... إلخ، أو يوم نبعث يحيق بهم ما يحيق ممّا لا يوصف. وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي يستوجبونه بظلمهم، وهو عذابُ جهنّمَ، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ ذلك ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يُمهَلون، / كقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ [الأنبياء، ٤٠/٢١]. [٣٤٣ظ]

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ الذين كانوا يدعُونهم في الدنيا، وهم الأوثان أو الشياطين الذين شاركوهم في الكفر بالحَمْل عليه، وقارنوهم في الغيّ والضلال، ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ أي: نعبدهم أو نُطيعهم، ولعلّهم قالوا ذلك طمعًا في توزيع العذاب بينهم، كما يُنبئ عنه قوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَوْا۟﴾ أي: شركاؤهم ﴿إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾، فإنّ تكذيبهم إيّاهم فيما قالوا ليس إلّا للمدافعة والتخلّص عن غائلة مضمونه، وإنّما كذّبوهم وقد كانوا يعبدونهم ويُطيعونهم؛ لأنّ الأوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم،[١] فكأنّ عبادتهم لم تكن عبادة لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ، ٤١/٣٤]، يعنون: أنّ الجنّ هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لا نحن، أو كذّبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة تنزيهًا لله سبحانه مِن الشريك، والشياطينُ وإن كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنّهم لم يكونوا حاملين لهم

---

١ وفي هامش م: لعدم شعورهم بها إذ ذاك. «منه».

على وَجْه القَسْر والإلجاء، كما قال إبليسُ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم، ١٤/٢٢]، فكأنّهم قالوا: ما عبدتمونا حقيقة؛ بل إنّما عبدتُم أهواءكم.

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ٨٧﴾

﴿وَأَلْقَوْاْ﴾ أي: الذين أشركوا ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾: الاستسلام والانقياد لحُكمه العزيزِ الغالب بعد الاستكبار عنه في الدنيا.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ضاع وبطَل ﴿مَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾، مِن أنّ الله سبحانه شركاءَ، وأنّهم ينصُرونهم / ويشفعون لهم، وذلك حين كذّبوهم وتبرّءوا منهم. [٣٤٤و]

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ٨٨﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُّواْ﴾ غيرَهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالمنع عن الإسلام والحملِ على الكفر، ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ الذي كانوا يستحقّونه بكفرهم. قيل في زيادة عذابهم: حياتٌ أمثال البُخت، وعقاربُ أمثال البِغال، تلسَع إحداهنّ، فيجِد صاحبها حُمّتها[1] أربعين خريفًا، وقيل: يُخرَجون مِن النار إلى الزمهرير، فيبادرون مِن شدّة البرد إلى النار.[2] ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ متعلّق بقوله: زدناهم، أي: زدنا عذابهم بسبب استمرارهم على الإفساد، وهو الصدّ المذكور.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ٨٩﴾

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ تكرير لِما سبق تثنيةً للتهديد، ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾ أي: نبيًا ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ مِن جنسهم قطعًا لمعذرتهم، وفي قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِم﴾ إشعارٌ بأنّ شهادة أنبيائهم على الأمم تكون بمَحضَر منهم.

---

[1] الحُمّة والحُمَة: سُمّ العقرب. لسان العرب لابن منظور، «حمم».

[2] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٦٠.

﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ إيثارُ لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه عليه السلام، وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقّق الوقوع. ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأممِ وشهدائهم، كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء، ٤١/٤]. وقيل: على أمّتك.[١] والعامل في الظرف محذوفٌ كما مرّ، والمراد به يوم القيامة.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكاملَ في الكتابيّة، الحقيقَ بأن يُخَصّ به اسم الجنس، وهو إمّا استئناف، أو حال بتقدير "قد".

﴿تِبْيَٰنًا﴾: بيانًا بليغًا ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يتعلّق بأمور الدِّين، ومِن جملة ذلك أحوال الأمم مع أنبيائهم، فيكون كالدليل على كونه عليه السلام شهيدًا عليهم، وكذا مِن جملته ما أخبر به هذه الآيةُ الكريمة مِن بَعْث الشهداء، وبَعْثِه عليه السلام شهيدًا عليهم عليهم السلام. و"التِّبيانُ" كـ"التِّلقاء" / في كَسْر أوّله، وكونه تِبيانًا لكلّ شيء مِن أمور الدِّين، باعتبار أنّ فيه نصًّا على بعضها، وإحالةً لبعضها على السُّنّة، حيث أُمِر باتّباع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وطاعته، وقيل فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم، ٣/٥٣]، وحثًّا على الإجماع. وقد رضي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأمّته اتّباع أصحابه حيث قال: «أصحابي كالنّجوم بأيّهم اقتديتُم اهتديتُم»،[٢] وقد اجتهدوا وقاسوا ووطّأوا طُرقَ الاجتهاد، فكانت السُّنّة والإجماع والقياس مستندةً إلى تِبيان الكتاب، ولم يضُرَّ ما في البعض مِن الخفاء في كونه تِبيانًا، فإنّ المبالغة باعتبار الكمّيّة دون الكيفيّة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق، ٢٩/٥٠]، إنّه مِن قولك: فلان ظالم لعبده وظلّام لعَبيده، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة، ٢٧٠/٢]. [٣٤٤ظ]

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ للعالمين، فإنّ حرمان الكفَرة مِن مغانم آثاره مِن تفريطهم لا مِن جهة الكتاب. ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصّة، أو يكون كلُّ ذلك خاصًّا بهم؛ لأنّهم المنتفِعون بذلك.

---

[١] كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٠/٢.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٤٣٥/١٠ (النساء، ٥٩/٤)؛ جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البرّ، ٨٩٨/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٦١/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٢٩/٢-٢٣٢.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ﴾ أي: فيما نزّله تِبيانًا لكلّ شيء وهدًى وبشرى. وإيثارُ صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لإفادة التجدّد والاستمرار.

﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ بمراعاة التوسّط بين طرفَي الإفراط والتفريط، وهو رأس الفضائل كلِّها، تندرج تحته فضيلةُ القوّة العقليّة الملكيّة مِن الحِكمة المتوسِّطة بين الجَرْبَزَة والبَلادة، وفضيلةُ القوّةِ الشّهويّة البهيميّة مِن العِفّة المتوسِّطة بين الخلاعة والخمود، وفضيلةُ القوّة الغضبيّة السبُعيّة مِن الشجاعة المتوسِّطة بين التهوّر والجُبن، فمِن الحِكَم الاعتقاديّة التوحيد المتوسِّط بين التعطيل والتشريك. [٣٤٥و] نُقل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ العدل هو التوحيد.[١] / والقول بالكسب المتوسِّط بين الجبر والقدَر، ومِن الحِكَم العمليّة التعبّد بأداء الواجبات المتوسِّط بين البطالة والترهّب، ومِن الحِكَم الخُلُقيّة الجودُ المتوسِّط بين البخل والتبذير.

﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ أي: الإتيان بما أُمِر به على الوجه اللائق، وهو إمّا بحسب الكمّيّة كالتطوّع بالنوافل أو بحسب الكيفيّة، كما يشير إليه قوله عليه السلام: «الإحسان أن تعبُد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».[٢] ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه، وهو تخصيصٌ إثرَ تعميم اهتمامًا بشأنه.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ الإفراط في مشايعة القوّة الشهويّة كالزنا مثلًا. ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما يُنكَر شرعًا أو عقلًا مِن الإفراط في إظهار آثار القوّة الغضبيّة. ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبّر عليهم، وهو مِن آثار القوّة الوهميّة الشيطانيّة التي هي حاصلة مِن رذيلتَي القوّتين المذكورتين الشهويّة والغضبيّة. وليس في البشَر شرّ إلّا وهو مندرِج في هذه الأقسام صادرٌ عنه

---

[١] بمعناه في جامع البيان للطبري، ١٤/٣٣٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٣٨؛ وتفسير الرازي، ٢٠/٢٥٩.

[٢] صحيح البخاري، ١/١٩ (٥٠)؛ صحيح مسلم، ١/٣٦ (٨).

بواسطة هذه القُوى الثلاث، ولذلك قال ابن مسعود رضيَ الله عنه: «هي أجمعُ آية في القرآن للخير والشرّ»،[١] ولو لم يكن فيه غيرُ هذه الآية الكريمة، لكفَتْ في كونه تِبيانًا لكل شيءٍ، وهدى.

﴿يَعِظُكُمْ﴾ بما يأمر وينهى، وهو إمّا استئناف وإما حال مِن الضمير في الفعلين. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ طلبًا لأن تتعظوا بذلك.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١﴾

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ هو البَيعة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإنّها مبايعة لله سبحانه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح، ١٠/٤٨]. / ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ أي: حافِظوا على حدود ما عاهدتم الله عليه وبايعتم به رسول الله عليه السلام. [٣٤٥ظ]

﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ التي تحلِفون بها عند المعاهدة ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ حسبما هو المعهودُ في أثناء العُهود، لا على أن يكون النهيُ مقيَّدًا بالتوكيد مختصًّا به. ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شاهدًا رقيبًا، فإنّ الكفيل مُراعٍ لحال المكفول به محافظ عليه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ مِن نَقْض الأيمان والعهود، فيُجازيكم على ذلك.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٩٢﴾

﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ فيما تصنعون مِن النقض ﴿كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ أي: ما غزلتْه، مصدرٌ بمعنى المفعول. ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ متعلّق بـ﴿نَقَضَتْ﴾، أي: كالمرأة التي نقضَت غَزْلها مِن بعد إبرامه وإحكامِه. ﴿أَنكَٰثًا﴾ طاقاتٍ نكثتْ فَتْلها: جَمْعُ "نِكْث".

---

[١] جامع البيان للطبري، ٣٣٧/١٤؛ المعجم الكبير للطبراني، ١٣٢/٩ (٨٦٥٨)؛ ٣٣٧/١٤؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٥٥/٤، ٨٣ (٢١٧٣، ٢٢١٦) ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٩/٥.

وانتصابه على الحاليّة مِن ﴿غَزْلَهَا﴾، أو على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿نَقَضَتْ﴾، فإنّه بمعنى صيَّرت، والمرادُ تقبيح حال النقض، بتشبيه الناقض بمثل هذه الخرقاءِ المعتوهة. قيل: هي رَيْطة بنت سعد بن تيم،[1] وكانت خرقاءَ، اتّخذت مِغزلًا قدرَ ذراع وصِنّارةً[2] مثلَ إصبع وفَلكةً عظيمةً على قَدْرها، فكانت تغزِل هي وجواريها مِن الغداة إلى الظهر، ثمّ تأمرهنّ فينقُضْن ما غزلْن.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ حالٌ مِن الضمير في ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾، أو في الجارّ والمجرور الواقع موقعَ الخبر، أي: مشابهين بامرأة شأنها هذا حالَ كونِكم متَّخذين أيمانكم مَفْسَدةً ودَغَلًا بينكم، وأصلُ الدَّخَل: ما يدخُل الشيء ولم يكن منه.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ بأن تكون جماعة ﴿هِىَ أَرْبَىٰ﴾ أي: أزيَدَ عددًا وأوفرَ مالًا ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ مِن جماعة أخرى، / أي: لا تغدِروا بقوم لكثرتكم وقلّتهم أو لكثرة مُنابذيهم وقوّتهم كقريش، فإنّهم كانوا إذا رأوا شوكةً في أعادي حلفائهم، نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم. [٣٤٦و]

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ أي: بأن تكون أمّة أربى مِن أمّة، أي: يعامِلكم بذلك معاملة مَن يختبركم لينظر أتتمسَّكون بحبل الوفاء بعهد الله وبَيعة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، أم تغترّون بكثرة قريش وشوكتهم وقلّة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال. ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ حين جازاكم بأعمالكم ثوابًا وعقابًا.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مشيئةَ قَسْر وإلجاء ﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متّفقةً على الإسلام، ﴿وَلَٰكِن﴾ لا يشاء ذلك لكونه مزاحِمًا لقضيّة الحِكمة؛ بل ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾

---

[1] هي رَيْطة بنت سعد مناة تلقّب بالجِعِرّانة، ويقال: هي التي نقضت غزلها مِن بعد قوّة. انظر: الروض الأُنف للسهيلي، ٧/٢٧٩.

[2] الصِّنارة: الحديدة الدقيقة المُعقّفة التي في رأس المِغزل. لسان العرب لابن منظور، «صنر».

إضلاله، أي: يخلُق فيه الضلال حسبما يصرِف اختياره الجزئي إليه. ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته حسبما يصرِف اختياره إلى تحصيلها.

﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ جميعًا يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، وهذا إشارة إلى ما لُوِّح به مِن الكَسْب الذي عليه يدور أمر الهداية والضلال.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ تصريح بالنهي عنه بعد التضمين، تأكيدًا ومبالغةً في بيان قُبح المنهيّ عنه وتمهيدًا لقوله سبحانه: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ﴾ عن مَحَجَّة الحقّ ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليها ورسوخها فيها بالإيمان، وإفرادُ "القَدم" وتنكيرها للإيذان بأنّ زلَل قَدم واحدة أيّ قَدم كانت عزّت أو هانتْ محذورٌ عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟ ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: العذاب الدنيوي ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ بصدودكم أو بصدّكم غيرَكم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي ينتظم الوفاء بالعهود والأيمان، فإنّ مَن نقَض البَيعة وارتدّ جَعل ذلك سنّةً لغيره، ﴿وَلَكُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تأخذوا بمقابَلة عهده تعالى وبَيعةِ رسوله صلّى الله عليه وسلّم، أو آياتِه الناطقة بإيجاب المحافظة على العهود والأيمان. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ / أي: لا تستبدلوا بها عوضًا يسيرًا، وهو ما كانت قريش يعِدون ضعَفة المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد مِن حُطام الدنيا. ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ عزّ وجلّ مِن النصر والتغنيم والثواب الأخروي ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ممّا يعِدونكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم مِن أهل العِلم والتمييز، وهو تعليل للنهي على طريقة التحقيق. [٣٤٦ظ]

كما أنّ قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ﴾[١] تعليل للخيريّة بطريق الاستئناف، أي: ما تتمتّعون به مِن نعيم الدنيا وإن جلّ؛ بل الدنيا وما فيها جميعًا ﴿يَنفَدُ﴾ وإن جمّ عددُه وينقضي وإن طال أمَده. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن خزائن رحمته الدنيويّة والأخرويّة ﴿بَاقٍ﴾ لا نَفادَ له، أمّا الأخرويّة فظاهرة، وأمّا الدنيويّة فحيث كانت موصولة بالأخرويّة ومستتبِعةً لها، فقد انتظمت في سِمْط الباقيات الصالحات. وفي إيثار الاسم على صيغة المضارع مِن الدلالة على الدوام ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ بنون العظمة على طريقة الالتفات[٢] تكريرٌ للوعد المستفاد مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾،[٣] على نهج التوكيد القسَمي مبالغة في الحمل على الثبات في الدِّين، والالتفاتُ عمّا يقتضيه ظاهر الحال مِن أن يقال: ولنجزينّكم أجركم بأحسنِ ما كنتم تعملون، للتوسّل إلى التعرّض لأعمالهم والإشعار بعلّيّتها للجزاء، أي: واللهِ لنجزينّ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على أذيّة المشركين ومشاقِّ الإسلام التي مِن جملتها الوفاء بالعهود والفقرُ. وقُرئ بالياء مِن غير التفات.[٤]

﴿أَجْرَهُم﴾ مفعول ثانٍ لـ"نجزينّ"، أي: لنُعطِينّهم أجرهم الخاصّ بهم بمقابلة صبرهم على ما مُنوا به مِن الأمور المذكورة. ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لنجزينّهم بما كانوا يعملونه مِن الصبر المذكور. وإنّما أُضيف إليه "الأحسن" للإشعار بكمال حُسنه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾ [آل عمران، ١٤٨/٣]، لا لإفادة قَصْر الجزاء على الأحسن منه دون الحسَن، فإنّ ذلك ممّا لا يخطر ببال أحد، لاسيّما بعد قوله تعالى: ﴿أَجْرَهُم﴾ و﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾، بحسب أحسَن أفراد أعمالهم، على معنى: لنعطينّهم بمقابلة الفرد الأدنى مِن أعمالهم المذكورة ما نعطيه بمقابلة الفرد الأعلى منها مِن الأجر الجزيل، لا أنّا نُعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسَن بأن نجزيَ الحسَن منها بالأجر الحسَن، والأحسَنَ بالأحسن. وفيه ما لا يخفى مِن العِدَة الجميلة باغتفار

---

[١] وفي هامش م: إلخ.

[٢] وفي هامش م: وهو أنسَب بالقسم المُقدَّر. «منه».

[٣] في الآية السابقة.

[٤] قرأ بها نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعامر بخلاف عنه ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٥/٢.

ما عسى يعتريهم في تضاعيف الصبر مِن بعض جزَع ونظمِه في سِلك الصبر الجميل، أو لنجزينّهم بجزاء أحسَنَ مِن أعمالهم.

/ وأمّا التفسير بما ترجّح فِعله مِن أعمالهم، كالواجبات والمندوبات، أو بما ترجّح تركه أيضًا كالمحرّمات والمكروهات دلالةً على أنّ ذلك هو المدار للجزاء دون ما يستوي فعله وتَركه كالمباحات، فلا يُساعده مقام الحثّ على الثبات على ما هم عليه مِن الأعمال الحسَنة المخصوصة والترغيب في تحصيل ثمراتها؛ بل التعرّضُ لإخراج بعض أعمالهم عن مداريّة الجزاء مِن قبيل تحجير الرحمة الواسعة في مقام توسيع حِماها. [٣٤٧و]

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: عملًا صالحًا أيَّ عمل كان، وهذا شروع في تحريض كافّة المؤمنين على كلّ عمل صالح غِبَّ ترغيب طائفة منهم في الثبات على ما هم عليه مِن عمل صالح مخصوص، دفعًا لتوهّم اختصاص الأجر الموفور بهم وبعملهم المذكور.

وقوله تعالى: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ مبالغةٌ في بيان شموله للكلّ. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قيّده به إذ لا اعتدادَ بأعمال الكفَرة في استحقاق الثواب أو تخفيف العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٣]. وإيثارُ إيراده بالجملة الاسميّة الحاليّة على نَظْمه في سِلك الصلة لإفادة وجوب دوامه ومقارنته للعمل الصالح.

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا يعيش عيشًا طيّبًا، أمّا إن كان موسِرًا فظاهر، وأمّا إن كان معسِرًا فيطيب عيشُه بالقناعة والرضى بالقسمة، وتوقُّع الأجرِ العظيم كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله، بخلاف الفاجر فإنّه إن كان معسِرًا فظاهر، وإن كان موسِرًا فلا يدعه الحِرص وخوف الفوات أن يتهنّأ بعيشه.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ حسبما نفعل بالصابرين فليس فيه شائبةُ تكرار. والجمع في الضمائر العائدة إلى الموصول لمراعاة جانب المعنى، كما أنّ الإفراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ، وإيثار ذلك على العكس لِما أنّ وقوع الجزاء بطريق الاجتماع المناسِب للجمعيّة ووقوعَ ما في حيِّز الصلة وما يترتَّب عليه بطريق الافتراق والتعاقُب الملائم للإفراد.

وإذ قد انتهى الأمر إلى أنّ مدار الجزاء المذكور هو صلاح العمل وحسنُه، رُتِّب عليه بإلغاء / الإرشاد إلى ما به يحسُن العمل الصالح، ويخلُص عن شَوب [٣٤٧ظ] الفساد فقيل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: إذا أردتَ قراءتَه، عُبِّر بها عن إرادتها على طريقة إطلاقِ اسم المسبَّب على السبب إيذانًا بأنّ المراد هي الإرادة المتّصلة بالقراءة. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فاسألْه عزّ جارُه أن يُعيذك ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ مِن وساوسه وخَطَراته كيلا يوسوسَك عند القراءة، فإنّ له هَمّةً بذلك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآية [الحج، ٥٢/٢٢]، وتوجيهُ الخطاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتخصيصُ قراءة القرآن مِن بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها؛ للتنبيه على أنّها لغيره عليه السلام وفي سائر الأعمال الصالحة أهمُّ، فإنّه عليه الصلاة السلام حيث أُمِر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه، فما ظنُّكم بمَن عداه عليه السلام وفيما عدا القراءةَ مِن الأعمال؟ والأمرُ للندب وهذا مذهب الجمهور، وعند عطاء للوجوب، وقد أخذ بظاهر النظمِ الكريم فاستعاذ عَقيبَ القراءة أبو هريرة رضي الله عنه ومالكٌ وابنُ سيرينَ وداودُ وحمزةُ مِن القرّاء،[١] وعن ابن مسعودٍ رضيَ الله عنه: قرأتُ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقلت: أعوذ بالسميع العليم مِن الشيطان الرجيم، فقال عليه السلام: «قل أعوذ بالله مِن الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريلُ عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ».[٢]

---

١ الكلام بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ١٥٥/١٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٤/١٦؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٨٤/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٦٥/٢.

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن أو للشيطان، ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ تسلُّط وولاية ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: إليه يُفوِّضون أمورهم وبه يعوذون في كلّ ما يأتون وما يذرون؛ فإنّ وسوسته لا تؤثِّر فيهم، ودعوتَه غيرُ مستجابة عندهم. وإيثارُ صيغة الماضي في الصلة الأولى للدلالة على التحقّق كما أنّ اختيار صيغة الاستقبال / في الثانية لإفادة الاستمرار التجدّدي، وفي التعرّض لوصف [٣٤٨و] الربوبيّة عِدَةٌ كريمة بإعادة المتوكِّلين، والجملةُ تعليل للأمر بالاستعاذة أو لجوابه المَنْوي، أي: يُعِذك أو نحوه.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾ أي: تسلُّطه وولايتُه بدعوته المستتبعة للاستجابة، لا سلطانُه بالقسر والإلجاء، فإنّه مُنتفٍ مِن الفريقين؛ لقوله سبحانه حكايةً عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم، ٢٢/١٤]، وقد أفصح عنه قولُه تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ أي: يتّخذونه وليًّا، ويستجيبون دعوتَه ويُطيعونه، فإنّ المقسور بمَعزِل مِن ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُشْرِكُونَ﴾، أو بسبب الشيطانِ مشركون؛ إذ هو الذي حمَلهم على الإشراك بالله سبحانه. وقَصْرُ سلطانه عليهم غِبَّ نفيه عن المؤمنين المتوكِّلين دليلٌ على ألّا واسطة في الخارج بين التوكّل على الله تعالى وبين تولّي الشيطان، وإن كان بينهما واسطة في المفهوم، وأنّ مَن لم يتوكَّل عليه تعالى ينتظِمُ في سِلك مَن يتولّى الشيطانَ مِن حيث لا يحتسِب؛ إذ به يتمّ التعليل، ففيه مبالغةٌ في الحَمْل على التوكّل والتحذير عن مقابِله.

وإيثارُ الجملة الفعليّة الاستقباليّة في الصلة الأولى لِما مرّ مِن إفادة الاستمرار التجدّدي، كما أنّ اختيار الجملة الاسميّة في الثانية للدلالة على الثبات. وتكريرُ الموصولِ للاحتراز عن توهُّم كون الصلة الثانية حاليّة مفيدة لعدم دخول غير المشركين مِن أولياء الشيطان تحت سلطانه. وتقديمُ الأُولى

على الثانية التي هي بمقابلة الصلة الأُولى فيما سلف لرعاية المقارَنة بينها وبين ما يُقابِلها مِن التوكّل على الله تعالى، ولو رُوعيَ الترتيب السابق لانفصل كلٌّ مِن القرينتين عمّا يقابلها.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١﴾

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ أي: إذا أنزلنا آية مِن القرآن مكانَ آية منه، وجعلناها بدلًا منها بأن نسخناها بها ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ أوّلًا وآخِرًا، وبأنّ كلًّا مِن ذلك ما نزلت حيثما نزلت إلّا حسبما يقتضيه الحِكمة والمصلحة، فإنّ كلّ وقت له مقتضًى غيرُ مقتضى الآخَر، فكم مِن مصلحة في وقت تنقلِب في وقت آخرَ مَفسَدةً وبالعكس، لانقلاب الأمور الداعية إلى ذلك، وما الشرائع إلّا مصالحُ للعباد في المعاش والمعاد، تدور حسبما تدور المصالح. / والجملة [٣٤٨ظ] إمّا معترضة لتوبيخ الكفَرة والتنبيهِ على فساد رأيهم. وفي الالتفات إلى الغَيبة مع إسناد الخبر إلى الاسم الجليل المُستجمِع للصفات ما لا يخفى مِن تربية المهابةِ وتحقيقِ معنى الاعتراض، أو حاليّة.[١] وقرئ بالتخفيف،[٢] مِن الإنزال.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الكفَرة الجاهلون بحِكمة النَّسْخ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي: متقوِّل على الله تعالى، تأمُر بشيء ثمّ يبدو لك فتنهى عنه. وحكاية هذا القول عنهم ههنا للإيذان بأنّ ذلك كَفْرة ناشئة مِن نزَغات الشيطان، وأنّه وليُّهم.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلَمون شيئًا أصلًا، أو لا يعلَمون أنّ في النَّسْخ حِكَمًا بالغةً. وإسنادُ هذا الحُكم إلى الأكثر لِما أنّ منهم مَن يعلَم ذلك، وإنّما يُنكِره عِنادًا.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢﴾

---

[١] السياق: والجملة إمّا معترضة... أو حاليّة...

[٢] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٨، ٣٠٥.

﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ﴾ أي: القرآنَ المدلولَ عليه بالآية ﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ يعني: جبريلُ عليه السلام، أي: الروحُ المطهَّر مِن الأدناس البشريّة، وإضافةُ "الروح" إلى ﴿ٱلۡقُدُسِ﴾ -وهو الطُّهْر- كإضافة "حاتِم" إلى "الجود"، حيث قيل: "حاتِمُ الجودِ" للمبالغة في ذلك الوصف، كأنّه طُبع منه، وفي صيغة التفعيل في الموضعين إشعارٌ بأنّ التدريج في الإنزال ممّا تقتضيه الحِكَم البالغة.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾، في إضافة الربِّ إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم مِن الدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبيّة عليه عليه السلام ما ليس في إضافته إلى ياء المتكلِّم المَبنيّة على التلقين المَحْض. ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: ملتبِسًا بالحقّ الثابت الموافِق للحِكمة المقتضيةِ له، بحيث لا يفارقها إنشاءً ونسخًا، وفيه دلالةٌ على أنّ النسخ حقّ.

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الإيمان بأنّه كلامه تعالى، فإنّهم إذا سمعوا الناسخ، وتدبّروا ما فيه مِن رعاية المصالح اللائقة بالحال، رسَخت عقائدهم واطمأنّت قلوبهم، وقرئ: "لِيُثْبِتَ"[١] مِن الإفعال. ﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ المنقادين لحُكمه تعالى، وهما معطوفان على محلّ ﴿لِيُثَبِّتَ﴾، أي: تثبيتًا وهداية وبِشارة، وفيه تعريضٌ بحصول أضداد الأمور المذكورة لمَن سواهم / مِن الكفّار. [٣٤٩و]

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ﴾ غيرَ ما نُقِل عنهم مِن المقالة الشنعاء: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾ أي: القرآنَ ﴿بَشَرٞ﴾ على طريق البتّ، مع ظهور أنّه نزّله روح القدس[٢] عليه السلام. وتحليةُ الجملة بفنون التأكيد لتحقيق ما تضمّنه مِن الوعيد، وصيغةُ ألاستقبال لإفادة استمرار العِلم بحسب الاستمرار التجدّدي في متعلَّقه،

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٧.

[٢] م: نزل به الروح الأمين [صُحّح في هامش م].

فإنّهم مستمِرُّون على تفوّه تلك العظيمة، يعنون بذلك جَبرًا الروميَّ[١] غلامَ عامر بن الحضرمي،[٢] وقيل: جَبرًا ويَسارًا، كانا يصنعان السيفَ بمكّة، ويقرآن التوراة والإنجيلَ، وكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يمرّ عليهما ويسمع ما يقرآنه.[٣] وقيل: عابسًا غلامَ حُويطِب بن عبد العُزّى،[٤] قد أسلم وكان صاحبَ كُتب.[٥] وقيل: سلمانَ الفارسي.[٦]

وإنّما لم يصرَّح باسم مَن زعموا أنّه يعلّمه، مع كونه أدخلَ في ظهور كذبِهم للإيذان بأنّ مدار خطأهم ليس نسبتَه عليه السلام إلى التعلّم مِن شخص معيَّن؛ بل مِن البشر كائنًا مَن كان، مع كونه عليه السلام معدِنًا لعلوم الأوّلين والآخِرين.

﴿لِسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ﴾ الإلحاد: الإمالة، مِن "ألحَد القبر"، إذا أمال حفره عن الاستقامة فحفَر في شقّ منه، ثمّ استُعير لكلّ إمالة عن الاستقامة فقالوا: ألحَد فلان في قوله وألحَد في دينه، أي: لغةُ الرجل الذي يُميلون إليه القول مِن الاستقامة أعجميّةٌ غيرُ بيِّنة. وقرئ بفتح الياء والحاء،[٧] وبتعريف "اللِّسان".[٨]

﴿وَهَٰذَا﴾ القرآنُ الكريم ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ ذو بيان وفصاحة، والجملتان مستأنَفتان لإبطال طعنهم. وتقريرُه أنّ القرآن معجِز بنظمه، كما أنّه معجِز بمعناه،

---

[١] جَبر أو جبر الرُّومي، هو مولى عامر بن الحضرمي، وكان قد أسلم فأكرهه عامر على الكفر، ذكر مقاتل في تفسيره أنّ قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل، ١٠٦/١٦] نزلت فيه، ثمّ أسلم عامر بعد ذلك وهاجر هو ومولاه جميعًا. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٤٩٧/٥، ٣٣١/٣.

[٢] هو مِن المشركين وقاتل يوم بدر معهم. وقيل مات يوم بدر كافرًا. وقيل: أسلم وهاجر مع مولى له، وهو أخ الصحابي المشهور العلاء بن الحضرمي. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٠٨٦/٣؛ **والإصابة** لابن حجر، ٤٩٧/٥.

[٣] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٦/٢.

[٤] هو حُويطب بن عبد العُزّى بن قيس بن عبد ودّ مِن بني عامر بن لؤي القرشي، أبو محمّد أو أبو الإصبع (ت. ٥٤هـ/٦٧٤م). حارب الإسلام إلى أن فُتحت مكّة فأسلم وشهد مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حنينًا والطائف، عاش مائة وعشرين سنةً ومات في المدينة في خلافة معاوية. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٣٩٩/١؛ **وسير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥٤٠/٢؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٨٩/٢.

[٥] القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٨٠/٢.

[٦] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٦/٢.

[٧] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٦/٢.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٧٧.

فإن زعمتُم أنّ بشرًا يعلّمه معناه، فكيف يعلّمه هذا النظم الذي أعجز جميع أهل الدنيا؟ والتشبّث في أثناء الطعن بأذيال أمثال هذه الخرافات الركيكة دليل على كمال عجزهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٠٤ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ۝١٠٥﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يصدّقون أنّها مِن عند الله؛ / بل [٣٤٩ظ] يقولون فيها ما يقولون، يسمّونها تارة افتراء وأخرى أساطيرَ معلَّمةً مِن البشر. ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ إلى الحقّ، أو إلى سبيل النجاة هداية مُوصِلة إلى المطلوب لِما عُلم أنّهم لا يستحقّون ذلك لسوء حالهم. ﴿وَلَهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وهذا تهديد لهم ووعيد على ما هم عليه مِن الكفر بآيات الله تعالى ونسبةِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الافتراء والتعلّم مِن البشر بعد إماطة شُبهتهم وردّ طعنهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرٍۭ﴾،[١] وقلبٌ للأمر عليهم ببيان أنّهم هم المفترون، بعد ردّه بتحقيق أنّه منزّل مِن عند الله بواسطة روح القدس، وإنّما وُسّط بينهما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ﴾ الآية،[٢] لِما لا يخفى مِن شدّة اتّصالِه بالردّ الأوّل، والمعنى والله تعالى أعلمُ: أنّ المفتريَ هو الذي يكذِّب بآيات الله ويقول: إنّه افتراء ومعلَّم مِنَ البشر، أي: تكذيبُها على الوجه المذكور هو الافتراء على الحقيقة؛ لأنّ حقيقته الكذب، والحُكمُ بأنّ ما هو كلامه تعالى ليس بكلامه تعالى في كونه كذبًا وافتراءً كالحُكم بأنّ ما ليس بكلامه تعالى كلامُه تعالى.

والتصريح بالكذب للمبالغة في بيان قُبحِه. وصيغة المضارع لرعاية المطابقة بينه وبين ما هو عبارة عنه، أعني قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾. وقيل: المعنى "إنّما يفتري الكذب"، ويليق ذلك بمَن لا يؤمن بآيات الله؛ لأنّه لا يترقّب عقابًا عليه

---

[١] النحل، ١٦/١٠١.
[٢] النحل، ١٦/١٠٣.

ليرتدعَ عنه، وأمّا مَن يؤمن بها ويخاف ما نطقت به مِن العقاب، فلا يمكن أن يصدر عنه افتراء البتّةَ.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن عدم الإيمانِ بآيات الله ﴿هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ على الحقيقة، أو الكاملون في الكذب؛ إذ لا كذِبَ أعظمُ مِن تكذيب آياته تعالى والطعنِ فيها بأمثال هاتيك الأباطيل. والسرُّ في ذلك أنّ الكذِب الساذَج الذي هو عبارة عن الإخبار بعدم وقوع ما هو واقع في نفس الأمر بخَلْق الله تعالى أو بوقوع ما لم يقع كذلك، مدافعة لله سبحانه في فعله فقط، والتكذيبُ / مدافعة [٣٥٠و] له سبحانه في فعله وقوله المبنيّ عليه[١] معًا، أو الذين عادتهم الكذب لا يزَعُهم عنه وازع مِن دين أو مروءة. وقيل: الكاذبون في قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾.[٢]

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦﴾

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ أي: تلفّظ بكلمة الكفر ﴿مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦ﴾ به تعالى، وهو ابتداءُ كلام لبيان حال مَن كفر بآيات الله بعدما آمن بها، بعد بيان حال مَن لم يؤمن بها رأسًا. و﴿مَن﴾ موصولة ومحلُّها الرفع على الابتداء، والخبرُ محذوف لدلالة الخبر الآتي عليه، أو هو خبر لهما معًا، أو النصبُ على الذمّ. ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على ذلك بأمر يخاف على نفسه أو على عُضو مِن أعضائه، وهو استثناء متّصل مِن حكم الغضب والعذاب أو الذمّ؛ لأنّ الكفر لغة يتمّ بالقول، كما أشيرَ إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ حال مِن المستثنى، والعاملُ هو الكفر الواقع بالإكراه لا نفس الإكراه؛ لأنّ مقارنة اطمئنان القلب بالإيمان للإكراه لا يُجدي نفعًا، وإنّما المُجدي مقارنته للكفر الواقع به، أي: إلّا مَن كفر بإكراه وإلّا مَن أُكرِه فكفَر، والحالُ أنّ قلبه مطمئنّ بالإيمان لم يتغيَّر عقيدتُه،

[١] م س ط: المبنئ عنه [صُحّح في هامش م].

[٢] النحل، ١٠١/١٦. | والقول للزمخشري في الكشّاف، ٤٦٧/٢.

وإنّما لم يُصرِّح به إيماءً إلى أنّه ليس بكفر حقيقة، وفيه دليلٌ على أنّ الإيمان هو التصديق بالقلب.

﴿وَلَٰكِن مَّن﴾ لم يكن كذلك؛ بل ﴿شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: اعتقده وطاب به نفسًا ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ عظيم لا يُكتنه كُنهه، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إظهارُ الاسم الجليل لتربية المَهابة وتقويةِ تعظيم العذاب. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذ لا جُرمَ أعظمُ مِن جرمهم. والجمع في الضميرين المجرورين لمراعاة جانب المعنى، كما أنّ الإفراد في المستكِنّ في الصلة لرعاية جانب اللفظ.

رُوي أنّ قريشًا أكرهوا عمّارًا وأبويه ياسرًا وسُميّة على الارتداد فأباه أبواه، فربطوا سُميّة بين بعيرين ووُجئ[1] بحَرْبة في قُبلها، وقالوا: إنّما أسلمتِ مِن أجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسرًا، وهما أوّل قتيلين في الإسلام، وأمّا عمّار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوا عليه، فقيل: يا رسول الله إنّ عمّارًا كفَر، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «كلّا إنّ عمّارًا مُلئ إيمانًا مِن قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»، فأتى عمّار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يبكي، فجعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم / يمسح عينيه، وقال: «ما لك؟ إن عادوا لك فعُد لهم بما قلتَ».[2] وهو دليل على جواز التكلّم بكلمة الكفر عند الإكراه الملجئ، وإن كان الأفضل أن يُتجنب عنه إعزازًا للدين كما فعله أبواه.[3] [٣٥٠ظ]

ورُوي أنّ مُسيلَمة الكذّاب أخذ رجلين، فقال لأحدهما: ما تقول في محمّد صلّى الله عليه وسلّم؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول فيّ؟ قال: فأنت أيضًا، فخلاه؛ وقال للآخر: ما تقول في محمّد عليه السلام؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول فيّ؟ قال: أنا أصمُّ، فأعاد ثلاثًا فأعاد جوابه، فبلغ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «أمّا الأوّل فقد أخذ برخصة، وأما الثاني فقد صدع بالحقّ».[4]

---

[1] وجأ: ضرب. **لسان العرب** لابن منظور، «وجأ».

[2] **معالم التنزيل** للبغوي، ٤٥/٥-٤٦؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٧/٢. وبمعناه في **جامع البيان** للطبري، ٢٧٣/١٤-٢٧٦.

[3] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٧/٢.

[4] بلفظ قريب في **المُصنَّف** لابن أبي شيبة، ٤٧٣/٦ (٣٣٠٣٧)؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٨/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزَّيلعي، ٢٤٧/٢.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكفر بعد الإيمان، أو إلى الوعيد المذكور، ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ بسبب أنهم ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ آثروها ﴿عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ إلى الإيمان، وإلى ما يُوجب الثبات عليه هدايةَ قسر وإلجاء ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في عِلمه المحيط، فلا يعصِمهم عن الزَّيغ وما يؤدّي إليه مِن الغضب والعذاب العظيم. ولولا أحد الأمرين: إمّا إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، وإمّا عدم هداية الله سبحانه للكافرين هدايةَ قسر بأن آثروا الآخرة على الدنيا، أو بأن هداهم الله تعالى هدايةَ قسر، لَما كان ذلك، لكنّ الثانيَ مخالِف للحكمة، والأوّلَ ممّا لا يدخُل تحت الوقوع، وإليه أشيرَ بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن القبائح ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ فأبت عن إدراك الحقّ والتأمُّل فيه. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أي: الكاملون في الغفلة؛ إذ لا غفلةَ أعظمُ مِن الغفلة عن تدبّر العواقب.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ إذ ضيّعوا أعمارَهم وصرفوها إلى ما لا يُفضي إلّا إلى العذاب المُخلَّد.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ إلى دار الإسلام، وهم عمّار وأصحابه رضي الله عنهم، أي: لهم بالولاية والنصر لا عليهم، كما يُوجبه ظاهر أعمالِهم السابقة. فالجارُّ والمجرور خبر لـ﴿إِنَّ﴾، ويجوز أن يكون خبرُها محذوفًا لدلالة الخبر الآتي عليه، ويجوز أن يكون ذلك خبرًا لها ويكون ﴿إِنَّ﴾ الثانيةُ تأكيدًا للأولى، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على تباعُد رتبة حالهم هذه عن رتبة حالهم التي يفيدها الاستثناءُ مِن مجرَّد الخروج عن حُكم الغضب والعذاب بطريق الإشارة، لا عن رُتبة حال الكفَرة.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ أي: عُذّبوا على الارتداد وتلفّظوا بما يُرضيهم مع اطمئنان قلوبهم بالإيمان. وقرئ على بناء الفاعل،[1] أي: عذّبوا / المؤمنين، كالحَضْرمي [٣٥١و] أكره مولاه جبرًا حتّى ارتدّ ثمّ أسلما وهاجرا. ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ﴾ في سبيل الله تعالى ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾ على مشاقّ الجهاد.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ مِن بعد المهاجَرة والجهاد والصبر، فهو تصريح بما أشعَر به بناء الحُكم على الموصول مِن عِلّيّة الصلة له أو مِن بعد الفتنة المذكورة فهو لبيان عدم إخلال ذلك بالحُكم.[2] ﴿لَغَفُورٞ﴾ لِما فعلوا مِن قبلُ ﴿رَّحِيمٞ﴾ يُنعِم عليهم مُجازاةً على ما صنعوا مِن بعد، وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة في الموضعَين إيماء إلى علّة الحُكم. وفي إضافة الربّ إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم مع ظهور الأثر في الطائفة المذكورة إظهارٌ لكمال اللطف به عليه الصلاة السلام، وإشعارٌ بأنّ إفاضة آثار الربوبيّة عليهم مِن المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعًا له.

﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾

﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ﴾ منصوب بـ﴿رَّحِيمٞ﴾ وما رُتّب عليه،[3] أو بـ"اذكر" وهو يوم القيامة، يوم يقوم الناس لربّ العالمين. ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ عن ذاتها تسعى في خلاصها بالاعتذار لا يُهِمّها شأن غيرها، فتقول: نفسي نفسي.

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ أي: تُعطى وافيًا كاملًا ﴿مَّا عَمِلَتۡ﴾ أي: جزاءَ ما عمِلت بطريق إطلاق اسم السبب على المسبَّب إشعارًا بكمال الاتّصال بين الأجزية والأعمال. وإيثارُ الإظهار على الإضمار لزيادة التقرير وللإيذان باختلاف وقتَي المجادَلة والتوفية، وإن كانتا في يوم واحد. ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ لا يُنقَصون أجورَهم، أو لا يُعاقَبون بغير مُوجِب، ولا يُزاد في عقابهم على ذنوبهم.

---

[1] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٥.

[2] وفي هامش م: ويندرج فيه حُكم قراءة الفتح في ﴿فُتِنُواْ﴾. «منه».

[3] وفي هامش م: فإنّ المراد توقيت رحمته تعالى المقارِنة لمغفرته المترتّبة عليها. «منه».

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ قيل: ضَرْب المثل: صُنعه واعتماله، وقد مرّ تحقيقُه في سورة البقرة،[1] ولا يتعدّى إلّا إلى مفعول واحد، وإنّما عُدّيَ إلى الاثنين لتضمينه معنى الجَعْل. وتأخيرُ ﴿قَرْيَةً﴾ مع كونها مفعولًا أوّلَ؛ لئلا يَحُول المفعول الثاني بينها وبين صفتها وما يترتَّب عليها، إذ التأخير عن الكلّ مُخِلّ بتجاذُب أطراف النظم وتجاوبها؛ ولأنّ تأخيرَ ما حقّه التقديمُ ممّا يُورِث النفسَ ترقّبًا لوروده وتشوّقًا إليه، / لاسيّما إذا كان في المُقدَّم ما يدعو إليه، فإنّ المَثَل ممّا يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوال ما هو مَثَل، فيتمكّن المتأخِّر[2] عند ورودِه لديها فضلَ تمكُّن. و"القرية" إمّا محقَّقةٌ في الغابرين، وإمّا مقدَّرة، أي: جَعَلها مثلًا لأهل مكّةَ خاصّةً، أو لكلّ قوم أنعَم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة، ففعلوا ما فعلوا، فبدّل الله تعالى بنعمتهم نقمة، ودخَل فيهم أهل مكّةَ دخولًا أوّليًا. [٣٥١ظ]

﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ ذاتَ أمن مِن كلّ مَخُوف ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ لا يُزعِج أهلَها مُزعِجٌ، ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أقواتُ أهلها، صفة ثانية لـ﴿قَرْيَةً﴾. وتغييرُ سَبْكها عن الصفة الأولى لِما أنّ إتيان رزقها متجدِّد، وكونَها آمنةً مطمئنة ثابتٌ مستمرّ. ﴿رَغَدًا﴾ واسعًا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ مِن نواحيها.

﴿فَكَفَرَتْ﴾ أي: كفر أهلها ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي: بنِعَمه: جمع "نِعمة"، على ترك الاعتداد بالتاء، كـ"دِرع" و"أدرُع"، أو جمع "نُعْم"، كـ"بُؤس" و"أَبْؤس"، والمراد بها نعمةُ الرزق والأمن المستمِرّ. وإيثارُ جمع القِلّة للإيذان بأنّ كُفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذابَ فما ظنُّك بكفران نِعَم كثيرة؟ ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ﴾ أي: أذاق أهلها ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ شُبِّه أثرُ الجوع والخوف وضررُهما المحيط بهم باللباس الغاشي للّابس، فاستُعير له اسمه، وأُوقِع عليه الإذاقةُ المستعارة لمطلق الإيصال المنبئة عن شدّة الإصابة بما فيها مِن اجتماع

---

[1] في تفسير الآية السادسة والعشرين منها.

[2] في هامش م: المؤخَّر.

إدراكَي اللامسة والذائقة على نهج التجريد، فإنّها لشيوع استعمالها في ذلك، وكثرةِ جرَيانها على الألسِنة جرت مَجرى الحقيقة، كقول كُثيِّر:

غَـمْـرُ الــرداء إذا تبسَّـم ضاحكًا   غَـلِقـت لضِحكته رقـابُ الـمـالِ[1]

فإنّ الغَمْر مع كونه في الحقيقة مِن أحوال الماء[2] لمّا كان كثير الاستعمال في المعروف المُشبَّه بالماء الكثير، جرى مَجرى الحقيقة، فصارت إضافته إلى الرداء المستعار للمعروف تجريدًا. أو شُبِّه أثرُهما وضررُهما[3] / مِن حيث [٣٥٢و] الإحاطةُ بهم والكراهةُ لديهم تارة باللباس الغاشي للّابس المناسِب للخوف بجامع الإحاطة واللزوم تشبيهَ معقول بمحسوس، فاستُعير له اسمه استعارةً تصريحيّة، وأخرى بطَعْم المُرّ والبشِع الملائم للجوع الناشئ مِن فَقْد الرزق بجامع الكراهة، فأُومئَ إليه بأن أُوقِع عليه الإذاقة المستعارة لإيصال الضارّ المُنبئةُ عن شدّة الإصابة بما فيها مِن اجتماع إدراكَي اللامسة والذائقة.

وتقديمُ الجوع الناشئ ممّا ذُكر مِن فقدان الرزق على الخوف المترتِّب على زوال الأمن المقدَّم فيما تقدَّم على إتيان الرزق لكونه أنسبَ بالإذاقة، أو لمراعاة المقارنة بينها وبين إتيان الرزق. وقد قُرئ بتقديم ﴿ٱلْخَوْفِ﴾،[4] وبنصبه[5] أيضًا عطفًا على المضاف، أو إقامةً له مُقامَ مضاف محذوف، وأصله: ولباسَ الخوف.

﴿بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ فيما قبلُ، أو على وجه الاستمرار، وهو الكفران المذكور، أُسنِد ذلك إلى أهل القرية تحقيقًا للأمر بعد إسناد الكفران إليها

---

[1] البيت لكُثيِّر عزّة يمدح عبد العزيز بن مروان، وهو في ديوانه، ص ٢٨٨؛ وله في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٩/٢، والإيضاح للقزويني، ص ٤٣٢. وفي معاهد التنصيص للعبّاسي، ١٤٩/١-١٥٠: «غَمْر الرداء: كثير العطاء... "غلِقت لضحكته رقاب المال"، يقال: "غلِق الرّهن في يد المرتهَن" إذا لم يقدِر على انفكاكه، وهو يريد في البيت أنّ ممدوحه إذا تبسّم غلِقت رقاب أمواله في أيدي السائلين».

[2] في هامش م: الكثير.

[3] السياق: شُبِّه أثر الجوع... أو شُبِّه...

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٨.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي السّمّال وعبّاس والجُعفي واللؤلئي وعبد الوارث عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١١٧.

وإيقاع الإذاقة عليها إرادة للمبالغة، وفي صيغة "الصنعة" إيذانٌ بأنّ كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم وسُنّة مَسلُوكة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ مِن تتمّة المَثَل، جيء بها لبيان أنّ ما فعلوه مِن كُفران النِّعم لم يكن مزاحمة منهم لقضيّة العقل فقط؛ بل كان ذلك معارضة لحجّة الله على الخلق أيضًا، أي: ولقد جاء أهلَ تلك القرية ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: مِن جنسهم يعرِفونه بأصله ونسَبه، فأخبرهم بوجوب الشكر على النعمة، وأنذَرهم سوء عاقبة ما يأتون وما يذرون، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في رسالته، أو فيما أخبَرهم به ممّا ذُكر. فـ"الفاء" فصيحةٌ وعدم ذِكره للإيذان بمفاجأتهم بالتكذيب مِن غير تَلَعْثُم.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المستأصِل لشأفتهم غِبَّ ما ذاقوا نُبذةً مِن ذلك. ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: حالَ التباسهم بما هم عليه مِن الظلم الذي هو كفران نِعَم الله تعالى وتكذيبُ رسوله، غيرَ مُقلعين عنه بما ذاقوا مِن مقدّماته الزاجرة عنه، وفيه دلالةٌ على تماديهم في الكفر والعِناد وتجاوزهم في ذلك كلّ حدّ مُعتاد.

[٣٥٢ظ] وترتيبُ العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنّة الله تعالى / حسبما يُرشِد إليه قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء، ١٥/١٧]، وبه يتمّ التمثيل، فإنّ حال أهل مكّةَ سواء ضُرِب المَثَل لهم خاصّة أو لمَن سار سيرتهم كافّة مُحاذية لحال أهل تلك القرية حَذْو القُذّة بالقُذّة[١] مِن غير تفاوت بينهما ولو في خَصلة فَذّة،[٢] كيف لا، وقد كانوا في حرَم آمِن ويُتخطَّف الناس مِن حولهم وما يمرّ ببالهم طَيف مِن الخوف، وكانت تُجبى إليه ثمراتُ كلّ شيء، ولقد جاءهم رسول منهم وأيُّ رسول، يحار في إدراك سموّ رتبته العقولُ،

---

[١] القُذّة: ريش السهم. لسان العرب لابن منظور، «قذذ». وحذو القُذّة بالقُذّة، أي: مِثلًا بمِثل، وهو مثل يُضرَب في التسوية بين الشيئين. انظر: مجمع الأمثال للميداني، ١٩٥/١.

[٢] الفذّ: الفرد. لسان العرب لابن منظور، «فذذ».

صلّى الله عليه وسلّم ما اختلف الدَّبور والقَبول،[١] فكفروا بأنعم الله وكذّبوا رسوله صلّى الله عليه وسلّم، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف، حيث أصابهم بدعائه عليه السلام بقوله: «اللّٰهمّ أعِنّي عليهم بسَبْع كسَبْع يوسفَ»،[٢] ما أصابهم مِن جَدْب شديدٍ وأزمة حصّت كلّ شيء[٣] حتّى اضطرّتهم إلى أكْل الجِيف والكلاب الميّتة والعِظام المُحرَقة والعِلْهِز -وهو الوبر المعالَج بالدم- وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت مِن سرايا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حيث كانوا يُغيرون على مواشيهم وعِيرهم وقوافلهم، ثمّ أخذهم يومَ بدر ما أخَذهم مِن العذاب.

هذا هو الذي يقتضيه المقام ويستدعيه حُسن النِّظام، وأمّا ما أجمَع عليه أكثر أهل التفسير مِن أنّ الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ﴾ لأهل مكّةَ قد ذُكر حالهم صريحًا بعد ما ذُكر مَثَلهم، وأنّ المراد بـ"الرسول" محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبـ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ ما أصابهم مِن الجَدْب ووقعة بدر فبمَعزِل مِن التحقيق؛[٤] كيف لا، وقوله سبحانه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ مُفرّعٌ على نتيجة التمثيل، وصدٌّ لهم عمّا يؤدّي إلى مِثل عاقبته.

والمعنى: وإذ قد استبان لكم حال مَن كفَر بأنعُم الله وكذّب رسوله وما حلّ بهم بسبب ذلك مِن اللّتيّا والتي أوّلًا وآخِرًا فانتهُوا عمّا أنتم عليه مِن كُفران النِّعم وتكذيب الرسول صلّى الله عليه وسلّم، كيلا يحِلَّ بكم / مِثلُ ما حلّ بهم، واعرِفوا حقّ نِعَم الله تعالى، وأطيعوا رسوله صلّى الله عليه وسلّم في أمره ونهيه، وكلوا مِن رزق الله حالَ كونه ﴿حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾، وذروا ما تفترون مِن تحريم البحائر ونحوها. [٣٥٣و]

﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾، واعرِفوا حقّها ولا تُقابلوها بالكفران. و"الفاء" في المعنى داخلة على الأمر بالشكر، وإنّما أُدخِلت على الأمر بالأكْل لكون الأكْل

---

[١] الدَّبور: الرِّيح التي تُقابل الصَّبا والقَبول، وتهبّ على جزيرة العرب من جهة المَغرب. والقَبول: ريح الصَّبا تهبّ مِن جهة المشرِق. لسان العرب لابن منظور، «دبر»، «قبل».

[٢] مسند أحمد، ١٧٩/٧ (٤١٠٤)؛ صحيح البخاري، ٧٧/٦ (٤٦٩٧)، وفيه «اكفنيهم» مكان «أعنّي عليهم»؛ سنن الترمذي، ٤٥٧/٥ (٣٢٥٤).

[٣] يقال: جاءت سنة حصّت كلّ شيء، أي: أذهبته. لسان العرب لابن منظور، «حصص».

[٤] السياق: وأمّا ما أجمع... فبمَعزِل...

ذريعةً إلى الشكر، فكأنّه قيل: فاشكروا نعمة الله غِبّ أكْلها حلالًا طيّبًا، وقد أُدمِج فيه النهيُ عن زَغم الحُرمة، ولا ريبَ في أنّ هذا إنّما يَتصوّر حين كان العذابُ المستأصِل مُتوقَّعًا بعدُ وقد تمهّدت مباديه، وبعد ما وقَع ما وقَع فمَن ذا الذي يُحذَّر ومَن ذا الذي يُؤمَر بالأكل والشكر؟

وحَمْلُ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[1] على الإخبار بذلك قبل الوقوع يأباه التصدّي لاستصلاحهم بالأمر والنهي، وتوجيهُ خطاب الأمر بالأكل إلى المؤمنين مع أنّ ما يتلوه مِن خطاب النهي متوجّه إلى الكفّار، كما فعله الواحديُّ حيث قال: فكلوا أنتم يا معشر المؤمنين ممّا رزقكم الله مِن الغنائم،[2] ممّا لا يليق[3] بشأن التنزيلِ الجليل.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: تطيعون، أو إن صحّ زعمُكم أنكم تقصِدون بعبادة الآلهة عبادتَه تعالى.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١٥ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝١١٦﴾

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ تعليلٌ لحِلّ ما أمرهم بأكله ممّا رزقهم، أي: إنّما حرّم هذه الأشياءَ دون ما تزعُمون حرمته مِن البحائر والسوائب ونحوها.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ بما اعتراه مِن الضرورة فتناوَل شيئًا مِن ذلك ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: على مضطرّ آخرَ ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: متجاوزٍ قدرَ الضرورة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ[4] غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لا يؤاخِذه بذلك، فأقيمَ سببه مُقامه. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة إيماءٌ إلى عِلّة الحُكم. وفي الإضافة إلى ضميره عليه السلام إظهارٌ لكمال اللطف به عليه السلام. وتصدير الجملة بـ﴿إِنَّمَا﴾ لحَصْر المحرّمات في الأجناس الأربعة

---

[1] في الآية السابقة.

[2] انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٨٩.

[3] السياق: وحَمْلُ... ممّا لا يليق...

[4] م س: ربّك.

إلّا ما ضُمّ إليه كالسِّباع والحمُر الأهليّة.

ثمّ أكّد ذلك بالنهي عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾ "اللام" صلة مِثلما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ [البقرة، ١٥٤/٢]، أي: لا تقولوا في شأن ما تصفه ألسنتُكم مِن البهائم بالحِلّ والحُرمة / في قولكم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام، ١٣٩/٦]، مِن غير ترتّب ذلك الوصف على ملاحظة وفِكْر، فضلًا عن استناده إلى وحي أو قياس مبنيّ عليه. ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ منتصب بـ﴿لَا تَقُولُواْ﴾، وقولُه تعالى: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ بدلٌ منه. ويجوز أن يتعلَّق بـ﴿تَصِفُ﴾ على إرادة القول، أي: لا تقولوا لِما تصِف ألسنتكم فتقول: هذا حلال وهذا حرام، وأن يكون القول المقدَّر حالًا مِن ﴿أَلْسِنَتُكُمُ﴾، أي: قائلةً هذا حلال... إلخ. [٣٥٣ظ]

ويجوز أن ينتصب ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ بـ﴿تَصِفُ﴾، ويتعلَّق ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ﴾... إلخ، بـ﴿لَا تَقُولُواْ﴾، و"اللام" للتعليل و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: لا تقولوا "هذا حلال وهذا حرام" لوَصْف ألسنتكم الكذبَ، أي: لا تُحِلّوا ولا تُحرّموا لمجرَّد وَصْف ألسنتكم الكذبَ وتصويرِها له بصورة مستحسَنة وتزيينها له في المسامع، كأنّ ألسنتكم لكونها منشأً للكذب ومنبعًا للزور شخصٌ عالم بكُنهه ومحيط بحقيقته، يصفه للناس ويعرِّفه أوضحَ وصفٍ وأبينَ تعريف، على طريقة الاستعارة بالكناية، كما يقال: وجهُه يصِف الجمالَ وعينُه تصِف السِّحر. وقرئ بالجرّ[١] صفةً لـ﴿مَا﴾ مع مدخولها، كأنّه قيل: لوَصْفها الكذبِ، بمعنى: الكاذب، كقوله تعالى: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف، ١٨/١٢]. والمراد بالوصف وصفُها البهائمَ بالحِلّ والحُرمة. وقرئ: "الكُذُبُ"،[٢] جمع "كَذوب" بالرفع صفة للألسنة، وبالنصب على الشَّتم، أو بمعنى الكلِم الكواذب،

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن معاذ بن جبل ومَسلَمة بن مُحارب والهَمْدانيّ عن طلحة وابن أبي عبلة وقُربى الشاميّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٥-٢٧٦؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١١٨.

أو هو جَمْع "الكِذاب" مِن قولهم: كذَب كِذابًا، ذكَره ابن جنّي.[١]

﴿لِتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فإنّ مَدار الحِلّ والحُرمة ليس إلّا أمر الله تعالى، فالحُكم بالحِلّ والحُرمة إسناد للتحليل والتحريم إلى الله سبحانه مِن غير أن يكون ذلك منه، و"اللام" لام العاقبة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في أمر مِن الأمور ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا يفوزون بمطالبهم التي ارتكبوا الافتراءَ للفوز بها.

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١٧﴾

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: منفعتُهم فيما هم عليه مِن أفعال الجاهليّة منفعة قليلة، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يُكتنه كُنهُه.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١١٨﴾

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ خاصّة دون غيرهم مِن الأوّلين والآخِرين ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أي: بقوله تعالى: ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ الآية [الأنعام، ٦/١٤٦]. ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلِّق بـ﴿قَصَصْنَا﴾ أو بـ﴿حَرَّمْنَا﴾، وهو تحقيق لِما سلف مِن حصر المحرَّمات فيما فُصِّل بإبطال ما يُخالفه مِن فِريَة اليهود وتكذيبهم في ذلك، فإنّهم كانوا يقولون: لسنا أوّل مَن حُرِّمت عليه، وإنّما كانت محرمّة على نوح وإبراهيمَ ومَن بعدهما حتّى انتهى الأمر إلينا.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بذلك التحريم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه حسبما نعى عليهم قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ

---

[١] انظر: المحتسب لابن جنّي، ١٣/٢. | هو عثمان بن جنّي الموصلي، أبو الفتح المعروف بابن جنّي (ت. ٣٩٢هـ/١٠٠٢م). مِن أئمّة اللغة والنحو والأدب. لازم إمام العربيّة أبا عليّ الفارسي، وُلد بالموصل وتوفّي ببغداد عن نحو خمسة وستّين عامًا. وله نمط فريد في التأليف، مِن أبرز تصانيفه: الخصائص، والمحتسَب، وسرّ الصناعة، واللمع، والفسر -وهو الشرح الكبير على ديوان المتنبّي- والتنبيه على شرح مشكل أبيات الحماسة. وهي مطبوعة. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ٢٤٦/٣؛ والأعلام للزركلي، ٢٠٤/٤.

هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الآية [النساء، ٤/١٦٠]، ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران، ٣/٩٣]. رُوي أنّه عليه السلام لمّا قال لهم ذلك بُهتوا ولم يجسروا أن يُخرِجوا التوراةَ، كيف؟ وقد بُيّن فيها أنّ تحريم ما حُرِّم عليهم مِن الطيّبات لظُلمهم وبغيهم عقوبةً وتشديدًا أوضحَ بيان، وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: بسبب جهالة أو ملتبِسين بها ليعُمَّ الجهل بالله وبعقابه، وعدمِ التدبّر في العواقب لغلبة الشهوة. والسوء / يعمّ [٣٥٤و] الافتراء على الله تعالى وغيرَه. ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعد ما عملوا ما عملوا. والتصريحُ به مع دلالة ﴿ثُمَّ﴾ عليه للتأكيد والمبالغة. ﴿وَأَصْلَحُوٓاْ﴾ أي: أصلحوا أعمالهم، أو دخلوا في الصلاح.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ مِن بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذلك السوء ﴿رَّحِيمٌ﴾ يُثيب على طاعته تركًا وفعلًا. وتكريرُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ لتأكيد الوعد وإظهار كمال العناية بإنجازه. والتعرّضُ لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مع ظهور الأثر في التائبين للإيماء إلى أنّ إفاضة آثار الربوبيّة مِن المغفرة والرحمة عليهم بتوسّطه عليه السلام وكونِهم مِن أتباعه، كما أشيرَ إليه فيما مرّ.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ على حِياله لحِيازته مِن الفضائل البشريّة ما لا يكاد يوجد إلّا متفرّقةً في أمّة جَمّة، حسبما قيل:

ليس مِن الله بمستنكَرٍ أن يجمع العالَمَ في واحدِ[1]

وهو رئيس أهل التوحيد، وقدوة أصحاب التحقيق، جادَل أهل الشِّرك وألقَمهم الحَجَر ببيِّنات باهرة لا تُبقي ولا تذَر، وأبطَل مذاهبهم الزائفة بالبراهين القاطعة والحُجج الدامغة، أو لأنّه عليه السلام كان مؤمنًا وحدَه والناسُ كلّهم كفّار. وقيل: هي "فُعْلة" بمعنى مفعول، كـ"الرُّحلة" و"النُّخبة"، مِن "أمَّه" إذا قصَده أو اقتدى به، فإنّ الناس كانوا يقصِدونه ويقتدون بسيرته، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة، ١٢٤/٢].[2] وإيرادُ ذِكره عليه السلام عَقيبَ تزييف مذاهب المشركين مِن الشِّرك والطعن في النبوّة وتحريم ما أحلَّه الله تعالى للإيذان بأنّ حقّيّة دين الإسلام وبطلانَ الشِّرك وفروعه أمرٌ ثابت لا ريبَ فيه.

﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ مطيعًا له قائمًا بأمره، ﴿حَنِيفًا﴾ مائلًا عن كلّ دِين باطل إلى الدِّين الحقّ / غيرَ زائل عنه بحال. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في أمر مِن أمور دينهم أصلًا وفرعًا، صرَّح بذلك مع ظهوره لا ردًّا على كفّار قريش فقط في قولهم: "نحن على ملّة أبينا إبراهيمَ"؛ بل عليهم وعلى اليهود المشركين بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة، ٣٠/٩]، في افترائهم وادعائهم أنّه عليه السلام كان على ما هم عليه، كقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران، ٦٧/٣]، إذ به ينتظِم أمر إيراد التحريم والسبت سابقًا ولاحقًا. [٣٥٤ظ]

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ صفة ثالثة لـ﴿أُمَّةً﴾،[3] وإنّما أُوثِر صيغة جَمْع القِلّة للإيذان بأنّه عليه السلام كان لا يُخِلُّ بشُكر النِّعمة القليلة، فكيف بالكثيرة؟ وللتصريح

---

[1] لأبي نواس في ديوانه، ٢٠٥/١؛ وفيه «لله» مكان «مِن الله»؛ وهو له في كتاب الحيوان للجاحظ، ٢٩/٣؛ والوساطة للقاضي الجرجاني ٢٥٤؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٨٦/٢، وفيها جميعًا «على الله» مكان «من الله».

[2] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٨٦/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٢.

[3] في الآية السابقة.

بكونه عليه السلام على خلاف ما هم عليه مِن الكُفران بأنعُم الله تعالى حسبما بُيِّن ذلك بضرب المَثَل.

﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ للنبوّة ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مُوصِل إليه سبحانه وهو مِلّة الإسلام، وليست نتيجة هذه الهداية مجرَّدَ اهتدائه عليه السلام؛ بل مع إرشاد الخَلْق أيضًا بمعونة قرينة الاجتباء.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ حالة حسَنة مِن الذِّكر الجميل والثناءِ فيما بين الناس قاطبة، حتّى إنّه ليس مِن أهل دِين إلّا وهم يتولّونه. وقيل: هي الخَلّة والنبوّة. وقيل: قول المصلّي منّا "كما صلّيتَ على إبراهيمَ". والالتفات إلى التكلّم لإظهار كمال الاعتناء بشأنه وتفخيمِ مكانه عليه السلام.

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أصحابِ الدرجات العالية في الجنّة، حسبما سأله بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۞ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء، ٢٦/٨٣-٨٥].

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ مع علوّ طبقتك وسُموّ رُتبتِك: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ المِلّة: اسمٌ لِما شرَعه الله تعالى لعباده على لسان / الأنبياء عليهم السلام، مِن [٣٥٥و] "أمللتُ الكتابَ" إذا أمليتَه، وهو الدِّين بعينه لكن باعتبار الطاعة له. وتحقيقه أنّ الوضع الإلهي مهما نُسِب إلى مَن يُؤدِّيه عن الله تعالى يُسمّى مِلّةً، ومهما نُسِب إلى مَن يُقيمه ويعمل به يُسمّى دِينًا. قال الراغب: الفرقُ بينهما أنّ المِلّة لا تُضاف إلّا إلى النبيّ عليه السلام ولا تكاد توجَد مضافةً إلى الله سبحانه ولا إلى آحاد الأمّة ولا تُستعمَل إلّا في جملة الشرائع دون آحادها.[١] والمراد بمِلّته عليه السلام الإسلامُ الذي عُبّر عنه آنفًا بالصراط المستقيم.

---

١ انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٧٧٣.

﴿حَنِيفًا﴾ حال مِن المضاف إليه، لِما أنّ المضاف لشِدّة اتّصاله به عليه السلام جرى منه مَجرى البعض فعُدّ بذلك مِن قبيل: "رأيتُ وجه هندٍ قائمةً". والمأمور به الاتّباع في الأصول دون الشرائع المتبدّلة بتبدّل الأعصار، وما في ﴿ثُمَّ﴾ مِن التراخي في الرُّتبة للإيذان بأنّ هذه النعمة أجلّ النِّعم الفائضة عليه عليه السلام. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تكرير لِما سبَق لزيادة تأكيد وتقرير لنزاهته عليه السلام عمّا هم عليه مِن عَقْد وعمَل.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ أي: فُرض تعظيمه والتخلّي فيه للعبادة. وتركُ الصيد فيه تحقيقٌ لذلك النفي الكلّي، وتوضيحٌ له بإبطال ما عسى يُتوهَّم كونه قادحًا في كلّيّته حسبما سلَف في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا﴾... إلخ [الأنعام، ١٤٦/٦]، فإنّ اليهود كانوا يدّعون أنّ السبت مِن شعائر الإسلام، وأنّ إبراهيمَ عليه السلام كان محافِظًا عليه، أي: ليس السبت مِن شرائع وشعائر ملّته التي أُمرتَ باتّباعها حتّى يكون بينه عليه السلام وبين بعض المشركين علاقةٌ في الجملة،[١] وإنّما شُرع ذلك لبني إسرائيلَ بعد مدّة طويلة.

وإيراد الفعل مبنيًّا للمفعول جَريٌ على سَنن الكبرياء، وإيذانٌ بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة الإسناد إلى الغير، وقد قُرئ على البناء للفاعل،[٢] وإنّما عُبّر عن ذلك بالجعل موصولًا بكلمة ﴿عَلَى﴾ وعنهم بالاسم الموصول باختلافهم، فقيل: إنّما جُعل السبت ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ للإيذان بتضمّنه للتشديد والابتلاء المؤدّي إلى العذاب، وبكونه معلَّلًا باختلافهم في شأنه قبل الوقوع، إيثارًا له[٣]

---

[١] وفي هامش م: أي: اليهود الذين أشركوا بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة، ٣٠/٩] سبحانه وتعالى عمّا يقولون عُلوًّا كبيرًا. «منه».

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والنخَعي واليزيدي وأبي حَيْوَة وابن أبي عبلة وابن مِقسَم والزعفراني والصرصري عن أبي بكر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٨؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١١٩.

[٣] وفي هامش م: كما فعله بعضهم. «منه».

على ما أمَر الله تعالى به / واختيارًا[١] للعكس، لكن لا باعتبار شُمول العلّيّة لطرفَي الاختلاف وعموم الغائلة للفريقين؛ بل باعتبار حال منشأ الاختلاف مِن الطرف المخالِف للحقّ. [٣٥٥ظ]

وذلك أنّ موسى عليه السلام أمر اليهود أن يجعلوا في الأسبوع يومًا واحدًا للعبادة، وأن يكون ذلك يومَ الجمعة، فأبَوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرَغ الله تعالى فيه مِن خَلْق السماوات والأرض وهو السبت، إلّا شرذمةً منهم قد رضُوا بالجمعة فأذِن الله تعالى لهم في السبت، وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فأطاع أمرَ الله تعالى الراضُون بالجمعة فكانوا لا يَصيدون، وأعقابُهم لم يصبِروا عن الصيد فمسَخهم الله سبحانه قِرَدةً دون أولئك المُطيعين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الفريقين المختلفَين فيه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: يفصِل ما بينهما مِن الخصومة والاختلاف، فيُجازي كلّ فريق بما يستحقّه مِن الثواب والعقاب. وفيه إيماءٌ إلى أنّ ما وقَع في الدنيا مِن مَسْخ أحد الفريقين وإنجاءِ الآخر بالنسبة إلى ما سيقع في الآخرة شيءٌ لا يُعتدّ به. هذا هو الذي يستدعيه الإعجاز التنزيلي.

وقد قيل: المعنى إنّما جُعل وبال السبت وهو المَسْخ على الذين اختلفوا فيه، أي: أحلُّوا الصيد فيه تارةً وحرّموه أخرى،[٢] وكان حتمًا عليهم أن يتّفقوا على تحريمه حسبما أمَر الله سبحانه به، وفُسِّر الحُكم بينهم بالمُجازاة باختلاف أفعالهم بالإحلال تارة والتحريمِ أخرى. ووجهُ إيراده ههنا بأنّه أُريدَ به إنذار المشركين مِن سخط الله تعالى على العصاة والمخالفين لأوامره، كضَرْب المثَل بالقرية التي كفرت بأنعُم الله تعالى، ولا ريبَ في أنّ كلمة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ تحكُم بأنّ المراد بالحُكم هو فَصْل ما بين الفريقين مِن الاختلاف، وأنّ توسيط حديث المَسْخ للإنذار المذكور بين حكاية أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم باتّباع مِلّة إبراهيمَ عليه السلام، وبين أمرِه صلّى الله عليه وسلّم بالدعوة إليها مِن قبيل الفَصْل بين الشجر ولِحائِه، فتأمَّل.

---

[١] وفي هامش م: كما فعله بعضهم. «منه».

[٢] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٨٧/٢.

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾

﴿ٱدۡعُ﴾ أي: مَن بُعثتَ إليهم مِن الأمّة قاطبة، فحُذف المفعول للتعميم، أو افعل الدعوة كما في قولهم: "يعطي ويمنع"، أي: يفعل الإعطاء والمنع، فحذفُه للقصد إلى إيجاد نفس الفعل إشعارًا بأنّ عموم الدعوة غنيٌّ عن البيان، وإنّما المقصود الأمر بإيجادها على وجه مخصوص.

﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى الإسلام الذي عُبِّر عنه تارةً بالصراط المستقيم وأخرى بمِلّة إبراهيمَ عليه السلام. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة المُنبِئة عن المالكيّة وتبليغِ الشيء إلى كماله اللائق شيئًا فشيئًا، مع إضافة الربّ إلى ضمير النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في مقام الأمر بدعوة الأمّة على الوجه الحكيم وتكميلهم بأحكام الشريعة الشريفة مِن الدلالة على إظهار اللُّطف به صلّى الله عليه وسلّم والإيماءِ إلى وجه بناءِ الحُكم ما لا يخفى.[1]

[٣٥٦و] ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أي: بالمقالة المُحكمَة الصحيحة، وهو الدليل المُوضِح / للحقّ المزيحُ للشبهة. ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ أي: الخطابيّات المقنِعة والعِبَر النافعة على وجه لا يخفى عليهم أنّك تُناصحهم وتقصِد ما ينفعهم. فالأولى لدعوة خواصّ الأمّة الطالبين للحقائق، والثانيةُ لدعوة عوامّهم. ويجوز أن يكون المراد بهما القرآنَ المجيد؛ فإنّه جامع لكلا الوصفين.

﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾ أي: ناظِرْ معاندِيهم ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرُق المناظَرة والمجادَلة مِن الرِّفق واللِّين واختيار الوجه الأيسَر واستعمال المقدِّمات المشهورة تسكينًا لشغَبهم وإطفاءً للَهَبِهم، كما فعله الخليل عليه السلام.[2]

---

[1] السياق: وفي التعرّض... مِن الدلالة... ما لا يخفى...

[2] وفي هامش م: مِن جملته ما قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة، ٢/٢٥٨]. «منه».

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي أمرك بدعوة الخَلْق إليه، وأعرضَ عن قَبول الحقّ بعد ما عايَن ما عايَن مِن الحِكَم والمواعظ والعِبَر. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إليه بذلك. وهو تعليل لِما ذُكر مِن الأمرين، والمعنى -والله تعالى أعلمُ- اسلُكْ في الدعوة والمناظَرةِ الطريقةَ المذكورة،[١] فإنّه تعالى هو أعلَمُ بحال مَن لا يرعوي عن الضلال بموجَب استعداده المكتسَب، وبحال مَن يصير أمره إلى الاهتداء لِما فيه مِن خير جِبِلّي، فما شرَعه لك في الدعوة هو الذي تقتضيه الحكمة، فإنّه كافٍ في هداية المهتدين وإزالة عُذر الضالّين؛ أو ما عليك[٢] إلّا ما ذُكر مِن الدعوة والمجادلة بالأحسن، وأمّا حصولُ الهداية أو الضلال والمجازاةُ عليهما فإلى الله سبحانه؛ إذ هو أعلمُ بمَن يبقى على الضلال وبمَن يهتدي إليه فيُجازي كلًّا منهما بما يستحقّه.

وتقديم "الضالين" لِما أنّ مساق الكلام لهم، وإيرادُ "الضلال" بصيغة الفعل الدالّ على الحدوث لِما أنّه تغيير لفطرة الله[٣] التي فطَر الناس عليها وإعراضٌ عن الدعوة، وذلك أمر عارض، بخلاف الاهتداء الذي هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجرَيانِ على مُوجَب الدعوة، ولذلك جيء به على صيغة الاسم المُنبئ عن الثبات. وتكرير ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ للتأكيد والإشعارِ / بتبايُن حال المعلومَين[٤] ومآلِهما مِن العقاب والثواب. [٣٥٦ظ]

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

وبعد ما أمره عليه السلام فيما يختصّ به مِن شأن الدعوة بما أمره به مِن الوجه اللائق، عقّبه بخطاب شامل له ولمَن شايَعه فيما يعمّ الكلّ، فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أي: إن أردتُم المعاقبة على طريقة قول الطبيب للمُحتمي: "إن أكلتَ فكُلْ قليلًا"، ﴿فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ أي: بمثل ما فُعل بكم.

---

١ وفي هامش م: بما ذُكر مِن الحِكَم والمواعظ. «منه».

٢ السياق: اسلُك في الدعوة... أو ما عليك...

٣ س + تعالى.

٤ وفي هامش م: من الضالّين والمُهتدين.

وقد عُبِّر عنه بالعقاب على طريقة إطلاقِ اسم المسبَّب على السبب، نحوُ «كما تَدين تُدان»،[١] أو على نهج المشاكلة، والمقصودُ إيجاب مراعاة العدل مع مَن يُناصبُهم مِن غير تجاوز حينما آل الجِدال إلى القتال وأدّى النِزاع إلى القِراع، فإنّ الدعوة المأمور بها لا تكاد تنفكّ عن ذلك، كيف لا، وهي موجبة لصرف الوجوه عن القِبَل المعبودة وإدخالِ الأعناق في قِلادة غير معهودة قاضيةٌ عليهم بفساد ما يأتون وما يذرون، وبطلان دِين استمرّت عليه آباؤهم الأوّلون، وقد ضاقت عليهم الحِيل، وعيَّت بهم العِلَل، وسُدّت عليهم طرُق المُحاجّة والمناظَرة، وأُرتِجَت دونهم أبواب المباحَثة والمحاوَرة.

وقيل: إنّه صلّى الله عليه وسلّم لمّا رأى حمزةَ رضي الله عنه يوم أحُد قد مُثِّل به قال: «لئن أظفرني الله بهم لأمثّلنّ بسبعين مكانك»،[٢] فنزلت، فكفّر عن يمينه وكُفّ عمّا أراده، وقرئ: "وَإِنْ عَقَّبْتُمْ فَعَقِّبُوا"،[٣] أي: وإن قَفَّيْتم بالانتصار فقفّوا بمثل ما فُعل بكم غيرَ متجاوزين عنه.

والأمرُ وإن دلّ على إباحة المماثلة في المُثْلة مِن غير تجاوُز لكن في تقييده بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ حثًّا على العفو تعريضًا، وقد صُرِّح به على الوجه الآكد فقيل: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ أي: عن المعاقَبة بالمِثل ﴿لَهُوَ﴾ أي: لَصَبرُكم ذلك ﴿خَيْرٌ﴾ لكم مِن الانتصار / بالمعاقبة. وإنما قيل: ﴿لِلصَّٰبِرِينَ﴾ مدحًا لهم وثناءً عليهم بالصبر، أو وصفًا لهم بصفة تحصُل لهم عند تَرْك المعاقَبة، ويجوز عَود الضمير إلى مطلَق الصبر المدلول عليه بالفعل، فيدخُل فيه صبرهم كدخول أنفسهم في جنس الصابرين دخولًا أوّليًّا. [٣٥٧و]

ثمّ أُمِر صلّى الله عليه وسلّم صريحًا بما نُدِب إليه غيره تعريضًا مِن الصبر؛ لأنّه أَولى الناس بعزائم الأمور لزيادة عِلمه بشئونه سبحانه ووفورِ وثوقه به فقيل:

---

[١] طرف حديث في الأسماء والصفات للبيهقي، ١/١٩٧-١٩٨ (١٣٢)؛ وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١/٢٦. ومذكور في أمثال العرب. انظر: مَجمع الأمثال للميداني، ٢/١٥٥؛ والمُستقصى للزمخشري، ٢/٢٧١.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٧٣، وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٨٧-٢٨٨. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/٢٥٠.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن سيرين. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٨.

﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ أي: على ما أصابك مِن جهتهم مِن فنون الآلام والأذيّة وعاينتَ مِن إعراضهم عن الحقّ بالكلّيّة.

﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأشياء، أي: وما صبرُك مُلابسًا ومَصحوبًا بشيء مِن الأشياء إلّا بالله، أي: بذِكره والاستغراق في مراقبة شئونه والتبتّل إليه بمجامع الهمّة، وفيه مِن تسليته عليه السلام وتهوينِ مَشاقّ الصبر عليه وتشريفِه ما لا مزيدَ عليه. أو إلّا بمشيئته المَبنيّة على حِكَم بالغة مستتبِعة لعواقبَ حميدة، فالتسلية مِن حيث اشتمالُه على غايات جميلة. وقيل: إلّا بتوفيقه ومعونته،[١] فهي مِن حيث تسهيلُه وتيسيره فقط.

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: على الكافرين بوقوع اليأس مِن إيمانهم بك ومتابعتهم لك نحو: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة، ٥/٦٨]. وقيل: على المؤمنين وما فُعل بهم.[٢] والأوّلُ هو الأنسَب بجزالة النظم الكريم.

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾ بالفتح، وقُرئ بالكسر،[٣] وهما لغتان كـ"القَوْل والقِيل"، أي: لا تكن في ضيق صدر وحرَج. ويجوز كون الأوّل تخفيفَ "ضيّق"، كـ"هَيْن" مِن "هَيّن"، أي: في أمر ضيّق ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ أي: مِن مَكرهم بك فيما يُستقبَل، فالأوّلُ نهيٌ عن التألّم بمطلوب مِن قِبَلهم فاتَ، والثاني عن التألّم بمحذور مِن جِهَتهم آت، والنهيُ عنهما مع أنّ انتفاءهما مِن لوازم الصبر المأمور به لاسيّما على الوجه الأوّل لزيادة التأكيد وإظهارِ كمال العناية بشأن التسلية، وإلّا فهل يخطُر ببال مَن توجّه إلى الله سبحانه بشَراشرِ نفسِه متنزِّهًا عن كلّ ما سواه مِن الشواغل شيءٌ مِن مطلوب فيُنهى عن الحُزن بفواته، أو محذورٌ فيُكَفّ عن الخوف مِن وقوعه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ تعليل لِما سبَق مِن الأمر والنهي. والمراد بالمعيّة الوَلاية الدائمة / التي لا تحوم حول صاحبها شائبةُ شيء مِن الجزَع والحزَن [٣٥٧ظ]

---

[١] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٧٤.

[٢] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٧٤.

[٣] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٥.

وضِيق الصدر، وما يُشعِر به دخول كلمة ﴿مَعَ﴾ مِن متبوعيّة المتّقين إنّما هي مِن حيث إنّهم المباشِرون للتقوى، وكذا الحال في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة، ١٥٣/٢] ونظائرِهما كافّة.

والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منه، الجامعةُ لِما تحتها مِن مرتبة التوقّي عن الشِّرك ومرتبةِ التجنّب عن كلّ ما يُؤثِم مِن فعل وترك، أعني التنزّهَ عن كلّ ما يشغَل سِرّه عن الحقّ والتبتّل إليه بشَراشر نفسِه، وهو التقوى الحقيقي المُورِث لوَلايته تعالى المقرونة ببِشارة قوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس، ٦٢/١٠]، والمعنى أنّ الله وليُّ الذين تبتّلوا إليه بالكلّيّة وتنزّهوا عن كلّ ما يشغَل سِرّهم عنه، فلم يخطُر ببالهم شيء مِن مطلوب أو محذور، فضلًا عن الحزن بفواته أو الخوفِ مِن وقوعه، وهو المعنيُّ بما به الصبر المأمور به حسبما أشيرَ إليه، وبه يحصُل التقريب ويتمّ التعليل كما في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود، ٤٩/١١]، على أحد التفسيرين كما حُقّق في مَقامه، وإلّا فمجرّدُ التوقّي عن المعاصي لا يكون مدارًا لشيء مِن العزائم المرخَّص في تركها، فكيف بالصبر المُشار إليه ورديفَيه، وإنّما مَدارُه المعنى المذكور، فكأنّه قيل: إنّ الله مع الذين صبروا.

وإنّما أوثرَ ما عليه النظم الكريم مبالغة في الحثّ على الصبر بالتنبيه على أنّه مِن خصائص أجلّ النعوت الجليلة وروادفه، كما أنّ قوله تعالى: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ للإشعار بأنّه مِن باب الإحسان الذي يتنافس فيه المتنافسون على ما فُعل ذلك حيث قيل: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود، ١١٥/١١]، وقد نُبّه على أنّ كلًّا مِن الصبر والتقوى مِن قبيل الإحسان في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف، ٩٠/١٢]. وحقيقة الإحسان الإتيان بالأعمال على الوجه اللائقِ الذي هو حُسنها الوصفي المستلزِم لحُسنها الذاتي، وقد فسّره صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «أن تعبُد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».[١]

[١] صحيح البخاري، ١٩/١ (٥٠)؛ صحيح مسلم، ٣٦/١ (٨).

وتكرير الموصول للإيذان بكفاية كلّ مِن الصلتين في ولايته سبحانه مِن غير أن تكون إحداهما تتمّة للأخرى، وإيرادُ الأولى فِعليّةً للدلالة على الحدوث، كما أنّ إيراد الثانية اسميّةً لإفادة كون مضمونها شِيمة راسخةً لهم. وتقديم التقوى على الإحسان لِما أنّ التخلية متقدِّمة على التحلية، والمراد بالموصولَين إمّا جنسُ المتّقين والمُحسنين وهو عليه السلام داخل في زُمرتهم دخولًا أوّليًا، وإمّا هو عليه السلام ومَن شايَعه، عُبّر عنهم بذلك مدحًا لهم وثناءً عليهم بالنعتَين الجميلَين. وفيه رمزٌ إلى أنّ صنيعَه عليه السلام مستتبع لاقتداء الأمّة به، كقول مَن قال لابن عبّاس رضي الله عنهما عند التعزية:

اصبِرْ نكنْ بك صابرِين فإنّما صَبْر الرعيّة عند صَبْر الراسِ[1]

عن هرِم بن حيّان أنّه قيل له حين الاحتضار: أوصِ، قال: إنّما الوصيّة مِن المال، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل. عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى[2] بما أنعَم عليه في دار الدنيا، وإن مات في يوم تلاها أو ليلة كان له مِن الأجر كالذي مات وأحسنَ الوصيّة».[3]

تمّت السورة الكريمة والحمد لله سبحانه أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.[4]

---

[1] وفي هامش م: بعده:

خيرٌ من العبّاس أجرُكَ بعده والله خيرٌ منك للعبّاسِ

والبيتان لأعرابي في **الدُّرّ الفريد** لابن آيدمر، ٤٠٣/٣.

[2] س - تعالى.

[3] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٩/١٦؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٤/٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٨٨/٢. وهو جزء من حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٢٥١/٢.

[4] س - تمّت السورة الكريمة والحمد لله سبحانه أوّلا آخرا وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين، والحمد لله ربّ العالمين؛ س + والحمد لله وحده. | وفي هامش م: وحسبنا الله تعالى ونِعْم الوكيلُ، وقَع الفراغ مِن التسويد في العاشر مِن رمضان الشريف سنة ٩٥٦.

/ سورة بني إسرائيل [٣٥٨و]

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما إنّها مكيّة غير قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء، ٧٣/١٧] إلى قوله تعالى ﴿سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء، ٨٠/١٧].[١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ عَلَم للتسبيح كـ"عُثمان" للرجل، وحيث كان المسمّى معنًى لا عَينًا وجنسًا لا شخصًا لم تكن إضافته مِن قبيل ما في "زيدُ المَعارِكِ" أو "حاتمُ طيّئ"، وانتصابه بفعل متروكِ الإظهار، تقديرُه: أسبِّح الله سبحانَ... إلخ. وفيه ما لا يخفى مِن الدلالة على التنزيه البليغ مِن حيث الاشتقاقُ مِن السَّبْح الذي هو: الذهاب والإبعاد في الأرض، ومنه "فرسٌ سَبوح"، أي: واسعُ الجَرْي، ومِن جهة النقل إلى التفعيل، ومِن جهة العدول مِن المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصّة لاسيّما وهو عَلَم يُشير إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن ومِن جهة قيامه مَقام المصدر مع الفعل.

وقيل: هو مصدر كـ"غُفران" بمعنى التنزّه، ففيه مبالغة مِن حيث إضافةُ التنزّه إلى ذاته المقدَّسة ومناسبة تامّة بين المحذوف وبين ما عُطف عليه في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾،[٢] كأنّه قيل: تنزّه بذاته وتعالى.

والإسراء: السَّير بالليل خاصّة كـ"السُّرى"، وقوله تعالى: ﴿لَيْلًا﴾ لإفادة قِلّة زمان الإسراء لِما فيه مِن التنكير الدالّ على البعضيّة مِن حيث الأجزاءُ دلالتَه على البعضيّة مِن حيثُ الأفراد، فإنّ قولك: "سِرتُ ليلًا" كما يفيد بعضيّة زمان سَيرك

---

[١] ط س: سورة بني إسرائيل، مكيّة، وهي مائة وعشرون آية.

[٢] الإسراء، ٤٣/١٧.

مِن الليالي يفيد بعضيّته مِن فرد واحد منها، بخلاف ما إذا قلتَ: "سرتُ الليلَ"، فإنّه يفيد استيعابَ السَّير له جميعًا، فيكون مِعيارًا للسَّير لا ظرفًا له، ويؤيِّده قراءة: "مِنَ اللَّيْلِ"،[١] أي: بعضِه.

وإيثارُ لفظ "العبد" للإيذان بتمحُّضه عليه السلام في عبادته سبحانه وبلوغه في ذلك غايةَ الغايات القاصية ونهايةَ النهايات النائية حسبما يلوِّح به مبدأ الإسراء ومنتهاه. / وإضافة التنزيه أو التنزّه إلى الموصول المذكور للإشعار [٣٥٨ظ] بعلّيّة ما في حيِّز الصلة للمضاف، فإنّ ذلك مِن أدلّة كمالِ قدرته وبالغِ حكمته ونهايةِ تنزُّهه عن صفات المخلوقين.

﴿مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ اختُلف في مبدأ الإسراء: فقيل: هو المسجد الحرام بعينه. وهو الظاهر؛ فإنّه رُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «بَيْنا أنا في المسجد الحرام في الحِجْر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريلُ عليه السلام بالبُراق»؛[٢] وقيل: هو دار أمّ هانئ بنت أبي طالب،[٣] والمراد بالمسجد الحرام الحرمُ لإحاطته بالمسجد والتباسه به، أو لأنّ الحرَم كلَّه مسجد، فإنّه رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه عليه الصلاة السلام كان نائمًا في بيت أمّ هانئ بعد صلاة العِشاء فكان ما كان فقصّه عليها، فلمّا قام ليخرُج إلى المسجد تشبّثتْ بثوبه عليه السلام لتمنعه خشيةَ أن يكذِّبه القوم، قال عليه السلام: «وإن كذّبوني». فلمّا خرج جلس إليه أبو جهل فأخبره عليه السلام بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: «يا معشر كعب بن لؤيّ بن غالب! هلُمّ فحدِّثْهم»،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٦.

٢ بلفظ قريب في **صحيح البخاري**، ١٠٩/٤ (٣٢٠٧)؛ **وصحيح مسلم**، ١٤٩/١ (٢٦٤)؛ **وجامع البيان** للطبري، ٤١٥/١٤؛ وهو بلفظه ههنا في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٥/٢.

٣ انظر: **جامع البيان** للطبري، ٤١٣/١٤؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ٥٧/٥. | هي فاختة بنت أبي طالب بنت عبد المطلب الهاشميّة القرشيّة، وقيل: اسمها هند، وقيل: فاطمة والأصحّ الأوّل، المشهورة بأمّ هانئ (ت. بعد ٤٠هـ/ بعد ٦٦١م). أخت أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، وابنة عمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. أسلمت عام الفتح بمكّة وهرب زوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي إلى نجران، وفرّق الإسلام بينهما وعاشت أيّمًا. روت أحاديثَ عن النبيّ عليه الصلاة والسلام، وماتت بعد أخيها عليًا، حدّث عنها ابنها جُعدة وابنه يحيى وغيرهم. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٣١٧/٨؛ **وسير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣١١/٢؛ **والأعلام** للزركلي، ١٢٦/٥.

فمِن مُصفِّق وواضعٍ يدَه على رأسه تعجُّبًا وإنكارًا، وارتدّ ناس ممّن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر فقال: «إن كان قال ذلك لقد صدَق»، قالوا: «أتُصدِّقه على ذلك؟» قال: «إنّي أُصدِّقه على أبعدَ مِن ذلك»، فسُمِّيَ الصدِّيق. وكان فيهم مَن يعرف بيت المَقدِس فاستنعتوه المسجِدَ فجُلّي له بيت المَقدِس فطفِق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: «أمّا النعت فقد أصاب». فقالوا: «أخبِرْنا عن عِيرنا»، فأخبرهم بعدد جِمالها وأحوالها، وقال: «تقدَم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدُمها جمل أورَقُ»،[1] فخرجوا يشتدُّون ذلك اليومَ نحو الثنيّة، فقال قائل منهم: «هذه والله الشمس قد أشرقت»، فقال آخرُ: «هذه والله العِيرُ قد أقبلت يقدُمها جمل أورقُ كما قال محمّد»، ثمّ لم يؤمنوا.[2] قاتلهم الله أنّى يؤفكون!

[٣٥٩و] / واختُلف في وقته أيضًا، فقيل: كان قبل الهجرة بسنة،[3] وعن أنس والحسن أنّه كان قبل البعثة.[4]

واختُلف أيضًا أنّه في اليقظة أو في المنام: فعن الحسن أنّه كان في المنام،[5] «وأكثرُ الأقاويل بخلافه».[6] والحقّ أنّه كان في المنام قبل البعثة وفي اليقظة بعدها.

واختُلف أيضًا أنّه كان جسمانيًا أو روحانيًا، فعن عائشةَ رضي الله عنها أنّها قالت: «ما فُقِد جسدُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ولكن عُرج بروحه».[7] وعن معاويةَ أنّه قال: «إنّما عُرج بروحه».[8] والحقُّ أنّه كان جسمانيًا على ما يُنبئ عنه التصدير بالتنزيه وما في ضمنه مِن التعجّب، فإنّ الرُّوحاني ليس في الاستبعاد والاستنكار وخَرق العادة بهذه المثابة، ولذلك تعجَّبت منه قريش وأحالوه،

---

[1] الأورَق: الأسمر. لسان العرب لابن منظور، «ورق».

[2] الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩٠/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٥٥/٢-٢٥٩.

[3] عن مقاتل في معالم التنزيل للبغوي، ٥٨/٥؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢.

[4] الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢.

[5] عنه بمعناه في جامع البيان للطبري، ٤٤٦/١٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢.

[6] الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢. ورجَّح ذلك الطبريُّ في جامع البيان، ٤٤٦/١٤؛ والبغويُّ في معالم التنزيل، ٥٨/٥.

[7] عنها بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٤٤٥/١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٨/٥؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢.

[8] عنه بمعناه في جامع البيان للطبري، ٤٤٥/١٤؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢.

ولا استحالةَ فيه، فإنّه قد ثبت في الهندسة أنّ قُطر الشمس ضِعف قُطر الأرض مائة ونيِّفًا وستّين مرّة، ثمّ إنّ طرَفها الأسفل يصل إلى موضع طرفها الأعلى بحركة الفَلك الأعظم مع معاوَقة حركة فلَكها لها في أقلَّ مِن ثانية، وقد تقرّر أنّ الأجسام متساوية في قَبول الأعراض التي مِن جُملتها الحركة، وأنّ الله سبحانه قادر على كلّ ما يحيط به حيطةَ الإمكان فيقدِر على أن يخلُق مِثل تلك الحركة؛ بل أسرعَ منها في جسد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو فيما يحمِله، ولو لم يكن مستبعَدًا لم يكن معجزة.

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ أي: بيتِ المَقدس، سُمّيَ به إذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد، وفي ذلك مِن تربية معنى التنزيه والتعجّب ما لا يخفى. ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ ببركات الدِّين والدنيا؛ لأنّه مَهبِط الوحي ومُتعبَّد الأنبياء عليهم السلام.

﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ غاية للإسراء، ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ العظيمة التي مِن جُملتها ذهابه في بُرهة مِن الليل مسيرةَ شهر، ولا يقدَح في ذلك[1] كونه قبل الوصول إلى المَقصِد ومشاهدةِ بيت المَقدِس وتمثُّل الأنبياء له ووقوفِه على مقاماتهم العليّة عليهم السلام. والالتفاتُ إلى التكلّم لتعظيم تلك البركات والآيات، وقُرئ: "لِيُرِيَهُ"[2] بالياء.

[٣٥٩ظ] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقواله عليه السلام بلا أذُن / ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بأفعاله بلا بصَر، حسبما يؤذِن به القَصْر، فيُكرِمه ويقرّبه بحسب ذلك. وفيه إيماء إلى أنّ الإسراء المذكور ليس إلّا لتكرِمته عليه السلام ورفعِ منزلته، وإلّا فالإحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة مِن غير حاجة إلى التقريب. والالتفاتُ إلى الغَيبة لتربية المَهابة.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة. وفيه إيماء إلى دعوته عليه السلام إلى الطُّور وما وقَع فيه مِن المناجاة جمعًا بين الأمرين المتّحدَين في المعنى، ولم يُذكر ههنا العُروج بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى السماء وما كان فيه

---

[1] وفي هامش م: في كون الذهاب المذكور من جملة الآيات. «منه».

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٧٦.

ممّا لا يُكتنه كُنهه حسبما نطقت به سورة النجم تقريبًا للإسراء إلى قَبول السامعين، أي: آتيناه التوراةَ بعد ما أسرَينا به إلى الطُّور.

﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: ذلك الكتابَ ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يهتدون بما في مَطاويه: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾ بالتاء[1] على "أي[2] لا تتّخذوا" نحو "كتبتُ إليه أن افعلْ كذا"، وقرئ بالياء[3] على أنّ "أنْ" مصدريّة، والمعنى: آتينا موسى الكتاب لهِداية بني إسرائيلَ لئلّا يتّخذوا ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي: ربًّا تكِلون إليه أموركم، والإفرادُ لِما أنّ "فعيلًا" مفرَد في اللفظ جَمْع في المعنى.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء على قراءة النهي، والمرادُ تأكيد الحَمْل على التوحيد بتذكير إنعامه تعالى عليهم في ضمن إنجاء آبائهم مِن الغرق في سفينة نوحٍ عليه السلام،[4] أو على أنّه أحد مفعولَي "لَا يَتَّخِذُوا" على قراءة النفي،[5] و﴿مِن دُونِى﴾[6] حال مِن ﴿وَكِيلًا﴾،[7] فيكون كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران، ٣/٨٠].

وقُرئ بالرفع[8] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أو بدل مِن واو ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾[9] بإبدال الظاهرِ مِن ضمير المخاطَب كما هو مذهب بعض البغادِدَة،[10] وقرئ: "ذِرِّيَّةَ"[11] بكسر الذال.

---

[1] ط س - بالتاء. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[2] ط س: بأن. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س. | ويريد المُصنّف أنّ "أن" مفسّرة، ولذلك جاء بـ"أي" المفسّرة هنا.

[3] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٦.

[4] وفي هامش م: فإنّ عيسى وعُزيرًا من ذرّيّة المحمولين مع نوحٍ في الفُلك. «منه».

[5] يعني قراءة الغيبة، وليس فيها نفي؛ بل نهي كقراءة الخِطاب. انظر: الحُجّة لأبي عليّ، ٥/٨٣-٨٥.

[6] في الآية السابقة.

[7] في الآية السابقة.

[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٨.

[9] في الآية السابقة.

[10] وفي هامش م: ومن ضمير الغائب على قراءة "لَا يَتَّخِذُوا" بالياء التحتانيّة. «منه». | انظر: اللباب لابن عادل، ١٢/٢٠٧.

[11] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن ثابت والأعمش وأبان بن عثمان. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٢١.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: إنّ نوحًا عليه السلام ﴿كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ كثيرَ الشُّكر في مَجامع حالاته. وفيه / إيذانٌ بأنّ إنجاء مَن معه كان ببركة شُكره عليه السلام، وحثٌّ للذرّيّة على الاقتداء به، وزجرٌ لهم عن الشِّرك الذي هو أعظم مراتب الكُفران. وقيل: الضمير لموسى عليه السلام.[1] [٣٦٠و]

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤﴾

﴿وَقَضَيۡنَآ﴾ أي: أتممنا وأحكمنا مُنزِلين ﴿إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أو مُوحين إليهم ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: في التوراة، فإنّ الإنزال والوحيَ إلى موسى عليه السلام إنزال ووحيٌ إليهم، ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جوابُ قَسَم محذوف. ويجوز إجراء القضاء المحتوم مُجرى القسَم، كأنّه قيل: وأقسمنا لتُفسِدُنَّ ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾ مصدر، والعاملُ فيه مِن غير جنسه. أُولاهما: مخالفة حُكم التوراة وقَتْل شعيا عليه السلام وحبسُ أرميا حين أنذرهم سخط الله تعالى، والثانية: قَتْل زكريّا ويحيى وقَصْد قَتْل عيسى عليهم السلام.[2]

﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ لتَستكبِرُنّ عن طاعة الله سبحانه، أو لتَغلِبُنّ الناس بالظلم والعدوان وتُفرِطُنّ في ذلك إفراطًا مُجاوِزًا للحدود.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥﴾

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: أُولى كرّتَي الإفساد، أي: حان وقت حلول العقاب الموعود ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ لمؤاخذتكم بجناياتكم ﴿عِبَادٗا لَّنَآ﴾، وقرئ: "عَبِيدًا لَنَا"،[3] ﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ ذوي قوّة وبطش في الحروب، هم سنجاريبُ

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٩١.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٧٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وعليّ بن الحسين وزيد بن عليّ والحسن البصري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٨؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٧.

مِن أهل نينوى وجنودُه.[١] وقيل: بُخْتَ نَصَّرُ عاملُ لُهْرَاسْب.[٢] وقيل: جالوتُ.[٣]

﴿فَجَاسُواْ﴾ أي: تردّدوا لطلبكم بالفساد. وقرئ بالحاء[٤] والمعنى واحد، وقرئ: "وَجَوَّسُوا"[٥] ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ في أوساطها للقتل والغارة، وقرئ: "خَلَلَ الدِّيَارِ"،[٦] فقتلوا علماءهم وكبارهم وأحرقوا التوراةَ وخرَّبوا المسجد وسَبَوا منهم سبعين ألفًا، وذلك مِن قبيل تَولية بعضِ الظالمين بعضًا ممّا جرت به السُّنّة الإلهيّة. ﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿وَعۡدٗا / مَّفۡعُولٗا﴾ لا محالةَ، بحيث لا صارفَ عنه ولا مبدِّلَ. [٣٦٠ظ]

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ﴾ أي: الدولةَ والغلَبة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على الذين فعلوا بكم ما فعلوا بعد مائة سنة حين تُبتُم ورجعتُم عمّا كنتُم عليه مِن الإفساد والعلُوّ. قيل: هي قتل بُخْتَ نَصَّرَ واستنقاذ بني إسرائيلَ أُساراهم وأموالَهم ورجوعُ المُلْك إليهم،[٧] وذلك أنّه لمّا ورِث بهمنُ بنُ إسفنديارَ المُلكَ مِن جدّه كشتاسف بن لهراسف ألقى الله تعالى في قلبه الشفقة عليهم فردّ أُساراهم إلى الشام

---

[١] مَرويّ عن سعيد بن جبير في **جامع البيان** للطبري، ٤٧٢/١٤؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٧٩/٥؛ وبلا نسبة في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٧/٢.

[٢] مَرويّ عن سعيد بن جبير وسعيد بن المسيّب في **جامع البيان** للطبري، ٤٧٢/١٤-٤٧٥؛ وعن ابن إسحاق في **معالم التنزيل** للبغوي، ٧٩/٥؛ وبلا نسبة في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٧/٢. | لُهْرَاسب بن قنوج بن كيمس بن كيناس بن كيناسة بن كيقباذ، مِن ملوك الفرس، حين وضع التاج اتّخذ سريرًا مِن ذهب مكلّلًا بأنواع الجواهر للجلوس عليه، وأمر فبُنيت له بأرض خراسان مدينة بلخ وسمّاها الحسناء، ودوّن الدواوين وقوّى ملكه، وأحسن السيرة لرعيّته، وشملهم عدله، وكان ملكه مائة وعشرين سنةً، وفي أيّامه ظهر زرادشت بن سقيمان الذي ادّعى النبوّة وتبعه المجوس. انظر: **الكامل** لابن الأثير، ٢٥٨/١؛ و**مروج الذهب** للمسعودي، ٢٥١/١.

[٣] مَرويّ عن ابن عبّاس وقتادة في **جامع البيان** للطبري، ٤٧١/١٤-٤٧٢؛ وعن قتادة في **معالم التنزيل** للبغوي، ٧٩/٥؛ وعن ابن عبّاس في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٧/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وطلحة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٧؛ **المغني في القراءات** للنَّوْزاوازي، ص ١١٢٣.

[٥] لم أجِدها فيما وقفتُ عليه من كتب القراءات والتفسير. وفيها قراءة قريبة: "فَجَوَّسُوا"، وهي قراءة شاذّة، غير منسوبة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٧.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٧.

[٧] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٨/٢.

وملّك عليهم دانيال عليه السلام فاستولَوا على مَن كان فيها مِن أتباع بُخْتَ نَصَّرَ. وقيل: هي قتلُ داودَ عليه السلام لجالوت.[١]

﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ كثيرة بعدما نُهبت أموالكم، ﴿وَبَنِينَ﴾ بعدما سُبيَت أولادكم،[٢] ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ممّا كنتم مِن قبل، أو مِن عدوّكم. والنفيرُ: مَن ينفِر مع الرجُل مِن قومه، وقيل: جمعُ "نفَر" وهم القوم المجتمعون للذهاب إلى العدو كـ"العَبيد" و"المَعيز".[٣]

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ أعمالكم سواء كانت لازمةً لأنفسكم أو متعدِّية إلى الغير، أي: عمِلتموها على الوجه اللائق ولا يُتصوَّر ذلك إلّا بعد أن تكون الأعمال حسنةً في أنفسها، وإن فعلتُم الإحسان ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾؛ لأنّ ثوابها لها. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أعمالَكم بأن عمِلتموها لا على الوجه اللائق، ويلزَمه السوء الذاتي، أو فعلتم الإساءة ﴿فَلَهَا﴾ إذ عليها وبالُها، وعن عليّ كرّم الله تعالى وجهه: «ما أحسنتُ إلى أحد ولا أسأتُ إليه»، وتلاها.[٤]

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ حان وقت ما وُعد مِن عقوبة المَرّة الآخرة ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ متعلِّق بفعل حُذف لدلالة ما سبَق عليه، أي: بعثناهم ليسوءوا، ومعنى ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾: ليجعلوا آثار المَساءة والكآبة بادية في وجوهكم، كقوله تعالى: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك، ٦٧/٢٧] / وقرئ: "لِيَسُوءَ"[٥] على أنّ الضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث، و"لِنَسُوءَ"[٦] بنون العظمةِ، وفي قراءة عليّ رضي الله تعالى عنه: "لَنَسُوأَنَّ"[٧] على أنّه جوابُ ﴿إِذَا﴾، وقُرئ: [٣٦١و]

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٢.
[٢] وفي هامش م: فيه كلام في تقديم الأموال على البنين كما في سورة الكهف.
[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٢.
[٤] له في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٢. ولم أقف عليه في مظانّه.
[٥] قرأ بها ابن عامر وحمزة وأبو بكر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.
[٦] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.
[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وأُبيّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٩.

"لنَسُوأنْ"[١] بالنون الخفيفة، و"لَيَسُوأَنّ".[٢] و"اللام" في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾ عطفٌ على ﴿لِيَسُـُٔواْ﴾ متعلِّق بما تعلَّق هو به. ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ أي: في أوّل مرّة.

﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ أي: يُهلِكوا ﴿مَا عَلَوۡاْ﴾ ما غلبوه واستولَوا عليه، أو مدّةَ علُوّهم، ﴿تَتۡبِيرًا﴾ فظيعًا لا يُوصَف، بأن سلّط الله عزّ سلطانه عليهم الفُرس فغزاهم مَلِك بابِلَ مِن ملوك الطوائف اسمُه جودرد، وقيل: جردوس. وقيل: دخل صاحب الجيش فذبح قرابينهم فوجد فيه دمًا يغلي فسألهم عنه، فقالوا: «دم قُربان لم يُقبَل منّا»، فقال: «لم تصْدُقوني»، فقتَل على ذلك ألوفًا فلم يهدأ الدم، ثمّ قال: «إن لم تصْدُقوني ما تركتُ منكم أحدًا»، فقالوا: «إنّه دم يحيى بن زكريّا عليهما السلام»، فقال: «لمِثل هذا ينتقم منكم ربُّكم»، ثمّ قال: «يا يحيى قد علِم ربّي وربُّك ما أصاب قومَك مِن أجلك، فاهدأ بإذن الله قبل ألّا أُبقيَ منهم أحدًا»، فهدأ.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡ﴾ بعد المرّة الآخرة إن تبتُم توبةً أخرى وانزجرتُم عمّا كنتم عليه مِن المعاصي. ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ﴾ إلى ما كنتم فيه مِن الفساد مرّة أخرى ﴿عُدۡنَا﴾ إلى عقوبتكم، ولقد عادوا فأعاد الله سبحانه عليهم النقمة بأن سلَّط عليهم الأكاسرة ففعلوا بهم ما فعلوا مِن ضَرْب الإتاوة ونحو ذلك. وعن الحسن: «عادوا فبعث الله تعالى محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم، فهم يُعطُون الجزيةَ عن يد وهم صاغرون».[٣] وعن قتادة مثلُه.[٤]

﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مَحبِسًا لا يستطيعون الخروج منها أبدَ الآبدين. وقيل: بِساطًا كما يُبسَط الحصير.[٥] وإنّما عُدل عن أن يقال: وجعلنا جهنمّ لكم؛ تسجيلًا على كفرهم بالعَود وذمًّا لهم بذلك وإشعارًا بعِلّة الحُكم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٧.

٣ عنه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٢.

٤ عنه في جامع البيان للطبري، ٥٠٦/١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨٠/٥.

٥ مرويّ عن الحسن في جامع البيان للطبري، ٥٠٨/١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨٠/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٢.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي آتيناكَهُ ﴿يَهْدِى﴾ أي: الناسَ كافّة لا فِرقة مخصوصة منهم / كدأب الكتاب الذي آتيناه موسى. ﴿لِلَّتِى﴾ للطريقة التي ﴿هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: أقومُ الطرائق وأسدُّها، أعني ملّة الإسلام والتوحيد. وتركُ ذِكرها ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخَصلة ونحوِها ممّا يُعبَّر به عن المَقصِد المذكور؛ بل للإيذان بالغِنى عن التصريح بها لغاية ظهورها، لاسيّما بعد ذِكر الهداية التي هي مِن رَوادفها. والمراد بهدايته لها كونه بحيث يهتدي إليها مَن يتمسّك به، لا تحصيلُ الاهتداء بالفعل، فإنّه مخصوص بالمؤمنين حينئذ. [٣٦١ظ]

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما في تضاعيفه مِن الأحكام والشرائع، وقُرئ بالتخفيف.[١] ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي شُرِحت فيه ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنّ لهم بمقابلة تلك الأعمال ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ بحسب الذات وبحسب التضعيف عشرَ مرّات فصاعدًا.[٢]

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وأحكامِها المشروحة فيه مِن البعث والحساب والجزاء. وتخصيصُها بالذِّكر مِن بين سائر ما كفروا به لكونها مُعظمَ ما أُمِروا بالإيمان به، ولمراعاة التناسُب بين أعمالهم وجزائها الذي أنبأ عنه قولُه عزّ وجلّ: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عذاب جهنّم، أي: أعتدنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجوده مِن الآخرة عذابًا أليمًا، وهو أبلغ في الزجر؛ لِما أنّ إتيانَ العذاب مِن حيث لا يُحتسَب أفظعُ وأفجعُ. والجملة معطوفة على جملة ﴿يُبَشِّرُ﴾[٣] بإضمار "يُخبر"، أو على قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾،[٤] داخلةٌ معه تحت التبشير المرادِ به مجازًا مطلقُ الإخبار المنتظمِ للإخبار بالخبر السارّ،

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٩.
[٢] س - فصاعدًا.
[٣] في الآية السابقة.
[٤] في الآية السابقة.

وبالنبأ الضارّ حقيقةً، فيكون ذلك بيانًا لهداية القرآن بالترغيب والترهيب، ويجوز كون التبشير بمعناه، والمرادُ تبشير المؤمنين ببشارتين: ثوابِهم وعقابِ أعدائهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ بيان لحال المَهديّ إثرَ بيان حال الهادي، وإظهارٌ لِما بينهما مِن التباين، والمرادُ بـ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الجنس، أُسنِد إليه حالُ بعض أفراده أو حُكي عنه حالُه في بعض أحيانه:

فالمعنى / على الأوّل: أنّ القرآن يدعو الإنسان إلى الخير الذي لا خيرَ فوقه [٣٦٢و] مِن الأجر الكبير، ويُحذِّره مِن الشرّ الذي لا شرَّ وراءه مِن العذاب الأليم، وهو، أي: بعض منه وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو الشرّ مِن العذاب المذكور: إمّا بلسانه حقيقةً، كدأب مَن قال منهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال، ٣٢/٨]، ومَن قال: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود، ٣٢/١١] إلى غير ذلك ممّا حُكيَ عنهم؛ وإمّا بأعمالهم السيّئة المُفضية إليه الموجِبة له مجازًا، كما هو ديدن كلِّهم.

﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي: مثلَ دعائِه بالخير المذكور فرضًا لا تحقيقًا، فإنّه بمَعزِل مِن الدعاء به، وفيه رمز إلى أنّه اللائق بحاله.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: مَن أُسنِد إليه الدعاء المذكور مِن أفراده ﴿عَجُولًا﴾ يُسارع إلى طلب كلّ ما يخطر بباله متعاميًا عن ضرره، أو مبالغًا في العجلة يستعجل العذابَ وهو آتيه لا محالةَ، ففيه نوعُ تهكُّم به. وعلى تقدير حَمْل الدعاء على أعمالهم تُحمَل العَجوليّة على اللَّجّ والتمادي في استيجاب العذاب بتلك الأعمال.

وعلى الثاني: أنّ القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير، وهو في بعض أحيانه كما عند الغضبِ يدعُه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شرّ، وكان الإنسان بحسب جِبِلّته عجولًا ضَجِرًا لا يتأنّى إلى أن يزول عنه ما يعتريه. رُوي أنّه عليه السلام دفع إلى سَوْدةَ أسيرًا فأَرْخَت كِتافه رحمة لأنينه بالليل مِن ألم القِدّ فهرَب، فلمّا أخبرَت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «اللّهمّ اقطع يديها»، فرفعت سَوْدةُ يديها تتوقّع الإجابة، فقال عليه السلام: «إني سألتُ الله تعالى

أن يجعَل دعائي على مَن لا يستحقّ مِن أهلي عذابًا رحمةً».[١] أو يدعو بما هو شرّ[٢] وهو يحسبه خيرًا، وكان الإنسان عجولًا غيرَ متبصّر لا يتدبّر في أموره حقّ التدبّر ليتحقّق ما هو خير حقيق بالدعاء به، وما هو شرّ جدير بالاستعاذة منه.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ۝١٢﴾

[٣٦٢ظ] ﴿وَجَعَلْنَا / ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ شروع في بيان بعض وجوه ما ذُكر مِن الهداية بالإرشاد إلى مَسلَك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقيّة التي كلّ واحدة منها برهانٌ نيّر لا ريبَ فيه ومنهاجٌ بيّن لا يضِلّ مَن ينتحيه، فإنّ الجعل المذكور وما عُطف عليه مِن مَحْو آية الليل وجَعْل آية النهار مبصرة وإن كانت مِن الهدايات التكوينيّة لكنّ الإخبار بذلك مِن الهدايات القرآنيّة المنبِهة على تلك الهدايات.

وتقديمُ ﴿ٱلَّيْلَ﴾ لمراعاة الترتيب الوجوديّ؛ إذ منه ينسلِخ النهار وفيه تظهَر غُرَر الشهور، ولو أنّ الليلة أضيفت إلى ما قبلها مِن النهار لكانت مِن شهر وصاحبُها مِن شهر آخرَ، ولترتيبِ غاية آية النهار[٣] عليها بلا واسطة، أي: جعلنا المَلَوَين[٤] بهَيآتهما وتعاقُبهما واختلافهما في الطُول والقِصَر على وتيرة عجيبة يحار في فهمها العقولُ آيتين تدلّان على أنّ لهما صانعًا حكيمًا قادرًا عليمًا، وتهديان إلى ما هدى إليه القرآن الكريم مِن ملّة الإسلام والتوحيد.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ الإضافة إمّا بيانيّة كما في إضافة العدد إلى المعدود، أي: محَوْنا الآية التي هي الليل. وفائدتها تحقيق مضمون الجملة السابقة، ومحوُها جَعْلها ممحُوّة الضوء مطموسَته، لكن لا بَعدَ أن لم تكن كذلك؛ بل إبداعها على ذلك كما في قولهم: "سبحان مَن صغّر البعوضَ وكبّر الفيل"، أي:

---

[١] بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٩/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩٤/٢. ولم أجده في مظانّه.

[٢] السياق: يدعو الله تعالى لنفسه... أو يدعو...

[٣] وفي هامش م: وهي قوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُواْ﴾ الآية.

[٤] الملوان: الليل والنهار. لسان العرب لابن منظور، «ملا».

أنشأهما كذلك. و"الفاء" تفسيريّةٌ؛ لأنّ المحو المذكور وما عُطف عليه ليسا ممّا يحصل عَقيبَ جعل الجديدين آيتين؛ بل هما مِن جملة ذلك الجَعْل ومُتمِّماته.

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: الآية التي هي النهار على نحو ما مرّ، ﴿مُبْصِرَةً﴾ مُضيئة يُبصَر فيها الأشياءُ وصفًا لها بحال أهلها، أو مبصِرةً للناس مِن "أبصَره فبَصُر".

وإمّا حقيقيّة،[١] وآية الليل والنهار نيّراهما، ومَحْوُ القمر إمّا خَلْقُه مطموسَ النور في نفسه فـ"الفاء" / كما ذُكر، وإمّا نقصُ ما استفاده مِن الشمس شيئًا فشيئًا إلى المِحاق[٢] على ما هو معنى المحو، و"الفاء" للتعقيب، وجعلُ الشمس مُبصِرةً إبداعُها مضيئة بالذات ذاتَ أشعّة تظهَر بها الأشياء المظلمة. [٣٦٣و]

﴿لِتَبْتَغُواْ﴾ متعلّق بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ كما أشيرَ إليه، أي: وجعلناها مضيئة لتطلُبوا لأنفسكم في بياض النهار ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: رزقًا، إذ لا يتسنّى ذلك في الليل. وفي التعبير عن الرزق بـ"الفضل" وعن الكسب بـ"الابتغاء" والتعرّضِ لصفة الربوبيّة المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئًا فشيئًا دلالةٌ على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثيرٌ سوى الطلب، وإنّما الإعطاء إلى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه؛ بل تفضّلًا بحُكم الربوبيّة.

﴿وَلِتَعْلَمُواْ﴾ متعلّق بكلا الفعلين، أعني مَحْو آية الليل وجعلَ آية النهار مُبصِرة لا بأحدهما فقط، إذ لا يكون ذلك بانفراده مدارًا للعِلم المذكور، أي: لتعلموا بتفاوت الجديدَين[٣] أو نيّرَيهما ذاتًا مِن حيث الإظلامُ والإضاءة مع تعاقُبهما أو حركاتهما وأوضاعهما وسائر أحوالِهما ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ التي يتعلّق بها غرض عِلمي لإقامة مصالحكم الدينيّة والدنيويّة، ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: الحسابَ المتعلّق بما في ضمنها مِن الأوقات، أي: الأشهرَ والليالِيَ والأيّامَ وغير ذلك ممّا نِيط به شيء مِن المصالح المذكورة. ونفسُ السَّنة مِن حيث تحقّقها ممّا ينتظِمه الحساب، وإنّما الذي تعلّق به العدّ طائفة منها، وتعلُّقه في ضمن ذلك

---

[١] السياق: الإضافة إمّا بيانيّة... وإمّا حقيقيّة...

[٢] المِحاق والمُحاق: آخر الشهر، إذا امّحق الهلال فلم يُرَ. لسان العرب لابن منظور، «محق».

[٣] الجديدان: الليل والنهار؛ لأنّهما لا يبليان أبدًا. لسان العرب لابن منظور، «جدد».

بكلّ واحدة منها ليس مِن الحيثيّة المذكورة، أعني حيثيّةَ تحققها وتحصّلها مِن عدّة أشهر قد يحصُل كلّ واحد منها مِن عدّة أيّام قد حصل كلّ منها بطائفة مِن الساعات مثلًا، فإنّ ذلك وظيفة الحساب؛ بل مِن حيث إنّها فرد مِن تلك الطائفة المعدودة / يعدّها، أي: يُفنيها مِن غير أن يعتبر في ذلك تحصُّل شيء معيَّن. [٣٦٣ظ]

وتحقيقه ما مرّ في سورة يونسَ،[1] مِن أنّ الحِساب: إحصاء ما له كمّيّة منفصلة بتكرير أمثاله مِن حيث يتحصَّل بطائفة معيَّنة منها حدٌّ معيَّن منه له اسم خاصّ وحُكم مستقلّ، كما أشيرَ إليه آنفًا، والعَدّ: إحصاؤه بمجرَّد تكرير أمثاله مِن غير أن يتحصَّل منه شيء كذلك. ولِما أنّ السنين لم يُعتبَر فيها حدّ معيَّن له اسم خاصّ وحُكم مستقلّ أضيفَ إليها العدد وعُلِّق الحساب بما عداها ممّا اعتُبر فيه تحصُّل مراتبَ معيَّنة لها أسام خاصّة وأحكام مستقلّة، وتحصّلُ مراتب الأعداد مِن العشرات والمئات والألوف اعتباري لا يجدي في تحصّل المعدودات.

وتقديم "العدد" على ﴿ٱلْحِسَابَ﴾، مع أنّ الترتيب بين متعلَّقَيهما وجودًا وعِلمًا على العكس، للتنبيه مِن أوّل الأمر على أنّ متعلِّق الحساب ما في تضاعيف السنين مِن الأوقات، أو لأنّ العِلم المتعلِّق بعدد السنين عِلم إجمالي بما تعلَّق به الحساب تفصيلًا، أو لأنّ العدد مِن حيث إنّه لم يُعتبَر فيه تحصُّل شيء آخرَ منه، حسبما ذُكر، نازلٌ مِن الحساب المُعتبَر فيه ذلك منزلةَ البسيط مِن المركَّب، أو لأنّ العِلم المتعلِّق بالأوّل أقصى المراتب، فكان جديرًا بالتقديم في مقام الامتنان، والله سبحانه أعلمُ.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ تفتقرون إليه في المعاش والمعاد سوى ما ذُكر مِن جَعْل الليل والنهار آيتين وما يتبعه مِن المنافع الدينيّة والدنيويّة، وهو منصوب بفعل يفسّره قوله تعالى: ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي: بيّناه في القرآن الكريم بيانًا بليغًا لا التباسَ معه، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل، ٨٩/١٦]، فظهر كونه هاديًا للتي هي أقوم ظهورًا بيّنًا.

---

[1] في تفسير الآية الخامسة منها.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣﴾

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ﴾ مكلَّفٍ ﴿أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ أي: عملَه الصادر عنه باختياره حسبما قُدِّر له كأنّه طار إليه مِن عُشّ الغيب ووَكْر القدَر، / أو ما وقَع له في القِسمة الأزليّة الواقعة حسب استحقاقه في العِلم الأزلي مِن قولهم: "طار له سهمٌ كذا". ﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾ تصوير لشِدّة اللزوم وكمالِ الارتباط، أي: ألزمناه عمله بحيث لا يفارقه أبدًا بل يلزَمه لزومَ القِلادة أو الغُلّ للعنق لا ينفكّ عنه بحال، وقرئ بسكون النون.[1] [٣٦٤و]

﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ﴾ بنون العظمة، وقد قُرئ بالياء مبنيًّا للفاعل[2] على أنّ الضمير لله عزّ وجلّ، وللمفعول[3] والضمير لـ"الطائر"، كما في قراءة: "يَخْرُجُ"[4] مِن "الخروج". ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ والبعث للحساب ﴿كِتَٰبٗا﴾ مسطورًا فيه ما ذُكر مِن عمله نقيرًا وقِطميرًا، وهو مفعول لـ﴿نُخۡرِجُ﴾ على القراءتين الأُوليين، أو حال مِن المفعول المحذوف الراجع إلى الطائر، وعلى الأخيرَتين حال مِن المستتِر في الفعل مِن ضمير "الطائر".

﴿يَلۡقَىٰهُ﴾ أي: يلقى الإنسانَ أو يلقاه الإنسانُ ﴿مَنشُورًا﴾ وهما صفتان للكتاب، أو الأوّل صفة والثاني حال منها. وقرئ: "يُلَقَّاهُ"[5] مِن "لقَّيتُه كذا"، أي: يُلقَّى الإنسان إيّاه. قال الحسن: «بُسِطت لك صحيفة ووُكِّل بك ملَكان فهما عن يمينك وعن شمالك، فأمّا الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأمّا الذي عن شمالك فيحفظ سيّئاتك، حتّى إذا مُتَّ طُويت صحيفتُك، وجُعلت معك في قبرك حتّى تُخرَجَ لك يوم القيامة».[6]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أحمد بن موسى واللؤلئي عن أبي عمرو. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٧٩، **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٨.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وهارون عن أبي عمرو. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٨؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٢٦.

[3] قرأ بها أبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

[4] قرأ بها يعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

[5] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

[6] **جامع البيان** للطبري، ٥٢٤/١٤؛ **والتفسير البسيط** للواحدي، ٢٧٩/١٣؛ **واللباب** لابن عادل، ٢٢٧/١٢.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ١٤﴾

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ أي: قائلين ذلك، عن قتادة: «يقرأ ذلك اليومَ مَن لم يكن في الدنيا قارئًا».[1] وقيل: المراد بـ"الكتاب" نفسُه المنتقشةُ بآثار أعماله،[2] فإنّ كلّ عمل يصدُر مِن الإنسان خيرًا أو شرًّا يحدُث منه في جوهر روحِه أمرٌ مخصوص، إلّا أنّه يخفى ما دام الروحُ متعلِّقًا بالبدن مشتغِلًا بواردات الحواسّ والقُوى، فإذا انقطعت علاقتُه عن البدن قامت قيامته؛ لأنّ النفس كانت ساكنة مستقرّة في الجسد، وعند ذلك قامت وتوجّهت نحو الصعود / إلى العالم [٣٦٤ظ] العُلوي، فيزول الغطاء وتنكشِف الأحوال ويظهر على لَوح النفس نقش كلِّ شيء عمِلَه في مدّة عمره، وهذا معنى الكتابة والقراءة.

﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي: كفى نفسُك، و"الباء" زائدة، و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف لـ﴿كَفَىٰ﴾، و﴿حَسِيبًا﴾ تمييز و"على" صلتُه؛ لأنّه بمعنى الحاسب، كـ"الصريم" بمعنى "الصارم"، مِن "حسَب عليه كذا"، أو بمعنى الكافي، وُضِع موضعَ الشهيد؛ لأنّه يكفي المُدّعيَ ما أهمّه. وتذكيره لأنّ ما ذُكر مِن الحساب والكفاية ممّا يتولّاه الرجال، أو لأنّه مبنيّ على تأويل "النفس" بـ"الشخص" على أنّها عبارة عن نفس المذكِّر، كقول جَبَلَةَ بن حُرَيث:

يا نفسُ إنّك باللذّات مسرورُ فاذكُر فهل يَنفعَنْكَ اليومَ تذكيرُ[3]

﴿مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ١٥﴾

﴿مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ فَذلكَة لِما تقدّم مِن بيان كون القرآن هاديًا لأقوَم الطرائق ولزومِ الأعمال لأصحابها، أي: مَن اهتدى بهدايته وعمِل بما في تضاعيفه مِن الأحكام وانتهى عمّا نهاه عنه فإنّما يعود منفعةُ اهتدائه إلى نفسه،

---

[1] جامع البيان للطبري، ١٤/٥٢٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ٥/٨٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٠؛

[2] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٩٤.

[3] البيت لجَبَلة في شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي، ١/٣٦١؛ وشرح أبيات المغني للبغدادي، ٢/١٦٨، ورواية صدره فيهما:

يا قلبُ إنّك في أسماءَ مغرورُ

وما وجدته بالرِّواية التي أوردَها المؤلِّف ههنا.

لا تتخَطاه إلى غيره ممّن لم يهتدِ. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الطريقة التي يهديه إليها ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فإنّما وبال ضلاله عليها لا على مَن عداه ممّن لم يباشره حتّى يمكن مفارقةُ العمل صاحبَه.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تأكيد للجملة الثانية، أي: لا تحمل نفس حاملةٌ للوِزر وِزرَ نفس أخرى حتّى يمكن تخلُّص النفس الثانية عن وِزرها ويختلَّ ما بين العامل وعمَله مِن التلازم؛ بل إنّما تحمل كلّ منها وِزرها، وهذا تحقيق لمعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء، ١٣/١٧].

وأمّا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء، ٨٥/٤]، وقولُه تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل، ٢٥/١٦] مِن حَمْل الغير وِزر الغير وانتفاعِه بحسنته وتضرُّره بسيّئته فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسِه وتضرُّر بسيّئته، / فإنّ جزاء الحسنة والسيّئة اللتين يعمَلهما العامل لازمٌ له. وإنّما الذي يصِل إلى مَن يشفع جزاءُ شفاعته لا جزاءُ أصل الحسنة والسيّئة، وكذلك جزاءُ الضلال مقصور على الضالّين، وما يحمِله المُضلُّون إنّما هو جزاء الإضلال لا جزاء الضلال. [٣٦٥و]

وإنّما خُصّ التأكيد بالجملة الثانية قطعًا للأطماع الفارغة، حيثُ كانوا يزعُمون أنّهم لم يكونوا على الحقّ، فالتبِعة على أسلافهم الذين قلّدوهم.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ بيان للعناية الربانيّة إثرَ بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها وعدم حِرمان المهتدي مِن ثمرات هدايته وعدمِ مؤاخذة النفس بجِناية غيرها، أي: وما صحّ وما استقام منّا، بل استحال في سنّتنا المبنيّة على الحِكَم البالغة، أو ما كان في حُكمنا الماضي وقضائِنا السابق أن نعذِّب أحدًا مِن أهل الضلال والأوزار اكتفاءً بقضيّة العقل ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ﴾ إليهم ﴿رَسُولًا﴾ يهديهم إلى الحقّ ويردَعهم عن الضلال، ويُقيم الحُجج ويمهِّد الشرائع حسبما في تضاعيف الكتاب المنزَل عليه.

والمراد بالعذاب المنفيّ إمّا عذابُ الاستئصال، كما قاله الشيخ أبو منصور الماتريدي[١] رحمه الله،[٢] وهو المناسِب لِما بعده، أو الجنسُ الشامل للدنيوي والأخروي وهو مِن أفراده. وأيًّا ما كان فالبعثُ غاية لعدم صحّة وقوعه في وقته المقدَّر له لا لعدم وقوعه مطلقًا، كيف لا، والأخرويُّ لا يمكن وقوعه عَقيبَ البعث، والدنيويُّ أيضًا لا يحصُل إلّا بعد تحقّق ما يوجِبه مِن الفسق والعصيان، ألا يُرى إلى قوم نوحٍ كيف تأخَّر عنهم ما حلّ بهم زُهاءَ ألف سنة.

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ بيان لكيفيّة وقوع التعذيب بعد البعثة التي جُعلت غاية لعدم صحّته، وليس المراد بالإرادة / تحقُّقها بالفعل إذ لا [٣٦٥ظ] يتخلّف عنها المراد، ولا الإرادة الأزليّة المتعلِّقة بوقوع المراد في وقته المقدَّر له، إذ لا يقارنها[٣] الجزاء الآتي؛ بل دنوّ وقتها كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل، ١/١٦]، أي: وإذا دنا وقت تعلُّق إرادتنا بإهلاك قرية بأن نعذِّب أهلها بما ذكرنا[٤] مِن عذاب الاستئصال الذي بيَّنّا أنّه لا يصحّ منّا قبل البعثة، أو بنوع[٥] ممّا ذكرنا شأنه مِن[٦] مطلَق العذاب، أعني: عذاب الاستئصال،[٧] لِما لهم مِن الظلم والمعاصي دنوًّا يقتضيه الحكمة مِن غير أن يكون له حدٌّ معيَّن.

﴿أَمَرۡنَا﴾ بواسطة الرسول المبعوث إلى أهلها ﴿مُتۡرَفِيهَا﴾ متنعِّميها وجبّاريها وملوكها، خصّهم بالذِّكر مع توجّه الأمر إلى الكلّ؛ لأنّهم الأصول في الخطاب والباقي أتباع لهم، ولأنّ توجّه الأمر إليهم آكَد. وعدمُ التعرّض للمأمور به

---

[١] هو محمّد بن محمّد بن محمود الماتُريدي السمرقندي، أبو منصور (ت. ٣٣٣هـ/٩٤٤م). مِن أئمّة علماء الكلام. نسبته إلى ماتُريد محلّة بسمرقند، ومات بها. مِن مؤلّفاته: كتاب التوحيد، وتأويلات القرآن، وهما مطبوعان، وبيان وهم المعتزلة، والجدل في أصول الفقه. انظر: الأعلام للزركلي، ١٩/٧.

[٢] انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٢٤٣/٨.

[٣] ط س: يقارنه.

[٤] وفي هامش م: على الوجه الأوّل.

[٥] وفي هامش م: على الوجه الثاني.

[٦] وفي هامش م: بيان لـ"ما".

[٧] وفي هامش م: تفسير للنوع.

إمّا لظهور أنّ المراد به الحقّ والخير؛ لأنّ الله لا يأمُر بالفحشاء، لاسيّما بعد ذِكر هداية القرآن لِما يهدي إليه، وإمّا لأنّ المراد "وُجِد منّا الأمر"، كما يقال: "فلان يعطي ويمنع". ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ أي: خرجوا عن الطاعة وتمرّدوا.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي: ثبَت وتحقّق موجبه بحلول العذاب إثرَ ما ظهر منهم ما ظهر مِن الفِسق والطغيان[١] ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا﴾ بتدمير أهلها ﴿تَدْمِيرًا﴾ لا يُكتنه كُنهه ولا يُوصَف. هذا هو المناسب لِما سبَق.

وقيل: "الأمر" مجاز عن الحَمْل على الفسق والتسبّبِ له بأن صَبَّ عليهم ما أبطرَهم وأفضى بهم إلى الفسوق.[٢] وقيل: هو بمعنى التكثير، يقال: "أَمَرتُ الشيءَ فأَمِرَ"، أي: كثَّرتُه فكثُر، وفي الحديث: «خير المال سِكّة مأبورة ومُهْرة مأمورة»،[٣] أي: كثيرة النِّتاج،[٤] ويعضدُه قراءة "آمَرْنَا"[٥] و"أَمَّرْنَا"[٦] مِن الإفعال والتفعيل، وقد جُعلتا مِن الإمارة، أي: جعلناهم أمراء. وكلُّ ذلك / لا يساعده [٣٦٦و] مقام الزجر عن الضلال والحثِّ على الاهتداء، فإنّ مؤدّى ذلك أنّ طغيانهم مَنُوط بإرادة الله سبحانه وإنعامه عليهم بنِعَم وافرة أبطَرَتهم وحمَلَتهم على الفِسق حَمْلًا حقيقًا بأن يُعبَّر عنه بالأمر به.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا ١٧﴾

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: وكثيرًا ما أهلكنا ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ بيان لـ﴿كَمْ﴾ وتمييز له، والقَرن: مدّة مِن الزمان يُخترَم فيها القوم، وهي عِشرون أو ثلاثون أو أربعون

---

[١] ط س - ثبَت وتحقّق موجَبه بحلول العذاب إثرَ ما ظهر منهم ما ظهر مِن الفِسق والطغيان؛ ط س + كلمة العذاب السابق بحلوله، أو بظهور معاصيهم، أو بانهماكهم فيها. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٢] كما في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٨١/٢.

[٣] بلفظ قريب في **مسند أحمد**، ١٧٢/٢٥ (١٥٨٤٥)؛ وجامع **البيان** للطبري، ٥٢٨/١٤؛ و**المعجم الكبير** للطبراني، ٩١/٧ (٦٤٧٠).

[٤] القول بمعناه في **مجاز القرآن** لأبي عُبيدة، ٣٧٢/١، نقله عن بعضهم الزمخشري في **الكشّاف**، ٤٨٢/٢.

[٥] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عثمان النهدي وليث عن أبي عمرو وأبان عن عاصم وأبي بَحرية والحسن وأبي السَّمّال وابن مِقسَم والجَحدري وأبي العالية الرياحي. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٧٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٢٧.

أو ثمانون أو مائة -وقد أُيِّد ذلك بأنّه صلّى الله عليه وسلّم دعا لرجل فقال: «عِشْ قرنًا»،[١] فعاش مائة سنة- أو مائة وعشرون. ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ مِن بعد زمنه عليه السلام كعادٍ وثمودَ ومَن بعدهم ممّن قُصّت أحوالهم في القرآن العظيم ومَن لم تُقَصّ، وعدمُ نَظْم قومه عليه السلام في تلك القرون المُهلَكة لظهور أمرهم، على أنّ ذِكره عليه السلام رمز إلى ذِكرهم.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ أي: كفى ربُّك ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يحيط بظواهرها وبواطنها فيُعاقب عليها، وتقديمُ "الخبير" لتقدُّم متعلَّقه مِن الاعتقادات والنيّات التي هي مبادي الأعمال الظاهرة، أو لعمومه حيث يتعلَّق بغير المُبصَرات أيضًا. وفيه إشارة إلى أنّ البعث والأمر وما يتلوهما مِن فِسقهم ليس لتحصيل العِلم بما صدر عنهم مِن الذنوب، فإنّ ذلك حاصل قبل ذلك، وإنّما هو لقَطْع الأعذار وإلزامِ الحُجّة مِن كلّ وجه.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله التي يعمَلها، سواء كان ترتُّب المراد عليها بطريق الجزاءِ كأعمال البِرّ، أو بطريق ترتُّبِ المعلولات على العِلَل كالأسباب، أو بأعمال الآخرة، فالمراد بـ"المريد" على الأوّل الكفَرة وأكثر الفَسَقة، وعلى الثاني أهلُ الرياء والنفاق والمهاجِرُ للدنيا والمجاهدُ لمَحْض الغنيمة.

﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ فقط مِن غير أن يريد معها الآخرةَ كما ينبئ عنها الاستمرار المستفاد مِن زيادة ﴿كَانَ﴾ ههنا مع الاقتصار على مطلق الإرادة في قسيمه، / والمراد بـ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ الدار الدنيا، وبـ"إرادتها" إرادةُ ما فيها مِن فنون مطالبها، كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الشورى، ٢٠/٤٢]. [٣٦٦ظ]

ويجوز أن يراد الحياة العاجلة، كقوله عزّ وجلّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود، ١٥/١١] لكنّ الأوّل أنسب بقوله تعالى: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أي:

---

[١] لم أجده في مظانّه. وهو في الفائق للزمخشري، ١٧٢/٣؛ والنهاية لابن الأثير، ٥١/٤.

في تلك العاجلة، فإنّ الحياة واستمرارها مِن جملة ما عُجِّل له، فالأنسبُ بذلك كلمة "مِن" كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران، ١٤٥/٣].

﴿مَا نَشَآءُ﴾ أي: ما نشاء تعجيله له مِن نعيمها لا كلَّ ما يريد. ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ تعجيلَ ما نشاء له، وهو بدل مِن الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ بإعادة الجارّ بدلَ البعض، فإنّه راجع إلى الموصول المنبئ عن الكثرة، وقرئ: "لِمَنْ يَشَاءُ"[١] على أنّ الضميرَ لله سبحانه، وقيل: هو لـ﴿مَن﴾ فيكون مخصوصًا بمَن أراد به ذلك، وهو واحد مِن الدَّهماء.[٢]

وتقييد المعجَّل والمعجَّل له بما ذُكر مِن المشيئة والإرادة لِما أنّ الحِكمة التي عليها يدور فلَك التكوين لا يقتضي وصول كلّ طالب إلى مَرامه ولا استيفاءَ كلّ واصل لِما يطلُبه بتمامه، وأمّا ما يتراءى مِن قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود، ١٥/١١] مِن نَيل كلّ مؤمِّل لجميع آماله ووصولِ كلّ عامل إلى نتيجة أعماله، فقد أشيرَ إلى تحقيق القول فيه في سورة هود بفضل الله تعالى.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ﴾ مكانَ ما عجّلنا له ﴿جَهَنَّمَ﴾ وما فيها مِن أصناف العذاب ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ يدخُلها، وهو حال مِن الضمير المجرور، أو مِن جهنّم، أو استئناف، ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا مِن رحمة الله تعالى. وقيل: الآية في المنافقين كانوا يُراءون المسلمين ويغزون معهم، ولم يكن غرضهم إلّا مساهمتَهم في الغنائم ونحوها.[٣] ويأباه ما يقال: إنّ السورة مكيّة سوى آياتٍ معيَّنة.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

﴿وَمَنْ أَرَادَ﴾ بأعماله ﴿ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ الدارَ الآخرة وما فيها مِن النعيم المقيم ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: السعيَ اللائق بها، وهو الإتيان بما أُمر والانتهاء عما نُهي،

---

[١] ما وقفتُ عليها فيما بين يديّ من كتب التفسير والقراءات. وفيها قراءة قريبة: "ما يَشَاءُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن سلام والزعفراني وابن المُنادي عن نافع. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٢٨.

[٢] دهماء الناس: جماعتهم وكثرتهم. لسان العرب لابن منظور، «دهم».

[٣] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩٦/٢.

[٣٦٧و] لا التقرّبُ بما يخترعون بآرائهم. وفائدةُ "اللام" اعتبار النيّة والإخلاص. / ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيمانًا صحيحًا لا يخالطه شيء قادح فيه. وإيراد الإيمان بالجملة الحاليّة للدلالة على اشتراط مقارنته لِما ذُكر في حيّز الصلة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول بعنوان اتّصافه بما في حيّز الصلة، وما في ذلك مِن معنى البعد للإشعار بعُلوّ درجتهم وبُعد منزلتهم، والجمعيّةُ لمراعاة جانب المعنى إيماءً إلى أنّ الإثابة المفهومة مِن الخبر تقع على وجه الاجتماع، أي: أولئك الجامعون لِما مرّ مِن الخِصال الحميدة، أعني إرادة الآخرة والسعيَ الجميل لها والإيمان، ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ مقبولًا عند الله تعالى بحسن القَبول مُثابًا عليه، وفي تعليق المشكوريّة بالسعي دون قرينَيه إشعارٌ بأنّه العمدةُ فيها.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾

﴿كُلًّا﴾ التنوين عِوَض عن المضاف إليه، أي: كلَّ واحد مِن الفريقين لا الفريقِ الأخير المريد للخير الحقيقِ بالإسعاف فقط، ﴿نُّمِدُّ﴾ أي: نزيد مرّة بعد مرّة[١] بحيث يكون الآنِفُ مدَدًا للسالف، وما به الإمداد ما عُجِّل لأحدهما مِن العطايا العاجلة وما أُعِدّ للآخر مِن العطايا الآجلة المشار إليها بمشكوريّة السعي، وإنّما لم يُصرِّح به تعويلًا على ما سبَق تصريحًا وتلويحًا واتّكالًا على ما لحِق عبارة وإشارة، كما ستقف عليه.

وقوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل مِن ﴿كُلًّا﴾، ﴿وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ عطفٌ عليه، أي: نُمدّ هؤلاء المعجَّلَ لهم وهؤلاء المشكورَ سعيُهم، فإنّ الإشارة متعرِّضة لذات المشار إليه بما له مِن العنوان لا للذات فقط كالإضمار، ففيه تذكيرٌ لِما به الإمداد وتعيين للمضاف إليه المحذوف دفعًا لتوهُّم كونه أفرادَ الفريق الأخير، وتأكيدٌ للقصر المستفاد مِن تقديم المفعول. وقوله تعالى: ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: مِن معطاه الواسع الذي لا تناهيَ له، متعلّق بـ﴿نُمِدُّ﴾ ومُغنٍ عن ذِكر ما به الإمداد

---

[١] س: أخرى.

ومنبِّهٌ على أنّ الإمداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعي والعمل؛ بل بمَحْض التفضّل.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ أي: دُنيويًّا كان أو أخرويًّا، وإنّما أُظهر إظهارًا لمزيد الاعتناء بشأنه وإشعارًا بعلّيّته للحُكم، ﴿مَحْظُورًا﴾ ممنوعًا ممّن يريده؛ بل هو فائض على مَن قُدِّر له بموجَب المشيئة المبنيّة على الحكمة وإن وُجد منه ما يقتضي الحَظْر كالكافر، وهو في معنى التعليل لشمول الإمداد للفريقين. والتعرّض لعنوان الربوبيّة / في الموضعين للإشعار بمبدئيّتها لِما ذُكر مِن الإمداد وعدمِ الحَظْر. [٣٦٧ظ]

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كيف في محلّ النصب بـ﴿فَضَّلْنَا﴾ على الحاليّة، والمرادُ توضيح ما مرّ مِن الإمداد وعدمِ محظوريّة العطاء بالتنبيه على استحضار مراتبِ أحد العطاءين والاستدلالِ بها على مراتب الآخر، أي: انظر بنظَر الاعتبار كيف فضّلنا بعضهم على بعض فيما أمددناهم به مِن العطايا العاجلة، فمِن وضيع ورفيع وظالع وضليع ومالك ومملوك ومُوسِر وصُعلوك تعرِفُ بذلك مراتبَ العطايا الآجلةِ ودرجاتِ تفاضل أهلِها على طريقة الاستشهاد بحال الأدنى على حال الأعلى، كما أفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ﴾ أي: هي وما فيها أكبرُ مِن الدنيا، وقرئ: "أكثرُ"[١] ﴿دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ لأنّ التفاوت فيها بالجنّة ودرجاتها العالية التي لا يقادر قَدْرها ولا يُكتنَه كُنهها، كيف لا، وقد عُبِّر عنه بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطَر على قلب بشر.

هذا، ويجوز أن يُراد بما به الإمداد العطايا العاجلة فقط، ويُحمَل القَصْر المذكور على دَفْع توهّم اختصاصها بالفريق الأوّل، فإنّ تخصيص إرادتهم لها ووصولهم إليها بالذِّكر مِن غير تعرّض لبيان النسبة بينها وبين الفريق الثاني إرادة ووصولًا ممّا يُوهِم اختصاصها بالأوّلين، فالمعنى: كلُّ واحد مِن الفريقين

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أحمدَ بن أبي معاذ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٩.

نُمِدّ بالعطايا العاجلة -لا مَن ذكرنا إرادتَه لها فقط مِن الفريق الأوّل- مِن عطاء ربّك الواسع وما كان عطاؤه الدنيوي محظورًا مِن أحد ممّن يريده وممّن يريد غيره.[١] انظر كيف فضّلنا في ذلك العطاء بعضَ كلّ مِن الفريقين على بعض آخرَ منهما وللآخِرةُ... الآية.

واعتبارُ عدم المحظوريّة بالنسبة إلى الفريق الأوّل تحقيقًا لشمول الإمداد له، كما فعله الجمهور حيث قالوا: "لا يمنعه مِن عاصٍ لعصيانه"، يقتضي كون القَصْر لدَفْع توهّم اختصاص الإمداد الدنيوي بالفريق الثاني، مع أنّه لم يسبِق في الكلام ما يُوهِم ثبوتَه له فضلًا عن إيهام اختصاصه به.[٢]

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

[٣٦٨و] ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ / الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم. والمراد به أُمّته، وهو مِن باب التهييج والإلهاب، أو لكلّ أحد ممّن يصلح للخطاب، ﴿فَتَقْعُدَ﴾ بالنصب جوابًا للنهي. والقعود بمعنى الصيرورة مِن قولهم: "شحَذ الشفرةَ حتّى قعَدتْ كأنّها حَرْبة"، أو بمعنى العَجز، مِن "قعَد عنه"، أي: عجز عنه، ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ خبران أو حالان، أي: جامعًا على نفسك الذمَّ مِن الملائكة والمؤمنين والخِذلانَ مِن الله تعالى، وفيه إشعارٌ بأنّ الموحِّد جامع بين المدح والنُّصرة.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: أَمَر أمرًا مُبرمًا، وقُرئ: "وَأَوْصَى رَبُّكَ"[٣] و"وَصَّى رَبُّكَ"[٤] ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أي: بألّا تعبدوا ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ على أنّ "أن" مصدريّة و"لا" نافية،

---

[١] وفي هامش م: أي الآخرة.

[٢] ط س - به. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وعليّ بن أبي طالب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٢٨-١١٢٩.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن مسعود وأصحابه وأُبيّ والضحّاك وإبراهيم النخَعي وسعيد بن جُبير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٩؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٢٨.

أو أي: لا تعبدوا، على أنّها مُفسِّرةٌ و"لا" ناهية؛ لأنّ العبادة غاية التعظيم فلا تحِقُّ إلّا لمَن له غاية العظمة ونهايةُ الإنعام، وهو كالتفصيل للسعي للآخرة. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ أي: وبأن تُحسِنوا[١] بهما، أو وأحسنوا[٢] بهما ﴿إِحْسَٰنًا﴾ لأنّهما السبب الظاهر للوجود والتعيّش.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ إمّا مركّبة مِن "إن" الشرطيّة و"ما" المَزيدة لتأكيدها ولذلك دخَل الفعلَ نونُ التأكيد، ومعنى ﴿عِندَكَ﴾ في كنفك وكفالتك، وتقديمُه على المفعول مع أنّ حقّه التأخّر عنه للتشويق إلى وروده، فإنّ مدار تضاعُف الرعاية الإحسانُ، و﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعل للفعل وتأخيره عن الظرف والمفعول لئلّا يطول الكلام به وبما عُطف عليه. وقُرئ: "يَبْلُغَانِّ"،[٣] فـ﴿أَحَدُهُمَا﴾ بدل مِن ضمير التثنية و﴿كِلَاهُمَا﴾ عطفٌ عليه، ولا سبيلَ إلى جَعْل ﴿كِلَاهُمَا﴾ تأكيدًا للضمير. وتوحيدُ ضمير الخطاب في ﴿عِندَكَ﴾ وفيما بعده -مع أنّ ما سبق على الجمع- للاحتراز عن التباس المراد، فإنّ المقصود نهيُ كلّ أحد عن تأفيف والديه ونهْرِهما، ولو قُوبِل الجمع بالجمع، أو بالتثنية لم يحصُل هذا المَرام.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا﴾ أي: لواحد منهما حالتَي الانفراد والاجتماع: / ﴿أُفٍّ﴾ وهو صوت ينبئ عن تضجُّر، أو اسمُ فعل هو "أتضجَّرُ"، وقُرئ بالكسر بلا تنوين[٤] وبالفتح[٥] والضمّ منوّنًا[٦] وغيرَ مُنوّن،[٧] أي: لا تتضجَّرْ بما تستقذِر منهما وتستثقِل مِن مُؤَنهما، وبهذا النهي يُفهَم النهيُ عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النصّ. وقد خُصّ بالذِّكر بعضُه إظهارًا للاعتناء بشأنه فقيل: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تزجُرهما عمّا لا يعجِبك بإغلاظ. قيل: النهيُ والنهرُ والنهْمُ أخواتٌ.[٨] [٣٦٨ظ]

---

١ وفي هامش م: على الأوّل.

٢ وفي هامش م: على الثاني.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٦.

٤ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

٥ قرأ بالفتح من غير تنوين ابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٦-٣٠٧. والفتح مع التنوين قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وحُميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة واليماني. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٣٠.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٩.

٨ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٤.

﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدلَ التأفيف والنهر ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ذا كرَم، أو هو وصف له بوصف صاحبه، أي: قولًا صادرًا عن كرَم ولطف، وهو القول الجميلُ الذي يقتضيه حُسن الأدب ويستدعيه النزول على المروءة، مثل أن يقول: "يا أبتاه" و"يا أمّاه"، كدأب إبراهيمَ عليه السلام إذ قال لأبيه: "يا أبتِ" مع ما به مِن الكفر، ولا يدعوهما بأسمائهما فإنّه مِن الجفاء وسوء الأدب وديدنِ الدُعّار.[1]

وسئل الفُضَيل بن عِياض عن برّ الوالدين فقال: ألّا تقوم إلى خدمتهما عن كسَل. وقيل: ألّا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظُر إليهما شزْرًا، ولا يَرَيا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن، وأن تترحّم عليهما ما عاشا وتدعوَ لهما إذا ماتا، وتقومَ بخدمة أوِدّائهما مِن بعدهما،[2] فعن النبي صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ مِن أَبَرّ البِرّ أن يصِل الرجُل أهل ودِّ أبيه».[3]

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝٢٤﴾

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ عبارة عن إلانة الجانب والتواضعِ والتذلُّل لهما، فإنّ إعزازهما لا يكون إلّا بذلك فكأنّه قيل: واخفض لهما جناحَك الذليل، أو جُعل لذُلّه جَناح، كما جَعل لبيدٌ في قوله:

وغداةِ ريح قد كشفْتُ وقِرّةٍ ... إذ أصبحتْ بيد الشَّمال زمامُها[4]

للقِرّة[5] زِمامًا وللشَّمال يدًا، تشبيهًا له بطائر يخفِض جناحه لأفراخه تربية لها وشفقة عليها، وأمّا جعلُ خَفْض الجناح عبارةً عن ترك الطيران كما فعله القفّال[6] فلا يناسب المقام.

---

١ الدُعّار جمع داعر: وهو الخبيث المُفسِد. لسان العرب لابن منظور، «دعر».

٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٦.

٣ مسند أحمد، ٩/٤٣٥ (٥٦١٢)؛ صحيح مسلم، ٤/١٩٧٩ (٢٥٥٢)؛ سنن أبي داود، ٧/٤٥٦ (٥١٤٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٦.

٤ البيت للبيد بن ربيعة في ديوانه ٣١٥. وهو له في أسرار البلاغة للجرجاني، ص ٤٥، وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٩٨، على ما نحن فيه.

٥ القِرّة والقُرّ: البرد، أو هي ما أصاب الإنسان وغيرَه من البرد. لسان العرب لابن منظور، «قرر».

٦ قوله في تفسير الرازي، ٢٠/٣٢٦، واللباب لابن عادل، ١٢/٢٥٩.

﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ مِن فَرْط رحمتك وعطفك عليهما / ورِقّتك لهما، لافتقارهما [٣٦٩و] اليوم إلى مَن كان أفقَر خَلْق الله تعالى إليهما، ولا تكتفِ برحمتك الفانية؛ بل ادعُ الله تعالى لهما برحمته الواسعة الباقية.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ برحمتك الدنيويّة والأخرويّة التي مِن جملتها الهداية إلى الإسلام، فلا ينافي ذلك كفرَهما.

﴿كَمَا رَبَّيَانِى﴾ "الكاف" في محلّ النصب على أنّه نعت لمصدر محذوف، أي: رحمة مِثلَ تربيتهما لي،[1] أو مِثلَ رحمتهما لي،[2] على أنّ التربية رحمة. ويجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معًا، وقد ذُكر أحدُهما في أحد الجانبين والآخرُ في الآخر كما يُلوّح به التعرّض لعنوان الربوبيّة في مطلَع الدعاء، كأنّه قيل: ربّ ارحمهما وربِّهما كما رحِماني وربّياني ﴿صَغِيرًا﴾. ويجوز أن يكون "الكاف" للتعليل، أي: لأجل تربيتهما لي كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة، ١٩٨/٢].

ولقد بالغ عزّ وجلّ في التوصية بهما حيثُ افتتحها بأن شفَع الإحسانَ إليهما بتوحيده سبحانه ونظمَهما في سِلك القضاء بهما معًا، ثمّ ضيّق الأمر في باب مراعاتهما حتّى لم يرخِّص في أدنى كلمة تنفلِت مِن المتضجِّر مع ما له مِن موجبات الضجر ما لا يكاد يدخل تحت الحصر، وختمَها بأن جعل رحمتَه التي وسعت كلَّ شيء مُشبّهة بتربيتهما.

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «رِضا الله في رضا الوالدين وسخطُه في سخطهما»،[3] ورُوي «يفعل البارُّ ما يشاء أن يفعل فلن يدخُل النارَ، ويفعل العاقُّ ما يشاء أن يفعَل فلن يدخُل الجنّة»،[4] وقال رجل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

---

١ وفي هامش م: ابن عطيّة. | انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة ٤٤٩/٣.

٢ وفي هامش م: أبو البقاء. | انظر: التبيان للعُكبري، ٨١٨/٢.

٣ هو بلفظ «رضا الربّ في رضا الوالد، وسخط الربّ في سخط الوالد» في الأدب المفرد، ص ١٤ (٢)؛ وسنن الترمذي، ٣١٠/٤ (١٨٩٩)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٢٤٧/١٠ (٧٤٤٧)، وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٥/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٦٣/٢-٢٦٤.

٤ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٦/١٦، وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٥/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٦٤/٢.

إنّ أبوَيَّ بلغا مِن الكِبَر أنّي أَلي منهما ما وَليا منّي في الصغر، فهل قضيتُهما حقّهما؟ قال: «لا؛ فإنّهما كانا يفعلان ذلك وهما يُحبّان بقاءَك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما»،[1] ورُوي أن شيخًا أتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: إنّ ابني هذا له مال كثير وإنّه لا ينفق عليّ مِن ماله، فنزل جبريلُ عليه السلام وقال: إنّ هذا الشيخ / قد أنشأ في ابنه أبياتًا ما قُرع سَمْع بمثلها، فاستنشَدها [٣٦٩ظ] فأنشدها الشيخَ فقال:

غـذَوتُـك مـولـودًا ومُـنْـتُـك يافعًا ... تَـعُـلُّ بـمـا أَحـنـى عـلـيك وتـنـهـلُ
إذا ليلةٌ ضافتْك بالسُّقم لم أبِتْ ... لسُـقـمِـك إلّا بـاكـيًـا أتـمَـلـمَـلُ
كـأنّي أنـا الـمطـروق دونـك بالذي ... طُـرِقَـتْ بـه دونـي وعينيَ تَـهمُـلُ
فلمّا بلغتَ السنَّ والغايةَ التي ... إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمِّـلُ
جعلتَ جزائي غِلظةً وفظاظةً ... كـأنّـك أنـتَ الـمُـنـعِـم الـمتفضِّـلُ
فليتَكَ إذ لم تـرْعَ حـقَّ أُبـوّتـي ... فعلتَ كما الجارُ المجاوِر يفعَلُ[2]

فغضب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال: «أنتَ ومالُكَ لأبيك».[3]

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ مِن البرّ والعُقوق ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ قاصدين الصلاح والبِرّ دون العقوق والفساد ﴿فَإِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ أي: الرجّاعين إليه تعالى عمّا فرَط منهم ممّا لا يكاد يخلو عنه البشر ﴿غَفُورًا﴾ لِما وقَع منهم مِن نوع تقصير أو أذِيّة فعليّة أو قوليّة. وفيه ما لا يخفى مِن التشديد في الأمر بمراعاة حقوقهما، ويجوز أن يكون عامًّا لكلّ تائب ويدخُل فيه الجاني على أبويه دخولًا أوّليًا.

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٤٨٥/٢. ولم أجده في مظانّه.

[2] الأبيات في المعجم الصغير للطبراني، ١٥٢/٢ (٩٤٧). وهي لأميّة بن أبي الصلت في ديوانه، ص ٤٣٠-٤٣١؛ وشرح الحماسة للمرزوقي، ص٧٥٣-٧٥٤؛ والدُّرّ الفريد لابن آيدمر، ١٤٩/٣.

[3] المصنَّف لابن أبي شيبة، ٥١٧/٤ (٢٢٧٠٠)؛ مسند أحمد، ٥٠٣/١١ (٦٩٠٢)؛ سنن ابن ماجه، ٣٩١/٣ (٢٢٩١).

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: ذا القرابة ﴿حَقَّهُۥ﴾ توصيةٌ بالأقارب إثرَ التوصية ببرّ الوالدين، ولعلّ المرادَ بهم المحارم وبحقّهم النفقة، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فإنّ المأمورَ به في حقّهما المواساة الماليّة لا محالةَ، أي: وآتِهما حقَّهما ممّا كان مفترَضًا بمكّةَ بمنزلة الزكاة، وكذا النهيُ عن التبذير وعن الإفراط في القبض والبسط، فإنّ الكلّ مِن التصرُّفات الماليّة.

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ نهيٌ عن صَرْف المال إلى مَن سواهم ممّن لا يستحقّه، فإنّ التبذير تفريق في غير موضعه، مأخوذ مِن تفريق حبّات وإلقائها كيفما كان مِن غير تعهُّد لمواقعه، لا عن الإكثار في صَرْفه إليهم وإلّا لناسَبه الإسراف الذي هو / تجاوُز الحدّ في صَرْفه، وقد نُهي عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ [٣٧٠و] [الإسراء، ١٧/٢٩]، وكلاهما مذموم.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ تعليل للنهي عن التبذير ببيان أنّه يجعل صاحبه ملزوزًا في قَرَن الشياطين، والمراد بـ"الأخوّة": المماثلة التامّة في كلّ ما لا خيرَ فيه مِن صفات السوء التي مِن جملتها التبذير، أي: كانوا بما فعلوا مِن التبذير أمثالَ الشياطين؛ أو الصداقةُ والملازمة، أي: كانوا أصدقاءهم وأتباعهم فيما ذُكر مِن التبذير والصرفِ في المعاصي، فإنّهم كانوا ينحَرون الإبل ويتياسَرون عليها، ويبذّرون أموالَهم في السُّمعة وسائر ما لا خيرَ فيه مِن المَناهي والمَلاهي؛ أو المقارنةُ، أي: قرناءَهم في النار على سبيل الوعيد.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ مِن تتمّة التعليل، أي: مبالِغًا في كفران نِعَمه تعالى؛ لأنّ شأنه أن يصرِف جميع ما أعطاه الله تعالى مِن القُوى والقُدَر إلى غير ما خُلقت هي له مِن أنواع المعاصي والإفساد في الأرض، وإضلالِ الناس وحَمْلِهم على الكفر بالله وكفران نِعَمه الفائضة عليهم وصرفها إلى غير ما أمر الله تعالى به. وتخصيص هذا الوصف بالذِّكر مِن بين سائر أوصافه القبيحة

للإيذان بأنّ التبذير الذي هو عبارة عن صَرْف نِعَم الله تعالى إلى غير مَصرِفها مِن باب الكفران المقابل للشكر الذي هو عبارة عن صَرْفها إلى ما خُلقت هي له. والتعرّض لوصف الربوبيّة للإشعار بكمال عُتوّه، فإنّ كفران نعمة الربّ مع كون الربوبيّة مِن أقوى الدواعي إلى شُكرها غاية الكُفران ونهايةُ الضلال والطغيان.

﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨﴾

﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ﴾ أي: إن اعتراك أمر اضطَرّك إلى أن تُعرِض عن أولئك المستحقّين ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: لفَقْد رزق مِن ربّك، إقامةٌ للمسبَّب مُقام السبب، فإنّ الفقد سبب للابتغاء، ﴿تَرۡجُوهَا﴾ مِن الله تعالى لتُعطيَهم، وكان صلّى الله عليه وسلّم إذا سُئل شيئًا وليس عنده أعرَض عن السائل وسكَتَ حياء، فأُمر بتعهُّدهم بالقول الجميل لئلّا يعتريَهم الوَحشة بسكوته عليه السلام، فقيل: ﴿فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ / سهلًا ليّنًا وعِدْهم وعدًا جميلًا، مِن "يُسِر الأمرُ" نحو "سُعِد"، أو قل لهم: رزَقَنا الله وإيّاكم مِن فضله على أنّه دعاء لهم ييسِّر عليهم فقْرهم. [٣٧٠ظ]

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ تمثيلان لمنع الشحيح وإسرافِ المبذِّر زجرًا لهما عنهما وحَمْلًا على ما بينهما مِن الاقتصاد:

كـلا طَـرفَـي قَـصْـدِ الأمــور ذمـيـمُ[١]

وحيث كان قُبح الشحّ مقارنًا له معلومًا مِن أوّل الأمر رُوعيَ ذلك في التصوير بأقبح الصور؛ ولمّا كان غائلة الإسراف في آخره بُيّن قُبحُه في إثره فقيل: ﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا﴾ أي: فتصيرَ ملومًا عند الله تعالى وعند الناس وعند نفسك إذا احتجتَ وندِمتَ على ما فعلتَ ﴿مَّحۡسُورًا﴾ نادمًا أو منقطَعًا بك لا شيءَ عندك، مِن "حسَره السَّفَرُ" إذا بلغ منه.

---

[١] عجز بيت، صدره:

ولا تـكُ فيها مُفـرطًا أو مُفـرّطًا

وما عرفت قائله. وهو بلا نسبة في **النهاية** لابن الأثير، ٣/٣٨٢؛ و**شرح الرضيّ على الكافية** ١/٣٤١؛ و**خزانة الأدب** للبغدادي، ٢/١٢٢.

وما قيل مِن أنّه رُويَ عن جابر رضيَ الله عنه أنّه قال: بينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قاعدٌ إذ أتاه صبيّ فقال: «إنّ أمّي تستكْسِيك دِرعًا»، فقال عليه السلام: «مِن ساعة إلى ساعة فَعُد إلينا»،[1] فذهب إلى أمّه فقالت له: «قل: إنّ أمّي تستكْسِيك الدرعَ الذي عليك»، فدخل عليه السلام داره ونزَع قميصه وأعطاه وقعد عُرْيانًا، وأذّن بلال، وانتظروا فلم يخرُج للصلاة، فنزلت، فيأباه[2] أنّ السورة مَكّيّة خلا آياتٍ في آخرها. وكذا ما قيل إنّه عليه السلام أعطى الأقرع بن حابس مائة مِن الإبل، وكذا عُيَينةَ بن حِصْن الفزاريَّ فجاء عبّاسُ بن مِرداس فأنشأ يقول:

أتجعَل نَهبي ونهبَ العُبَيـ ... ـد بين عُيَينةَ والأقرَعِ
وما كان حِصْنٌ ولا حابسٌ ... يفوقان مِرداسَ في مَجمَعِ
وما كنتُ دون امرئ منهما ... ومَن تَضَعِ اليومَ لا يُرفعِ[3]

فقال عليه السلام: «يا أبا بكر اقطعْ لسانه عنّي، أعطِه مائة مِن الإبل»،[4] وكانوا جميعًا مِن المؤلَّفة القلوب، فنزلت.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ٣٠ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ٣١﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ تعليل لِما مرّ، أي: يوسّعه على بعض ويضيّقه / على آخرين، حسبما يتعلّق به مشيئتُه التابعة للحِكمة، فليس ما [٣٧١و] يَرْهقُك مِن الإضافة التي تُحوجُك إلى الإعراض عن السائلين أو نفاد ما في يدك إذا بسطتها كلّ البسط إلّا لمصلحتك.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ تعليل لِما سبَق، أي: يعلم سِرَّهم وعلَنَهم فيعلم مِن مصالحهم ما يخفى عليهم. ويجوز أن يراد أنّ البسط والقبض مِن أمر الله العالِم بالسرائر والظواهر الذي بيده خزائنُ السماوات والأرض، فأمّا العبادُ

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٥/١٦؛ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٩٤-٢٩٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ٩٠/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٢.

[2] السياق: وما قيل... فيأباه...

[3] الأبيات في ديوان العبّاس بن مِرداس السُّلمي، ص ١١١-١١٢، وفيه «فأصبح» مكان «أتجعل»؛ وهي له في صحيح مسلم، ٧٣٧/٢ (١٠٦٠)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٢.

[4] بمعناه في صحيح مسلم، ٧٣٧/٢ (١٠٦٠)، وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٢.

فعليهم أن يقتصدوا، وأن يُراد أنّه تعالى يبسُط تارةً ويقبِض أخرى، فاستنُّوا بسنّته، فلا تقبِضوا كلَّ القبض ولا تبسُطوا كلَّ البسط، وأن يُراد أنّه تعالى يبسُط ويقدِر حسب مشيئتِه فلا تبسُطوا على مَن قُدِر عليه رزقه، وأن يكون تمهيدًا لقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: مخافةَ فَقْر، وقرئ بكسر الخاء،[١] كانوا يئِدون بناتِهم مخافة الفقر فنُهوا عن ذلك.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ لا أنتم، فلا تخافوا الفاقة بناء على عِلمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم، وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهي المذكور بإبطال موجبه في زعمهم. وتقديم ضمير الأولاد على المخاطَبين على عكس ما وقع في سورة الأنعام للإشعار بأصالتهم في إفاضة الرزق، أو لأنّ الباعث على القتل هناك الإملاق الناجز، ولذلك قيل: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام، ١٥١/٦]، وههنا الإملاقُ المتوقَّع، ولذلك قيل: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾، فكأنّه قيل: نرزقُهم مِن غير أن يُنتقَص مِن رزقكم شيءٌ فيعتريكم ما تخشَونه وإيّاكم أيضًا رزقًا إلى رزقكم.

﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ تعليل آخرُ ببيان أنّ المَنهي عنه في نفسه مُنكَر عظيم. والخِطءُ: الذنب والإثم يقال: "خطِئ خِطئًا" كـ"أثِم إثمًا"، وقرئ بالفتح والسكون[٢] وبفتحتين[٣] بمعناه كـ"الحِذْر" و"الحَذَر". وقيل: بمعنى ضدّ الصواب، وبكسر الخاء والمدّ،[٤] وبفتحها ممدودًا،[٥] وبفتحها وحذف الهمزة[٦] وبكسرها كذلك.[٧]

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ بمباشرة مباديه القريبة أو البعيدة فضلًا عن مباشرته، وإنّما نهى عن قُربانه على خلاف ما سبَق ولحِق مِن القتل للمبالغة في النهي عن نفسه،

---

[١] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعُبيد بن عُمير. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٢.

[٣] قرأ بها أبو جعفر وابن ذكوان وهشام بخلاف. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

[٤] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والعمري وشيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٠.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد والزُّهري. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٢.

ولأنّ قُربانه داعٍ إلى مباشرته. / وتوسيط النهي عنه بين النهي عن قَتْل الأولاد [٣٧١ظ] والنهي عن قَتْل النفس المحرَّمة على الإطلاق باعتبار أنّه قَتْل للأولاد لِما أنّه تضييع للأنساب، فإنّ مَن لم يثبُتْ نسبُه ميّت حُكمًا.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ فَعلةً ظاهرةَ القبح متجاوِزةً عن الحدّ، ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: بئس طريقًا طريقُه، فإنّه غَصْب الأبضاع المؤدّي إلى اختلال أمر الأنساب وهيَجان الفِتَن، كيف لا، وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إذا زنى العبد خرَج منه الإيمان فكان على رأسه كالظُّلّة فإذا انقطع رجَع إليه»،[1] وقال عليه السلام: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمِن»،[2] وعن حذيفةَ رضي الله عنه أنّه قال عليه السلام: «إيّاكم والزِّنا فإنّ فيه ستَّ خصال، ثلاثٌ في الدنيا وثلاثٌ في الآخرة، فأمّا التي في الدنيا فذهاب البهاء ودوامُ الفقر وقِصَرُ العمر، وأمّا التي في الآخرة فسخط الله تعالى وسوءُ الحساب والخلودُ في النار».[3]

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قَتْلها بأن عصَمها بالإسلام أو بالعهد ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلّا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزِنًا بعد إحصان، وقَتْل نفس معصومة عمدًا، فالاستثناءُ مفرَّغ، أي: لا تقتلوها بسبب مِن الأسباب إلّا بسبب الحقّ أو ملتبِسين أو ملتبِسةً بشيء مِن الأشياء، ويجوز أن يكون نعتًا لمصدر محذوف، أي: لا تقتلوها قتلًا ما إلّا قتلًا متلبِسًا بالحقّ.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بغير حقّ يوجب قَتْله أو يُبيحه للقاتل حتّى إنّه لا يُعتبر إباحتُه لغير القاتل، فإنّ مَن عليه القصاص إذا قتَله غير مَن له القصاص يُقتصّ له، ولا يفيده قول الوليّ: "أنا أمرتُه بذلك" ما لم يكن الأمر ظاهرًا.

---

١ سنن الترمذي، ١٥/٥ (٢٦٢٥)؛ المستدرك للحاكم، ٧٢/١ (٥٦).

٢ مسند أحمد، ٢٦٩/١٢ (٧٣١٨)؛ صحيح البخاري، ١٣٦/٣ (٢٤٧٥)؛ صحيح مسلم، ٧٦/١ (١٠٠).

٣ شعب الإيمان للبيهقي، ٣٣٢/٧ (٥٠٩١)؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ١٢٨/٣ (المائدة، ٨٠/٥).

﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ لمَن يلي أمره مِن الوارث، أو السلطان عند عدم الوارث ﴿سُلْطَٰنًا﴾ تسلّطًا واستيلاء على القاتل يؤاخِذه بالقصاص أو بالدِّية حسبما يقتضيه جنايتُه، أو حجّةً غالبة.

﴿فَلَا يُسْرِف﴾ وقرئ: "لَا تُسْرِف"[1] ﴿فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ أي: لا يُسرِف الوليّ في أمر القتل بأن يتجاوز الحدّ المشروع، بأن يزيد عليه المُثْلة، أو بأن يقتُل غير القاتل مِن أقاربه، أو بأن يقتُل الاثنين مكانَ الواحد / كما يفعله أهل الجاهليّة، أو بأن يقتل القاتلَ في مادّة الدِّية، وقرئ بصيغة النفي[2] مبالغةً في إفادة معنى النهي. [٣٧٢و]

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ تعليل للنهي، والضميرُ للوليّ على معنى أنّه تعالى نصره بأن أوجَب له القصاص أو الدِّية وأمَر الحكّام بمعونته في استيفاء حقّه، فلا يبْغِ ما وراء حقِّه ولا يستزِدْ عليه ولا يخرُجْ مِن دائرة أمر الناصر أو للمقتول ظلمًا، على معنى أنّه تعالى نصَره بما ذُكر فلا يُسرِف وليُّه في شأنه، أو للذي يقتله الوليُّ ظلمًا وإسرافًا، ووجهُ التعليل ظاهر.

وعن مجاهد أنّ الضمير في ﴿لَا يُسْرِف﴾ للقاتل الأوّل،[3] ويعضُده قراءة "فَلَا تُسْرِفُوا"،[4] والضميران في التعليل عائدان إلى الوليّ أو المقتول، فالمراد بالإسراف حينئذ إسراف القاتل على نفسه بتعريضه لها للهلاك العاجل والآجل لا الإسرافُ وتجاوز الحدّ في قتل،[5] أي: لا يُسرف على نفسه في شأن القتل، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر، ٣٩/٥٣].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ نهيٌ عن قُربانه لِما ذُكر مِن المبالغة في النهي عن التعرّض له ومِن إفضاء ذلك إليه، وللتوسّل إلى الاستثناء بقوله تعالى:

---

[1] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي مسلم العِجلي صاحب الدولة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٠.

[3] قوله في جامع البيان للطبري، ١٤/٥٨٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٩١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٩.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٠.

[5] ط س: القتل. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: إلّا بالخَصلة والطريقة التي هي أحسنُ الخِصال والطرائق، وهي حفظُه واستثماره ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غايةٌ لجواز التصرّف على الوجه الأحسن المدلول عليه بالاستثناء، لا للوجه المذكور فقط.

﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِ﴾ سواء جرى بينكم وبين ربّكم أو بينكم وبين غيركم مِن الناس، والإيفاءُ بالعهد والوفاء به: هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ولا يكاد يُستعمل إلّا بالباء فرقًا بينه وبين الإيفاء الحسّي كإيفاء الكيل والوزن.

﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ﴾ أُظهِر في مقام الإضمار إظهارًا لكمال العناية بشأنه، أو لأنّ المراد مطلق العهد المنتظِم للعهد المعهود، ﴿كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ / أي: مسئولًا عنه [٣٧٢ظ] على حذف الجارّ وجَعْل الضمير بعد انقلابه مرفوعًا مستكِنًّا في اسم المفعول، كقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود، ١١/١٠٣] أي: مشهود فيه، ونظيرُه ما في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس، ١٠/١]، على أنّ أصله "الحكيمُ قائلُه"، فحُذف المضاف وجُعل الضمير مستكِنًّا في ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ بعد انقلابه مرفوعًا. ويجوز أن يكون تخييلًا، كأنّه يقال للعهد: لِمَ نُكِثتَ وهلّا وُفيَ بك؟ تبكيتًا للناكث، كما يقال للموءودة: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ [التكوير، ٨١/٩].

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: أتِمُّوه ولا تُخسِروه ﴿إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ أي: وقت كيلِكم للمشترين. وتقييد الأمر بذلك لِما أنّ التطفيف هناك يكون، وأمّا وقت الاكتيال على الناس فلا حاجةَ إلى الأمر بالتعديل، قال تعالى: ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ الآية [المطففين، ٨٣/٢].

﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾ هو القَرَسْطون، وقيل: كلّ ميزان صغيرًا كان أو كبيرًا.[١] روميٌّ معرَّب، ولا يقدح ذلك في عربيّة القرآن لانتظام المعرَّبات في سِلك الكلِم العربيّة. وقرئ بضمّ القاف.[٢]

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩٠.

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: العَدْل السويّ. ولعلّ الاكتفاء باستقامته عن الأمر بإيفاء الوزن لِما أنّ عند استقامتِه لا يُتصوَّر الجَور غالبًا، بخلاف الكَيل فإنّه كثيرًا ما يقع التطفيف مع استقامة الآلة، كما أنّ الاكتفاء بإيفاء الكيل عن الأمر بتعديله لِما أنّ إيفاءه لا يُتصوَّر بدون تعديل المِكيال، وقد أُمِر بتقويمه أيضًا في قوله تعالى: ﴿أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [هود، ١١/٨٥].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيفاء الكَيل والوَزن بالميزان السويّ ﴿خَيْرٌ﴾ في الدنيا إذ هو أمانةٌ توجِب الرغبة في معاملته والذِّكرَ الجميل بين الناس، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبةً، تفعيلٌ مِن "آل" إذا رجع، والمرادُ ما يئول إليه.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبعْ مِن "قفا أثرَه"، أي: تبِعه، وقرئ: "وَلَا تَقُفْ"[1] مِن "قاف أثرَه"، أي: قفاه، ومنه "القَافة" في جمع "القائف". ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا تكن في اتّباع ما لا علمَ لك به / مِن قول أو فعل كمَن يتّبع مَسلَكًا لا يدري أنّه يُوصِله إلى مقصِده. واحتجّ به مَن منَع اتّباع الظنّ. وجوابه أنّ المراد بالعِلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد مِن سند قطعيًا كان أو ظنيًا، واستعمالُه بهذا المعنى ممّا لا يُنكَر شيوعه. وقيل: إنّه مخصوص بالعقائد. وقيل: بالرمي وشهادة الزُّور.[2] ويؤيّده قوله عليه السلام: «مَن قفا مؤمنًا بما ليس فيه حبَسه الله تعالى في رَدْغة الخَبال حتّى يأتيَ بالمخرَج»،[3] ومنه قول الكُمَيت:[4]

[٣٧٣و]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الكلبي وإسحاق بن الحجّاج عن يحيى عن أبي بكر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٠؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١١٣٣.

[2] القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٠١/٢.

[3] بلفظ قريب في **مسند أحمد**، ٣٨٠/٩ (٥٥٤٤)؛ وبلفظه ههنا في **شعب الإيمان** للبيهقي، ٩٦/٩ (٦٣١٠)؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٤٩٠/٢.

[4] هو الكُميت بن زيد بن خنس الأسدي، أبو المستهلّ (ت. ١٢٦هـ/٧٤٤م). شاعر الهاشميّين مِن أهل الكوفة، مِن أعلام الشعراء في العصر الأموي، وهو عالم بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، ثقة في علمه، وهو خطيب بني أسد وفقيه الشيعة وفارس شجاع سخيّ وراميّ لم يكن في قومه أرمى منه، وقيل: كان أصمّ لا يسمع شيئًا. انظر: **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ٥٦٦/٢؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢٣٣/٥.

ولا أرمـي البـريء بغير ذنب   ولا أقفو الحواصِنَ إن رُمينا[١]

﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ﴾ وقرئ بفتح "الفاء" و"الواو" المقلوبةِ مِن الهمزة عند ضمّ "الفاء".[٢] ﴿كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: كلُّ واحد مِن تلك الأعضاء، فأُجريت مُجرى العقلاء لمّا كانت مسئولة عن أحوالها شاهدةً على أصحابها. هذا وإنّ "أُولاءِ"، وإن غلب في العقلاء، لكنّه مِن حيث إنّه اسمُ جمع لـ"ذا" الذي يعُمّ القَبيلين، جاء لغيرهم أيضًا، قال:

ذُمَّ[٣] المَنازلَ بعد مَنزِلة اللِّوى   والعيشَ بعد أولئك الأيّامِ[٤]

﴿كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ أي: كان كلّ مِن تلك الأعضاء مسئولًا عن نفسه، على أنّ اسم ﴿كَانَ﴾ ضمير يرجِع إلى ﴿كُلُّ﴾ وكذا الضميرُ المجرور. وقد جُوّز أن يكون الاسم ضمير القافي بطريق الالتفات، إذ الظاهرُ أن يقال: كنتَ عنه مسئولًا. وقيل: الجارُّ والمجرور في محلّ الرفع قد أُسند إليه ﴿مَسۡـُٔولٗا﴾[٥] معلّلًا بأنّ الجارّ والمجرور لا يلتبس بالمبتدأ، وهو السبب في مَنْع تقديم الفاعل وما يقوم مقامَه. ولكنّ النحّاس[٦] حكى الإجماعَ على عدم جواز تقديم القائم مقامَ الفاعل إذا كان جارًّا ومجرورًا.[٧] ويجوز أن يكون مِن باب الحذف على شريطة التفسير، ويُحذف الجارّ مِن المفسِّر ويعود الضمير مستكِنًّا كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود، ١١/١٠٣].

---

١ ليس في ديوانه ولا في ذيله. وهو له في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩٠؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٢٨٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجرّاح بن عبد الله العُقيلي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١.

٣ وفي هامش م: أمرٌ مِن "ذَمّ يذُمّ".

٤ البيت لجرير في ديوانه، ص ٩٩٠، وفيه «الأقوام» مكان «الأيّام»؛ وهو بلا نسبة في جامع البيان للطبري، ١٤/٥٩٦؛ وله في التفسير البسيط للواحدي، ١٣/٣٣٣، على ما نحن فيه.

٥ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩١.

٦ هو أحمد بن محمّد بن إسماعيل بن يونس المرادي المصري، أبو جعفر النحّاس (ت. ٣٣٨هـ/٩٥٠م). مفسّر ونحوي ولغوي وأديب مولده ووفاته بمصر، وهو مِن أهل الفضل الشائع والعلم الذائع. زار العراق واجتمع بعلمائه، وكان يناقش أهل العلم فيما أشكل عليه في مصنّفاته. وكان الناس يحبّون الأخذ عنه وانتفع به خلق كثير، مِن مصنّفاته المطبوعة: إعراب القرآن، ومعاني القرآن الكريم، وتفسير أبيات سيبويه، وشرح القصائد التسع، والقطع والائتناف، وأدب الكتّاب، وغيرها. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ١/٣٦٢؛ والأعلام للزركلي ١/٢٠٨.

٧ نقله ابن عادل في اللباب، ١٢/٢٨٥.

وجُوّز أن يكون ﴿مَسْـُٔولًا﴾ مُسنَدًا إلى المصدر المدلول عليه بالفعل،[١] وأن يكون فاعله المصدرَ وهو "السؤال" و﴿عَنۡهُ﴾ / في محلّ النصب. وسأل ابن جنّي أبا عليّ عن قولهم: "فيك يُرغَب"، وقال: لا يرتفع بما بعده، فأين المرفوع؟ فقال: المصدرُ، أي: فيك يُرغَب الرَّغَبُ،[٢] بمعنى: يُفعَل الرغبةُ، كما في قولهم: "يُعطي ويمنع"، أي: يفعَل الإعطاءَ والمنعَ. وجُوّز أن يكون اسمُ ﴿كَانَ﴾ أو فاعلُه ضميرَ ﴿كُلُّ﴾ بحذف المضاف، أي: كان صاحبه عنه مسئولًا أو مسئولًا صاحبُه.

[٣٧٣ظ]

﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ۝٣٧﴾

﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ التقييد لزيادة التقرير والإشعار بأنّ المشيَ عليها ممّا لا يليق بالمرَح. ﴿مَرَحًا﴾ تكبّرًا وبطَرًا واختيالًا، وهو مصدر وقَع موقعَ الحال، أي: ذا مرح، أو تمرَح مرَحًا، أو لأجل المرَح، وقرئ بالكسر.[٣]

﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ تعليل للنهي، وفيه تهكُّم بالمختال وإيذانٌ بأنّ ذلك مفاخرة مع الأرض وتكبُّر عليها، أي: لن تخرِق الأرض بدَوسك وشدّة وطأتك، وقرئ بضمّ الراء.[٤] ﴿وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ﴾ التي هي بعض أجزاء الأرض ﴿طُولٗا﴾ حتّى يمكن لك أن تتكبَّر عليها، إذ التكبّرُ إنّما يكون بكثرة القوّة وعِظَم الجثّة، وكلاهما مفقود، وفيه تعريضٌ بما عليه المختال مِن رَفْع رأسه ومشْيه على صدور قدميه.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ۝٣٨﴾

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما عُلم في تضاعيف ذِكر الأوامر والنواهي مِن الخِصال الخمس والعشرين. ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ الذي نُهيَ عنه وهي اثنتا عشرة خَصلة، ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾ مبغَضًا غيرَ مَرضيّ، أو غيرَ مراد بالإرادة الأوّليّة، لا غيرَ مرادٍ مطلقًا لقيام الأدلّة القاطعة على أنّ جميع الأشياء واقعة بإرادته سبحانه،

---

١ وفي هامش م: ﴿لَا تَقۡفُ﴾. «منه».

٢ الكلام عنهما بلفظ قريب في فتوح الغيب للطِّيبي، ٩/٢٩٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر وأبي حاتم عن يعقوب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجرّاح قاضي البصرة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

وهو تتمّة لتعليل الأمور المنهيّ عنها جميعًا. ووصفُ ذلك بمطلق الكراهة مع أنّ البعض مِن الكبائر للإيذان بأنّ مجرّد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الانتهاء عن ذلك.

وتوجيه الإشارة إلى الكلّ ثمّ تعيينُ البعض دون توجيهها إليه ابتداءً لِما أنّ البعض المذكور ليس بمذكور جملةً؛ / بل على وجه الاختلاط، وفيه إشعار [٣٧٤و] بكون ما عداه مَرضيًا عنده تعالى، وإنّما لم يصرَح بذلك إيذانًا بالغنى عنه. وقيل: الإضافة بيانيّة كما في آية الليل وآية النهار.

وقرئ: "سَيِّئَةً"[١] على أنّه خبر ﴿كَانَ﴾، و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما نُهي عنه مِن الأمور المذكورة، و﴿مَكْرُوهًا﴾ بدل مِن "سيّئةً" أو صفةٌ لها محمولة على المعنى، فإنّه بمعنى "سَيِّئًا" وقد قُرئ به،[٢] أو مُجرى على موصوف مذكّر، أي: أمرًا مكروهًا، أو مُجرًى مُجرى الأسماء زالٌّ عنه معنى الوصفيّة، ويجوز كونه حالًا مِن المستكِنّ في ﴿كَانَ﴾ أو في الظرف على أنّه صفةُ "سيّئةً"، وقرئ: "سَيِّئَاتُهُ"،[٣] وقرئ: "شَأْنُهُ".[٤]

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي تقدَّم مِن التكاليف المفصَّلة ﴿مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ﴾ أي: بعض منه أو مِن جنسه ﴿مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ التي هي عِلم الشرائع، أو معرفة الحقّ لذاته والعملُ به، أو مِن الأحكام المحكَمة التي لا يتطرّق إليها النسخ والفساد. وعن ابن عبّاس رضي الله عنه[٥] أنّ هذه الآيات الثمانيَ عشرةَ كانت في ألواح موسى عليه السلام أوّلها: ﴿لَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، قال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي بكر الصدّيق وأُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٤.

٥ س - رضيَ الله عنه.

﴿فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ [الأعراف، ٧/١٤٥]، وهي عشرُ آيات في التوراة.[1] و﴿مِنَ﴾ إمّا متعلِّقة بـ﴿أَوْحَىٰ﴾ على أنّها تبعيضيّة، أو ابتدائيّة، وإمّا بمحذوف وقَع حالًا مِن الموصول أو مِن ضميره المحذوف في الصلة، أي: كائنًا مِن الحِكمة، وإمّا بدل مِن الموصول بإعادة الجارّ.

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم والمرادُ غيره ممّن يُتصوَّر منه صدور المنهيّ عنه عنه، وقد كُرِّر للتنبيه على أنّ التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه، وأنّه رأس كلّ حكمة وملاكُها، ومَن عدِمه لم يَنفَعْه علومُه وحِكَمُه وإن بذّ فيها أساطينَ الحُكماء وحَكّ بيَافوخِه عَنانَ السماء، / [٣٧٤ظ] وقد رُتِّب عليه ما هو عائدةُ الإشراك أوّلًا، حيث قيل: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾،[2] ورُتِّب عليه ههنا نتيجتُه في العُقبى فقيل: ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ مِن جهة نفسِك ومِن جهة غيرك ﴿مَّدْحُورًا﴾ مبعَدًا مِن رحمة الله تعالى. وفي إيراد الإلقاء مبنيًّا للمفعول جَرْيٌ على سَنن الكبرياء، وازدراءٌ بالمشرِك، وجَعْلٌ له مِن قبيل خشَبة يأخذها آخذٌ بكفّه فيطرحها في التنُّور.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ خطاب للقائلين بأنّ الملائكة بنات الله سبحانه. والإصفاء بالشيء جَعْله خالصًا، و"الهمزةُ" للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يفسِّره المذكور، أي: أفَضَّلكم على جَنابه فخصَّكم بأفضل الأولاد على وجه الخُلوص وآثرَ لذاته أخسَّها وأدناها، كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم، ٥٣/٢١]، وقولِه تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور، ٥٢/٣٩]. وقد قُصِد ههنا بالتعرّض لعنوان الربوبيّة تشديدُ النكير وتأكيده، وأشيرَ بذِكر الملائكة عليهم السلام وإيرادِ "الإناث" مكانَ "البنات" إلى كَفْرة لهم أخرى، وهي وصفهم لهم عليهم السلام بالأنوثة التي هي أخسُّ صفات الحيوان، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف، ٤٣/١٩].

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩١.

[2] الإسراء، ١٧/٢٢.

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ﴾ بمقتضى مذهبكم الباطل الذي هو إضافة الولد إليه سبحانه ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادَر قَدْرُه في استتباع الإثم وخَرْقه لقضايا العقول بحيث لا يجترئ عليه أحد، حيث يجعلونه تعالى مِن قبيل الأجسام المتجانسة السريعةِ الزوال، وليس كمثله شيء وهو الواحد القهّار الباقي بذاته، ثمّ تضيفون إليه ما تكرهون مِن أخسّ الأولاد، وتفضِّلون عليه أنفسَكم بالبنين، ثمّ تصِفون الملائكة الذين هم مِن أشرف الخلائق بالأنوثة التي هي أخسُّ أوصاف الحيوان، فيا لها مِن ضَلّة ما أقبحَها وكَفْرةٍ ما أشْنَعَها وأفْظعَها!

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

[٣٧٥و] / ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ هذا المعنى وكرّرناه ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ على وجوه مِن التصريف في مواضعَ منه. وإنّما تُرك الضمير تعويلًا على الظهور. وقرئ بالتخفيف.[١] ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ ما فيه ويقِفوا على بُطلان ما يقولونه. والالتفات إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء الحال أن يُعرَض عنهم ويُحكى للسامعين هَناتُهم. وقرئ بالتخفيف[٢] مِن الذِّكر بمعنى التذكّر. ويجوز أن يراد بـ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ ما نطق ببُطلان مقالتهم المذكورة مِن الآيات الكريمةِ الواردة على أساليبَ مختلفة. ومعنى التصريفِ فيه: جعلُه مكانًا له، أي: أوقعنا فيه التصريفَ كقوله:

يجرَحْ في عراقيبها نَصْلي[٣]

وقد جُوّز أن يراد به إبطال إضافتهم إليه تعالى البنات، وأنت تعلم أنّ إبطالها مِن آثار القرآن ونتائجها. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: والحال أنّه ما يزيدهم ذلك

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وإبراهيم النخَعي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

[٣] جزء مِن عجز بيت، وهو بتمامه:
وإن تعتذر بالمَحْل عن ذي ضُروعِها
على الضيف يجرَح في عَراقيبها نَصْلي
والبيت لذي الرُّمّة في ديوانه بشرح الباهلي، ص ١٥٦، وفي شرحه: إن لم يجُد ضَرع إبلي باللبن للضيف زمن الجَدب ذبحتها بسيفي له. وهو له في شرح المفصَّل لابن يعيش، ٣٩/٢، على ما نحن فيه، وانظر في تخريجه أقوالًا أخرى في شرح الرضيّ على الكافية، ٣٢٩/٤.

التصريف البالغ ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحقّ وإعراضًا عنه، فضلًا عن التذكّر المؤدّي إلى معرفة بُطلان ما هم عليه مِن القبائح.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾

﴿قُل﴾ في إظهار بطلان ذلك مِن جهة أخرى ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ﴾ تعالى ﴿ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي: المشركون قاطبةً، وقرئ بالتاء[١] خطابًا لهم مِن قِبَل النبي صلّى الله عليه وسلّم، و"الكافُ" في محلّ النصب على أنّها نعت لمصدر محذوف، أي: كونًا مشابهًا لِما يقولون، والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة.

﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ جواب عن مقالتهم الشنعاء وجزاء لـ﴿لَّوْ﴾، أي: لطلبوا ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: إلى مَن له المُلك والربوبيّة على الإطلاق ﴿سَبِيلًا﴾ بالمغالبة والممانعة، كما هو دَيدن الملوك بعضِهم مع بعض، على طريقة قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء، ٢٢/٢١]. وقيل: بالتقرّب إليه تعالى كقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء، ٥٧/١٧].[٢]

[٣٧٥ظ] والأوّل هو الأظهر الأنسب لقوله: / ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ فإنّه صريح في أنّ المراد بيان أنّه يلزم ممّا يقولونه محذورٌ عظيم مِن حيث لا يحتسبون. وأمّا ابتغاء السبيل إليه تعالى بالتقرّب فليس ممّا يختصّ بهذا التقرير، ولا هو ممّا يلزمهم مِن حيث لا يشعرون؛ بل هو أمر يعتقدونه رأسًا، أي: تنزّه بذاته تنزُّهًا حقيقًا به. ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾ متباعدًا ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ مِن العظيمة التي هي أن يكون معه آلهة، وأن يكون له بناتٌ، ﴿عُلُوًّا﴾ تعاليًا، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح، ١٧/٧١]، ﴿كَبِيرًا﴾ لا غايةَ وراءه.

كيف لا، وإنّه سبحانه في أقصى غايات الوجود، وهو الوجوب الذاتي، وما يقولونه مِن أنّ له تعالى شركاءَ وأولادًا في أبعد مراتب العدم أعني الامتناع،

---

١ قرأ بها نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٢/٢.

لا لأنّه تعالى في أعلى مراتب الوجود -وهو كونه واجب الوجودِ لذاته- واتّخاذُ الولد مِن أدنى مراتبه -فإنّه مِن خواصّ ما يمتنع بقاؤه- كما قيل، فإنّ ما يقولونه ليس مجرَّد اتّخاذ الولد؛ بل اتّخاذه تعالى له وأن يكون معه آلهةٌ، ولا ريبَ في أنّ ذلك ليس بداخل في حدّ الإمكان فضلًا عن دخوله تحت الوجود، وكونُه مِن أدنى مراتب الوجود إنّما هو بالنسبة إلى مَن مِن شأنه ذلك.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾

﴿تُسَبِّحُ﴾ بالفَوقانيّة، وقُرئ بالتحتانيّة،[1] وقُرئ: "سَبَّحَتْ"[2] ﴿لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ مِن الملائكة والثقلين، على أنّ المراد بالتسبيح معنًى منتظِم لِما ينطِق به لسان المقال ولسان الحال بطريق عموم المجاز.

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ مِن الأشياء حيوانًا كان أو نباتًا أو جمادًا ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ ملتبِسًا ﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾ أي: ينزِّهه تعالى بلسان الحال عمّا لا يليق بذاته الأقدس مِن لوازم الإمكان ولواحق الحدوث، إذ ما مِن موجود إلّا وهو بإمكانه وحدوثه يدلّ دلالة واضحة على أنّ له صانعًا عليمًا قادرًا حكيمًا واجبًا لذاته قطعًا للسلسلة، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ أيّها المشركون لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يُفهَم ذلك، وقرئ: "لا تُفَقَّهُونَ"[3] على صيغة المبنيّ للمفعول مِن باب التفعيل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة مع ما أنتم عليه مِن موجباتها مِن الإعراض عن التدبّر في الدلائل الواضحة الدالّة على التوحيد، والانهماكِ في الكفر والإشراك ﴿غَفُورٗا﴾ لمَن تاب منكم.

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وطلحة والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١.

[3] ما وجدتها فيما بين يديّ من كتب القراءات والتفسير. وفيها قراءة شاذّة بالبناء للفاعل وتشديد القاف "تَفَقَّهُون"، مَروية عن مالك بن دينار. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥﴾

[٣٧٦و] / ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الناطقَ بالتسبيح والتنزيه ودعوتَهم إلى العمل بما فيه مِن التوحيد ورفضِ الشِّرك وغيرِ ذلك مِن الشرائع، ﴿جَعَلْنَا﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنيّة على دواعي الحِكَم الخفيّة ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أوثرَ الموصول على الضمير ذمًّا لهم بما في حيّز الصلة، وإنّما خُصَّ بالذِّكر كفرهم بالآخرة مِن بين سائر ما كفروا به مِن التوحيد ونحوه دلالة على أنها مُعظَم ما أُمروا بالإيمان به في القرآن، وتمهيدًا لِما سيُنقل عنهم مِن إنكار البعث واستعجاله ونحو ذلك.

﴿حِجَابًا﴾ يحجبهم مِن أن يدركوك على ما أنت عليه مِن النبوّة ويفهموا قَدْرك الجليل، ولذلك اجترأوا على تفوّه العظيمة التي هي قولُهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء، ١٧/٤٧].

وحملُ "الحِجاب" على ما رُوي عن أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنه مِن أنّه لمّا نزلت سورةُ تبّتْ أقبلت العوراء أمُّ جميل امرأةُ أبي لهَب وفي يدها فِهْر[١] والنبيُّ صلّى الله عليه وسلّم قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فلمّا رآها قال: يا رسول الله، لقد أقبلتْ هذه وأخاف أن تراك، قال عليه السلام: «إنّها لن تراني»، وقرأ قرآنًا فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تَرَ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، ممّا لا يقبله الذوق السليم[٢] ولا يساعده النظم الكريم.

﴿مَّسْتُورًا﴾ ذا سَتْر كما في قولهم: "سَيل مُفعَم"، أو مستورًا عن الحسّ بمعنى غيرَ حسّي، أو مستورًا في نفسه بحجاب آخرَ أو مستورًا كونُه حجابًا حيث لا يدرون أنّهم لا يدرون.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ۝٤٦﴾

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية كثيرة جمع "كِنان". ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ مفعول

---

[١] الفِهْر: هو الحَجر ملء الكفّ. لسان العرب لابن منظور، «فهر».

[٢] السياق: وحَمْلُ "الحِجاب"... ممّا لا يقبله...

لأجله، أي: كراهةَ أن يفقهوه، أو مفعول لِما دلّ عليه الكلام، أي: منعناهم أن يقِفوا على كُنهه ويعرِفوا أنّه مِن عند الله تعالى، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صمَمًا وثِقلًا مانعًا مِن سماعه اللائق به، وهذه تمثيلات مُعرِبة عن كمال جهلهم بشئون النبيّ صلّى الله عليه وسلّم / وفرطِ نُبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومَجّ أسماعِهم له، جيء بها بيانًا لعدم فِقْههم لتسبيح لسان المقال إثرَ بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال، وإيذانًا بأنّ هذا التسبيح مِن الظهور بحيث لا يُتصوَّر عدم فهمه إلّا لمانع قويّ يعتري المشاعر فيُبطلها، وتنبيهًا على أنّ حالهم هذا أقبحُ مِن حالهم السابق، لا حكاية لِما قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت، ٤١/٥]. [٣٧٦ظ]

كيف لا، وقَصْدهم بذلك إنّما هو الإخبار بما اعتقدوه في حقّ القرآن والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم جهلًا وكُفرًا مِن اتّصافهما بأوصاف مانعة مِن التصديق والإيمان، ككون القرآن سِحرًا وشِعرًا وأساطيرَ، وقِسْ عليه حال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لا الإخبارُ بأن هناك أمرًا وراء ما أدركوه قد حال بينهم وبين إدراكه حائل مِن قِبَلهم. ولا ريبَ في أنّ ذلك المعنى ممّا لا يكاد يلائم المقام.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ واحدًا غيرَ مشفوعٍ به آلهتُهم، وهو مصدر وقع موقعَ الحال، أصلُه يَحِدُ وَحْدَه. ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾ أي: هربوا ونفَروا ﴿نُفُورًا﴾ أو ولّوا نافرين.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ متلبِسين به مِن اللغو والاستخفاف والهُزْء بك وبالقرآن، يُروى أنّه كان يقوم عن يمينه عليه السلام رجلان مِن عبد الدار وعن يساره رجلان فيُصفِّقون ويصفِرون ويخلِّطون عليه بالأشعار. ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرف لـ﴿أَعْلَمُ﴾، وفائدتُه تأكيد الوعيد بالإخبار بأنّه كما يقع الاستماع المزبور منهم يتعلّق به العِلم، لا أنّ العِلمَ يستفاد هناك مِن أحد.

[٣٧٧و] وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ لكن لا مِن حيث تعلُّقه / بما به الاستماع؛ بل بما به التناجي المدلول عليه بسياق النظم، والمعنى نحن أعلمُ بالذي يستمعون ملتبِسين به ممّا لا خيرَ فيه مِن الأمور المذكورة وبالذي يتناجَون به فيما بينهم، أو الأوّلُ ظرف لـ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ والثاني لـ"يتناجَون"، والمعنى نحن أعلمُ بما به الاستماعُ وقت استماعهم مِن غير تأخير وبما به التناجي وقت تناجيهم. و﴿نَجْوَىٰٓ﴾ مرفوع على الخبريّة بتقدير المضاف، أي: ذوو نجوى، أو هو جَمْع "نَجيّ" كـ"قتلى" جمع "قتيل"، أي: متناجُون.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بدل مِن ﴿إِذْ هُمْ﴾، وفيه دليل على أنّ ما يتناجَون به غيرُ ما يستمعون به، وإنّما وُضع الظالمون موضعَ المُضمَر إشعارًا بأنّهم في ذلك ظالمون مجاوزون للحدّ، أي: يقول كلّ منهم للآخرين عند تناجيهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ ما تتّبعون إن وُجد منكم الإتّباع فرضًا، أو ما تتّبعون باللغو والهُزء ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي: سُحِر فجُنّ، أو رجلًا ذا سَحْر، أي: رئةٍ يتنفّس، أي: بشرًا مثلَكم.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: مثّلوك بالشاعر والساحر والمجنون ﴿فَضَلُّواْ﴾ في جميع ذلك عن منهاج المُحاجّة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى طَعْن يمكن أن يقبله أحد، فيتهافتون ويخبِطون ويأتون بما لا يرتاب في بطلانه أحد، أو إلى سبيل الحقّ والرشاد، وفيه مِن الوعيد وتسلية الرسول صلّى الله عليه وسلّم ما لا يخفى.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ استفهام إنكاري مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث بعد ما آل الحال إلى هذا المآل لِما بين غضاضة الحيّ ويُبوسة الرميم مِن التنائي، كأنّ استحالة الأمر مِن الظهور بحيث لا يقدر المخاطَب

على التكلّم به. والرُّفات: ما بُولغ في دقِّه وتفتيته،[١] وقال الفرّاء: هو التراب،[٢] وهو قولُ مجاهدٍ،[٣] وقيل: هو الحُطام.[٤]

و﴿أَءِذَا﴾ متمحِّضة للظرفيّة، وهو الأظهر، والعاملُ فيها ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ لا نفسُه، لأنّ ما بعد "إنّ" و"الهمزة" و"اللام" لا يعمل فيما قبلها، وهو "نبعث" أو "نعاد" وهو المرجِع للإنكار، وتقييدُه بالوقت المذكور ليس لتخصيص[٥] إنكاره[٦] به، فإنّهم منكرون الإحياء بعد الموت وإن كان البدن على حاله؛ بل لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إليه في حالة منافية له.

وتكرير الهمزة في قولهم: ﴿أَءِنَّا﴾ لتأكيد النكير، وتحليةُ الجملة بـ"إنّ" و"اللام" لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد، كما عسى يُتوَّهم مِن ظاهر النظم، فإنّ تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة، كما في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤/٢] ونظائرِه على رأي الجمهور، فإنّ المعنى عندهم تعقيب الإنكار لا إنكارُ التعقيب كما هو المشهور، وليس مدار إنكارهم كونهم ثابتين في المبعوثيّة بالفعل في حال كونهم عظامًا ورفاتًا كما يتراءى مِن ظاهر الجملة الاسميّة؛ بل كونِهم بعَرَضيّة ذلك / واستعدادِهم له، ومرجعُه إلى إنكار البعث بعد تلك الحالة، وفيه مِن الدلالة على غُلوّهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيدَ عليه. [٣٧٧ظ]

﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ نصب على المصدر مِن غير لفظه، أو الحاليّةِ على أنّ "الخَلْق" بمعنى المخلوق.

﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾

﴿قُلْ﴾ جوابًا لهم وتقريبًا لِما استبعدوه: ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

---

١ اللباب لابن عادل، ٣٠٤/١٢.
٢ معاني القرآن للفرّاء، ١٢٥/٢، اللباب لابن عادل، ٣٠٤/١٢.
٣ جامع البيان للطبري، ٦١٤/١٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٩٨/٥؛ اللباب لابن عادل، ٣٠٤/١٢.
٤ أورده الواحدي في التفسير الوسيط، ١١١/٣؛ وهو عنه في اللباب لابن عادل، ٣٠٤/١٢.
٥ ط س: لتخصيصه.
٦ ط س – إنكاره.

﴿أَوْ خَلْقًا﴾ آخرَ ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: يعظُم عندكم مِن قَبول الحياة لكمال المباينة والمنافاة بينها وبينه، فإنكم مبعوثون ومُعادُون لا محالةَ، ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ مع ما بيننا وبين الإعادةِ مِن مِثل هذه المباعدة والمباينة، ﴿قُلْ﴾ لهم تحقيقًا للحقّ وإزاحة للاستبعاد وإرشادًا لهم إلى طريقة الاستدلال ﴿الذى﴾ أي: يعيدكم القادر العظيم الذي ﴿فَطَرَكُمْ﴾ اخترَعكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مِن غير مثال يحتذيه ولا أسلوب ينتحيه، وكنتم ترابًا ما شمّ رائحة الحياة، أليس الذي يقدِر على ذلك بقادر على أن يعيد العِظام البالية إلى حالتها المعهودة؟ بلى إنّه على كلّ شيء قدير.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: سيحرّكونها نحوك تعجُّبًا وإنكارًا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاءً ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: ما ذكرتَه مِن الإعادة. ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ ذلك ﴿قَرِيبًا﴾ نصب على أنّه خبر لـ﴿يَكُونَ﴾ أو ظرف على أنّ "كان" تامّة، أي: أن يقع في زمان قريب، ومحلُّ ﴿أَن﴾ مع ما في حيّزها إمّا نصب على أنّه خبر لـ﴿عَسَىٰ﴾، وهي ناقصة واسمها ضمير عائد إلى ما عاد إليه هو، أي: عسى البعثُ أن يكون قريبًا، أو عسى البعثُ يقع في زمان قريب، أو رفع على أنّه فاعل لـ﴿عَسَىٰ﴾، وهي تامّة، أي: عسى كونه قريبًا، أو وقوعه في زمان قريب.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ منصوب بفعل مضمَر، أي: اذكروا، أو على أنّه بدل مِن ﴿قَرِيبًا﴾[1] على أنّه ظرف، أو بـ﴿يَكُونَ﴾[2] تامّةً بالاتّفاق، أو ناقصةً عند مَن يجوّز إعمالَ الناقصة في الظروف، أو بضمير المصدر المستكِنّ في ﴿عَسَىٰ﴾[3] أو ﴿يَكُونَ﴾،[4] أعني البعث عند مَن يجوّز إعمالَ ضمير المصدر / كما في قول زهير: [٣٧٨و]

وما الحربُ إلّا ما علِمتُمْ وذُقتمُ وما هو عنها بالحديث المُرجَّمِ[5]

فهو ضميرُ المصدر وقد تعلّق به ما بعده مِن الجارّ.

---

[1] في الآية السابقة.
[2] في الآية السابقة.
[3] في الآية السابقة.
[4] في الآية السابقة.
[5] البيت من معلّقة زهير، وهو في ديوانه، ص ٢٦؛ وهو له في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٧٠/٧؛ واللباب لابن عادل، ٣٠٨/١٢، على ما نحن فيه.

﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي: يوم يبعثكم فتُبعثون، وقد استُعير لهما الدعاء والإجابة إيذانًا بكمال سهولة التأتّي وبأنّ المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجواب ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ حال مِن ضمير ﴿تَسْتَجِيبُونَ﴾، أي: منقادين له حامدين لِما فعَل بكم غيرَ مستعصين، أو حامدين له تعالى على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها ومعاينة أحكامها. ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ عطفٌ على ﴿تَسْتَجِيبُونَ﴾، أي: تظنُّون عندما ترَون ما ترَون مِن الأمور الهائلة، ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم في القبور ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ كالذي مرّ على قرية أو ما لبثُم في الدنيا.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ أي: المؤمنين ﴿يَقُولُواْ﴾ عند محاورتهم مع المشركين ﴿ٱلَّتِى﴾ أي: الكلمةَ التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ ولا يُخاشنوهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت، ٢٩/٤٦].

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يُفسِد ويَهيّج الشرّ والمِراء ويُغري بعضهم على بعض ليقع بينهم المُشاقّة والمُشَارّة والمُعَارّة والمُضَارّة، فلعلّ ذلك يؤدّي إلى تأكُّد العِناد وتمادي الفساد، فهو تعليل للأمر السابق. وقرئ بكسر الزاء.[1] ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ﴾ قِدمًا ﴿لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ظاهرَ العداوة، وهو تعليل لِما سبق مِن أنّ الشيطان ينزَغ بينهم.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بالإماتة على الكفر، وهذا تفسيرُ ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وما بينهما اعتراض، أي: قولوا لهم هذه الكلمة وما يشاكلها ولا تصرِّحوا بأنّهم مِن أهل النار، فإنّه ممّا يَهيجهم على الشرّ، مع أنّ العاقبة ممّا لا يعلمه إلّا الله سبحانه فعسى يهديهم إلى الإيمان.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ موكولًا إليك أمورُهم تقسِرُهم على الإيمان / وإنّما أرسلناك بشيرًا ونذيرًا فدارِهم ومُرْ أصحابَك بالمُداراة والاحتمال وترك المُحَاقّة والمُشَاقّة، وذلك قبل نزول آيةِ السيف. وقيل: نزل في عُمرَ رضي الله تعالى عنه، شتمه رجلٌ فأُمر بالعفو. وقيل: أفرط أذيّةُ المشركين بالمؤمنين فشكَوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنزلت. وقيل: الكلمة التي هي أحسنُ أن يقولوا: يهديكم الله، يرحمكم الله.[١] [٣٧٨ظ]

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وتفاصيل أحوالهم الظاهرة والكامنة التي بها يستأهلون الاصطفاء والاجتباء، فيختار منهم لنبوّته وولايته مَن يشاء ممّن يشاء ممّن يستحقه، وهو ردّ عليهم، إذ قالوا: بعيد أن يكون يتيمُ أبي طالب نبيًّا، وأن يكون العُراة الجُوَّع أصحابَه دون أن يكون ذلك مِن الأكابر والصناديد. وذِكرُ مَن في السماوات لإبطال قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان، ٢١/٢٥]، وذِكرُ مَن في الأرض لردّ قولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣].

﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ بالفضائل النفسانيّة والتنزّه عن العلائق الجسمانيّة لا بكثرة الأموال والأتباع. ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ بيان لحيثيّة تفضيلِه عليه السلام، فإنّ ذلك إيتاء الزَّبور لا إيتاء المُلك والسلطنة، وفيه إيذانٌ بتفضيل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ نعوته الجليلة وكونه خاتمَ النبيّين مسطورة في الزَّبور، وأنّ المراد بعباد الله الصالحين في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء، ١٠٥/٢١] هو النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم وأمّته.

وتعريف "الزَّبور" تارة وتنكيرُه أخرى إمّا لأنّه في الأصل "فَعول" بمعنى "المفعول" كـ"الحَلوب"، أو مصدر بمعناه كـ"القَبول"؛ وإمّا لأنّ المراد آتينا داودَ

---

[١] الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٥/٢.

زَبورًا مِن الزُّبُر، أو بعضًا مِن الزَّبور فيه ذكرُه صلّى الله عليه وسلّم. وقرئ بضمّ الزاء[١] على أنّه جمع "زِبْر" بمعنى "مزبور".

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنّها آلهة ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى مِن الملائكة والمسيح وعُزيرٍ ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون / ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ بالمرّة كالمرض والفقر والقَحطِ ونحو ذلك ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي: ولا تحويلَه إلى غيركم. [٣٧٩و]

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: أولئك الآلهةُ الذين يدعوهم المشركون مِن المذكورين ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون لأنفسهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾ ومالكِ أمورهم ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ القربةَ بالطاعة والعبادة، ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدلٌ مِن فاعل ﴿يَبْتَغُونَ﴾، و"أيُّ" موصولة، أي: يبتغي مَن هو أقربُ إليه تعالى الوسيلةَ فكيف بمَن دونه؟ أو ضُمِّن الابتغاءُ معنى الحِرص، فكأنّه قيل: يحرِصون أيُّهم يكون أقربَ إليه تعالى بالطاعة والعبادة.

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ بها ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ بتركها كدأب سائر العباد فأين هم مِن كَشف الضُّرّ فضلًا عن الإلهيّة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقًا بأن يحذَره كلّ أحد حتّى الملائكةُ والرسل عليهم السلام، وهو تعليل لقوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، وتخصيصه بالتعليل لِما أنّ المقام مَقام التحذير مِن العذاب وإنّ بينهم[٢] وبين العذاب بَونًا بعيدًا.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ بيان لتحتُّم حلول عذابه تعالى بمَن لا يحذَره إثرَ بيان أنّه حقيق

---

[١] قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٥٣/٢.

[٢] وفي هامش م: حاليّة.

بالحذَر وأنّ أساطين الخَلْق مِن الملائكة والنبيّين عليهم السلام على حذَر مِن ذلك. وكلمةُ ﴿إن﴾ نافية و﴿مِن﴾ استغراقيّة، والمراد بـ"القرية" القرية الكافرة، أي: ما مِن قرية مِن قرى الكفّار ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي: مخرّبوها البتّةَ بالخَسْف بها أو بإهلاك أهلها بالمرّة لِما ارتكبوا مِن عظائم المُوبِقات المستوجِبة لذلك، وفي صيغة الفاعل وإن كانت بمعنى المستقبَل ما ليس فيه مِن الدلالة على التحقّق والتقرّر، وإنّما قيل: ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لأنّ الإهلاك يومئذ غيرُ مختصّ بالقرى الكافرة، ولا هو بطريق العقوبة، وإنّما هو لانقضاء عُمر الدنيا.

﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ أي: مُعذِّبو أهلِها على الإسناد المجازي ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لا بالقتل والسَّبْي ونحوهما مِن البلايا الدنيويّة فقط؛ بل بما لا يُكتَنه كُنهُه مِن فنون العقوبات الأخرويّة أيضًا، حسبما يُفصِح عنه إطلاق التعذيب عمّا قُيّد به الإهلاك مِن قَبْليّة يوم القيامة، كيف لا، وكثير مِن القرى العاتية العاصية قد أُخِّرت عقوباتها إلى يوم القيامة.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِر مِن الإهلاك والتعذيب ﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوبًا لم يغادَر منه شيء / [٣٧٩ظ] إلّا بُيِّن فيه بكيفيّاته وأسبابه الموجبة له ووقتِه المضروب له. هذا وقد قيل: الهلاكُ للقُرى الصالحة والعذابُ للطالحة.[1] وعن مقاتل: «وجدتُ في كتاب الضحّاك بن مُزاحِم في تفسيرها أمّا مكّةُ فُيخرِبها الحبشة، وتهلِك المدينة بالجوع، والبصرةُ بالغرَق، والكوفةُ بالتُّرك، والجبالُ بالصواعق والرواجف، وأمّا خراسانُ فهلاكُها ضُروبٌ، ثمّ ذكرها بلدًا بلدًا».[2]

وقال الحافظ أبو عمرو الداني[3] في كتاب الفتن: أنّه رُوي عن وهْب بن مُنبّه

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٦/٢.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٤٩٦/٢.

[3] هو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني، أبو عمرو (ت. ٤٤٤هـ/١٠٥٢م). مِن موالي بني أميّة، المعروف في زمانه بابن الصيرفي، مِن أهل دانيا بالأندلس، مِن حفّاظ الحديث ومِن الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره. قيل: هو أستاذ الأستاذين وشيخ مشايخ المقرئين ومالكيّ المذهب، له أكثر مِن مائة تصنيف منها: **التيسير في القراءات السبع**، **وطبقات القرّاء**، **وجامع البيان في القراءات**، وغيرها. انظر: **غاية النهاية** لابن الجزري، ٥٠٣/١؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٠٦/٤.

أنّ «الجزيرة آمنةٌ مِن الخراب حتّى تخرَب أرمينِيّة،[١] وأرمينِيّةُ آمنة حتّى تخرَب مصرُ، ومصرُ آمنة حتّى تخرَب الكوفة ولا تكون المَلحمَة الكبرى حتّى تخرَب الكوفة، فإذا كانت المَلحمَة الكبرى فُتحت قُسطنطينيّةُ على يَدي رجلٍ مِن بني هاشم، وخرابُ الأندلس مِن قِبَل الزّنْج،[٢] وخرابُ إفريقيّة مِن قِبَل الأندلس، وخرابُ مصرَ مِن انقطاع النّيل واختلافِ الجيوش فيها، وخرابُ العراق مِن الجوع، وخرابُ الكوفة مِن قِبل عدوّ مِن ورائهم يحصُرهم حتّى لا يستطيعون أن يشربوا مِن الفُرات قطرةً، وخرابُ البَصرة مِن قِبَل الغرَق، وخرابُ الأيْلة مِن قبل عدوّ يحصُرهم برًا وبحرًا، وخرابُ الرَّيّ[٣] مِن الدَّيلم،[٤] وخرابُ خُراسانَ مِن قبل التُّبْت،[٥] وخرابُ التُّبت مِن قبل الصِّين، وخرابُ الهندِ واليمن مِن قبل الجرَاد والسلطان، وخرابُ مكّةَ مِن الحبشة، وخرابُ المدينة مِن قِبَل الجُوع».[٦]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «آخرُ قريةٍ مِن قرى الإسلام خرابًا المدينةُ»،[٧] وقد أخرجه العُمري مِن هذا الوجه. وأنت خبير بأنّ تعميم "القرية" لا يساعده السِّباق ولا السّياق.

---

١ أرمِينِيّة: بفتح الهمزة وكسرها، وهي اسم لصقع عظيم واسع مِن جهة الشمال والنسبة إليها أرمني. وقيل: هما أرمينيّتان الكبرى والصغرى، وحدّهما مِن برذعة إلى باب الأبواب ومِن الجهة الأخرى إلى بلاد الروم وجبل القبق وصاحب السرير. وقيل: الكبرى خلاط ونواحيها، والصغرى تفليس ونواحيها. انظر: **معجم البلدان للحموي**، ١/١٥٩.

٢ الزّنج: جيلٌ مِن السودان يتميّز بالجلد الأسود، يسكن حول خطّ الاستواء، وتمتدُّ بلادهم مِن المغرب إلى الحبشة، وبعض بلادهم على نيل مصر، وانظر لِما قيل فيهم في المصادر: **أنساب الأشراف للبلاذُري**، ٧/٢٩٩-٣٠٠؛ و**قلائد الجمان للقلقشندي**، ١/٣٠.

٣ الرّيّ: بفتح أوّله وتشديد ثانيه، مدينة مشهورة مِن أمّهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محطّ الحاجّ على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا، وإلى قزوين سبعة وعشرون، وإلى أبهر اثنا عشر، وإلى زنجان خمسة عشر. انظر: **معجم البلدان للحموي**، ٣/١١٦.

٤ الدَّيلم: كان الديلم في أيّام الأكاسرة إذا خرجوا للغارة عسكروا فيها، وخلّفوا سوادهم لديها وانتشروا في الأرض غائبين، فإذا فرغوا مِن غاراتهم عادوا إليها، ورحلوا إلى مستقرّهم. انظر: **معجم البلدان للحموي**، ٢/٥٤٤.

٥ التُّبت: مملكة متاخمة لمملكة الصين ومتاخمة مِن إحدى جهاتها لأرض الهند، ومِن المشرق لبلاد الهياطلة، ومِن المغرب لبلاد الترك، ولهم مدن وعمائرُ كثيرة ذوات سَعة. انظر: **معجم البلدان للحموي**، ٢/١٠.

٦ **السُّنن الواردة للداني**، ٤/٨٨١ (٤٥٥).

٧ **سنن الترمذي**، ٥/٧٢٠ (٣٩١٩)؛ **مسند البزّار**، ١٤/٣٤٩ (٨٠٤٥)؛ **السُّنن الواردة للداني**، ٤/٨٩٠ (٤٦٠).

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: الآياتِ التي اقترحتها قريش مِن إحياء الموتى وقلب الصَّفا ذهبًا ونحو ذلك ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأشياء، أي: وما منعنا إرسالَها شيء مِن الأشياء إلّا تكذيبُ الأوّلين بها حين جاءتهم باقتراحهم، / [٣٨٠و] وعدمُ إرساله تعالى بها وإن كان بمشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة، لا لمَنْع مانع عن ذلك مِن التكذيب أو غيره لاستحالة العجز عليه تعالى، لكنّ تكذيبهم المذكور بواسطة استتباعه لاستئصالهم بحُكم السُّنّة الإلهيّة، واستلزامِه لتكذيب الآخرين بحُكم الاشتراك في العتوّ والعِناد، وإفضائِه إلى أن يحِلّ بهم مثلُ ما حلّ بهم بحُكم الشِّرْكة في الجَريرة، لمّا كان منافيًا لإرسال ما اقترحوه مِن الآيات لتعيُّن التكذيب المستدعي للاستئصال المخالِف لِما جرى به قلَم القضاء مِن تأخير عقوبات هذه الأمّة إلى الآخرة لحِكَم باهرة مِن جملتها ما يُتوَهم مِن إيمان بعض أعقابِهم،[١] عُبّر عن تلك المنافاة بالمَنْع[٢] على نهج الاستعارة إيذانًا بتعاضد مبادي الإرسال، لا كما زعَموا مِن عدم إرادته تعالى لتأييده عليه السلام بالمعجِزات، وهو السرُّ في إيثار "الإرسال" على "الإيتاء" لِما فيه مِن الإشعار بتداعي الآيات إلى النزول لولا أن تُمسِكها يدُ التقدير.

وإسناد هذا المَنْع إلى تكذيب الأوّلين لا إلى عِلمه تعالى بما سيكون مِن الآخِرين كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال، ٨/٢٣] لإقامة الحجّة عليهم بإبراز الأُنموذج، وللإيذان بأنّ مدار عدم الإجابة إلى إيتاء مقترحِهم ليس إلّا صنيعَهم.

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ عطفٌ على ما يُفصِح عنه النظم الكريم كأنّه قيل: وما منعنا أن نُرسِل بالآيات إلّا أن كذّب بها الأوّلون حيث آتيناهم ما اقترحوا

---

[١] وفي هامش م: وأمّا إيمان بعضهم، كما قيل، فلا يلائم مَقام بيان تماديهم في الكفر والعِناد. «منه».

[٢] السياق: لكنّ تكذيبهم... لمّا كان منافيًا... عُبّر عن تلك...

مِن الآيات الباهرة فكذّبوها، وآتينا ثمودَ[١] الناقةَ[٢] باقتراحهم[٣] ﴿مُبْصِرَةً﴾ على صيغة الفاعل، أي: بَيِّنةً ذاتَ إبصار، أو بصائرَ يدركها الناس، أو أسنِدَ إليها حال مَن يشاهدها مجازًا،[٤] أو جاعلتَهم ذوي بصائرَ مِن "أبصَرَه" جعَله بصيرًا، وقُرئ على صيغة المفعول،[٥] وبفتح الميم والصاد[٦] وهي نصب على الحاليّة، وقرئ بالرفع[٧] على أنّها خبرُ مبتدأ محذوف.

﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ فكفروا بها ظالمين، أي: لم يكتفوا بمجرّد الكفر بها؛ بل فعلوا بها ما فعلوا مِن العَقر، أو ظلموا أنفسهم وعرّضوها للهلاك بسبب عَقرها. ولعلّ تخصيصَها بالذِّكر لِما أنّ ثمودَ عرب مثلهم وأنّ لهم مِن العلم بحالهم ما لا مزيدَ عليه حيث يشاهدون آثارَ / هلاكِهم ورودًا وصُدورًا، أو لأنّها مِن جهة [٣٨٠ظ] إنّها حيوان أُخرِج مِن الحَجر أوضحُ دليل على تحقّق مضمونِ قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.[٨]

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ﴾ المقترَحة ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ لمَن أُرسِلت هي عليهم ممّا يعقُبها مِن العذاب المستأصِل كالطليعة له، وحيث لم يخافوا ذلك فُعل بهم ما فُعل فلا مَحلّ للجملة حينئذ مِن الإعراب، ويجوز أن يكون حالًا مِن ضمير ﴿ظَلَمُواْ﴾، أي: فظلموا بها ولم يخافوا عاقبته، والحالُ أنّا ما نُرسِل بالآيات التي هي مِن جملتها إلّا تخويفًا مِن العذاب الذي يعقُبها، فنزَل بهم ما نزَل.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ أي: عِلمًا، كما نقله الإمامُ الثعلبيُّ

---

[١] ط س: باقتراحهم. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف في هذه واللتين بعدها، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.
[٢] ط س: ثمود.
[٣] ط س: الناقة.
[٤] وفي هامش م: للمبالغة إذ فيه إيماء إلى أنّ مدار الإبصار ليس مِن قبل المشاهِدين؛ بل مِن المشاهَد. «منه».
[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.
[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وابن أبي عبلة وعليّ بن الحسين. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٧.
[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. اللباب لابن عادل، ٣١٩/١٢.
[٨] الإسراء، ٥٠/١٧.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما،[١] فلا يخفى عليه شيء مِن أفعالهم الماضية والمستقبَلة مِن الكفر والتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ إلى آخر الآية تنبيهٌ على تحقّقها[٢] بالاستدلال عليها بما صدَر عنهم عند مجيء بعض الآيات لاشتراك الكلّ في كونها أمورًا خارقة للعادات منزَّلة مِن جناب الله سبحانه لتصديق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فتكذيبهم لبعضها مستلزِم لتكذيب الباقي، كما أنّ تكذيب الآخرين بغير المقترَحة يدلّ على تكذيبهم بالآيات المقترَحة.

والمراد بـ﴿ٱلرُّءْيَا﴾ ما عاينه صلّى الله عليه وسلّم ليلة المِعراج مِن عجائب الأرضِ والسماء حسبما ذُكر في فاتحة السورة الكريمة. والتعبير عن ذلك بـ﴿ٱلرُّءْيَا﴾ إمّا لأنّه لا فرقَ بينها وبين الرؤية، أو لأنّها وقعت بالليل، أو لأنّ الكفرة قالوا: لعلّها رؤيا، أي: وما جعلنا الرؤيا التي أريناكها عِيانًا، مع كونها آيةً عظيمة وأيّةُ آيةٍ! حقيقةً بأن لا يتلعثَم في تصديقها أحدٌ ممّن له أدنى بصيرة إلّا فتنةً افتُتن بها الناس حتّى ارتدّ بعضهم.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ عطفٌ على الرؤيا، والمرادُ بلَعْنها فيه لَعْن طاعمها على الإسناد المجازي أو إبعادُها عن الرحمة، فإنّها تنبُت في أصل الجحيم في أبعدِ مكانٍ مِن الرحمة، أي: وما جعلناها إلّا فتنة لهم حيث أنكروا ذلك، وقالوا: إنّ محمّدًا يزعُم أنّ الجحيم يحرُق الحجارة، ثمّ يقول: ينبُت فيها الشجرُ / ولقد ضلّوا في ذلك ضلالًا بعيدًا، حيث كابروا قضيّة [٣٨١و] عقولهم، فإنّهم يرَون النعامة تبتلع الجَمْر وقِطَع الحديد المُحماة فلا تضرّها، ويشاهِدون المناديلَ المتّخَذة مِن وبَر السَّمَندَر[٣] تُلقى في النار فلا تؤثّر فيها،

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٩/١٦.

٢ وفي هامش م: أي: تحقُّقِ أفعالهم، أي: عِلمِها يقينًا، مِن "تحقّقتُ الأمر" إذا تيقّنته. «منه».

٣ في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٢: أنّه «دُوَيبّة ببلاد الترك تتّخذ منه مناديلُ، وإذا اتّسختْ طُرِحت في النار، فذهب الوسخ وبقيَ المنديل سالمًا لا تعمل فيه النار»، وذكروا أنّه السَّمَندَر أو السَمندَل، وأنّه دابّة أو طائر. انظر: تاج العروس للزَبيدي، «سمند»؛ وتكملة المعاجم العربيّة لدوزي، «سمند».

ويرَون أنّ في كلّ شجر نارًا.[١] وقرئ بالرفع[٢] على حَذْف الخبر كأنّه قيل: والشجرةُ الملعونةُ في القرآن كذلك.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بذلك وبنظائرها مِن الآيات فإنّ الكلّ للتخويف. وإيثارُ صيغة الاستقبال للدلالة على التجدّد والاستمرار. ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويفُ ﴿إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا﴾ متجاوزًا عن الحدّ، فلو أنّا أُرسلنا بما اقترحوه مِن الآيات لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها، وفُعِل بهم ما فُعِل بأشياعهم، وقد قضينا بتأخير العقوبة العامّة لهذه الأمّة إلى الطامّة الكبرى. هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم.

وقد حمَل أكثر المفسّرين الإحاطة على الإحاطة بالقدرة تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا عسى يعتريه مِن عدم الإجابة إلى إنزال الآيات التي اقترحوها؛ لأنّ إنزالها ليس بمصلحة مِن نوع حزن مِن طَعْن الكفَرة حيث كانوا يقولون: لو كنتَ رسولًا حقًّا لأتيتَ بهذه المعجزات كما أتى بها موسى وغيره مِن الأنبياء عليهم الصلاة السلام، فكأنّه قيل: اذكر وقتَ قولنا لك: إنّ ربّك اللطيف بك قد أحاط بالناس فهمْ في قبضة قدرته، لا يقدرون على الخروج مِن مشيئته فهو يحفَظك منهم، فلا تهتمّ بهم وامضِ لِما أمرتُك به مِن تبليغ الرسالةِ، ألا ترى أنّ الرؤيا التي أريناك[٣] مِن قبلُ جعلناها فتنةً للناس مُورثةً للشبهة، مع أنّها ما أورثت ضَعفًا لأمرك وفُتورًا في حالك.

وقد فُسِّر الإحاطة بإهلاك قريش يوم بدر،[٤] وإنّما عُبّر عنه بالماضي مع كونه منتظَرًا حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر، ٤٥/٥٤] وقولُه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران، ١٢/٣] وغيرُ ذلك، جريًا على عادته سبحانه في إخباره. وأُوّلت الرؤيا بما عسى رآه عليه السلام في المنام مِن مصارعهم،[٥] لِما رُوي أنّه عليه السلام لمّا ورد ماءَ بدر قال: / «واللهِ لكأنّي أنظُر إلى مصارع القوم، وهو يُومئ إلى الأرض، [٣٨١ظ]

---

[١] الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٢.

[٣] ط س: أرينا.

[٤] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٩٦/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠٨/٢.

[٥] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠٨/٢.

هذا مصرَع فلان وهذا مصرع فلان»»،[١] فتسامعت به قريش فاستسخروا منه، وبما رآه عليه السلام[٢] أنّه سيدخل مكّةَ وأخبر به أصحابَه فتوجّه إليها فصدّه المشركون عامَ الحديبية، واعتُذِر عن كون ما ذُكر مدنيًا بأنّه يجوز أن يكون الوحيُ بإهلاكهم وكذا الرؤيا واقعًا بمكّة، وذِكرُ الرؤيا وتعيينُ المَصارع واقعَين بعد الهجرة.[٣]

وأنت خبير بأنّه يلزم منه أن يكون افتتان الناس بذلك واقعًا بعد الهجرة، وأن يكون ازديادهم طغيانًا متوقَّعًا غيرَ واقع عند نزول الآية.

وقد قيل: الرؤيا ما رآه عليه السلام في وقعة بدر مِن مضمون قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ [الأنفال، ٤٣/٨].[٤] ولا ريبَ في أنّ تلك الرؤيا مع وقوعها في المدينة ما جُعلت فتنة للناس.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تذكير لِما جرى منه تعالى مِن الأمر ومِن الملائكة مِن الامتثال والطاعة مِن غير تردّد، وتحقيقٌ لمضمون ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء، ٥٧/١٧]. ويُعلَم مِن حال الملائكة حالُ غيرهم مِن عيسى وعُزيرٍ عليهما السلام في الطاعة وابتغاء الوسيلة ورجاء الرحمة ومخافة العذاب، ومِن حال إبليسَ حالُ مَن يعاند الحقّ ويُخالِف الأمر، أي: واذكر وقتَ قولنا لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ تحيّة وتكريمًا لِما له مِن الفضائل المستوجِبة لذلك، ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ له مِن غير تلعثُم امتثالًا للأمر وأداءً لحقِّه عليه السلام، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وكان داخلًا في زُمرتهم مندرِجًا تحت الأمر بالسجود.

﴿قَالَ﴾ أي: عندما وُبِّخ بقوله عزّ سلطانه: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر، ٣٢/١٥]، وقولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف، ١٢/٧]،

---

[١] بلفظ قريب في صحيح مسلم، ١٤٠٣/٣ (١٧٧٩)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ١٤٧/١٠ (١٠٢٧٠)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠٨/٢.

[٢] السياق: وأوّلت الرؤيا بما عسى... وبما رآه...

[٣] الكلام بمعناه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠٨/٢.

[٤] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠٨/٢.

وقولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا[١] خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص، ٧٥/٣٨]، كما أشير إليه في سورة الحِجر.[٢] ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ / وأنا مخلوق مِن العنصر العالي ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [٣٨٢و] نصب على نزع الخافض، أي: مِن طين، أو حالٌ مِن الراجع إلى الموصول، أي: خلقتَه وهو طين، أو مِن نفس الموصول، أي: أأسجُد له وأصلُه طين؟ والتعبيرُ عنه عليه السلام بالموصول لتعليل إنكاره بما في حيّز الصلة.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: إبليسُ لكن لا عَقيبَ كلامه المحكيّ؛ بل بعد الإنظار المترتِّب على استنظاره المتفرّع على الأمر بخروجه مِن بين الملأ الأعلى باللعن المؤبّد، وإنّما لم يُصرَّح بذلك اكتفاءً بما ذُكِر في مواضعَ أُخرَ، فإنّ توسيطَ ﴿قَالَ﴾ بين كلامَي اللعين للإيذان بعدم اتّصال الثاني بالأوّل وعدم ابتنائه عليه؛ بل على غيره، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ [الحجر، ٥٧/١٥] بعد قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر، ٥٦/١٥].

﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ "الكاف" لتأكيد الخطاب لا محلّ لها مِن الإعراب، و﴿هَٰذَا﴾ مفعول أوّلُ والموصولُ صفته، والثاني محذوف لدلالة الصلة عليه، أي: أخبِرْني عن هذا الذي كرّمته عليّ بأن أمَرتَني بالسجود له لِمَ كرّمتَه عليّ؟ وقيل: ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ حُذف عنه حرف الاستفهام والموصولُ مع صلته خبره، ومقصودُه الاستصغار والاستحقار، أي: أخبِرْني أهذا مَن كرّمتَه عليّ؟ وقيل: معنى أرأيتَك "أتأمّلتَ"، كأنّ المتكلِّم ينبّه المخاطَب على استحضار ما يخاطبه به عَقيبه.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ حيًا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كلام مبتدأ، و"اللام" موطِّئة للقسَم وجوابُه قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: لَأستأصِلَنّهم، مِن قولهم: "احتنَك الجرادُ الأرض" إذا جرّد ما عليها أكلًا، أو لأقودنّهم حيثما شئتُ ولأستولِينّ عليهم

---

[١] م س: لمَن.

[٢] في تفسير الآية الثانية والثلاثين منها.

استيلاء قويًا، مِن قولهم: "حنكْتُ الدابّةَ" و"احتنكتُها" إذا جعلتَ في حنَكها الأسفل حبلًا تقودُها به، / وهذا كقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر، ٣٩/١٥]. وإنّما عَلِم تَسَنّيَ ذلك المطلَب له تلقّيًا مِن جهة الملائكةِ عليهم السلام، أو استنباطًا مِن قولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة، ٣٠/٢]، أو توسُّمًا مِن خَلْقه. [٣٨٢ظ]

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم، وهم المخلَصون الذين عصمهم الله تعالى.

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾

﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ أي: امضِ لشأنك الذي اخترتَه، وهو طرد له وتخلية بينه وبين ما سوّلت له نفسه. ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أي: جزاؤك وجزاؤهم فغُلّب المخاطَب على الغائب رعايةً لحَقّ المتبوعيّة ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي: جزاءً مكمَّلًا مِن قولهم: "فِرْ لصاحبِك عِرضَه فِرَةً"، أي: وفّر، وهو نصب على أنّه مصدر مؤكِّد لِما في قوله: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ مِن معنى "تُجازُون"، أو للفعل المقدَّر، أو حال موطِّئة لقوله: ﴿مَّوْفُورًا﴾.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ أي: استخفّ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ أن تستفِزّه ﴿بِصَوْتِكَ﴾ بدعائك إلى الفساد ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ أي: صِحْ عليهم مِن "الجَلَبة" وهي: الصِّياح، ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: بأعوانك وأنصارك مِن راكِب وراجِل مِن أهل العبث والفساد. قال ابن عبّاس رضيَ الله عنهما ومجاهدٌ وقتادةُ: إنّ له خيلًا ورَجِلًا مِن الجنّ والإنس، فما كان مِن راكِب يقاتل في معصية الله تعالى فهو مِن خَيل إبليس، وما كان مِن راجِل يقاتل في معصية الله تعالى فهو مِن رَجِل إبليس.[١]

---

[١] بمعناه في جامع البيان للطبري، ٦٥٨/١٤-٦٥٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٠٥/٥.

والخيلُ: الخيّالة، ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «يا خيلَ الله اركبي».[١] والرَّجْلُ: اسمُ جمع للراجل كـ"الصَّحْب" و"الرَّكْب"، وقرئ بكسر الجيم وهي قراءةُ حفصٍ على أنّه فَعِلٌ بمعنى فاعل كـ"تعِب" و"تاعب"، وبضمّه[٢] مثلُ "حدِث" و"حدُث"، و"ندِس" و"ندُس"، ونظائرِهما، أي: جمعك الراجل ليطابق الخيل، وقرئ: "رِجَالِكَ"[٣] و"رُجَّالِكَ".[٤] ويجوز أن يكون استفزازه بصوته وإجلابه بخيله ورَجْله تمثيلًا لتسلّطه على مَن يُغويه، فكأنّه مِغوارٌ أَوْقَع على قوم فصوَّت بهم / صوتًا يزعجهم مِن أماكنهم ويُقلِقهم عن مراكزهم، وأجْلَب عليهم بجُنده مِن خَيّالة ورَجّالة حتّى استأصلهم. [٣٨٣و]

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بحملهم على كَسْبها وجَمْعها مِن الحرام والتصرّف فيها على ما لا ينبغي، ﴿وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ بالحثّ على التوصّل إليهم بالأسباب المحرَّمة والإشراكِ، كتسميتهم بـ"عبد العُزّى" والتضليل بالحَمْل على الأديان الزائغة والحِرَف الذميمة والأفعال القبيحة.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ المواعيدَ الباطلة، كشفاعة الآلهة، والاتّكالِ على كرامة الآباء، وتأخيرِ التوبة بتطويل الأمل. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ اعتراض لبيان شأن مواعيده، والالتفاتُ إلى الغَيبة لتقوية معنى الاعتراض، مع ما فيه مِن صَرْف الكلام عن خطابه وبيانِ شأنه للناس، ومِن الإشعار بعلّيّة شيطنته للغرور، وهو تزيينُ الخطأ بما يُوهِم أنّه صواب.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الإضافة للتشريف، وهم المخلَصون، وفيه أنّ مَن تبِعه ليس منهم، وأنّ الإضافة[٥] لثبوت الحُكم في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾

---

[١] جامع البيان للطبري، ٣٦٣/٨ (المائدة، ٣٣/٥)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ١٥٨/١٣ (١٠١٠٦)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٩/٢.

[٢] قرأ بها العشرة إلّا حفصًا. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وقتادة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن جابر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

[٥] ط س + عليه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

أي: تسلُّط وقُدرة على إغوائهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل، ١٦/٩٩].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ لهم يتوكّلون عليه ويستمِدّون به في الخلاص عن إغوائك. والتعرّض لوصف الربوبيّة المنبئة عن المالكيّة المطلقة والتصرّف الكلّي مع الإضافة إلى ضمير إبليسَ للإشعار بكيفيّة كفايته تعالى لهم، أعني سَلْب قدرته على إغوائهم.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦﴾

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ مبتدأ وخبر، والإزجاء: السَّوق حالًا بعد حال، أي: هو القادر الحكيم الذي يسوق لمنافعكم الفُلك ويُجريها في البحر ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ مِن رزقه الذي هو فَضْل مِن قِبَله أو مِن الربح الذي هو مُعطيه. و﴿مِن﴾ مزيدة أو تبعيضيّة. وهذا تذكير لبعض النِّعم التي هي دلائل التوحيد وتمهيدٌ لذِكر توحيدهم عند مِساس الضرّ تكملةً لِما مرّ / مِن قوله تعالى: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ﴾، الآية.[1] [٣٨٣ظ]

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ﴾ أزلًا وأبدًا ﴿رَحِيمٗا﴾ حيث هيّأ لكم ما تحتاجون إليه وسهّل عليكم ما يَعسُر مِن مباديه، وهذا تذييل فيه تعليل لِما سبق مِن الإزجاء لابتغاء الفَضْل. وصيغة "الرحيم" للدلالة على أنّ المراد بالرحمة الرحمةُ الدنيويّة والنعمةُ العاجلة المنقسمة إلى الجليلة والحقيرة.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ خوفُ الغرقِ فيه ﴿ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ﴾ أي: ذهب عن خواطركم ما كنتُم تَدْعون مِن دون الله مِن الملائكة أو المسيح أو غيرهم ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وحدَه مِن غير أن يخطُر ببالكم أحد منهم وتدعُوه لكشفه استقلالًا أو اشتراكًا، أو ضلّ كلُّ مَن تدعُونه عن إغاثتكم وإنقاذكم ولم يقدِر على ذلك إلّا الله، على الاستثناء المنقطِع.

---

[1] الإسراء، ١٧/٥٦.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ مِن الغرق وأوصَلكم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن التوحيد، أو اتّسعتم في كُفران النعمة. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ تعليل لِما سبَق مِن الإعراض.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾

﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزة للإنكار و"الفاء" للعطف على محذوف تقديره: أنَجوتُم فأمِنتُم ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ الذي هو مأمنكم، أي: يَقلِبَه مُلتبِسًا بكم أو بسبب كونكم فيه. وفي زيادة "الجانب" تنبيهٌ على تساوي الجوانب والجهات بالنسبة إلى قدرته سبحانه وقهره وسلطانه، وقرئ بنون العظمة.[1]

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ مِن فوقكم، وقرئ بالنون،[2] ﴿حَاصِبًا﴾ ريحًا ترمي بالحَصْباء. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يحفَظكم مِن ذلك أو يصرِفه عنكم، فإنّه لا رادَّ لأمره الغالب.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر، أُوثرت كلمةُ "في" على كلمة "إلى" المنبئةِ عن مجرَّد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه. ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ إسناد الإعادة إليه تعالى مع أنّ العَود باختيارهم باعتبار خَلْق الدواعي المُلجئة لهم إلى ذلك، وفيه إيماءٌ إلى كمال شِدّة هَولِ ما لاقَوه في التارة الأولى، بحيث لولا الإعادةُ / لَما عادوا. [٣٨٤و]

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ وأنتم في البحر، وقرئ بالنون،[3] ﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ وهي التي لا تمرّ بشيء إلّا كسرَتْه وجعلتْه كالرميم، أو التي لها قصيف: وهو الصوت الشديد، كأنّها تتقصّف، أي: تتكسّر. ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ بعد كَسْر فُلْككم كما ينبئ عنه

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٨.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٨.

[3] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٨.

عنوان القَصْف، وقرئ بالنون[١] وبالتاء[٢] على الإسناد إلى ضمير ﴿ٱلرِّيحِ﴾. ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراككم، أو كفرانِكم لنعمة الإنجاء.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ أي: ثائرًا يطالبنا بما فعلنا انتصارًا منّا ودَرْكًا للثأر مِن جهتنا، كقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس، ١٥/٩١].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ قاطبةً تكريمًا شاملًا لبَرّهم وفاجرِهم، أي: كرّمناهم بالصورة والقامة المعتدِلة والتسلّط على ما في الأرض والتمتّع به والتمكّن مِن الصناعات وغير ذلك ممّا لا يكاد يُحيط به نِطاق العبارة. ومِن جملته ما ذكَره ابن عبّاس رضي الله عنهما مِن أنّ كلّ حيوان يتناول طعامه بفيه إلّا الإنسان، فإنّه يرفعه إليه بيده.[٣] وما قيل مِن شِرْكة القِرد له في ذلك مبنيّ على عدم الفرق بين اليد والرِّجل، فإنّه متناول له برِجله التي يطأ بها القاذورات لا بيده.

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ على الدوابّ والسُّفن، مِن "حملْتُه" إذا جعلتَ له ما يركَبه، وليس مِن المخلوقات شيء كذلك. وقيل: حملناهم فيهما حيث لم يخسِف بهم الأرض ولم يُغرِقهم الماء، وأنت خبير بأنّ الأوّل هو الأنسب بالتكريم، إذ جميع الحيوانات كذلك. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: فنون النِّعم وضُروب المستلَذّات ممّا يحصُل بصُنعهم وبغير صُنعِهم.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ في العلوم والإدراكات بما ركّبنا فيهم مِن القُوى المدرِكة التي بها يتميّز الحقّ مِن الباطل والحسَن مِن القبيح، ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ وهم مَن عدا الملائكةِ عليهم السلام ﴿تَفْضِيلًا﴾ عظيمًا فحَقّ عليهم / أن [٣٨٤ظ] يشكروا هذه النِّعم ولا يكفروها، ويستعملوا قُواهم في تحصيل العقائد الحَقّة،

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

[٢] قرأ بها أبو جعفر ورُويس. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

[٣] مرويّ بمعناه عن ابن جُريج في جامع البيان للطبري، ٥/١٥؛ وعن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ١٠٨/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠١/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٣٩/١٢.

ويرفضوا ما هم عليه مِن الشِّرك الذي لا يقبَله أحد ممّن له أدنى تمييز فضلًا عمّن فُضِّل على مَن عدا الملأ الأعلى الذين هم العقول المَحضة، وإنّما استُثنيَ جنس الملائكة مِن هذا التفضيل؛ لأنّ علومَهم دائمةٌ عارية عن الخطأ والخَلَل، وليس فيه دلالة على أفضليّتهم بالمعنى المتنازَع فيه، فإنّ المراد[1] بيان التفضيل في أمر مشترَك بين جميع أفراد البشر صالحِها وطالحِها، ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضلَ في عِظم الدرجة وزيادةِ القُربة عند الله سبحانه.

إن قيل: أيُّ حاجةٍ إلى تعيين ما[2] فيه التفضيل بعد بيان ما هو المراد بالمفضَّلين؟ فإنّ استثناء الملائكة عليهم السلام مِن تفضيل جميع أفراد البشر عليهم لا يستلزِم استثناءهم مِن تفضيل بعض أفراده عليهم. قلنا: لا بدّ مِن تعيينه البتّةَ، إذ ليس مِن الأفراد الفاجرة للبشر أحد يُفضَّل على أحد مِن المخلوقات فيما هو المتنازَع فيه أصلًا؛ بل هم أدنى مِن كلّ دنيء، حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾[3] [الأعراف، ١٧٩/٧]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال، ٥٥/٨].

﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١﴾

﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ﴾ نصب على المفعوليّة بإضمار "اذكر"، أو ظرفٌ لِما دلّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾، وقرئ بالياء[4] على البناء للفاعل وللمفعول،[5] و"يُدْعَوْ"[6] بقلب الألف واوًا على لغة مَن يقول في "أَفْعَى": أَفْعَوْ. وقد جُوِّز كون "الواو" علامةَ الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾ [طه، ٦٢/٢٠]،

---

[1] وفي هامش م: هنا.
[2] وفي هامش م: مِن العلوم والإدراكات التي هي مَناط تمييز الحقّ مِن الباطل والحسَن من القبيح، كما مرّ. «منه».
[3] م س + سبيلًا.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وقتادة والعمري عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٩.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٩.
[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٢.

أو ضميرَه، و﴿كُلَّ﴾ بدلًا منه، و"النونُ" محذوفة لقلّة المبالاة بها، فإنّها ليست إلّا علامة الرفع، وقد يُكتفى بتقديره كما في "يُدْعَى".

﴿كُلَّ أُنَاسٍ﴾ مِن بني آدمَ الذين فعلنا بهم في الدنيا ما فعلنا مِن التكريم والتفضيل. وهذا شروع في بيان تفاوت أحوالهم في الآخِرة بحسب أحوالهم وأعمالهم في الدنيا. ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ أي: بمَن ائتمّوا به مِن نبيّ، أو مقدَّم في الدِّين، أو كتابٍ، أو دِين. وقيل: بكتاب أعمالِهم التي قدّموها، فيقال: / يا أصحاب كتاب الخير، يا أصحابَ [٣٨٥و] كتاب الشرّ، أو يا أهل دِين كذا، يا أهل كتاب كذا.[١] وقيل: "الإمَام" جمعُ "أُمّ" كـ"خُفّ" و"خِفاف"،[٢] والحكمةُ في دعوتهم بأمّهاتهم إجلال عيسى عليه السلام وتشريف الحسنين رضي الله تعالى عنهما، والسَّتر على أولاد الزِّنا.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ يومئذ مِن أولئك المدعوّين ﴿كِتَابَهُ﴾ صحيفةَ أعماله ﴿بِيَمِينِهِ﴾ إبانة لخطر الكتاب المؤتى وتشريفًا لصاحبه وتبشيرًا له مِن أوّل الأمر بما في مطاويه، ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَنْ﴾ باعتبار معناه إيذانًا بأنّهم حزب مجتمِعون على شأن جليل، أو إشعارًا بأنّ قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد كما في حال الإيتاء.

وما فيه مِن الدلالة على البعد للإشعار برفعة درجاتهم، أي: أولئك المختصُّون بتلك الكرامة التي يُشعِر بها الإيتاء المزبور ﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ الذي أوتوه على الوجه المبيَّن تبجّحًا بما سُطِّر فيه مِن الحسنات المستتبِعة لفنون الكرامات. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يُنقَصون مِن أجور أعمالهم المرتسِمة في كتبهم؛ بل يؤتَونها مضاعَفةً. ﴿فَتِيلًا﴾ أي: قدْرَ فتيل: وهو القِشرة التي في شقّ النواة، أو أدنى شيء، فإنّ الفَتيل مثَل في القِلّة والحَقارة.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَمَن كَانَ﴾ مِن المَدعوّين المَذكورين ﴿فِي هَٰذِهِ﴾ الدنيا التي فُعِل بهم فيها

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٢.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٢، وذكر أنّه مِن بِدع التفاسير.

ما فُعِل مِن فنون التكريم والتفضيل ﴿أَعۡمَىٰ﴾ فاقدَ البصيرة[١] لا يهتدي إلى رُشده ولا يعرِف ما أوليناه مِن نعمة التكرِمة والتفضيل فضلًا عن شكرها والقيام بحقوقها، ولا يستعمِل ما أودعنا فيه مِن العقول والقُوى فيما خُلِقنَ له مِن العلوم والمعارِف الحَقّة، ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ التي عُبِّر عنها بـ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ﴾[٢] ﴿أَعۡمَىٰ﴾ كذلك، أي: لا يهتدي إلى ما يُنجيه ولا يَظفَر بما يُجديه؛ لأنّ العمى الأوّلَ موجِب للثاني، وقد جُوِّز كون الثاني بمعنى التفضيل / على أنّ عماه في الآخرة [٣٨٥ظ] أشدّ مِن عماه في الدنيا، ولذلك قرأ أبو عمرو الأوّل مُمَالًا والثاني مفخَّمًا.[٣]

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ أي: مِن الأعمى لزوال الاستعداد الممكِن وتعطُّل الآلات بالكلِّيّة، وهذا بعينه هو الذي أوتيَ كتابه بشماله بدلالة حال ما سبَق مِن الفريق المقابِل له. ولعلّ العدولَ عن ذِكره بذلك العنوان مع أنّه الذي يستدعيه حُسن المقابلة حسبما هو الواقع في سورة الحاقّة[٤] وسورة الانشقاق[٥] للإيذان بالعِلّة المُوجِبة له، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الواقعة، ٩٢/٥٦] بعد قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ[٦] إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة، ٩٠/٥٦]، وللرمز إلى عِلّة حال الفريق الأوّل.

وقد ذُكر في أحد الجانبين المسبَّب وفي الآخر السبب، ودُلّ بالمذكور في كلّ منهما على المتروك في الآخر تعويلًا على شهادة العقل، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾ [يونس، ١٠٧/١٠].

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣﴾

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ نزلت في ثقيف إذ قالوا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

---

[١] س: البصر.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] انظر: النشر لابن الجزري، ٤٣/٢.

[٤] يعني المقابلة بين قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة، ١٩/٦٩]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة، ٢٥/٦٩].

[٥] يعني المقابلة بين قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق، ٧/٨٤]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ [الانشقاق، ١٠/٨٤].

[٦] م س: فأمّا.

«لا ندخُل في أمرك حتّى تُعطيَنا خِصالًا نفتخر بها على العرب لا نُعشَر ولا نُحشَر ولا نحبّي[١] في صلاتنا، وكلُّ رِبًا لنا فهو لنا وكلُّ ربًا علينا فهو موضوع عنّا، وأن تُمتِّعنا باللات سنةً وأن تُحرِّم وادِيَنا وَجَّ كما حرَّمتَ مكّة، فإذا قالت العرب: "لِمَ فعلتَ؟" فقل: "إنّ الله أمرني بذلك"».[٢] وقيل: في قريش حيث قالوا: «اجعل لنا آيةَ رحمةٍ آيةَ عذابٍ وآيةَ عذابٍ آيةَ رحمةٍ».[٣] أو قالوا: «لا نُمكِّنك مِن استلام الحَجر حتّى تُلمّ بآلهتنا».[٤] فـ﴿إن﴾ مخفَّفة مِن المشدَّدة، وضميرُ الشأن الذي هو اسمها محذوف، و"اللام" هي الفارقة بينها وبين النافية، أي: الشأن قارَبوا أن يفتنوك، أي: يخدعوك فاتنين ﴿عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ مِن أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا.

[٣٨٦و] ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ لتتقوَّل / علينا غيرَ الذي أوحينا إليك ممّا اقترحَتْه ثقيفٌ أو قريشٌ حسبما نُقل. ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ أي: لو اتّبعت أهواءهم لكنتَ لهم وليًا ولخرجتَ مِن ولايتي.

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ على ما أنت عليه مِن الحقّ بعِصمتنا لك ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ مِن الركون الذي هو أدنى مَيلٍ، أي: لولا تثبيتُنا لك لَقاربت أن تميل إليهم شيئًا يسيرًا مِن المَيل اليسير لقوّة خُدَعِهم وشدّة احتيالهم، لكن أدركَتْك العصمة فمنعَتْك مِن أن تقرَب مِن أدنى مراتب الركون إليهم فضلًا عن نفس الركون، وهذا صريح في أنّه عليه السلام ما همّ بإجابتهم مع قوّة الداعي إليها، ودليلٌ على أنّ العصمة بتوفيق الله تعالى وعنايته.

---

[١] كذا في الأصول، وهي في المصادر الآتية: "نحني" أو "ننحني".

[٢] بلفظ قريب في أسباب النزول للواحدي، ص ٢٩٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١١/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢.

[٣] بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٤٨/١٢.

[٤] مرويّ عن سعيد بن جُبير بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٣/١٥؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٩٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١١/٥.

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾

﴿إِذًا﴾ لو قاربتَ أن تركنَ إليهم أدنى رَكْنة ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: عذابَ الدنيا وعذابَ الآخرة ضعفَ ما يُعذَّب به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرُك؛ لأنّ خطأ الخطير خطير. وكان أصل الكلام عذابًا ضِعفًا في الحياة وعذابًا ضِعفًا في الممات، بمعنى: مضاعَفًا، ثمّ حُذف الموصوف وأُقيمت الصفةُ مُقامَه، ثمّ أُضيفت إضافةَ موصوفِها. وقيل: الضِعف مِن أسماء العذاب. وقيل: المراد بـ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ عذابُ الآخرة، وبـ﴿ضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ عذابُ القبر. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفَع عنك العذاب.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦﴾

﴿وَإِن كَادُواْ﴾ الكلام فيه كما في الأوّل، أي: كاد أهل مكّة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي: ليُزعِجونك بعداوتهم ومكرِهم ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأرضِ التي أنت فيها وهي أرض مكّة، ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ بالرفع عطفًا على خبر "كاد"، وقُرئ: "لَا يَلْبَثُوا"[1] بالنصب بإعمال ﴿إِذًا﴾ على أنّ الجملة معطوفة على جملة ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾.

/ ﴿خِلَٰفَكَ﴾ أي: بعدك، قال: [٣٨٦ظ]

خلتِ الديار خِلافَهم فكأنّما   بَسَط الشواطِبُ بينهنّ حصيرا[2]

أي: ولو خرجتَ لا يبقَون بعد خروجك، وقُرئ: "خَلْفَكَ".[3]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

[2] البيت مختلف في نسبته: فهو للحارث بن خالد المخزومي في ديوانه، ص ٦٣، وفيه «عَقَب الرَّذاذُ» مكان «خلتِ الديارُ»؛ وهو له في مجاز القرآن لأبي عُبيدة، ٢٦٤/١، وفيه «عَقَب الربيعُ» مكان «خلتِ الديارُ». وهو للأحوص في التفسير البسيط للواحدي، ٥٧٧/١٠ (التوبة، ٨١/٩)، وليس في ديوان الأحوص ولا في ملحقاته. وهو لجرير في العين للفراهيدي، ١٧٩/١، وليس في ديوان جرير. وهو بلا نسبة في جامع البيان للطبري، ٢١/١٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢، وفي مطبوعه «عفَت» مكان «خلَت». والشواطب: النساء اللواتي يُشقِّقن الخُوص ويقشِرنَ العُسُب ليتّخذْنَ منه الحُصر. لسان العرب لابن منظور، «شطب».

[3] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلّا زمانًا قليلًا، وقد كان كذلك فإنّهم أُهلِكوا ببدر بعد هجرته عليه السلام. وقيل: نزلت الآية في اليهود حيث حسدوا مُقامَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة، فقالوا: «الشام مُقام الأنبياء عليهم السلام، فإنْ كنتَ نبيًّا فالحَقْ بها حتّى نُؤمِن بك»، فوقَع ذلك في قلبه عليه السلام، فخرَج مرحلةً، فنزلت فرجع. ثمّ قُتل منهم بنو قريظةَ وأُجليَ بنو النضير بقليلٍ.[1]

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ نصب على المصدريّة، أي: سنّ الله تعالى سُنّةً، وهي أن يُهلك كلّ أمّة أخرجَت رسولهم مِن بين أظهُرهم، فالسُّنّة لله تعالى، وإضافتُها إلى الرسل؛ لأنّها سُنّتْ لأجلهم، على ما ينطِق به قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي: تغييرًا.

﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾

﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ لزوالها،[2] كما ينبئ عنه قولُه عليه السلام: «أتاني جبريلُ عليه السلام لدُلوك الشمس حين زالت فصلّى بي الظهر»،[3] واشتقاقه مِن الدَّلْك؛ لأنّ مَن نظر إليها حينئذ يدلُك عينه. وقيل: لغروبها، مِن "دلَكَتِ الشمسُ"، أي: غرَبت.[4] وقيل: أصل الدُّلوك المَيل، فينتظِم كلا المعنيين. و"اللام" للتأقيت مِثلُها في قولك: "لثلاثٍ خلَوْن".[5]

﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ إلى اجتماع ظلمته، وهو وقت صلاة العِشاء، وليس المراد إقامتَها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار؛ بل إقامةَ كلّ صلاة في وقتها

---

١ بلفظه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١٤/٢.

٢ مرويٌّ عن ابن عبّاس وابن عمرَ وجابر وأكثر التابعين. انظر: جامع البيان للطبري، ٢٥/١٥-٣٠، ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٤/٥.

٣ جامع البيان للطبري، ٢٩/١٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢،

٤ مرويٌّ عن ابن مسعود والنخَعي وغيرهما. انظر: جامع البيان للطبري، ٢٢/١٥-٢٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٤/٥، واختاره الزمخشري في الكشّاف، ٥٠٥/٢.

٥ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١٤/٢.

الذي عُيِّن لها ببيان جبريلَ عليه السلام، كما أنّ أعداد ركعات كلّ صلاة موكولة إلى بيانه عليه السلام. ولعلّ الاكتفاءَ ببيان المبدأ والمنتهى في أوقات الصلوات / مِن غير فَصْل بينها، لِما أنّ الإنسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة، [٣٨٧و] فبعضُها متَّصل ببعض بخلاف أوّل وقت العشاء والفجر، فإنّها باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع أحدهما عن الآخر، ولذلك فُصل وقت الفجر عن سائر الأوقات.[١] والتحديد المذكور بيانٌ لمبدئه ومنتهاه واستُدِلّ به على امتداد وقته.[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: صلاةَ الفجر.[٣] نصب عطفًا على مفعول ﴿أَقِمِ﴾، أو على الإغراء، قاله الزجّاج.[٤] وإنّما سُمِّيت قرآنًا؛ لأنّه رُكنها، كما تُسمّى رُكوعًا وسُجودًا. واستُدلّ به على الركنيّة، ولكن لا دلالةَ له على ذلك لجواز كون مدار التجوّز كون القراءة مندوبة فيها. نعَم لو فُسِّر بالقراءة في صلاة الفجر لدلّ الأمر بإقامتها على الوجوب فيها نصًّا وفيما عداها دلالةً.[٥] ويجوز أن يكون ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ حثًّا على تطويل القراءةِ في صلاة الفجر.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أُظهِر في مقام الإضمار إبانةً لمزيد الاهتمامِ به ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، أو شواهدُ القدرة مِن تبدُّل الضياء بالظلمة والانتباه بالنوم الذي هو أخو الموت، أو يشهَده كثير مِن المصلّين أو مِن حقّه أن يشهَده الجمّ الغفير. فالآية على تفسير الدُّلوك بالزوال جامعة للصلوات الخمس، وعلى تفسيره بالغروب لِما عدا الظهرَ والعصر.

---

[١] ط س + وقيل: المراد بالصلاة صلاة المغرب. | وكانت مُثبتةً في م ثمّ ضُرِب عليها، فكأنّ ذلك وقع بعد نسخ ط س. هذا والقول المذكور مرويٌّ عن قتادة. انظر: جامع البيان للطبري، ٣١/١٥-٣٢، ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٤/٥.

[٢] ط س + إلى غُروب الشفق. | وكانت مُثبتةً في م ثمّ ضُرِب عليها، فكأنّ ذلك وقع بعد نسخ ط س.

[٣] مرويٌّ عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة وغيرهم. انظر: جامع البيان للطبري، ٣٥/١٥، ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٤/٥.

[٤] لم أجِده للزّجّاج. والمذكور في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٩٨/٧، واللباب لابن عادل، ٣٥٩/١٢، أنّه قول الأخفش تبعه عليه أبو البقاء، وذكرا أنّ أصول البصريّين تأباه. وانظر: معاني القرآن للأخفش، ٤٢٦/٢، والتبيان للعكبري، ٨٣٠/٢.

[٥] هذا الاستدلال وما عليه من كلام مذكور بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١٥/٢، وبعضه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٥/٢.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ قيل: هو نصب على الإغراء، أي: الزَم بعضَ الليل.[1] وقيل: لا يكون / المُغرى به حرفًا، ولا يجدي نفعًا كون معناها التبعيضَ، فإنّ واو "مع" ليست اسمًا بالإجماع، وإن كانت بمعنى الاسم الصريح؛[2] بل هو منصوب على الظرفيّة بمضمَر، أي: قُم بعضَ الليل. [٣٨٧ظ]

﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ أي: أزِلْ وألقِ الهجود، أي: النوم، فإنّ صيغة التفعُّل تجيء للإزالة كـ"التحرُّج" و"التحنُّث" و"التأثُّم" ونظائرِها. والضمير المجرور لـ"القرآن" مِن حيث هو، لا بقيد إضافته إلى الفجر أو للبعض المفهوم مِن قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: تهجّد في ذلك البعض، على أنّ "الباء" بمعنى "في". وقيل: منصوب بـ﴿تَهَجَّدۡ﴾، أي: تهجَّدْ بالقرآن بعضَ الليل، على طريقة ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة، ٢/٤٠].[3]

﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ فريضةً زائدة على الصلوات الخمس المفروضة خاصّةً بك دون الأمّة، ولعلّه هو الوجه في تأخير ذِكرها عن ذِكر صلاة الفجر مع تقدّم وقتها على وقتها، أو تطوّعًا،[4] لكن لا لكونها زيادة على الفرائض؛ بل لكونها زيادة له صلّى الله عليه وسلّم في الدرجات، على ما قال مجاهدٌ والسدّي،[5] فإنّه عليه السلام مغفور له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر فيكون تطوُّعه زيادةً في درجاته، بخلاف مَن عداه مِن الأمّة، فإنّ تطوُّعهم لتكفير ذنوبهم وتدارُكِ الخَلَل الواقع في فرائضهم.

وانتصابُها إمّا على المصدريّة بتقدير "تَنَفَّلْ"، أو بجَعْل ﴿تَهَجَّدۡ﴾ بمعناه، أو بجَعْل ﴿نَافِلَةٗ﴾ بمعنى تهجُّدًا، فإنّ ذلك عبادة زائدة، وإمّا على الحاليّة مِن الضمير الراجع إلى القرآن، أي: حالَ كونها صلاة نافلة، وإمّا على المفعوليّة لـ﴿تَهَجَّدۡ﴾،

---

[1] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٥.

[2] هذا الردُّ مذكور في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٧/٣٩٨؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٣٦٠.

[3] يعني: من ناحية التقدير، فهو في الآية: وإيّايَ ارهبوا فارهبون. انظر: مفتاح العلوم للسكّاكي، ص ٣٥٩.

[4] السياق: فريضة... أو تطوُّعًا...

[5] انظر: جامع البيان للطبري، ١٥/٤١.

إذا جُعل بمعنى "صلِّ" وجُعل الضمير المجرور للبعض، أي: فَصَلِّ في ذلك البعض نافلةً لك.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ﴾ / الذي يُبلِّغك إلى كمالك اللائق بك مِن بعد [٣٨٨و] الموت الأكبر لِما انبعثْتَ مِن النوم الذي هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة، ﴿مَقَامٗا﴾ نصب على الظرفيّة على إضمار "فيُقيمَك"، أو تضمينِ "البعث" معنى الإقامة، إذ لا بدّ مِن أن يكون العامل في مِثل هذا الظرف فعلًا فيه معنى الاستقرار، ويجوز أن يكون حالًا بتقدير مضاف، أي: يبعثك ذا مَقام. ﴿مَّحۡمُودٗا﴾ عندك وعند جميع الناس.[١] وفيه تهوينٌ لمشقّة قيام الليل.

وروى أبو هريرةَ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «المقام المحمود هو المقام الذي أشفَع فيه لأمّتي»،[٢] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: مقامًا يحمَدك فيه الأوّلون والآخرون وتُشرف فيه على جميع الخلائق، تسأل فتُعطى، وتشفَع فتُشفَّع، ليس أحد إلّا تحت لوائك.[٣] وعن حذيفةَ رضي الله تعالى عنه: يُجمَع الناس في صَعيد واحد فلا تتكلّم فيه نفس، فأوّلُ مَدعُوّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم فيقول: «لبّيكَ وسَعْدَيكَ، والشرُّ ليس إليك، والمَهديُّ مَن هَديتَ، وعبدُك بين يديك، وبك وإليك، لا ملجأَ ولا مَنجى منك إلّا إليك، تباركتَ وتعاليتَ، سبحانك ربَّ البيت».[٤]

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ۝٨٠﴾

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي﴾ أي: القبرَ ﴿مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ أي: إدخالًا مَرضيًا ﴿وَأَخۡرِجۡنِي﴾ أي: منه عند البعث ﴿مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ أي: إخراجًا مَرضيًا مُلقًّى بالكرامة، فهو تلقين للدعاء بما وعده مِن البعث المقرون بالإقامة المعهودة التي لا كرامةَ فوقها.

---

[١] وفي هامش م: الخلق.

[٢] مسند أحمد، ١٥/٤٢٧ (٩٦٨٤)؛ جامع البيان للطبري، ١٥/٤٤٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٦.

[٣] التفسير البسيط للواحدي، ١٣/٤٤٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٦. ولم أجده في مظانّه.

[٤] مسند الطيالسي، ١/٣٣٠ (٤١٤)؛ مسند البزّار، ٧/٣٢٩ (٢٩٢٦)؛ جامع البيان للطبري، ١٥/٤٣-٤٤، ٤٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٦.

وقيل: المراد إدخال المدينة والإخراج مِن مكّةَ.[١] وتغيير ترتيب الوجود لكون الإدخال هو المقصدَ، وقيل: إدخالُه عليه السلام مكّةَ ظاهرًا عليها، / وإخراجُه [٣٨٨ظ] منها آمنًا مِن المشركين. وقيل: إدخاله الغارَ وإخراجُه منه سالمًا. وقيل: إدخاله فيما حُمِّله مِن أعباء الرسالة، وإخراجُه منه مؤدّيًا حَقَّه. وقيل: إدخاله في كلّ ما يلابسه مِن مكان أو أمر وإخراجُه منه.[٢] وقرئ: "مَدْخَلَ" و"مَخْرَجَ" بالفتح[٣] على معنى: أدخلني فأدخُلَ دخولًا وأخرجني فأخرُجَ خروجًا، كقوله:

وعَضّةُ دهرٍ يا بنَ مروانَ لم يدَع مِن المال إلّا مُسحَتٌ أو مُجلَّفُ[٤]

أي: لم يدَع فلم يَبْقَ.

﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ حجّةً تنصُرني على مَن يخالفني، أو مُلكًا وعِزًّا ناصرًا للإسلام مُظهِرًا له على الكفر، فأجيبت دعوته عليه السلام بقوله عزّ وعلا: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة، ٥/٦٧]، ﴿فَإِنَّ[٥] حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة، ٥/٥٦]، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف، ٦١/٩]، ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور، ٢٤/٥٥].

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإسلام والوحيُ الثابت الراسخ ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: ذهب وهلَك الشِّرك والكفر وتسويلات الشيطان، مِن "زهَق روحُه" إذا خرَج. ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ﴾ كائنًا ما كان ﴿كَانَ زَهُوقًا﴾ أي: شأنه أن يكون مضمحِلًا غيرَ ثابت، وهو عِدَة كريمة بإجابة الدعاء بالسلطان النصير الذي لُقِّنه.

---

[١] مرويٌّ عن ابن عبّاس والحسن وقتادة. انظر: **مسند أحمد**، ٣/٤١٧ (١٩٤٨)؛ و**سنن الترمذي**، ٥/٣٦٢ (٣١٣٩)؛ و**جامع البيان للطبري**، ١٥/٥٤-٥٥؛ و**معالم التنزيل للبغوي**، ٥/١٢٢.

[٢] الأقوال الأربعة في **الكشّاف للزمخشري**، ٢/٥٠٦.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي عبلة والمفضّل وحُميد والرفاعي عن يحيى عن أبي بكر. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٢٨٣؛ **المغني في القراءات للنّوزاوازي**، ص ١١٤١.

[٤] البيت للفرزدق في ديوانه، ص ٣٨٦؛ وهو له في **جامع البيان للطبري**، ٨/٤٣٥ (المائدة، ٥/٤٢)؛ و**جمهرة اللغة لابن دريد**، ٣/١٢٥٩، وذكر فيه المعنى الذي أورده المؤلِّف. والرِّواية فيها جميعًا وفي غيرها:

وعضُّ زمان يا بن مروانَ لم يَدَع
من المال إلّا مُسحتًا أو مُجلّفُ

[٥] م س: ألا إنّ.

عن ابن مسعود رضيَ الله عنه أنّه عليه السلام دخل مكّةَ يوم الفتح وحول البيت ثلاثُمائة وستّون صنمًا فجعل ينكُت بمِخْصَرة[١] كانت بيده في عين واحدٍ واحدٍ فيقول: «جاء الحقُّ وزهق الباطلُ»، فينكبّ لوجهه حتّى ألقى جميعَها، وبقيَ صنم خُزاعةَ فوق الكعبة، وكان مِن صُفْر،[٢] فقال: «يا عليُّ ارمِ به»، فصعِد فرمى به فكسره.[٣]

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ وقرئ: "نُنْزِلُ"[٤] مِن الإنزال ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ لِما في الصدور مِن أدواء الرِّيب وأسقام الأوهام ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به العاملين بما في تضاعيفه، أي: ما هو في تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافي / للمرضى. [٣٨٩و]

و﴿مِن﴾ بيانيّة قُدِّمت على المُبيَّن اعتناءً، فإنّ كلّ القرآن كذلك، وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن لم يستَشفِ بالقرآن فلا شفاه الله»،[٥] أو تبعيضيّة لكن لا بمعنى أنّ بعضه ليس كذلك؛ بل بمعنى أنّا نُنزِّل منه في كلّ نَوبة ما يستدعي الحكمة نزوله حينئذ، فيقع ذلك ممّن نزل عليهم بسبب موافقته لأحوالهم الداعية إلى نزوله موقعَ الدواء الشافي المصادِف، لا بأنّه مِن المرضى المحتاجين إليه بحسب الحال مِن غير تقديم ولا تأخير، فكلُّ بعضٍ منه متّصف بالشفاء لكن لا في كلّ حين؛ بل عند تنزيله.

وتحقيق التبعيض باعتبار الشفاء الجسماني كما في "الفاتحة" وآياتِ الشفاء لا يساعده قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: لا يزيد القرآن كلُّه أو كلُّ بعضٍ منه الكافرين المكذِّبين به الواضعين للأشياء في غير مواضعِها، مع كونه في نفسه شفاءً مِن الأسقام، إلّا خَسارًا، أي: هلاكًا بكفرهم وتكذيبهم،

---

[١] المِخصرة: ما يأخذه الرجُل بيده ليتوكّأ عليه مِن عصًا ونحوها. لسان العرب لابن منظور، «خصر».

[٢] الصُفر: النُّحاس. لسان العرب لابن منظور، «صفر».

[٣] بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٢. وبعضه عن ابن مسعود في جامع البيان للطبري، ٦١/١٥؛ وصحيح ابن حبّان، ١٧٢/١٣ (٥٨٦٢)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ١٩١/١٠ (١٠٤٢٧).

[٤] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢، ٣٠٨.

[٥] الكشف والبيان للثعلبي، ٤٦١/١٦؛ التفسير البسيط للواحدي، ٤٥٣/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٢-٥٠٨.

لا نقصانًا كما قيل،[١] فإنّ ما بهم مِن داء الكفرِ والضلال حقيقٌ بأن يُعبَّر عنه بالهلاك، لا بالنقصان المنبئ عن حصول بعض مبادي الإسلام فيهم، وزيادتُهم في مراتب الهلاك مِن حيث إنّهم كلّما جدّدوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة تدريجًا ازدادوا بذلك هلاكًا. وفيه إيماء إلى أنّ ما بالمؤمنين مِن الشُّبَه والشُّكوك المعترية لهم في أثناء الاهتداء والاسترشاد بمنزلة الأمراض، وما بالكفَرة مِن الجهل والعِناد بمنزلة الموت والهلاك.

وإسنادُ الزيادة المذكورة إلى القرآن مع أنّهم هم المُزدادون في ذلك بسوء صنيعهم باعتبار كونه سببًا لذلك، وفيه تعجيب مِن أمره حيث يكون مَدارًا للشفاء والهلاك.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ بالصحّة والنعمة ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكرنا فضلًا عن القيام بمواجب الشكر ﴿وَنَـَٔا﴾ تباعدَ عن طاعتنا ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ النأيُ بالجانب: / أن يَلويَ عن الشيء عِطفَه ويُوليَه عُرضَ وجهه، فهو تأكيد للإعراض أو عبارة عن الاستكبار؛ لأنّه مِن ديدن المستكبرين. [٣٨٩ظ]

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ مِن فقر أو مرض أو نازلة مِن النوازل. وفي إسناد المِساس إلى الشرّ بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة إيذانٌ بأنّ الخير مراد بالذات، والشرّ ليس كذلك.

﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ شديدَ اليأس مِن رَوْحنا. وهذا وَصْف للجنس باعتبار بعض أفراده ممّن هو على هذه الصفة، ولا يُنافيه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت، ٥١/٤١] ونظائرُه، فإنّ ذلك شأن بعض آخرين منهم. وقيل: أريدَ به الوليد بن المغيرة. وقرئ: "نَاءَ"[٢] إمّا على القلب، كما يقال: "راءَ" في "رأى"، وإمّا على أنّه بمعنى "نَهَضَ".

---

[١] في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٨/٢.

[٢] قرأ بها أبو جعفر وابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي: كلّ أحد منكم وممّن هو على خلافكم ﴿يَعْمَلُ﴾ عمَله ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة أو جوهرِ رُوحه وأحوالِه التابعة لمِزاج بدنه، ﴿فَرَبُّكُمْ﴾ الذي برأكم على هذه الطبائع المتخالفة ﴿أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: أسدُّ طريقًا وأبينُ مِنهاجًا، وقد فُسِّرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدِّين.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الظاهر أنّ السؤال كان عن حقيقة الروح الذي هو مدبِّر البدن الإنساني ومبدأ حياته، رُوي أنّ اليهود قالوا لقريش: سلُوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القَرنين وعن الرّوح، فإن أجاب عنها جميعًا أو سكت فليس بنبيّ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبيّ. فبيَّن لهم القصّتين، وأبهَم أمر الرُّوح، وهو مُبهَم في التوراة.[1]

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ أُظهِر في مقام الإضمار إظهارًا لكمال الاعتناء بشأنهم ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ كلمة ﴿مِن﴾ بيانيّة، و"الأمر" بمعنى الشأن، والإضافةُ للاختصاص العِلْمي لا الإيجادي لاشتراك الكلّ فيه، وفيها مِن تشريف المضاف ما لا يخفى، كما في الإضافة الثانية مِن تشريف المضاف إليه، أي: هو مِن جنس ما استأثر الله تعالى بعلمه مِن الأسرار الخفيّة التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يمكن تعلُّقه بأمثال ذلك. رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم لمّا قال لهم ذلك قالوا: / «أنحن مختصّون بهذا الخطاب؟» قال [٣٩٠و] عليه السلام: «بل نحن وأنتم». فقالوا: «ما أعجبَ شأنَك! ساعةً تقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة، ٢/٢٦٩]، وتارة تقول هذا»، فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآية [لقمان، ٣١/٢٧].[2]

---

[1] بلفظ قريب في أسباب النزول للواحدي، ص ٣٠٠، وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٨. ولم أجِده في مظانّه.

[2] بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٨؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٣٨٠. ولم أجِده في مظانّه.

وإنّما قالوا ذلك لركاكة عقولهم، فإنّ الحكمة الإنسانيّة أن يعلَم مِن الخير ما تسَعه الطاقة البشريّة؛ بل ما نِيط به المعاش والمعاد، وذلك بالإضافة إلى ما لا نهايةَ له مِن معلوماته سبحانه قليل يُنال به خير كثير في نفسه أو بالنسبة إلى الإنسان، أو هو مِن الإبداعيّات الكائنة بمَحض الأمر التكويني مِن غير تحصُّل مِن مادّة وتولُّد مِن أصل كأعضاء الجسد حتّى يمكن تعريفه ببعض مباديه، ومآلُه أنّه مِن عالم الأمر لا مِن عالم الخَلق.

وليس هذا مِن قَبيل قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس، ٣٦/٨٢]، فإنّ ذلك عبارة عن سرعة التكوين، سواءٌ كان الكائن مِن عالم الأمر أو مِن عالم الخَلْق، وفيه تنبيهٌ على أنّه ممّا لا يُحيط بكنهه دائرة إدراك البشر، وإنّما الممكن هذا القدر الإجمالي المندرِج تحت ما استُثنيَ بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: إلّا علمًا قليلًا تستفيدونه مِن طرُق الحواسّ، فإنّ تعقّل المعارف النظريّة إنّما هو مِن إحساس الجزئيّات، ولذلك قيل: «مَن فقَدَ حِسًّا فقَدْ فَقَد عِلمًا».[١]

ولعلّ أكثرَ الأشياء لا يُدرِكه الحسُّ ولا شيئًا مِن أحواله التي يدور عليها معرفةُ ذاته، وأمّا حَمْل ما ذُكر على السؤال عن قِدَمه وحدوثه وجعلُ الجواب إخبارًا بحدوثه، أي: كائن بتكوينه حادث بإحداثه بالأمر التكويني، فمع عدم ملاءمته لحال السائلين لا يساعده التعرّض لبيان قلّة عِلمهم، فإنّ ما سألوا عنه ممّا يفي به عِلمهم حينئذ وقد أُخبر عنه.

وقيل: المراد بالروح خَلْق عظيم روحاني أعظمُ مِن المَلَك. وقيل: جبريلُ عليه السلام. وقيل: القرآنُ.[٢] ومعنى ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ مِن وحيه وكلامه لا مِن كلام البشر.

﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦﴾

﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ مِن القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين ومنبَع للعلوم التي أوتيتموها، وثبّتناك عليه حين كادوا يفتِنونك عنه،

---

[١] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣١٧؛ فتوح الغيب للطِّيبي، ٩/٣٦٨.

[٢] الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٨.

ولولاه لكِدتَ تركَن إليهم شيئًا قليلًا. وإنّما عُبّر عنه بالموصول تفخيمًا لشأنه ووصفًا له بما في حيّز الصلة ابتداء / إعلامًا بحاله مِن أوّل الأمر وبأنه ليس مِن قبيل كلام المخلوق. و"اللام" موطِّئة للقسَم، و﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ جوابه النائب منابَ جزاء الشرط، وبذلك حسُن حَذْف مفعول المشيئة. [٣٩٠ظ]

والمراد مِن "الذهاب به" المَحْو عن المصاحف والصدور، وهو أبلغُ مِن الإذهاب. عن ابن مسعود رضيَ الله عنه: «أنّ أوّل ما تفقِدون مِن دينكم الأمانةُ وآخرَ ما تفقِدون الصلاةُ، وليُصَلّين قوم ولا دينَ لهم، وأنّ هذا القرآنَ تُصبحون يومًا وما فيكم منه شيء»، فقال رجل: «كيف ذلك، وقد أثبتْناه في قلوبنا وأثبتْناه في مصاحفنا، نُعلِّمه أبناءنا ويُعلِّمه أبناؤنا أبناءَهم؟» فقال: «يُسرى عليه ليلًا فيُصبِح الناس منه فقراءَ تُرفع المصاحفُ ويُنزَع ما في القلوب».[1]

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ مَن يتوكّل علينا استردادَه مسطورًا محفوظًا.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فإنّها إن نالَتْك لعلّها تستردّه عليك، ويجوز أن يكون استثناء منقطِعًا بمعنى: ولكن رحمةً مِن ربّك تركَتْه غيرَ مذهوب به، فيكون امتنانًا بإبقائه بعد المِنّة بتنزيله، وترغيبًا في المحافظة على أداء حقوقه، وتحذيرًا مِن أن لا يُقدر قَدْره الجليل ويُفرَّط في القيام بشُكره وهو أجلّ النِّعم وأعظمُها.

﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ كإرسالك وإنزال الكتاب عليك وإبقائه في حفظك وغير ذلك.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

﴿قُل﴾ للذين لا يعرِفون جلالة قدر التنزيل ولا يفهمون فخامة شأنه الجليل؛

---

[1] بعضه عن ابن مسعود في جامع البيان للطبري، ٧٤/١٥؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٣٩٩/٣ (١٨٦٩)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٢٧/٥؛ وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٩/٢.

بل يزعمون أنّه مِن كلام البشر: ﴿لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ أي: اتّفقوا ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ﴾ المنعوت بما لا تُدرِكه العقول مِن النعوت الجليلة في البلاغة وحسنِ النظم وكمالِ المعنى. وتخصيص الثقلين بالذِّكر لأنّ المنكِر لكونه مِن عند الله تعالى منهما لا مِن غيرهما، لا لأنّ غيرهما قادر على المعارَضة.

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أوثِر الإظهار على إيراد الضمير الراجع إلى المِثل المذكور احترازًا عن أن يُتوَهم أنّ له مِثلًا معيَّنًا، وإيذانًا بأنّ المراد نفيُ الإتيان / بمِثلٍ ما، أي: لا يأتون بكلام مُماثِل له فيما ذُكر مِن الصفات البديعة وفيهم العرب العاربة أربابُ البراعة والبيان. وهو جواب للقَسَم الذي تنبئ عنه "اللام" الموطِّئة، وسادّ مَسدّ جزاء الشرط، ولولاها لكانَ جوابًا له بغير جزم لكون الشرط ماضيًا، كما في قول زهير: [٣٩١و]

وإن أتــاه خـلـيـل يــومَ مـسـألـةٍ   يقـول لا غـائـبٌ مـالـي ولا حَـرِمُ[١]

وحيث كان المراد بالاجتماع على الإتيان بمِثل القرآن مطلقَ الاتّفاق على ذلك، سواءٌ كان التصدّي للمعارضة مِن كلّ واحد منهم على الانفراد، أو مِن المجموع بأن يتألّبوا على تلفيق كلام واحد بتلاحُق الأفكار وتعاضُدِ الأنظار، قيل: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي: في تحقيق ما يَتوَخّونه مِن الإتيان بمِثله، وهو عطف على مقدَّر، أي: لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرًا لبعض ولو كان... إلخ، وقد حُذف المعطوفُ عليه حذفًا مطّردًا لدلالة المعطوف عليه دلالة واضحة، فإنّ الإتيان بمِثله حيث انتفى عند التظاهُر فلَأن ينتفيَ عند عدمه أَولى. وعلى هذه النُّكتة يدور ما في "إن" و"لو" الوَصليتَين مِن التأكيد، كما مرّ غيرَ مرة.

ومحلُّه النصبُ على الحاليّة حسبما عُطف عليه، أي: لا يأتون بمِثله على كلّ حال مفروض، ولو في هذه الحال المنافية لعدم الإتيان به فضلًا عن غيرها. وفيه حَسمٌ لأطماعهم الفارغة في رَوْم تبديل بعض آياته ببعض.

---

[١] البيت لزهير بن أبي سُلمى في ديوانه، ص ١٢٠؛ وهو له في كتاب سيبويه، ٦٦/٣؛ والمفصّل للزمخشري، ص ٣٢٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١٨/٢. وعجزه بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٩/٢.

ولا مساغَ لكون الآية تقريرًا لِما قبلها مِن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾[١] كما قيل،[٢] لكن لا لِما قيل مِن أنّ الإتيان بمِثله أصعب مِن استرداد عينه، ونفيُ الشيء إنّما يقرِّره[٣] نفي ما دونه لا نفيَ ما فوقه، فإنّ أصعبيّة الاسترداد بغير أمره تعالى مِن الإتيان بمِثله ممّا لا شُبهةَ فيه؛ بل لأنّ الجملة القسَمية ليست مَسوقة إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ بل إلى المكابِرين مِن قِبَله عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كرّرنا وردّدنا على أنحاء مختلفة توجب زيادةَ تقرير وبيانٍ ووَكادةَ رسوخ واطمئنان ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المنعوت بما ذُكر مِن النعوت الفاضلة / ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ مِن كلّ معنى بديع هو في الحُسن والغرابة واستجلاب النفس كالمَثل ليتلقَّوه بالقَبول. [٣٩١ظ]

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ أوثرَ الإظهار على الإضمار تأكيدًا وتوضيحًا ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: إلّا جُحودًا، وإنّما صحّ الاستثناء مِن المُوجَب مع أنّه لا يصِحّ "ضربتُ إلّا زيدًا"، لأنّه متأوّل بالنفي، كأنّه قيل: ما قَبِل أكثرهم إلّا كفورًا. وفيه مِن المبالغة ما ليس في "أبَوا الإيمان"؛ لأنّ فيه دلالة على أنّهم لم يرضَوا بخَصلة سوى الكُفور مِن الإيمان والتوقّف في الأمر ونحو ذلك، وأنّهم بالغوا في عدم الرضا حتّى بلغوا مرتبة الإباء.

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ عند ظهور عجَزهم ووضوح مغلوبيّتهم بالإعجاز التنزيلي وغيره مِن المعجزات الباهرة متعلِّلين بما لا يمكن في العادة وجوده، ولا تقتضي الحكمة وقوعه مِن الأمور، كما هو دَيدَن المبهوت المحجوج: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾ وقرئ بالتشديد[٤] ﴿لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مكّة ﴿يَنۢبُوعًا﴾ عينًا لا ينضُب ماؤها، "يفعول" مِن "نَبَع الماء" كـ"يعْبوب" مِن "عَبّ الماء" إذا زخَر.

---

[١] الإسراء، ٨٦/١٧.

[٢] في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١٩/٢.

[٣] ط س: يُقرّر.

[٤] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي: بستان يستر أشجارُه ما تحته مِن العَرْصة[1] ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي: تُجريها بقوّة ﴿خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ كثيرًا. والمراد إمّا إجراء الأنهار خلالَها عند سَقْيها، أو إدامةُ إجرائها، كما ينبئ عنه "الفاء" لا ابتداؤه.

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ جَمْع "كِسْفة" كـ"قِطْعة" و"قِطَع" لفظًا ومعنًى، وقرئ بالسكون[2] كـ"سِدْرة" و"سِدْر"، وهي حال مِن ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾. و"الكاف" في كما في محلّ النصب على أنّه صفةُ مصدرٍ محذوف، أي: إسقاطًا مماثِلًا لِما زعمتَ، يعنُون بذلك قولَه سبحانه: ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ، ٩/٣٤].

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي: مقابِلًا كـ"العَشير" و"المُعاشِر"، أو كفيلًا يشهَد بصِحّة ما تدّعيه، وهو حال مِن الجلالة، وحالُ الملائكة محذوفة لدلالتها عليها، أي: والملائكةِ قُبَلاء، كما حُذف الخبر في قوله:

فـإنّـي وقـيّـارٌ بـهـا لَـغـريـبُ[3]

أو جماعةً[4] فيكون حالًا مِن ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

---

١ العَرْصة: كلّ موضِع واسع لا بناءَ فيه. لسان العرب لابن منظور، «عرص».

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٩/٢.

٣ عَجُز بيت لضابئ بن الحارث البُرجُمي، قاله وهو محبوس بالمدينة في زمن عثمانَ رضي الله عنه، وصدره:

فمن يكُ أمسى بالمدينة رَحلهُ

وهو له في الأصمعيّات للأصمعي، ص ١٨٤؛ والنوادر لأبي زيد، ص ١٨٢؛ وكتاب سيبويه ٧٥/١، ١٩٠٩؛ والعجز بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٥١٠/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١٩/٢.

٤ السياق: أي: مقابلًا... أو كفيلًا... أو جماعةً...

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ مِن ذهَب وقد قُرئ به،[1] وأصلُه الزينة، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ / أي: في معارجها، فحُذف المضاف، يقال: رقيَ في السُّلَّم وفي الدَّرَجة. [٣٩٢و]

﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي: لأجل رُقيِّك فيها وحدَه، أو لن نصدِّق رقيَّك فيها ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ﴾ منها ﴿عَلَيْنَا كِتَابًا﴾ فيه تصديقُك ﴿نَّقْرَؤُهُ﴾ نحن مِن غير أن نتلقَّى مِن قِبلك.

عن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما: قال عبد الله بن أبي أميّة: «لن نؤمن لك حتّى تتّخذ إلى السماء سُلَّمًا، ثمّ ترقى فيه وأنا أنظُر حتّى تأتيَها وتأتِيَ معك بصكٍّ منشورٍ معه أربعة مِن الملائكة يشهدون أنّك كما تقول».[2] وما كانوا يقصِدون بهاتيك الاقتراحات الباطلة إلّا العِنادَ واللَّجاج، ولو أنّهم أُوتوا أضعاف ما اقترحوا مِن الآيات ما زادهم ذلك إلّا مكابَرة، وإلّا فقد كان يكفيهم بعض ما شاهدوا مِن المعجزات التي تخِرُّ لها صُمّ الجبال.

﴿قُلْ﴾ تعجّبًا مِن شدّة شكيمتهم، وتنزيهًا لساحة السُّبحان عمّا لا يكاد يليق بها مِن مثل هذه الاقتراحات الشنيعة التي تكاد السماوات يتفطّرن منها، أو عن طلبك[3] ذلك وتنبيهًا على بطلان ما قالوه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وقرئ: "قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي"،[4] ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ لا ملَكًا حتّى يُتصوّر منّي الرقيُّ في السماء ونحوُه ﴿رَّسُولًا﴾ مأمورًا مِن قِبل ربّي بتبليغ الرسالة مِن غير أن يكون لي خِيَرة في الأمر كسائر الرسل، وكانوا لا يأتون قومهم إلّا بما يُظهره الله على أيديهم حسبما يلائم حال قومهم، ولم يكن أمر الآيات إليهم ولا لهم أن يتحكّموا على الله سبحانه بشيء مِنها، وقولُه: ﴿بَشَرًا﴾ خبر لـ﴿كُنتُ﴾ و﴿رَّسُولًا﴾ صفتُه.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٣.

[2] طرف حديث طويل عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ١٥/٨٧-٩٠؛ وبعضه في التفسير البسيط للواحدي، ١٣/٤٨٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٢٩؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥١١.

[3] م ط س: طلب النبيّ عليه السلام. [صُحّح في هامش م].

[4] قرأ بها ابن كثير وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٩.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤﴾

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: الذين حُكيت أباطيلهم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿مَنَعَ﴾، وقوله: ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: الوحيُ ظرفٌ لـ﴿مَنَعَ﴾ أو ﴿يُؤْمِنُوٓاْ﴾، أي: وما منَعهم وقت مجيء الوحي المقرون بالمعجزات المستدعية للإيمان أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوّتك، أو ما منَعهم أن يؤمنوا بذلك وقت مجيء ما ذكَر، ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ في محلّ الرفع على أنّه فاعلُ ﴿مَنَعَ﴾، أي: إلّا قولُهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ منكِرين أن يكون رسول الله تعالى مِن جنس البشر.

وليس المراد أن هذا القول صدَر عن بعضهم فمنع بعضًا آخرَ منهم؛ بل المانعُ هو الاعتقاد الشامل للكلّ المستتبعُ لهذا القول منهم. وإنّما عُبّر عنه بـ"القول" إيذانًا بأنّه مجرّد قول يقولونه بأفواههم مِن غير أن يكون له مفهوم ومِصداق. وحصرُ المانع مِن الإيمان فيما ذُكِر مع أنّ لهم موانعَ شتّى / لِما أنّه معظمها، أو لأنّه هو المانع بحسب الحال، أعني عند سماع الجواب بقوله تعالى: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1] إذ هو الذي يتشبّثون به حينئذ مِن غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى مِن شُبههم الواهية. وفيه إيذانٌ بكمال عِنادهم حيث يشير إلى أنّ الجواب المذكور مع كونه حاسمًا لموادّ شُبَهِهم مُلجِئًا إلى الإيمان يعكُسون الأمر ويجعلونه مانعًا منه. [٣٩٢ظ]

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥﴾

﴿قُل﴾ لهم أوّلًا مِن قِبَلنا تبيينًا للحكمة وتحقيقًا للحقّ المُزيح للرَّيب: ﴿لَّوْ كَانَ﴾ أي: لو وُجد واستقرّ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدلَ البشر ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ قارّين فيها مِن غير أن يعرُجوا في السماء ويعلَموا ما يجب أن يُعلَم، ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ يهديهم إلى الحقّ ويُرشِدهم إلى الخير لتمكُّنهم مِن الاجتماع والتلقّي مِنه، وأمّا عامة البشر فهم بمَعزِل مِن استحقاق المفاوَضة الملَكية، كيف لا، وهي منوطة بالتناسُب والتجانُس، فبَعْثُ المَلَك إليهم مزاحِم للحكمة التي عليها مبنى التكوين والتشريع.

---

[1] في الآية السابقة.

وإنّما يُبعث المَلَك مِن بينهم إلى الخواصّ المختصّين بالنفوس الزكيّة المؤيَّدين بالقوّة القُدسيّة المتعلِّقين بكلا العالَمَين الرُّوحاني والجسماني، ليتلقَّوا مِن جانب ويُلقُوا إلى جانب.

وقوله: ﴿مَلَكًا﴾ يحتمل أن يكون حالًا مِن ﴿رَسُولًا﴾ وأن يكون موصوفًا به، وكذلك ﴿بَشَرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾.[1] والأوّل أَولى.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم ثانيًا مِن جهتك بعد ما قلتَ لهم مِن قِبَلنا ما قلتَ وبيَّنتَ لهم ما يقتضيه الحكمةُ في البعثة، ولم يرفعوا إليه رأسًا: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ وحدَه ﴿شَهِيدًا﴾ على أنّي أدّيتُ ما عليّ مِن مواجب الرسالة أكملَ أداء، وأنّكم فعلتُم ما فعلتُم مِن التكذيب والعِناد. وتوجيه الشهادة إلى كونه عليه السلام رسولًا بإظهار المعجزة على وَفق دعواه كما اختيرَ،[2] لا يساعده قوله تعالى: ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ وما بعده مِن التعليل. وإنّما لم يقل: "بيننا" تحقيقًا للمفارَقة وإبانةً للمبايَنة. و﴿شَهِيدًا﴾ إمّا حال أو تمييز.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ مِن الرسل والمرسَل إليهم ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ محيطًا بظواهر أحوالهم وبواطنها فيُجازيهم على ذلك، وهو تعليل للكفاية. وفيه تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتهديدٌ للكفار.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ كلام مبتدأ يفصِّل ما أشار إليه الكلام السابق / مِن مُجازاة [٣٩٣و] العبادِ إشارةً إجماليّة، أي: مَن يهدِه الله إلى الحقّ بما جاء مِن قبله مِن الهدى ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ إليه وإلى ما يؤدّي إليه مِن الثواب، أو المهتدي إلى كلّ مطلوب.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٢٠.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي: يخلُقْ فيه الضلال بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ﴾ أوثرَ ضمير الجماعة اعتبارًا لمعنى ﴿مَن﴾ غِبَّ ما أوثرَ في مقابِله الإفرادُ نظرًا إلى لفظها تلويحًا بوَحدة طريق الحقّ وقلّة سالكيه وتعدُّد سُبل الضلال وكثرة الضُّلّال.

﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ مِن دون الله تعالى، أي: أنصارًا يهدونهم إلى طريق الحقّ، أو إلى طريق يوصِلهم إلى مطالبهم الدنيويّة أو الأخرويّة، أو إلى طريق النجاة مِن العذاب الذي يستدعيه ضلالهم، على معنى لن تجِد لأحد منهم وليًّا على ما تقتضيه قضيّة مقابلةِ الجَمْع بالجَمْع مِن انقسام الآحادِ إلى الآحاد.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ التفات مِن الغَيبة إلى التكلّم إيذانًا بكمال الاعتناء بأمر الحشر ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ حال مِن الضمير المنصوب، أي: كائنين عليها سَحْبًا، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر، ٥٤/٤٨] أو مَشيًا، فقد رُوي أنّه قيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «كيف يمشون على وجوههم؟» قال: «إنّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يُمشِيَهم على وجوههم».[١]

﴿عُمْيًا﴾ حال مِن الضمير المجرور في الحال السابقة ﴿وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ لا يُبصِرون ما يُقِرّ أعينَهم، ولا ينطِقون ما يُقبل منهم، ولا يسمَعون ما يُلِذّ مسامعَهم، لِما قد كانوا في الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعِبر، ولا ينطِقون بالحقّ ولا يستمعونه. ويجوز أن يُحشَروا بعد الحساب مِن الموقف إلى النار مُوفي القُوى والحواسّ، وأن يحشروا كذلك ثمّ يعاد إليهم قُوَاهم وحواسُّهم، فإنّ إدراكاتِهم بهذه المشاعر في بعض المواطن ممّا لا ريبَ فيه.

﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ إمّا حال أو استئناف، وكذا قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: كلّما سكَن لهبُها بأن أكَلت جلودَهم ولحومهم، ولم يبقَ فيهم ما تتعلّق به النار وتُحرِقه،[٢] زدناهم توقّدًا بأن بدّلناهم جلودًا غيرَها فعادت مُلتهِبةً ومُستعِرةً.

---

[١] الحديث بمعناه عن أنس بن مالك في صحيح البخاري، ١٠٩/٨ (٦٥٢٣)؛ وصحيح مسلم، ٢١٦١/٤ (٢٨٠٦)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣١/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥١٢/٢.

[٢] ط س: وتحرقها. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

ولعلّ ذلك عقوبة لهم على إنكارهم الإعادةَ بعد الفناء بتكريرها مرّة بعد أخرى ليرَوها عِيانًا حيث لم يعلموها برهانًا، كما يفصِح عنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ / أي: ذلك العذاب ﴿جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ العقليّة والنقليّة الدالّة على صحّة الإعادة دلالةً واضحة، فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ و﴿جَزَآؤُهُم﴾ خبرُه. ويجوز أن يكون مبتدًا ثانيًا و﴿بِأَنَّهُمْ﴾ خبرُه والجملة خبر لـ﴿ذَٰلِكَ﴾، وأن يكون ﴿جَزَآؤُهُم﴾ بدلًا مِن ﴿ذَٰلِكَ﴾ أو بيانًا له والخبرُ هو الظرف. [٣٩٣ظ]

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ منكرِين أشدَّ الإنكار ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ إمّا مصدر مؤكِّد مِن غير لفظه، أي: لَمَبعوثون بعثًا جديدًا، وإمّا حال، أي: مخلوقين مستأنَفين.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي: ألم يتفكّروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مِن غير مادّة مع عِظَمها ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ في الصِّغَر، على أنّ "المِثل" مقحَم، والمراد بالخَلْق الإعادة، كما عُبّر عنها بذلك حيث قيل: خلقًا جديدًا.

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ عطفٌ على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ فإنّه في قوّة "قد رأوا"، والمعنى قد علموا أنّ مَن قدَر على خلقِ السماوات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم مِن الإنس وجَعَل لهم ولبعثهم أجلًا محقَّقًا لا ريبَ فيه هو القيامة.

﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ وُضع موضعَ الضمير تسجيلًا عليهم بالظلم وتجاوُز الحدّ بالمرّة ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: جُحودًا.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ خزائن رزقه التي أفاضها على كافّة الموجودات، و﴿أَنتُمْ﴾ مرتفِع بفعل يفسِّره المذكور، كقول حاتم: «لو ذاتُ سِوار

لَطَمَتْني»»،[١] وفائدة ذلك المبالغةُ والدلالةُ على الاختصاص. ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ لبخِلتم ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ مخافة النَّفَاد بالإنفاق، إذ ليس في الدنيا أحد إلّا وهو يختار النفع لنفسه، ولو آثَر غيرَه بشيء فإنّما يُؤثره لعِوَض يفوقه، فإذن هو بخيل بالإضافة إلى جُود الله سبحانه.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ مبالِغًا في البُخل؛ لأنّ مبنى أمره على الحاجة والضِّنّة بما يحتاج إليه وملاحظةِ العِوَض بما يبذُله.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة على نبوّته وصِحّة ما جاء به / مِن عند الله، وهي العَصا واليد والجَراد والقُمّل والضفادع والدم والطوفان والسِّنون ونقص الثمرات. وقيل: انفجار الماء مِن الحَجر ونتْقُ الطُّور على بني إسرائيلَ وانفلاقُ البحر بدلَ الثلاث الأخيرة.[٢] ويأباه أنّ هذه الثلاث لم تكن مُنزَلة إذ ذاك، وأنّ الأوّلَين لا تعلُّقَ لهما بفرعونَ وإنّما أوتيهما بنو إسرائيلَ. [٣٩٤و]

وعن صفوانَ بن عسّال[٣] أنّ يهوديًا سأل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عنها، فقال: «ألّا تشركوا به شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتُلوا النفس التي حرّم الله إلّا بالحقّ، ولا تسحَروا، ولا تأكُلوا الرِّبا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتُله، ولا تقذِفوا مُحصَنة، ولا تفِرّوا مِن الزحف، وعليكم خاصّة اليهود ألّا تعْدوا في السبت»،[٤] فقبّل اليهودي يدَه ورِجله عليه السلام. ولا يُساعده أيضًا ما ذُكر،

---

١ مَثَل للعرب، ويُروى أيضًا: «لو غير ذات سِوار لطمتني»، والمعنى لو ظلمني مَن كان كفئًا لي لهان عليّ. انظر: **مجمع الأمثال** للميداني، ١٧٢/٢، ٢٠٢، وهو في **الكشّاف** للزمخشري، ٥١٣/٢، على ما نحن فيه.

٢ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٢٢/٢.

٣ هو صفوان بن عسّال مِن بني الربض بن زاهر بن عوبثان بن زاهر المرادي، سكن الكوفة، أسلم وصحب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وروى عنه أحاديث، اشتهر ممّا رواه حديث المسح على الخفّين وفضل العلم والتوبة. يُذكَر أنّه غزا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم اثنتي عشرة غزوةً. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢٦٥/٦؛ **والاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٧٢٤/٢؛ **والإصابة** لابن حجر، ٤٣٦/٣.

٤ **مسند أحمد**، ١٢/٣٠ (١٨٠٩٢)؛ **سنن الترمذي**، ٣٦/٥ (٢٧٣٣)؛ **سنن النسائي**، ١١١/٧ (٤٠٧٨)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥١٣/٢.

ولعلّ جوابَه عليه السلام بذلك لِما أنّه المُهِمّ للسائل، وقبولَه لِما أنّه كان في التوراة مسطورًا، وقد عُلِم أنّه ما علِمه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلّا مِن جهة الوحي.

﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وقرئ: "فَسَلْ"،[1] أي: فقلنا له: سلْهم مَن فرعون؟ وقل له: أرسِل معي بني إسرائيلَ أو سَلْهم عن إيمانهم، أو عن حال دينهم، أو سَلْهم أن يعاضدوك. ويؤيّده قراءة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على صيغة الماضي.[2] وقيل: الخطاب للنبيّ عليه السلام، أي: فاسألهم عن تلك الآياتِ لتزدادَ يقينًا وطُمَأنينة أو ليَظهَر صِدقك.[3] ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ متعلِّق بـ"قلنا" وبـ"سأل" على القراءة المذكورة وبـ﴿ءَاتَيْنَا﴾، أو بمضمر هو "يخبِروك" أو" اذكُر" على تقدير كون الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم.

﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ﴾ "الفاء" فصيحة أي: فأظهَر عند فرعونَ ما آتيناه مِن الآيات البيّنات وبلّغه ما أُرسِل به، فقال له فرعونُ: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ / سُحِرتَ فتخبّط عقلك. [٣٩٤ظ]

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني الآياتِ التي أظهرها ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقُهما ومدبِّرهما، والتعرّض لربوبيّته تعالى لهما للإيذان بأنّه لا يقدِر على إيتاء مثلِ هاتيك الآيات العِظام إلّا خالقُهما ومدبِّرهما. ﴿بَصَآئِرَ﴾ حال مِن الآيات، أي: بيّنات مكشوفات تُبصِّرك صدقي، ولكنّك تعاند وتكابر، نحوُ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل، ١٤/٢٧]، ومِن ضرورة ذلك العلمِ العلمُ بأنّه عليه السلام على كمال رصانة العقل فضلًا عن توهّم المسحوريّة.

---

[1] قرأ بها الكسائي وابن كثير. النشر لابن الجزري، ١٥١/٢-١٥٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٣.

[3] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢٢/٢.

وقرئ: "عَلِمْتُ"[١] على صيغة التكلّم، أي: لقد علمتُ بيقين أنّ هذه الآياتِ الباهرةَ أنزلها الله عزّ سلطانه فكيف يُتوهَّم أن يحوم حولي سِحر؟

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ مصروفًا عن الخير مطبوعًا على الشرّ، مِن قولهم: ما ثَبرك عن هذا؟ أي: ما صرَفك؟ أو هالكًا. ولقد قارع عليه السلام ظنَّه بظنّه وشتّان بينهما، كيف لا، وظنُّ فرعونَ إفك مُبين، وظنُّه عليه السلام يُتاخِم اليقين.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ١٠٣﴾

﴿فَأَرَادَ﴾ أي: فرعونُ ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أي: يستخِفَّهم ويُزعجَهم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مصرَ أو مِن الأرض مطلقًا بالقتل، كقوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [الأعراف، ١٢٧/٧]، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ فعكسنا عليه مَكْره، واستفززناه وقومَه بالإغراق.

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ١٠٤﴾

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ مِن بعد إغراقِهم ﴿لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد أن يستفزّكم منها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الكرّةُ الآخرة، أو الحياة، أو الساعة، أو الدار الآخرة، أي قيامُ القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ مختلطِين إيّاكم وإيّاهم، ثمّ نحكُم بينكم ونُميّز سعداءكم مِن أشقيائكم. واللفيف: الجماعاتُ مِن قبائلَ شتّى.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ١٠٥﴾

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: وما أنزلنا القرآنَ إلّا ملتبِسًا بالحقّ المقتضي لإنزاله، وما نزَل إلّا ملتبِسًا بالحقّ الذي اشتمل عليه، أو / ما أنزلناه [٣٩٥و] مِن السماء إلّا محفوظًا وما نزَل على الرسول إلّا محفوظًا مِن تخليط الشياطين، ولعلّ المرادَ بيان عدم اعتراء البطلان له أوّلَ الأمر وآخره.

---

١ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٠٩/٢.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾ للمطيع بالثواب ﴿وَنَذِيرٗا﴾ للعاصي مِن العقاب، وهو تحقيق لحقيّة بعثته عليه السلام إثرَ تحقيق حقّيّة إنزال القرآن.

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾

﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ منصوب بمضمر يفسِّره قوله تعالى: ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ وقُرئ بالتشديد[١] دلالة على كثرة نجومِه. ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ على مَهل وتثبّت، فإنّه أيسرُ للحفظ وأعونُ على الفهم، وقرئ بالفتح،[٢] وهو لغة فيه. ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ حسبما يقتضيه الحكمةُ والمصلحة ويقع مِن الحوادث والواقعات.

﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧﴾

﴿قُلۡ﴾ للذين كفروا ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾ فإنّ إيمانكم به لا يزيده كمالًا وامتناعَكم عنه لا يورثه نقصًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ أي: العلماءَ الذين قرأوا الكتب السالفة مِن قبل تنزيله وعرَفوا حقيقة الوحي وأماراتِ النبوّة وتمكّنوا مِن التمييز بين الحقّ والباطل والمُحقّ والمبطِل، أو رأوا فيها نعتك ونَعْت ما أنزل إليك ﴿إِذَا يُتۡلَىٰ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ﴾ أي: يسقطون على وجوههم ﴿سُجَّدٗا﴾ تعظيمًا لأمر الله تعالى، أو شكرًا لإنجاز ما وعَد به في تلك الكتب مِن بعثتك.

وتخصيص "الأذقان" بالذِكر للدلالة على كمال التذلّل، إذ حينئذ يتحقّق الخُرور عليها، وإيثارُ "اللام" للدلالة على اختصاص الخُرور بها، كما في قوله:

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ وابن عبّاس ومجاهد وابن مِقسَم والحسن وقتادة والزّعفراني وابن محيصن وحُميد وأبان عن عاصم والشافعي عن ابن كثير. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٤٥.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة والزعفراني والضحّاك وأبان عن عاصم. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٤٦.

فـخـرَّ صـريـعًـا لـلـيـديـن ولـلـفـمِ[١]

وهو تعليل لِما يُفهَم مِن قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾ مِن عدم المبالاة بذلك، أي: إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسنَ إيمانٍ مَن هو خير منكم. ويجوز أن يكون تعليلًا لـ﴿قُلۡ﴾ على سبيل التسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كأنّه قيل: تسلَّ بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة ولا تكترث بإيمانهم وإعراضهم.

﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ في سجودهم ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عمّا يفعل الكفَرة مِن التكذيب، أو عن خُلْف وعده ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ ﴿إن﴾ مخفّفة مِن المثقّلة، و"اللام" فارقة، أي: إنّ الشأن هذا.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾

[٣٩٥ظ] ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ﴾ / كرّر الخُرور للأذقان لاختلاف السبب فإنّ الأوّل لتعظيم أَمر الله تعالى أو الشكر لإنجاز الوعد، والثاني لِما أثّر فيهم مِن مواعظ القرآن حالَ كونهم باكين مِن خشية الله. ﴿وَيَزِيدُهُمۡ﴾ أي: القرآنُ بسماعهم ﴿خُشُوعٗا۩﴾ كما يزيدهم عِلمًا ويقينًا بالله تعالى.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠﴾

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ نزل حين سمع المشركون رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «يا الله يا رحمنُ»، فقالوا: إنّه ينهانا عن عبادة إلهين،

---

[١] عجز بيت، صدره:

تـنـاولـه بـالـرمـح ثـم اثـنـى لـه

البيت لجابر بن حُنَيّ التغلبي في المفضّليّات للضّبّي، ص ٢١٢؛ والعجز بلا نسبة في التفسير البسيط للواحدي، ١٣/٥٠٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٥. وانظر تفصيل الكلام عليه في شرح أبيات المغني للبغدادي، ٤/٢٨٦-٢٩١.

وهو يدعو إلهًا آخرَ. وقالت اليهود: إنّك لتُقِلّ ذِكر "الرحمن" وقد أكثره الله تعالى في التوراة. والمراد على الأوّل هو التسوية بين اللفظين بأنّهما عبارتان عن ذات واحدة وإن اختلف الاعتبار، والتوحيدُ إنّما هو للذات الذي هو المعبود، وعلى الثاني أنّهما سِيّان في حُسن الإطلاق والإفضاء إلى المقصود، وهو أوفَق لقوله تعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

والدعاء بمعنى التسمية، وهو يتعدّى إلى مفعولين حُذف أوّلهما استغناءً عنه. و﴿أَوِ﴾ للتخيير. والتنوينُ في ﴿أَيًّا﴾ عِوض عن المضاف إليه، و﴿مَا﴾ مزيدةٌ لتأكيد ما في "أيّ" مِن الإبهام. والضمير في ﴿لَهُ﴾ للمسمّى؛ لأنّ التسميةَ له لا للاسم. وكان أصلُ الكلام أيًا ما تدعوا فهو حسَن، فوُضع موضعَه ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه، إذ حُسْن جميع أسمائه يستدعي حُسْن ذينك الاسمين، وكونُها حُسنى لدلالتها على صفات الكمال مِن الجلال والجمال والإكرام.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءة صلاتك، بحيث تُسمع المشركين، فإنّ ذلك يحمِلهم على السبّ واللّغو فيها، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي: بقراءتها بحيث لا تُسمِع مَن خلفك مِن المؤمنين، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين الجهر والمخافَتة على الوجه المذكور ﴿سَبِيلًا﴾ أمرًا وسَطًا قَصْدًا، فإنّ خير الأمور أوساطها. والتعبير عن ذلك بـ"السبيل" باعتبار أنّه أمر يتوجّه إليه المتوجِّهون ويؤمّه المقتدون ويُوصِلهم إلى المطلوب.

ورُوي أنّ أبا بكر رضي الله عنه كان يخفِت ويقول: «أناجي ربّي وقد علِم حاجتي»، وعمرُ رضي الله عنه / كان يجهَر بها ويقول: «أطرُد الشيطان وأوقظ الوَسْنان». فلمّا نزلت أمَر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبا بكر أن يرفعَ قليلًا وعمرَ أن يخفِض قليلًا.[1] وقيل: المعنى لا تجهَر بصلاتك كلِّها ولا تُخافت بها بأسرها وابتغِ بين ذلكِ سبيلًا بالمُخافتة نهارًا والجهر ليلًا. وقيل: [٣٩٦و]

---

[1] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٣٢/١٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥١٦/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢٤/٢-٣٢٥.

بصلاتك بدعائك.[١] وذهب قوم إلى أنّها منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف، ٧/٥٥].[٢]

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ كما تزعم اليهود والنصارى وبنو مليح، حيث قالوا: عزيرٌ ابنُ الله، والمسيحُ ابنُ الله، والملائكةُ بنات الله، تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا. ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي: الألوهيّة، كما يقوله الثَّنَويّة القائلون بتعدّد الآلهة. ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ ناصر ومانع منه لاعتزازه به، أو لم يُوالِ أحدًا مِن أجل مَذلّة ليدفعها به.

وفي التعرّض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذانٌ بأنّ المستحقَّ للحمد مَن هذه نُعوته دونَ غيره؛ إذ بذلك يتمّ الكمال والقُدرة التامّة على الإيجاد. وما يتفرّع عليه مِن إفاضة أنواع النِّعم وما عداه ناقص مملوكُ نعمة أو منعَمٌ عليه، ولذلك عُطف عليه قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾، وفيه تنبيه على أنّ العبد وإن بالغ في التنزيه والتمجيد واجتهد في الطاعة والتحميد ينبغي أن يعترِف بالقصور في ذلك.

رُوي أنّه عليه السلام كان إذا فصُح[٣] الغلامُ مِن بني عبد المطّلب علّمه هذه الآية.[٤] وعنه صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة بني إسرائيلَ فرَقّ قلبه عند ذِكر الوالدَين كان له قنطار في الجنّة»،[٥] والقنطار: ألف أُوقيّة ومائتا أُوقيّة.

الحمدُ لله سبحانه، وله الكبرياء والعظمة والجبروت.[٦]

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٦.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٦.

٣ كذا في الأصول، وفي المصادر: أفصح.

٤ عمل اليوم والليلة لابن السُّنّي، ص ٣٧٤ (٤٢٤)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٦/٥١٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٦.

٥ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ١٦/١٧٤ (الإسراء، ١٧/١)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣/٩٣ (الإسراء، ١٧/١)؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٦. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٦ وفي هامش م: إلى هنا انتهتِ المطالعة بفضله عزّ سلطانه، في ٨ ربيع الأوّل لسنة سبع وخمسين وتسعمائة، حامدًا ومُكبّرًا ومُصلّيًا.

/ سورة الكهف [٣٩٦ظ]

مكّيّة،[١] قال ابن عبّاس: غيرَ آيتين،[٢] وهي[٣] مائة وعشر آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتابَ الكامل الغنيّ عن الوصف بالكمال المعروف بذلك مِن بين الكتب الحقيقَ باختصاص اسم الكتاب به، وهو عبارة عن جميع القرآن أو عن جميع المُنزَل حينئذ، كما مرّ مرارًا.

وفي وصفه تعالى بالموصول إشعارٌ بعلّيّة ما في حيّز الصلة لاستحقاق الحمد، وإيذانٌ بعِظَم شأن التنزيل الجليل، كيف لا، وعليه يدور فَلَك سعادة الدارين. وفي التعبير عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالعبد مضافًا إلى ضمير الجلالة تنبيهٌ على بلوغه عليه الصلاة والسلام إلى أعلى معارج العبادة، وتشريفٌ له أيُّ تشريف، وإشعارٌ بأنّ شأن الرسول أن يكون عبدًا للمرسِل، لا كما زعمت النصارى في حقّ عيسى عليه السلام.

وتأخير المفعول الصريح عن الجارّ والمجرور مع أنّ حقّه التقديمُ عليه، ليتّصل به قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ أي: شيئًا مِن العِوَج بنوع اختلال في النظم وتنافٍ في المعنى أو انحراف عن الدعوة إلى الحقّ، وهو في المعاني كالعِوَج في الأعيان، وأمّا قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه، ١٠٧/٢٠]، مع كون الجبال مِن الأعيان فللدلالة على انتفاء ما لا يُدرَك مِن العِوَج بحاسّة البصر؛ بل إنّما يوقَف عليه بالبصيرة بواسطة استعمال المقاييس الهندسيّة،

---

[١] ط س + وهي مئة وإحدى عشرة آية.

[٢] انظر: تفسير الرازي، ٤٢١/٢١.

[٣] س – قال ابن عبّاس غير آيتين، وهي.

ولمّا كان ذلك ممّا لا يُشعَر به بالمشاعر الظاهرة عُدّ مِن قبيل ما في المعاني. وقيل: الفتحُ في اعوجاج المنتصِب كالعُود والحائط، والكسرُ في اعوجاج غيره عينًا كان أو معنى.

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝﴾

﴿قَيِّمًا﴾ بالمصالح الدينيّة والدنيويّة للعباد على ما ينبئ عنه ما بعده مِن الإنذار والتبشير، فيكون وصفًا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال، أو على ما قبله مِن الكتب السماويّة شاهدًا بصِحّتها ومهيمِنًا عليها أو متناهيًا في الاستقامة، فيكون تأكيدًا لِما دلّ عليه نفيُ العِوَج مع إفادة كونِ ذلك مِن صفاته الذاتيّة اللازمة له حسبما تنبئ عنه الصيغة، لا أنّه نُفي عنه العِوَج مع كونه مِن شأنه.

وانتصابه على تقدير كون الجملة المتقدِّمة معطوفة على الصلة بمضمَر ينبئ عنه نفيُ العِوَج، تقديرُه: جعلَه قَيِّمًا، وإمّا على تقدير كونها حاليّة، فهو على الحاليّة مِن ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛[1] إذ لا فصلَ حينئذ بين أبعاض المعطوف عليه بالمعطوف. / وقُرئ: "قِيَمًا".[2] [٣٩٧و]

﴿لِّيُنذِرَ﴾ متعلِّق بـ﴿أَنزَلَ﴾،[3] والفاعلُ ضمير الجلالة كما في الفعلين المعطوفين عليه. والإطلاق عن ذِكر المفعول الأوّل للإيذان بأنّ ما سِيق له الكلام هو المفعول الثاني، وأنّ الأوّل ظاهر لا حاجةَ إلى ذِكره، أي: أنزل الكتاب لينذِر بما فيه الذين كفروا به. ﴿بَأْسًا﴾ أي: عذابًا ﴿شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: صادرًا مِن عنده نازلًا مِن قِبَله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم، وقُرئ: "مِنْ لَدْنِهِ"[4] بسكون الدال مع إشمام الضمّة وكَسْرِ النون لالتقاء الساكنين وكَسْرِ الهاء للإتباع.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤.

[3] في الآية السابقة.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الرفاعي عن يحيى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤.

﴿وَيُبَشِّرَ﴾ بالتشديد، وقرئ بالتخفيف[١] ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدِّقين به ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الأعمالَ الصالحة التي بُيِّنت في تضاعيفه. وإيثار صيغة الاستقبال في الصلة للإشعار بتجدّد الأعمالِ الصالحة واستمرارها، وإجراءُ الموصول على موصوفه المذكور لِما أنّ مَدار قَبول الأعمالِ هو الإيمان. ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنّ لهم بمقابلة إيمانِهم وأعمالهم المذكورة ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنّة وما فيها مِن المَثوبات الحُسنى.

﴿مَّٰكِثِينَ﴾ حالٌ مِن الضمير المجرور في ﴿لَهُمْ﴾.[٢] ﴿فِيهِ﴾ أي: في ذلك الأجر ﴿أَبَدًا﴾ مِن غير انتهاء، أي: خالدين فيه، وهو نصب على الظرفية لـ﴿ماكثين﴾. وتقديم "الإنذار" على "التبشير" لإظهار كمال العناية بزَجْر الكفّار عمّا هم عليه مع مراعاة تقديمِ التخلية على التحلية.

وتكرير الإنذار بقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ متعلّقًا بفِرقة خاصّة ممّن عمّه الإنذار السابق مِن مستحقّي البأس الشديد للإيذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم، أي: وينذرَ مِن بين سائر الكفَرة هؤلاء المتفوِّهين بمِثل هاتيك العظيمة خاصّة، وهم كفّار العرب الذين يقولون: الملائكة بنات الله تعالى، واليهودُ القائلون: عزيرٌ ابن الله، والنصارى القائلون: المسيحُ ابن الله.

وتركُ إجراءِ الموصول على الموصوف، كما فُعل في قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء، ٩/١٧] للإيذان بكفاية ما في حيّز الصلة في الكُفر على أقبح الوجوه، وإيثارُ صيغة الماضي في الصلة للدلالة / على تحقّق صدور تلك [٣٩٧ظ] الكلمة القبيحة عنهم فيما سبَق. وجعلُ المفعول المحذوف فيما سلف عبارةً عن هذه الطائفة يؤدّي إلى خروج سائر أصناف الكفَرة عن الإنذار والوعيد، وتعميمُ الإنذار هناك للمؤمنين أيضًا بحَمْله على معنى مجرّد الإخبار بالخبر الضارّ مِن غير اعتبار حُلول المنذَر به على المنذَر، كما في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [يونس، ٢/١٠] يُفضي إلى خُلوّ النظم الكريم عن الدلالة

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

[٢] في الآية السابقة.

على حلول البأس الشديد على مَن عدا هذه الفِرقة. ويجوز أن يكون الفاعل في الأفعال الثلاثة ضميرَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾،[1] أو ضميرَ الرسول عليه السلام.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ أي: باتّخاذه سبحانه وتعالى ولدًا ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مرفوع على الابتداء أو الفاعليّة لاعتماد الظرف، و﴿مِن﴾ مزيدة لتأكيد النفي، والجملةُ حاليّة أو مستأنَفة لبيان حالهم في مقالهم، أي: ما لهم بذلك شيء مِن عِلم أصلًا، لا لإخلالهم بطريقه مع تحقيق المعلوم أو إمكانِه؛ بل لاستحالته في نفسه ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين قلّدوهم فتاهوا جميعًا في تِيه الجهالة والضلالة. أو ما لهم عِلم بما قالوه أهو صواب أم خطأ؟ بل إنّما قالوه رميًا بقول عن عمًى وجهالة مِن غير فكر ورويّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام، ٦/١٠٠]، أو بحقيقة ما قالوه وبعِظَم رُتبته في الشناعة كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ الآيات [مريم، ١٩/٨٨-٩٠]، وهو الأنسَب بقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي: عظُمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء لِما فيها مِن نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بكبرياء جنابه.[2]

والفاعلُ في ﴿كَبُرَتْ﴾ إمّا ضميرُ المقالة المدلول عليها بـ﴿قَالُوا۟﴾،[3] و﴿كَلِمَةً﴾ نصب على التميز، أو ضمير مُبهَم مفسَّر بما بعده مِن النكرة المنصوبة تمييزًا كـ"بئس رجلًا"، والمخصوصُ بالذمّ محذوف، تقديره: كبُرت هي كلمة خارجة مِن أفواههم. وقرئ: "كَبْرَتْ"[4] بإسكان الباء مع إشمام الضمّ، وقُرِئ: "كَلِمَةٌ"[5] بالرفع.

---

١ الكهف، ١٨/١.

٢ م ط س: بجناب كبريائه [صُحّح في هامش م].

٣ في الآية السابقة.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعيسى بن عمر وابن مُحيصن وابن أبي عبلة وأبو حَيْوَة وحُميد والزّعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٤٩.

﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة لـ"الكلمة" مفيدة لاستعظام اجترائهم على التفوّه بها. وإسنادُ الخروج إليها مع أنّ الخارج هو الهواء المتكيِّف بكيفيّة الصوت لملابسته بها. ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ ما يقولون في ذلك الشأن ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾[١] إلّا قولًا كذبًا لا يكاد يدخُل تحت إمكان الصدق أصلًا، والضميران لهم ولآبائهم.

مُثِّل حاله عليه السلام في شِدّة الوجد على إعراض القوم وتولِّيهم عن الإيمان بالقرآن وكمالِ التحسّر عليهم بحال مَن يُتوقَّع منه إهلاك نفسه إثرَ فوت ما يُحِبّه عند مفارقة أحبّتِه تأسّفًا على مفارقتهم وتلهّفًا على مهاجَرتهم، فقيل على طريقة التمثيل حَمْلًا له عليه السلام على الحذَر والإشفاق مِن ذلك: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ أي: مُهلِك ﴿نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ غمًّا ووَجْدًا على فراقهم. وقرئ بالإضافة.[٢]

﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآنِ الذي عُبِّر عنه في صدر السورةِ بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾.[٣] وجواب الشرط محذوف ثقةً بدلالة ما سبَق عليه. وقرئ: بـ"أنْ"[٤] المفتوحةِ، أي: لأن لم يؤمنوا، فإعمالُ ﴿بَٰخِعٌ﴾ بحَمْله على حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف، ١٨/١٨].

﴿أَسَفًا﴾ مفعول له لـ﴿بَٰخِعٌ﴾، أي: لفَرْط الحُزن والغضبِ، أو حالٌ ممّا فيه مِن الضمير، أي: متأسِّفًا عليهم. ويجوز حَمْل النظم الكريم على الاستعارة التبعيّة بجعل التشبيه بين أجزاءِ الطرفين لا بين الهيئتين المنتزَعتين منهما كما في التمثيل. وقد مرّ تحقيقُه في تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة، ٢/٧].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ استئناف وتعليل لِما في "لعلّ"[٥] مِن معنى الإشفاقِ، أي: إنّا جعلنا ما عليها ممّن عدا مَن وُجّه إليه التكليف مِن الزخارف حيوانًا كان أو نباتًا أو معدِنًا، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ[٦] لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، ٢/٢٩].

---

١ س + أي.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٥.
٣ الكهف، ١٨/١.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٥.
٥ في الآية السابقة.
٦ ط س: جعل.

﴿زِينَةً﴾ مفعول ثانٍ للجَعْل إن حُمل على معنى التصيير، أو حال إن حُمل على معنى الإبداع. و"اللام" في ﴿لَهَا﴾ إمّا متعلِّقة بـ﴿زِينَةً﴾، أو بمحذوف هو صفة لها، أي: كائنة لها، أي: ليتمتّع بها الناظرون مِن المكلَّفين وينتفعوا بها نظرًا واستدلالًا، فإنّ الحيّاتِ والعقاربَ مِن حيث تذكيرُهما لعذاب الآخرة مِن قبيل المنافِع؛ بل كلُّ حادث داخلٌ تحت الزينة مِن حيث دلالتُه على وجود الصانع ووَحدتِه، فإنّ الأزواج والأولاد أيضًا مِن زينة الحياة الدنيا؛ بل أعظمُها، ولا يمنع ذلك كونُهم مِن جملة المكلَّفين، فإنّهم مِن جهة انتسابهم إلى أصحابهم داخلون تحت الزينة، ومِن جهة كونهم مكلَّفين داخلون تحت الابتلاء.

[٣٩٨ظ] ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ متعلِّق بـ﴿جَعَلْنَا﴾، / أي: جعلنا ما جعلنا لنُعاملَهم معاملةَ مَن يختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فنُجازيهم بالثواب والعقاب حسبما تبيَّن المحسِن مِن المسيء، وامتازت طبقات أفراد كلّ مِن الفريقين حسب امتياز مراتب علومهم المترتِّبة على أنظارهم وتفاوتِ درجات أعمالهم المتفرِّعة على ذلك، كما قرّرناه في مطالع سورة هود.[١]

و"أيّ" إمّا استفهاميّة مرفوعة بالابتداء و﴿أَحْسَنُ﴾ خبرُها، والجملةُ في محلّ النصب معلِّقة لفعل البلوى؛[٢] لِما فيه مِن معنى العِلم باعتبار عاقبته كـ"السؤال" و"النظر"، ولذلك أُجريَ مُجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعيّة، وإمّا موصولة[٣] بمعنى "الذي" و﴿أَحْسَنُ﴾ خبرُ مبتدأ مضمَر، والجملةُ صلة لها، وهي في حيّز النصب بدلًا مِن مفعول ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾، والتقديرُ: لنبلوَ الذي هو أحسنُ عملًا، فحينئذ يحتمل أن يكون الضمّة في ﴿أَيُّهُمْ﴾ للبناء، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم، ٦٩/١٩] على أحد الأقوال، لتحقُّق شرط البناء الذي هو الإضافة لفظًا وحذفُ صَدْر الصلة، وأن تكون للإعراب؛ لأنّ ما ذُكر شرط لجواز البناء لا لوجوبه.

---

[١] وفي هامش م: عند قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١]. «منه».

[٢] وفي هامش م: أيّ مُصحِّحة لتعقيبه بحرف الاستفهام، كما ذُكر في سورة هود. «منه». | في تفسير الآية السابعة منها.

[٣] السياق: "أيّ" إمّا استفهاميّة... وإمّا موصولة...

وحُسن العمل: الزهد فيها وعدم الاغترار بها والقناعةُ باليسير منها وصرفُها على ما ينبغي والتأمّلُ في شأنها وجعلُها ذريعةً إلى معرفة خالقها والتمتّعُ بها حسبما أذِن له الشرع وأداءُ حقوقها والشكرُ لها، لا اتّخاذُها وسيلةً إلى الشهوات والأغراض الفاسدة، كما يفعَله الكفَرة وأصحاب الأهواء.

وإيراد صيغةِ التفضيل مع أنّ الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسِمة إلى الحسَن والقبيح أيضًا لا إلى الحسَن والأحسَن فقط، للإشعار بأنّ الغاية الأصليّة للجعل المذكور إنّما هو ظهور كمال إحسانِ المحسِنين، على ما حُقِّق في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١].

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ﴾ فيما سيأتي عند تناهي عُمر الدنيا ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ مِن المخلوقات قاطبةً بإفنائها بالكلّيّة، وإنّما أُظهِر في مَقام الإضمار لزيادة التقرير، أو لإدراج المكلَّفين فيه.

﴿صَعِيدًا﴾ مفعول ثانٍ للجَعْل، والصعيد: التراب أو وجه الأرض. قال أبو عبيدةَ: هو المستوي مِن الأرض.[1] وقال الزجّاج: «هو الطريق الذي لا نباتَ فيه».[2] ﴿جُرُزًا﴾ ترابًا لا نباتَ فيه / بعد ما كان يَتعجَّب مِن بهجته النُّظار ويتشرَّف بمشاهدته الأبصار، يقال: أرض جرُز: لا نباتَ فيها، وسَنة جرُز: لا مطرَ فيها. قال الفرّاء: جُرِزَت الأرض فهي مجروزة، أي: ذهب نباتها بقَحْط أو جَراد، ويقال: جرَزها الجراد والشاة والإبل إذا أكلتْ ما عليها.[3] [٣٩٩و]

وهذه الجملة لتكميل ما في السابقة مِن التعليل، والمعنى: لا تحزَن بما عاينْتَ مِن القوم مِن تكذيب ما أنزلنا عليك مِن الكتاب، فإنّا قد جعلنا ما على الأرض مِن فنون الأشياء زينة لها لنختبرَ أعمالهم فنُجازيَهم بحسبها، وإنّا لَمُفنون جميع ذلك عن قريب ومُجازون لهم بحسب أعمالهم.

---

[1] انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة، ٣٩٣/١؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ٤٢٩/١٢.

[2] معاني القرآن وإعرابه للزّجّاج، ٢٦٩/٣؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ٤٢٩/١٢.

[3] انظر: معاني القرآن للفرّاء، ١٣٤/٢؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ٤٢٩/١٢.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمراد إنكار حُسبان أمّته. و﴿أَمْ﴾ منقطِعة مقدَّرة بـ"بل" التي هي للانتقال مِن حديث إلى حديث لا للإبطال، وبهمزة الاستفهام عند الجمهور، وبـ"بل" وحدَها عند غيرِهم، أي: بل أحسبت ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟﴾ في بقائهم على الحياة مدّة طويلة مِن الدهر، ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ مِن بين آياتنا التي مِن جملتها ما ذكرناه مِن جعل ما على الأرض زينة لها للحكمة المشار إليها، ثمّ جعلِ ذلك كلّه صعيدًا جرُزًا كأن لم تغْنَ بالأمس.

﴿عَجَبًا﴾ أي: آيةً ذات عجَب، وَضْعًا له موضعَ المضاف، أو وصفًا لذلك بالمصدر مبالغةً. وهو خبرٌ لـ﴿كَانُوا۟﴾ و﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ حال منه، والمعنى أنّ قصّتهم وإن كانت خارقة للعادات ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآيات التي مِن جملتها ما ذُكر مِن تعاجيب خَلْق الله تعالى؛ بل هي عندها كالنزْر الحقير.

و﴿ٱلْكَهْفِ﴾: الغار الواسع في الجبل. و﴿ٱلرَّقِيمِ﴾: كلبُهم. قال أميّةُ بن أبي الصَّلْت:[١]

وليس بها إلّا الرقيمُ مُجاورًا وصِيدَهمُ والقومُ في الكهف هُمَّدُ[٢]

وقيل: هو لوح رصاصي أو حجَري رُقمت فيه أسماؤُهم وجُعل على باب الكهف. وقيل: هو الوادي الذي فيه الكهف، فهو مِن رَقْمة الوادي، أي: جانبه. وقيل: الجبل. وقيل: قريتهم. وقيل: مكانُهم بين غَضْبانَ[٣] وأيْلةَ[٤]

---

١ هو أميّة بن أبي الصلت بن ربيعة بن عبد عوف بن عقدة بن غِيَرة بن قسيّ (ت. ٥هـ/٦٢٦م). أمّه رقيّة بنت عبد شمس بن عبد مناف. شاعر جاهلي حكيم مِن أهل الطائف. قرأ الكتب المتقدّمة مِن كتب الله عزّ وجلّ ورغب عن عبادة الأوثان. وكان يُخبِر أنّ نبيًا يُبعَث ويؤمِّل أن يكون هو ذلك النبيّ، فلمّا بلغه بعثة النبيّ عليه الصلاة السلام كَفَر حسدًا له، ولمّا سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم شعره قال: آمن شعره وكفر قلبه. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٤٥٠/١؛ والأعلام للزركلي، ٢٣/٢.

٢ البيت لأميّةَ في ديوانه، ص ٣٧٥؛ وهو له في الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢٨/٢.

٣ وفي هامش م: اسم جبل. «منه». | جبل غَضْبان: جبل في أطراف الشام، بينه وبين أيلة مكان أصحاب الكهف، انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٠٦/٤.

٤ وفي هامش م: هي القرية التي كانت حاضرة البحر. «منه». | أَيْلَة: بالفتح، مدينة على ساحل ›

دون فلسطين.[١] وقيل: أصحاب الرقيم آخرون، وكانوا ثلاثةً انطبق عليهم الغار فنجَوا / بذِكر كلّ منهم أحسنَ عمله،[٢] على ما فُصِّل في الصحيحين.[٣] [٣٩٩ظ]

﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ١٠﴾

﴿إِذۡ أَوَى﴾ ظرفٌ لـ﴿عَجَبًا﴾ لا لـ﴿حَسِبۡتَ﴾، أو مفعول لـ"اذكُرْ" أي: حين التجأ ﴿ٱلۡفِتۡيَةُ﴾ أي: أصحاب الكهف. أوثرَ الإظهار على الإضمار لتحقيق ما كانوا عليه في أنفسهم مِن حال الفتوّة، فإنّهم كانوا فتية مِن أشراف الروم أرادهم دِقيانوسُ على الشِّرك فهربوا منه بدينهم، ولأنّ صاحبيّة الكهف مِن فروع التجائهم إلى الكهف، فلا يناسب اعتبارها معهم قبل بيانه. ﴿إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ بجبلهم بنجلوس[٤] واتّخذوه مأوًى.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾ مِن خزائن رحمتك الخاصّة المكنونة عن عيون أهل العادات، فـ﴿مِن﴾ ابتدائيّة متعلِّقة بـ﴿ءَاتِنَا﴾، أو بمحذوف وقَع حالًا مِن مفعوله الثاني قُدِّمت عليه لكونه نكرة، ولو تأخّرت لكانت صفة له أي: آتنا كائنة مِن لدنك. ﴿رَحۡمَةً﴾ خاصّة تستوجب المغفرة والرِّزق والأمن مِن الأعداء، ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا﴾ الذي نحن عليه مِن مهاجَرة الكفّار والمثابَرة على طاعتك. وأصلُ التهيئة إحداث هيئة الشيء، أي: أصلحْ ورتِّب وأتممْ لنا مِن أمرنا ﴿رَشَدًا﴾ إصابة للطريق الموصِل إلى المطلوب واهتداءً إليه، وكلا الجارّين متعلِّق بـ﴿هَيِّئۡ﴾ لاختلافهما في المعنى.

وتقديم المجرورَين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبرازِ الرغبة في المؤخَّر بتقديم أحواله، فإنّ تأخير ما حقُّه التقديم عمّا هو مِن أحواله المرغِّبة فيه، كما يورث شوقَ السامع إلى وروده، ينبئ عن كمال رغبة المتكلِّم فيه

< بحر القلزم [البحر الأحمر] ممّا يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأوّل الشام، وقيل: مدينة بين الفسطاط ومكّة على شاطئ بحر القلزم، وقيل: هي مدينة لليهود الذين حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٩٢/١.

١ هذه الأقوال جميعها في الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٢.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢٩/٢.

٣ صحيح البخاري، ٩١/٣ (٢٢٧٢)؛ صحيح مسلم، ٢٠٩٩/٤ (٢٧٤٣).

٤ وفي هامش م: كذا في تفسير الكواشي. «منه». | تفسير الكواشي، ٢٨٩ظ.

واعتنائه بحصوله لا محالةَ، وكذا الكلام في تقديم قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ على تقدير تعلّقه بـ﴿ءَاتِنَا﴾. وتقديمُ ﴿لَنَا﴾ على ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾[1] للإيذان مِن أوّل الأمر بكون المسئول مرغوبًا فيه لديهم، أو اجعل أمرنا رشَدًا كلّه على أنّ ﴿مِن﴾ تجريديّة مثلُها في قولك: "رأيتُ منك أسدًا".

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: أنمناهم على طريقة التمثيل المبنيّ على تشبيه الإنامة الثقيلة المانعة عن وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحِجاب عليها. وتخصيص الآذان بالذِّكر مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحَجْب عن الشعور عند النوم لِما أنّها المحتاج إلى الحَجْب عادة، إذ هي الطريقة للتيقّظ غالبًا لاسيَّما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق. وقيل: الضرب على الآذان كناية عن الإنامة الثقيلة.[2] وحملُه على تعطيلها كما في قولهم: "ضرَب الأمير على يد الرعيّة"، أي: منَعهم مِن التصرُّف،[3] مع عدم ملاءمته لِما سيأتي مِن البعث لا يدلّ على النوم مع أنّه المراد قطعًا.

و"الفاء" في ﴿فَضَرَبْنَا﴾ كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء، ٧٦/٢١] بعد قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾، فإنّ الضرب المذكور وما ترتَّب عليه مِن التقليب ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال والبعثِ وغير ذلك إيتاءُ رحمة لدُنّيّة خافية عن أبصار المتمسِّكين بالأسباب العاديّة استجابةً لدعوتهم.

﴿فِى ٱلْكَهْفِ﴾ ظرف مكان لـ﴿ضَرَبْنَا﴾. ﴿سِنِينَ﴾ ظرف زمان له باعتبار بقائه لا ابتدائه. ﴿عَدَدًا﴾ أي: ذواتَ عدد / أو تُعَدّ عددًا على أنّه مصدر، أو معدودةً على أنّه بمعنى المفعول. ووصفُ السنين بذلك إمّا للتكثير وهو الأنسَب بإظهار كمال القدرة، أو للتقليل وهو الأليَق بمقام إنكار كون القصّة عجبًا مِن بين سائر الآياتِ العجيبة، فإنّ مدّة لُبثهم كبعض يوم عنده عزّ وجلّ. [٤٠٠و]

---

١ ط س: لدنّا.

٢ كذا في فتوح الغيب للطِّيبي، ٤١٦/٩.

٣ هذا القول منقول عن قُطْرُب في تفسير القرطبي، ٣٦٣/١٠.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ١٢﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: أيقظناهم مِن تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت ﴿لِنَعْلَمَ﴾ بنون العظمة، وقرئ بالياء مبنيًا للفاعل[1] بطريق الالتفات. وأيًا ما كان فهو غاية للبعث:

لكن لا بجعل العِلم مجازًا مِن الإظهار والتمييز، أو بحمله على ما يصِحّ وقوعه غايةً للبعث الحادث مِن العِلم الحالي الذي يتعلّق به الجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة، ١٤٣/٢]، وقولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران، ١٤٠/٣]، ونظائرهما التي يتحقَّق فيها العِلم بتحقّق متعلَّقه قطعًا، فإنّ تحويل القِبلة قد ترتَّب عليه تحزُّب الناس إلى متَّبِع ومنقلِب، وكذا مداولة الأيّام بين الناس ترتَّب عليه تحزُّبهم إلى الثابت على الإيمان والمتزلزِل فيه، وتعلَّق بكلّ مِن الفريقين العِلم الحالي والإظهار والتمييز، وأمّا بَعْث هؤلاء فلم يترتَّب عليه تفرُّقهم إلى المَحصيّ وغيره حتّى يتعلَّق بهما العِلم أو الإظهار والتمييز ويتسنّى نَظْم شيء مِن ذلك في سِلك الغاية، وإنّما الذي ترتَّب عليه تفرُّقهم إلى مقدِّر تقديرًا غيرَ مصيب ومُفوِّض إلى العِلم الربّاني، وليس شيء منهما مِن الإحصاء في شيء.

بل بحَمْل النظم الكريم على التمثيل[2] المبنيّ على جَعْل العِلم عبارة عن الاختبار مجازًا بطريق إطلاقِ اسمِ المسبَّب على السبب، وليس مِن ضرورة الاختبار صدورُ الفعل المختبِر به عن المختبَر قطعًا، بل قد يكون لإظهار عَجْزه عنه على سَنن التكاليفِ التعجيزيّة، كقوله تعالى: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة، ٢٥٨/٢]، وهو المراد ههنا، فالمعنى: بعثناهم لنعاملهم معاملة مَن يختبرهم.

﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي: الفريقين المختلفَين في مدّة لُبثهم بالتقدير والتفويض كما سيأتي ﴿أَحْصَىٰ﴾ أي: أضبَطُ ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾ أي: للُبثهم ﴿أَمَدًا﴾ أي: غاية فيظهَر لهم عجزهم ويفوِّضوا ذلك إلى العليم الخبير، ويتعرَّفوا حالَهم وما صنَع الله تعالى بهم

---

[1] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٢.

[2] السياق: لكن لا بجَعْل العلم مجازًا... بل بحمل النظم...

مِن حفظ أبدانهم وأديانهم فيزدادوا يقينًا بكمال قدرته وعِلمه، ويستبصروا به أمر البعث ويكون ذلك لطفًا لمؤمني زمانِهم وآيةً بيّنة لكفّارهم.

وقد اقتُصر ههنا مِن تلك الغايات الجليلة على ذِكر مبدئها الصادر عنه عزّ وجلّ، وفيما سيأتي على ما صدَر عنهم مِن التساؤل المؤدّي إليها، وهذا أَولى مِن تصوير التمثيل بأن يقال: بعثناهم بَعْث مَن يريد أن يعلَم... إلخ، حسبما وقَع في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران، ١٤٠/٣] على أحد الوجوه حيث حُمل على معنى: فعلنا ذلك فِعْل مَن يريد أن يعلم مَن الثابتُ على الإيمان مِن غير الثابت، إذ ربّما يتوهَّم منه استلزام الإرادة لتحقّق المراد، فيعود المحذور فيُصار إلى جعل إرادة العِلم عبارة عن الاختبار، فاختبِر واختر.

هذا وقد قرئ: "لِيُعْلَمَ" مبنيًا للمفعول[1] ومبنيًا للفاعل[2] مِن الإعلام على أنّ المفعول الأوّل محذوف، والجملةُ المصدّرة بـ﴿أَيُّ﴾ في موقع المفعول الثاني فقط إن جُعل العِلم عِرفانيًا، وفي موقع المفعولين إن جُعل يقينيًّا، أي: ليُعلِمَ الله الناسَ أيَّ الحزبين أحصى... إلخ، وروى عطاء عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ أحد الحزبين الفِتيةُ والآخرَ الملوكُ الذين تداولوا المدينة مَلِكًا بعد مَلِك.[3] وقيل: كلاهما مِن غيرهم. والأوّل هو الأظهر، فإنّ "اللام" للعهد ولا عهدَ لغيرهم.

[٤٠٠ظ] و"الأمد" بمعنى "المدى" / كـ"الغاية" في قولهم: "ابتداء الغاية" و"انتهاء الغاية"، وهو مفعول لـ﴿أَحۡصَىٰ﴾، والجارُّ والمجرور حال منه قُدِّمت عليه لكونه نكرة. وليس معنى إحصاء تلك المدّة ضبطَها مِن حيث كمّيّتُها المتّصلة الذاتيّة، فإنّه لا يُسمّى إحصاء، بل ضبطَها مِن حيث كمّيّتُها المنفصلة العارضة لها باعتبار قسمتها إلى السنين وبلوغها مِن تلك الحيثيّة إلى مراتب الأعداد، على ما يُرشِدك إليه كون تلك المدّة عبارة عمّا سبَق مِن السنين.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري. **المغني في القراءات للنَّوزاوازي**، ص ١١٥١.

[2] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **اللباب لابن عادل**، ٤٣٣/١٢.

[3] **التفسير البسيط للواحدي**، ٥٤١/١٣؛ **تفسير الرازي**، ٤٣٠/٢١؛ **اللباب لابن عادل**، ٤٣٦/١٢.

ويجوز أن يُراد بـ"الأمد" معناه الوضعي بتقدير المضاف، أي: لزمان لُبثِهم وبدونه أيضًا، فإنّ اللُّبث عبارة عن الكون المستمرّ المنطبق على الزمان المذكور، فباعتبار الامتداد العارضِ له بسببه يكوَن له أمد لا محالةَ، لكن ليس المراد به ما يقع غاية ومنتهًى لذلك الكونِ المستمرّ باعتبار كمّيّته المتّصلة العارضة له بسبب انطباقه على الزمان الممتدّ بالذات، وهو آنُ انبعاثهم مِن نومهم، فإنّ معرفته مِن تلك الحيثيّة لا تخفى على أحد ولا تُسمّى إحصاء كما مرّ،[1] بل باعتبار كمّيّته المنفصلة العارضة له بسبب عروضها لزمانه المنطبق هو عليه باعتبار انقسامه إلى السنين ووصوله إلى مرتبة معيَّنة مِن مراتب العدد، كما حُقِّق في الصورة الأولى.

والفرق بين الاعتبارين أنّ ما تعلّق به الإحصاء في الصورة السابقة نفسُ المدّة المنقسمة إلى السنين، فهو مجموع ثلاثمائةٍ وتسعِ سنين، وفي الصورة الأخيرة منتهى تلك المدّة المنقسمة إليها، أعني السنة التاسعة بعد الثلاثمائة.

وتعلُّق الإحصاء بالأمد بالمعنى الأوّل ظاهر، وأمّا تعلُّقه به بالمعنى الثاني فباعتبار انتظامه لِما تحته مِن مراتب العدد واشتماله عليها.

هذا على تقدير كون ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾ مصدريّة. ويجوز أن تكون موصولة حُذف عائدها مِن الصلة أي: للذي لبثوا فيه مِن الزمان الذي عُبّر عنه فيما قبل بسنين عددًا. فالأمدُ بمعناه الوضعي على ما تحقَّقتَه. وقيل: "اللام" مَزيدة، والموصول مفعول، و﴿أَمَدًا﴾ نصبٌ على التمييز.[2]

وأمّا ما قيل مِن أنّ ﴿أَحْصَىٰ﴾ اسم تفضيل؛ لأنّه الموافق لِما وقَع في سائر الآيات الكريمة، نحو: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف، ١٨/٧] ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء، ٤/١١] إلى غير ذلك ممّا لا يحصى، ولأنّ كونه فعلًا ماضيًا يُشعِر بأنّ غاية البعث هو العِلم بالإحصاء المتقدِّم على البعث لا بالإحصاء المتأخِّر عنه وليس كذلك.

---

[1] في كلامه على تفسير الآية الخامسة مِن سورة يونس، وتفسير الآية الثانيةَ عشرةَ مِن سورة الإسراء.

[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٣٠.

وادّعاءُ أنّ مجيء أفعل التفضيل مِن المزيد عليه غيرُ قياسي مدفوعٌ بأنّه عند سيبويهِ قياس مطلقًا، وعند ابن عصفور[١] فيما ليست همزتُه للنقل،[٢] ولا ريبَ في أنّ ما نحن فيه مِن ذاك القبيل، وامتناعُ عمَله إنّما هو / في غير التمييز مِن المعمولات، وأمّا أنّ التمييز يجب كونه فاعلًا في المعنى فلمانع أن يمنعه بصحّة أن يقال: أيُّهم أحفظُ لهذا الشعر وزنًا أو تقطيعًا، أو يقالَ: إنّ العامل في ﴿أَمَدًا﴾ فعل محذوف يدلّ عليه المذكور، أي: يُحصي لِما لبثوا أمدًا، كما في قوله: [٤٠١و]

وأضـــرَبَ منّا بالسيوف القوانسا[٣]

وحديث الوقوع في المحذور بلا فائدة مدفوعٌ بما أشيرَ إليه مِن فائدة الموافقة للنظائر،[٤] فمع ما فيه[٥] مِن الاعتساف والخلَل بمَعزِل مِن السَّداد؛ لأنّ مؤدّاه أن يكون المقصود بالاختبار إظهارَ أفضل الحزبين وتمييزَه عن الأدنى مع تحقّق أصل الإحصاء فيهما. ومِن البيّن ألّا تحقُّقَ له أصلًا، وأنّ المقصود بالاختبار إظهارُ عجز الكلّ عنه رأسًا، فهو فعل ماضٍ قطعًا. وتوهُّم إيذانه بأنّ غاية البعث هو العِلم بالإحصاء المتقدِّم عليه مردودٌ بأنّ صيغة الماضي باعتبار حال الحكاية. والله تعالى أعلمُ.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ شروع في تفصيل ما أُجمِل فيما سلف مِن قوله تعالى:

---

١ هو عليّ بن مؤمن بن محمّد بن عليّ الحضرمي الإشبيلي، أبو الحسن المعروف بابن عصفور (ت. ٦٦٩هـ/١٢٧١م). النحوي وحامل لواء العربيّة بالأندلس في عصره. وُلد بإشبيليّة ومات بتونس. وله مصنّفات مشهورة، مِن أبرز كتبه: **المقرَّب، الممتع في التصريف، وشرح الحماسة**. انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ٢/٢١٠؛ **والأعلام** للزركلي، ٥/٢٧.

٢ وفي هامش م: أي: إلى التعدية. «منه».

٣ وفي هامش م: صدره:

أكرَّ وأحمى للحقيقة منهمُ

وقبله:

فلم أرَ مثلَ الحيّ حيًّا مُصبَّحًا

ولا مثلَنا يوم التقينا فوارسا

وهما للعبّاس بن مرداس السُّلمي في **ديوانه**، ص ٩٢-٩٣؛ **والأصمعيّات** للأصمعي، ص ٢٠٥. والعجُز موضع الاستشهاد بلا عزو في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥١٩؛ **والدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٧/٤٥٠؛ **واللباب** لابن عادل، ١٢/٤٣٤.

٤ الكلام في هذا الوجه مذكور في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥١٩-٥٢٠؛ **والدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٧/٤٤٩-٤٥٠؛ **واللباب** لابن عادل، ١٢/٤٣٤-٤٣٥.

٥ السياق: وأمّا ما قيل... فمع مافيه...

﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ﴾... إلى آخره،[1] أي: نحن نخبِرك بتفاصيل أخبارِهم، وقد مرّ بيان اشتقاقه في مطلع سورة يوسفَ عليه السلام. ﴿نَبَأَهُم﴾ النبأ: الخبر الذي له شأن وخطر. ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ إمّا صفة لمصدر محذوف، أو حالٌ مِن ضمير ﴿نَقُصُّ﴾ أو مِن ﴿نَبَأَهُم﴾، أو صفة له على رأي مَن يرى حذف الموصول مع بعض صلته، أي: نقصّ قَصصًا ملتبِسًا بالحقّ، أو نقصّه ملتبِسين به، أو نقصّ نبأهم ملتبِسًا به، أو نبأهم الملتبِس به.

ونبأهم حسبما ذكَره محمّد بن إسحاقَ بن يسار أنّه قد مرَج أهل الإنجيل وعظُمتِ فيهم الخطايا وطغَت[2] ملوكهم، فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وكان ممّن بالغ في ذلك وعتا عُتوًّا كبيرًا دِقيانوس، فإنّه غلا فيه غلوًّا شديدًا فجاس خلال الديار والبلاد بالعبث والفساد، وقتَل مَن خالفه مِن المتمسِّكين بدين المسيح عليه السلام، وكان يتتبّع الناس فيُخيِّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فمَن رغِب في الحياة الدنيا الدنيّة يصنع ما يصنع، ومَن آثَر عليها الحياة الأبديّة قتَله وقطَّع آرابه وعلّقها في سُور المدينة وأبوابها.

فلمّا رأى الفتية ذلك وكانوا عظماء مدينتهم، وقيل: كانوا مِن خواصّ المَلِك، قاموا فتضرّعوا إلى الله عزّ وجلّ واشتغلوا بالصلاة والدعاء. فبينما هم كذلك إذ دخَل عليهم أعوان الجبّار فأحضروهم بين يديه، فقال لهم ما قال، وخيَّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فقالوا: إنّ لنا إلهًا ملأ السماواتِ والأرضَ عظمتُه وجبروته لن ندعوَ مِن دونه أحدًا، ولن نُقِرّ بما تدعونا إليه أبدًا، فاقضِ ما أنت قاضٍ، فأمَر فنُزِع ما عليهم مِن الثياب الفاخرة وأخرجهم مِن عنده، وخرج هو إلى مدينة / نَينوى لبعض شأنه وأمهلهم إلى رجوعه ليتأمّلوا في أمرهم فإن تبِعوه وإلّا فعَل بهم ما فعل بسائر المسلمين. [٤٠١ظ]

فأزمعت الفتيةُ على الفرار بالدِّين والالتجاء إلى الكهف الحصين، فأخذ كلّ منهم مِن بيت أبيه شيئًا فتصدّقوا ببعضه وتزوّدوا بالباقي، فأوَوا إلى الكهف، فجعلوا يصلّون فيه آناءَ الليل وأطرافَ النهار، ويبتهلون إلى الله سبحانه بالأنين والجُؤار، وفوّضوا أمر نفقتهم إلى يمليخا، فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحِسان

---

[1] الكهف، ١٠/١٨.
[2] س: طفت.

ويلبَس لباس المساكين ويدخُل المدينة ويشتري ما يُهمّهم ويتجسَّس ما فيها مِن الأخبار ويعود إلى أصحابه، فلبِثوا على ذلك إلى أن قدِم الجبّار المدينة فطلبهم وأحضر آباءهم، فاعتذروا بأنّهم عصَوهم ونهَبوا أموالهم وبذّروها في الأسواق وفرّوا إلى الجبل، فلمّا رأى يمليخا ما رأى مِن الشرّ رجَع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه قليل مِن الزاد، فأخبرهم بما شاهده[1] مِن الهَول ففزِعوا إلى الله عزّ وجلّ وخرّوا له سُجّدًا، ثمّ رفعوا رءوسهم وجلسوا يتحدّثون في أمرهم، فبينما هم كذلك إذ ضرَب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقتهم عند رءوسهم.

فخرج دِقيانوس في طلبهم بخيله ورَجِله فوجدوهم قد دخلوا الكهف، فأمر بإخراجهم فلم يُطِق أحد أن يدخُله، فلمّا ضاق بهم ذرعًا قال قائل منهم: أليس لو كنتَ قدَرتَ عليهم قتلتَهم؟ قال: بلى، قال: فابْنِ عليهم باب الكهف ودَعْهم يموتوا جوعًا وعطشًا وليكن كهفُهم قبرًا لهم ففعل. ثم كان مِن شأنهم ما قصّ الله عزّ وعلا عنهم.[2]

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ استئناف تحقيقي مبنيّ على تقدير السؤال مِن قِبَل المخاطَب. و"الفِتْية" جَمْعُ قِلّة للفتَى كـ"الصِّبية" لـ"الصبيّ". ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أوثرَ الالتفات للإشعار بعلّيّة وصف الربوبيّة لإيمانهم ولمراعاة ما صدر عنهم مِن المقالة حسبما سيُحكى عنهم.

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ بأن ثبّتناهم على ما كانوا عليه مِن الدِّين، وأظهرنا لهم مكنوناتِ محاسنه، وفيه التفات مِن الغَيبة إلى ما عليه سبكُ النظم سِباقًا وسِياقًا مِن التكلّم.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قوّيناها حتّى اقتحموا مضائق الصبر على هَجْر الأهل والأوطان والنعيم والإخوان، / واجترأوا على الصَّدْع بالحقّ مِن غير خوف وحِذار والردّ على دِقيانوسَ الجبّار. [٤٠٢و]

[1] ط س: شهده.

[2] ط س: منهم. | بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٦٣-١٧١.

﴿إِذۡ قَامُواْ﴾ منصوب بـ﴿رَبَطۡنَا﴾، والمرادُ بقيامهم انتصابهم لإظهار شِعار الدِّين، قال مجاهد: خرجوا مِن المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد، فقال أكبرُهم: إنّي لأجد في نفسي شيئًا أنّ ربّي ربُّ السماوات والأرض، فقالوا: نحن أيضًا كذلك،[١] فقاموا جميعًا ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ضمّنوا دعواهم ما يُحقِّق فحواها ويقضي بمقتضاها، فإنّ ربوبيّته عزّ وجلّ لهما يقتضي ربوبيّته لِما فيهما أيَّ اقتضاء. وقيل: المراد قيامهم بين يدي الجبّار مِن غير مبالاة به حين عاتبهم على تَرْك عبادة الأصنام.[٢] فحينئذ يكون ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾... إلخ،[٣] منقطِعًا عمّا قبله، صادرًا عنهم بعد خروجهم مِن عنده.

﴿لَن نَّدۡعُوَاْ﴾ لن نعبد أبدًا ﴿مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾ معبودًا آخرَ لا استقلالًا ولا اشتراكًا. والعدول عن أن يقال: "ربًّا" للتنصيص على ردّ المخالفين حيث كانوا يسمُّون أصنامهم آلهةً، وللإشعار بأنّ مدار العبادة وَصْف الألوهيّة، وللإيذان بأنّ ربوبيّته تعالى بطريق الألوهيّة لا بطريق المالكيّة المجازيّة.

﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ أي: قولًا ذا شطَط، أي: تجاوزٍ عن الحدّ، أو قولًا هو عين الشطَط، على أنّه وُصِف بالمصدر مبالغة، ثمّ اقتُصر على الوصف مبالغة على مبالغة، وحيث كانت العبادة مستلزِمة للقول لِما أنّها لا تَعرى مِن الاعتراف بألوهيّة المعبود والتضرّع إليه قيل: ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَا﴾. و﴿إِذٗا﴾ جواب وجزاء، أي: لو دعَونا مِن دونه إلهًا واللهِ لقد قلنا قولًا خارجًا عن حدّ العقول مُفرِطًا في الظلم.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۢ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هو مبتدأ، وفي اسم الإشارة تحقير لهم، ﴿قَوۡمُنَا﴾ عطفُ بيان له، ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ خبرُه، وفيه معنى الإنكار، ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ﴾ تخصيص فيه معنى الإنكار والتعجيز، أي: هلّا يأتون ﴿عَلَيۡهِم﴾ على ألوهيّتهم أو على صحّة

---

[١] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٧٢؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٣/٥٤٤-٥٤٥؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٤٣٧.

[٢] القول في اللباب لابن عادل، ١٢/٤٣٧.

[٣] في الآية الآتية.

اتّخاذهم لها آلهةً ﴿بِسُلْطَٰنِۭ بَيِّنٍ﴾ بحجّة ظاهرة الدلالة على مُدّعاهم، وهو تبكيت لهم وإلقامُ حجَر.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا، / والمعنى أنّه أظلمُ مِن كلّ ظالم، وإن كان سَبْك النظم على إنكار الأظلميّة مِن غير تعرّض لإنكار المساواة، كما مرّ تحقيقه في سورة هود.[1] [٤٠٢ظ]

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: فارقتموهم في الاعتقاد، أو أردتُم الاعتزال الجسماني. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ عطف على الضمير المنصوب، و﴿مَا﴾ موصولة أو مصدريّة، أي: إذ اعتزلتموهم ومعبوديهم إلّا اللهَ، أو وعبادتَهم إلّا عبادةَ الله، وعلى التقديرين فالاستثناءُ متّصل على تقدير كونهم مشركين كأهل مكّة، ومنقطِعٌ على تقدير تمحُّضهم في عبادة الأوثان، ويجوز كون ﴿مَا﴾ نافيةً على أنّه إخبار مِن الله تعالى عن الفِتية بالتوحيد معترِض بين ﴿إِذِ﴾ وجوابه.

﴿فَأْوُۥٓا۟﴾ أي: التجِئوا ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ قال الفرّاء: هو جواب ﴿إِذِ﴾، كما تقول: إذ فعلتَ كذا فافعل كذا.[2] وقيل: هو دليل على جوابه، أي: إذ اعتزلتموهم اعتزالًا اعتقاديًّا فاعتزلوهم اعتزالًا جسمانيًّا، أو إذ أردتُم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف، ﴿يَنشُرْ لَكُمْ﴾ يبسُطْ لكم ويوسِّعْ عليكم ﴿رَبُّكُم﴾ مالكُ أمرِكم ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ في الدارين ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ يسهِّلْ لكم ﴿مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الذي أنتم بصدده مِن الفرار بالدِّين ﴿مِّرْفَقًا﴾ ما ترتفِقون وتنتفِعون به. وقرئ بفتح "الميم" وكسر "الفاء"[3] مصدرًا كـ"المَرجِع". وتقديم ﴿لَكُم﴾ في الموضعين لِما مرّ مرارًا مِن الإيذان مِن أوّل الأمر بكون المؤخَّر مِن منافعهم والتشويق إلى وروده.

---

[1] في تفسير الآية الثامنةَ عشرةَ منها.

[2] انظر: معاني القرآن للفرّاء، ١٣٦/٢؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ٤٣٩/١٢.

[3] قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ بيان لحالهم بعد ما أَوَوا إلى الكهف، ولم يصرِّح به إيذانًا بعدم الحاجة إليه لظهور جرَيانهم على موجَب الأمر به لكونه صادرًا عن رأي صائب، وتعويلًا على ما سلف مِن قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾،[1] وما لحِق مِن إضافة الكهف إليهم وكونهم في فجوة منه.

والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ أحد ممّن يصلُح للخطاب، وليس المراد به الإخبارَ بوقوع الرؤية تحقيقًا؛ بل الإنباءُ[2] بكون الكهف بحيث لو رأيتَه ترى الشمس ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ أي: تتزاوَر وتتنحّى، بحذف إحدى التاءين. وقرئ بإدغام "التاء" في "الزاء"،[3] و"تَزْوَرّ"[4] كـ"تحمرّ"، و"تَزْوَارّ"[5] كـ"تَحْمَارّ"، و"تَزْوَئِرُ"،[6] وكلّها مِن الزَّوَر: وهو المَيل.

﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ / الذي أوَوا إليه، فالإضافة لأدنى ملابسة. ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ [٤٠٣و] أي: جهةَ ذاتِ يمين الكهف عند توجّه الداخل إلى قعره، أي: جانبه الذي يلي المَغرِب فلا يقع عليهم شُعاعها فيؤذيَهم، ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ أي: تراها عند غروبها ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي: تقطَعهم مِن "القطيعة والصَّرْم" ولا تقربهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: جهةَ ذاتِ شمال الكهف، أي: جانبه الذي يلي المَشرِق. وكان ذلك بتصريف الله سبحانه على مِنهاج خرق العادة كرامةً لهم.

---

[1] الكهف، ١٨/١٠.

[2] وفي هامش م: يتضمّن الإنباء معنى الإيذان والإشعار. «منه».

[3] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

[4] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري وأيّوب السِّخْتياني وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٥.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ النحوي والوليد بن مُسلم عن ابن عامر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٥٢.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ جملة حاليّة مُبيّنة لكون ذلك أمرًا بديعًا، أي: تراها تميل عنهم يمينًا وشمالًا ولا تحوم حولهم، مع أنّهم في متّسع مِن الكهف معرَّض لإصابتها لولا أن صرفتْها عنهم يد التقدير.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما صنع الله بهم مِن تزاوُر الشمس وقَرْضِها حالتَي الطلوع والغروب مع كونهم في موقع شُعاعِها ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ العجيبة الدالّة على كمال عِلمه وقدرته وحقّيّة التوحيد وكرامة أهلِه عنده سبحانه وتعالى. وهذا قبل أن سدّ دِقيانوسُ باب الكهف.

وقيل: كان باب الكهف شماليًّا مستقبلَ بنات النعش،[1] وأقربُ المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرِق رأس السرطان ومغربِه،[2] والشمسُ إذا كان مدارها مدارَه تطلُع مائلةً عنه مقابِلة لجانبه الأيمن وهو الذي يلي المَغرِب، وتغرُب محاذيةً لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جنبَيه وتُخلِّل عفونتَه وتُعدِّل هواءه، ولا يقع عليهم فيؤذيَ أجسادهم ويُبليَ ثيابهم، ولعلّ مَيلَ الباب إلى جانب الغرب كان أكثر ولذلك أُوقِع التزاورُ على كهفهم والقرضُ على أنفسهم. فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ حينئذ إشارة إلى إيوائهم إلى كهفٍ هذا شأنه، وأمّا جعلُه إشارة إلى حفظ الله سبحانه إيّاهم في ذلك الكهف تلك المدّة الطويلة، أو إلى اطّلاعه سبحانه لرسوله[3] صلّى الله عليه وسلّم على أخبارهم فلا يساعده إيراده في تضاعيف القصّة.

[٤٠٣ظ] ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ إلى الحقّ بالتوفيق له / ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الذي أصاب الفلاح. والمراد إمّا الثناء عليهم والشهادة لهم بإصابة المطلوب، والإخبارُ بتحقيق ما أمّلوه مِن نشر الرحمة وتهيئة المرافق، أو التنبيهُ على أنّ أمثال هذه الآية كثيرة ولكنّ المنتفِع بها مَن وفَّقه الله تعالى للاستبصار بها.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي: يخلق فيه الضلال لصَرْف اختياره إليه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ﴾ أبدًا وإن بالغتَ في التتبّع والاستقصاء ﴿وَلِيًّا﴾ ناصرًا ﴿مُّرْشِدًا﴾ يهديه إلى ما ذُكر مِن الفلاح لاستحالة وجوده في نفسه، لا أنّك لا تجِده مع وجوده أو إمكانه.

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٢.

[2] وفي هامش م: التذكير باعتبار أنّه برج.

[3] ط س: لرسول الله.

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ﴾ بفتح "السين"، وقرئ بكسرها[١] أيضًا، والخطابُ فيه كما فيما سبق. ﴿أَيۡقَاظٗا﴾ جمع "يَقظ" بكسر "القاف" وفتحها: وهو اليقظان. ومدارُ الحُسبان انفتاح عيونهم على هيئة الناظر. وقيل: كثرة تقلّبهم.[٢] ولا يلائمه قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ﴾. ﴿وَهُمۡ رُقُودٞ﴾ أي: نيام، وهو تقرير لِما لم يُذكَر فيما سلَف اعتمادًا على ذِكره السابق مِن الضرب على آذانهم.

﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ﴾ في رقدتهم ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ نصب على الظرفية، أي: جهةً تلي أَيمانهم، ﴿وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: جهةً تلي شمائلهم كيلا تأكل الأرض ما يليها مِن أبدانهم. قال ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: لو لم يُقلَّبوا لأكلَتْهم الأرض.[٣] قيل: لهم تقلُّبتان في السَّنة.[٤] وقيل: تقلُّبة واحدة يوم عاشوراء.[٥] وقيل: في كلّ تسع سنين.[٦] وقرئ: "يُقَلِّبُهُمْ"[٧] على الإسناد إلى ضمير الجلالة، و"تَقَلُّبَهُمْ"[٨] على المصدر منصوبًا بمضمر ينبئ عنه ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ﴾، أي: وترى تقلُّبَهم.

﴿وَكَلۡبُهُم﴾ قيل: هو كلب مرّوا به فتبِعهم فطردوه مِرارًا فلم يرجِع، فأنطقه الله تعالى فقال: لا تخشَوا جانبي فإنّي أحبّ أحبّاء الله فناموا حتّى أحرُسَكم.[٩] وقيل: هو كلبُ راعٍ قد تبِعهم على دينهم،[١٠] ويُؤيِّده قراءة "كَالِبُهُمْ"،[١١] إذ الظاهر

---

[١] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٢.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٢.

[٣] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٨٦/١٥؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٥٥٨/١٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥.

[٤] مَرويّ عن أبي هريرة في التفسير البسيط للواحدي، ٥٥٨/١٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٤/١٢.

[٥] القول في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٢.

[٦] مرويّ عن مجاهد في التفسير البسيط للواحدي، ٥٥٨/١٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٤/١٢.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن عِمران بن حِطّان عن الحسن. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٥٤.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن معاذ بن جبل والحسن وعِمران بن حُدير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٢؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٥٣.

[٩] مرويّ عن الكلبي في اللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢؛ وبلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣١/٢-٣٣٢.

[١٠] مرويّ عن ابن عبّاس في اللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢؛ وبلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣١/٢.

[١١] قراءة شاذّة، مرويّة عن جعفر الصادق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٦.

لُحوقه بهم. وقيل: هو كلبُ صيدِ أحدهم أو زرعِه أو غنمِه. واختُلف في لونه، فقيل: كان أنمرَ، وقيل: أصفرَ، وقيل: أصهبَ، وقيل: غير ذلك،[١] وقيل: كان اسمه قطمير،[٢] وقيل: زبّان،[٣] وقيل: تتود،[٤] وقيل: قطمون، / وقيل: ثور.[٥] قال [٤٠٤و] خالد بن مَعْدان:[٦] «ليس في الجنّة مِن الدوابّ إلّا كلب أصحاب الكهف وحمارُ بلعم».[٧] وقيل: لم يكن ذلك مِن جنس الكلاب؛ بل كان أسدًا.[٨]

﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيۡهِ﴾ حكايةُ حال ماضية، ولذلك أُعمِل اسم الفاعل،[٩] وعند الكسائي وهشام[١٠] وأبي جعفر مِن البصريّين يجوز إعماله مطلقًا.[١١] والذراع: مِن المِرفق إلى رأس الإصبع الوسطى. ﴿بِٱلۡوَصِيدِ﴾ أي: بموضع الباب مِن الكهف.

﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: لو عاينتَهم وشاهدتَهم، وأصل الاطّلاع الإشراف على الشيء بالمعايَنة والمشاهَدة، وقرئ بضمّ "الواو"،[١٢] ﴿لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾

---

١ هذه الأقوال مع أخرى في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢. وفيهما أنّ القول بأنّ لونه أصفر مرويّ عن مقاتل.

٢ مرويّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢.

٣ مرويّ عن عليّ في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢. وفي مطبوعها «ريّان».

٤ مرويّ عن الأوزاعي في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥، وفي مطبوعه «بتور»؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢. وفي مطبوعه «يشور».

٥ مرويّ عن السُّدّي في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥، وفي مطبوعه «تور»؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢، وفي مطبوعه «يور».

٦ هو خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي الحمصي، أبو عبد الله (ت. ١٠٤هـ/٧٢٢م). الإمام شيخ أهل الشام. قيل: أصله مِن اليمن وإقامته في حمص، تابعي ثقة، اشتهر بالعبادة والعلم والهيبة. أدرك سبعين مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وحدّث عن خلق مِن الصحابة. روى عن ثوبان وأبي أمامة الباهلي ومعاوية وأبي هريرة وابن عمر وغيرهم، وأرسل عن معاذ وعائشة وأبي الدرداء وغيرهم، روى عنه محمّد بن إبراهيم التيمي وحسان بن عطيّة وغيرهم. كان كثير التسبيح، فلمّا مات بقيت إصبعه تتحرّك وكأنّه يسبّح. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥٣٦/٤-٥٤٠؛ والأعلام للزركلي، ٢٩٩/٢.

٧ معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ اللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢.

٨ مرويّ عن ابن جُريج في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢.

٩ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٢.

١٠ هو هشام بن معاوية، أبو عبد الله (ت. ٢٠٩هـ/٨٢٤م). نحوي ضرير مِن أهل الكوفة، وهو أحد أعيان أصحاب الكسائي. له مِن الكتب: الحدود، المختصر، القياس، كلّها في النحو. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٣٢٨/٢؛ والأعلام للزركلي، ٨٨/٨.

١١ انظر تفصيل أقوالهم في التذييل والتكميل لأبي حيّان، ٣٢٤/١٠-٣٤٥.

١٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٦.

هربًا ممّا شاهدتَ منهم، وهو إمّا نصب على المصدريّة مِن معنى ما قبله، إذ التولية والفِرار مِن وادٍ واحد، وإمّا على الحاليّة بجعل المصدر بمعنى الفاعل، أي: فارًّا، أو بجعل الفاعل مصدرًا مبالغة، كما في قولها:[١]

فــإنّــمــا هـــيَ إقــبــالٌ وإدبـــارُ[٢]

وإمّا على أنّه مفعول له.

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ وقرئ بضمّ العين،[٣] أي: خوفًا يملأ الصدر ويُرعِبه، وهو إمّا مفعول ثانٍ أو تمييز. وذلك لِما ألبسهم الله عزّ وجلّ مِن الهَيبة والهيئة، كانت أعينهم مفتّحة كالمستيقِظ الذي يريد أن يتكلّم. وقيل: لطول أظفارهم وشُعورهم.[٤] ولا يساعده قولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾،[٥] وقولُه: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾،[٦] فإنّ الظاهر مِن ذلك عدم اختلاف أحوالِهم في أنفسهم. وقيل: لعِظم أجرامِهم.[٧]

ولعلّ تأخيرَ هذا مِن[٨] ذِكر التولية للإيذان باستقلال كلّ منهما في الترتّب على الاطّلاع، إذ لو رُوعيَ ترتيب الوجود لَتبادر إلى الفهم ترتُّب المجموع مِن حيث هو هو عليه، وللإشعار بعدم زوال الرُّعب بالفِرار، كما هو المعتاد.

وعن معاويةَ رضي الله عنه:[٩] لمّا غزا الروم فمرّ بالكهف، قال: لو كُشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابن عبّاس رضي الله عنهما: ليس لك ذلك قد منع الله تعالى مَن هو خير منك، حيث قال: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، قال معاويةُ:[١٠] لا أنتهي حتّى أعلم / عِلمَهم، فبعث ناسًا وقال لهم: اذهبوا فانظُروا، ففعلوا فلمّا دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحًا فأحرقتْهم.[١١] وقرئ بتشديد "اللام"[١٢] [٤٠٤ظ]

---

١ وفي هامش م: خنساء. «منه».
٢ مضى تخريجه عند تفسير الآية السادسة والأربعين مِن سورة هود.
٣ قرأ بها ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.
٥ في الآية الآتية.
٦ في الآية الآتية.
٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.
٨ س: عن.
٩ ط س - رضي الله عنه.
١٠ ط س + رضي الله عنه.
١١ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٥٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.
١٢ قرأ بها ابن نافع وابن كثير وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

على التكثير، وبإبدال "الهمزة" ياء مع التخفيف[١] والتشديد.[٢]

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: كما أنمناهم وحفِظنا أجسادَهم مِن البِلى والتحلّل آيةً دالّة على كمال قدرتنا بعثناهم مِن النوم ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليسأل بعضهم بعضًا فيترتَّب عليه ما فُصّل مِن الحِكَم البالغة. وجعلُه غايةً للبعث المعلَّل فيما سبَق بالاختبار مِن حيث إنّه مِن أحكامه المترتِّبة عليه والاقتصارُ على ذِكره لاستتباعه لسائر آثاره.

﴿قَالَ﴾ استئناف لبيان تساؤلِهم ﴿قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو رئيسهم واسمه مَكْسَلِينِيا ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في منامكم؟ لعلّه قاله لِما رأى مِن مخالفة حالهم لِما هو المعتادُ في الجملة. ﴿قَالُواْ﴾ أي: بعضُهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قيل: إنّما قالوه لِما أنّهم دخلوا الكهف غُدوةً وكان انتباههم آخرَ النهار،[٣] فقالوا: لبثنا يومًا، فلمّا رأوا أنّ الشمس لم تغرُب بعدُ، قالوا: أو بعضَ يوم، وكان ذلك بناءً على الظنّ الغالب، فلم يُعزَوا إلى الكذِب.

﴿قَالُواْ﴾ أي: بعض آخرُ منهم بما سنَح لهم مِن الأدلّة أو بإلهام مِن الله سبحانه: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: أنتم لا تعلمون مدّة لُبثِكم وإنّما يعلمها الله سبحانه. وهذا ردّ منهم على الأوّلين بأجمل ما يكون مِن مراعاة حُسن الأدب، وبه يتحقّق التحزّب إلى الحزبين المعهودين فيما سبَق. وقد قيل: القائلون جميعُهم ولكن في حالتين. ولا يساعده النظم الكريم؛ فإنّ الاستئناف في الحكاية والخطاب في المحكي يقضي بأنّ الكلام جارٍ على منهاج المحاورة والمجاوبة، وإلّا لقيل: ثمّ قالوا: ربُّنا أعلمُ بما لبثنا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٦١/٧.

[٢] قرأ بها أبو جعفر. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٦١/٧.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٢/٢.

﴿فَابْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قالوه إعراضًا عن التعمّق في البحث وإقبالًا على ما يُهمّهم بحسب الحال، / [١] كما ينبئ عنه "الفاء". و"الورِق": الفِضّة مضروبة أو غيرَ مضروبة. ووصفُها باسم الإشارة يُشعر بأنّ القائل ناولها بعض أصحابه ليشتريَ بها قوتَ يومِهم ذلك. وقرئ بسكون "الراء"،[٢] وبإدغام "القاف" في "الكاف"،[٣] وبكسر "الواو" وبسكون "الراء" مع الإدغام.[٤] وحَمْلُهم لها دليل على أنّ التزوّد لا ينافي التوكّل على الله تعالى. [٤٠٥و]

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا﴾ أي: أهلها ﴿أَزْكَىٰ﴾ أحلُّ وأطيبُ، أو أكثرُ وأرخصُ ﴿طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي: مِن ذلك الأزكى طعامًا ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلّف اللُّطف في المعاملة كيلا يُغبَن، أو في الاستخفاء لئلّا يُعرَف ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ مِن أهل المدينة، فإنّه يستدعي شيوع أخباركم، أي: لا يفعلنّ ما يؤدّي إلى ذلك، فالنهيُ على الأوّل تأسيس وعلى الثاني تأكيدٌ للأمر بالتلطّف.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿إِنَّهُمْ﴾ تعليل لِما سبَق مِن الأمر والنهي، أي: لِيبالِغْ في التلطّف وعدمِ الإشعار؛ لأنّهم ﴿إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يطّلعوا عليكم أو يظفَروا بكم، والضميرُ للأهل المقدّر في ﴿أَيُّهَا﴾، ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ إن ثبتُّم على ما أنتم عليه ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي: يُصيّروكم إليها ويُدخلوكم فيها كُرهًا، مِن العَود بمعنى الصيرورة، كقوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف، ٨٨/٧]. وقيل: كانوا أوّلًا على دينهم.[٥] وإيثار كلمة ﴿فِي﴾ على كلمة "إلى" للدلالة على الاستقرار الذي هو أشدّ شيء عندهم كراهة. وتقديم احتمال الرجم على احتمال الإعادة؛ لأنّ الظاهر مِن حالهم هو الثبات على الدِّين المؤدّي إليه.

---

١ وقع هنا اضطراب في الألواح في نسخة المؤلّف، فتقدّمت عشر منها على عشر بعدُ.

٢ قرأ بها أبو عمرو وحمزة وخلف وأبو بكر ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٦.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٣/٢.

وضمير الخِطاب في المواضع الأربعة للمبالغة في بعث[١] المبعوث على الاستخفاء وحثّ الباقين على الاهتمام بالتوصية، فإنّ إمحاض النُّصح أدخلُ في القَبول واهتمامَ الإنسان بشأن نفسه أكثرُ وأوفرُ.

﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا﴾ أي: إن دخلتُم فيها، ولو بالكُره والإلجاء، لن تفوزوا بخير ﴿أَبَدًا﴾ لا في الدنيا ولا الآخرة. وفيه مِن التشديد في التحذير ما لا يخفى.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

[٤١٥ظ] ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما أنمناهم وبعثناهم لِما مرّ مِن ازديادهم / في مراتب اليقين ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أي: أطلعنا الناس ﴿عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: الذين أعثرناهم عليهم بما عاينوا مِن أحوالهم العجيبة ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: وعدَه بالبعث أو موعودَه الذي هو البعث، أو أنّ كلّ وعدِه أو كلَّ موعوده فيدخُل فيه وعده بالبعث والبعث الموعود دخولًا أوليًا، ﴿حَقٌّ﴾ صادق لا خُلف فيه، أو ثابت لا مردَّ له؛ لأنّ نومهم وانتباههم كحال مَن يموت ثمّ يُبعث، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة التي هي عبارة عن وقت بَعْث الخلائق جميعًا للحساب والجزاء ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شكّ في قيامها، فإنّ مَن شاهد أنّه جلّ وعلا توفّى نفوسهم وأمسَكها ثلاثمائة سنةٍ وأكثرَ حافظًا أبدانَها مِن التحلّلِ والتفتّت ثمّ أرسلها إليها، لا يبقى له شائبة شكّ في أنّ وعده تعالى حقّ وأنّه يبعث مَن في القبور فيردّ إليهم أرواحَهم فيُحاسبهم ويجزيهم بحسب أعمالهم.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ظرف لقوله: ﴿أَعْثَرْنَا﴾ قُدِّم عليه الغاية إظهارًا لكمال العناية بذِكرها، لا لقوله: ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ كما قيل؛[٢] لدِلالته على أنّ التنازع يحدُث بعد الإعثار وليس كذلك، أي: أعثرناهم عليهم حين يتنازعون ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ليرتفع الخلاف ويتبيّنَ الحقّ. قيل: المتنازع فيه أمر دينهم حيث كانوا مختلفين في البعث:

---

[١] م ط س: حَمْل [صُحّح في هامش م ط].

[٢] القول في التبيان للعكبري، ٢/٨٤٢.

فمِن مُقِرّ له، وجاحدٍ به، وقائل يقول ببعث الأرواح دون الأجساد، وآخرَ يقول ببعثهما معًا.[١]

قيل: كان مَلِك المدينة حينئذ رجلًا صالحًا مؤمنًا، وقد اختلف أهل مملكته في البعث حسبما فُصِل، فدخَل المَلِك بيته وأغلق بابه ولبس مِسْحًا وجلس على رماد وسأل ربّه أن يُظهِر الحقّ، فألقى الله عزّ وجلّ في نفس رجل مِن رُعيانهم فهدَم ما سدّ به دِقيانوسُ باب الكهف ليتّخذه حظيرة لغنمه، فعند ذلك بعثهم الله تعالى، فجرى بينهم مِن التقاوُل ما جرى.[٢]

رُوي أنّ المبعوث لمّا دخل المدينة أخرج الدِّرهم ليشتريَ به الطعام وكان على ضَرْب دِقيانوسَ، فاتّهموه بأنّه وجَد كنزًا، فذهبوا به إلى المَلِك فقصّ عليه القِصّة، / فقال بعضهم: إنّ آباءنا أخبرونا بأنّ فِتية فرّوا بدينهم مِن دِقيانوسَ فلعلّهم هؤلاء، فانطلق المَلِك وأهل المدينة مِن مسلم وكافر وأبصروهم وكلّموهم، ثمّ قالت الفِتية للملك: نستودعك الله ونُعيذك به مِن شرّ الإنس والجنّ، ثمّ رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا، فألقى المَلِك عليهم ثيابه، وجعَل لكلّ منهم تابوتًا مِن ذهَب، فرآهم في المنام كارهين للذهب، فجعَلها مِن الساج،[٣] وبنى على باب الكهف مسجِدًا.[٤] وقيل: لمّا انتهَوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانكم حتّى أدخُل أوّلًا لئلّا يفزعوا، فدخل فعمِيَ عليهم المدخل فبنَوا ثمّة مسجِدًا.[٥] [٤١٦و]

وقيل: المتنازَع فيه أمر الفتية قبل بعثهم، أي: أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم وما جرى بينهم وبين دِقيانوسَ مِن الأحوال والأهوال ويتلقّون ذلك مِن الأساطير وأفواه الرجال.

---

[١] مرويّ عن عكرمة بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٩٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٦١؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٣.

[٢] مرويّ بمعناه عن ابن إسحاق في جامع البيان للطبري، ١٥/١٩٩-٢٠٠؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٣.

[٣] الساج: خشب يجلب مِن الهند. لسان العرب لابن منظور، «سوج».

[٤] مروي عن وهب بن منبّه بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٩٧-١٩٨؛ وبلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٣.

[٥] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٣٤.

وعلى التقديرين فـ"الفاء" في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَقَالُواْ﴾ فصيحة،[١] أي: أعثرناهم عليهم فرأوا ما رأوا فماتوا فقالوا، أي: قال بعضهم: ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم﴾ أي: على باب كهفِهم ﴿بُنْيَـٰنًا﴾ لئلّا يتطرّقَ إليهم الناس، ضنًّا بتربتهم ومحافظةً عليها.

وقوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ مِن كلام المتنازِعين، كأنّهم لمّا رأوا عدم اهتدائهم إلى حقيقة حالهم مِن حيث النسب ومِن حيث العددُ ومِن حيث اللُّبث في الكهف قالوا ذلك تفويضًا للأمر إلى علّام الغيوب، أو مِن كلام الله سبحانه ردًّا لقول الخائضين في حديثهم مِن أولئك المتنازِعين.

وقيل: هو أمرهم[٢] وتدبيرهم عند وفاتهم،[٣] أو شأنهم في الموت والنوم، حيث اختلفوا في أنّهم ماتوا أو ناموا كما في أوّل مرّة، فـ﴿إِذْ﴾ حينئذ متعلّق بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ وهم المَلِك والمسلمون: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ﴾ معطوف على ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ﴾، وإيثارُ صيغة الماضي للدلالة على أنّ هذا القول ليس ممّا يستمرّ ويتجدّد كالتنازع. وقيل: متعلّق بـ"اذكر" مضمَرًا. وأمّا تعلّقه بـ﴿أَعْثَرْنَا﴾ فيأباه أنّ إعثارهم ليس في زمان تنازُعهم فيما ذُكر؛ بل قبله. وجعلُ وقت التنازع ممتدًّا يقع في بعضه الإعثارُ وفي بعضه التنازعُ[٤] / تعسّفٌ لا يخفى، مع أنّه لا مخصِّص لإضافته إلى التنازُع، وهو مؤخَّر في الوقوع. [٤١٦ظ]

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿سَيَقُولُونَ﴾ الضمير في الأفعال الثلاثة للخائضين في قصّتهم في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن أهل الكتاب والمسلمين، لكن لا على وجه

---

[١] كما في فتوح الغيب للطِّيبي، ٩/٤٣٣؛ وشرح مشكلات الكشّاف لقطب الدين الرازي، ٤١٩و.

[٢] وفي هامش م: أي: المتنازع فيه. «منه».

[٣] القول في الكشف عن مشكلات الكشّاف للقزويني، ١٩٥و.

[٤] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٣٣-٣٣٤.

إسناد كلّ منها إلى كلّهم؛ بل إلى بعضهم: ﴿ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ أي: هم ثلاثة أشخاص رابعهم، أي: جاعلُهم أربعة بانضمامه إليهم كلبُهم. قيل: قالته اليهود،[١] وقيل: قاله السيِّد مِن نصارى نَجرانَ وكان يعقوبيًّا.[٢] وقرئ: "ثَلَاثٌّ"[٣] بإدغام "الثاء" في "التاء".

﴿وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ قيل: قالته النصارى، أو العاقب منهم وكان نَسطوريًّا.[٤] ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ رميًا بالخبر الخفيّ الذي لا مُطَّلَعَ عليه، أو ظنًّا بالغيب مِن قولهم: "رجَم بالظنّ" إذا ظنّ. وانتصابه على الحاليّة مِن الضمير في الفعلين جميعًا، أي: راجمين، أو على المصدريّة منهما، فإنّ الرَّجم والقول واحد، أو مِن محذوف مستأنَف أو واقع موقعَ الحال مِن ضمير الفعلين معًا، أي: يرجُمون رجمًا، وعدم إيراد "السين" للاكتفاء بعطفه على ما فيه ذلك.

﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ هو ما يقوله المسلمون بطريق التلقّن مِن هذا الوحي وما فيه ممّا يُرشدهم إلى ذلك مِن عدم نظمِه في سِلك الرَّجْم بالغيب. وتغييرُ سَبكه بزيادة "الواو" المفيدة لزيادة وَكادة النسبة فيما بين طرفيها، لا بوحي آخرَ كما قيل.

﴿قُل﴾ تحقيقًا للحقّ وردًّا على الأوّلين: ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ أي: أقوى عِلمًا ﴿بِعِدَّتِهِم﴾ بعددهم ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ﴾ أي: ما يعلم عِدّتهم، أو ما يعلمهم فضلًا عن العِلم بعِدّتهم ﴿إِلَّا قَلِيلٞ﴾ مِن الناس قد وفّقهم الله للاستشهاد بتلك الشواهد.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: حين وقعت "الواو" انقطعت العِدّة، وعليه مدار قوله رضي الله تعالى عنه: أنا مِن ذلك القليل.[٥] ولو كان في ذلك وحيٌ آخرُ لما خفيَ عليه ولَما احتاج إلى الاستشهاد بـ"الواو"، ولكان المسلمون أسوة له في العِلم بذلك.

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٣٤.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٤.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٧.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٤.
٥ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/٢١٩؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٣/٥٧٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٦٢.

وعن عليّ كرّم الله تعالى وجهه أنّهم سبعةُ نفر أسماؤُهم: يمليخا ومَكْشَلِينِيا ومَشْلِينِيَا، هؤلاء أصحابُ يمين الملك، وكان عن يساره مَرْنُوش ودَبَرْنُوش وشَاذَنُوش وكان يستشير هؤلاء الستّةَ في أمره، والسابعُ الراعي الذي وافقهم حين / هربوا مِن ملكهم دِقيانوسَ واسمه كَفِيشَطَيُوش.[١] [٤١٧و]

﴿فَلَا تُمَارِ﴾ "الفاء" لتفريع النهي على ما قبله، أي: إذ قد عرفتَ جَهْل أصحاب القولين الأوّلَين فلا تُجادلهم ﴿فِيهِمْ﴾ في شأن الفِتية ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا﴾ قَدْر ما تعرَّض له الوحيُ مِن وَصْفهم بالرَّجْم بالغيب، وعدمِ العِلم على الوجه الإجمالي، وتفويضِ العلم إلى الله سبحانه مِن غير تصريح بجَهْلهم وتفضيح لهم، فإنّه ممّا يُخِلّ بمكارم الأخلاق.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم﴾ في شأنهم ﴿مِّنْهُمْ﴾ مِن الخائضين ﴿أَحَدًا﴾ فإنّ فيما قُصّ عليك لَمَندوحةً عن ذلك، مع أنّه لا عِلمَ لهم بذلك. وقال عطاء: إلّا قليل مِن أهل الكتاب.[٢] فالضمائر الثلاثة في الأفعال الثلاثة لهم وما ذُكر مِن الشواهد لإرشاد المؤمنين إلى صحّة القولِ الثالث، وفيه مَحيصٌ عمّا في الأوّل مِن التكلّف في جعل أحد الأقوال المحكيّة المنظومة في سِمْط واحد ناشئًا عن الحكاية مع كون الأخيرين بخلافه، ووضوحٌ في سبب حذف المفعول في ﴿لَا تُمَارِ﴾، والمعنى حينئذ: وإذ قد وقفتَ على أنّ كلّهم ليسوا على خطأ في ذلك فلا تُجادِلْهم إلّا جدالًا ظاهرًا نطَق به الوحيُ المُبين، مِن غير تجهيل لجميعهم، فإنّ فيهم مُصيبًا وإن قلّ.

والنهيُ عن الاستفتاء لدَفْع ما عسى يُتوهَّم مِن احتمال جوازه أو احتمالِ وقوعه بناءً على إصابة بعضهم، فالمعنى: لا تراجِعْ إليهم في شأن الفِتية ولا تُصدِّق القول الثالث مِن حيث صدورُه عنهم؛ بل مِن حيث التلقّي مِن الوحي.

---

[١] ط س: كَفِيشَيطَطَيُوس. | وفي هامش م: كذا ذكره الإمام الواحدي في الوسيط. «منه». | وهو عن ابن عبّاس في التفسير الوسيط للواحدي، ١٤٢/٣، عن عليّ رضي الله عنه في اللباب لابن عادل، ٤٥٧/١٥؛ وقريب منه عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ١٦٢/٥. وأكثر هذه الأسماء واردة في مطبوعاتها على غير هيئة رسمها ههنا.

[٢] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢١٩/١٥؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/٢.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ﴾ أي: لأجل شيء تعزِم عليه ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيء ﴿غَدًا﴾ أي: فيما يُستقبل مِن الزمان مطلقًا فيدخُل فيه الغدُ دخولًا أوّليًا، فإنّه نزل حين قالت اليهود لقريش: سلُوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين، فسألوه عليه السلام فقال: «ائتوني غدًا أُخبرْكم»،[1] ولم يستثنِ فأبطأ عليه الوحيُ حتّى شقّ عليه وكذّبتْه قريش. وما قيل مِن أنّ المدلول بالعبارة هو الغد وما بعد ذلك مفهوم بطريق دلالة النصّ، يردّه أنّ ما بعده ليس بمعناه في مناط النهي، فإنّ وسعة المجال دليل القدرة. فليُتأمّلْ.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

[٤١٧ظ] ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ / استثناء مفرَّغ مِن النهي، أي: لا تقولنّ ذلك في حال مِن الأحوال إلّا حالَ ملابسته بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد، وهو أن يقال: "إن شاء الله"، أو في وقت مِن الأوقات إلّا وقتَ أن يشاء الله أن تقوله، لا مطلقًا؛ بل مشيئةَ إذنٍ، فإنّ النسيان أيضًا بمشيئته تعالى. ولا مساغَ لتعليقه بـ﴿فَاعِلٌ﴾[2] لعدم سداد استثناء اقتران المشيئة بالفعل ومنافاةِ استثناء اعتراضها النهيَ. وقيل: الاستثناء جارٍ مَجرى التأبيد، كأنّه قيل: لا تقولنّه أبدًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ[3] لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف، ٨٩/٧].[4]

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ بقولك: "إن شاء الله" متدارِكًا له ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ إذا فرَط منك نسيان ثمّ ذكرتَه، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ولو بعد سَنة ما لم يحنَث».[5] ولذلك جُوِّز تأخير الاستثناء، وعامةُ الفقهاء على خلافه؛ إذ لو صحّ ذلك

---

[1] بمعناه في جامع البيان للطبري، ٢٢٤/١٥؛ وبلفظه في التفسير البسيط للواحدي، ٤٦٠/١٣ (الإسراء، ٨٥/١٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

[2] في الآية السابقة.

[3] م ط س: كان

[4] الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

[5] بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ١٦٢/٥؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

لَما تقرَّر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولـم يُعلم صِدق ولا كذِب. قال القرطبيّ: هذا في تدارُك التبرّك والتخلّص عن الإثـم، وأمّا الاستثناء المغيّر للحُكم فلا يكون إلّا متّصلًا.[١] ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربّك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيتَ الاستثناء مبالغة في الحثّ عليه، أو اذكر ربّك وعقابَه إذا تركتَ بعض ما أمرك به ليبعثك ذلك على التدارُك، أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليُذكِّرك المنسيَّ. وقد حُمل على أداء الصلاة المَنْسيّة عند ذِكرها.[٢]

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾ أي: يوفّقني ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا﴾ أي: لشيء أقربَ وأظهرَ مِن نبأ أصحاب الكهف مِن الآيات والدلائل الدالّة على نُبوّتي. ﴿رَشَدًا﴾ إرشادًا للناس ودلالة على ذلك، وقد فعل عزّ وعلا ذلك، حيث آتاه مِن البيّنات ما هو أعظمُ مِن ذلك وأبينُ، كقصص الأنبياء المتباعدِ أيّامُهم والحوادثِ النازلة في الأعصار المستقبلة إلى قيام الساعة، أو لأقربَ رشدًا وأدنى خيرًا مِن المنسيّ.

﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ۝٢٥﴾

﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ﴾ أحياءً مضروبًا على آذانهم ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ وهي جملة مستأنَفة مبيِّنة لِما أُجمِل فيما سلف وأشيرَ إلى عزّة مناله. وقيل: إنّه حكاية كلام أهل الكتاب فإنّهم اختلفوا في مدّة لُبثهم كما اختلفوا في عِدّتهم، فقال بعضهم هكذا وبعضهم ثلاثمائة.[٣]

ورُوي عن عليّ رضي الله تعالى عنه أنّه قال: «عند أهل الكتاب أنّهم لبِثوا ثلاثمائة سنة شمسيّة، والله تعالى ذكَر السنة القمريّة، والتفاوت بينهما في كلّ مائة سنة ثلاث سنين فيكون ثلاثمائة وتسعَ سنين».[٤] و﴿سنينَ﴾ عطف بيان لـ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾. وقيل: بدل.[٥] وقرئ على الإضافة[٦] وضعًا للجمع موضعَ المفرد،

---

[١] انظر: تفسير القرطبي، ١٠/٣٨٦.
[٢] هذه الوجوه جميعها في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٦.
[٣] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٣٦. وبعضه عن قتادة في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٦.
[٤] معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٦٥.
[٥] الوجه في التبيان للعكبري، ٢/٨٤٤؛ وهو في اللباب لابن عادل، ١٢/٤٦٣.
[٦] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

وممّا يُحسِّنه ههنا أنّ علامة الجمع فيه جبرٌ لِما حُذف في الواحد، وأنّ الأصل في العدد إضافته إلى الجمع.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ أي: بالزمان الذي لبثوا فيه. ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما غاب فيهما وخفيَ مِن أحوال أهلهما، و"اللام" / للاختصاص العِلمي دون التكويني، فإنّه غير مختصّ بالغيب. ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ دُلّ بصيغة التعجّب على أنّ شأن عِلمه سبحانه بالمبصَرات والمسموعات خارج عمّا عليه إدراكُ المدرِكين، لا يحجُبه شيء ولا يحُول دونه حائل، ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيف والكثيف والصغير والكبير والخفيّ والجليّ. و"الهاء" ضمير الجلالة، ومحلُّه الرفع على الفاعليّة، و"الباء" مَزيدة عند سيبويهِ، وكان أصله "أبصَرَ"، أي: صار ذا بَصَر، ثمّ نُقل إلى صيغة الأمر للإنشاء، فبرز الضمير لعدم لياقة الصيغة له، أو لزيادة "الباء" كما في "كفى به"؛ والنصبُ على المفعوليّة[1] عند الأخفش، والفاعلُ ضمير المأمورِ وهو "كلّ أحد"، و"الباء" مَزيدةٌ إن كانت "الهمزة" للتعدية ومعدِّيةٌ إن كانت للصيرورة. ولعلّ تقديمَ أمر إبصاره تعالى لِما أنّ الذي نحن بصدده مِن قبيل المبصَرات. [٤١٨و]

﴿مَا لَهُم﴾ لأهل السماواتِ والأرض ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يتولّى أمورهم وينصُرهم استقلالًا ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ﴾ في قضائه، أو في عِلم الغيب ﴿أَحَدًا﴾ منهم، ولا يجعل له فيه مدخلًا، وهو كما ترى أبلَغ في نفي الشريك مِن أن يقال: "مِن وليّ ولا شريك"، وقرئ على صيغة نهي الحاضر[2] على أنّ الخِطاب لكلّ أحد.

ولمّا دلّ انتظام القرآن الكريم لقصّة أصحاب الكهف مِن حيث إنّها بالنسبة إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن المغيّبات على أنّه وحيٌ معجِز، أمَره عليه السلام

---

[1] السياق: ومحلُّه الرفع... والنصبُ...

[2] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢.

بالمداومة على دراسته فقال: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ ولا تسمَعْ لقولهم: ائتِ بقرآن غير هذا أو بدِّلْه.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا قادرَ على تبديله وتغييره غيرُه ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أبدَ الدهر وإن بالغتَ في الطلب ﴿مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ مَلجأ تعدل إليه عند إلمام مُلِمّة.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ احبِسها وثبِّتها مصاحِبةً ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ أي: دائبين على الدعاء في جميع الأوقات. وقيل: في طرفَي النهار.[1] وقرئ: "بِالغُدْوَةِ"[2] على أنّ إدخال "اللام" عليها وهي علَم في الأغلب على تأويل التنكير، والمرادُ بهم فقراء المؤمنين مثل صُهيبٍ وعمّارٍ وخبّابٍ ونحوهم، وقيل: أصحاب الصُّفَّة وكانوا نحو سبعمائة رجل.[3]

[٤١٨ظ] قيل: إنّه قال قوم / مِن رؤساء الكفَرة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: نحِّ هؤلاء المواليَ الذين كأنّ ريحهم ريح الضأن حتّى نجالسَك، كما قال قوم نوحٍ: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء، ١١١/٢٦] فنزلت.[4] والتعبير عنهم بالموصول لتعليل الأمر بما في حيّز الصلة مِن الخَصلة الداعية إلى إدامة الصحبة. ﴿يُرِيدُونَ﴾ بدعائهم ذلك ﴿وَجْهَهُۥ﴾ حال مِن المستكِنّ في ﴿يَدْعُونَ﴾، أي: مريدين لرضاه تعالى وطاعته.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يجاوِزْهم نظرك إلى غيرهم، مِن "عَدَاه"، أي: جاوزه، واستعمالُه بـ"عن" لتضمينه معنى النُبوّ، أو لا تصرِفْ عيناك النظرَ عنهم إلى غيرهم، مِن "عدَوتُه عن الأمر"، أي: صرفتُه عنه على أنّ المفعول

---

١ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٧/٢.

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٥٨/٢، ٣١٠.

٣ مرويّ عن قتادة في معالم التنزيل للبغوي، ١٦٦/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٦٨/١٢.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٢.

محذوف لظهوره. وقرئ: "وَلَا تُعْدِ عَيْنَيْكَ"،[١] "ولا تُعَدِّ عَيْنَيْكَ"[٢] مِن الإعداء والتعدية. والمراد نُهيه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زِيّهم طموحًا إلى زِيّ الأغنياء.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء وأصحابِ الدنيا، وهي حال مِن "الكاف" على الوجه الأوّل مِن القراءة المشهورة ومِن الفاعل على الوجه الثاني منها، وضميرُ ﴿تُرِيدُ﴾ لـ"العينين"، وإسنادُ الإرادة إليه مجاز، وتوحيدُه للتلازم، كما في قوله:

لِمَن زُحْلُوفَةٌ[٣] زَلُّ[٤] بها العينان تنهلُّ[٥]

ومِن المستكِنّ في الفعل على القراءتين الأخيرتين.

﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في تنحية الفقراء عن مجلسك ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ أي: جعلناه غافلًا لبطلان استعداده للذِّكر بالمرّة، أو وجدناه غافلًا، كقولك: "أجبَنتُه وأبخَلتُه" إذا وجدتَه كذلك، أو هو مِن "أَغفَل إبِلَه"، أي: لم نَسِمه بالذِّكر. ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ كأولئك الذين يدعونك إلى طَرْد الفقراء عن مجلسك فإنّهم غافلون عن ذِكرنا، على خلاف ما عليه المؤمنون مِن الدعاء في مجامع الأوقات. وفيه تنبيه على أنّ الباعث له إلى ذلك الدعاءِ غفلةُ قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته، وانهماكُه في الحسّيّات حتّى خفيَ عليه أنّ الشرف بحِلْية النفس لا بزينة الجسد. وقرئ: "أَغْفَلَنَا قَلْبُهُ"[٦] على إسناد الفعل إلى القلب، أي: حسِبَنا غافلين عن ذِكرنا إيّاه بالمؤاخذة، مِن "أغفلتُه" إذا وجدتَه غافلًا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٧؛ **المغني في القراءات** للنّوزاواوزي، ص ١١٥٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر والأعرج والحسن. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٢؛ **المغني في القراءات** للنّوزاواوزي، ص ١١٥٩.

[٣] هذا اللفظ يُروى "زُحْلُوفة" و"زُحْلُوقة". **لسان العرب** لابن منظور، «زلل».

[٤] كذا ضبطها المؤلّف. وهي "زُلُّ"، أي: زَلَقٌ. **لسان العرب** لابن منظور، «زلل».

[٥] البيت لامرئ القيس في ملحق ديوانه ٤٧٣؛ **وأمالي ابن الشجري**، ١٨٣/١؛ **والدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٤٧٤/٧؛ **واللباب** لابن عادل، ٤٧٠/١٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن فايد وابن أبي عبلة. **المغني في القراءات** للنّوزاواوزي، ص ١١٥٩.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ ضياعًا وهلاكًا، أو متقدِّمًا للحقّ والصواب نابذًا له وراء ظهره، مِن قولهم: "فرَس فُرُط"، أي: متقدِّم للخيل، أو هو بمعنى [٤١٩و] / الإفراط والتفريط، فإنّ الغفلة عن ذِكره سبحانه تؤدّي إلى اتّباع الهوى المؤدّي إلى التجاوُز والتباعُد عن الحقّ والصواب. والتعبير عنهم بالموصول للإيذان بعِلّيّة ما في حيّز الصلة للنهي عن الإطاعة.

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾

﴿وَقُلِ﴾ لأولئك الغافلين المتّبعين هواهم: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: ما أوحيَ إليّ الحقُّ لا غيرُ كائنًا مِن ربّكم، أو الحقُّ المعهود مِن جهة ربّكم لا مِن جهتي حتّى يُتصوَّر فيه التبديل أو يُمكنَ التردّد في اتّباعه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ إمّا مِن تمام القول المأمور به، و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها بطريق التهديد لا لتفريعه عليه، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [ص، ٣٩/٣٨]، وقولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة، ١٤٧/٢]، أي: عَقيبَ تحقّق أنّ ما أوحيَ إليَّ حقّ لا ريبَ فيه، وأنّ ذلك الحقّ مِن جهة ربّكم، مَن شاء أن يؤمِن به فليُؤمن كسائر المؤمنين ولا يتعلّل بما لا يكاد يصلُح للتعلّل، ومَن شاء أن يكفُر به فليفعلْ، وفيه مِن التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم وجودًا وعدمًا ما لا يخفى.

وإمّا تهديد[١] مِن جهة الله تعالى، و"الفاء" لترتيب ما بعدها مِن التهديد على الأمر لا على مضمون المأمور به، والمعنى: قلْ لهم ذلك، وبعد ذلك مَن شاء أن يؤمن به أو أن يصدِّقك فيه فليُؤمن ومَن شاء أن يكفُر به أو أن يكذِّبَك فيه فليفعلْ.

---

[١] السياق: إمّا مِن تمام... وإمّا تهديد...

فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ وعيد شديد وتأكيد للتهديد وتعليل لِما يفيده مِن الزجر عن الكفر أو لِما يُفهَم مِن ظاهر التخيير مِن عدم المبالاة بكفرهم وقلّة الاهتمام بزَجْرهم عنه، فإنّ إعداد جزائه مِن دواعي الإملاء والإمهال. وعلى الوجه الأوّل هو تعليل للأمر بما ذُكر مِن التخيير التهديدي، أي: قلْ لهم ذلك، إنّا أعتدنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هيّأنا للكافرين بالحقّ بعد ما جاء مِن الله سبحانه. والتعبير عنهم بـ"الظالمين" للتنبيه على أنّ مشيئة الكفر واختيارَه تجاوزٌ عن الحدّ ووضعٌ للشيء في غير موضعه.

﴿نَارًا﴾ عظيمة عجيبة ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ﴾ أي: يُحيط بهم، وإيثار صيغة الماضي للدلالة على التحقّق. ﴿سُرَادِقُهَا﴾ أي: فُسطاطها، شُبِّه به ما يحيط بهم مِن النار. وقيل: السُّرادِق: الحجرةُ التي تكون حول الفُسطاط. وقيل: سُرادِقها: دُخانها. وقيل: حائط مِن نار.[1]

﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾ مِن العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ كالحديد المُذاب. وقيل: كدُرْديّ الزيت،[2] وهو على طريقة قوله:

فأُعتِبوا بالصَّيْلمِ[3]

/ ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ إذا قُدِّم ليُشرَب انشوى الوجه لحرارته. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «هو كعَكَر الزيت فإذا قرُب إليه سقطت فَرْوةُ وجهه».[4] [٤١٩ظ]

﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ ذلك ﴿وَسَآءَتۡ﴾ النار ﴿مُرۡتَفَقًا﴾ متّكأ، وأصل الارتفاق نصب المِرْفق تحت الخدّ، وأنّى ذلك في النار؟ وإنّما هو لمقابلة قوله تعالى: ﴿حَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾.[5]

---

١ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٨/٢.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٨/٢.

٣ وفي هامش م: صدره:
غضِبتْ تميمٌ أن تُقتَّلَ عامرٌ
يومَ النِّسار فأُعتِبوا بالصَّيْلمِ
والبيت لبِشر بن أبي خازم في ديوانه، ص ١٨٠. وهو مِن مُجمهرته في جمهرة أشعار العرب للقرشي، ٥١٩/١؛ وله في الصحاح للجوهري، «عتب»، «صلم»، وفيه: الصيلم: الداهية، ويُسمّى السيف صَيْلمًا، أي: أعتبناهم بالسيف، أي: أرضيناهم بالقتل. وأراد المؤلِّف ما فيه مِن التهكّم. والبيت بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٨/٢.

٤ مسند أحمد، ٢١٠/١٨ (١١٦٧٢)؛ سنن الترمذي، ٥٣٧/٤ (٢٥٨١)؛ جامع البيان للطبري، ٢٥٠/١٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٦٨/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٨/٢-٥٢٩.

٥ الكهف، ٣١/١٨.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في محلّ التعليل للحثّ على الإيمان المُنفهِم مِن التخيير، كأنّه قيل: وللذين آمنوا، ولعلّ تغييرَ سَبْكه للإيذان بكمال تنافي مآلَي الفريقين، أي: إنّ الذين آمنوا بالحقّ الذي أوحيَ إليك، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ حسبما بُيّن في تضاعيفه.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ الأولى هي الثانية مع ما في حيّزها، والراجع محذوف، أي: مَن أحسنَ منهم عملًا، أو مستغنًى عنه، كما في قولك: "نِعْمَ الرجلُ زيدٌ" أو واقعٌ موقعَه الظاهر، فإنّ مَن أحسنَ عملًا في الحقيقة هو الذي آمَن وعمِل الصالحاتِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ[1] ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ استئناف لبيان الأجر، أو هو الخبر وما بينهما اعتراض، أو هو خبر بعد خبر.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ ﴿مِن﴾ الأولى ابتدائيّة والثانية بيانيّة صفة لـ﴿أَسَاوِرَ﴾، والتنكير للتفخيم، وهو جمع "أَسوِرة"، أو "أَسْوار" جَمْع "سِوار". ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ خُصّت الخُضرة بثيابهم لأنّها أحسن الألوان وأكثرها طراوة، ﴿مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: ممّا رقّ مِن الدِّيباج وما غلُظ. جُمع بين النوعين للدلالة على أنّ فيها ما تشتهي الأنفس وتلَذّ الأعين. ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ على السُّرُر على ما هو شأن المتنعِّمين. ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ ذلك ﴿وَحَسُنَتْ﴾ أي: الأرائك ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي: متّكأً.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾

---

[1] م ط س: تحتها.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾ أي: للفريقين الكافر والمؤمن ﴿مَّثَلًا رَّجُلَيۡنِ﴾ مفعولان لـ﴿ٱضۡرِبۡ﴾ أوّلهما ثانيهما؛ لأنّه المحتاج إلى التفصيل والبيان، أي: اضرب للكافرين والمؤمنين، لا مِن حيث أحوالُهما المستفادة ممّا ذُكر آنفًا مِن أنّ للأوّلين في الآخرة كذا وللآخِرين كذا؛ بل مِن حيث عصيانُ الأوّلين مع تقلّبهم في نِعَم الله تعالى وطاعة الآخِرين مع مكابدتهم مشاقّ الفقر، مثلًا[١] حالَ[٢] رجلين مقدَّرَين أو محقَّقَين هما أخوان مِن بني إسرائيلَ أو شريكان: كافر اسمه قُطروسُ، ومؤمنٌ اسمه يَهوذا، / اقتسما ثمانية آلاف دينار، فاشترى الكافر [٤٢٠و] بنصيبه ضِياعًا وعَقارًا، وصرَف المؤمن نصيبه إلى وجوه المبارّ، فآل أمرهما إلى ما حكاه الله تعالى.

وقيل: هما أخوان مِن بني مخزوم كافر هو الأسود بن عبد الأشدّ، ومسلِم هو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشدّ[٣] زوجُ أمّ سلمة رضي الله عنها أوّلًا.

﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافر ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾ بستانين ﴿مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾ مِن كروم متنوّعة، والجملة بتمامها بيان للتمثيل أو صفة لـ﴿رَجُلَيۡنِ﴾. ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾ أي: جعلنا النخل محيطة بهما مؤزَّرًا بها كرومُهما، يقال: "حفّه القوم" إذا أطافوا به، و"حففتُه بهم" جعلتُهم حافّين حوله، فيزيده "الباء" مفعولًا آخرَ، كقولك: غشّيتُه به. ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا﴾ وسطهما ﴿زَرۡعٗا﴾ ليكون كلّ منهما جامعًا للأقوات والفواكه متواصل العِمارة على الهيئة الرائقة والوضع الأنيق.

﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾

﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ ثمرَها وبلغت مبلغًا صالحًا للأكل. وقرئ

---

[١] وفي هامش م: مفعول ثانٍ.

[٢] وفي هامش م: مفعول أوّلُ.

[٣] هو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، أبو سلمة (ت. ٣هـ/٦٢٦م). أمّه بَرّة بنت عبد المطّلب بن هاشم، هو أخو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن الرضاعة وابن عمّته بَرّة، وهو الصحابي السيّد الكبير. أحد السابقين الأوّلين هاجر إلى الحبشة، ثمّ إلى المدينة. وشهد بدرًا ومات بعدها بأشهر وله أولاد صحابة كعمر وزينب وغيرهما. وتزوّج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم زوجه أمّ سلمة رضي الله عنها التي روت القول عند المصيبة. انظر: الاستيعاب، ١٦٨٢/٤؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١٥٠/١.

بسكون "الكاف"،[1] وقرئ: "كُلُّ الجَنَّتَيْنِ آتَى أُكُلَهُ".[2] ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾ لم تنقص مِن أُكُلها ﴿شَيْـًٔا﴾ كما يُعهَد ذلك في سائر البساتين، فإنّ الثمار غالبًا تكثُر في عام وتقِلّ في آخرَ، وكذا بعض الأشجار يأتي بالثمر في بعض الأعوام دون بعض.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا﴾ فيما بين كلّ مِن الجنّتين ﴿نَهَرًا﴾ على حِدَة ليدوم شربهما ويزيد بهاؤهما، وقرئ بالتخفيف.[3] ولعلّ تأخيرَ ذِكر تفجير النهر عن ذكر إيتاء الأكل مع أنّ الترتيب الخارجي على العكس للإيذان باستقلال كلّ مِن إيتاء الأكل وتفجير النهر في تكميل محاسن الجنّتين، كما في قصّة البقرة ونحوها.[4] ولو عُكس لانفهم أنّ المجموع خَصلة واحدة بعضُها مترتِّب على بعض، فإنّ إيتاء الأكل متفرِّع على السَّقْي عادة. وفيه إيماء إلى أنّ إيتاء الأُكُل لا يتوقَّف على السَّقْي، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور، ٣٥/٢٤].

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤﴾

﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ لصاحب الجنّتين ﴿ثَمَرٌ﴾ أنواع مِن المال غيرُ الجنّتين، مِن "ثمَّر مالَه" إذا كثّره، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: هو جميع المال مِن الذهب والفضّة والحيوان وغير ذلك.[5] وقال مجاهدٌ: هو الذهب والفضّة خاصّة.[6]

[٤٢٠ظ] ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ﴾ / أي: القائل ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: صاحبَه المؤمن، وإن جاز العكس، أي: يراجعه في الكلام مِن "حار" إذا رجَع، ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ حشَمًا وأعوانًا، أو أولادًا ذُكورًا؛ لأنّهم الذين ينفِرون معه.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥﴾

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ التي شُرحت أحوالها وعَدَدها وصفاتها وهيئاتها. وتوحيدُها

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦١.

[4] ذكر ذلك في تفسير الآية الثالثة والسبعين مِن سورة البقرة في قصّة البقرة، وذكره في تفسير الآية الحادية والخمسين بعد المائة مِن تلك السورة.

[5] بمعناه عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٢٦٠/٢.

[6] جامع البيان للطبري، ٢٥٩/٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٧١/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٢.

إمّا لعدم تعلّقِ الغرَض بتعدّدها، وإمّا لاتّصال إحداهما بالأخرى، وإمّا لأنّ الدخول يكون في واحدة فواحدة، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ ضارّ لها بعُجبه وكفره.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن ذِكر دخول جنّته حالَ ظلمه لنفسه، كأنّه قيل: فماذا قال إذ ذاك؟ فقيل قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنّةُ، أي: تفنى ﴿أَبَدًا﴾ لطول أمده وتمادي غفلتِه واغتراره بمُهلته. ولعلّه إنّما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره بفناء جنّتيه ونهيه عن الاغترار بهما وأمْرِه بتحصيل الباقيات الصالحات.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كائنة فيما سيأتي ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ بالبعث عند قيامها كما تقوله ﴿إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ﴾ يومئذ ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي: مِن هذه الجنّة، وقرئ: "مِنْهُمَا"،[1] أي: مِن الجنّتين ﴿مُنقَلَبًا﴾ مَرجِعًا وعاقبة. ومدار هذا الطمع واليمينِ الفاجرة اعتقادُ أنّه تعالى إنّما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتي وكرامته عليه سبحانه، ولم يدرِ أنّ ذلك استدراج.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ استئناف كما سبق ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥ﴾ جملة حاليّة كما مرّ، فائدتُها التنبيه مِن أوّل الأمر على أنّ ما يتلوه كلام معتنًى بشأنه مَسُوق للمحاورة: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ حيث قلت: ما أظنّ الساعة قائمة ﴿بِٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ أي: في ضمن خَلْق أصلك ﴿مِن تُرَابٍ﴾ فإنّ خَلْق آدمَ عليه السلام منه متضمّن لخَلْقه منه، لِما أنّ خَلْق كلّ فرد مِن أفراد البشر له حظّ مِن خَلْقه عليه السلام، إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه؛ بل كانت أُنموذجًا منطويًا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجماليًّا مستتبِعًا لجريان آثارها على الكلّ، فكان خَلْقه عليه السلام

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢-٣١١.

مِن التراب خَلْقًا للكلّ منه. وقيل: خَلَقك منه؛ لأنّه أصل مادّتك إذ به يحصُل الغذاء الذي منه تحصُل النطفة، فتدبّر.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هي مادّتك القريبة، فالمخلوق واحد والمبدأ متعدِّد، ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي: عَدّلك وكمّلك إنسانًا ذكرًا أو صيّرك رجلًا. والتعبير عنه تعالى بالموصول للإشعار بعِلّيّة ما في حيّز الصلة لإنكار الكفر والتلويح بدليل البعث الذي نطَق به قوله عزّ مِن قائل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾... إلى آخره [الحج، ٢٢/٥].

﴿لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾

[٤٢١و] ﴿لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أصله "لَكِنْ أَنَا" وقد قرئ كذلك،[١] / فحُذفت الهمزة فتلاقت النونان فكان الإدغامُ، و﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، وهو مبتدأ خبرُه ﴿ٱللَّهُ رَبِّى﴾ وتلك الجملة خبر "أنا" والعائدُ منها إليه الضمير. وقرئ بإثبات ألِف "أنا" في الوصل والوقف جميعًا،[٢] وفي الوقف خاصّة،[٣] وقرئ: "لَكِنَّهْ"[٤] بالهاء، و"لَكِنْ"[٥] بطرح "أنا"، و"لَكِنْ أَنَا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبِّي".[٦] ومدارُ الاستدراك قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ﴾،[٧] كأنّه قال: أنت كافر لكنّي مؤمن موحِّد.

﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ فيه إيذان بأنّ كفره كان بطريق الإشراك.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ أي: هلّا قلتَ عندما دخلتَها. وتقديم الظرف

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ والحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٣.
٢ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ورُويس. النشر لابن الجزري، ٢/٣١١.
٣ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم وخلف ورَوح. النشر لابن الجزري، ٢/٣١١.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن خالد وهارون وعديّ كلُّهم عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٦٣.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٣.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣١.
٧ في الآية السابقة.

على المحضَّض عليه للإيذان بتحتّم القول في آن الدخول مِن غير ريث، لا للقصر.

﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: الأمرُ ما شاء الله، أو ما شاء الله كائن على أنّ ﴿مَا﴾ موصولة مرفوعة المَحلّ، أو أيَّ شيء شاء الله كان على أنّها شرطيّة منصوبة والجواب محذوف، والمراد تحضيضُه على الاعتراف بأنّها وما فيها بمشيئة الله تعالى إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: هلّا قلت ذلك اعترافًا بعجزك وبأنّ ما تيسّر لك مِن عِمارتها وتدبير أمرها إنّما هو بمعونته تعالى وإقداره. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن رأى شيئًا فأعجبه فقال: ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله لم يضُرّه».

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿أَنَا۠﴾ إمّا مؤكِّد لياء المتكلِّم أو ضمير فَصل بين مفعولي الرؤية إن جُعلت عِلْميّة و﴿أَقَلَّ﴾ ثانيهما، وحال إن جُعلت بصَريّة فيكون ﴿أَنَا۠﴾ حينئذ تأكيدًا لا غيرُ؛ لأنّ شرط كونه ضميرَ فَصل توسُّطه بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله المبتدأ والخبر، وقرئ: "أَقَلُّ"[1] بالرفع خبرًا لـ﴿أَنَا۠﴾ والجملة مفعول ثانٍ للرؤية أو حال. وفي قوله تعالى: ﴿وَوَلَدًا﴾ نُصرةٌ لمَن فسّر النفَر بالولد.[2]

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝﴾

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ هو جواب الشرط، والمعنى إن ترنِ أفقرَ منك فأنا أتوقَّع مِن صنع الله سبحانه / أن يقلِبَ ما بي وبك مِن الفقر والغنى [٤٢١ظ] فيرزُقني لإيماني جنّة خيرًا مِن جنّتك ويسلُبَك لكفرك نعمتَه ويُخرِّب جنّتك ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا﴾ هو مصدر بمعنى الحِساب كـ"البُطلان" و"الغفران"، أي: مقدارًا قدّره الله تعالى وحسَبه، وهو الحكم بتخريبها. وقيل: عذابَ حُسبان

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٨.

[2] الكهف، ٣٤/١٨.

وهو حساب ما كسَبت يداه.[١] وقيل: مَراميَ جمعُ "حُسْبانة": وهي الصواعق.[٢] ومساعدة النظم الكريم فيما سيأتي للأوّلين أكثرُ.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ مصدر أريدَ به المفعول مبالغةً، أي: أرضًا ملساء يُزْلَق عليها لاستئصال ما عليها مِن البناء والشجر والنبات.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝٤١﴾

﴿أَوْ يُصْبِحَ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ﴾،[٣] وعلى الوجه الثالث على ﴿يُرْسِلَ﴾[٤] ﴿مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائرًا في الأرض أُطلِق عليه المصدر مبالغة ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ﴾ أبدًا ﴿لَهُۥ﴾ أي: للماء الغائر ﴿طَلَبًا﴾ فضلًا عن وجدانه ورَدِّه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٤٢﴾

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أُهلِك أمواله المعهودةُ مِن جنّتيه وما فيهما، وأصلُه مِن إحاطة العدوّ، وهو عطفٌ على مقدَّر، كأنّه قيل: فوقع بعض ما توقَّع مِن المحذور وأُهلِك أمواله، وإنّما حُذف لدلالة السباق والسياق عليه، كما في المعطوف عليه بالفاء الفصيحة.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ظهرًا لبطن وهو كناية عن الندم، كأنّه قيل: فأصبح يندم ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي: في عِمارتها مِن المال، ولعلّ تخصيصَ الندم به دون ما هلَك الآن مِن الجنّة لِما أنّه إنّما يكون على الأفعال الاختياريّة، ولأنّ ما أنفق في عِمارتها كان ممّا يمكن صيانته عن طوارق الحدَثان، وقد صرَفه إلى مصالحها رجاءَ أن يتمتّع بها أكثرَ ممّا يتمتّع به، وكان يرى أنّه لا ينالها أيدي الردى، ولذلك قال: ما أظنّ أن تبيد هذه أبدًا، فلمّا ظهَر له أنّها ممّا يعتريه الهلاك

---

[١] قول الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه، ٢٨٩/٣؛ وعزاه إليه الزمخشري في الكشّاف، ٥٣١/٢.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٢.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] في الآية السابقة.

ندِم على ما صنَع بناء على الزعم الفاسد مِن إنفاق ما يمكن ادّخاره في مثل هذا الشيء السريع الزوالِ.

﴿وَهِىَ﴾ أي: الجنّة مِن الأعناب المحفوفة بنخل ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: دعائمها المصنوعة للكروم لسقوطها قبل سقوطها. وتخصيص حالها بالذِّكر دون النخل والزرع إمّا لأنّها العُمدة وهما مِن متمِّماتها، وإمّا لأنّ ذِكر هلاكِها مُغنٍ عن ذِكر هلاك الباقي؛ لأنّها حيث هلكت وهي مُشيَّدة بعروشها فهلاك ما عداها بالطريق الأَولى، وإمّا لأنّ الإنفاق في عمارتها أكثر. وقيل: / أرسل الله تعالى عليها نارًا فأحرقتها وغار ماؤها.[١] [٤٢٢و]

﴿وَيَقُولُ﴾ عطفٌ على ﴿يُقَلِّبُ﴾ أو حال مِن ضميره، أي: وهو يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾، كأنّه تذكّر موعظة أخيه وعلِم أنّه إنّما أُتيَ مِن قِبل شِركه فتمنّى لو لم يكن مُشرِكًا فلم يُصبه ما أصابه. قيل: ويحتمل أن يكون ذلك توبة مِن الشِّرك وندمًا على ما فرَط منه.[٢]

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ﴾ وقرئ بالياء التحتانيّة[٣] ﴿فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾ يقدِرون على نصره بدفع الإهلاك، أو على ردّ المهلَك أو الإتيان بمثله، وجمعُ الضمير باعتبار المعنى، كما في قوله عزّ وعلا: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ [آل عمران، ١٣/٣]. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنّه القادر على ذلك وحدَه، ﴿وَمَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنتَصِرًا﴾ ممتنعًا بقوّته عن انتقامه سبحانه.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وفي تلك الحال ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: النُصرة له وحدَه لا يقدِر عليها أحد، فهو تقرير لِما قبله، أو ينصُر فيها أولياءه المؤمنين

---

١ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٣٢/٢.
٢ الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٣٢/٢.
٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

على الكفَرة كما نصَر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن، ويعضُده قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: لأوليائه، وقرئ: "الوِلَايَةُ"[١] بكسر "الواو" ومعناها المُلك والسلطان، أي: هنالك السلطان له عزّ وجلّ لا يُغلَب ولا يُمتَنع منه، أو لا يُعبد غيره، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا[٢] رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت، ٦٥/٢٩]، فيكون تنبيهًا على أنّ قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ﴾... إلخ،[٣] كان عن اضطرار وجزَع عمّا دهاه على أسلوب قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس، ٩١/١٠].

وقيل: ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى الآخرة كقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر، ١٦/٤٠].

وقرئ برفع ﴿ٱلْحَقِّ﴾[٤] على أنّه صفة لـ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ وبنصبه على أنّه مصدر مؤكِّد، وقرئ: "عُقُبًا"[٥] بضمّ "القاف"، و"عُقْبَى"[٦] كـ"رُجعى"، والكلُّ بمعنى العاقبة.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: واذكر لهم ما يُشبهها في زَهْرتها ونَضارتها وسرعة زوالها لئلّا يطمئنّوا بها ولا يعكُفوا عليها ولا يَضرِبوا عن الآخرة صفحًا بالمرّة، أو بيّنْ لهم صفتها العجيبة التي هي في الغرابة كالمَثل. ﴿كَمَآءٍ﴾ استئناف لبيان المَثل، أي: هي كماء ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. ويجوز كونه مفعولًا ثانيًا لـ﴿ٱضْرِبْ﴾ على أنّه بمعنى "صيِّر".

[٤٢٢ظ] ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ / اشتبك بسببه ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فالتفّ وخالط بعضه بعضًا مِن كثرته وتكاثفه، أو نجَع الماء في النبات حتّى روِيَ ورفّ،[٧] فمقتضى الظاهر حينئذ

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٧٧/٢.

٢ م: وإذا.

٣ الكهف، ٤٢/١٨.

٤ قرأ بها أبو عمرو والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٥ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٩.

٧ رفّ النبات: اهتزّ وتنعّم، ويقال ذلك للشيء إذا كثُر ماؤه مِن النِّعمة والغضاضة حتّى كاد يهتزّ. لسان العرب لابن منظور، «رفف».

"فاختلط بنبات الأرض". وإيثار ما عليه النظم الكريم عليه للمبالغة في الكثرة فإنّ كلًّا مِن المختلِطَين موصوف بصفة صاحبه.

﴿فَأَصْبَحَ﴾ ذلك النبات الملتفّ إثرَ بهجتها ورفيفها ﴿هَشِيمًا﴾ مهشومًا مكسورًا ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ تفرّقه، وقرئ: "تُذْرِيهِ"[1] مِن "أذراه وتذروه الريح". وليس المشبَّه به نفسَ الماء؛ بل هو الهيئة المنتزَعة مِن الجملة، وهي حال النبات المُنبَت بالماء، يكون أخضرَ وارفًا ثمّ هشيمًا تُطيِّره الرياح كأن لم يَغْنَ بالأمس.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها الإنشاء والإفناء ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ قادرًا على الكمال.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بيان لشأن ما كانوا يفتخِرون به مِن محسّنات الحياة الدنيا، كما قال الأخ الكافر: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[2] إثرَ بيان شأن نفسها بما مرّ مِن المَثل.

وتقديم "المال" على "البنين" مع كونهم أعزَّ منه كما في الآية المحكيّة آنفًا وقولِه تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء، ٦/١٧] وغيرِ ذلك مِن الآيات الكريمة لعراقته فيما نِيط به مِن الزِّينة والإمدادِ وغيرِ ذلك وعمومِه بالنسبة إلى الأفراد والأوقات، فإنّه زينة ومُمِدّ لكلّ أحد مِن الآباء والبنين في كلّ وقت وحين. وأمّا البنون فزَيْنهم وإمدادهم إنّما يكون بالنسبة إلى مَن بلَغ مَبلغ الأبوّة، ولأنّ المال مَناط لبقاء النفس والبنين[3] لبقاء النوع، ولأنّ الحاجة إليه أمسُّ مِن الحاجة إليهم، ولأنّه أقدم منهم في الوجود، ولأنّه زينة بدونهم مِن غير عكس، فإنّ مَن له بنونَ بلا مال فهو في ضِيق حال ونكال.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن مسعود والضحّاك وعُبيد بن عُمير وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٩؛

٢ الكهف، ٣٤/١٨.

٣ م ط: البنون [صُحّح في هامش.م ط].

وإفراد الزِّينة مع أنّها مسنَدة إلى الاثنين لِما أنّها مصدر في الأصل أطلق على المفعول مبالغةً كأنّهما نفسُ الزينة، والمعنى أنّ ما يفتخرون به مِن المال والبنين شيء يُتزيّن به في الحياة الدنيا وقد عُلم شأنُها في سرعة الزوال وقُربِ الاضمحلال، فكيف بما هو مِن أوصافها التي شأنُها أن تزول قبل زوالِها؟

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ هي أعمال الخير. وقيل: هي الصلوات الخمس.[1] وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبرُ.[2] وقيل: كلُّ ما أُريدَ به وجه الله تعالى.[3] / وعلى كلّ تقدير يدخُل فيها أعمال فقراء المؤمنين الذين [٤٢٣و] يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهَه دخولًا أوّليًا، أمّا صلاحها فظاهر وأمّا بقاؤها فبقاء عوائدها عند فَناء كلّ ما تطمح إليه النفس مِن حظوظ الدنيا.

﴿خَيْرٌ﴾ أي: ممّا نُعت شأنه مِن المال والبنين. وإخراجُ بقاء تلك الأعمال وصلاحها مُخرَجَ الصفات المفروغ عنها مع أنّ حقّهما أن يكونا مقصودَي الإفادة لاسيّما في مقابلة إثبات الفناء لِما يقابلها مِن المال والبنين على طريقة قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل، ٩٦/١٦] للإيذان بأنّ بقاءها أمر محقَّق لا حاجةَ إلى بيانه؛ بل لفظ ﴿ٱلْبَٰقِيَٰتُ﴾ اسم لها لا وصف، ولذلك لم يُذكَر الموصوف، وإنّما الذي يُحتاج إلى التعرّض له خيريّتُها.

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: في الآخرة، وهو بيان لِما يظهَر فيه آثار خيريّتها بمنزلة إضافة الزِّينة إلى الحياة الدنيا لا لأفضليّتها فيها[4] مِن المال والبنين مع مشاركة الكلّ في الأصل، إذ لا مشاركةَ لهما في الخيريّة في الآخرة. ﴿ثَوَابًا﴾ عائدةً تعود إلى صاحبها.

---

[1] مرويّ عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير وغيرهما في جامع البيان للطبري، ٢٧٤/١٥-٢٧٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٥؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٢.

[2] مرويّ عن عثمان بن عفّان وابن عبّاس وغيرهما في جامع البيان للطبري، ٢٧٥/١٥-٢٧٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٤/٥-١٧٥؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٢.

[3] مرويّ بمعناه عن ابن عبّاس وقتادة وغيرهما في جامع البيان للطبري، ٢٨٠/١٥-٢٨١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٢.

[4] ط س - فيها.

﴿وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ حيث ينال بها صاحبها في الآخرة كلّ ما كان يؤمِّله في الدنيا، وأمّا ما مرّ مِن المال والبنين فليس لصاحبه أمل يناله. وتكرير ﴿خَيۡرٌ﴾ للإشعار باختلاف حيثيَّتَي الخيريّة والمبالغة فيها.

﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ۝٤٧﴾

﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ منصوب بمضمر، أي: اذكر حين نقلَعها مِن أماكنها ونُسيِّرها في الجوّ على هيئاتها، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل، ٨٨/٢٧]، أو نُسيِّر أجزاءها بعد أن نجعلها هباءً مُنبثًّا. والمراد بتذكيره تحذير المشركين ممّا فيه مِن الدواهي. وقيل: هو معطوف على ما قبله مِن قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة. وقرئ: "تُسَيَّرُ"[1] على صيغة البناء للمفعول مِن "التفعيل" جريًا على سَنن الكِبرياءِ وإيذانًا بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل لتعيّنِه، وقرئ: "تَسِيْرُ".[2]

﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: جميع جوانبها، والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ أحد ممّن يتأتّى منه الرؤيةُ، وقرئ: "تُرَى"[3] على صيغة البناء للمفعول. ﴿بَارِزَةٗ﴾ أمّا بروزُ ما تحت الجبال فظاهر، وأمّا ما عداه فكانت الجبال تحُول بينه وبين الناظر قبل ذلك، فالآن أضحى قاعًا صَفْصَفًا لا ترى فيها عِوجًا ولا أَمْتًا.

﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾ جمعناهم إلى الموقف مِن كل أَوْب. وإيثار صيغة الماضي / بعد ﴿نُسَيِّرُ﴾ و﴿تَرَى﴾ للدلالة على تحقّق الحَشْر المتفرّع على البعث الذي يُنكره المنكرون، وعليه يدور أمر الجزاء، وكذا الكلام فيما عُطف عليه منفيًّا وموجَبًا. [٤٢٣ظ]

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٣١١/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن وكِرداب، والثقفي ومِنهال عن يعقوب، ومحبوب والأزرق عن أبي عمرو. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٩؛ **المغني في القراءات** للنَّوْزاوازي، ص ١١٦٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ النحوي عن بعض القرّاء. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٩.

وقيل: هو للدلالة على أنّ حَشْرهم قبل التسيير والبروز ليُعاينوا تلك الأهوال، كأنّه قيل: وحشرناهم قبل ذلك.[١]

﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ أي: لم نترُك ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ يقال: "غادره وأغدَره" إذا تركه، ومنه الغَدْر الذي هو تَرْك الوفاء، والغديرُ الذي هو: ما يتركه السيل في الأرض الغائرة. وقرئ بالياء،[٢] وبالفوقانيّة[٣] على إسناد الفعل إلى ضمير ﴿ٱلْأَرْضَ﴾، كما في قوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق، ٨٤/٤].

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ شُبّهت حالهم بحال جند عُرضوا على السلطان ليأمُر فيهم بما يأمُر، وفي الالتفات إلى الغَيبة[٤] وبناءِ الفعل للمفعول مع التعرّض لعنوان الربوبيّة والإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن تربية المهابة والجَري على سَنن الكبرياء وإظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى. ﴿صَفًّا﴾ أي: غيرَ متفرّقين ولا مختلِطين فلا تعرُّض فيه لوَحدة الصفّ وتعدُّده، وقد ورد في الحديث الصحيح: «يجمَع الله الأوّلين والآخِرين في صعيد واحد صُفوفًا».[٥]

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ على إضمار القول على وَجْه يكون حالًا مِن ضمير ﴿عُرِضُواْ﴾، أي: مقولًا لهم، أو وقلنا لهم، وأمّا كونه عاملًا في ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ﴾[٦] كما قيل فبعيدٌ مِن جزالة التنزيل الجليل، كيف لا، ويلزم منه أنّ هذا القول هو المقصود بالأصالة دون سائر القوارع مع أنّه خاصُّ التعلّق بما قبله مِن العَرض والحشر دون تسيير الجبال وبروز الأرض.

---

[١] كذا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٢/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان عن عاصم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٦.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠.

[٤] وفي هامش م: حيث لم يقل علينا. «منه».

[٥] مسند أحمد، ٣٨٤/١٥ (٩٦٢٣)؛ صحيح البخاري، ١٣٤/٤ (٣٣٤٠).

[٦] في الآية السابقة.

﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ نعت لمصدر مقدَّر، أي: مجيئًا كائنًا كمجيئكم عند خَلْقنا لكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾، أو حال مِن ضمير ﴿جِئْتُمُونَا﴾، أي: كائنين كما خلقناكم أوّلَ مرّة حُفاةً عُراة غُرْلًا، أو ما معكم شيء ممّا تفتخرون به مِن الأموال والأنصار، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام، ٩٤/٦].

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ إضراب وانتقال مِن كلام إلى كلام كلاهما للتوبيخ والتقريع، أي: زعمتُم في الدنيا أنّه لن نجعَل لكم أبدًا وقتًا نُنجِز فيه ما وعدناه مِن البعث وما يتبَعه. و"أن" مخفَّفة / مِن المثقَّلة فُصِل بحرف النفي بينها وبين خبرها [٤٢٤و] لكونه جملة فعليّة متصرِّفة غيرَ دعاء. والظرف إمّا مفعول ثانٍ للجَعْل وهو بمعنى التصيير والأوّلُ هو ﴿مَّوْعِدًا﴾، أو حال مِن ﴿مَّوْعِدًا﴾ وهو بمعنى الخَلْق والإبداع.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ عطفٌ على ﴿عُرِضُوا۟﴾[١] داخل تحت الأمور الهائلة التي أريدَ تذكيرُها بتذكير وقتها وأُوردَ فيه ما أُوردَ في أمثاله مِن صيغة الماضي دلالة على التقرّر أيضًا، أي: وُضع صحائف الأعمال. وإيثار الإفراد للاكتفاء بالجنس. والمراد بوضعها إمّا وضعُها في أيدي أصحابها يمينًا وشمالًا وإمّا في الميزان. ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قاطبة، فيدخُل فيهم الكفَرة المنكِرون للبعث دخولًا أوّليًّا. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ مِن الجرائم والذنوب.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ عند وقوفِهم على ما في تضاعيفه نَقيرًا وقِطْميرًا ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ مُنادين لهَلَكتهم التي هلكوها مِن بين الهلَكات مستدعين لها ليهلِكوا ولا يرَوا هول ما لاقَوه، أي: يا ويلتنا احضُري فهذا أوان حضورك. ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أيُّ شيء له؟ وقولُه تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي:

---

[١] في الآية السابقة.

حواها وضبطها، جملة حاليّة محقِّقة لِما في الجملة الاستفهاميّة مِن التعجّب، أو استئنافيّة مبنيّة على سؤال نشأ مِن التعجّب، كأنّه قيل: ما شأنه حتّى يُتعجَّب منه؟ فقيل: لا يغادر سيّئةً صغيرةً / ولا كبيرة إلّا أحصاها. [٤٢٤ظ]

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ﴾ في الدنيا مِن السيّئات، أو جزاءَ ما عملوا ﴿حَاضِرًا﴾ مسطورًا عتيدًا. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيكتبَ ما لم يُعمَل مِن السيّئات، أو يزيد في عقابه المستحقّ فيكون إظهارًا لمَعدَلة القلم الأزلي.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: اذكر وقت قولنا لهم: ﴿ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ سجودَ تحيّة وتكريم، وقد مرّ تفصيله ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ جميعًا امتثالًا بالأمر ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فإنّه لم يسجُد؛ بل أبى واستكبر.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ كلام مستأنَف سِيق مَساقَ التعليل لِما يفيده استثناء اللعين مِن الساجدين، كأنّه قيل: ما له لم يسجُد؟ فقيل: كان أصلُه جنّيًا،[١] ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: خرج عن طاعته كما ينبئ عنه "الفاء"، أو صار فاسقًا كافرًا بسبب أمر الله تعالى، إذ لولاه لَما أبى. والتعرّض لوَصْف الربوبيّة النافية للفِسق لبيان كمال قبح ما فعَله.

والمراد بتذكير قصّته تشديدُ النكير على المتكبّرين المفتخرين بأنسابهم وأموالهم المستنكِفين عن الانتظام في سِلك فقراء المؤمنين ببيان أنّ ذلك مِن صنيع إبليسَ وأنّهم في ذلك تابعون لتسويله، كما ينبئ[٢] قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾... إلخ، فإنّ الهمزة للإنكار والتعجيب و"الفاء" للتعقيب، أي: أعَقيبَ عِلمكم بصدور تلك القبائح عنه تتّخذونه ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: أولاده وأتباعه؟ جُعلوا ذرّيّته مجازًا. قال قتادة: يتوالدون كما يتوالد بنو آدمَ. وقيل: يُدخل ذنبَه في دُبُره فيبيض / فتنفلِق البيضة مِن جماعة مِن الشياطين. [٤٢٥و]

---

١ ط س: خبيثًا.

٢ ط س + عنه.

﴿أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدَل طاعتي، ﴿وَهُمۡ﴾ أي: والحال أن إبليسَ وذرّيّته ﴿لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ أي: أعداء، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٧٧]، وقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ [المنافقون، ٦٣/٤]، وإنّما فُعل به ذلك تشبيهًا له بالمصادر نحو "القَبول" و"الولوع". وتقييد "الاتّخاذ" بالجملة الحاليّة لتأكيد الإنكار وتشديده، فإنّ مضمونها مانع مِن وقوع الاتّخاذ ومُنافٍ له قطعًا.

﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الواضعين للشيء في غير موضعه ﴿بَدَلٗا﴾ مِن الله سبحانه إبليسُ وذرّيّته. وفي الالتفات إلى الغَيبة مع وَضْع الظالمين موضعَ الضمير مِن الإيذان بكمال السخط والإشارة إلى أنّ ما فعلوه ظلمٌ قبيح ما لا يخفى.

﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾

﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾ استئناف مَسوق لبيان عدم استحقاقهم للاتّخاذ المذكور في أنفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك مِن خَباثة المَحتِد والفِسق والعداوة، أي: ما أحضَرتُ إبليسَ وذرّيّته ﴿خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ حيث خلقتُهما قبل خَلْقهم ﴿وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: ولا أشهدتُ بعضهم خَلْق بعض، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النساء، ٤/٢٩].

هذا ما أجمع عليه الجمهور حِذارًا مِن تفكيك الضميرين ومحافظة على ظاهر لفظ الأنفس. / ولك أن تُرجع الضمير الثانيَ إلى "الظالمين" وتلتزمَ التفكيك بناءً على قَوْد المعنى إليه، فإنّ نفيَ إشهاد الشياطين خَلْق الذين يتولّونهم هو الذي يدور عليه إنكار اتّخاذهم أولياء بناء على أنّ أدنى ما يصحّح التولّيَ حضورُ الوليّ خَلْق المتولّى وحيث لا حضورَ لا مصحِّحَ للتولّي قطعًا. [٤٢٥ظ]

وأمّا نفيُ إشهاد بعض الشياطين خَلْق بعض منهم فليس مِن مداريّة الإنكار المذكور في شيء، على أنّ إشهاد بعضهم خَلْق بعض إن كان مصحِّحًا

لتولّي الشاهد بناءً على دلالته على كماله باعتبار أنّ له مدخلًا في خلق الشهود في الجملة فهو مُخِلٌّ بتولي المشهودِ بناءً على قصوره عمّن شهِد خَلْقه، فلا يكون نفيُ الإشهاد المذكور متمحِّضًا في نفي الكمال المصحِّح للتولّي عن الكلّ، وهو المَناط للإنكار المذكور.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ أي: متّخذَهم، وإنّما وُضع موضعَه المُظهَر ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالإضلال وتأكيدًا لِما سبق مِن إنكار اتّخاذهم أولياءَ. ﴿عَضُدًا﴾ أعوانًا في شأن الخَلْق، أي:[1] في شأن مِن شئوني حتّى يُتوهّم شركتهم في التولّي بناء على الشركة في بعض أحكامِ الربوبيّة.

وفيه تهكّمٌ بهم وإيذانٌ بكمال ركاكة عقولِهم وسخافةِ آرائِهم حيث لا يفهمون هذا الأمرَ الجليَّ الذي لا يكاد يشتبه على البُلْه والصبيان فيحتاجون إلى التصريح به. وإيثار نفيِ الإشهاد على نفي شهودهم ونفيِ اتّخاذِهم أعوانًا على نفي كونهم كذلك للإشعار بأنّهم مقهورون تحت قدرته تعالى / [2] تابعون لمشيئته وإرادتِه فيهم، وأنّهم بمَعزِل مِن استحقاق [٤٢٦و] الشهود والمعونة مِن تلقاء أنفسِهم مِن غير إحضار واتّخاذ. وإنّما قُصارى ما يُتوهَّم في شأنهم أن يبلُغوا ذلك المبلغ بأمر الله عزّ وجلّ ولم يكد ذلك يكون.

وقيل: الضميرُ للمشركين، والمعنى: ما أشهدتُهم خَلْق ذلك، وما أطلعتُهم على أسرار التكوين، وما خصَصْتُهم بفضائلَ لا يحويها غيرهم حتّى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون، فلا تَلتفتْ إلى قولهم طمعًا في نُصرتهم للدين فإنّه لا ينبغي لي أن أعتضِدَ بالمُضِلّين. ويعضُده القراءة بفتح "التاء"[3] خطابًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والمعنى: ما صحّ لك الاعتضادُ بهم.

---

[1] ط س: أو.

[2] هنا ينتهي اختلاط الترتيب في عشرة الألواح في نسخة المؤلِّف.

[3] قرأ بها أبو جعفر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣١١.

ووصفُهم بالإضلال لتعليل نفي الاتّخاذ، وقرئ: "مُتّخِذًا المُضِلّين"[١] على الأصل، وقرئ: "عُضْدًا"[٢] بضمّ العين وسكون الضاد، وبفتح وسكون[٣] بالتخفيف، وبضمّتين[٤] بالإتباع، وبفتحتين[٥] على أنّه جمع "عاضد" كـ"رَصَد" و"راصد".

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي: الله عزّ وجلّ للكافرين توبيخًا وتعجيزًا، وقرئ بنون العظمة.[٦] ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنّهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم، والمراد بهم كلُّ ما عُبد مِن دونه تعالى. وقيل: إبليسُ وذرِّيّته.[٧] ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: نادوهم للإغاثة. وفيه بيان لكمال اعتنائهم بإعانتهم على طريقة الشفاعة؛ إذ معلومٌ ألّا طريقَ إلى المدافعة. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ فلم يُغيثوهم إذ لا إمكان لذلك. وفي إيراده مع ظهوره تهكمٌ بهم وإيذانٌ بأنّهم في الحماقه بحيث لا يفهمونه إلّا بالتصريح به.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ بين الداعين والمَدعوّين ﴿مَّوْبِقًا﴾ اسم مكان، أو مصدر مِن "وبَق وُبوقًا" كـ"وثب وثوبًا"، أو "وَبِق وَبَقًا" كـ"فَرِح فَرَحًا"، إذا هلَك، أي: مَهلِكًا يشتركون فيه وهو النار، أو عداوة وهي في الشِّدّة نفس الهلاك، كقول عمرَ رضي الله عنه: «لا يكن حبُّك كلَفًا ولا بغضُك تلَفًا».[٨] وقيل: البين:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب والجَحدري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٨.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج ونُعيم، وعبّاس عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٨.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وهارون، وخارجة والخفّاف وأبي زيد كلُّهم عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٨.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٨.

[٦] قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

[٧] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٤/٢.

[٨] الأدب المفرد للبخاري، ٤٤٨ (١٣٢٢)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٥١٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٥/٢.

الوصل،[١] أي: وجعلنا تواصُلهم في الدنيا هلاكًا في الآخرة. ويجوز أن يكون المراد / بـ"الشركاء" الملائكة وعُزيرًا وعيسى عليهم السلام ومريمَ، وبالمَوبِق البرزخَ البعيدَ، أي: جعلنا بينهم أمدًا بعيدًا يهلك فيه الأشواط لفَرْط بُعده؛ لأنّهم في قَعر جهنّمَ وهم في أعلى الجنان. [٤٠٥ظ]

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ وُضع المظهرُ مقام المُضمر تصريحًا بإجرامهم وذمًّا لهم بذلك ﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ أي: فأيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ مُخالطوها واقعون فيها، أو ظنّوا إذ رأوها مِن مكان بعيد أنّهم مواقعوها الساعةَ ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ انصرافًا أو معدِلًا ينصرِفون إليه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: كرَّرنا وأوردنا على وجوه كثيرة مِن النَّظم ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ مِن جملته ما مرّ مِن مَثل الرجُلين ومَثل الحياة الدنيا، أو مِن كلّ نوع مِن أنواع المعاني البديعة الداعية إلى الإيمان التي هي في الغرابة والحُسن واستجلاب النفس كالمَثل ليتلقّوه بالقَبول فلم يفعلوا.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بحسب جِبِلّته ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أي: أكثرَ الأشياء التي يتأتّى منه الجدل، وهو ههنا شدّة الخُصومة بالباطل والمماراة مِن "الجَدْل" الذي هو الفتْل. والمجادلةُ: المُلاواة؛ لأنّ كلًّا مِن المُجادِلَين يلتوي على صاحبه. وانتصابُه على التمييز، والمعنى أنّ جدَله أكثر مِن جدَل كلّ مجادِل.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أهلَ مكّةَ الذين حُكيت أباطيلهم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ مِن أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ما هم فيه مِن الإشراك ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: القرآن العظيم

---

[١] وهو قول الفرّاء في معاني القرآن، ١٤٧/٢؛ ونقله عنه الزمخشري في الكشّاف، ٥٣٥/٢.

الهادي إلى الإيمان بما فيه مِن فنون المعاني الموجبة له، ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ عمّا فرَط منهم مِن أنواع الذنوب التي مِن جملتها مجادلتُهم للحقّ بالباطل، ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ / أي: إلّا طلبُ إتيان سُنّتهم أو إلّا انتظارُ إتيانها، أو إلّا تقديرُه، فحُذف المضاف وأقيمَ المضاف إليه مُقامَه، وسنّتُهم الاستئصال. [٤٠٦و]

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: عذابُ الآخرة ﴿قُبُلًا﴾ أي: أنواعًا، جَمْع "قَبيل"، أو عِيانًا كما في قراءة "قِبَلًا"[١] بكسر "القاف" وفتح "الباء"، وقرئ بفتحتين،[٢] أي: مستقبَلًا، يقال: "لقِيتُه قِبَلًا وقُبُلًا وقَبَلًا". وانتصابُه على الحاليّة مِن الضمير أو ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، والمعنى أنّ ما تضمّنه القرآن الكريم مِن الأمور المستوجِبة للإيمان بحيث[٣] لو لم يكن مِثلَ هذه الحكمة القويّة لَما امتنع الناس مِن الإيمان، وإن كانوا مجبولين على الجدَل المفْرِط.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ۝٥٦﴾

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الأمَم ملتبِسين بحال مِن الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حالَ كونهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ للكفرة والعصاة بالعقاب. ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ باقتراح الآياتِ بعد ظهور المعجزات والسؤالِ عن قصّة أصحاب[٤] الكهفِ ونحوها تعنُّتًا ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ﴾ أي: بالجدال ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي: يُزيلوه عن مركزه ويُبطلوه مِن "إدحاض القدم" وهو إزلاقها، وهو قولهم للرسل عليهم السلام: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس، ١٥/٣٦]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون، ٢٤/٢٣]، ونحوُهما.

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ التي تخِرّ لها صُمّ الجبال ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ أي: أُنذروه مِن القوارع الناعية عليهم العقابَ والعذابَ، أو إنذارَهم، ﴿هُزُوًا﴾ استهزاءً، وقرئ بسكون الزاء[٥] وهو ما يُستهزأ به.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١٦٩.

٣ وفي هامش م: خبر "أنّ".

٤ س: أصحاف.

٥ قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٢١٥/٢.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ولم يتدبّرها ولم يتذكّر بها. وهذا السَّبك وإن كان مدلوله الوضعي نفيَ الأظلميّة مِن غير تعرّض لنفي المساواة في الظلم إلّا أنّ مفهومه العُرفي أنّه أظلم مِن كلّ ظالم، وبناءُ الأظلميّة على ما في / حيّز الصلة مِن الإعراض عن القرآن للإشعار [٤٠٦ظ] بأنّ ظُلمَ مَن يجادل فيه ويتّخذه هزوًا خارجٌ عن الحدّ. ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: عَمِلَه مِن الكفر والمعاصي التي مِن جملتها ما ذُكر مِن المجادَلة بالباطل والاستهزاء بالحقّ ولم يتفكّر في عاقبتها.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية كثيرة جمع "كِنان"، وهو تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنّهم مطبوع على قلوبهم ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ مفعول لِما دلّ عليه الكلام أي: منعناهم أن يقفوا[1] على كُنهه، أو مفعول له، أي: كراهةَ أن يفقهوه. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: جعلنا فيها ﴿وَقْرًا﴾ ثِقَلًا يمنعهم مِن استماعه.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ أي: فلن يكون منهم اهتداء البتّةَ مدّةَ التكليف. و﴿إِذًا﴾ جزاء للشرط وجواب عن سؤال النبيّ عليه الصلاة والسلام المدلول عليه بكمال عنايته بإسلامهم، كأنّه قال عليه السلام: مالي لا أدعوهم؟ فقيل: إن تدعُهم... إلخ، وجَمْعُ[2] الضميرِ الراجع إلى الموصول في هذه المواضع الخمسة باعتبار[3] معناه، كما أنّ إفراده في المواطن الخمسة المتقدِّمة باعتبار لفظه.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨﴾

﴿وَرَبُّكَ﴾ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ خبرُه، وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: الموصوف بها، خبرٌ بعد خبر. وإيراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة

---

[1] س: يَقفوه.
[2] وفي هامش م: مبتدأ.
[3] وفي هامش م: خبر.

للتنبيه على كثرة الذنوب، ولأنّ المغفرة تَرْكُ المضارّ وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهى مِن العذاب، وأمّا الرحمة فهي فعل وإيجاد، ولا يدخل تحت الوجود إلّا ما يتناهى.

وتقديم الوصف الأوّل لأنّ التخلية قبل التحلية، أو لأنّه أهمُّ بحسب الحال، إذ المقام مقام بيانِ تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها، كما يُعرب عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿لَوْيُؤَاخِذُهُم﴾ أي: لو يريد[1] / مؤاخَذتهم ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ مِن [٤٠٧و] المعاصي التي مِن جملتها ما حُكي عنهم مِن مجادلتهم بالباطل وإعراضِهم عن آيات ربّهم وعدمِ المبالاة بما اجترحوا مِن المُوبقات، ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ لاستيجاب أعمالهم لذلك.

وإيثار المؤاخذة المنبئة عن شدّة[2] الأخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوها للإيذان بأنّ النفيَ المستفاد مِن مقدَّم الشرطيّة متعلِّق بوَصْف السرعة كما ينبئ عنه تاليها. وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المُضيّ لإفادة أنّ انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم إرادة المؤاخذة، فإنّ المضارع الواقع مَوقعَ الماضي يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى، كما حُقِّق في موضعه.

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ اسم زمان هو يوم بدر أو يوم القيامة، والجملة معطوفة على مقدَّر كأنّه قيل: لكنّهم ليسوا مؤاخَذين بغتةً، ﴿لَن يَجِدُواْ﴾ البتّةَ ﴿مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ مَنجى أو مَلجأ، يقال: "وأل"، أي: نجا، و"وأل" إليه، أي: لجأ إليه.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: قرى عاد وثمودَ وأضرابها، وهي مبتدأ على تقدير المضاف، أي: وأهلُ تلك القرى، خبرُه قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾، أو مفعول مضمرٍ مفسَّرٍ به ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي: وقت ظلمهم، كما فعلت قريشٌ بما حُكي عنهم مِن القبائح. وتركُ المفعول إمّا لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلةَ اللازم،

[1] وفي هامش م: فإنّ ترتيب تعجيل العذاب على نفس المؤاخذة غيرُ مفيد. «منه».

[2] وفي هامش م: الشِّدّة مستفادة مِن صيغة المغالبة الدالّة على المبالغة.

أي: لمّا فعلوا الظلم. و﴿لَمَّا﴾ إمّا حرف كما قال ابن عصفور،[١] وإمّا ظرف استعمل للتعليل، وليس المراد به الوقت المعيَّن الذي عمِلوا فيه الظلم؛ بل زمان ممتدّ مِن ابتداء الظلم إلى آخره.

﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ أي: عيّنّا لهلاكهم ﴿مَّوْعِدًا﴾ أي: وقتًا معيَّنًا لا محيدَ لهم عن ذلك. وهذا استشهاد على ما فُعل بقريشٍ مِن تعيين الموعد ليتنبهوا لذلك ولا يغترّوا / بتأخّر العذاب. وقرئ بضمّ "الميم" وفتح "اللام"،[٢] أي: إهلاكهم، وبفتحهما.[٣] [٤٠٧ظ]

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ نصب بإضمار فعل، أي: اذكُرْ وقتَ قوله عليه السلام ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ وهو يوشعُ بن نونٍ بن أفرائيمَ بن يوسفَ عليه السلام، سُمّيَ فتاه إذ كان يخدمه ويتّبعه. وقيل: كان يتعلّم منه،[٤] ويُسمّى التلميذُ فتًى وإن كان شيخًا، ولعلّ المرادَ بتذكيره عَقيب بيان أنّ لكلّ أمّة موعدًا تذكيرُ ما في القصّة مِن موعد الملاقاة مع ما فيها مِن سائر المنافع الجليلة.

﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ مِن "برِح" الناقص كـ"زال يزال"، أي: لا أزال أسير، فحُذف الخبر اعتمادًا على قرينة الحال إذ كان ذلك عند التوجّه إلى السفر واتّكالًا على ما يعقُبه مِن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ﴾ فإنّ ذلك غايةٌ تستدعي ذا غاية يؤدّي إليها، ويجوز أن يكون أصل الكلام "لا يبرَحُ مسيري حاصلًا حتّى أبلُغ"، فيُحذَف المضاف ويُقام المضاف إليه مُقامَه، فينقلب الضمير البارز المجرور المحلّ مرفوعًا مستكِنًّا، والفعلُ مِن صيغة الغَيبة إلى التكلّم.[٥]

ويجوز أن يكون مِن "برِح" التامّ كـ"زال يزول"، أي: لا أفارق ما أنا بصدده حتّى أبلغ ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ هو ملتقى بحر فارسَ والروم ممّا يلي المشرِق.

---

١ هذا رأي ابن خروف كما نقل الرضيُّ في شرح الكافية ٢٣٠/٣.
٢ قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.
٣ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٧/٢.
٥ الكلام بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٦/٢.

وقيل: طَنجَةُ.[١] وقيل: هما الكُرّ[٢] والرَّسّ[٣] بإرْمِينِيةَ.[٤] وقيل: إفريقيّة.[٥] وقرئ بكسر "الميم"[٦] كـ"مَشرِق".

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أسير زمانًا طويلًا أتيقّن معه فواتَ المطلَب. والحُقُب: الدهر أو ثمانون سَنة، وكان منشأ هذه العزيمة أنّ موسى عليه السلام لمّا ظهَر على مصرَ مع بني إسرائيلَ واستقرُّوا بها بعد هلاك القِبط[٧] أمره الله عزّ وجلّ أن يذكّر قومه النعمةَ فقام فيهم خطيبًا بخطبة بديعة رقّت بها القلوب وذرَفت العيون، / فقالوا له: مَن أعلمُ الناس؟ قال: أنا. فعتب الله تعالى عليه إذ لم يردّ [٤٠٨و] العلم إليه عزّ وجلّ، فأوحى إليه: بل أعلمُ منك عبدٌ لي عند مجمَع البحرين وهو الخَضِر عليه السلام.[٨] وكان في أيّام أفريدون قبل موسى عليه السلام، وكان على مقدّمة ذي القرنين الأكبر وبقِيَ إلى أيّام موسى.[٩]

وقيل: إنّ موسى عليه السلام سأل ربّه: «أيُّ عبادِك أحبّ إليك؟» قال: «الذي يذكرُني ولا ينساني». قال: «فأيُّ عبادك أقضى؟» قال: «الذي يقضي بالحقّ

---

١ مَرويّ عن محمّد بن كعب في **جامع البيان للطبري**، ٣٠٩/١٥؛ و**معالم التنزيل للبغوي**، ١٨٥/٥؛ وهو بلا عزو في **الكشّاف للزمخشري**، ٥٣٧/٢. | طَنْجة: مدينة على ساحل بحر المغرب، مقابل الجزيرة الخضراء، مِن البرّ الأعظم وبلاد البربر، وهي مدينة أزليّة خصبة آثارها باقية وبناؤها بالحجارة قائمة على البحر. انظر: **معجم البلدان للحموي**، ٤٣/٤.

٢ الكُرّ: نهر بين أرمينيّة وأران، يشقّ مدينة تفليس، وبينه وبين برذعة فرسخان، ثمّ يجتمع هو ونهر الرسّ بالجمع ويصبّ في بحر الخَزَر وهو بحر طبرستان، وقيل: هو موضع بفارس، والمشهور الأوّل. انظر: **معجم البلدان للحموي**، ٤٥١/٤.

٣ الرَّسّ: قرية باليمامة يقال لها فلج، وقيل: وادي أذربيجان وحدّ أذربيجان ما وراء الرّسّ، وقيل: ديار لطائفة مِن ثمود. انظر: **معجم البلدان للحموي**، ٤٣/٣-٤٤.

٤ مرويّ عن السدّي في **تفسير ابن أبي حاتم**، ٢٣٧٦/٧؛ و**تفسير القرطبي**، ٩/١١.

٥ مرويّ عن أُبيّ بن كعب في **معالم التنزيل للبغوي**، ١٨٥/٥؛ وهو بلا عزو في **الكشّاف للزمخشري**، ٥٣٧/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن عُبيد بن مُسلم بن يسار وعُبيد بن عُمير. **شواذّ القرآن لابن خالويه**، ص ٨٤؛ **المغني في القراءات للنّوزاوازي**، ص ١١٧١.

٧ القبط: كلمة يونانيّةُ الأصل بمعنى سُكّان مصر، ويقصد بهم اليوم: المسيحيون مِن المصريّين. انظر لِما قيل فيهم في المصادر: **سير أعلام النبلاء للذهبي**، ١٩١/١٤؛ و**لبّ اللباب للسيوطي**، ص ٢٠٣.

٨ بلفظ قريب في **صحيح البخاري**، ٣٥/١ (١٢٢).

٩ الكلام بلفظ قريب في **الكشّاف للزمخشري**، ٥٣٧/٢.

ولا يتّبع الهوى». قال: «فأيُّ عبادك أعلمُ؟» قال: «الذي يبتغي عِلمَ الناس إلى عِلمه عسى أن يصيب كلمةً تدلُّه على هدى أو تردّه عن ردى»، فقال: «إن كان في عبادك مَن هو أعلمُ منّي فدلَّني عليه»، قال: «أعلمُ منك الخَضِر» قال: «أين أطلبه؟» قال: «على ساحل البحر عند الصخرة». قال: «يا ربّ كيف لي به؟» قال: «تأخذ حوتًا في مِكْتل فحيثما فقَدته فهو هناك». فأخذ حوتًا فجعله في مِكْتل، فقال لفتاه: «إذا فقدتَ الحوتَ فأخبرني» فذهبا يمشيان.[١]

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١﴾

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ "الفاء" فصيحة كما أشيرَ إليه ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: مجمَع البحرين، و﴿بَيْنِهِمَا﴾ ظرف أضيفَ إليه اتّساعًا، أو بمعنى الوصل. ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ الذي جُعل فقدانه أمارة وُجدان المطلوب، أي: نسيا تفقُّد أمره وما يكون منه. وقيل: نسيَ يُوشَع أن يقدِّمه وموسى عليهما السلام أن يأمره فيه بشيء.[٢]

رُوي أنّهما لمّا بلغا مجمَع البحرين وفيه الصخرة وعين الحياة التي لا يصيب ماؤها ميتًا إلّا حيَّ وضعا رءوسَهما على الصخرة فناما، فلمّا أصاب الحوتَ بردُ الماء ورَوحُه عاش،[٣] وقد كانا أكلا منه، وكان ذلك بعد ما استيقظ يُوشَع عليه السلام. وقيل: توضّأ عليه السلام مِن تلك / العين فانتضح الماء على الحوت فعاش فوقع في الماء.[٤] [٤٠٨ظ]

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ مسلَكًا كالسَّرَب وهو: النَّفَق. قيل: أمسك الله عزّ وجلّ جِرْيَة الماء على الحوت فصار كالطاق عليه،[٥] معجزة لموسى أو للخضر عليهما السلام. وانتصاب ﴿سَرَبًا﴾ على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿ٱتَّخَذَ﴾، و﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ حال منه أو مِن "السبيل"، ويجوز أن يتعلّق بـ﴿ٱتَّخَذَ﴾.

---

١ مرويّ بلفظ قريب عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ١٥/٣٢١-٣٢٢؛ وبعضه في شعب الإيمان للبيهقي، ٢/١٧١ (٦٧١)؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٧.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٨.

٣ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٦/٩١ (٤٧٢٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٨.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٨.

٥ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٤/١٥٤ (٣٤٠١)؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٨.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝٦٢﴾

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: مجمَع البحرين الذي جُعل موعدًا للملاقاة، قيل: أدلجا وسارا الليلة والغد إلى الظهر، وأُلقي على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ أي: ما نتغذّى به، وهو الحوت كما ينبئ عنه الجواب، ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى ما سارا بعد مجاوزة الموعد ﴿نَصَبًا﴾ تعبًا وإعياءً. قيل: لم ينصَبْ ولم يجُعْ قبل ذلك.[١] والجملة في محلّ التعليل للأمر بإيتاء الغداء، إمّا باعتبار أنّ النصَب إنّما يعتري بسبب الضعف الناشئ عن الجوع، وإمّا باعتبار ما في أثناء التغذّي مِن استراحة ما.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝٦٣﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فتاه عليهما السلام: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ أي: التجأنا إليها وأقمنا عندها. وذِكرُ الإواء إليها مع أنّ المذكور فيما سبَق مرّتين بلوغ مجمَع البحرين لزيادة تعيين محلّ الحادثة، فإنّ المجمَع محلّ متّسِع لا يمكن تحقيق المراد المذكور بنسبة الحادثة إليه، ولتمهيد العُذر فإنّ الإواء إليها والنومَ عندها ممّا يؤدّي إلى النسيان عادة، والرؤيةُ مستعارة للمعرفة التامّة والمشاهَدة الكاملة.

ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليهما السلام ممّا اعتراه هناك مِن النسيان مع كون ما شاهده مِن العظائم التي لا تكاد تُنسى، وقد جُعل فقدانه علامة لوجدان المطلوب، وهذا أسلوب معتاد فيما بين الناس، يقول أحدهم لصاحبه إذا نابه خَطْب: أرأيتَ ما نابني؟ يريد بذلك تهويله / وتعجيبَ صاحبه [٤٠٩و] منه وأنّه ممّا لا يُعهَد وقوعُه، لا استخبارُه[٢] عن ذلك كما قيل.[٣]

والمفعول محذوف اعتمادًا على ما يدلّ عليه مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾، وفيه تأكيد للتعجيب وتربية لاستعظام المَنسيّ. وإيقاع النسيان

---

١ بمعناه في صحيح البخاري، ١٥٤/٤ (٣٤٠١).

٢ وفي هامش م: معطوف على قوله: "تعجيب موسى عليه السلام". «منه».

٣ في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٢.

على اسم الحوت دون ضمير الغَداء مع أنّه المأمور بإتيانه للتنبيه مِن أوّل الأمر على أنّه ليس مِن قبيل نِسيان المسافر زادَه في المنزل، وأنّ ما شاهده ليس مِن قبيل الأحوال المتعلِّقة بالغداء مِن حيث هو غَداء وطعام؛ بل مِن حيث هو حوت كسائر الحِيتان مع زيادة، أي: نسِيتُ أن أذكُر لك أمره وما شاهدتُ منه مِن الأمور العجيبة.

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بوسوسته الشاغلة عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ بدَل اشتمال مِن الضمير، أي: ما أنساني أن أذكُره لك. وفي تعليق "الإنساء" بضمير الحوت أوّلًا وبذِكره له[١] ثانيًا على طريق الإبدال المنبئ عن تنحية المبدَل منه إشارةٌ إلى أنّ متعلَّق النسيان أيضًا ليس نفس الحوت؛ بل ذِكر أمره. وقرئ: "أَنْ أُذَكِّرَهُ"،[٢] وإيثارُ ﴿أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ على المَصدر للمبالغة، فإنّ مدلوله نفس الحدَث عند وقوعه، والحالُ وإن كانت غريبة لا يُعهَد نسيانُها، لكنّه لمّا تعوّد بمشاهدة أمثالِها عند موسى عليه السلام وألِفَها قلّ اهتمامه بالمحافظة عليها.

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾ بيان لطرَف مِن أمر الحوت منبئ عن طرَف آخرَ منه، وما بينهما اعتراض قُدّم عليه للاعتناء بالاعتذار، كأنّه قيل: حَيِيَ واضطرب ووقَع في البحر واتّخذ سبيله فيه سبيلًا عجبًا. فـ﴿عَجَبٗا﴾ ثاني مفعولَي ﴿ٱتَّخَذَ﴾، والظرفُ حال مِن أوّلهما أو ثانيهما، أو هو المفعول الثاني و﴿عَجَبٗا﴾ صفة مصدر محذوف، أي: اتّخاذًا عجبًا وهو كون مسلَكه / كالطاق والسَّرَب، [٤٠٩ظ] أو مصدرُ فعل محذوف، أي: أتعجَّب منه عجبًا، وقد قيل: إنّه مِن كلام موسى عليه السلام. وليس بذاك.[٣]

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرتَ مِن أمر الحوت

---

١ وفي هامش م: عليه السلام.

٢ ما وقفتُ عليها فيما بين يديَّ مِن كتب القراءات والتفسير. وفيها قراءة قريبة: "أَنْ أُذَكِّرَكَهُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٧٢.

٣ القول والردّ بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٢.

﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ وقرئ بإثبات الياء،[١] والضميرُ العائد إلى الموصول محذوف، أصلُه "نبغيه"، أي: نطلُبه لكونه أمارة للفوز بالمَرام. ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ طريقهما الذي جاءا منه ﴿قَصَصًا﴾ يقُصّان قَصصًا، أي: يتّبعان آثارهما اتّباعا أو مقتصّين حتّى أتيا الصخرة.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف. والجمهور على أنه الخَضِر واسمه بَلْيا بن مَلكان. وقيل: اليسع، وقيل: إلياس عليهم السلام.[٢] ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هي الوحي والنبوّة، كما يُشعِر به تنكير "الرحمة" واختصاصها بجَناب الكبرياء، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ خاصًّا لا يُكتنه كُنهه ولا يُقادَر قَدره وهو عِلم الغيوب.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن السِّباق، كأنّه قيل: فماذا جرى بينهما مِن الكلام؟ فقيل: قال له موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ استئذانًا منه في اتّباعه له على وجه التعلّم ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي: عِلمًا ذا رُشد أرشُد به في ديني، والرُّشد: إصابة الخير، وقرئ بفتحتين،[٣] وهو مفعول ﴿تُعَلِّمَنِ﴾، ومفعول ﴿عُلِّمْتَ﴾ محذوف، وكلاهما منقول مِن "عَلَم" المتعدّي إلى مفعول واحد.

ويجوز كونه عِلّة لـ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أو مصدرًا بإضمار فعله، ولا ينافي نبوّته وكونه صاحب شريعة أن يتعلّم مِن نبيّ آخرَ ما لا تعلُّقَ له بأحكام شريعته مِن أسرار العلوم الخفيّة، ولقد راعى في سَوق الكلام غاية التواضع معه عليهما السلام.

---

[١] قرأ بإثباتها وصلًا نافع وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وقرأ بإثباتها في الحالين ابن كثير ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣١٦/٢.

[٢] الاسم والقولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٧/٢.

[٣] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾

[٤١٠و] ﴿قَالَ﴾ أي: الخَضِر: / ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد، كأنّه ممّا لا يصِحّ ولا يستقيم وعلّله بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ إيذانًا بأنّه يتولّى أمورًا خفيّةَ المدار مُنكَرة الظواهر، والرجلُ الصالح لاسيّما صاحب الشريعة لا يتمالك أن يشمئزّ عند مشاهدتها.

وفي **صحيح البخاري** قال الخَضِر:[١] «يا موسى إنّي على عِلم مِن عِلم الله تعالى علّمنيه لا تعلَمه، وأنت على عِلم مِن عِلم الله علّمكَه الله لا أعلَمه».[٢] و﴿خُبْرًا﴾ تمييز، أي: لم يُحط به خبرك.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ معك غيرَ معترض عليك. وتوسيطُ الاستثناء بين مفعولَي الوُجدان لكمال الاعتناء بالتيمّن ولئلّا يُتوهَّم تعلّقه بالصبر. ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ عطفٌ على ﴿صَابِرًا﴾، أي: ستجدني صابرًا وغيرَ عاصٍ. وفي وَعْد هذا الوُجدان مِن المبالغة ما ليس في الوَعْد بنفس الصبر وتَرْكِ العصيان، أو على ﴿سَتَجِدُنِي﴾ فلا محلّ له مِن الإعراب. والأوّل هو الأولى لِما عرفتَه، ولظهور تعلُّقِه بالاستثناء حينئذ. وفيه دليل على أنّ أفعال العباد بمشيئة الله سبحانه.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي﴾ أذِن له في الإتّباع بعد اللّتيا والتي،[٣] و"الفاء" لتفريع الشرطيّة على ما مرّ مِن التزام موسى عليه السلام للصبر والطاعة، ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ تُشاهده مِن أفعالي، أي: لا تفاتحني بالسؤال عن حِكمته فضلًا عن المناقشة والاعتراض، ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: حتّى أبتدئ ببيانه.

---

[١] س – الخضِر.

[٢] صحيح البخاري، ٣٥/١ (١٢٢).

[٣] اللّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

وفيه إيذانٌ بأنّ كلّ ما صدَر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتّةَ، وهذا مِن أدب المتعلِّم مع العالم والتابع مع المتبوع.

وقرئ: "فَلَا تَسْأَلَنِّي"[1] بالنون المثقَّلة.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ۝٧١﴾

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ أي: موسى والخَضِر عليهما السلام على الساحل يطلبان السفينة، وأمّا يُوشَعُ فقد صرَفه موسى عليه السلام / إلى بني إسرائيلَ. قيل: [٤١٠ظ] إنّهما مرّا بسفينة فكلّما أهلها فعرفوا الخَضِر فحملوهما بغير نَول.[2]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ استعمال[3] "الركوب" في أمثال هذه المواقع بكلمة ﴿فِى﴾ مع تجريده عنها في مثل قوله عزّ وجلّ: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل، ٨/١٦]، على ما يقتضيه تعديتُه بنفسه لِما[4] أشرنا إليه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ [هود، ٤١/١١]، لا لِما قيل: مِن أنّ في ركوبها معنى الدخول. ﴿خَرَقَهَا﴾ قيل: خرقها بعد ما لجَّجُوا، حيث أخذ فأسًا فقلع مِن ألواحها لوحَين ممّا يلي الماء، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ مِن الإغراق، وقرئ بالتشديد[5] مِن التغريق، و"لِيَغْرَقَ أَهْلُهَا"[6] مِن الثلاثي. ﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ أتيتَ وفعلتَ ﴿شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أي: عظيمًا هائلًا مِن "أَمِرَ الأمرُ" إذا عظُم، قيل: الأصل "أَمِرٌ" فخفّف.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٧٢﴾

﴿قَالَ﴾ أي: الخضِر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ تذكير لِما قاله مِن قبلُ وتحقيق لمضمونه متضمِّن للإنكار على عدم الوفاء بوعده.

---

١ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣١٢/٢.

٢ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٠/٢.

٣ وفي هامش م: مبتدأ.

٤ وفي هامش م: خبر.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء وأيّوب السَّخْتِياني وابن مِقسَم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٩٢؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٧٤.

٦ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٣١٣/٢.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بنسياني أو بالذي نسِيتُه، أو[1] بشيء نسيتُه، وهو وصيّته بألّا يسأله عن حكمة ما صدَر عنه مِن الأفعال الخفيّة الأسباب قبل بيانه، أراد[2] أنّه نسيَ وصيّته ولا مؤاخذة على الناسي كما ورد في **صحيح البخاري** مِن أنّ الأوّل كان مِن موسى نسيانًا،[3] أو أَخرَج الكلامَ في معرِض النهي عن المؤاخذة بالنسيان يُوهِمه أنّه قد نسِيَ ليبسُطَ عُذره في الإنكار، وهو مِن معاريض الكلام التي يُتّقى بها الكذب مع التوسّل إلى الغرض، أو أراد بالنسيان التَّرْك، أي: لا تؤاخذني بما تركتُ مِن وصيّتك أوّل مرّة.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ أي: لا تُغْشِني ولا تُحمِّلني ﴿مِنْ أَمْرِي﴾ وهو اتّباعه إيّاه ﴿عُسْرًا﴾ أي: لا تُعسِّر عليّ متابعتَك ويسِّرها عليّ بالإغضاء وتَرْكِ المناقشة. وقرئ: "عُسُرًا"[4] / بضمّتين. [٤١١و]

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾

﴿فَانطَلَقَا﴾ "الفاء" فصيحة، أي: فقَبِل عُذره فخرجا مِن السفينة فانطلقا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ قيل: كان الغلام يلعب بالغلمان ففتَل عُنقه، وقيل: ضرَب برأسه الحائط،[5] وقيل: أضجعه فذبحه بالسكّين.[6]

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ طاهرة عن الذنوب، وقرئ: "زَاكِيَةً".[7] ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير قتل نفس محرَّمة؟ وتخصيص نَفْي هذا المُبيح بالذِّكر مِن بين سائر المبيحات مِن الكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصان لأنّه الأقرب إلى الوقوع نظرًا إلى حال الغلام.

---

١ س: أي.

٢ وفي هامش م: موسى.

٣ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٣٥/١ (١٢٢).

٤ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٠/٢.

٦ مَرويّ عن سعيد بن جُبير في جامع البيان للطبري، ٣٤١/١٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٠/٢.

٧ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وخلف ورُويس. النشر لابن الجزري، ٣١٣/٢.

ولعلّ تغييرَ النظم الكريم بجَعْل ما صدَر عن الخَضِر عليه السلام ههنا مِن جملة الشرط، وإبرازِ ما صدَر عن موسى عليه السلام في معرِض الجزاء المقصود إفادته، مع أنّ الحقيق بذلك إنّما هو ما صدَر عن الخَضِر عليه السلام مِن الخوارق البديعة، لاستشراف النفس إلى ورود خبرها لقلّة وقوعها في نفس الأمر ونُدرة وصول خبرها إلى الأذهان، ولذلك رُوعيت تلك النكتة في الشرطيّة الأولى، لِما[١] أنّ صدور الخوارقِ منه عليه السلام خرج بوقوعه مرّة مَخرجَ العادة، فانصرفت النفس عن ترقّبه إلى ترقّب أحوال موسى عليه السلام، هل يُحافِظ على مراعاة شرطه بموجَب وعده الأكيد عند مشاهدة خارق آخرَ، أو يُسارِع إلى المناقشة كما مرّ في المرّة الأولى؟ فكان المقصود إفادةَ ما صدَر عنه عليه السلام ففُعِل ما فُعِل. ولله درُّ شأن التنزيل.[٢]

وأمّا ما قيل مِن أنّ القتل أقبَح والاعتراضَ عليه أدخَلُ فكان جديرًا بأن يُجعَل عُمدة في الكلام فليس مِن دَفْع الشبهة في شيء؛ بل هو مُؤيِّد لها، فإنّ كون القتل أقبَح مِن مبادي قلّة صدوره عن المؤمن العاقل ونُدرةِ وصول خبرِه إلى الأسماع، وذلك ممّا يستدعي / جَعْله مقصودًا بالذات وكونَ الاعتراض عليه أدخَل مِن موجبات كثرة صدوره عن كلّ عاقل، وذلك ممّا لا يقتضي جَعْله كذلك. [٤١١ظ]

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ قيل: معناه أنكرُ مِن الأوّل، إذ لا يمكن تدارُكه كما يمكن تدارُك الأوّل بالسدّ ونحوه. وقيل: الأمر أعظم مِن النُّكر؛ لأنّ قَتْل نفس واحدة أهون مِن إغراق أهل السفينة.[٣]

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٧٥﴾

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ زِيد ﴿لَكَ﴾ لزيادة المكافحة بالعِتاب على رَفْض الوصيّة وقلّة التثبّت والصبر لمّا تكرّر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يَرعَوِ بالتذكير حتّى زاد في[٤] النكير في المرّة الثانية.

---

١ وفي هامش م: خبر "لعلّ".

٢ وفي هامش م: ومَن توهّم أنّ ذلك لِما أنّ خَرْق السفينة لم يتعقّب الركوب وقد تعقّبَ القتلُ لقاء الغلام فقد نأى مِن الحقّ بمراحل. «منه».

٣ القولان في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤١/٢.

٤ س - في.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ٧٦﴾

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه المرّة ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾، وقُرئ مِن الإفعال،[1] أي: لا تجعلني صاحبك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: قد أعذرتَ ووجدتَ مِن قِبلي عُذرًا حيث خالفتُك ثلاثَ مرّات. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «رحِم الله أخي موسى استحيى فقال ذلك، لو لبِث مع صاحبه لأبصَر أعجبَ الأعاجيب».[2]

وقُرئ: "لَدُنِي"[3] بتخفيف "النون"، وقُرئ بسكون "الدال"[4] كـ"عَضْد" في "عَضُد".

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ٧٧﴾

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هي أنطاكيةُ.[5] وقيل: أُبُلَّةُ،[6] وهي أبعدُ أرض الله مِن السماء. وقيل: هي برقة.[7] وقيل: بلدة بأندلس.[8] عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري والنخَعي، واليماني وسهل بن حمّاد عن أبي عمرو. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٤؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٩٢.

[2] بلفظ قريب في **جامع البيان** للطبري، ١٥/٣٤٥؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٥/١٩٢؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٤١. وانظر لتفصيل تخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٢/٣٠٥-٣٠٦.

[3] قرأ بها نافع وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣١٣.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي ليلى والحسين والجُعفي عن أبي بكر عن عاصم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٩٢.

[5] أنطاكية: مدينة تاريخيّة تقع على الضفّة اليسرى لنهر العاصي على بعد ٣٠ كم مِن شاطئ البحر المتوسّط في محافظة هتاي التركيّة. وانظر لِما قيل فيها: **معجم البلدان** للحموي، ١/٢٦٦.

[6] مرويّ عن محمّد بن سيرين في **جامع البيان** للطبري، ١٥/٣٤٧؛ وبلا نسبة في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٤١. | الأُبُلَّة: بلدة على شاطئ دجلة البَصرة العظمى، في زاوية الخليج الذي يدخل إلى البَصرة، وهي أقدم مِن البصرة. وهي مِن أجمل البلاد ونهرها مِن جِنان الدنيا المذكورة عند القدماء. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ١/٧٧.

[7] بَرقَة: بفتح الباء والقاف، اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندريّة وإفريقيّة، واسم مدينتها انطابلس، فيها فواكه وخيرات كثيرة. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ١/٣٨٩-٣٩٠.

[8] القولان في **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٣/٥٣٣.

«كانوا أهلَ قرية لئامًا».[١] وقيل: شرُّ القرى التي لا يضاف فيها الضيف ولا يُعرف لابن السبيل حقُّه.[٢]

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ في محلّ الجرّ على أنّه صفةٌ لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، ولعلّ العدولَ عن استطعامهم على أن يكون صفة لـ"الأهل" لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم، فإنّ الإباء مِن الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبَحُ وأشنَعُ. «رُوي أنّهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم»[٣] ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ بالتشديد، وقُرئ بالتخفيف مِن الإضافة،[٤] يقال: "ضافه" إذا كان له ضيفًا، و"أضافه وضيَّفه" أنزَله وجعله ضيفًا له. وحقيقةُ "ضاف" مالَ إليه مِن "ضاف السهمُ عن الغرَض"، / ونظيرُه "زاره" مِن الازورار. [٤١٢و]

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: يداني أن يسقُط، فاستُعيرت الإرادةُ للمشارفة للدلالة على المبالغة في ذلك. والانقضاض: الإسراعُ في السقوط وهو "انفعال" مِن القضّ، يقال: قضضتُه فانقضّ، ومنه انقضاض الطير والكوكب لسقوطه بسرعة. وقيل: هو "افعِلال" مِن النقض كـ"احمرّ"[٥] مِن الحُمرة.[٦] وقُرئ: "أَنْ يُنْقَضَ"[٧] مِن النَّقْض، و"أَنْ يَنْقَاصَ"[٨] مِن "انقاصَت السنّ" إذا انشقّت طولًا. ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ قيل: مسَحه بيده فقام. وقيل: نقَضه وبناه. وقيل: أقامه بعمود عمَده به. قيل: كان سَمكُه مائة ذراع.[٩]

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ تحريضًا له على أَخْذ الجُعْل لينتعشا به أو تعريضًا بأنّه فضول لِما في ﴿لَوْ﴾ مِن النفي، كأنّه لمّا رأى الحِرمان ومِساس الحاجة

---

١ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤١/٢.

٢ مَرويّ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ٣٤٧/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٥.

٣ معالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير وأبي رَزين وأبي رجاء والأعمش وشِبل وابن الزُّبير ومجاهد والمفضَّل والزَّعفراني وابن مُحيصن وأبان. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٢؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٧٦.

٥ س: احمرار.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٣؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٧٧.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وعكرمة وابن يعمُر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٣.

٩ هذه الأقوال الأربعة في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٢.

واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك الصبر. و"اتّخذ" افتعَل مِن "تخِذ" بمعنى "أخذ"، كـ"اتّبع" مِن "تبِع" وليس مِن "الأخذ" عند البصريّين. وقُرئ: "لَتَخِذْتَ"،[١] أي: لأخذتَ، وقُرئ بإدغام "الذال" في "التاء".[٢]

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨﴾

﴿قَالَ﴾ أي: الخَضِر عليه السلام: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ على إضافة المصدر إلى الظرف اتّساعًا، وقد قُرئ على الأصل،[٣] والمشارُ إليه إمّا نفس الفِراق كما في "هذا أخوك"، أو الوقت الحاضر، أي: هذا الوقت وقت فراق بيني وبينك، أو السؤال الثالث، أي: هذا سبب ذلك الفراق حسبما هو الموعود.

﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ "السين" للتأكيد لعدم تراخي التنبئة ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ التأويل: رَجْع الشيء إلى مآله، والمراد به ههنا المآل والعاقبة، إذ هو المنبّأ به دون التأويل، وهو خلاص السفينة مِن اليد العادِيَة، وخلاصُ أبوَي الغلام مِن شرّه مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراجُ اليتيمين للكنز. وفي جَعْل صلة الموصول عدمَ استطاعة / موسى عليه السلام للصبر دون أن يقال: "بتأويل ما فعلتُ" أو "بتأويل ما رأيتَ" ونحوهما نوعُ تعريضٍ به عليه السلام وعتاب. [٤١٢ظ]

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتُها ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ لضعفاءَ لا يقدرون على مدافعة الظَّلَمة. وقيل: كانت لعشرة إخوة، خمسةٌ منهم زَمْنى وخمسةٌ ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾،[٤] وإسنادُ العمل إلى الكلّ حينئذ إنّما هو بطريق التغليب، أو لأنّ عمل الوكلاء بمنزلة عدم الموكِّلين. ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي: أجعلها ذاتَ عيب.

---

١ قرأ بها أبو عمرو وابن كثير ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣١٤/٢.

٢ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ١٦/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٣.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٣/٢.

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أي: أمامَهم، وقد قُرئ به،[1] أو خلفَهم، وكان رجوعُهم عليه لا محالةَ، واسمه جُلَندى بن كركر. وقيل: منولة بن جلندى الأزدي.

﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أي: صالحة، وقد قُرئ كذلك،[2] ﴿غَصۡبًا﴾ مِن أصحابها. وانتصابه على أنّه مصدر مبيّن لنوع الأخذ، ولعلّ تفريعَ إرادة تعييب السفينةِ على مَسكَنة أصحابها قبل بيان خوف الغَضب مع أن مدارَها كلا الأمرين، للاعتناء بشأنها، إذ هي المحتاجة إلى التأويل، وللإيذان بأنّ الأقوى في المداريّة هو الأمر الأوّل، ولذلك لا يُبالى بتخليص سُفن سائر الناس مع تحقّق خوف الغَضب في حقّهم أيضًا، ولأنّ في التأخير فصلًا بين السفينة وضميرها مع توهّم رجوعه إلى الأقرب.

﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ۝٨٠﴾

﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ﴾ الذي قتلتُه ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ﴾ لم يصرِّح بكفرانه أو بكُفره إشعارًا بعدم الحاجة إلى الذِكر لظهوره ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا﴾ فخِفنا أن يُغشيَ الوالدَين المؤمنَين ﴿طُغۡيَٰنٗا﴾ عليهما ﴿وَكُفۡرٗا﴾ لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويُلحِق بهما شرًّا وبلاء، أو يُقرَنَ بإيمانهما طغيانه وكفره فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغٍ كافر، أو يُعدِيَهما بدائه ويُضلَّهما بضلاله فيرتدّا بسببه.

وإنّما خشيَ الخَضِر عليه السلام منه ذلك لأنّ الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على سِرّ أمرِه. وقُرئ: "فخَافَ رَبُّكَ"،[3] أي: كرِه سبحانه كراهةَ مَن خاف / سوء عاقبة الأمر فغيّره، ويجوز أن يكون القراءةُ المشهورة على الحكاية بمعنى "فكرِهنا"، كقوله تعالى: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ [مريم، ١٩/١٩]. [٤١٣و]

﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ۝٨١﴾

﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ﴾ بأن يرزُقهما بدلَه ولدًا خيرًا ﴿مِنۡهُ﴾.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وعثمان وابن عبّاس وقتادة وحُميد وأبي جعفر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٩٣؛ **المغني في القراءات** للنُوزاوازي، ص ١١٧٩.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وعثمان وابن عبّاس وقتادة وحُميد وأبي جعفر. **المغني في القراءات** للنُوزاوازي، ص ١١٧٩.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٩٤.

وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة والإضافة إليهما ما لا يخفى مِن الدلالة على إرادة وصول الخير إليهما. ﴿زَكَوٰةً﴾ طهارةً مِن الذنوب والأخلاق الرديئة، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: رحمةً وعطفًا.

قيل: وُلدت لهما جارية تزوّجها نبيّ فولدت نبيًّا هدى[1] الله تعالى على يده أمّة مِن الأمَم. وقيل: ولدت سبعين نبيًّا. وقيل: أبدلهما ابنًا مؤمنًا مثلَهما.[2] وقُرئ: "يُبَدِّلَهُمَا"[3] بالتشديد، وقرئ: "رُحُمًا"[4] بضمّ الحاء أيضًا، وانتصابه على التمييز مثل ﴿زَكَوٰةً﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ المعهودُ ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هي القرية المذكورة فيما سبق، ولعلّ التعبيرَ عنها بالمدينة لإظهار نوع اعتدادٍ بها باعتداد ما فيها مِن اليتيمين وأبيهما الصالح. قيل: اسماهما أصرَم وصريم واسم المقتول جيسون.[5]

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ مِن فضّة وذهب، كما رُوي مرفوعًا.[6] والذمُّ[7] على كنزهما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ [التوبة، ٣٤/٩] لمَن[8] لا يؤدّي زكاتهما وسائر حقوقهما. وقيل: كان لوحًا مِن ذهب مكتوبًا فيه: عجبْتُ لمَن يؤمن بالقدر كيف يحزَن؟ وعجبتُ لمَن يؤمن بالرزق كيف يتعَب؟ وعجبْتُ لمَن يؤمن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمَن يؤمن بالحساب كيف يغفُل؟

---

[1] س + أي.

[2] الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٤/٢.

[3] قرأ بها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٤/٢.

[4] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

[5] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٤/٢.

[6] سنن الترمذي، ٣٧٦/٥ (٣١٥٢)؛ المعجم الصغير للطبراني، ١٧٤/٢ (٩٧٧)؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٩٥/٥.

[7] وفي هامش م: مبتدأ.

[8] وفي هامش م: خبر.

وعجبت لمَن يعرِف الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئنّ إليها؟ لا إله إلّا الله محمّد رسول الله.[١] وقيل: صحفٌ فيها عِلم.[٢]

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ تنبيه على أنّ سعيَه في ذلك / كان لصلاحه. قيل: كان بينهما وبين الأب الذي حُفظا فيه سبعةُ آباء.[٣] [٤١٣ظ]

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ أي: مالكُك ومدبِّر أمورك، ففي إضافة الربّ إلى ضمير موسى عليه السلام دون ضميرهما تنبيه له عليه السلام على تحتّم كمال الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه ووجوبِ الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها مِن الأمور المذكورة. ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي: حُلُمَهما وكمالَ رأيهما ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ مِن تحت الجدار، ولولا أنّي أقمته لانقضّ وخرج الكنز مِن تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع بالكلّيّة.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدر في موقع الحال، أي: مرحومَين منه عزّ وجلّ، أو مفعول له، أو مصدر مؤكِّد لـ﴿أَرَادَ﴾، فإنّ إرادة الخير رحمة. وقيل: متعلِّق بمضمَر، أي: فعلتُ ما فعلتُ مِن الأمور التي شاهدتَها رحمة مِن ربّك،[٤] ويعضُده إضافة الربّ إلى ضمير المخاطَب[٥] دون ضميرهما، فيكون قوله عزّ وعلا: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي: عن رأيي واجتهادي تأكيدًا لذلك.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العواقب المنظومةِ في سِلك البيان، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتها في الفخامة. ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع﴾ أي: لم تستطع، فحُذف "التاء" للتخفيف. ﴿عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ مِن الأمور التي رأيته أي: مآلُه وعاقبتُه فيكون إنجازًا للتنبئة الموعودة، أو إلى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه، وعلى كلّ حال فهو فذلكة لِما تقدَّم، وفي جعل الصلة عينَ ما مرّ[٦] تكريرٌ للنكير وتشديد للعِتاب.

---

[١] مَرويّ عن ابن عبّاس والحسن بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/٣٦٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٦.

[٢] مَرويّ عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير ومجاهد في جامع البيان للطبري، ١٥/٣٦٢-٣٦٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٦.

[٣] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٤.

[٤] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٥٢.

[٥] وفي هامش م: حسبما وقفتَ عليه مِن السرّ. «منه».

[٦] وفي هامش م: مِن عدم استطاعة موسى عليه السلام للصبر. «منه».

تنبيه: اختلفوا في حياة الخَضِر، فقيل: إنّه حيّ، وسببُه أنّه كان على مقدّمة ذي القرنين، فلمّا دخل الظلماتِ أصاب الخَضِر عينَ الحياة فنزل واغتسل منها وشرب مِن مائها وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد. قالوا: وإلياس أيضًا في الحياة يلتقيان كلّ سنة بالموسم. وقيل: إنّه ميّت، لِما رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم صلّى العشاء ذاتَ ليلة، ثم قال: «أرأيتَكم ليلتَكم هذه، فإنّ رأس مائة سنة منها لا يبقَى ممّن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»،[١] ولو كان الخَضِر حينئذ حيًّا لَما عاش بعد مائة عام.[٢] رُوي أنّ موسى عليه السلام لمّا أراد أن يفارقه، قال له: «أوصِني»، قال: «لا تطلب العلمَ لتحدّث به واطلبْه لتعمَل به».[٣]

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝٨٣﴾

[٤١٤و] / ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ هم اليهود سألوه عليه السلام[٤] على وجه الامتحان، أو سأله قريشٌ بتلقينهم. وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك إلى ورود الجواب. وهو ذو القرنين الأكبر واسمه الإسكندر بن فيلقوسَ اليوناني، وقال ابن إسحاقَ: اسمه مَرزُبان بن مَرْدِبة مِن ولد يافث بن نوح عليه السلام وكان أسودَ.[٥] وقيل: اسمُه عبد الله بن الضحّاك. وقيل: مصعبُ بن عبد الله بن فينانَ بن منصور بن عبد الله بن الآزر بن عون بن زيد بن كهلانَ بن سبأ بن يعرُبَ بن قحطانَ.[٦] وقال السهيليّ: قيل: إنّ اسمه مَرْزُبان بن مُدرِكة، ذكره ابن هشام وهو أوّل التبابِعة.[٧] وقيل: إنّه أفريدون بن النعمان الذي قتل الضحّاك.[٨]

---

١ **صحيح البخاري**، ٣٤/١ (١١٦)؛ **صحيح مسلم**، ١٩٦٥/٤ (٢٥٣٧)؛ **معالم التنزيل للبغوي**، ١٩٧/٥.

٢ هذان القولان في الخَضِر مع الاستدلال المذكور جاءا بلفظ قريب في **معالم التنزيل للبغوي**، ١٩٧/٥.

٣ **معالم التنزيل للبغوي**، ١٩٧/٥.

٤ ط س – عليه السلام.

٥ القولان في **معالم التنزيل للبغوي**، ١٩٨/٥. وانظر: **اللباب لابن عادل**، ٥٥٤/١٢.

٦ القولان في **البداية والنهاية لابن كثير**، ٥٣٩/٢؛ **واللباب لابن عادل**، ٥٥٥/١٢. وأوّلهما في **الرّوض الأنف للسُّهيلي**، ١٨٠/٣.

٧ التبابِعة: هم مِن ولد صيفي بن سبأ الأصغر بن كعب بن زيد، وهم مِن ملوك اليمن. انظر: **جمهرة أنساب العرب لابن حزم**، ٤٣٨/١؛ **ونهاية الأرب للقلقشندي**، ٤٢٥/١.

٨ انظر: **الرّوض الأنف للسُّهيلي**، ١٧٨/٣-١٧٩. والكلام بلفظ قريب عن السُّهيلي في **البداية والنهاية لابن كثير**، ٥٤٠/٢-٥٤١؛ **واللباب لابن عادل**، ٥٥٥/١٢.

وذكر أبو الريحان البيروتي[1] في كتابه المسمى بـ**الآثار الباقية عن القرون الخالية** أنّ ذا القرنين هو أبو كرِب سميّ بن عيرين بن أفريقيس الحِميَري وأنّ مُلكَه بلغ مشارقَ الأرض ومغاربَها وهو الذي افتخر به التُّبّع اليماني حيث قال:

قد كان ذو القرنين جدّي مسلمًا مَلِكًا علا في الأرض غيرَ مفنَّدِ
بلَغ المَشارق والمَغارب يبتغي أسبابَ أمرٍ مِن حكيمٍ مُرشدِ[2]

وجعلَ هذا القولَ أقربَ لأن الأذواءَ كانوا مِن اليمن كذي المنار وذي نواس وذي النون وذي رُعَين وذي يزَن وذي جَدَن.[3]

قال الإمام الرازي: والأوّل هو الأظهر؛ لأنّ مَن بلغ مُلكُه مِن السَّعة والقوّة إلى الغاية التي نطق بها التنزيل الجليل إنّما هو الإسكندر اليوناني كما تشهد به كتب التواريخ. يُروى أنّه لمّا مات أبوه جَمع مُلكَ الرُّوم بعد أن كان / طوائفَ، [٤١٤ظ] ثمّ قصَد ملوك العرب وقهَرهم، ثمّ أمعنَ حتّى انتهى إلى البحر الأخضر،[4] ثم عاد إلى مصرَ فبنى الإسكندريّة وسمّاها باسمه، ثمّ دخَل الشام وقصد بني إسرائيلَ وورد بيتَ المَقدِس وذبح في مذبَحه، ثمّ انعطف إلى إرمينيّةَ وبابِ الأبواب[5]

---

[1] هو محمّد بن أحمد الخوارزمي البيروني، أبو الريحان (ت. ٤٤٠هـ/١٠٤٧م). فيلسوف رياضي مؤرّخ مِن أهل خوارزم، أقام في الهند سبع سنين ومات في بلده. اطّلع على فلسفة اليونانيين والهنود. وعلت شهرته وارتفعت منزلته عند ملوك عصره. صنّف كتبًا متقنة منها: **الآثار الباقية في القرون الخالية**، **والاستيعاب في صفة الأسطرلاب**، **وتاريخ الأمم الشرقية**. انظر: **معجم الأدباء** للحمَوي، ٥/٢٣٣٠؛ **والأعلام** للزركلي، ٥/٣١٤.

[2] البيتان لأبي كرِب أسعد الكامل بن مَلْكيكرب بن تُبّع الأكبر الحِميري في **شعراء حِمير**، ٣/١١٠، مع بعض اختلاف في الرّواية؛ وهما لبعض الحميريّين في **البداية والنهاية** لابن كثير، ٢/٥٤٠؛ **واللباب** لابن عادل، ١٢/٥٥٤.

[3] انظر: **الآثار الباقية** للبيروني، ص ٤٧. والكلام بلفظ قريب عن البيروني في **تفسير الرازي**، ٢١/٤٩٤؛ **واللباب** لابن عادل، ١٢/٥٥٤.

[4] البحر الأخضر: هو محيط بالدنيا جميعها كإحاطة الهالة بالقمر، ويخرج منه شعبتان إحداهما بالمشرق وهي بحر الهند والصين وفارس واليمن والزنج، والأخرى في المغرب تخرج مِن عند سلا فتمرّ بالزقاق الذي بين البرّ الأعظم مِن بلاد بربر المغرب وجزيرة الأندلس، وتمرّ بأفريقيّة إلى أرض مصر والشام إلى القسطنطينيّة. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ١/٣٤٤.

[5] باب الأبواب: هي مدينة على بحر طبرستان؛ وهو بحر الخَزَر، وعلى المدينة سور مِن الحجارة ممتدّ مِن الجبل. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ١/٣٠٣.

ودان له العراقيّون والقِبط والبربر،[١] ثمّ توجَّه نحو دارا بن دارا وهزمه مرارًا إلى أن قتله صاحب حرسه، واستولى على ممالك الفُرس وقصدَ الهِند وفتحه وبنى مدينة سرنديبَ[٢] وغيرَها مِن المُدن العظامِ، ثم قصَد الصين وغزا الأمَم البعيدة ورجع إلى خراسانَ[٣] وبنى بها مدائنَ كثيرة، ورجع إلى العراق ومرض بشهرزورَ[٤] ومات. انتهى كلام الإمام.[٥]

ورُوي أنّ أهل النجوم قالوا له: «إنّك لا تموت إلّا على أرض مِن حديد وتحت سماء مِن خشب»، وكان يدفِن كنزَ كلّ بلدة فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه، فبلغ بابل فرعَف وسقَط عن دابّته، فبُسطت له دروع فنام عليها، فآذته الشمس فأظلُّوه بتُرس، فنظر فقال: «هذه أرض مِن حديد وسماء مِن خشب»، فأيقَن بالموت، فمات وهو ابن ألف وستّمائة سنةٍ.[٦] وقيل: ثلاثة آلاف سنةٍ. قال ابن كثير: وهذا غريب.[٧] وأغربُ منه: ما قاله ابن عساكر[٨] مِن أنّه بلغني أنّه عاش ستًّا وثلاثين سنةً أو اثنتين وثلاثين سنةً، وأنّه كان بعد داود وسليمان عليهما السلام.[٩] فإنّ ذلك لا ينطبق إلّا على ذي القرنين الثاني كما سنذكره.

---

١ البربر: شعب أكثره قبائل تسكن الجبال في شمال إفريقيّة. قيل: مختلف في نسبتهم للعرب، قيل مِن العرب، وقيل: مِن غسّان وغيرهم، وقيل: هم مِن حمير ومصر، وقيل: أخلاط مِن كنعان والعماليق. انظر: **قلائد الجمان للقلقشندي**، ٣٤/١.

٢ سَرَنْديب: هي جزيرةٌ كبيرةٌ في المحيط الهندي جنوب الهند، أطلق عليها العرب قديمًا اسم جزيرة سرنديب، وعُرفت أيضًا باسم سيلان، وانظر فيها: **معجم البلدان للحموي**، ٢١٥/٣.

٣ خُراسان: بلاد واسعة أوّل حدودها ممّا يلي العراق أَزَاذْوار قصبة جوَين وبَيهق، وآخرُ حدودها ممّا يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وليس ذلك منها وإنّما هي أطراف حدودها، وتشتمل على أمّهات مِن البلاد منها نيسابور وهَراة ومرو وأبيوَرد وسرخس وغيرها وما يتخلّل ذلك مِن المدن التي دون نهر جيحون. انظر: **معجم البلدان للحموي**، ٣٥٠/٢.

٤ شهرزور: هي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمَذان. أحدثها زُور بن الضحّاك، ومعنى "شهر" بالفارسيّة: المدينة. وأهل نواحيها كلّهم أكراد. انظر: **معجم البلدان للحموي**، ٣٧٥/٣.

٥ انظر: **تفسير الرازي**، ٤٩٣/٢١-٤٩٤.

٦ انظر: **اللباب لابن عادل**، ٥٥٤/١٢.

٧ انظر: **البداية والنهاية لابن كثير**، ٥٤٤/٢-٥٤٦.

٨ هو عليّ بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم (ت. ٥٧١هـ/١١٧٦م). ثقة الدين المعروف بابن عساكر الدمشقي، المؤرّخ الحافظ الرحّالة الشافعي. مولده ووفاته في دمشق. وكان محدّث الديار الشاميّة، مِن أبرز كتبه: **تاريخ دمشق، والإشراف على معرفة الأطراف، ومعجم الصحابة**. انظر: **سير أعلام النبلاء للذهبي**،٤٠٥/٢١؛ **والأعلام للزركلي**، ٢٧٣/٤.

٩ انظر: **تاريخ دمشق لابن عساكر**، ٣٤٦/١٧.

قلتُ: وكذا ما ذكَره الإمام مِن قَصْدِ بني إسرائيلَ وورودِ بيت المَقدِس / [١] [٤١٥و] والذبحِ في مذبَحه، فإنّه ممّا لا يكاد يتأتّى نسبتُه إلى الأوّل.[٢]

واختُلف في نبوّته بعد الاتّفاق على إسلامه وولايته. فقيل: كان نبيًّا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾،[٣] وظاهر أنّه متناول للتمكين في الدِّين وكمالُه بالنبوّة، ولقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾،[٤] ومِن جملة الأشياء النبوّةُ، ولقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾[٥] ونحوِ ذلك. وقيل: كان مَلَكًا، لِما رُوي أنّ عمرَ رضي الله عنه سمع رجلًا يقول لآخر: يا ذا القرنين، فقال: اللّٰهمّ غُفرًا، أمَا رضِيتم أن تتسمَّوا بأسماء الأنبياء حتّى تسمَّيتُم بأسماء الملائكة.[٦]

قال ابن كثير: والصحيح أنّه ما كان نبيًّا ولا مَلَكًا، وإنّما كان مَلِكًا صالحًا عادلًا مَلَك الأقاليم وقهَر أهلها مِن الملوك وغيرهم ودانت له البلاد، وأنّه كان داعيًا إلى الله تعالى سائرًا في الخلق بالمَعْدَلة التامّة والسلطان المؤيَّد المنصور، وكان الخَضِر على مقدّمة جيشه بمنزلة المستشار الذي هو مِن المَلِك بمنزلة الوزير.

وقد ذكَر الأزرقي[٧] وغيره أنّه أسلَم على يدَيْ إبراهيمَ الخليل عليه السلام فطاف معه بالكعبة هو وإسماعيلُ. ورُوي أنه حجّ ماشيًا فلمّا سمِع إبراهيمُ عليه السلام بقدومه تلقّاه ودعا له وأوصاه بوصايا، ويقال: إنّه أُتيَ بفرس ليركب فقال: لا أركَب في بلد فيه الخليل، فعند ذلك سُخِّر له السحاب وطُويَ له الأسباب وبشّره إبراهيمُ عليه السلام[٨] بذلك فكانت السحاب تحمله وعساكرَه وجميعَ آلاتهم إذا أرادوا غزوة قوم.

---

١ هنا ينتهي ما وقع مِن اضطراب الألواح في نسخة المؤلّف.

٢ وفي هامش م: وستعرف أنّ مَن بنى الإسكندريّة وقتل دارا أيضًا هو الثاني. «منه».

٣ في الآية الآتية.

٤ في الآية الآتية.

٥ الكهف، ٨٦/١٨.

٦ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٤٥/٢؛ والبداية والنهاية لابن كثير، ٥٣٧/٢.

٧ هو محمّد بن عبد الله بن أحمد بن محمّد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق الأزرقي، أبو الوليد (ت. نحو ٢٥٠هـ/ ونحو ٨٦٥م). مؤرّخ مِن أهل مكّة، يمانيّ الأصل، له مِن المصنّفات أخبار مكّة وما جاء فيها مِن الآثار. انظر: الأعلام للزركلي، ٢٢٢/٦.

٨ س - عليه السلام.

وقال أبو الطُّفيل:[١] سُئل عنه عليّ كرّم الله وجهه أكان نبيًّا أم مَلِكًا؟ فقال: لم يكن نبيًّا ولا مَلِكًا لكن كان عبدًا أحبَّ الله فأحبّه وناصَح الله فناصَحه سُخِّر له السحاب ومُدّ له الأسباب.[٢]

[٤٢٦ظ] / واختُلف في وجه تسميته بذي القَرنين. فقيل: لأنّه بلغ قَرنَي الشمس مَشرِقَها ومَغربَها. وقيل: لأنّه مَلَك الرُّوم وفارسَ، وقيل: الرُّومَ والتُّركَ. وقيل: لأنّه كان في رأسه أو في تاجه ما يشبه القَرنين. وقيل: لأنّه كان له ذؤابتان. وقيل: لأنّه كانت صفحتا رأسه مِن النُّحاس.[٣] وقيل: لأنّه دعا الناس إلى الله عزّ وجلّ فضُرِب بقَرنه الأيمن فمات، ثمّ بعثه الله تعالى فضُرِب بقرنه الأيسر فمات، ثمّ بعثه الله تعالى.[٤] وقيل: لأنّه رأى في منامه أنّه صعِد الفَلَك فأخذ بقَرنَي الشمس. وقيل: لأنّه انقرض في عهده قَرنان. وقيل: لأنّه سُخِّر له النور والظُّلمة فإذا سرَى يهديه النور مِن أمامه وتحُوطه الظُّلمة مِن ورائه. وقيل: لُقِّب به لشجاعته.[٥]

هذا وأمّا ذو القرنين الثاني فقد قال ابن كثير: إنّه الإسكندر بن فيليسَ بن مصريمَ بن هرمسَ بنِ ميطونَ بن رومي بن ليطى بن يونان بن يافثَ بن نونة بن شرخونَ بن روميةَ بن ثونط بن برقيل[٦] بن رومي بن الأصفرِ بن العنرِ بن العيصِ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ الخليل عليهما السلام. كذا نسبه ابن العساكرَ:[٧] المقدوني

---

١ هو عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو الليثي الكناني القرشي، أبو الطفيل (ت. ١٠٠هـ/٧١٨م). شاعر كنانة وأحد فرسانها ومِن ذوي السيادة، وُلد يوم وقعة أحد ومات بمكّة، وهو آخر مَن مات مِن الصحابة رضوان الله عليهم، وعاش إلى أيّام معاوية وما بعدها. روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تسعة أحاديث. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٦٩٦/٤؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٥٥/٢-٢٥٦.

٢ إلى هنا ينتهي النقل بلفظ قريب عن **البداية والنهاية** لابن كثير، ٥٣٧/٢-٥٣٩؛ وبعضه في **تفسير ابن كثير**، ١٨٩/٥. وحديث أبي الطُّفيل بلفظ قريب في **جامع البيان** للطبري، ٣٧٠/١٥.

٣ هذه الأقوال الستّة في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٥/٢. وبعضها في **جامع البيان** للطبري، ٣٧٠/١٥-٣٧١؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ١٩٨/٥. وأكثرها في **البداية والنهاية** لابن كثير، ٥٣٨/٢؛ **وتفسير ابن كثير**، ١٨٩/٥.

٤ مَرويّ عن أبي الطُّفيل عن عليّ في **جامع البيان** للطبري، ٣٧٠/١٥؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ١٩٨/٥؛ **والبداية والنهاية** لابن كثير، ٥٣٩/٢؛ **وتفسير ابن كثير**، ١٨٩/٥.

٥ أكثر هذه الأقوال في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٥/٢.

٦ م ط س: نوفيل [صُحّح في هامش م].

٧ س: عساكر.

اليوناني المصري باني الإسكندريّة الذي يؤرِّخ بأيّامه الروم، وكان متأخِّرًا عن الأوّل بدهر طويل أكثرَ مِن ألفَي سَنةٍ، كان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو مِن ثلاثمائة سنةٍ وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوفَ، وهو الذي قتل دارا بن دارا، وأذلّ ملوك الفُرس ووطئ أرضهم.[١]

ثم قال:[٢] وإنّما بيّنا هذا لأنّ كثيرًا مِن الناس يعتقد أنّهما واحدٌ، وأنّ المذكور / في القرآن العظيم هو هذا المتأخِّر فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير، كيف لا، [٤٢٧و] والأوّل كان عبدًا صالحًا مؤمنًا ومَلِكًا عادلًا وزيرُه الخَضِر عليه السلام، وقد قيل: إنّه كان نبيًا. وأمّا الثاني فقد كان كافرًا وزيرُه أرسطاطاليس الفيلسوف، وقد كان ما بينهما مِن الزمان أكثرَ مِن ألفَي سنةٍ فأين هذا مِن ذلك؟ انتهى.[٣]

قلتُ: المَقَدُوني نسبة إلى بلدة مِن بلاد الروم غربيَّ دار السلطَنة السنيّة قُسطنطينيّةَ المَحميّة، لا زالَت مشحونة بالشعائر الدينيّة، بينهما مِن المسافة مسيرة خمسةَ عشرَ يومًا أو نحو ذلك عند مدينة سَيروزَ، اسمُها بلغة اليونانيّين مَقَدُونْيَا، كانت سرير مُلك هذا الإسكندر،[٤] وهي اليوم بلقَع لا يقيم بها أحد، ولكن فيها علائمُ تحكي كمال عِظَمها في عهد عُمرانها ونهايةِ شوكة واليها وسلطانِها، ولقد مررتُ بها عند[٥] القُفول عن[٦] بعض المغازي السُّلطانيّة، فعاينتُ فيها مِن تعاجيب الآثار ما فيه عِبرة لأولي الأبصار.[٧]

﴿قُلْ﴾ لهم في الجواب ﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم﴾ أي: سأذكر لكم ﴿مِنْهُ﴾ أي: مِن ذي القرنين ﴿ذِكْرًا﴾ أي: نبأ مذكورًا، وحيث كان ذلك بطريق الوحي المَتلوّ حكايةً عن جهة الله عزّ وجلّ قيل: ﴿سَأَتْلُواْ﴾ في شأنه، أو﴿سَأَتْلُواْ﴾ مِن جهته تعالى ﴿ذِكْرًا﴾ أي: قرآنًا، و"السين" للتأكيد والدلالة على التحقّق المناسب

---

١ انظر: **البداية والنهاية** لابن كثير، ٥٤١/٢-٥٤٢.

٢ وفي هامش م: ابن كثير.

٣ انظر: **البداية والنهاية** لابن كثير، ٥٤٢/٢.

٤ وفي هامش م: ومَن نسب إليها ذا القرنين الأكبر، ثمّ استشهد على أنّه مَلَك المَشارق والمَغارب بأبيات التُّبّع اليماني فقد أبدع وأغرب. «منه».

٥ س: عن.

٦ ط س: مِن. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٧ أشيرَ في دراسة هذا التحقيق إلى تلك المغازي وما ذكره المصنّف مِن مشاهدته.

لمقام تأييده عليه السلام وتصديقه بإنجاز وعده، أي: لا أترك التلاوة البتّةَ، كما في قول مَن قال:

سأشكر عَمْرًا إن تراخت منيّتي أيادِيَ لم تُمنَن وإن هي جلَّتِ[1]

لا للدلالة على أنّ التلاوة ستقع فيما يُستقبَل كما قيل، لأنّ هذه الآيةَ ما نزلت بإنفرادها قبل الوحي بتمام القصّة؛ بل موصولة بما بعدها ريثما سألوه عليه السلام عنه وعن الروح / وعن أصحاب الكهف، فقال لهم عليه السلام: «ائتوني غدًا أخبزكم»،[2] فأبطأ عليه الوحيُ خمسةَ عشرَ يومًا أو أربعين كما ذُكر فيما سلف. [٤٢٧ظ]

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ شروع في تلاوة الذِكر المعهود حسبما هو الموعود. والتمكين ههنا الإقدار وتمهيد الأسباب، يقال: مكّنه ومكّن له، ومعنى الأوّل جعَله قادرًا وقويًا، ومعنى الثاني جعَل له قدرة وقوّة، ولتلازمهما في الوجود وتقاربهما في المعنى يُستعمَل كلٌّ منهما في محلّ الآخر كما في قوله عزّ وعلا: ﴿مَكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام، ٦/٦]، أي: جعلناهم قادرين مِن حيث القُوى والأسباب والآلات على أنواع التصرّفات فيها ما لم نجعله لكم مِن القوّة والسَّعة في المال والاستظهارِ بالعَدد والأسباب، فكأنّه قيل: ما لم نُمكِّنكم فيها، أي: ما لم نجعلكم قادرين على ذلك فيها أو مكّنّا لهم في الأرض ما لم نمكِّنْ لكم.

وهكذا إذا كان التمكين مأخوذًا مِن المكان بناءً على توهّم ميمه أصليّة، كما أشيرَ إليه في سورة يوسفَ عليه السلام،[3] والمعنى إنّا جعلنا له مَكِنة وقدرة على التصرّف في الأرض مِن حيث التدبير والرأي والأسباب، حيث سُخِّر له السحاب،

---

[1] مختلف في نسبته: فهو لعبد الله بن الزَّبِير الأسدي في ملحق ديوانه، ص ١٤٢؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٢/٢٦٥؛ وهو له أو لعمرو بن كُمَيل في الحماسة البصرية للبصري، ٢/٤٢١؛ ولإبراهيم الصولي في ديوانه، ص ١٣٠ (ضمن الطرائف الأدبيّة للميمني)؛ والدُّرّ الفريد لابن آيدمر، ٦/٣٨٤؛ وهو لأبي الأسود الدؤلي في ملحق ديوانه، ص ٣٨٨؛ ولمحمّد بن سعيد في رسائل الجاحظ، ١/٣٨؛ ولمحمّد بن سعد الكاتب التميمي في معجم الشعراء للمرزباني، ص ٤٢١.

[2] مضى بتخريجه عند تفسير الكهف، ١٨/٢٣.

[3] في الآية الحادية والعشرين منها.

ومُدّ له في الأسباب، وبُسط له النور، وكان الليل والنهار عليه سواءً، وسُهّل عليه السير في الأرض، وذُلّلت له طرقها.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أراده مِن مُهمّات مُلكه ومقاصده المتعلِّقة بسلطانه ﴿سَبَبًا﴾ أي: طريقًا يُوصِله إليه، وهو كلُّ ما يُتوصَّل به إلى المقصود مِن عِلم أو قدرة أو آلة.

﴿فَأَتْبَعَ﴾ بالقَطع، أي: فأراد بلوغَ المغرب فأتبع ﴿سَبَبًا﴾ يُوصِله إليه، ولعلّ قصْدَ بلوغ المغرب ابتداءً لمراعاة الحركة الشمسيّة، وقُرئ: "فَاتَّبَعَ"[١] مِن الافتعال، والفرق أنّ الأوّل فيه معنى الإدراك والإسراع دون الثاني.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: منتهى الأرض مِن جهة المغرِب بحيث لا يتمكّن أحد مِن مجاوزته، ووقف على حافّة البحر المحيط الغربي الذي يقال له أوقيانوس الذي فيه / الجزائر المسمّاة بالخالدات[٢] التي هي مبدأ الأطوال على [٤٢٨و] أحد القولين، ﴿وَجَدَهَا﴾ أي: الشمس ﴿تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: ذات حَمْأة: وهي الطين الأسود مِن "حمِئت البئر" إذا كثرت حَمْأتها، وقُرئ: "حَامِيَةٍ"،[٣] أي: حارّة.

رُوي أنّ معاويةَ رضي الله عنه قرأ: "حَامِيَةٍ" وعنده ابن عبّاس رضي الله عنهما فقال: ﴿حَمِئَةٍ﴾، فقال معاويةُ لعبد الله بن عمرو بن العاص:[٤] «كيف تقرأ؟» قال:

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣١٤/٢.

٢ الخالدات: هي الجزائر الخالدات، هي ستّ جزائر واغلة في البحر المحيط، وهي ببلاد المغرب، وقيل: بإزاء طنجة في المحيط، وقيل: هي جزائر السعادة؛ لأنّ فيها أصناف الفواكه العجيبة الطيّبة، وأرضها تحمل الزرع مكان العشب وأصناف الرياحين العطرة. انظر: معجم البلدان للحموي، ١٣٢/٢.

٣ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٤/٢.

٤ عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤيّ القرشي السهمي (ت. ٦٥هـ/٦٨٤م). مِن قريش مِن أهل مكّة، صحابي عالم فاضل حافظ مِن النسّاك، كان يكتب في الجاهليّة ويحسن السريانيّة، وأسلم قبل أبيه، واستأذن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يكتب ما يسمع منه فأذن له، »

«كما يقرأ أمير المؤمنين»، ثمّ وجّه إلى كعب الأحبار: «كيف تجد الشمس تغرب؟» قال: «في ماء وطين»، ورُوي "في ثَأْط"[١] فوافَق قول ابن عبّاس رضي الله عنهما.[٢]

وليس بينهما منافاة قطعيّة لجواز كون العين جامعة بين الوصفين وكون الياء في الثانية منقلبة مِن "الهمزة" لانكسار ما قبلها. وأمّا رجوع معاويةَ إلى قول ابن عبّاس رضي الله عنهما بما سمعه مِن كعب مع أنّ قراءته أيضًا مسموعة قطعًا،[٣] فلكون قراءةِ ابن عبّاس قطعيّة في مدلولها وقراءتِه محتمَلةً.

ولعلّه لمّا بلغ ساحل المحيط رآها كذلك؛ إذ ليس في مطمَح بصره غيرُ الماء كما يلوِّح به قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ عند تلك العين ﴿قَوْمًا﴾ قيل: كان لباسهم جلود الوحوش وطعامُهم ما لفَظه البحر، وكانوا كفّارًا فخيّره الله جلّ ذِكره بين أن يُعذّبهم بالقتل وأن يدعوَهم إلى الإيمان وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ بالقتل مِن أوّل الأمر ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي: أمرًا ذا حُسن على حذف المضاف أو على طريقة إطلاق المصدر على موصوفه مبالغة، وذلك بالدعوة إلى الإسلام والإرشاد إلى الشرائع.

ومحلُّ ﴿أَن﴾ مع صلته إمّا الرفع على الابتداء أو الخبريّة، وإمّا النصب على المفعوليّة، أي: إمّا تعذيبك واقع،[٤] أو إمّا أمرك تعذيبك،[٥] أو إمّا تفعَل تعذيبَك،[٦] وهكذا الحال في "الاتّخاذ".[٧] ومَن لم يقل بنبوّته قال: كان[٨] الخطاب بواسطة

< وكان كثير العبادة، وكان يشهد الحروب والغزوات ويضرب بسيفين وحمل راية أبيه يوم اليرموك، وشهد صفّين مع معاوية، وعمي في آخر حياته، ومات بمكّة، وقيل: في مصر. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٣/٩٥٦-٩٥٩؛ و**الأعلام** للزركلي، ٤/١١١.

١ وفي هامش م: جمع ثأطة: وهي الحَمْأة. «منه».

٢ بلفظ قريب في **جامع البيان** للطبري، ١٥/٣٧٥-٣٧٦؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٤٥-٥٤٦.

٣ وفي هامش م: وليس مدار الاختلاف هو السماع وإلّا لَما سأل كعبًا سؤاله المذكور. «منه».

٤ وفي هامش م: على الأوّل.

٥ وفي هامش م: على الثاني.

٦ وفي هامش م: على الثالث.

٧ وفي هامش م: هذا ما قالوا. والأظهر هو الرفع على الخبريّة، بتقدير المقدّر قبل ﴿إِمَّا﴾، أي: أمرك إمّا تعذيبُك لهم وإمّا إحسانُك إليهم، أو النصبُ على المفعوليّة، أي: اختر إمّا تعذيبَك لهم وإمّا إحسانَك إليهم. «منه».

٨ س + ذلك.

نبيّ في ذلك العصر، / أو كان ذلك إلهامًا لا وحيًا بعد أن كان ذلك التخيير [٤٢٨ظ] موافقًا لشريعة ذلك النبيّ.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧﴾

﴿قَالَ﴾ أي: ذو القرنين لذلك النبيّ[1] أو لمَن عنده[2] مِن خواصّه بعد ما تلقّى[3] أمره تعالى مختارًا للشقّ الأخير: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: نفسَه ولم يقبل دعوتي وأصرّ على ما كان عليه مِن الظلم العظيم الذي هو الشِّرك ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ بالقتل. وعن قتادةَ أنه كان يطبُخ مَن كفَر في القدور ومَن آمن أعطاه وكساه.[4]

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ فيها ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: منكرًا فظيعًا وهو عذاب النار. وفيه دلالة ظاهرة على أنّ الخطاب لم يكن بطريق الوحي إليه، وأنّ مقاولته كانت مع النبيّ أو مع مَن عنده مِن أهل مشورته.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ بموجَب دعوتي ﴿وَعَمِلَ﴾ عملًا ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدارين ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: فله المثوبة الحسنى أو الفِعلة الحسنى أو الجنّة جزاء، على أنّه مصدر مؤكِّد لمضمون الجملة قُدِّم على المبتدأ اعتناء به، أو منصوب بمضمَر، أي: نجزي بها جزاء، والجملةُ حاليّة أو معترِضة بين المبتدأ والخبر المتقدِّم عليه، أو حال،[5] أي: مجزيًّا بها، أو تمييز. وقُرئ منصوبًا غيرَ منوّن[6] على أنّه سقَط تنوينه لالتقاء الساكنين، ومرفوعًا منوّنًا[7] على أنّه المبتدأ، و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بدله، والخبرُ الجارّ والمجرور.

---

[1] وفي هامش م: على تقدير شمول الخطاب بطريق الوحي إليه. «منه».

[2] وفي هامش م: أي: على التقديرين. «منه».

[3] وفي هامش م: مِن النبيّ أو منه تعالى بطريق الإلهام. «منه».

[4] بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٦. ولم أقف عليه في مظانّه.

[5] السياق: على أنّه مصدر... أو حال...

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والضحّاك وابن أبي إسحاق. المغني في القراءات للنّوزاواري، ص ١١٨١.

وقيل: خُيّر بين القتل والأسْر، والجواب مِن باب الأسلوب الحكيم؛ لأنّ الظاهر التخيير بينهما وهم كفّار، فقال: أمّا الكافر فيُراعى في حقّه قوّة الإسلام وأمّا المؤمن فلا يُتعرَّض له إلّا بما يجب. ويجوز أن تكون ﴿إمّا﴾ و﴿إمّا﴾[1] للتوزيع دون التخيير، أي: ليكن شأنك معهم إمّا التعذيبَ وإمّا الإحسانَ، فالأوّل لمَن بقيَ على حاله والثاني لمَن تاب.

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ممّا نأمر به ﴿يُسْرًا﴾ أي: سهلًا متيسِّرًا غيرَ شاقّ، وتقديره: ذا يُسر، أو أُطلِق عليه المصدر مبالغة، وقُرئ بضمّتين.[2]

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝﴾

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: طريقًا راجعًا مِن مغرِب الشمس موصِلًا إلى مَشرِقها.

[٤٢٩و] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ / يعني الموضِع الذي تطلع عليه الشمس أوّلًا مِن معمورة الأرض. وقُرئ بفتح "اللام"[3] على تقدير مضاف، أي: مكان طلوع الشمس فإنّه مصدر. قيل: بلَغه في اثنتي عشرةَ سنةً. وقيل: في أقلَّ مِن ذلك بناء على ما ذُكر مِن أنه سُخّر له السحاب وطُوي له الأسباب.[4]

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ مِن اللباس والبناء. قيل: هم الزّنج. وعن كعب: أنّ أرضَهم لا تُمسك الأبنية وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب أو البحر، فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم. وعن بعضهم: خرجتُ حتى جاوزت الصينَ فسألت عن هؤلاء فقالوا: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فبلغتُهم فإذا أحدهم يفرُش أُذنه ويلبَس الأخرى ومعي صاحب يعرِف لسانهم، فقالوا له: جئتنا تنظر كيف تطلُع الشمس، قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة

---

١ كلاهما في الكهف، ١٨/٨٦.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعيسى وحُميد وابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٨١.

٤ ما وقفت عليهما فيما بين يديّ مِن المظانّ.

فغُشيَ عليّ ثم أفقتُ وهم يمسحونني بالدُّهن، فلما طلعَت الشمس على الماء إذا هو فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سِزبًا لهم، فلمّا ارتفع النهار خرجوا إلى البحر يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضَج لهم.[١]

وعن مجاهد: مَن لا يلبَس الثيابَ مِن السودان عند مطلِع الشمس أكثرُ مِن جميع أهل الأرض.[٢]

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أمر ذي القرنين كما وصفناه لك في رِفعة المحلّ وبَسطة المُلك، أو أمره فيهم كأمره في أهل المغرِب مِن التخيير والاختيار. ويجوز أن يكون صفةَ مصدر محذوف لـ﴿وَجَدَ﴾ أو ﴿نَجْعَل﴾[٣] أو صفةَ ﴿قَوْمٍ﴾،[٤] أي: على قوم مثل ذلك القَبيل الذي تغرُب عليهم الشمس في الكفر والحُكم، أو سترًا / مثلَ ستركم مِن اللباس والأكنان والجبال وغير ذلك. [٤٢٩ظ]

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ مِن الأسباب والعَدد والعُدد ﴿خُبْرًا﴾ يعني أنّ ذلك مِن الكثرة بحيث لا يحيط به إلّا عِلمُ اللطيف الخبير، هذا على الوجه الأوّل. وأمّا على الوجوه الباقية فالمراد بـ﴿مَا لَدَيْهِ﴾ ما يتناول ما جرى عليه وما صدَر عنه وما لاقاه، فتأمّل.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣﴾

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: طريقًا ثالثًا معترِضًا بين المشرِق والمغرِب آخذًا مِن الجنوب إلى الشمال.

---

١ هذه الأقوال الثلاثة بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٦.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٦.

٣ وفي هامش م: فيها نوع تكلُّف: أمّا في الوجه الأوّل فلأنّ الوجدان في المشبّه متعلّق بالشمس وفي المشبّه به بالقوم، وأمّا في الثاني فلأنّه ليس المشبّه جَعْل حتّى يشبّه به هذا الجَعْل. «منه».

٤ في الآية السابقة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ بين الجبلين اللذين سَدّ ما بينهما، وهو منقطَع أرض التُّرك ممّا يلي المشرِق، لا جبلا إرمينيّةَ وأذربيجان[1] كما تُوهِّم،[2] وقُرئ بالضمّ.[3] قيل: ما كان مِن خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان مِن عمل الخَلْق فهو مفتوح.[4] وانتصاب ﴿بَيْنَ﴾ على المفعوليّة؛ لأنّه مبلوغ، وهو مِن الظروف التي تستعمل أسماء أيضًا كما ارتفع في قوله تعالى: "لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُمْ"[5] [الأنعام، ٩٤/٦]، وانجرّ في قوله تعالى: ﴿فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف، ٧٨/١٨].

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: مِن ورائهما مجاوزًا عنهما ﴿قَوْمًا﴾ أي: أمّة مِن الناس ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لغرابة لغتهم وقلّة فِطنتهم. وقُرئ مِن باب الإفعال،[6] أي: لا يُفهمون السامعَ كلامَهم.

واختلفوا في أنّهم مِن أيّ الأقوام، فقال الضحّاك: هم جيل مِن التُّرك، وقال السُّدّي: التُّرك سريّة مِن يأجوجَ ومأجوجَ، خرجت فضرَب ذو القرنين السَّدّ فبقيت خارجةً فجميع التُّرك منهم، وعن قتادةَ: أنّهم اثنتان وعشرون قبيلةً سدّ ذو القرنين على إحدى وعشرين قبيلةً منهم وبقيت واحدة فسُمّوا التُّركَ لأنّهم تُركوا خارجين.[7]

قال أهل التاريخ: أولاد نوح عليه السلام ثلاثة: سامٌ وحامٌ ويافثُ، فسامٌ أبو العرب والعجم والروم، وحامٌ أبو الحبشة والزَّنج والنُّوبة،[8] ويافثُ أبو التُّرك

---

[1] أَذْرَبيجان: هي اليوم واحدة مِن ستّ دول تركيّة مستقلّة في منطقة القوقاز في أوراسيا تقع في مفترق الطرق بين أوروبا الشرقيّة وآسيا الغربيّة، انظر لِما قيل فيها في المصادر: **معجم البلدان** للحموي، ١٢٨/١.

[2] في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٥٤/٢.

[3] قرأ بها نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة وأبو جعفر ويعقوب وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٣١٥/٢.

[4] وفي هامش م: في الضمّ والفتح ما لا يخفى مِن النكتة. «منه». | والقول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٧/٢.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٧٣.

[6] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٣١٥/٢.

[7] الأقوال الثلاثة في **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٠٢/٥.

[8] النُّوبة: بلاد واسعة عريضة في جنوبيّ مصر. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣٠٩/٥.

والخَزَر[1] والصقالبة[2] ويأجوجَ ومأجوجَ.[3]

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾

/ ﴿قَالُواْ﴾ أي: بواسطة مترجمهم أو بالذات على أن يكون فهمُ ذي القرنين [٤٣٠و] كلامَهم، وإفهامُ كلامِه إيّاهم مِن جملة ما آتاه الله تعالى مِن الأسباب. ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قد ذكرنا أنّهما مِن أولاد يافث بن نوحٍ عليه السلام. وقيل: يأجوجُ مِن التُّرك ومأجوجُ مِن الجِيل.[4] واختُلف في صفاتهم، فقيل: في غاية صِغر الجُثّة وقِصَر القامة لا يزيد قدُّهم على شبر واحد. وقيل: في نهاية عِظَم الجسم وطول القامة يبلغ قدُودهم نحوَ مائة وعشرين ذراعًا وفيهم مَن عَرضه كذلك. وقيل: لهم مخالبُ وأضراس كالسباع.[5] وهما اسمان أعجميّان بدليل مَنْع الصرف، وقيل: عربيّان مِن "أجّ الظليم" إذا أسرَع.[6] وأصلها "الهمزة"، كما قرأ عاصم، وقد قُرئ بغير همزة،[7] ومَنْعُ صرفهما للتعريف والتأنيث.

---

[1] الخَزر: هم جيل خُرز العيون، ينسبون إلى خزر بن يافث بن نوح. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣٦٧/٢.

[2] الصقالبة: مختلف فيهم، قيل: جيل حمر الألوان صُهب الشعور، وقيل: أجناس مختلفة مساكنهم بالحربي إلى شلو المغرب وبينهم حروب، ومنهم نصارى يعقوبيّة، ومنهم لا كتاب له ولا شريعة وهم جاهلون، وقيل: مِن أبناء يافث بن نوح عليه السلام. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٤١٦/٣.

[3] الكلام بلفظ قريب في **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٠٢/٥؛ و**اللباب** لابن عادل، ٥٦٤/١٢. | يأجوج ومأجوج: قيل: هما ابنا يافث بن نوح عليه السلام، وهما قبيلتان مِن خلق. قيل: أربع وعشرون أمّةً، وقيل: هم أمّم كثيرة لا يحصيهم إلّا الله، وهم قصار صلع، عراض الوجوه، يبلغ طول الواحد منهم نصف طول الرجل المربوع لهم مخاليب في مواضع الأظفار، ولهم أضراس وأنياب كالسباع، وقد بنى ذو القرنين سدًّا بينهم وبين الأمّة التي استجارت به منهم. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ١٩٧/٢، ٣٥١-٣٦٩.

[4] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٧/٢. | الجِيل: هم أهل جِيلان؛ وهي بلاد كثيرة مِن وراء بلاد طبرستان، وقد نُسب إليها ما لا يُحصى مِن أهل العلم في كلّ فنّ، وقيل: جيلان ابن يافث بن نوح عليه السلام. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٢٠٢/٢، ٤٢٠/٥.

[5] الأقوال الثلاثة في **اللباب** لابن عادل، ٥٦٤/١٢، وبعضها في **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٠٢/٥؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٧/٢.

[6] القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٥٤/٢.

[7] قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. **النشر** لابن الجزري، ٣١٥/٢.

﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزروع. قيل: كانوا يخرُجون أيّام الربيع فلا يتركون أخضرَ إلّا أكلوه ولا يابسًا إلّا احتملوه. وقيل: كانوا يأكلون الناسَ أيضًا.[١]

﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ أي: جُعْلًا مِن أموالنا. "الفاء" لتفريع العَرض على إفسادهم في الأرض. وقُرئ: "خَرَاجًا"[٢] وكلاهما واحد كـ"النَّول" و"النَّوال". وقيل: الخراجُ ما على الأرض والذِّمة والخَرْج المصدر.[٣] وقيل: الخَرْج ما كان على كلّ رأس والخراجُ ما كان على البلد. وقيل: الخَرْج ما تبرّعتَ به والخَراج ما لزِمك أداؤه.[٤] ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾ وقُرئ بالضمّ.[٥]

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ۝٩٥﴾

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي﴾ بالإدغام، وقُرئ بالفكّ، أي: ما مكّنني ﴿فِيهِ رَبِّي﴾ وجعلني فيه مكينًا قادرًا مِن المُلك والمال وسائر الأسباب ﴿خَيۡرٞ﴾ أي: ممّا تريدون أن تبذلوه إليّ مِن الخَرْج فلا حاجةَ بي إليه ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: بفَعَلة / وصُنّاع [٤٣٠ظ] يُحسنون البناء والعمل وبآلات لا بدّ منها في البناء، و"الفاء" لتفريع الأمر بالإعانة على خيريّة ما مكّنه الله تعالى فيه مِن مالهم أو على عدم قَبول خَرْجهم.

﴿أَجۡعَلۡ﴾ جواب للأمر ﴿بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ﴾ تقديم إضافةِ الظرف إلى ضمير المخاطبين على إضافته إلى ضمير يأجوج ومأجوج، لإظهار كمال العناية بمصالحهم كما راعَوه في قولهم: بيننا وبينهم. ﴿رَدۡمًا﴾ أي: حاجزًا حصينًا وبرزخًا متينًا، وهو أكبر مِن السدّ وأوثقُ، يقال: ثوب مُرَدّم، أي: فيه رِقاع فوق رِقاع، وهذا إسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ۝٩٦﴾

---

[١] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٢.
[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.
[٣] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٤/٢.
[٤] القولان في اللباب لابن عادل، ٥٦٤/١٢-٥٦٥.
[٥] قرأ بها نافع وابن عامر وشعبة ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ جمع "زُبْرة" كـ"غُرَف" في "غُرفة" وهي القطعة الكبيرة، وهذا لا ينافي ردّ خراجهم لأنّ المأمور به الإيتاء بالثمن أو المناولة كما ينبئ عنه القراءة بوَصْل الهمزة، أي: جيئوني بزُبَر الحديد على حَذْف "الباء"، كما في "أمرتُك الخير"، ولأنّ إيتاء الآلة مِن قبيل الإعانة بالقوّة دون الخَراج على العمل، ولعلّ تخصيصَ الأمر بالإيتاء بها[1] دون سائر الآلات مِن الصخور والحطب ونحوهما لِما أنّ الحاجة إليها أمسُّ؛ إذ هي الرُّكن في السدّ ووجودها أعزّ.

قيل: حفَر للأساس حتّى بلغ الماء وجعل الأساسَ مِن الصخر والنحاس المذاب والبنيانَ مِن زُبر الحديد بينها الحطبُ والفحم، حتّى سدّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما، وكان مائةَ فرسخ،[2] وذلك قوله عزّ قائلًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي: آتَوه إيّاها فأخذ يبني شيئًا فشيئًا،[3] حتّى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين مِن البنيان مساويًا لهما في السَّمْك على النهج المحكيّ. قيل: كان ارتفاعه مائتي ذراع وعَرضه خمسين ذراعًا.[4] وقُرئ: "سَوَّى"[5] مِن التسوية و"سُوْوِيَ"[6] على البناء للمجهول.

﴿قَالَ﴾ للعَمَلة ﴿ٱنفُخُواْ﴾ أي: بالكِيران في الحديد المبنيّ ففعلوا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ أي: المنفوخ فيه ﴿نَارًا﴾ أي: كالنار في الحرارة والهيئة. / وإسناد الجعل المذكور إلى ذي القرنين مع أنّه فَعْل الفَعَلة للتنبيه على أنّه العُمدة [٤٣١و] في ذلك وهم بمنزلة آلاته. ﴿قَالَ﴾ للذين يتولَّوْن أمرَ النُّحاس مِن الإذابة ونحوِها: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي: آتوني قِطرًا، أي: نُحاسًا مذابًا أفرِغْ عليه قِطرًا، فحُذف الأوّل لدلالة الثاني عليه. وقُرئ بالوصل،[7] أي: جيئوني كأنّه يستدعيهم للإعانة باليد عند الإفراغ. وإسنادُ الإفراغ إلى نفسه للسرّ الذي وقفت عليه آنفًا، وكذا الكلامُ في قوله تعالى: ﴿سَاوَىٰ﴾، وقولِه تعالى: ﴿أَجْعَلْ﴾.[8]

---

١ وفي هامش م: "الباء" متعلّقة بالتخصيص. «منه».
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٨.
٣ وفي هامش م: فإنّ "حتّى" يستدعي التدريج. «منه».
٤ القول في اللباب لابن عادل، ١٢/٥٦٧.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي أميّة عن أبي بكر عن عاصم. المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١١٨٤.
٧ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٥.
٨ في الآية السابقة.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ۝٩٧﴾

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾ بحذف تاء الافتعال تخفيفًا وحذَرًا عن تلاقي المتقارِبَين، وقُرئ بالإدغام،[١] وفيه جمع بين الساكنين على غير حدّه، وقُرئ بقلب "السين" صادًا،[٢] و"الفاء" فصيحة، أي: فعلوا ما أُمروا به مِن إيتاء القِطْر أو الإتيانِ،[٣] فأفرغَه عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلًا صَلْدًا، فجاء يأجوجُ ومأجوجُ، فقصدوا أن يعلُوه وينقُبوه فما استطاعوا ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلوه ويرقَوا فيه لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لصلابته وثخانته.

وهذه معجزة عظيمة؛[٤] لأنّ تلك الزُبَر الكثيرة إذا أثّرت فيها حرارة النار لا يقدِر الحيوان على أن يحُوم حولها فضلًا عن النفخ فيها إلى أن تكون كالنار، أو عن إفراغ القِطْر عليها فكأنّه سبحانه وتعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للأعمال، فكان ما كان، والله على كلّ شيء قدير.

«وقيل: بناه مِن الصخور مرتبطًا بعضها ببعض بكلاليب مِن حديد ونُحاس مُذاب في تجاويفها»،[٥] بحيث لم يبقَ هناك فُرجة أصلًا.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۝٩٨﴾

[٤٣١ظ] ﴿قَالَ﴾ أي: ذو القرنين لمَن عنده مِن أهل تلك الديارِ وغيرهم / ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى السدّ. وقيل: إلى تمكينه مِن بنائه،[٦] والفضل للمتقدّم، أي: هذا الذي ظهر على يديّ وحصَل بمباشرتي مِن السدّ الذي شأنه ما ذُكر مِن المتانة وصعوبةِ المنال ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي: أثرُ رحمة عظيمة عُبّر عنه بها مبالغة ﴿مِّن رَّبِّي﴾ على كافّة العباد لاسيّما على مجاوريه، وفيه إيذان بأنّه ليس مِن قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة؛ بل هو إحسان إلهي مَحض وإن ظهر بمباشرتي. والتعرُّض لوَصْف الربوبيّة لتربية معنى الرحمة.

---

[١] قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣١٦/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الشُمُوني. المغني في القراءات للنُوزاوازي، ص ١١٨٤.

[٣] وفي هامش م: للإعانة على قراءة الوصل. «منه».

[٤] وفي هامش م: ومَن لا يقول بنبوّته يجعل ذلك معجزةً لنبيّ ذلك العصر. «منه».

[٥] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٦/٢.

[٦] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٦/٢.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾ مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة، لا خروج يأجوجَ ومأجوجَ كما قيل،[١] إذ لا يساعده النظم الكريم. والمراد بمجيئه ما ينتظم مجيئَه ومجيءَ مباديه مِن خروجهم وخروج الدجّال ونزولِ عيسى عليه السلام ونحو ذلك، لا دنوُّ وقوعه فقط كما قيل،[٢] فإنّ بعضَ الأمور[٣] التي ستُحكى يقع بعد مجيئه حتمًا.

﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي: السدَّ المشار إليه مع متانته ورصانته، وفيه مِن الجزالة ما ليس في توجيه الإشارة السابقة إلى التمكين المذكور. ﴿دَكَّآءَ﴾ أي: أرضًا مستوية، وقُرئ: "دَكًّا"،[٤] أي: مدكوكًا مُسوًّى بالأرض، وكلُّ ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندكّ ومنه "الجَمَل الأدَكّ"، أي: المنبسِط السنامِ، وهذا الجَعْل وقت مجيء الوعد بمجيء بعض مباديه، وفيه بيان لعِظَم قدرته عزّ وجلّ بعد بيان سَعة رحمته.

﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي﴾ أي: وعده المعهود، أو كلُّ ما وعَد به، فيدخُل فيه ذلك دخولًا أوّليًا. ﴿حَقّٗا﴾ ثابتًا لا محالةَ واقعًا البتّةَ. وهذه الجملة تذييل مِن ذي القرنين لِما ذكَره مِن الجملة الشرطيّة ومقرِّر[٥] لمضمونها وهو آخرُ ما حُكي مِن قصّته.

﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ﴾ كلام مَسوق مِن جنابه تعالى معطوف على قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾[٦] ومحقِّق لمضمونه، أي: جعلنا بعض الخلائق ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يوم إذ جاء الوعد بمجيء بعض مباديه ﴿يَمُوجُ فِي بَعۡضٖ﴾ آخرَ منهم يضطربون اضطراب أمواج البحر ويختلِط إنسهم وجنّهم حَيارى مِن شدّة الهول، ولعلّ ذلك قبل النفخة الأولى، أو تركنا بعض يأجوجَ ومأجوجَ يموج في بعض آخرَ منهم حين يخرُجون مِن السدّ مزدحِمين في البلاد.

---

١ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٦/٢.
٢ في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٨/٢.
٣ وفي هامش م: كالنفخ في الصور والجمع وعرض جهنّم ونحو ذلك. «منه».
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٥.
٥ م: مؤكّد ["صح" في الهامش].
٦ في الآية السابقة.

رُوي أنّهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابّه ثمّ يأكلون الشجر ومَن ظفِروا به ممّن لم يتحصّن منهم مِن الناس، ولا يقدِرون أن يأتوا مكّة والمدينة وبيت المقدس، ثمّ يبعث الله عزّ وجلّ نَغَفًا[1] في أقفائهم فيدخُل آذانَهم فيموتون موتَ نفس واحدة، / فيرسل الله تعالى عليهم طيرًا فتُلقيهم في البحر، ثمّ يرسِل مطرًا يغسل الأرض ويطهِّرها مِن نَتْنهم حتّى يترُكها كالزَّلَفة،[2] ثمّ يوضع فيها البركة، وذلك بعد نزولِ المسيح عليه الصلاة والسلام وقَتْل الدجّال. [٤٣٢و]

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية بقضيّة "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ﴾. ولعلّ عدمَ التعرّض لذِكر النفخة الأولى لأنّها داهية عامّة ليس فيها حالة مختصّة[3] بالكفّار، ولئلّا يقع الفَصْل بين ما يقع في النشأة الأولى مِن الأحوال والأهوال، وبين ما يقع منها في النشأة الآخرة، أي: جمعنا الخلائق بعدما تفرّقت أوصالهم وتمزّقت أجسادهم في صعيد واحد للحساب والجزاء. ﴿جَمْعًا﴾ أي: جمعًا عجيبًا لا يُكتَنه كُنهه.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أظهرناها وأبرزناها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ جمعنا الخلائق كافّة. ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ منهم حيث جعلناها بحيث يرَونها ويسمعون لها[4] تغيّظًا وزفيرًا. ﴿عَرْضًا﴾ أي: عرضًا فظيعًا هائلًا لا يُقادَر قَدْره. وتخصيص[5] العَرض بهم مع أنّها بمرأى مِن أهل الجمع قاطبةً؛ لأنّ[6] ذلك لأجلهم خاصّة.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ وهم في الدنيا ﴿فِى غِطَآءٍ﴾ كثيف وغِشاوة غليظة مُحاطة بذلك مِن جميع الجوانب. ﴿عَن ذِكْرِى﴾ عن الآيات المؤدّيةِ لأولي الأبصار

---

[1] وفي هامش م: وهو دُود يكون في أنوف الغنَم. «منه». | انظر: لسان العرب لابن منظور، «نغف».
[2] الزَّلَفة: البركة والروضة والمرآة. لسان العرب لابن منظور، «زلف».
[3] س: فخصّة.
[4] س - لها.
[5] وفي هامش م: مبتدأ.
[6] وفي هامش م: خبر.

المتدبِّرين فيها إلى ذِكري بالتوحيد والتمجيد، أو كانت أعين بصائرهم في غطاء عن ذكري على وجه يليق بشأني أو عن القرآن الكريم.

﴿وَكَانُواْ﴾ مع ذلك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لفَرْط تصامّهم عن الحقّ وكمال عداوتهم للرسول صلّى الله عليه وسلّم ﴿سَمْعًا﴾ استماعًا لذِكري وكلامي الحقّ الذي لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلّة السمعيّة، كما أنّ الأوّل تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهَدة بالأبصار. والموصول نعت للكافرين أو بدل منه أو بيان جيء به لذمّهم بما في حيز الصلة وللإشعار بعلّيّته لإصابة ما أصابهم مِن عرَض جهنّمَ لهم، فإنّ ذلك إنّما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عُرض لهم في الدنيا مِن الآيات وإعراضهم عنها مع كونها أسبابًا منجّية عمّا ابتُلوا به في الآخرة.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾﴾

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ / أي: كفروا بي، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿عِبَادِى﴾، والحُسبان بمعنى الظنّ، وقد قُرئ: "أفظَنَّ".[١] والهمزة للإنكار والتوبيخ على معنى إنكار الواقع واستقباحِه، كما في قولك: أضربتَ أباك؟ لا إنكارِ الوقوع،[٢] كما في قوله: أأضرِب أبي؟ و"الفاء" للعطف على مقدَّر يُفصِح عنه الصلة على توجيه الإنكار والتوبيخ إلى المعطوفَين جميعًا، كما إذا قُدِّر المعطوف عليه في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤/٢] منفيًّا، أي: ألا تسمعون فلا تعقلون، لا إلى المعطوف فقط كما إذا قُدِّر مُثبتًا، أي: أتسمعون فلا تعقلون. [٤٣٢ظ]

والمعنى أكفَروا بي مع جلالة شأني فحسِبوا ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ﴾ مِن الملائكة وعيسى وعُزيرٍ عليهم السلام وهم تحت سلطاني وملكوتي ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ معبودين ينصُرونهم مِن بأسي. وما قيل: إنّها للعطف على ما قبلها

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٥٤٩/٢.

٢ وفي هامش م: كما قيل في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾... إلخ [النحل، ٤٥/١٦]، مِن أنّ "الفاء" للعطف على مقدّر تنبئ عنه الصلة، أي: أَمَكَر فأمِن الذين... إلخ.

مِن قوله تعالى: ﴿كَانَتْ﴾... إلخ، ﴿وَكَانُواْ﴾... إلخ،[١] دلالة على أنّ الحُسبان ناشئ مِن التعامي والتصامّ وأُدخِل عليها همزة الإنكار ذمًّا على ذمّ وقطعًا له عن المعطوف عليهما لفظًا لا معنى للإيذان بالاستقلال المؤكِّد للذمّ، يأباه[٢] تَرْكُ الإضمار والتعرّضُ لوَصْف آخرَ غير التعامي والتصامّ على أنّهما أُخرجا مُخرَج الأحوال الجِبِلّيّة لهم، ولم يُذكرا بعنوان[٣] أنّهما مِن أفعالهم الاختياريّة الحادثة كحُسبانهم ليحسُن تفريعه عليهما، وأيضًا فإنّه دِين قديم لهم لا يمكن جعلُه ناشئًا عن تصامّهم عن كلام الله عزّ وجلّ.

وتخصيص الإنكار بحُسبانهم المتأخّر عن ذلك تعسُّف لا يخفى، وما في حيّز صلةِ ﴿أَن﴾ سادٌّ مسدّ مفعولَي ﴿حَسِبَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [المائدة، ٥/٧١]، أي: أفحسبوا أنّهم يتّخذونهم أولياءَ على معنى أنّ ذلك ليس مِن الاتّخاذ في شيء لِما أنّه إنّما يكون مِن الجانبين، وهم عليهم السلام منزّهون عن وَلايتهم بالمرّة لقولهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ، ٣٤/٤١].

وقيل: مفعوله الثاني محذوف، أي: أفحسِبوا اتّخاذهم نافعًا لهم.[٤] والوجهُ هو الأوّل لأنّ في هذا تسليمًا لنفس الاتّخاذ واعتدادًا به في الجملة، وقُرئ: "أفحَسْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا"،[٥] أي: أفمُحسِبهم وكافيهم أن يتّخذوهم أولياء على الابتداء والخبر، أو الفعل والفاعل،[٦] فإنّ النعت إذا اعتمد الهمزة ساوى الفعل في العمل، فالهمزة حينئذ بمعنى إنكار الوقوع.

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ﴾ أي: هيأناها ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ المعهودين، عُدل عن الإضمار ذمًّا لهم وإشعارًا بأنّ ذلك الإعتاد بسبب كفرهم المتضمِّن لحسبانهم الباطل. ﴿نُزُلٗا﴾ أي: شيئًا يتمتّعون به عند ورودهم، وهو ما يقام للنزيل، أي: الضيف ممّا حضَر مِن الطعام، وفيه تخطئة لهم في حسبانهم / وتهكُّم بهم حيث كان [٤٣٣و]

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] السياق: وما قيل... يأباه...

[٣] م ط س: مِن حيث [صُحّح في هامش م].

[٤] في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٥٦.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ والحسن ومجاهد وعاصم ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

[٦] وفي هامش م: وفيه ما فيه مِن نوع تسليم لنفس الاتّخاذ. «منه».

اتّخاذهم إيّاهم أولياءَ مِن قبيل إعتاد العتاد وإعداد الزاد ليوم المعاد، فكأنّه قيل: إنّا أعتدنا لهم مكان ما أعدّوا لأنفسهم مِن العُدة والذُّخر جهنمَّ عُدّة.

وفي إيراد النُّزُل إيماء إلى أنّ لهم وراءَ جهنّمَ مِن العذاب ما هي أنموذج له. وقيل: النُّزل موضع النزول.[١] ولذلك فسّره ابن عبّاس رضي الله عنهما بالمثوى.[٢]

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣﴾

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ الخطاب الثاني للكفرة على وجه التوبيخ، والجَمْع في صيغة المتكلِّم لتعيينه مِن أوّل الأمر، وللإيذان بمعلوميّة النبأ للمؤمنين أيضًا. ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ نصب على التمييز، والجمع للإيذان بتنوّعها، وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدَر عنهم مِن الأعمال الحسَنة في أنفسها، وفي حُسبانهم أيضًا حيث كانوا معجَبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها غِبَّ بيان حالهم باعتبار أعمالهم السيّئة في أنفسها مع كونها حسنةً في حسبانهم.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ في إقامة تلك الأعمال، أي: ضاع وبطَل بالكلّيّة ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلّق بالسعي لا بالضلال لأنّ بُطلان سعيهم غير مختصّ بالدنيا. قيل: المراد بهم أهل الكتابين، قاله ابن عبّاس وسعد بن أبي وقّاص ومجاهد،[٣] ويدخُل في الأعمال حينئذ ما عمِلوه مِن الأحكام المنسوخة المتعلّقة بالعبادات. وقيل: الرَّهابِنة الذين يحبِسون أنفسَهم في الصوامع ويحمِلونها على الرياضات الشاقّة.[٤] ولعلّه ما يعمّهم وغيرَهم مِن الكفرة. ومحلُّ الموصول الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف لأنّه جواب للسؤال، كأنّه قيل: مَن هم؟ فقيل: الذين... إلخ.

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٥٧١/١٢.

٢ في معالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٥.

٣ في جامع البيان للطبري، ٤٢٥/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٩/٢.

٤ مَرويٌّ عن عليّ بن أبي طالب والضحّاك وغيرهما في جامع البيان للطبري، ٤٢٣/١٥؛ وهو بلا عزو في معالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٩/٢.

وجعلُه مجرورًا على أنّه نعت للأخسرين أو بدل منه أو منصوبًا على الذمّ على أنّ الجواب ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾[١] الآية،[٢] يأباه أنّ صدره ليس مُنْبئًا عن خُسران الأعمال وضلال السعي كما يستدعيه مقام الجواب. والتفريع الأوّل وإن دلّ على حبوطها لكنّه ساكتٌ عن إنباء ما هو العُمدة في تحقيق معنى الخسران مِن الوثوق بترتّب الربح واعتقاد النفع فيما صنعوا، على أنّ التفريع الثانيَ ممّا يقطع ذلك الاحتمال رأسًا، إذ لا مجالَ لإدراجه تحت الأمر بقضيّة نون العظمة.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الإحسان الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق، وهو حسنُها الوصفيُّ المستلزِمُ لحُسنها الذاتي، أي: يحسَبون أنّهم يعملون ذلك على الوجه اللائق وذلك لإعجابهم بأعمالهم التي سعَوا في إقامتها وكابدوا في تحصيلها.

[٤٣٣ظ] والجملة حال مِن فاعل ﴿ضَلَّ﴾، / أي: بطَل سعيُهم المذكور، والحال أنّهم يحسَبون أنّهم يُحسنون في ذلك وينتفعون بآثاره، أو مِن المضاف إليه لكونه في محلّ الرفع،[٣] نحو قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس، ٤/١٠]، أي: بطل سعيُهم والحال أنّهم... إلخ. والفرق بينهما أنّ المقارِن لحال حُسبانهم المذكور في الأوّل ضلالُ سعيهم، وفي الثاني نفسُ سعيهم، والأوّل أدخَل في بيان خطئهم.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ كلام مستأنَف مِن جنابه تعالى مَسوق لتكميل تعريف الأخسرين وتبيين سبب خسرانهم وضلال سعيهم وتعيينهم، بحيث ينطبق[٤] على المخاطَبين غيرَ داخل تحت الأمر، أي: أولئك المنعوتون بما ذُكر[٥] مِن ضلال السعي مع الحسبان المزبور. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بدلائله الداعية إلى التوحيد عقلًا ونقلًا، والتعرّض لعنوان الربوبيّة لزيادة تقبيح حالِهم في الكفر المذكور.

---

١ في الآية التالية.

٢ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٧/٢.

٣ وفي هامش م: ولاتّحاد العامل في الحال وصاحبها. «منه».

٤ وفي هامش م: التعريف؛ س + التعريف.

٥ وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾... إلخ. «منه».

﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ بالبعث وما يتبعه مِن أمور الآخرة على ما هي عليه، ﴿فَحَبِطَتْ﴾ لذلك ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ المعهودة حُبوطًا كليًا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ﴾ أي: لأولئك الموصوفين بما مرّ مِن حُبوط الأعمال، وقُرئ بالياء.[1] ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ أي: فنزدريهم ولا نجعل لهم مقدارًا واعتبارًا؛ لأنّ مداره الأعمال الصالحة وقد حبِطت بالمرّة، وحيث كان هذا الازدراء مِن عواقب حبوط الأعمال عُطف عليه بطريق التفريع.

وأمّا ما هو مِن أجزية الكفر فسيجيء بعد ذلك، أو لا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزانًا؛ لأنّه إنّما يُوضَع لأهل الحسنات والسيّئات مِن الموحِّدين ليتميَّز به مقاديرُ الطاعات والمعاصي ليترتَّب عليه التكفير أو عدمه، لأنّ ذلك[2] في الموحِّدين بطريقِ الكمِّيّة، وأمّا الكفر فإحباطه للحسنات بحسب الكيفيّة دون الكمّيّة فلا يُوضَع لهم الميزان قطعًا.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم إثرَ بيان مآل أعمالهم المحبَطة بذلك،[3] أي: الأمر ذلك، وقوله عزّ وجلّ: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملة مبيّنة له، أو ذلك مبتدأ والجملةُ خبره والعائد محذوف، أي: جزاؤهم به، أو ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ بدلُه و﴿جَهَنَّمُ﴾ خبره، أو ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ خبره و﴿جَهَنَّمُ﴾ عطف بيان للخبر. ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ تصريح بأنّ ما ذُكر جزاء لكفرهم المتضمِّن لسائر القبائح التي أنبأ عنها قوله تعالى: / ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ أي: مهزوًّا بهما، فإنّهم لم يقتنعوا بمجرَّد الكفر بالآيات والرسل؛ بل ارتكبوا مثلَ تلك العظيمة أيضًا. [٤٣٤و]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بيان بطريق الوعد لمآل الذين اتّصفوا بأضداد ما اتّصفت به الكفرة إثرَ بيان ما لهم بطريق الوعيد، أي: آمنوا بآيات ربّهم ولقائه ﴿وَعَمِلُوا۟

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير ومجاهد وابن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

[2] وفي هامش م: أي: تكفير الطاعات للمعاصي وإحباط المعاصي للطاعات. «منه».

[3] وفي هامش م: أي: بكفرهم.

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن الأعمال ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ﴾ فيما سبق مِن حُكم الله تعالى ووعده. وفيه إيماءٌ إلى أنّ أثر الرحمة يصل إليهم بمقتضى الرأفة الأزليّة، بخلاف ما مرّ مِن جَعْل جهنّم للكافرين نُزُلًا، فإنّه بموجَب ما حدَث مِن سوء اختيارِهم.

﴿جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾ عن مجاهد: أنّ الفردوس هو البستان بالروميّة.[١] وقال عكرمةُ: هو الجنّة بالحبشيّة. وقال الضحّاك: هي الجنّة الملتفّة الأشجار. وقيل: هي الجنّة التي تُنبت ضروبًا مِن النبات. وقيل: هي الجنّة مِن الكَرْم خاصّة. وقيل: ما كان غالبه كَرْمًا. وقال المبرّد: هو فيما سمعتُ مِن العرب الشجر الملتفُّ، والأغلب عليه أن يكون مِن العِنَب.[٢] وعن كعب: أنّه ليس في الجِنان أعلى مِن جنّة الفردوس، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المُنكَر.[٣] وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «في الجنّة مائة درجة ما بين كلّ درجة مسيرةُ مائة عامٍ، والفردوسُ أعلاها وفيها الأنهار الأربعة، فإذا سألتُم الله تعالى فاسألوه الفِردوسَ فإنّ فوقه عرش الرحمن ومنه تفجّر أنهار الجنّة».[٤]

﴿نُزُلًا﴾ خبرُ ﴿كَانَتۡ﴾ والجارّ والمجرور متعلّق بمحذوف على أنّه حال مِن ﴿نُزُلًا﴾، أو على أنّه بيان أو حال مِن ﴿جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾، والخبرُ هو الجارّ والمجرور، فإن جُعل النزول بمعنى ما يُهيَّأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمار جنّات الفردوس نُزلًا، أو جُعلت نفس الجنّات نُزلًا مبالغةً في الإكرام، وفيه إيذان بأنّها عند ما أعدّ الله لهم على ما جرى على لسان النبوّة مِن قوله: «أعددْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمِعتْ ولا خطرَ على قلب بشر»،[٥] بمنزلة النُّزل بالنسبة إلى الضيافة، وإن جُعل بمعنى المُنزل، فالمعنى ظاهر.

---

[١] جامع البيان للطبري، ٤٣٢/١٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٥؛ اللباب لابن عادل، ٥٧٥/١٢.

[٢] هذه الأقوال الستّة في اللباب لابن عادل، ٥٧٥/١٢-٥٧٦؛ وأكثرها في معالم التنزيل للبغوي، ٢١١/٥-٢١٢.

[٣] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٤٣١/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٥.

[٤] بلفظ قريب في صحيح البخاري؛ وجامع البيان للطبري، ٤٣٤/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١١/٥.

[٥] مضى بتخريجه في هامش للمُصنِّف عند الكلام على الآية الثامنة بعد المائة مِن سورة هود.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ نصب على الحالية ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ مصدر كـ"العِود" و"الصِغَر"، أي: لا يطلبون تحوّلًا عنها، إذ لا يُتصوَّر أن يكون شيء أعزَّ عندهم وأرفعَ منها حتّى تُنازِعهم إليه أنفسهم وتطمَح نحوه أبصارهم. ويجوز أن يراد نفيُ التحوّل وتأكيدُ الخلود، والجملة حال مِن صاحب ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أو مِن ضميره فيه، فيكون حالًا متداخِلة.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ أي: جنس البحر ﴿مِدَادٗا﴾ وهو ما تُمِدّ به الدواة مِن الحِبْر ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ لتحرير كلماتِ عِلمه وحكمته التي مِن جملتها ما ذُكِر مِن الآيات الداعية إلى التوحيد المحذِّرة مِن الإشراك ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ مع كثرته، ولم يبقَ منه شيء / لتناهيه ﴿قَبۡلَ أَن تَنفَدَ﴾ وقُرئ بالياء،[1] والمعنى مِن غير أن تنفَد ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ لعدم تناهيها، فلا دلالةَ للكلام على نَفادها بعد نَفاد البحر. [٤٣٤ظ]

وفي إضافة الكلمات إلى اسم الربّ المضاف إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم في الموضعين مِن تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى. وإظهار ﴿ٱلۡبَحۡرُ﴾ و"الكلماتِ" في موضع الإضمار لزيادة التقرير.

﴿وَلَوۡ جِئۡنَا﴾ كلام مِن جهته تعالى غيرُ داخل في الكلام الملقَّن، جيء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله مع زيادة مبالغة وتأكيد، و"الواو" لعطف الجملة على نظيرتها المستأنَفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة، أي: لنفِد البحر مِن غير نَفاد كلماته تعالى لو لم نجِئ بمثله مَدَدًا، ولو جئنا بقدرتنا الباهرة ﴿بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ عونًا وزيادة؛ لأنّ مجموع المتناهيَين مُتناهٍ، بل مجموع ما يدخل تحت الوجود مِن الأجسام لا يكون إلّا متناهيًا لقيام الأدلّة القاطعة على تناهي الأبعاد.

---

[1] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٦.

وقُرئ: "مِدَدًا"[١] جمع "مِدّة": وهي ما يستمدّه الكاتب، وقُرئ: "مِدَادًا".[٢]

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾

﴿قُلۡ﴾ لهم بعد ما بيّنتَ لهم شأن كلماته تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ لا أدّعي الإحاطة بكلماته التامّة ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مِن تلك الكلماتِ ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ لا شريكَ له في الخَلْق ولا في سائر أحكام الألوهيّة، وإنّما تميَّزتُ عنكم بذلك.

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الرجاء: توقُّع وصول الخير في المستقبل. والمراد بلقائه تعالى كرامتُه. وإدخالُ الماضي على المستقبل للدلالة على أنّ اللائق بحال المؤمن الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء، أي: فمَن استمرّ على رجاء كرامته تعالى، ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ﴾ لتحصيل تلك الطِّلبة العزيزة ﴿عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ في نفسه لائقًا بذلك المرجوِّ كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ إشراكًا جليًّا كما فعله الذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه، ولا إشراكًا خفيًّا كما يفعله أهل الرياء ومَن يطلب به أجرًا. وإيثار وضعِ المُظهَر موضعَ المُضمر في الموضعين[٣] مع التعرّض لعنوان الربوبيّة لزيادة التقرير، وللإشعار بعلّيّة العنوان / للأمر والنهي ووجوب الامتثال فعلًا وتَركًا. [٤٣٥و]

رُوي أنّ جُندُب بن زهير[٤] رضي الله عنه قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّي لأعمل العمل لله تعالى فإذا اطُّلع عليه سرّني»، فقال عليه السلام:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والنقّاش عن مجاهد. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٥؛ **المغني في القراءات** للنّوْزاوازي، ص ١١٨٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس والأعمش ومجاهد وحُميد والأعرج وابن مِقسَم وابن مُحيصن وسليمان التّيمي. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٥؛ **المغني في القراءات** للنّوْزاوازي، ص ١١٨٨.

[٣] وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ وقوله تعالى: ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦ﴾. «منه».

[٤] هو جندب بن زهير بن الحارث بن كثير بن سبع بن مالك الأزدي الغامدي، مختلف في صحبته للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قيل: كان مع عليّ في صفّين، وهو عند أكثرهم قاتل الساحر بين يدي الوليد بن عقبة. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٢٥٨/١؛ **والإصابة** لابن حجر، ٥٠٧/١.

«إن الله لا يقبل ما شُورك فيه»،[١] فنزلت تصديقًا له. ورُوي أنّه عليه السلام قال له: «لك أجران أجْر السرّ وأجْر العلانية»،[٢] وذلك إذا قصد أن يُقتدى به. وعنه عليه السلام: «اتّقوا الشِّرك الأصغر»، قيل: «وما الشِّركُ الأصغرُ؟» قال: «الرِّياء».[٣]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الكهف مِن آخرها كانت له نورًا مِن قَرْنه[٤] إلى قدَمه، ومَن قرأها كلَّها كانت له نورًا مِن الأرض إلى السماء».[٥]

وعنه عليه السلام: «مَن قرأ عند مضجعه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾... إلخ [الكهف، ١٨/١١٠]، كان له مِن مضجعه نورًا يتلألأ إلى مكّةَ، حَشْوُ ذلك النورِ ملائكة يصلّون عليه حتّى يقوم، وإن كان مضجعه بمكّةَ كان له نورًا يتلألأ مِن مضجعه إلى البيت المعمور، حَشْوُ ذلك النور ملائكة يصلّون عليه حتّى يستيقظ».[٦]

الحمد لله سبحانه على نعمه العِظام، وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل.[٧]

---

١ أسباب النزول للواحدي، ص ٣٠٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٥٠.

٢ سنن ابن ماجه، ٥/٣٠٥ (٤٢٢٦)؛ سنن الترمذي، ٤/٣٩٦ (٢٣٨٤)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٩/٢٤١ (٦٦١٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٥٠.

٣ معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٥١. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/٣١٥-٣١٦.

٤ وفي هامش م: والقَرْن: جانب الرأس.

٥ الحديث بمعناه في سنن الدارمي، ٤/٢١٤٣ (٣٤٥٠)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٤/٨٦ (٢٢٢٠)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢١٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٥١.

٦ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ١٧/٣١٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٥١. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/٣١٧.

٧ ط س - وحسبنا الله ونعم الوكيل. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد بفضل الله سبحانه، غُرّةَ ذي القعدة الحَرام، لسنة سبع وخمسين وتسعمائة، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين. والله عزّ سلطانه أسأل متضرّعًا أن ييسّر لي إعادةَ النظر إليه بلطفه وفضله وإتمامَه بمنّه وكرمه، إنّه هو البرّ الكريم، وصلّى الله على جميع الأنبياء والملائكة أجمعين.

/ سورة مريم [١ظ]

ثمانٍ وتسعون آيةً، كلُّها مكّيّة إلّا آيةَ السجدة.[١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ٣﴾

﴿كٓهيعٓصٓ﴾ بإمالة الهاء والياء[٢] وإظهار الدال.[٣] وقُرئ بفتح الهاء وإمالةِ الياء،[٤] وبتفخيمهما،[٥] وبإخفاء النون قبل الصادِ لتقارُبهما.[٦] وقد سلف أنّ ما لا تكون مِن هذه الفواتح مُفرَدةً ولا مُوازِنةً لمُفرَد فطريقُ التلفُّظ بها الحكاية فقط ساكنة الأعجاز على الوقف، سواءً جُعلت أسماءً للسوَر أو مَسرودةً على نمط التعديد، وإن لَزِمها التقاء الساكنين لكونه مُغتفرًا في باب الوقف قطعًا،[٧] فحقُّ هذه الفاتحة الكريمة أن يُوقَف عليها جريًا على الأصل. وقُرئ بإدغام الدال فيما بعدها لتقارُبهما في المَخرَج.[٨]

فإن جُعلت اسمًا للسورة على ما[٩] عليه إطباقُ الأكثر فمحلّه الرفع، إمّا على أنّه خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، أي: مُسمًّى به. وإنّما صحَّت الإشارة إليه مع عدم جرَيان ذِكْره؛ لأنّه باعتبار كونِه على جناح الذِّكر صار في حُكم الحاضر المُشاهَد، كما يقال: "هذا ما اشترى فلان"؛ أو على أنّه مبتدأ،

---

١ س: سورة مريم عليها السلام، وهي تسعون وثمان آيات.

٢ قرأ بها الكسائي وعاصم في رواية أبي بكر عنه. النشر لابن الجزري، ٦٧/٢-٦٨.

٣ قرأ بإظهار الدال التي في لفظ "صاد" نافع وابن كثير وعاصم ويعقوب. النشر لابن الجزري، ١٧/٢.

٤ قرأ بها ابن عامر وحمزة. النشر لابن الجزري، ٦٨/٢.

٥ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٦-٢٩٧.

٦ قرأ بها العشرة إلّا أبا جعفر. المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١٩١.

٧ سلف في الكلام على الآية الأولى من سورة البقرة.

٨ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ١٧/٢.

٩ س + هي.

خبرُه ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: المُسمّى به ذِكْر رحمة... إلخ، فإنّ ذِكْرها لمّا كان مَطلَعَ السورة الكريمة ومُعظمَ ما انطوت هي عليه جُعلت كأنّها نفسُ ذِكْرها. والأوّل هو الأَولى؛ لأنّ ما يُجعَل عنوانًا للموضوع حقُّه أن يكون معلومَ الانتساب إليه عند المُخاطَب، وإذ لا عِلمَ بالتسمية مِن قَبلُ فحقُّها الإخبار بها كما في الوجه الأوّل.

وإن جُعلت مَسرودةً على نمط التعديد حسبما جنَح إليه أهل التحقيق فـ﴿ذِكْرُ﴾... إلخ خبرٌ لمبتدأ محذوف هو ما يُنبئ عنه تعديد الحروف، كأنّه قيل: المُؤلَّف مِن جنس هذه الحروف المَبسوطة مُرادًا به السورةُ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ﴾... إلخ؛ أو اسمُ إشارة أُشير به إليه تنزيلًا لحضور المادّة مَنزِلة المُؤلَّف منها، أي: هذا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ﴾... إلخ. وقيل: هو مبتدأ قد حُذف خبره، أي: فيما يتلى عليك ذِكْرها.[١] وقُرئ "ذَكَّرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ"[٢] على صيغة الماضي مِن التذكير، أي: هذا المَتلوُّ ذَكَّرها. وقُرئ "ذَكِّرْ"[٣] على صيغة الأمر.

والتعرُّض لوصف الربوبيّة المُنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإيذان بأنّ تنزيل السورة عليه عليه السلام تكميل له عليه لسلام.

وقوله تعالى: ﴿عَبْدَهُۥ﴾ مفعول لـ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ على أنّها مفعول لِما أُضيف إليها.[٤] وقيل: لـ"الذِّكر" على أنّه مصدر أُضيف إلى فاعله على الاتِّساع.[٥] ومعنى ذِكْر الرحمة بلوغُها وإصابتُها، كما يقال: ذكَرني معروفُ فلان، أي: بلغني.[٦] وقوله عزّ وعلا: ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدل منه، أو عطف بيانٍ له.

[٢و] ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ ظرف لـ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾. وقيل: / لـ﴿ذِكْرُ﴾[٧] على أنّه مضاف إلى فاعله اتِّساعًا لا على الوجه الأوّل[٨] لفساد المعنى.[٩] وقيل:

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٩/١.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن يحيى بن يعمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن يحيى بن يعمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.

٤ انظر هذا الوجه في معاني القرآن للأخفش، ٤٣٧/٢.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٩/١-٣٦٠.

٦ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٩/١-٣٦٠.

٧ القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥٦٣/٥؛ واللباب لابن عادل، ٦/١٣.

٨ م: وهو كون الذِّكر مضافًا إلى مفعوله. «منه».

٩ م: لأنّ الذِّكر ليس في وقت النِّداء. «منه».

هو بدل اشتمال مِن ﴿زَكَرِيَّا﴾ كما في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ [مريم، ١٩/١٦].[1]

ولقد راعى عليه السلام حُسن الأدب في إخفاء دُعائِه، فإنّه مع كونه بالنسبة إليه عزّ وجلّ كالجهر أَدخَلُ في الإخلاص وأَبعَدُ مِن الرِّياء وأقربُ إلى الخلاص عن لائمة الناس على طَلَب الولد، لتوقُّفه على مبادٍ[2] لا يَليق به تعاطيها في أوان الكِبَر والشيخوخة، وعن غائلة مَواليه الذين كان يخافهم. وقيل: كان ذلك منه عليه السلام لضَعف الهرَم. قالوا: كان سِنُّه حينئذ ستّين، وقيل: خمسًا وستّين، وقيل: سبعين، وقيل: خمسًا وسبعين، وقيل: ثمانين، وقيل: أكثرَ منها،[3] كما مرّ في تفسير سورة آل عِمران.[4]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④﴾

﴿قَالَ﴾ جملة مُفسِّرة لـ﴿نَادَىٰ﴾[5] لا محلَّ لها مِن الإعراب. ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ إسناد الوهن إلى العَظْم لِما أنّه عماد البدن ودِعام الجَسد، فإذا أصابه الضَّعف والرخاوة أصاب كُلَّه، أو لأنّه أشدُّ أجزائه صلابة وقِوامًا وأقلُّها تأثُّرًا مِن العِلَل، فإذا وهَن كان ما وراءه أَوهَنَ. وإفراده للقصد إلى الجنس المُنبئ عن شمول الوَهْن لكلّ فردٍ مِن أفراده. و﴿مِنِّي﴾ مُتعلِّق بمحذوف هو حال مِن ﴿ٱلْعَظْمُ﴾. وقُرئ "وَهِنَ" بكسر الهاء وبضمّها أيضًا.[6] وتأكيد الجملة لإبراز كمال الاعتناءِ بتحقيق مضمونها.

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شبّه عليه السلام الشيبَ في البياض والإنارة بشُواظ النار، وانتشارَه في الشعر وفُشوِّه[7] فيه وأخذَه منه كلَّ مأخَذ باشتعالها، ثمّ أخرجه

---

[1] القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥/٥٦٣؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٦.

[2] ط س: مبادئ. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[3] هذه الأقوال جميعها في الكشّاف للزمخشري، ٣/٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٠.

[4] في الكلام على الآية الأربعين منها.

[5] في الآية السابقة.

[6] قراءتان شاذّتان، غير منسوبتين. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.

[7] كذا ضُبطت في نسخة المؤلّف.

مُخرجَ الاستعارة، ثم أَسند الاشتعالَ إلى مَحلّ الشَّعر ومَنبته، وأخرجه مُخرج التمييز، وأطلَق الرأسَ اكتفاءً / بما قيّد به العَظْم. وفيه مِن فنون البلاغة وكمال [٢ظ] الجزالة ما لا يخفى، حيث كان الأصل: "اشتعل شيبُ رأسي" فأسنَد الاشتعال إلى الرأس -كما ذُكر- لإفادة شمولِه لكلّها، فإنّ وِزانه بالنسبة إلى الأصل وِزان "اشتعل بيته نارًا" بالنسبة إلى "اشتعل النار في بيته"، ولزيادة تقريره بالإجمال أوّلًا والتفصيل ثانيًا ولمَزيد تفخيمه بالتنكير. وقُرئ بإدغام السين في الشين.[١]

﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ أي: لم أكن بدعائي إيّاك خائبًا في وقت مِن أوقات هذا العمر الطويل؛ بل كلّما دعوتُك استجبتَ لي. والجملة معطوفة على ما قبلها، أو حال مِن ضمير المُتكلِّم، إذِ المعنى واشتعل رأسي شيبًا. وهذا توسُّل منه عليه السلام بما سلف منه مِن الاستجابة عند كلّ دعوة إثرَ تمهيدِ ما يستدعي الرحمة ويَستجلِب الرأفة من كِبَر السنّ وضَعْف الحال، فإنّه تعالى بعد ما عوَّد عبده بالإجابة دهرًا طويلًا لا يكاد يُخيِّبه أبدًا لاسيّما عند اضطراره وشدّة افتقاره.

والتعرّض في الموضوعَين لوَصْف الربوبيّة المُنبِئة عن إضافة ما فيه صلاح المَربوب، مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام، / لاسيّما توسيطُه بين "كان" [٤٨ظ] وخبرها لتحريك سلسلة الإجابة بالمُبالغة في التضرُّع. ولذلك قيل: إذا أراد العبد أن يُستجاب له دُعاؤه فليَدعُ الله تعالى بما يُناسبه مِن أسمائه وصفاتِه.

﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾

﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَهَنَ﴾[٢] مُترتِّب مضمونه على مضمونه، فإنّ ضَعْف القُوى وكِبَر السنّ مِن مَبادي خوفه عليه السلام مَن يلي أمرَه بعد موته. ومَواليه: بنو عمّه وكانوا شِرارَ بني إسرائيلَ فخاف ألّا يُحسِنوا / خلافتَه في أُمّته ويُبدِّلوا عليهم دينهم. [٣و]

---

[١] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ١/٢٩٢. [٢] في الآية السابقة.

وقوله: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي: بعد موتي، مُتعلِّق بمَحذوف يَنساق إليه الذِّهن، أي: فِعلَ المَوالي مِن بعدي، أو جَور المَوالي، وقد قُرئ كذلك.[١] أو بما في المَوالي مِن معنى الوِلاية، أي: خِفتُ الذين يَلُون الأمر مِن ورائي لا بـ﴿خِفْتُ﴾ لفساد المعنى. وقُرئ "وَرَايَ" بالقصر وفتح الياء،[٢] وقُرئ "خَفَّتِ المَوَالي مِن وَرَائِي"،[٣] أي: قلُّوا وعجَزوا عن القيام بأمور الدِّين بعدي، أو خفَّت المَوالي القادرون على إقامة مَراسم المِلّة ومَصالح الأمّة مِن خفَّ القوم، أي: ارتحلوا مُسرعين، أي: درَجوا قُدّامي ولم يبقَ منهم مَن به تَقوٍّ واعتضادٌ.[٤] فالظرف حينئذ مُتعلِّق بـ"خفَّتْ". ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي: لا تلِد مِن حين شبابها.

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ كلا الجارّين مُتعلِّق بـ﴿هَبْ﴾ لاختلاف معنييهما، فاللام صلة له، و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية مَجازًا. وتقديم الأوّل لكون مدلوله أهمَّ عنده، ويجوز تعلُّق الثاني بمحذوف وقع حالًا[٥] مِن المفعول. و"لَدُنْ" في الأصل ظرف بمعنى أوّل غايةِ زمانٍ أو مكان أو غيرِهما مِن الذوات، وقد مرّ تفصيله في أوائل سورة آل عمران، أي: أعطِني مِن مَحْض فضلِك الواسع وقدرتِك الباهرة بطريق الاختراع لا بواسطة الأسباب العاديّة.

﴿وَلِيًّا﴾ أي: ولدًا مِن صُلبي. وتأخيره عن الجارَّين لإظهار كمال الاعتناء بكون الهِبة له على ذلك الوجه البديع مع ما فيه مِن التشويق إلى المُؤخَّر، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفسُ مُستشرِفة له فعند وروده لها يتمكَّن عندها فَضْل تمكُّن، ولأنّ فيه نوعَ طُول بما بعده مِن الوصف، فتأخيرهما عن الكلّ أو توسيطهما بين الموصوف والصفة ممّا لا يليق بجزالة النظم الكريم.

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الزُّهري. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥/٥٦٦؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٨.

[٢] قرأ بها ابن كثير. السبعة لابن مجاهد، ص ٤٠٧.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عثمان بن عفّان وابن عبّاس وسعيد بن جبير ومحمد بن عليّ وعليّ بن الحسَن وزيد بن ثابت والوليد بن مُسلم وابن مِقسَم والجُعفي والأهوازي عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٧؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٩٣.

[٤] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٦.

[٥] وفي هامش م: إذ لو تأخّر صار صفةً له. «منه».

[٣ظ] والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ ما / ذكَره عليه السلام مِن كِبَر السنّ وضَعْف القُوى وعُقر المَرأة مُوجِب لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسّط الأسباب العاديّة واستيهابه على الوجه الخارق للعادة، ولا يَقدَح في ذلك أن يكون هناك[1] داعٍ آخرُ إلى الإقبال على الدعاء المذكورِ مِن مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرة في حقّ مريمَ، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ الآية، [آل عمران، ٣٨/٣]. وعدمُ ذِكره ههنا للتعويل على ذِكره هناك، كما أنّ عدم ذِكر مُقدِّمة الدعاء هناك للاكتفاء بذِكره ههنا، فإنّ الاكتفاء بما ذُكر في مَوطِن عمّا تُرك في مَوطَن آخرَ مِن النُّكت التنزيليّة.

وقوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي﴾ صفة لـ﴿وَلِيًّا﴾. وقُرئ هو وما عُطف عليه بالجزم[2] جوابًا للدعاء، أي: يرثني مِن حيث العِلمُ والدِّين والنبوّة، فإنّ الأنبياء عليهم السلام لا يُورِّثون المالَ، قال عليه السلام: «نحن معاشرَ الأنبياءِ لا نُورَث، ما تركنا صدقة».[3] وقيل: يَرِثني الحُبورة وكان عليه السلام حَبْرًا.[4]

﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يقال: ورِثه وورِث منه لغتان.[5] وآلُ الرجل: خاصَّته الذين يَئول إليه أمرهم للقَرابة أو الصُّحبة أو المُوافَقة في الدِّين. وكانت زوجة زكريًا أختَ أمّ مريمَ، أي: ويَرِث منهم المُلكَ.

قيل: هو يعقوبُ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ عليهم السلام. وقال الكلبيُّ ومُقاتل: هو يعقوبُ بنُ ماثانَ أخو عمرانَ بنِ ماثانَ مِن نسل سليمانَ عليه السلام، وكان آلُ يعقوبَ أخوال يحيى بن زكريًا، قال الكلبيّ: كان بنو ماثانَ رءوسَ بني إسرائيلَ وملوكَهم، وكان زكريًا رئيسَ الأحبار يومئذ، فأراد أن يَرِثه ولدُه حُبورتَه ويَرثَ من بني ماثانَ مُلكَهم.[6]

---

[1] س: هنا.

[2] قرأ بها أبو عمرو والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

[3] بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٨٨/١ (٩)؛ وصحيح البخاري، ٧٩/٤ (٣٠٩٣)؛ وصحيح مسلم، ١٣٧٧/٣ (١٧٥٧).

[4] القول في الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

[5] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

[6] هذه الأقوال جميعها في اللباب لابن عادل، ١٤/١٣.

وقُرئ "ويَرِثُ وارثَ آلِ يَعقُوبَ"[١] / على أنّه حال مِن المُستكِنّ في ﴿يَرِثُ﴾، [٤٩و] وقُرئ: "أُوَيْرِثَ آلِ يَعقُوبَ"[٢] بالتصغير، ففيه إيماء إلى وِراثته عليه السلام، لِما يَرِثه في حالة صِغَره. وقُرئ: "وَارِثٌ مِن آلِ يَعقُوبَ"[٣] على أنّه فاعلُ ﴿يَرِثْني﴾ على طريقة التجريد، أي: يَرِثْني به وارث. وقيل: ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، إذ لم يكن كلُّ آل يعقوبَ عليه السلام أنبياءَ ولا علماءَ.[٤]

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ مَرضيًا عندك قولًا وفعلًا. وتوسيطُ ﴿رَبِّ﴾ بين مفعولَي الجَعْل للمُبالغة في الاعتناء بشأن ما يَستدعيه.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾

﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ على إرادة القول، أي: قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ لكن لا بأن يُخاطِبه عليه السلام بذلك بالذات؛ بل بواسطة المَلَك، على أن يَحكيَ له[٥] عليه السلام هذه العبارة عنه عزّ وجلّ على نهج قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ الآية، [الزمر، ٥٣/٣٩]. وقد مرّ تحقيقه في سورة آل عمران.[٦]

وهذا جواب لندائه عليه السلام ووعدٌ بإجابة دعائه، لكن لا كُلًّا كما هو المُتبادر مِن قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ إلخ، [الأنبياء، ٩٠/٢١]؛ بل بعضًا حسبما تقتضيه المَشيئة الإلهيّة المَبنيّة على الحِكَم البالغة، فإنّ الأنبياء عليهم السلام وإن كانوا مُستجابي الدعوةِ لكنّهم ليسوا كذلك في جميع الدعوات. ألا يُرى إلى دعوة إبراهيمَ عليه السلام في حقّ أبيه، وإلى دعوة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حيث قال: «وسألتُه ألّا يُذيق بعضهم بأس بعض فمَنعنيها».[٧]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والجَحدري. الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير والجَحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

٣ مع جزم الفعل. قراءة شاذّة، مرويّة عن علي وابن عبّاس ويحيى بن يعمر والحسن وقتادة والجَحدري وجعفر بن محمّد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٩٤.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

٥ م: أي: المَلَك. «منه».

٦ في الكلام على الآية التاسعة والثلاثين منها.

٧ مسند أحمد، ٤٤٩/٣٦ (٢٢١٣٦)؛ سنن الترمذي، ٤٧١/٤ (٢١٧٥)؛ المعجم الكبير للطبراني، ٢٨٠/٢ (٢١٧١).

وقد كان مِن قضائه عزّ وعلا أن يَهَبه يحيى نبيًا مَرضيًّا ولا يَرِثه، فاستُجيب دعاؤُه في الأوّل دون الثاني حيث قُتل قبل موت أبيه عليهما السلام على ما هو المشهورُ. وقيل: بقي بعده بُرهةً فلا إشكالَ حينئذ.[١]

وفي تعيين اسمه عليه السلام تأكيد للوعد وتشريف له عليه السلام. وفي تخصيصه به حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: شريكًا له في الاسم، حيث لم يُسمَّ أحد قبله بيحيى، مزيدُ تشريفٍ وتفخيم له[٢] عليه السلام، فإنّ التسمية بالأسامي البديعة المُمتازة عن أسماء / سائر الناس تنويه بالمُسمّى لا محالةَ. [٤ظ] وقيل: سَميًّا شبيهًا في الفضل والكمال كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم، ١٩/٦٥]، فإنّ المُتشارِكين في الوصف بمنزلة المُتشارِكين في الاسم.[٣]

قالوا: لم يكن له عليه السلام مِثْل في أنّه لم يعصِ الله تعالى، ولم يَهُمَّ بمعصية قطّ، وأنّه وُلِد مِن شيخ فانٍ وعجوز عاقر، وأنّه كان حَصورًا. فيكون هذا إجمالًا لِما نزَل بعده مِن قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران، ٣/٣٩]. والأظهر أنه اسم أعجمي، وإن كان عربيًا فهو مَنقول عن الفعل كـ"يَعمَرَ" و"يَعيشَ".[٤] قيل: سُمّي به لأنّه حيِيَ به رحِمُ أُمّه، أو حيِيَ دينُ الله تعالى بدعوته.[٥]

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مَبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال عليه السلام حينئذ؟ فقيل: ﴿قال﴾: ﴿رَبِّ﴾. ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى إليه بتوسُّط المَلَك، للمبالغة في التضرُّع والمناجاة، والجِدِّ في التبتُّل إليه تعالى، والاحترازِ عمّا عسى يُوهِم خطابُه للمَلَك مِن توهُّم أنّ عِلمه تعالى بما يَصدُر عنه مُتوقِّف على توسُّطه، كما أنّ عِلم البشر بما يصدُر عنه سبحانه مُتوقِّف على ذلك في عامّة الأوقات.

---

١ ما وجدتُه فيما وقفتُ عليه من المصادر.
٢ السياق: وفي تخصيصه به... مَزيد تشريف...
٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٦.
٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٦.
٥ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦١.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ كلمة ﴿أَنَّىٰ﴾ بمعنى "كيف" أو "مِن أين". و"كان" إمّا تامّة و﴿أَنَّىٰ﴾ واللام مُتعلِّقتان بها. وتقديم الجارّ على الفاعل لِما مرّ مِرارًا مِن الاعتناء بما قُدِّم والتشويق إلى ما أُخِر، أي: كيف أو مِن أين يحدُث لي غلام؟ ويجوز أن تتعلَّق اللام بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿غُلَٰمٌ﴾، إذ لو تأخَّر لكان صفةً له، أي: أنّى يحدُث كائنًا لي غلام؛ أو ناقصة[1] اسمُها ظاهر، وخبرُها إمّا ﴿أَنَّىٰ﴾، و﴿لِي﴾ مُتعلِّق بمحذوف، كما مرّ؛ أو هو الخبر، و﴿أَنَّىٰ﴾ نَصْب على الظرفيّة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ حال مِن ضمير المُتكلِّم بتقدير "قد"، وكذا / قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ حال منه مُؤكِّدة للاستبعاد إثرَ [٥و] تأكيد، أي: كانت امرأتي عاقرًا لم تلِد في شبابها وشبابي، فكيف؟ وهي الآن عجوز، وقد بلغتُ أنا مِن أجل كِبَر السنّ جَساوة وقُحولًا[2] في المَفاصل والعِظام؛ أو بلغتُ مِن مَدارج الكِبَر ومراتبه ما يُسمَّى عِتيًّا مِن عتا يعتو، وأصله: "عُتُووٌ" كـ"قُعود"، فاستُثقل توالي الضمّتين والواوين فكُسرت التاء فانقلبت الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، ثمّ قُلبت الثانية أيضًا لاجتماع الواو والياء وسَبْقِ إحداهما بالسكون، وكُسرت العين إتباعًا لها لِما بعدها. وقُرئ بضمِّها.[3]

ولعلّ البدايةَ ههنا بذِكر حال امرأته على عكس ما في سورة آل عمرانَ لِما أنّه قد ذُكر حاله في تضاعيف دعائه، وإنّما المذكور ههنا بلوغه أقصى مراتب الكِبَر تتمّة لِما ذُكر قبلُ، وأمّا هنالك فلم يَسبِق في الدُّعاء ذِكر حاله، فلذلك قدّمه على ذِكر حال امرأته لِما أنّ المسارعة إلى بيان قصور شأنه أنسب، وإنّما قاله عليه السلام مع سَبْق دعائه بذلك وقوّة يقينه بقُدرة الله عزّ وجلّ -لاسيّما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آلِ عمران- استعظامًا لقدرة الله تعالى وتعجيبًا مِنها واعتدادًا بنعمته تعالى عليه في ذلك بإظهار أنّه مِن مَحض لُطف الله عزّ وجلّ وفضله، مع كونه في نفسه مِن الأمور المُستحيلة عادة لا استبعادًا له.

---

١ السياق: و"كان" إمّا تامّة... أو ناقصة...

٢ جسا الرجُل جَسْوًا وجُسُوًّا: صلُب. ويد جاسية: يابسة العظام قليلة اللحم. وجسا الشيخ جُسُوًّا: بلغ غاية السِّنّ. والقُحول: اليُبس. لسان العرب لابن منظور، «جسا»، «قحل».

٣ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

وقيل: إنّما قاله ليُجابَ بما أُجيب به فيزداد المؤمنون إيقانًا ويَرتدع المُبطلون.[١] وقيل: كان ذلك منه عليه السلام استفهامًا عن كيفيّة حدوثه. وقيل: بل كان ذلك بطريق الاستبعاد، حيث كان بين الدعاء والبِشارة ستّون سنةً، وكان قد نسِيَ دعاءَه، وهو بعيد.[٢]

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩﴾

[٥ظ] / ﴿قَالَ﴾ استئناف كما مرّ مَبنيّ على سؤال نشأ ممّا سلف. والكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ مُقحمَة كما في: "مِثلُك لا يَبخل"، مَحلُّها:

إمّا النصب على أنّه مَصدر تشبيهيّ[٣] لـ﴿قَالَ﴾ الثاني، و"ذلك" إشارة إلى مصدره الذي هو عبارة عن الوعد السابقِ لا إلى قولٍ آخرَ شُبّه هذا به، وقد مرّ تحقيقُه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢].

وقولُه تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ جملة مُقرّرة للوعد المذكور دالّة على إنجازه داخلة في حيّز ﴿قَالَ﴾ الأوّل. كأنّه قيل: قال الله عزّ وجلّ: مِثلَ ذلك القول البديع قلتُ، أي: مثلَ ذلك الوعدِ الخارقِ للعادة وعدتُ، هو عليّ خاصّةً هيّن وإن كان في العادة مُستحيلًا. وقُرئ "وَهُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ"،[٤] فالجملة حينئذ حال مِن ﴿رَبُّكَ﴾، والياء عبارة عن ضميره -كما ستعرِفه- أو اعتراض، وعلى كلّ حال فهي مُؤكِّدة ومُقرِّرة لِما قبلها.

ثمّ أُخرِج القول الثاني مُخرَج الالتفات جريًا على سَنن الكبرياء لتربية المَهابة وإدخال الروعة، كقول الخلفاء: "أميرُ المؤمنين يرسم لك" مكانَ "أنا أرسم"،[٥] ثمّ أُسند إلى اسم الربّ المضاف إلى ضميره عليه السلام تشريفًا له وإشعارًا بعِلّة الحُكم. فإنّ تذكير جرَيان أحكام ربوبيّته تعالى عليه عليه السلام مِن إيجاده مِن العدم وتصريفِه في أطوار الخلق مِن حال إلى حال شيئًا فشيئًا

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٧/٣.

٢ ما وجدته فيما وقفت عليه من المصادر.

٣ م: أي: نعتٌ لمصدر مؤكِّد له، أي: حالٌ قولًا كائنًا مثل ذلك القول. «منه».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٧/٣.

إلى أن يبلغ كمالَه اللائقَ به ممّا يَقلَع أساسَ استبعاده عليه السلام لحصول الموعود ويُورثه عليه السلام الاطمئنانَ بإنجازه لا محالةَ.

ثمّ التُفت مِن ضمير الغائب العائد إلى الربّ إلى ياء العظمةِ إيذانًا بأنّ مَدار كونه هيّنًا عليه سبحانه هو القدرة الذاتيّة لا ربوبيّتُه تعالى له عليه السلام خاصّة وتمهيدًا لِما يَعقُبه. وقيل: ذلك إشارة إلى مُبهَم يُفسِّره قولُه تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ على طريقة قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر، ١٥/٦٦]. ولا يَخرُج هذا الوجه على القراءة بالواو لأنّها لا تدخُل بين المُفسِّر والمُفسَّر.

/ وإمّا الرفع[١] على أنّه خبر مبتدأ محذوف، و"ذلك" إشارةٌ إلى ما تقدَّم [٦و] مِن وعده تعالى، أي: قال عزّ وعلا: الأمر كما وعدتُ، وهو واقع لا محالةَ. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾... إلخ، استئناف مُقرِّر لمضمونه. والجملة المَحكيّة على القراءة الثانية[٢] معطوفة على المَحكيّة الأولى، أو حال مِن المُستكِنّ في الجارّ والمجرور.

وأيًّا ما كان فتوسيطُ ﴿قَالَ﴾ بينهما مُشعِر بمَزيد الاعتناء بكلّ منهما. والكلام في إسناد القول إلى الربّ ثمّ الالتفاتِ إلى التكلُّم كالذي مرّ آنفًا. وقيل: "ذلك" إشارة إلى ما قاله زكريّا عليه السلام،[٣] أي: قال تعالى: الأمرُ كما قلتَ تصديقًا له فيما حكاه مِن الحالة المُباينة للولادة في نفسه وفي امرأته. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾... إلخ، استئناف مَسوق لإزالة استبعاده بعد تقريره، أي قال تعالى: هو مع بُعده في نفسه عليّ هيّن. والقراءة الثانية[٤] أَدخَل في إفادة هذا المعنى، على أنّ الواو للعطف، وأمّا جَعْلها للحال فمُخِلّ بسداد المعنى؛ لأنّ مآله تقريرُ صعوبته حالَ سهولته عليه تعالى، مع أنّ المقصود بيان سهولته عليه سبحانه مع صعوبته في نفسه.

---

١ وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "إمّا النّصب". «منه».

٢ وفي هامش م: أي: القراءة بالواو. «منه».

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦١/١.

٤ وفي هامش م: أي: القراءة بالواو. «منه».

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ جملة مستأنَفة مُقرِّرة لِما قبلها، والمراد به ابتداء خَلْقِ البشر، إذ هو الواقعُ إثرَ العدم المَحضِ، لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالد المعتاد، وإنّما لم يُنسَب ذلك إلى آدمَ عليه السلام، وهو المخلوق مِن العدم حقيقةً بأن يقال:[١] وقد خلقتُ أباك أو آدمَ مِن قبل ولم يك شيئًا مع كفايته في إزالة الاستبعاد بقياس حال ما بُشِّر به على حاله عليه السلام لتأكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس، حيث نبّه على أنّ كلّ فرد مِن أفراد البشر / له حظٌّ مِن إنشائه عليه السلام مِن العدم، إذ لم تكن فطرته البديعة مقصورةً على نفسه؛ بل كانت أنموذجًا مُنطويًا على فطرة سائر آحاد الجنس انطواءً إجماليًا مُستتبعًا لجريان آثارِها على الكلّ، فكان إبداعُه عليه السلام على ذلك الوجه إبداعًا لكلّ أحد مِن فروعه كذلك. [٦٦ظ]

ولمّا كان خَلْقه عليه السلام على هذا النمط الساري إلى جميع أفراد ذرِّيّته أبدعَ مِن أن يكون ذلك مقصورًا على نفسه، كما هو المفهوم مِن نسبة الخلق المذكور إليه وأدلَّ على عِظَم قُدرتِه تعالى وكمال علمِه وحكمتِه، وكان عدم زكريًا حينئذٍ أظهرَ عنده وأجلى، وكان حاله أَولى بأن يكون مِعيارًا لحال ما بُشِّر به، نُسِب الخَلْق المذكور إليه،[٢] كما نُسب الخَلْق والتصوير إلى المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف، ١١/٧] توفيةً لمَقام الامتنانِ حقَّه، فكأنّه قيل: وقد خلقتُك مِن قبلُ في تضاعيف خَلْق آدمَ ولم تكن إذ ذاك شيئًا أصلًا؛ بل عدمًا بحتًا ونفيًا صِرفًا.

هذا، وأمّا حَمْل الشيء على المُعتدّ به، أي: ولم تكن شيئًا مُعتدًّا به،[٣] فيأباه المقام ويَردّه نظم الكلام. وقُرئ "خَلَقْنَاكَ".[٤]

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي: علامةً تدلُّني على تحقّق المَسئول ووقوع الحبَل. ولم يكن هذا السؤال منه عليه السلام لتأكيد البِشارة وتحقيقها كما قيل.[٥]

---

١ السياق: وإنّما نُسِب... بأن يُقال...
٢ السياق: ولمّا كان خلقه... نُسِب الخلق...
٣ أجاز حَمْله على ذلك الزمخشري في الكشّاف، ٧/٣.
٤ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.
٥ انظر القول في اللباب لابن عادل، ٢٢/١٣.

فإنّ ذلك ممّا لا يَليق بمَنصِب الرسالة، وإنّما كان ذلك لتعريف وقت العُلوق، حيث كانت البِشارة مُطلَقة عن تعيينه، وهو أمر خفيّ لا يُوقَف عليه، فأراد أن يُطلعَه الله عليه ليَتلقّى تلك النعمة الجليلة بالشكر مِن حين حُدوثها، ولا يُؤخّرَه إلى أن تظهَر ظهورًا مُعتادًا.

وقد مرَّت الإشارة في تفسير سورة آل عمران[1] إلى أنّ هذا السؤال ينبغي أن يكون بعد ما مضى بعد البِشارة بُرهةٌ مِن الزمان، لِما يروى أنّ يحيى كان أكبرَ مِن عيسى عليهما السلام بستّة أشهر أو بثلاث سنين، ولا ريبَ في أنّ دعاء زكريّا عليه السلام كان في صِغَر مريمَ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران، ٣/٣٨]، وهي إنّما وَلدت عيسى عليه السلام وهي بنت عشرِ سنينَ أو بنت ثلاثَ عشرةَ سنةً.[2]

[٧و] / والجَعْل إبداعي، واللام مُتعلِّقة به. وتقديمُها على المفعول به لِما مرّ مِرارًا مِن الاعتناء بالمُقدَّم والتشويق إلى المُؤخَّر، أو بمَحذوف وقع حالًا مِن ﴿ءَايَةً﴾، إذ لو تأخر لكان صفةً لها. وقيل: بمعنى التصيير المُستدعي لمفعولين، أوّلُهما: ﴿ءَايَةً﴾، وثانيهما: الظرفُ. وتقديمُه لأنّه لا مُسوّغ لكون ﴿ءَايَةً﴾ مبتدأً عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سِوى تقديمِ الظرف، فلا يتغيَّر حالُهما بعد ورودِ الناسخ.[3]

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: ألّا تَقدِر على أن تُكلِّمهم بكلام الناس مع القدرة على الذِّكر والتسبيح. ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ مع أيّامهنّ للتصريح بها في سورة آل عمران.[4] ﴿سَوِيًّا﴾ حال مِن فاعل ﴿تُكَلِّمَ﴾ مُفيد لكون انتفاءِ التكلُّم بطريق الاضطرار دون الاختيار، أي: تُمنَع الكلامَ فلا تُطيق به حالَ كونك سويَّ الخلق سليمَ الجوارح ما بك شائبةُ بَكَم ولا خَرَس.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: مِن المُصلّى أو مِن الغرفة، وكانوا مِن وراء المِحراب ينتظرونه أن يَفتح لهم الباب فيدخلوه ويُصلّوا إذ خرج عليهم

---

[1] في الكلام على الآية الحادية والأربعين منها.

[2] سيأتي هذا وتخريجه في الكلام على مريم، ١٩/٢٢.

[3] القول في اللباب لابن عادل، ٥/٢٠٨ (آل عمران، ٣/٤١).

[4] في آل عمران، ٣/٤١.

مُتغيِّرًا لونُه فأنكروه وقالوا: ما لك؟ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أومأ إليهم، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران، ٤١/٣]. وقيل: كتب على الأرض.[١] و﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن سَبِّحُواْ﴾: إمّا مُفسِّرة لـ"أوحى"، أو مصدريّة. والمعنى: أن صلُّوا، أو بأن صلُّوا ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ هما ظرفا زمان للتسبيح. عن أبي العالية: أنّ المراد بهما صلاةُ الفجر وصلاةُ العصر.[٢] أو نزِّهوا ربّكم طرفَي النهار. ولعلّه كان مأمورًا بأن يُسبِّح شكرًا ويأمرَ قومه بذلك.[٣]

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ١٢﴾

﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ استئناف طُويَ قبله جُمل كثيرة مُسارَعةً إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم، أي: قلنا: يا يحيى ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجِدّ واستظهار بالتوفيق. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ / قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: الحُكم: النبوّة، استنبأه وهو ابن ثلاثِ سنينَ.[٤] وقيل: الحُكم: الحِكمة وفَهم التوراة والفقه في الدِّين.[٥] رُوي أنه دعاه الصبيان إلى اللعب، فقال: ما لِلَّعب خُلِقنا.[٦] [٧ظ]

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا ١٣﴾

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ عطف على الحُكم. وتنوينه للتفخيم، وهو التحنُّن والاشتياق، ومِن مُتعلِّقة بمحذوف وقَع صفةً له مُؤكِّدةً لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفَخامة الإضافيّة، أي: وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنةً مِن جنابنا أو رحمة في قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما. ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي: طهارة مِن الذُّنوب أو صدَقة تصدَّقنا به على أبويه أو وفَّقناه للتصدّق على الناس. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مُطيعًا مُتجنِّبًا عن المعاصي.

---

١ مَرويٌّ عن مجاهد وابن عبّاس. انظر: جامع البيان للطبري، ٤٧٢/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢١/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٨/٣.
٢ لم أجده فيما وقفت عليه من المصادر.
٣ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٢/٢.
٤ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٢١/٥؛
٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٨/٣.
٦ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٧٤/١٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٨/٣.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ عطف على ﴿تَقِيًّا﴾ أي: بارًّا بهما لطيفًا بهما مُحسِنًا إليهما. ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ مُتكبِّرًا عاقًّا لهما أو عاصيًا لربّه.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ مِن الله عزّ وجلّ ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ مِن أن يَناله الشيطانُ بما يَنال به بني آدمَ. ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ مِن عذاب القبر. ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ مِن هول القيامة وعذاب النار.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ كلام مستأنَف خُوطِب به النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم وأُمر بذِكر قصّة مريمَ إثْرَ قصّةِ زكريّا لِما بينهما مِن كمال الاشتباك. والمراد بـ﴿الْكِتَابِ﴾ السورة الكريمة لا **القرآن**، إذ هي التي صُدِّرت بقصّة زكريّا المستتبعة لذِكر قصّتها وقَصص الأنبياء المذكورين فيها، أي: واذكر للناس فيها[١] ﴿مَرْيَمَ﴾ أي: نبأَها، فإنّ الذِّكر لا يَتعلّق بالأعيان.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ انتَبَذَتْ﴾ ظرف لذلك المُضاف، لكن لا على أن يكون المأمور به ذِكرَ نبئها عند انتباذِها فقط؛ بل كلُّ ما عُطف عليه وحُكيَ بعده بطريق الاستئناف داخلٌ في حيّز الظرف مُتمِّم للنبأ. وقيل: بدلُ اشتمالٍ مِن مريمَ، على أنّ المراد بها نبؤها، فإنّ الظروف مُشتمِلة على ما فيها.[٢] وقيل: بدلُ الكلّ، على أنّ المراد بالظرف ما وقَع فيه. وقيل: ﴿إِذْ﴾ بمعنى "أنْ" المصدريّة كما في قولك: "أكرمتُك إذ لم تُكرمني"، أي: لأنْ لم تُكرمني، / فهو بدلُ اشتمالٍ لا محالةَ.[٣] [٨و]

---

١ ط س - فيها.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٨/٣.

٣ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٢/٢.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ مُتعلِّق بـ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾. وقوله: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ مفعول له[1] باعتبار ما في ضمنه مِن معنى الإتيانِ المُترتِّب وجودًا واعتبارًا على أصل معناه[2] العامل في الجارّ والمجرور، وهو السرّ في تأخيره[3] عنه، أي: اعتزلتْ وانفردتْ منهم وأتتْ مكانًا شرقيًا مِن بيت المَقدِس أو مِن دارها لتتخلّى هنالك للعبادة.

وقيل: قعدتْ في مَشْرَقة[4] لِتغتسلَ مِن الحيض مُحتجبةً بحائط أو بشيء يَستُرها، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾. وكان مَوضِعها المَسجِد فإذا حاضتْ تحوَّلتْ إلى بيت خالتها وإذا طهُرت عادت إلى المَسجِد، فبينا هي في مُغتسَلها أتاها المَلَك عليه السلام في صورة آدميّ شابّ أمردَ وضيءِ الوجه جَعْدِ الشَّعر، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي: جبريل عليه السلام،[5] عُبِّر عنه بذلك توفيةً للمَقام حقَّه. وقُرئ بفتح الراء[6] لكونه سببًا لِما فيه رَوحُ العباد الذي هو عُدّة المُقرَّبين في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة، ٥٦/٨٨-٨٩].

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ سويَّ الخلق كاملَ البنية لم يَفقِد مِن حِسان نعوت الآدميّة شيئًا. وقيل: تمثَّل في صورة تِرْب لها اسمه يوسفُ مِن خدَم بيت المَقدِس،[7] وذلك لتستأنسَ بكلامه وتتلقّى منه ما يُلقى إليها مِن كلماته تعالى، إذ لو بدا لها على الصورة المَلَكيّة لنفرتْ منه ولم تستطع مُفاوضته.

وأمّا ما قيل مِن أنّ ذلك لتهيج شهوتُها فتنحدر نطفتُها إلى رَحِمها،[8] فمع مخالفته لمَقام بيان آثار القُدرة الخارقة للعادة يُكذِّبه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾؛ فإنّه شاهد عَدْل بأنّه لم يَخطُر ببالها شائبة مَيْل ما إليه فضلًا

---

[1] وفي هامش م: أي: لـ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾. «منه».
[2] وفي هامش م: وهو الانفراد؛ لأنّ الإشارة إنّما تحصل بعده. «منه».
[3] وفي هامش م: أي: تأخير ﴿مَكَانًا﴾ من الجارّ والمجرور. «منه».
[4] س: شُرفة.
[5] القول بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٨.
[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦-٨٧.
[7] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٩.
[8] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٣.

عمّا ذُكر مِن الحالة المُترتِّبة على أقصى مراتب المَيْل والشهوة. نعم كان تمثيله على ذلك الحُسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسَبر عِفَّتها، ولقد ظهَر منها مِن الورع والعَفاف ما لا غايةَ وراءه. وذِكرُه تعالى بعنوان الرحمانيّة للمُبالغة في العِياذ به تعالى واستجلابِ آثار الرحمة الخاصّة التي هي العِصمةُ ممّا دَهِمها.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ تتَّقي الله تعالى وتُبالي بالاستعاذة به. / وجواب الشرط مَحذوف ثقةً بدلالة السياق عليه، أي: فإنّي عائذة به، أو فتَعوَّذ بتعوُّذي، أو فلا تتعرَّض لي. [٨ظ]

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ يريد عليه السلام أنّي لست ممّن يُتوقَّع منه ما تَوهَّمتِ مِن الشرّ، وإنّما أنا رسول ربّك الذي استعذتِ به ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا﴾ أي: لأكون سببًا في هِبته بالنفخ في الدِّرْع. ويجوز أن يكون ذلك حكايةً لقوله تعالى، ويُؤيِّده القراءة بالياء.[١] والتعرُّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتسليتِها والإشعارِ بعِلّة الحُكم، فإنّ هِبة الغلام لها مِن أحكام تربيتها. وفي بعض المَصاحف "أَمَرَني أَنْ أَهَبَ لكِ غُلَامًا".[٢] ﴿زَكِيًّا﴾ طاهرًا مِن الذُّنوب، أو ناميًا على الخير، أي: مُترقِّيًا مِن سنّ إلى سنّ على الخير والصلاح.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ٢٠﴾

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ كما وصفتَ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ أي: والحال أنّه لم يُباشرني بالنكاح رجل. وإنّما قيل: ﴿بَشَرٌ﴾ مُبالغةً في بيان تنزُّهها مِن مَبادي الولادة.

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ عطف على ﴿لَمْ يَمْسَسْنِى﴾ داخل معه في حُكم الحاليَّة مُفصِح عن كون المِساس عبارةً عن المباشَرة بالنكاح، أي: ولم أكن فاجرة

---

[١] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب ونافع في رواية ورش عنه. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧.

تبغي الرجالَ. وهي فَعول بمعنى الفاعل أصلها "بَغُويٌ" فأُدغمت الواو بعد قلبها ياء في الياء وكُسرت الغين للياء. وقيل: هي فعيل بمعنى الفاعل، وإلّا لقيل: "بَغُوٌّ" كما يقال: "فلانٌ[1] نَهُوٌّ عن المُنكَر".[2] وإنما لم تَلحَقه التاء لأنّها مِن باب النسب كـ"طالق"،[3] أو بمعنى المفعول، أي: يَبغيها الرجال للفجور بها.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: المَلَك تقريرًا لمَقالته وتحقيقًا لها. ﴿كَذَٰلِكِ﴾ أي: الأمر كما قلتُ لكِ. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾... إلخ استئناف مُقرِّر له، أي: قال ربّك الذي أرسلني إليك: ﴿هُوَ﴾ أي: / ما ذكرتُ لكِ مِن هِبة الغلام مِن غير أن يَمسَّك بشرٌ أصلًا ﴿عَلَيَّ﴾ خاصّة ﴿هَيِّنٌ﴾ وإن كان مُستحيلًا عادةً لِما أنّي لا أحتاج إلى الأسباب والوسائط. [٩و]

وقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾: إمّا عِلّة لمُعلَّل محذوف، أي: ولِنجعلَ وَهْب الغلام آيةً لهم وبرهانًا يَستدلّون به على كمال قدرتِنا نفعلُ ذلك؛ أو معطوفٌ على عِلّة أخرى مُضمَرة، أي: لنُبيّن به عِظَم قدرتنا ولنجعله آية... إلخ. والواو على الأوّل اعتراضيّة. والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الجلالة. ﴿وَرَحْمَةً﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَّا﴾ عليهم يَهتدون بهدايته ويَسترشدون بإرشاده.

﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مُحكَمًا قد تعلّق به قضاؤنا الأزلي، أو قُدِّر وسُطِّر في اللوح لا بدّ مِن جريانه عليك البتّةَ، أو كان أمرًا حقيقًا بأن يُقضى ويُفعلَ لتضمُّنه حِكَمًا بالغة.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ بأن نفخ جبريلُ عليه السلام في دِرعها فدخلتِ النفخة في جوفها.[4]

---

[1] س – فلان.

[2] نقل هذا القول الزمخشري في الكشّاف، ٩/٣ عن كتاب التمام لابن جنّي. ولم أجده في مطبوعه.

[3] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٣/٢.

[4] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٤/٢.

قيل: إنّه عليه السلام رفَع دِرعَها فنفخ في جيبه[١] فحمَلت.[٢] وقيل: نفَخ عن بُعد فوصل الريحُ إليها فحملت في الحال. وقيل: إنّ النفخة كانت في فيها.[٣] وكانت مدّةُ حملها سبعةَ أشهر. وقيل: ثمانيةً، ولم يعِش مولود وُضع لثمانية أشهر غيره. وقيل: تسعةَ أشهُر. وقيل: ثلاثَ ساعات.[٤] وقيل: ساعةً كما حملتْ وضعَته.[٥] وسِنُّها حينئذ ثلاثَ عشرةَ سنةً.[٦] وقيل: عشرَ سنينَ، وقد حاضت حيضتَين.[٧]

﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾ أي: فاعتزلت وهو في بطنها، كما في قوله:

تـــدوسُ بـنـا الـجَـمـاجـمَ والـتَّـريـبـا[٨]

فالجارّ والمجرور في حيّز النصب على الحاليّة، أي: فانتبذتْ مُلتبِسةً به ﴿مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ بعيدًا مِن أهلها وراء الجبل. وقيل: / أقصى الدار.[٩] وهو الأنسبُ بقِصر مُدّة الحَمْل. [٩ظ]

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ۝٢٣﴾

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ أي: فألجأها، وهو في الأصل منقول مِن "جاء"، لكنّه لم يُستعمَل في غير كـ"آتى" في "أعطى".[١٠] وقُرئ "المِخَاضُ" بكسر الميم.[١١] وكلاهما مصدر "مَخِضتِ المرأةُ" إذا تحرّك الولدُ في بطنها للخروج.[١٢]

---

١ س: جيبها.

٢ مَرويّ عن السدّي بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/٤٩٠-٤٩١. وهو بلا نسبة في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٤. وعن ابن عبّاس في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.

٣ القولان في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٤.

٤ الأقوال السابقة بلا نسبة في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٤-٢٢٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.

٥ بلفظ قريب عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.

٦ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.

٧ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.

٨ عجز بيت لأبي الطيّب المتنبّي، وصدره:
فـمـرّت غـيـر نـافـرة عـلـيـهـم
والبيت في شرح الواحدي لديون المتنبّي، ٢/٨٤٦. ومثّل الزمخشري بعجُزه على ما نحن فيه في الكشّاف، ٣/١٠. يصف المتنبي خيلًا ذكرها في البيت قبله. وقال الواحدي في معنى هذا البيت: «أي: وطِئت رءوسهم وصدورَهم، فنحن عليها، ولم تنفِر عنهم».

٩ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٤.

١٠ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.

١١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأفطس عن ابن كثير وابن جُبير عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٩٨.

١٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٤.

﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ لتستتر به وتعتمِد عليه عند الوِلادة، وهو ما بين العِرْق والغُصن. وكانت نخلةً يابسةً لا رأسَ لها ولا خُضرةَ وكان[١] الوقت شتاءً. والتعريف إمّا للجنس أو للعهد؛ إذ لم يكن ثمّة غيرُها وكانت كالمُتعالَم عند الناس. ولعلّه تعالى ألهمها ذلك ليُريَها مِن آياتها ما يُسكِّن رَوْعتها ويُطعِمها الرُّطَب الذي هو خُرْسة النُّفَساء المُوافقة لها.

﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ﴾ بكسر الميم مِن مات يَماتُ، كـ"خِفتُ". وقُرئ بضمِّها[٢] مِن مات يموتُ. ﴿قَبۡلَ هَٰذَا﴾ أي: هذا الوقت الذي لقِيتُ فيه ما لقِيتُ. وإنّما قالته -مع أنّها كانت تعلَم ما جرى بينها وبين جبريلَ عليه السلام مِن الوعد الكريم- استحياءً مِن الناس وخوفًا مِن لائمتهم، أو حِذارًا مِن وقوع الناس في المعصية بما تكلَّموا فيها، أو جريًا على سَنن الصالحين عند اشتدادِ الأمر عليهم، كما رُوي عن عمرَ رضي الله عنه أنّه أخذ تِبْنة مِن الأرض فقال: «يا ليتني هذه التِّبنة ولم أكن شيئًا»،[٣] وعن بلال أنّه قال: «ليت بلالًا لم تلِده أمُّه».[٤]

﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا﴾ أي: شيئًا تافهًا شأنُه أن يُنسى ولا يُعتدَّ به أصلًا. وقُرئ بالكسر.[٥] قيل: هما لغتان في ذلك كـ"الوَتر" و"الوِتر".[٦] وقيل: هو بالكسر اسم لِما يُنسى كـ"النِّقْض" اسم لما يُنقض، وبالفتح مصدر سُمِّي به المفعول مبالغة.[٧] وقُرئ بهما مهموزًا،[٨] مِن "نسأتُ اللَّبن" إذا صببتَ عليه الماء فصار مُستهلَكًا فيه. / وقُرئ "نَسًا"[٩] كـ"عصًا". [١٠و]

---

١ ط س: كانت.

٢ قرأ بها أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر عنه ويعقوب وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٤٣.

٣ **شرح السنّة** للبغوي، ١٤/٣٧٣؛ و**اللباب** لابن عادل، ١٣/٤١.

٤ **المُصنَّف** لابن أبي شيبة، ٢٠١/١ (٢٣٠٧)؛ **شرح السنّة** للبغوي، ١٤/٣٧٣؛ و**اللباب** لابن عادل، ١٣/٤١.

٥ قرأ بها العشرة إلّا حمزة وعاصمًا في رواية حفص عنه. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣١٨.

٦ ذكر ذلك الفرّاء في **معاني القرآن**، ٢/١٦٤، ونقله عنه الزمخشري في **الكشّاف**، ٣/١١.

٧ نقله عن ابن الأنباري ابنُ عادل في **اللباب**، ١٣/٤١.

٨ قراءتان شاذّتان: بفتح النون مع الهمز مرويّة عن محمّد بن كعب القُرظي وبكر بن حبيب، وبكسر النون مع الهمز مرويّة عن نوفل. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٧؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٩٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٩٨.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن بكر بن حبيب. **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٧/٥٨٢؛ و**اللباب** لابن عادل، ١٣/٤٢.

﴿مَنسِيًّا﴾ لا يَخطُر ببال أحد مِن الناس، وهو نعتٌ للمبالغة. وقُرئ بكسر الميم[١] إتباعًا له بالسين.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ أي: جبريلُ عليه السلام ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾. قيل: إنّه كان يَقبَل الولد.[٢] وقيل: مِن تحتها، أي: مِن مكان أسفلَ منها تحت الأَكَمَة.[٣] وقيل: مِن تحت النخلة.[٤] وقيل: ناداها عيسى عليه السلام.[٥] وقُرئ "فَخَاطَبَهَا مَنْ تَحْتَهَا"[٦] بفتح الميم. ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ أي: لا تَحزَني، على أنّ "أنْ" مُفسِّرة؛ أو بألّا تَحزني، على أنّها مصدريّة قد حُذف عنها الجارّ.

﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ﴾ أي: بمكان أسفل منك. وقيل: تحت أمركِ إنْ أمرْتِ بالجَري جرى، وإن أمرتِ بالإمساك أَمسَك.

﴿سَرِيّٗا﴾ أي: نهرًا صغيرًا حسبما رُوي مَرفوعًا، قال ابن عبّاس رضي الله عنه: إنّ جبريلَ عليه السلام ضرب برجله الأرضَ فظهرت عينُ ماء عَذْب فجرى جَدْولًا.[٧] وقيل: فعَله عيسى عليه السلام.[٨] وقيل: كان هناك نهر يابس أجرى الله عزّ وجلّ فيه الماءَ حينئذ كما فعَل مِثلَه بالنخلة، فإنّها كانت نخلةً يابسة لا رأسَ لها ولا ورق فضلًا عن الثمر، وكان الوقت شتاءً، فجعَل الله تعالى[٩]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وأبي البَرَهسم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٩.

[٢] أي: يَقبَله كالقابلة. والقول في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٥/٢.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٥/٢.

[٤] مَرويٌّ عن قتادة في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣.

[٥] مَرويٌّ عن مجاهد والحسن. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٠٤/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥. وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن زِرّ بن حُبيش وعلقمة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٩٩.

[٧] وهو مَرويٌّ أيضًا عن الضحّاك وقتادة. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٠١/١٥-٥٠٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥.

[٨] مَرويٌّ عن سعيد بن جُبير والحسن ومجاهد. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٠٣/١٥-٥٠٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ١١/٣.

[٩] س – تعالى.

لها إذ ذاك رأسًا وخُوصًا[١] وثمرًا.[٢] وقيل: كان هناك ماءٌ جارٍ.[٣] والأوّل هو المُوافِق لمقام بيان ظهور الخوارق والمتبادر مِن النظم الكريم.

وقيل: ﴿سَرِيًّا﴾، أي: سيِّدًا نبيًّا رفيعَ الشأن جليلًا وهو عيسى عليه السلام.[٤] فالتنوين للتفخيم، والجملة تعليل لانتفاء الحُزْن المفهوم مِن النهي عنه، والتعرّض لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾

﴿وَهُزِّيٓ﴾ هزُّ الشيء: تحريكُه إلى الجهات المُتقابلة تحريكًا عنيفًا مُتدارِكًا. والمراد ههنا ما كان منه بطريق الجَذْب والدفع،[٥] / لقوله تعالى: ﴿إِلَيۡكِ﴾ أي: إلى جهتكِ. [١٠ظ] والباء في قوله عزّ وعلا: ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾: صلة للتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾... إلخ [البقرة، ٢/١٩٥]. قال الفرّاء: «تقول العرب: هَزّه وهزّ به وأخذ الخِطامَ وأخذ بالخِطام»؛[٦] أو لإلصاق الفعل بمدخولها، أي: افعلي الهزَّ بجِذعها، أو هُزّي الثمرة بهزّه. وقيل: هي مُتعلِّقة بمحذوف وقع حالًا مِن مفعول الهَزّ، أي: هُزّي إليك الرُّطَب كائنًا بجِذعها.[٧] ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ أي: تُسقِط النخلة ﴿عَلَيۡكِ﴾ إسقاطًا مُتواترًا حسَب تواتُر الهزّ.

وقُرئ "تُسْقِطْ"[٨] و"يُسْقِطْ"[٩] مِن الإسقاط بالتاء والياء، و"تَتَسَاقَطْ"[١٠] بإظهار التاءين،

---

[١] الخوص: ورق النخل. لسان العرب لابن منظور، «خوص».

[٢] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٥.

[٣] القول في اللباب لابن عادل، ١٣/٤٥.

[٤] مَرويٌّ عن الحسن. انظر: جامع البيان للطبري، ١٥/٥٠٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/١١.

[٥] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٥.

[٦] معاني القرآن للفرّاء، ٢/١٦٥؛ اللباب لابن عادل، ١٣/٤٦.

[٧] القول في اللباب لابن عادل، ١٣/٤٦.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وزيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٠٠.

[٩] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧.

[١٠] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧.

و"تَسَاقَطْ"[١] بطرح الثانية، و"تَسَّاقَطْ"[٢] بإدغامها في السين، و"يَسَّاقَطْ"[٣] بالياء كذلك، و"تَسْقُطْ"[٤] و"يَسْقُطْ"[٥] مِن السُقوط. على أنّ التاء في الكلّ للنخلة والياءَ للجِذع.

وقوله تعالى: ﴿رُطَبًا﴾ على القراءات الثلاث الأُوَل مفعول، وعلى الستّ البواقي تمييز. وقوله تعالى: ﴿جَنِيًّا﴾ صفة له. وهو ما قُطع قبل يُبْسه، فعيل بمعنى مفعول، أي: رُطَبًا مَجنيًا، أي: صالحًا للاجتناء. وقيل: بمعنى فاعل، أي: طريًا طيِّبًا.[٦] وقُرئ "جِنيًا"[٧] بكسر الجيم للإتباع.

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾ أي: ذلك الرُّطبَ وماءَ السَّريّ، أو مِن الرُّطَب وعصيره، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ وطِيبي نفسًا وارفُضي عنها ما أحزَنك وأهمَّك، فإنّه تعالى قد نزَّه ساحتَك عمّا اختلج في صدور المُتَقيّدين بالأحكام العاديّة، بأن أظهرَ لهم مِن البسائط العنصريّة والمُركَّبات النباتيّة ما يَخرِق العاداتِ التكوينيّة ويُرشِدهم إلى الوقوف على سريرة أمرِك.

وقُرئ: "وقِرّي"[٨] / بكسر القاف، وهي لغة نجد.[٩] واشتقاقه مِن القَرار، فإنّ العين إذا رأت ما يَسرّ النفسَ سكنتْ إليه مِن النظر إلى غيره، أو مِن القُرّ فإنّ دَمعة السُّرور باردة ودَمعة الحُزن حارّة. ولذلك يقال: قُرّة العين وسُخْنة العين للمحبوب والمكروه.[١٠] [١١و]

---

١ قرأ بها حمزة. **النشر** لابن الجزري، ٣١٨/٢.

٢ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وأبو بكر بخلاف عنه وأبو جعفر وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٣١٨/٢.

٣ قرأ بها يعقوب وأبو بكر بخلاف عنه. **النشر** لابن الجزري، ٣١٨/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن أبي عبلة. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٧؛ **المغني في القراءات** للنّوْزاوازي، ص ١٢٠٠.

٦ القول في **اللباب** لابن عادل، ٤٩/١٣.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن سليمان ويحيى بن وثّاب والصرصري والمَلَطي عن أبي بكر عن عاصم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٠؛ **المغني في القراءات** للنّوْزاوازي، ص ١٢٠٠.

٨ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ١٢/٣.

٩ الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ١٢/٣.

١٠ الكلام في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٦٥/٢.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي: آدميًا كائنًا مَن كان، وقُرئ "تَرَئِنَّ"[1] على لغة مَن يقول: "لَبَأْتُ بالحَجّ"،[2] لِما بين الهمزة والياءِ مِن التآخي. ﴿فَقُولِي﴾ له إن استَنطقكِ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتًا، وقد قُرئ كذلك؛[3] أو صيامًا، وكان صيامُهم بالسكوت.

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي: بعد أن أَخبرتُكم بنَذري، وإنّما أُكلِّم الملائكة وأناجي ربّي. وقيل: أُمِرتْ بأن تُخبرَ بنَذرها بالإشارة.[4] وهو الأظهرُ. قال الفرّاء: العرب تُسمِّي كلَّ ما وصل إلى الإنسان "كلامًا" بأيِّ طريق وصَل ما لم يُؤكَّد بالمصدر، فإذا أُكِّد لم يكن إلّا حقيقةَ الكلام.[5] وإنّما أُمرتْ بذلك لكراهة مُجادلة السفهاء ومُناقلتهم والاكتفاءِ بكلام عيسى عليه السلام، فإنّه نصّ قاطع في قَطْع الطَّعْن.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا﴾ أي: جاءتهم مع ولدها راجعة إليهم عندما طهُرت مِن نَفاسها. ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ أي: حاملةً له. ﴿قَالُواْ﴾ مُؤنِّبةً لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ﴾ أي: فعلتِ ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: عظيمًا بديعًا مُنكَرًا، مِن فرَى الجلدَ، أي: قطَعه؛[6] أو جئتِ مَجيئًا عجيبًا عُبِّر عنه بـ"الشيء" تحقيقًا للاستغراب.

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ استئناف لتجديد التعيير وتأكيد التوبيخ عنَوا به هارونَ النبيَّ عليه السلام، وكانت مِن أعقاب مَن كان معه في طبقة الأُخوَّة. وقيل:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن يونس واللؤلئي عن أبي عمرو والحلواني عن الدُّوري عن اليزيدي عنه. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٠١.

[2] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ١٢/٣.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس بن مالك وابن مسعود وأُبيّ بن كعب وابن الزُّبير وعمرو بن ميمون. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٠؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٠٢.

[4] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ١٢/٣.

[5] نقله عن الفرّاء البغويُّ في معالم التنزيل، ٣١١/٢ (النساء، ١٦٤/٤).

[6] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ١٢/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٦/٢.

[١١ظ] كانت مِن نسله وكان بينهما ألفُ سنة. / وقيل: هو رجلٌ صالح أو طالح كان في زمانهم شبَّهوها به، أي: كنتِ عندنا مِثلَه في الصلاح، أو شتموها به.[١] ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تقرير لكون ما جاءت به فَرِيًّا مُنكَرًا، وتنبيه على أنّ ارتكابَ الفواحش مِن أولاد الصالحين أفحشُ.[٢]

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى عيسى عليه السلام أنْ كلِّموه. والظاهر أنّها بيَّنت حينئذ نَذْرَها وأنّها بمَعزِل مِن مُحاورة[٣] الإنس حسبما أُمرت. ففيه دلالة على أنّ المأمور به بيانُ نَذْرها بالإشارة لا بالعبارة، والجمعُ بينهما ممّا لا عهدَ به.

﴿قَالُواْ﴾ مُنكِرين لجوابها: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ولم نَعهَد فيما سلف صبيًّا يُكلِّمه عاقل. وقيل: ﴿كَانَ﴾ لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماضٍ مُبهَمٍ صالح لقريبه وبعيده، وهو ههنا لقريبه خاصّة بدليل أنّه مَسُوق للتعجّب. وقيل: هي زائدة والظرف صلة ﴿مَن﴾. و﴿صَبِيًّا﴾ حال مِن المُستكِنّ فيه، أو هي تامّة أو دائمة،[٤] كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء، ١٧/٤].

﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾

[٥١ظ] ﴿قَالَ﴾ استئناف مَبنيّ على سؤال نشأ مِن سياق النظم الكريم، / كأنه قيل: فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾. أنطقَه الله عزّ وجلّ بذلك آثرَ ذي أثير[٥] تحقيقًا للحقّ وردًّا على مَن يزعُم ربوبيّته. قيل: كان المُستنطِق لعيسى زكريا عليهما السلام.[٦] وعن السدّي رضي الله عنه:

---

[١] القولان في الكشّاف للزمخشري، ١٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٦/٢.

[٢] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٦/٢.

[٣] ط س: مجاورة.

[٤] الأقوال وتفصيل الكلام على "كان" ههنا بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ٥٤/١٣-٥٥. والكلام على زيادتها في مجاز القرآن لأبي عبيدة، ٧/٢-٨.

[٥] آثر ذي أثير: أوّل كلّ شيء. لسان العرب لابن منظور، «أثر».

[٦] القول في الكشّاف للزمخشري، ١٣/٣.

لمّا أشارت إليه غضِبوا وقالوا: لَسُخرِيَتُها بنا أشدُّ علينا ممّا فعلتِ.[١] ورُوي أنّه عليه السلام كان يَرضَع فلمّا سمِع ذلك ترَكَ الرَّضاع وأقبَل عليهم بوجهه واتّكأ على يساره وأشار بسبّابته فقال ما قال... إلخ.[٢] وقيل: كلّمهم بذلك ثمّ لم يتكلّم حتّى بلغ مَبلغًا يتكلّم فيه الصبيان.[٣]

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: الإنجيلَ. ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١﴾

﴿وَجَعَلَنِي﴾ مع ذلك ﴿مُبَارَكًا﴾ نفّاعًا مُعلِّمًا للخير. والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة إمّا باعتبار ما سبَق في القضاء المحتوم، أو بجَعْل ما في شرَف الوقوع لا محالةَ واقعًا. / وقيل: أكمَله الله عقلًا واستنبأه طفلًا.[٤] ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [١٢و] أي: حيثما كنتُ ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: أمرني بها أمرًا مُؤكّدًا، ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ زكاة المال إن مَلكتُه، أو بتطهير النفسِ عن الرذائل ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ في الدنيا.

﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾

﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ عطفٌ على ﴿مُبَارَكًا﴾،[٥] أي: جعلني بارًّا بها، وقُرئ بالكسر على أنّه مصدرٌ وُصف به مبالغةً، أو منصوبٌ بمُضمَر دلّ عليه ﴿أَوۡصَٰنِي﴾،[٦] أي: وكلّفني بِرًّا، ويُؤيّده القراءةُ بالكسر والجرّ عطفًا على الصلاة والزكاة، والتنكيرُ للتفخيم. ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾ عنيدًا[٧] لله تعالى لفَرْط تكبّره.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ كما هو على يحيى. على أنّ التعريف للعهد، والأظهرُ أنّه للجنس والتعريضِ باللعن على أعدائه، فإنّ إثبات جنس السلام لنفسه تعريض بإثبات ضدّه لأضداده، كما في قوله تعالى:

---

١ لم أجده في مظانّه. وهو مَرويٌّ عنه في الكشّاف للزمخشري، ١٣/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٥/١٣.

٢ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٢٩/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ١٣/٣.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٥٥/١٣.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ١٣/٣.

٥ في الآية السابقة.

٦ في الآية السابقة.

٧ ط س: عند.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [طه، ٤٧/٢٠]، فإنّه تعريض بأنّ العذاب على مَن كذّب وتولّى.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى مَن فُصّلت نعوته الجليلة، وما فيه مِن معنى البُعد للدلالة على عُلوّ رتبته وبُعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلةَ المشاهَد المحسوس، ﴿عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ لا ما يصفه النصارى، وهو تكذيب لهم فيما يزعُمونه على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني، حيث جعَله موصوفًا بأضداد ما يصفونه.

﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ بالنصب على أنّه مصدر مؤكِّد لـ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾... إلى آخره،[١] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبله، وقرئ بالرفع[٢] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو قول الحقّ الذي لا ريبَ فيه، والإضافةُ للبيان، والضميرُ للكلام السابق أو لتمام القصّة. وقيل: صفة عيسى أو بدله أو خبر ثانٍ، ومعناه / كلمةُ الله.[٣] وقرئ: "قالُ الحقِّ"[٤] و"قَوْلُ الحَقِّ"،[٥] فإنّ "القَول" و"القُول" و"القال" في معنى واحد. [١٢ظ]

﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ أي: يشكُّون أو يتنازعون، فيقول اليهود: ساحر، والنصارى: ابن الله سبحانه. وقرئ بتاء الخطاب.[٦]

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ أي: ما صحّ وما استقام له تعالى ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ﴾ تكذيب للنصارى وتنزيه له تعالى عمّا بَهتوه، وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا

---

١ مريم، ٣٠/١٩.

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٧/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٨٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش ويحيى وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن السُلمي وداود بن هند والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تبكيت لهم ببيان أنّ شأنه تعالى إذا قضى أمرًا مِن الأمور أن[1] يعلِّق به إرادته فيكون حينئذ بلا تأخير، فمَن هذا شأنه كيف يُتوهَّم أن يكون له ولد. وقرئ: "فَيَكُوْنَ"[2] بالنصب على الجواب.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ مِن تمام كلام عيسى عليه السلام. قيل: هو عطفٌ على قوله: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾[3] داخلٌ تحت القول.[4] وقد قُرئ بغير واو، وقرئ بفتح الهمزة على حذف اللام،[5] أي: ولأنّه تعالى ربّي وربّكم فاعبدوه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن، ١٨/٧٢]. وقيل: معطوف على ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾.[6] ﴿هَٰذَا﴾ أي: الذي ذكرتُه مِن التوحيد ﴿صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ لا يضِلّ سالكه.

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها تنبيهًا على سوء صنيعهم بجَعْلهم ما يوجب الاتّفاق منشأً للاختلاف، فإنّ ما حُكي مِن مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصًا قاطعةً في كونه عبده تعالى ورسوله قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والإفراط، أو فِرَق النصارى، فقالت النَّسطوريّة: هو ابن الله، وقالت اليعقوبيّة: هو الله هبَط إلى الأرض ثمّ صعِد إلى السماء -تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- وقالت المَلكائيّة: هو عبدُ الله ونبيُّه.

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم المختلِفون، عبّر عنهم بالموصول إيذانًا بكفرهم جميعًا وإشعارًا بعلّة الحُكم. ﴿مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: مِن شهود يوم

---

[1] وفي هامش م: خبر "أنّ".

[2] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٠.

[3] مريم، ٣٠/١٩.

[4] القول في اللباب لابن عادل، ٦٦/١٣.

[5] قرأ بها ابن عامر والكسائي وحمزة وعاصم وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢.

[6] مريم، ٣١/١٩. والقول في اللباب لابن عادل، ٦٦/١٣.

عظيم الهَول والحِساب والجزاء وهو يوم القيامة، أو مِن وقت شُهوده، / أو مِن مكان الشهود فيه، أو مِن شهادة ذلك اليوم عليهم، وهو أن يشهد عليهم الملائكة والأنبياء عليهم السلام وألسنتهم وآذانهم وأيديهم وأرجلهم وسائر آرابهم بالكفر والفسوق، أو مِن وقت الشهادة أو مِن مكانها. وقيل: هو ما شهِدوا به في حقّ عيسى وأمّه.[1] [١٣و]

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ تعجّبٌ مِن حِدّة سَمْعهم وأبصارهم يومئذ، ومعناه أنّ أسماعهم وأبصارهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ للحساب والجزاء، أي: يوم القيامة جدير بأن يُتعجَّب منهما بعد أن كانوا في الدنيا صُمًّا عُميًا، أو تهديدٌ بما سيسمعون ويُبصرون يومئذ. وقيل: أمرٌ بأن يُسمِعهم ويُبصِرهم مواعيدَ ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه.[2] والجارُّ والمجرور على الأوّل في موقع الرفع وعلى الثاني في حيِّز النصب.

﴿لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لا تُدرك غايته، حيث أغفلوا الاستماع والنظر بالكلّيّة، ووَضْع الظالمين موضعَ الضمير للإيذان بأنّهم في ذلك ظالمون لأنفسهم.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي: يوم يتحسَّر الناس قاطبةً، أمّا المسيء فعلى إساءته وأمّا المحسِن فعلى قلّة إحسانه. ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فُرغ مِن الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنّة والنار. ورُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سُئل عن ذلك، فقال: «حين يُجاء بالموت على صورة كبش أملحَ فيُذبح والفريقان ينظرون، فينادي المنادي يا أهلَ الجنّة خلود فلا موتَ ويا أهل النار / خلود فلا موتَ، فيزداد أهل الجنّة فرحًا إلى فرح وأهل النار غمًّا إلى غمّ».[3] و﴿إِذْ﴾ بدل [١٣ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٦.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٧.

٣ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٦/٩٣ (٤٧٣٠)؛ وصحيح مسلم، ٤/٢١٨٨ (٢٨٤٩)؛ وجامع البيان للطبري، ١٥/٥٤٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٣٢.

مِن ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾، أو ظرف لـ﴿ٱلۡحَسۡرَةِ﴾، فإنّ المصدر المعرّف باللام يعمل في المفعول الصريح عند بعضِهم فكيف بالظرف؟

﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾ أي: عمّا يُفعل بهم في الآخرة ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وهما جملتان حاليّتان مِن الضمير المستتر في قوله تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾،[1] أي: مستقِرّون في ذلك وهم في تَينك الحالتين، وما بينهما اعتراض، أو مِن مفعول ﴿أَنذِرۡهُمۡ﴾، أي: أنذرهم غافلين غيرَ مؤمنين فيكون حالًا متضمّنةً لمعنى التعليل.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٤٠﴾

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾ لا يبقى لأحد غيرِنا عليها وعليهم مُلك ولا مِلك، أو نتوفّى الأرض ومَن عليها بالإفناء والإهلاك توَفّيَ الوارثِ لإرثه ﴿وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ أي: يُردّون للجزاء لا إلى غيرنا استقلالًا أو اشتراكًا.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ عطفٌ على ﴿أَنذِرۡهُمۡ﴾[2] ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: في السورة أو في القرآن ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: اتلُ على الناس قصّته وبلِّغها إيّاهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٦٩]، فإنّهم ينتمّون إليه عليه السلام، فعساهم باستماع قصّته يُقلِعون عمّا هم فيه مِن القبائح.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا﴾ ملازِمًا للصدق في كلّ ما يأتي ويذَر، أو كثيرَ التصديق لكثرة ما صدّق به مِن غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله. والجملة استئناف مَسُوق لتعليل موجَب الأمر، فإنّ وصفه عليه السلام بذلك مِن دواعي ذِكره. ﴿نَّبِيًّا﴾ خبرٌ آخرُ لـ﴿كَانَ﴾ مقيِّد للأوّل مخصِّص له كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ الآية [النساء، ٤/٦٩]، أي: كان جامعًا بين الصدِّيقيّة والنبوّة، ولعلّ / هذا الترتيبَ للمبالغة في الاحتراز عن توهّم تخصيص الصدِّيقيّة بالنبوّة فإنّ كلّ نبيّ صدِّيق. [١٤و]

---

[1] في الآية السابقة.

[2] مريم، ١٩/٣٩.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤﴾

﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلُ اشتمال مِن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾[١] وما بينهما اعتراض مقرِّر لِما قبله أو متعلِّق بـ﴿كَانَ﴾ أو بـ﴿نَبِيًّا﴾.[٢] وتعليقُ الذِكر بالأوقات مع أنّ المقصود تذكير ما وقَع فيها مِن الحوادث قد مرّ سِرُّه مرارًا، أي: كان جامعًا بين الأثرَتَين حين قال ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزرَ متلطِّفًا في الدعوة مستمِيلًا له: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أي: يا أبي، فإنّ "التاء" عِوض مِن "ياء" الإضافة ولذلك لا تجتمعان، وقد قلّ: "يا أبتا" لكون "الألف" بدلًا مِن "الياء". ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ ثناءَك عليه عند عبادتِك له[٣] وجُؤارِك إليه ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ خضوعَك وخشوعَك بين يديه، أو لا يسمع ولا يبصر شيئًا مِن المسموعات والمُبصَرات، فيدخُل في ذلك ما ذُكر دخولًا أوّليًا، ﴿وَلَا يُغْنِى﴾ أي: لا يقدر على أن يغنيَ ﴿عَنكَ شَيْـًٔا﴾ في جَلْب نفع أو دَفْع ضُرّ.

ولقد سلَك عليه السلام في دعوته أحسنَ مِنهاج وأقومَ سبيل، واحتجّ عليه أبدع احتجاجٍ بحُسن أدب وخُلق جميل لئلّا يركَب متن المكابرة والعِناد ولا ينكبَ[٤] بالكلّيّة عن مَحَجّة الرشاد، حيث طلَب منه عِلّة عبادته لِما يستخفّ به عَقْل كلّ عاقل مِن عالم وجاهل، ويأبى الركون إليه فضلًا عن عبادته التي هي الغاية القاصية مِن التعظيم، مع أنّها لا تحِقّ إلّا لمَن له الاستغناء التامّ والإنعام العامّ الخالقِ الرازقِ المحيي المُميت المثيب المعاقب، ونبّه على أنّ العاقل يجب أن يفعل كلّ ما يفعل لداعية صحيحة وغرض صحيح.

والشيء لو كان حيًّا مميِّزًا سميعًا بصيرًا قادرًا على النفع والضرّ مُطيقًا بإيصال الخير والشرّ / لكن كان ممكِنًا، لَاستنكف العقل السليم عن عبادته وإن كان [١٤ظ] أشرفَ الخلائق، لِما يراه مِثلَه في الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة، فما ظنُّك بجماد مصنوع مِن حجَر أو شجر ليس له مِن أوصاف الإحياءِ عين ولا أثر؟

---

١ في الآية السابقة.
٢ في الآية السابقة.
٣ ط س – له.
٤ وفي هامش م: نكب عنه: عدَل، كـ"نصَر" و"فرِح". قاموس. | انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، «نكب».

ثمّ دعاه إلى أن يتّبعه ليهديَه إلى الحقّ المبين، لِما أنّه لم يكن محظوظًا مِن العِلم الإلهي مستقلًّا بالنظر السوي مصدِّرًا لدعوته بما مرّ مِن الاستمالة والاستعطاف حيث قال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ولم يَسِم أباه بالجهل المُفرِط وإن كان في أقصاه، ولا نفسَه بالعِلم الفائق وإن كان كذلك؛ بل أبرز نفسه في صورة رفيق له أعرفَ بأحوال ما سلكاه مِن الطريق، فاستماله برفق حيث قال: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي: مستقيمًا موصِلًا إلى أسنى المطالب منجيًا عن الضلال المؤدّي إلى مهاوي الردى والمعاطب.

ثم ثبّطه عمّا كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كلّ عاقل ببيان أنّه مع عرائه عن النفع بالمرّة مستجلِبٌ لضَرر عظيم، فإنّه في الحقيقة عبادة الشيطان لِما أنّه الآمر به، فقال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ فإنّ عبادتك للأصنام عبادة له إذ هو الذي يُسوّلها لك ويغريك عليها.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا﴾ تعليل لموجَب النهي وتأكيد له ببيان أنّه مستعصٍ على ربّك الذي أنعَم عليك بفنون النِّعم، ولا ريبَ في أنّ المطيع للعاصي عاصٍ، وكلُّ مَن هو عاصٍ حقيق بأن يُستردّ منه النعم ويُنتقَم منه. والإظهار في موقع[1] الإضمار لزيادة التقرير، والاقتصار على ذِكر عصيانه مِن بين سائر جناياته، لأنّه مِلاكها، أو لأنّه نتيجة مُعاداته لآدمَ عليه السلام وذرّيّته، فتذكيرُه داعٍ لأبيه إلى الاحتراز عن موالاته وطاعته. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة لإظهار كمال شناعة عصيانه.

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

وقوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ تحذير مِن سوء عاقبة ما كان عليه مِن عبادة الشيطان، وهو ابتلاؤه / بما ابتُليَ به معبوده مِن العذاب الفظيع. وكلمةُ ﴿مِنَ﴾ متعلِّقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكِّدةً لِما أفاده التنكير مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة. وإظهار ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ للإشعار [١٥و]

---

[1] س: موضع.

بأنّ وَصْف الرحمانيّة لا يدفَع حلول العذابِ، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار، ٨٢/٦].

﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ أي: قرينًا له في اللعن المخلّد. وذِكرُ "الخوف" للمجاملة وإبرازُ الاعتناء بأمره.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن صدر الكلام، كأنّه قيل: فماذا قال أبوه عندما سمع منه عليه السلام هذه النصائحَ الواجبة القبولِ؟ فقيل: قال مُصرًّا على عِناده: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: أمُعرِض ومُنصرِف أنت عنها بتوجيه الإنكار إلى نفس الرغبة مع ضرب مِن التعجيب؟ كأنّ الرغبة عنها ممّا لا يصدُر عن العاقل فضلًا عن ترغيب الغير عنها.

وقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ تهديد وتحذير عمّا كان عليه مِن العِظة والتذكير، أي: واللهِ لئن لم تنتهِ عمّا كنت عليه مِن النهي عن عبادتها لأرجُمنّك بالحجارة. وقيل: باللسان.[1] ﴿وَٱهْجُرْنِى﴾ أي: فاحذَرْني واترُكني ﴿مَلِيًّا﴾ أي: زمانًا طويلًا، أو مليًا بالذهاب مطيقًا به.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلَف ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ توديع ومُتارَكة على طريقة مقابلةِ السيّئة بالحسنة، أي: لا أصيبُك بمكروهٍ بعدُ ولا أشافِهك بما يؤذيك، ولكن ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ أي: أستدعيه أن يغفر لك بأن يوفّقك للتوبة ويهديَك إلى الإيمان، كما يلوّح به تعليلُ قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٨٦].

والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبيّنِ أنّه يموت على الكفر ممّا لا ريبَ في جوازه، وإنّما المحظور استدعاء المغفرة له / مع بقائه على الكفر، [١٥ظ]

[1] في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٩.

فإنّه ممّا لا مساغَ له عقلًا ولا نقلًا. وأمّا الاستغفار له بعد موته على الكفر فلا يأباه قضيّة العقل، وإنّما الذي يمنعه السمعُ؛ ألا يُرى إلى أنّه عليه السلام قال لعمّه أبي طالب: «لا أزال أستغفر لك ما لم أُنهَ عنه»،[١] فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة، ١١٣/٩].

ولا اشتباهَ في أنّ هذا الوعد مِن إبراهيمَ عليه السلام، وكذا قولُه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ وما ترتَّب عليهما مِن قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ الآية، إنّما كان قبل انقطاع رجائه عن إيمانه لعدم تبيُّن أمره، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة، ١١٤/٩]، كما مرّ في تفسير سورة التوبة.

واستثناؤه عمّا يؤتَسى به في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة، ٤/٦٠] لا يقدَح في جوازه، لكن لا لأنّ ذلك كان قبل ورود النهي أو لمَوعِدة وعَدها إيّاه كما قيل، لِما أنّ النهيَ إنّما ورد في شأن الاستغفار بعد تبيّن الأمر، وقد كان استغفاره عليه السلام قبل التبيّن فلم يتناوله النهيُ أصلًا، وأن الوعد بالمحظور لا يرفع حظرَه؛ بل لأنّ المراد بما يؤتَسى به ما يجب الائتساء به حتمًا لورود الوعيد على الإعراض عنه بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة، ٦/٦٠]، فاستثناؤه عن ذلك إنّما يفيد عدم وجوب استدعاء الإيمان للكافر المَرجوّ إيمانه لاسيّما وقد انقطع ذلك عند ورود الاستثناء، وذلك ممّا لا يتردَّد فيه أحد مِن العقلاء.

وأمّا عدم جوازه قبل تبيّن الأمرِ فلا دلالةَ للاستثناء عليه قطعًا. وتوجيه الاستثناءِ إلى العِدَة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفار بقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ الآية؛ لأنّها كانت هي الحاملة له عليه السلام عليه. وتخصيص تلك العِدَة بالذِّكر دون ما وقع ههنا لورودها على نهج / التأكيد القَسَمي، وأمّا جَعْل الاستغفار دائرًا [١٦و] عليها وترتيبُ التبرُّؤ على تبيّن الأمر فقد مرّ تحقيقه في تفسير سورة التوبة.

---

[١] صحيح البخاري، ٩٥/٢ (١٣٦٠) (التوبة، ١١٣/٩)؛ صحيح مسلم، ٥٤/١ (٣٩)؛ جامع البيان للطبري، ٢٠/١٢ (التوبة، ١١٣/٩)؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٠٠/٤ (التوبة، ١١٣/٩).

وقولـه تعالـى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي: بليغًـا فـي البـرّ والإلطـاف، تعليـلٌ لمضمون ما قبله.

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝٤٨﴾

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾ أي: أتباعد عنك وعن قومك ﴿وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجَرة بديني حيث لم يؤثِّر فيكم نصائحي. ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾ أعبده وحدَه. وقد جُوّز أن يراد به دعاؤه المذكور في سورة الشعراء،[1] ولا يبعُد[2] أن يُراد به استدعاء الولد أيضًا بقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات، ١٠٠/٣٧] حسبما يساعده السِّباق والسِّياق.

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي: خائبًا ضائعَ السعي، وفيه تعريض بشقائهم في عبادة آلهتهم. وفي تصدير الكلام بـ﴿عَسَىٰ﴾ مِن إظهار التواضُع ومراعاة حُسن الأدب والتنبيهِ على حقيقة الحقّ مِن أنّ الإجابة والإثابة بطريق التفضّل منه عزّ وجلّ لا بطريق الوجوب وأنّ العِبرة بالخاتمة وذلك مِن الغيوب المختصّة بالعليم الخبير، ما لا يخفى.

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيًّا ۝٤٩﴾

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجرة إلى الشام ﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ بدلَ مَن فارقهم مِن أقربائه الكفَرة، لكن لا عَقيبَ المهاجرة فإنّ المشهور أنّ الموهوب حينئذ إسماعيلُ عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ [الصافات، ١٠١/٣٧] إثرَ دعائه بقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات، ١٠٠/٣٧]. ولعلّ ترتيبَ هِبتهما على اعتزاله ههنا لبيان كمال عِظَم النِّعم التي أعطاها الله تعالى إيّاه بمقابلة مَن اعتزلهم مِن الأهل والأقرباء، فإنّهما شجرتا الأنبياء لهما أولاد وأحفاد أولو شأن خطير وذوو عدد كثير.

---

[1] وفي هامش م: هو قوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء، ٨٣/٢٦]. «منه».

[2] س: أن يبعد.

هذا وقد رُوي أنه عليه السلام لمّا قصد الشام أتى أوّلًا حَرّان،[١] وتزوّج بسارةَ وولدت له إسحاقَ ووُلد لإسحاقَ يعقوبُ.[٢] والأوّلُ هو الأقرب الأظهر.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلّ واحد منهما أو منهم،[٣] وهو مفعول أوّلُ لقوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا نَبِيًّا﴾، / قُدِّم عليه للتخصيص لكن لا بالنسبة إلى مَن عداهم؛ بل بالنسبة إلى بعضهم، أي: كلّ واحد منهم جعلنا نبيًّا، لا بعضَهم دون بعض. [١٦ظ]

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا﴾ هي النبوّة، وذِكرها بعد ذِكر جَعْلهم نبيًّا للإيذان بأنّها مِن باب الرحمة. وقيل: هي المال والأولاد وما بُسط لهم مِن سَعة الرزق. وقيل: هو الكتاب.[٤] والأظهرُ أنّها عامّة لكلّ خير دِيني ودُنيوي أُوتوه ممّا لم يُؤتَ أحد مِن العالمين.

﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيًّا﴾ يفتخر بهم الناس ويُثنون عليهم استجابة لدعوته بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء، ٨٤/٢٦]. والمراد باللسان ما يوجد به مِن الكلام، ولسان العرب: لغتهم، وإضافتُه إلى الصدق ووصفُه بالعُلوّ للدلالة على أنّهم أحِقّاءُ بما يُثنون عليهم، وأنّ مَحامِدهم لا تخفى على تباعُد الأعصار وتبدّلِ الدول وتحوّل المِلَل والنِحَل.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥١﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ قُدّم ذِكره على ذِكر إسماعيلَ عليهما السلام لئلّا ينفصِل عن ذِكر[٥] يعقوبَ عليهم السلام. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾[٦] موحِّدًا أخلصَ عبادته

---

[١] حرّان: هي مدينة عظيمة مشهورة، مِن جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر. وهي على طريق الموصل والشام والروم. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٣٥/٢.

[٢] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٩/٢.

[٣] وفي هامش م: وهو الأنسب بما بعده مِن ضميرَي الجمع. «منه».

[٤] القولان في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٦/٥.

[٥] س – ذِكر.

[٦] ضُبطت في م بكسر "اللام"، وقرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢. وأثبتُّ قراءة حفص ههنا.

عن الشِّرك والرِّياء، أو أسلَم وجهه لله وأخلَص نفسَه عمّا سواه، وقرئ: "مُخْلَصًا"[١] على أنّ الله تعالى أخلصَه.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أرسله الله تعالى إلى الخلق فأنبأهم عنه، ولذلك قُدّم ﴿رَسُولًا﴾ مع كونه أخصّ وأعلى.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ ﴿ٱلطُّورِ﴾: جبل بين مصرَ ومَدْيَنَ، و﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ صفة لـ"الجانب"، أي: ناديناه مِن ناحيته اليُمنى مِن اليمين، وهي التي تَلي يمينَ موسى عليه السلام، أو مِن جانبه الميمون مِن" اليُمن"، ومعنى ندائه منه أنه تمثَّل له الكلام مِن تلك الجهة.

﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيًّا﴾ تقريبَ تشريف، مُثّل حاله عليه السلام بحال مَن قرّبه المَلِك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته. و﴿نَجِيًّا﴾، أي: مناجيًا حال مِن أحد الضميرين في ﴿نَٰدَيۡنَٰهُ﴾ أو ﴿قَرَّبۡنَٰهُ﴾. وقيل: مرتفعًا، لِما رُوي أنّه رُفع فوق السماوات حتّى سمع / صَريف القلم.[٢] [١٧و]

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَا﴾ أي: مِن أجل رحمتنا ورأفتنا له أو بعض رحمتنا ﴿أَخَاهُ﴾ أي: معاضَدة أخيه ومؤازرته إجابة لدعوته بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرًا مِّنۡ أَهۡلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي﴾ [طه، ٢٩/٢٠-٣٠] لا نفسَه، لأنّه كان أكبرَ منه عليهما السلام، وهو على الأوّل مفعول لـ﴿وَهَبۡنَا﴾ وعلى الثاني بدل، وقوله تعالى: ﴿هَٰرُونَ﴾ عطف بيان له وقوله تعالى: ﴿نَبِيًّا﴾ حال منه.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَ﴾ فُصِل ذِكره عن ذِكر أبيه وأخيه لإبراز كمال

---

[١] قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.

[٢] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٠/٢.

الاعتناء بأمره بإيراده مستقلًا، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ تعليل لموجَب الأمر، وإيرادُه عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرته به، وناهيك أنّه وعَد الصبرَ على الذبح بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾[1] [الكهف، ٦٩/١٨] فوفّى.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ فيه دلالة على أنّ الرسول لا يجب أن يكون صاحبَ شريعة، فإنّ أولاد إبراهيمَ عليهم السلام كانوا على شريعته.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ اشتغالًا بالأهمّ وهو أن يُقبِل الرجل بالتكميل على نفسه ومَن هو أقربُ الناس إليه، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء، ٢١٤/٢٦] ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه، ١٣٢/٢٠] ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم، ٦/٦٦]، وقصدًا[2] إلى تكميل الكلّ بتكميلهم لأنّهم قدوة يُؤتسى بهم. وقيل: ﴿أَهْلَهُۥ﴾ أمّته فإنّ الأنبياء عليهم السلام آباء الأمَم.[3]

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ لاتّصافه بالنعوت الجليلة التي مِن جملتها ما ذُكر مِن خصاله الحميدة.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾ وهو سِبط شيث وجدُّ أبي نوح فإنّه نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريسُ عليه السلام، واشتقاقُه مِن الدَّرس[4] يردّه مَنْع صرفه. نعم لا يبعُد أن يكون معناه في تلك اللغة قريبًا مِن ذلك فلُقّب به لكثرة دراسته.[5] رُوي أنّه تعالى / أنزل عليه ثلاثين صحيفةً وأنّه أوّلُ مَن خطّ بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب.[6] [١٧ظ]

---

[1] كذا في م ط س، والآية المذكورة قالها موسى عليه السلام للخَضِر، وأمّا وعد إسماعيل بالصبر على الذّبح فهو في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات، ١٠٢/٣٧].

[2] السياق: اشتغالًا... وقصدًا...

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ١٩/٣.

[4] ذكَر ذلك البغوي في معالم التنزيل، ٢٣٧/٥.

[5] الردّ مع التوجيه المذكور ذكرهما الزمخشري في الكشّاف، ٢٠/٣.

[6] الكلام في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٧/٥-٢٣٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازِمًا للصدق في جميع أحوالِه ﴿نَّبِيًّا﴾ خبرٌ آخرُ لـ﴿كَانَ﴾ مخصِّص للأول، إذ ليس كلُّ صدِّيق نبيًا.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ هو شرَف النبوّة والزُّلفى عند الله عزّ وجلّ. وقيل: علوُّ الرتبة بالذِّكر الجميل في الدنيا،[1] كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح، ٤/٩٤]. وقيل: الجنّة.[2] وقيل: السماء السادسة،[3] أو الرابعة.[4]

رُوي عن كعب وغيره في سبب رَفْع إدريسَ عليه السلام أنّه سُئل ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: «يا ربّ إنّي قد مشَيتُ فيها يومًا وقد أصابني منها ما أصابني، فكيف مَن يحمِلها مسيرةَ خمسمائة عامٍ في يوم واحد؟ اللّٰهمّ خفِّف عنه مِن ثِقَلها وحرِّها.» فلمّا أصبح المَلَك وجد مِن خفّة الشمس وحرِّها ما لا يعرف، فقال: «يا ربّ ما الذي قضيتَ فيه؟» قال: «إنّ عبدي إدريسَ سألني أن أخفِّف عنك حَمْلها وحرَّها فأجبتُه»، قال: «ربّ اجعل بيني وبينه خُلّةً.» فأذِن الله تعالى له فرفَعه إلى السماء.[5]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين في السورة الكريمة وما فيه مِن معنى البُعد للإشارة بعلوّ رُتبهم وبُعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ صفتُه، أي: أنعم عليهم بفنون النِّعَم الدينيّة والدنيويّة حسبما أشيرَ إليه مجمَلًا، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيان للموصول.

وقوله تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ بدل منه بإعادة الجارّ. ويجوز أن تكون كلمةُ ﴿مِنْ﴾ فيه للتبعيض لأنّ المنعَم عليهم أعمُّ مِن الأنبياء وأخصُّ مِن الذرّيّة.

---

[1] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٨/٥.

[2] مَرويّ عن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.

[3] مَرويّ عن ابن عبّاس والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٥٦٤/١٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.

[4] مَرويّ عن أنس بن مالك وأبي سعيد الخُدري وأبي هريرة ومجاهد في جامع البيان للطبري، ٥٦٤/١٥-٥٦٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٣٨/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.

[5] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٨/٥.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: ومِن ذرّيّة مَن حملنا معه خصوصًا، وهم مَن[1] عدا إدريسَ عليه السلام، فإنّ إبراهيم كان مِن ذرّيّة سام بن نوح. / [١٨و] ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهم الباقون ﴿وَإِسْرَآءِيلَ﴾ عطفٌ على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: ومِن ذرّيّة إسرائيلَ وكان منهم موسى وهارونُ وزكريا ويحيى وعيسى. وفيه دليل على أنّ أولاد البنات مِن الذرِّيّة. ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ أي: ومِن جملة مَن هديناهم إلى الحقّ واجتبيناهم للنبوّة والكرامة.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. ويجوز أن يكون الخبر هو الموصول وهذا استئنافًا مَسوقًا لبيان خشيتهم مِن الله تعالى وإخباتهم له، مع ما لهم مِن عُلوّ الرتبة وسمُوّ الطبقة في شرَف النسَب وكمالِ النفس والزُّلفى مِن الله عزّ سلطانه. و﴿سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ حالان مِن ضمير ﴿خَرُّواْ﴾، أي: ساجدين باكين.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «اتلُوا القرآن وابكُوا فإن لم تبكُوا فتباكوا».[2] و"البُكِيُّ" جمع "باكٍ" كـ"السُّجود" جمع "ساجد"، وأصله "بُكُويٌ" فاجتمعت "الواو" و"الياء" وسُبقت إحداهما بالسكون، فقُلبت الواوُ ياءً وأُدغمت "الياء" في "الياء"، وحُرِّكت "الكاف" بالكسر المجانس لـ"الباء". وقرئ: "يُتْلَى"[3] بـ"الياء" التحتانيّة لأنّ التأنيث غير حقيقي، وقرئ: "بِكِيًّا"[4] بكسر "الباء" للإتباع.

قالوا: ينبغي أن يدعوَ الساجد في سجدته بما يليق بآيها، فهنا يقول: اللّٰهمّ اجعلني مِن عبادك المنعَم عليهم المهديّين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك. وفي آية الإسراء يقول: اللّٰهمّ اجعلني مِن الباكين إليك الخاشعين لك. وفي آية تنزيل السجدة يقول: اللّٰهمّ اجعلني مِن الساجدين لوجهك المسبِّحين بحمدك، وأعوذ بك مِن أن أكون مِن المستكبرين عن أمرك.[5]

---

[1] ط س: ما.

[2] بلفظ قريب في سنن ابن ماجه، ٣٦٢/٢ (١٣٣٧)؛ ومسند أبي يعلى، ٤٩/٢ (٦٨٩)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٤١٠/٣ (١٨٩١)؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وابن جُندب وأبي حَيْوَة وابن عامر وأبي البَرَهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٠٦.

[4] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

[5] القول بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢١/٣.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠﴾

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ يقال لعَقِب الخير: "خَلَف" بفتح اللام، ولعقِب الشرّ: "خَلْف" بالسكون، أي: فعقَبهم وجاء بعدهم عَقِب سوء، ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقُرئ "الصَّلَوَاتِ"،[١] أي: تركوها،[٢] أو أخّروها[٣] عن وقتها ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ مِن شُرب الخمر واستحلال نكاح الأخت مِن الأب / والانهماكِ في فنون المعاصي. وعن عليّ رضي الله عنه: «هم مَن بنى الشديد وركِب المنظور ولبِس المشهور».[٤] [١٨ظ]

﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ أي: شرًّا، فإنّ كلّ شرّ عند العرب غيّ وكلَّ خير رشادٌ، كقوله:

فمَن يلقَ خيرًا يحمَدِ الناسُ أمرهُ ومَن يَغْوَ لا يَعدَمْ على الغيّ لائما[٥]

وعن الضحّاك: جزاءَ غيّ،[٦] كقوله تعالى: ﴿يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ [الفرقان، ٦٨/٢٥] أي: جزاءَ أثامٍ، أو غيًّا عن طريق الجنّة. وقيل: "غَيّ" وادٍ في جهنّم يستعيذ منه أوديتها.[٧]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ يدلّ على أنّ الآية في حقّ الكفَرة. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة، وما فيه مِن معنى البُعد لِما مرّ مِرارًا، أي: فأولئك المنعوتون بالتوبة والإيمان

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والحسن والضحّاك وابن مِقسَم. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٨؛ **المغني في القراءات** للنَّوزاوازي، ص ١٢٠٧.

٢ وفي هامش م: كما هو الظاهر.

٣ وفي هامش م: كما قاله بعضهم.

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤٠٨/١٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢١/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٧٢/٢.

٥ البيت للمُرقّش الأصغر في **المفضَّليّات** للضَّبّي، ص ٢٤٧؛ **وإصلاح المنطق** لابن السكّيت، ص ١٥١؛ **والصحاح** للجوهري، «غوى»؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢١/٣. وهو بلا نسبة في **جامع البيان** للطبري، ٥٧٣/١٥.

٦ عن الزجّاج في **الكشّاف** للزمخشري، ٢١/٣؛ وهو في **معاني القرآن وإعرابه** للزجّاج، ٣٣٥/٣؛ وعن الضحّاك: غيًّا وخسرانًا. **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٤١/٥.

٧ مرويّ بمعناه عن عبد الله بن عمرو وابن عبّاس وعطاء وغيرهم في **جامع البيان** للطبري، ٥٧٢/١٥؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ٢٤١/٥؛ وبلفظه ههنا بلا عزو في **الكشّاف** للزمخشري، ٢١/٣.

والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بموجَب الوعد المحتوم. وقُرئ: "يُدْخَلُوْنَ"[١] على البناء للمفعول.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يُنقَصون مِن جزاء أعمالِهم شيئًا، أو لا ينقُصون شيئًا مِن "النقص". وفيه تنبيهٌ على أنّ كفرهم السابق لا يضرّهم ولا ينقُص أجورَهم.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ بدلَ البعض لاشتمالها عليها وما بينهما اعتراض، أو نصب على المدح، وقُرئ بالرفع[٢] على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي أو تلك جنّات... إلخ. أو مبتدأ خبرُه ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ﴾... إلخ. وقُرئ: "جَنَّة عَدْنٍ" نصبًا[٣] ورفعًا.[٤]

و"عَدْن" عَلَم لمعنى العَدْن وهو الإقامة، كما أنّ "فَيْنَةَ" و"سَحَرَ" و"أمسَ" فيمَن لم يصرِفها أعلامٌ لمعاني "الفَينة" وهي الساعة التي أنت فيها و"السَّحَر" و"الأمس"، فجرى لذلك مَجرى العَدْن، أو هو عَلَم لأرض الجنّة خاصّة، ولولا ذلك لَما ساغ إبدال ما أضيفَ إليه / مِن الجنّة بلا وصف عند غير البصريّين [١٩و] ولا وصفه[٥] بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾، وجَعْلُه بدلًا منه خلاف الظاهر، فإنّ الموصول في حُكم المشتقّ وقد نصّوا على أنّ البدَل بالمشتقّ ضعيف. والتعرّض لعنوان الرحمة للإيذان بأنّ وعدها وإنجازه لكمال سَعة رحمته تعالى.

والباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ متعلّقة بمضمر هو حال مِن المضمر العائد إلى "الجنّات" أو مِن ﴿عِبَادَهُۥ﴾، أي: وعَدها إيّاهم ملتبِسةً أو ملتبِسين بالغيب،

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو جعفر وأبو بكر ورَوح. النشر لابن الجزري، ٢٥٢/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والحسن وابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة والمُناذري عن نافع والقُورُسي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٢٠٧.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وقتادة والأعمش والزُّهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٢٠٨.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وإسحاق والأزرق عن نافع وقتادة. المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٢٠٧.

[٥] وفي هامش م: أي: وَصْفُ ما أضيفَ إليه. «منه».

أي: غائبة عنهم غيرَ حاضرة أو غائبين عنها لا يرَونها، وإنّما آمنوا بها بمجرّد الإخبار، أو بمضمر هو سبب للوعد، أي: وعدها إيّاهم بسبب إيمانهم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ﴾ أي: موعده كائنًا ما كان فيدخل فيه الجنّات الموعودة دخولًا أوّليًا، ولمّا كانت هي مَثابة يُرجَع إليها قيل: ﴿مَأۡتِيّٗا﴾ أي: يأتيه مَن وُعِد له لا محالةَ بغير خُلْف. وقيل: هو مفعول بمعنى فاعل. وقيل: مأتيًا، أي: مفعولًا مُنجَزًا مِن "أتى إليه إحسانًا"، أي: فعَلَه.[1]

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝٦٢﴾

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا﴾ أي: فضولَ كلام لا طائلَ تحته، وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها، وفيه تنبيه على أنّ اللغوَ ممّا ينبغي أن يُجتنَب عنه في هذه الدار ما أمكن. ﴿إِلَّا سَلَٰمٗا﴾ استثناء منقطِع، أي: لكن يسمعون تسليمَ الملائكة عليهم أو تسليمَ بعضهم على بعض، أو متّصلٌ بطريق التعليق بالمُحال، أي: لا يسمعون لغوًا ما إلّا سلامًا فحيث استحال كون السلام لغوًا استحال سماعُهم له بالكلّيّة، كما في قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفهم ... بهنّ فُلول مِن قِراع الكتائبِ[2]

أو على أنّ معناه الدعاء بالسلامة وهم أغنياءُ عنه، فهو مِن باب اللغو ظاهرًا، وإنّما فائدته الإكرام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ / فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم، ١٩/٦٢] وارد على عادة المتنعِّمين في هذه الدار. وقيل: المراد دوام رزقِهم ودُروره، وإلّا فليس فيها بكرةٌ ولا عشيّ.[3] [١٩ظ]

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ۝٦٣﴾

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ﴾ مبتدأ وخبر جيء به لتعظيم شأن الجنّة وتعيين أهلها، فإنّ ما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتها وعلوّ رتبتها ﴿ٱلَّتِي نُورِثُ﴾

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣.

٢ البيت للنابغة الذُبياني في ديوانه، ص ٦٠؛ وهو له في كتاب سيبويه، ٣٢٦/٢؛ والإيضاح للقزويني، ص ٥٢٤؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٣/٢.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣.

أي: نورثها ﴿مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ أي: نُبقيها عليهم بتقواهم ونُمتِّعهم بها كما نُبقي على الوارث مالَ مورثه ونمتِّعه به.

والوِراثة أقوى ما يُستعمَل في التملّك والاستحقاق مِن الألفاظ مِن حيث إنّها لا يعقَّب بفسخ ولا استرجاع ولا إبطال. وقيل: يُورَث المتَّقون مِن الجنّة المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا وأطاعوا زيادة في كرامتهم.[1] وقرئ: "نُوَرِّثُ"[2] بالتشديد.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكاية لقول جبرائيلَ حين استبطأه رسولُ الله عليهما السلام لمّا سئل عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فلم يدرِ كيف يجيب ورجا أن يُوحى إليه فيه فأبطأ عليه أربعين يومًا أو خمسةَ عشرَ فشقّ ذلك عليه مشقّة شديدة، وقال المشركون: وَدَّعه ربُّه وقلاه، ثمّ نزَل ببيان ذلك، وأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية وسورة الضحى.[3] والتنزّل النزول على مَهل لأنّه مطاوعٌ للتنزيل وقد يطلق على مطلق النزولِ كما يطلَق التنزيل على الإنزال، والمعنى وما نتنزّل وقتًا غِبَّ وقت إلّا بأمر الله تعالى على ما يقتضيه حكمتُه. وقرئ: "وَمَا يَتَنزَّلُ"[4] بالياء والضمير للوحي.

﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وهو ما نحن فيه مِن الأماكن والأزمنة، ولا ننتقل مِن مكان إلى مكان ولا ننزل في / زمان دون زمان إلّا بأمره ومشيئته. [٢٠و]

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: تاركًا لك يعني أنّ عدم النزول لم يكن إلّا لعدم الأمر به لحكمة بالغة فيه، ولم يكن لتَركه تعالى لك وتوديعه إيّاك كما زعمَتِ الكفرة.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة والحسن وقتادة وابن مِقسَم ومحبوب عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٠٨.

٣ الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٢-٢٣. ومضى بتخريجه في تفسير الآية الثالثة والعشرين مِن سورة الكهف، والآية الثالثة والثمانين منها.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢.

وفى إعادة اسم الربّ المُعرِب عن التبليغ إلى الكمال اللائق مضافًا إلى ضميره عليه السلام مِن تشريفه عليه السلام والإشعار بعلّة الحُكم ما لا يخفى.

وقيل: أوّل الآية حكاية قول المتّقين حين يدخُلون الجنّة مخاطِبًا بعضُهم بعضًا بطريق التبجّح والابتهاج، والمعنى وما نتنزّل الجنّةَ إلّا بأمر الله تعالى ولطفه، وهو مالك الأمور كلّها سالِفها ومُترَقَّبِها وحاضرِها، فما وجدناه وما نجده مِن لطفه وفضلِه، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تقرير لقولهم مِن جهة الله تعالى، أي: وما كان ناسيًا لأعمال العاملين وما وعدهم مِن الثواب عليها.[١]

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فإنّ مَن بيده ملكوت السماوات والأرض وما بينهما كيف يُتصوَّر أن يحوم حول ساحة سبحانِه الغفلةُ والنسيانُ؟ وهو خبرُ مبتدأ محذوف أو بدلٌ مِن ﴿رَبُّكَ﴾.[٢]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ لترتيب ما بعدها مِن موجَب الأمرين على ما قبلها مِن كونه تعالى ربَّ السماوات والأرض وما بينهما. وقيل: مِن كونه تعالى غيرَ تارك له عليه السلام أو غيرَ ناسٍ لأعمال العاملين، والمعنى: فحين عرفتَه تعالى بما ذُكر مِن الربوبيّة الكاملة فاعبده... إلخ، فإنّ إيجاب معرفته تعالى كذلك لعبادته ممّا لا ريبَ فيه، أو حين عرفتَ أنّه تعالى لا ينساك أو لا ينسى أعمال العاملين كائنًا مَن كان فأقبِلْ على عبادته، واصطبرْ على مشاقّها، ولا تحزن بإبطال الوحي وهُزْؤ الكفرة، فإنّه يُراقبك ويُراعيك ويلطُف بك في الدنيا والآخرة.[٣]

وتعدية الاصطبار بـ"اللام" لا بحرف الاستعلاء، كما في قوله تعالى: / ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه، ١٣٢/٢٠] لتضمّنه معنى الثبات للعبادة فيما تُورِد عليه [٢٠ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٣/٣.

٢ في الآية السابقة.

٣ القول بإيجاز في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٤/٢.

مِن الشدائد والمشاقّ، كقولك للمبارز: "اصطبِر لقِرنك"، أي: اثبُت له فيما يُورد عليك مِن شَدّاته.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ السمِيُّ هو[1] الشريك في الاسم، والظاهر أن يراد به ههنا الشريك في اسم خاصّ قد عُبّر[2] عنه تعالى بذلك وهو ربُّ السماوات والأرض وما بينهما. والمراد بإنكار العِلم ونفيه إنكارُ المعلوم ونفيه على أبلغ وجه وآكَده، فالجملة تقرير لِما أفاده "الفاء" مِن عِلّيّة ربوبيّته العامّة لوجوب عبادته؛ بل لوجوب تخصيصها به تعالى ببيان استقلاله عزّ وجلّ بذلك الاسم وانتفاء إطلاقه على الغير بالكلّيّة حقًّا أو باطلًا.

وقيل: المراد هو الشريك في الاسم الجليل، فإنّ المشركين مع غلوّهم في المكابرة لم يسمُّوا الصنم بالجلالة أصلًا. وقيل: هو الشريك في اسم الإله، والمرادُ بالتسمية التسمية على الحقّ، فالمعنى هل تعلم شيئًا يسمّى بالاستحقاق إلهًا؟ وأمّا التسمية على الباطل فهي كلا تسميةٍ،[3] فتقريرُ الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار ما في الاسمين الكريمين مِن الإشعار باستحقاق العبادة، فتدبّر.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ٦٦﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المراد به إمّا الجنسُ بأسره وإسنادُ القول إلى الكلّ لوجود القول فيما بينهم وإن لم يقلْه الجميع، كما يقال: "بنو فلان قتلوا فلانًا" وإنّما القاتل واحد منهم، وإمّا البعضُ المعهود منهم وهم الكفَرة أو أُبيُّ بن خَلَف، فإنّه أخذ عظامًا باليةً ففتّها فقال: يزعُم محمّد أنّا نُبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذه الحال،[4] أي: يقول بطريق الإنكار والاستبعاد: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أي: أُبعث مِن الأرض، أو مِن حال الموت.

وتقديم الظرف وإيلاؤه حرفَ الإنكار لِما أنّ المنكَر كون ما بعد الموت وقت الحياة، وانتصابُه بفعل دلّ عليه ﴿أُخْرَجُ﴾ لا به، فإنّ ما بعد "اللام" لا يعمَل

---

[1] س – هو.
[2] هكذا ضبطها المصنّف.
[3] القولان بمعناهما في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٤.
[4] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٧٤.

فيما قبلها، وهي ههنا مخلَصة للتوكيد مجرّدة عن معنى الحال، كما خلَصت "الهمزة" و"اللام" للتعويض في "يا الله" فساغ اقترانها بحرف الاستقبال. وقرئ: "إِذَا مَا مِتُّ"[1] بهمزة واحدة مكسورة على الخبر.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ مِن الذِّكر الذي يراد به التفكّر. والإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بأنّ الإنسانيّة مِن دواعي التفكّر فيما جرى عليه مِن شئون التكوين المُنْجِية بالقلع على القول المذكور، وهو السرُّ في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان. والهمزة للإنكار التوبيخي، و"الواو" لعطف الجملة المنفيّة على مقدَّر يدلُّ عليه ﴿يَقُولُ﴾،[2] أي: أيقول ذلك ولا يذكُر.

﴿أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ أي: والحال أنّه لم يكن حينئذ شيئًا أصلًا، فحيث خلقناه وهو في تلك الحالة المنافية للخَلْق بالكلّيّة / مع كونه أبعدَ مِن الوقوع فلأن نَبعثَه بجمع الموادّ المتفرِّقة وإيجادِ مِثل ما كان فيها مِن الأعراض أولى وأظهرُ، فما له لا يذكُره فيقعَ فيما يقع فيه مِن النكير؟ وقرئ: "يَذَّكَّرُ"[3] و"يَتَذَكَّرُ"[4] على الأصل. [٢١و]

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ إقسامه باسمه عزّت أسماؤه مضافًا إلى ضميره عليه السلام لتحقيق الأمر بالإشعار بعلّيّته وتفخيم شأنه عليه السلام ورَفْع منزلته. ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ لنجمعَنّ القائلين بالسَّوق إلى المَحشَر بعد ما أخرجناهم مِن الأرض أحياء، ففيه إثبات للبعث بالطريق البرهاني على أبلغ وجه وآكَده، كأنّه أمْر واضح غنيّ عن التصريح به، وإنّما المحتاج إلى البيان ما بعد ذلك مِن الأهوال. ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ معطوف على الضمير المنصوب أو مفعول معه.

---

[1] قرأ بها ابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/١.
[2] في الآية السابقة.
[3] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢.

رُوي أنّ الكفرة يُحشرون مع قرنائهم مِن الشياطين التي كانت تُغويهم، كلٌّ منهم معَ شيطانه في سلسلة، وهذا وإن كان مختصًا بهم، لكن ساغ نسبته إلى الجنس[١] باعتبار أنّهم لمّا حُشروا وفيهم الكفَرة مقرونين بالشياطين فقد حُشروا معهم جميعًا كما ساغ نسبة القول المحكي إليه مع كون القائل بعضَ أفراده.[٢]

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ ليرى السعداء ما نجّاهم الله تعالى منه فيزدادوا غِبطةً وسرورًا، وينالَ الأشقياء ما ادخّروا لمَعادهم عُدّةً ويزدادوا غيظًا مِن رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم بهم.و"الجِثيّ" جمع "جاثٍ" مِن "جثا" إذا قعَد على ركبته، وأصلُه "جُثُوْوٌ" بواوين فاستُثقل اجتماعهما بعد ضمّتين فكُسرت "الثاء" للتخفيف فانقلبت الواو الأولى ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها، فاجتمعَت واو وياء وسبقت إحداهما بالسكون فقُلبت الواو ياءً، وأُدغمت فيها "الياء" الأولى وكُسرت "الجيم" إتباعًا لها[٣] لِما بعدها. وقرئ / بضمّها.[٤] [٢١ظ]

ونصبُه على الحاليّة مِن الضمير البارز، أي: لنُحضرنّهم حول جهنّم جاثين على رُكَبهم لِما يدهَمُهم مِن هول المطلَع، أو لأنّه مِن توابع التواقُف للحساب قبل التواصُل إلى الثواب والعقاب، فإنّ أهل الموقف جاثون كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية، ٢٨/٤٥] على ما هو المعتاد في مواقف التقاوُل، وإن كان المراد بالإنسان الكفَرة فلعلّهم يُساقون مِن الموقف إلى شاطئ جهنّم جُثاة إهانة بهم أو لعَجْزهم عن القيام لِما اعتراهم مِن الشدّة.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠﴾

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: مِن كلّ أمّة شاعت دينًا مِن الأديان ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أي: مَن كان منهم أعصى وأعتى فنطرَحهم فيها. وفي ذِكر "الأشدّ"

---

[١] وفي هامش م: هو على تقدير كون المراد بـ"الإنسان" الجنس.

[٢] الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢٦/٣؛ وبعضه في معالم التنزيل للبغوي، ٢٤٥/٥.

[٣] س – لها.

[٤] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

تنبيه على أنّه تعالى يعفو عن بعض مِن أهل العصيان. وعلى تقدير تفسير ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾[١] بالكفَرة فالمعنى: إنّا نميّز مِن كلّ طائفة منهم أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فنطرحهم في النار على الترتيب أو نُدخل كلًّا منهم طبقتها اللائقة به.

و﴿أَيُّهُمْ﴾ مبنيّ على الضمّ عند سيبويه،[٢] لأنّ حقّه أن يُبنى كسائر الموصولات لكنّه أعرِبَ حَمْلًا على "كلّ" و"بعض" للزوم الإضافة، وإذا حُذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى حقّه، ومنصوبٌ[٣] المحلّ بـ﴿نَنزِعَنَّ﴾، ولذلك قرئ منصوبًا،[٤] ومرفوعٌ[٥] عند غيره[٦] بالابتداء على أنّه استفهامي وخبره ﴿أَشَدُّ﴾، والجملةُ مَحكيّة، والتقدير: لننزعَنّ مِن كلّ شيعة الذين يقال لهم: أيُّهم أشدّ، أو مُعلّقٌ عنها ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ لتضمّنه معنى التمييز اللازم للعِلم، أو مستأنَفةٌ والفعل واقع على ﴿كُلِّ شِيعَةٍ﴾، / على زيادة ﴿مِن﴾ أو على معنى لننزعنّ بعض كلّ شيعة، كقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَا﴾ [مريم، ١٩/٥٣]. [٢٢و]

و﴿عَلَى﴾ للبيان فيتعلّق بمحذوف، كأنّ سائلًا قال: على مَن عتَوا؟ فقيل: على الرحمن، أو متعلِّق بـ"أفعل".[٧] وكذا "الباء" في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي: هم أَولى بصليّها أو صليُّهم أولى بالنار وهم المنتزَعون. ويجوز أن يراد بهم وبأشدِّهم عِتيًّا رؤساءُ الشِّيَع، فإنّ عذابهم مُضاعَف لضلالهم وإضلالهم.[٨] و"الصِّليُّ" كـ"العِتيّ" صيغةً وإعلالًا، وقرئ بضمّ الصاد.[٩]

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾

﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ التفات لإظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام. وقيل: هو خطاب للناس مِن غير التفات إلى المذكور.[١٠] ويؤيّد الأوّل أنّه قرئ:

---

١ مريم، ١٩/٦٧.

٢ انظر: كتاب سيبويه، ٢/٤٠٠.

٣ س: وهو منصوب.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والأعمش والصرصري والمَلَطي عن أبي بكر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢١٠.

٥ السياق: مبنيّ على الضمّ... أو مرفوع...

٦ أي: غير سيبويه.

٧ هذه الوجوه في إعرابها مذكورة بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٧٥.

٨ الوجه بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٦.

٩ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٧.

١٠ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٧.

"وَإِنْ مِنْهُمْ"،[١] أي: ما منكم أيها الإنسان. ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي: واصلها وحاضر دونها، يمرّ بها المؤمنون وهي خامدة وتنهار بغيرهم. وعن جابر أنّه عليه السلام سُئل عنه فقال: «إذا دخَل أهل الجنّة الجنّة قال بعضُهم لبعض: "أليس قد وعَدنا ربّنا أن نرِد النار؟" فيُقال لهم: "قد وردتُموها وهي خامدة"».[٢] وأمّا قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء، ١٠١/٢١]، فالمراد به[٣] الإبعاد عن عذابها. وقيل: ورودها: الجواز على الصراط الممدود عليها.

﴿كَانَ﴾ أي: ورودُهم إيّاها ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ أي: أمرًا محتومًا أوجبه الله عزّ وجلّ على ذاته وقضى أنّه لا بدّ مِن وقوعه البتّةَ. وقيل: أقسم عليه.[٤]

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾

[٢٢ظ] ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الكفر والمعاصيَ / ممّا كانوا عليه مِن حال الجُثُوّ على الرُّكب على الوجه الذي سلَف، فيُساقون إلى الجنّة. وقرئ: "نُنْجِيْ"[٥] بالتخفيف، و"يُنَجَّى"[٦] و"يُنْجَى"[٧] على البناء للمفعول، وقرئ: "ثَمَّةَ نُنَجِّيْ"[٨] بفتح "الثاء"، أي: هناك نُنجّيهم.

﴿وَنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿فِيهَا جِثِيّٗا﴾ منهارًا بهم كما كانوا. قيل: فيه دليل على أنّ المراد بالورود الجثُوُّ حواليها وأنّ المؤمنين يفارقون الفجَرة بعد تجاثيهم حولها ويُلقى الفجرة فيها على هيئاتهم.[٩]

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ٧٣ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ٧٤﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعكرمة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٣.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٧/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٧٥/٢. وانظر لتخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلَعي، ٣٣٢/٢.

٣ س – به.

٤ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٧٦/٢.

٥ قرأ بها الكسائي ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٢٥٩/٢.

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨/٣.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨/٣.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي ليلى. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٩.

٩ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨/٣.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية إلى آخرها، حكاية لِما قالوا عند سماع الآياتِ الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامةَ مآلهم، أي: وإذا تتلى على المشركين ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ التي مِن جملتها هاتيك الآياتُ الناطقة بحُسن حال المؤمنين وسوءِ حال الكفرة. وقوله تعالى: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: مرتّلاتِ الألفاظ مبيَّناتِ المعاني بنفسها أو ببيان الرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو بيّناتِ الإعجاز، حالٌ مؤكِّدة مِن ﴿ءَايَٰتُنَا﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: قالوا، ووَضع الموصولِ موضعَ الضمير للتنبيه على أنّهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادّين له، أو قال الذين مرَدوا منهم على الكفر ومرَنوا على العتوّ والعِناد وهم النَّضْر بن الحارث وأتباعه الفجَرة. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ للتبليغ، كما في مِثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ [البقرة، ٢/٢٤٧]. وقيل: لام الأجْل،[1] كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف، ٤٦/١١] أي: قالوا لأجلهم وفي حقّهم.

والأوّل هو الأَولى؛ لأنّ قَولهم ليس في حقّ المؤمنين فقط كما ينطِق به / قوله تعالى: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: المؤمنين والكافرين، كأنّهم قالوا: أيّنا ﴿خَيْرٌ﴾ نحن أو أنتم ﴿مَّقَامًا﴾ أي: مكانًا. وقرئ بضمّ "الميم"،[2] أي: موضِعَ إقامة ومنزل. ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: مجلِسًا ومجتمَعًا. [٢٣و]

يُروى أنّهم كانوا يرجِّلون شعورَهم ويدهنونها ويتطيّبون ويتزيّنون بالزِّيَن الفاخرة ثمّ يقولون ذلك لفقراء المؤمنين، يريدون بذلك أنّ خيريّتهم حالًا وأحسنيّتهم مآلًا ممّا لا يقبل الإنكار، وأنّ ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزُلفاهم عنده؛ إذ هو العِيار على الفضل والنقصان والرفعة والضَّعة، وأنّ مِن ضرورته هوانَ المؤمنين عليه تعالى لقصور حظِّهم العاجل، وما هذا القياس العقيم والرأي السقيم إلّا لكونهم جهَلةً لا يعلمون إلّا ظاهرًا مِن الحياة الدنيا، وذلك مبلغُهم مِن العلم.

---

[1] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٧٦.

[2] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٨-٣١٩.

فرُدَّ عليهم ذلك مِن جهته تعالى بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أي: كثيرًا مِن القرون التي كانوا أفضل منهم فيما يفتخرون به مِن الحظوظ الدنيويّة كعاد وثمودَ وأضرابهم مِن الأمَم العاتية قبل هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب، ولو كان ما آتيناهم لِكرامتهم علينا لَما فعلنا بهم ما فعلنا. وفيه مِن التهديد والوعيد ما لا يخفى، كأنّه قيل: فلينتظِرْ هؤلاءِ أيضًا مثلَ ذلك. فـ﴿كَمْ﴾ مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِّن قَرْنٍ﴾ بيان لإبهامها، وأهلُ كلّ عصر قَرنٌ لمَن بعدهم لأنّهم يتقدّمونهم، مأخوذ مِن "قَرْن الدابّة" وهو مقدَّمها.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾ في حيّز النصب على أنّه صفة لـ﴿كَمْ﴾، و﴿أَثَٰثًا﴾ تمييز النسبة وهو متاع البيت. وقيل: هو ما جدّ منه، والجُرْثيُّ[1] ما لُبِس منه ورَثّ.[2] والرِّئْيُ: المنظرُ، / "فِعْلٌ" مِن الرؤية لِما يُرَى، كـ"الطِّحْن" لِما يُطحَن، [٢٣ظ] وقرئ: "رِيًّا"[3] على قلب الهمزة ياءً وإدغامها، أو على أنّه مِن الرِّيّ وهو النعمةُ والتّرفُّه، وقرئ: "رِيْئًا"[4] على القلب، و"رِيَا"[5] بحذف "الهمزة"، و"زِيًّا"[6] بـ"الزاء" المعجَمة مِن الزَّيّ وهو الجمع، فإنّه عبارة عن المحاسن المجموعة.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ لمّا بُيِّن عاقبة أَمر الأمَم المهلَكة مع ما كان لهم مِن التمتّع بفنون الحظوظ العاجلة أُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يجيب هؤلاء المفتخِرين بما لهم مِن الحظوظ ببيان مآل أَمر الفريقين، إمّا على وجه كلّي متناول لهم ولغيرهم مِن المنهمِكين في اللذة الفانية

---

[1] كذا في الأصول الخطّيّة، ولعلّ صوابه "الخُرثيّ". انظر: لسان العرب لابن منظور، «خرث».

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٩.

[3] قرأ بها ابن ذكوان وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ١/٣٩٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير ويزيد البربري والحُلواني عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٢١٢.

المبتهجين بها على أنّ ﴿مَن﴾ على عمومها، وإمّا على وجه خاصّ بهم على أنّها عبارة عنهم ووَصْفهم بالتمكّن لذمّهم والإشعار بعلّة الحُكم، أي: مَن كان مستقرًا في الضلالة مغمورًا بالجهل والغَفلة عن عواقب الأمور فليمدُد له الرحمن، أي: يمُدّ له ويُمهِله بطول العُمر وإعطاءِ المال والتمكين مِن التصرّفات.

وإخراجه على صيغة الأمر للإيذان بأنّ ذلك ممّا ينبغي أن يُفعَل بموجَب الحِكمة لقطع المعاذير، كما ينبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر، ٣٥/٣٧]، أو للاستدراج كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران، ٣/١٧٨]. وقيل: المراد به الدعاء بالمدّ والتنفيس.[١] واعتبارُ الاستقرار في الضلالة لِما أنّ المدّ لا يكون إلا للمُصِرّين عليها إذ رُبّ ضالّ يهديه الله عزّ وجلّ. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة لِما أنّ المدّ مِن أحكام الرحمة الدنيويّة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية للمدّ الممتدّ لا لقول المفتخِرين كما قيل،[٢] / إذ ليس فيه امتدادٌ بحسب الذات، وهو ظاهر، ولا استمرارٌ بحسب التكرار لوقوعه في حيّز جواب ﴿إِذَا﴾.[٣] وجَمْعُ الضمير في الفعلين باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد في الضميرين الأوّلين باعتبار لفظها. [٢٤و]

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ تفصيل للموعود بدل منه على سبيل البدل، فإنّه إمّا العذاب الدنيوي بغلَبة المسلمين واستيلائهم عليهم وتعذيبهم إيّاهم قتلًا وأسرًا، وإمّا يوم القيامة وما نالهم فيه مِن الخزي والنَّكال على طريقة مَنْع الخلوّ دون مَنْع الجمعِ، فإنّ العذاب الأخروي لا ينفكّ عنهم بحال.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ جواب الشرط، والجملة محكيّة بعد ﴿حَتَّىٰٓ﴾، أي: حتّى إذا عاينوا ما يوعَدون مِن العذاب الدنيوي أو الأخروي فقط، فسيعلمون حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مِن الفريقين بأن يشاهِدوا الأمر على عكس ما كانوا يقدّرونه، فيعلمون أنّهم شرٌّ مكانًا لا خيرٌ مقامًا ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي:

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٩.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٧٧.
٣ وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ الآية. «منه».

فئة وأنصارًا لا أحسنُ نديًا كما كانوا يدّعونه، وليس المراد أنّ له ثمّة جندًا ضعفاء، كلّا، ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف، ٤٣/١٨]، وإنّما ذُكر ذلك ردًّا لِما كانوا يزعمون أنّ لهم أعوانًا مِن الأعيان وأنصارًا مِن الأخيار ويفتخرون بذلك في الأندية والمحافل.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان حال المهتدين إثرَ بيان حال الضالّين. وقيل: عطفٌ على ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾؛ لأنّه في معنى الخبر حسبما عرفتَه، كأنّه قيل: مَن كان في الضلالة يمُدّه الله، ويزيد المهتدين هداية،[1] كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد، ١٧/٤٧]. وقيل: عطفٌ على الشرطيّة المحكيّة بعد القول، كأنّه لمّا بيّن أنّ إمهال الكافر وتمتيعه بالحياة ليس لفضله، عُقّب / ذلك ببيان أنّ قصور حظّ المؤمن منها ليس لنقصه؛ بل لأنّه تعالى أراد به ما هو خير مِن ذلك.[2] [٢٤ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ على تقديرَي الاستئناف والعطف كلامٌ مستأنَف وارد مِن جهته تعالى لبيان فَضْل أعمال المهتدين غيرُ داخل في حيّز الكلام الملقّن[3] لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: الطاعات التي تبقى فوائدها وتدوم عوائدها ومِن جملتها ما قيل مِن الصلوات الخمس، وما قيل مِن قول: "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر" خير عند الله تعالى.[4] والتعرّض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره لتشريفه صلّى الله عليه وسلّم.

﴿ثَوَابًا﴾ أي: عائدةً ممّا يتمتّع به الكفرة مِن النِّعم المُخدَجة الفانية التي يفتخرون بها، لاسيّما ومآلُها النعيم المقيم، ومآلُ هذه الحسرةُ السرمديّة والعذابُ الأليم، كما أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: مرجِعًا وعاقبةً. وتكرير "الخير" لمزيد الاعتناء ببيان الخيريّة وتأكيدٌ لها، وفي التفضيل مع أنّ ما للكفرة بمَعزِل مِن أن يكون له خيريّة في العاقبة تهكّمٌ بهم.

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٩/٣.

٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٧/٢.

٣ س – الملقّن.

٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣٠/٣.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: بآياتنا التي مِن جملتها آيات البعث. نزلت في العاص بن وائل كان لخبّاب بن الأرتّ عليه مال فاقتضاه، فقال: «لا، حتّى تكفر بمحمّد»، قال: «لا والله لا أكفر به حيًا ولا ميتًا ولا حين بُعِثتُ»، قال: «فإذا بُعثتَ جئتني فيكونُ لي ثمّة مال وولد فأعطيَك». وفي رواية قال: «لا أكفر به حتّى يُميتَك ثم تُبعثَ»، فقال: «إنّي لميّت ثمّ مبعوث؟» قال: «نعم»، قال: «دعني حتّى أموت وأُبعثَ فسأُوتى مالًا وولدًا فأقضيَك»، فنزلت.[١] فـ"الهمزة" للتعجيب مِن حاله والإيذان بأنّها مِن الغرابة والشناعة بحيث يجب أن تُرى ويُقضى منها العجب.

[٢٥و] / ومَن فرّق[٢] بين "ألم ترَ" و"أرأيتَ" بعد بيان اشتراكهما في الاستعمال لقصد التعجيب بأنّ الأوّل يعلّق بنفس المتعجَّب منه، فيقال: "ألم ترَ إلى الذي صنع كذا" بمعنى انظُرْ إليه فتعجَّبْ مِن حاله، والثاني يعلّق بمثل المتعجَّب منه، فيقال: "أرأيتَ مِثلَ الذي صنع كذا" بمعنى أنّه مِن الغرابة بحيث لا يُرى له مِثلٌ،[٣] فقد حفِظ[٤] شيئًا وغابت عنه أشياءُ، وكأنّه ذهب عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون، ١/١٠٧].

و"الفاء" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام، أي: أنظرْتَ فرأيتَ الذي كفَر بآياتنا الباهرة التي حقُّها أن يؤمِنَ بها كلُّ مَن يشاهدها.

﴿وَقَالَ﴾ مستهزئًا بها مصدّرًا لكلامه باليمين الفاجرة: والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ في الآخرة ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾ أي: انظُر إليه فتعجَّبْ مِن حالته البديعة وجُرأته الشنيعة. هذا هو الذي يستدعيه جزالة النظم الكريم، وقد قيل: إنّ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ بمعنى "أخبِر" و"الفاء" على أصلها والمعنى أخبِرْ بقصّة هذا الكافر عقيبَ حديث أولئك الذين قالوا:

---

[١] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٦٠/٣ (٢٠٩١)؛ وصحيح مسلم، ٢١٥٣/٤ (٢٧٩٥)؛ وجامع البيان للطبري، ٦١٧/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٥٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠/٣-٣١.

[٢] وفي هامش م: هو الفاضل التفتازاني، ذكره في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة، ٢٥٩/٢]. «منه».

[٣] انظر: حاشية التفتازاني على الكشّاف ١٨٨و.

[٤] السياق: ومَن فرّق... فقد حفظ...

﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ الآية،[١] وأنت خبير بأنّ المشهور استعمال "أرأيت" في معنى "أخبرني" بطريق الاستفهام جاريًا على أصله أو مُخرَجًا إلى ما يناسبه مِن المعاني لا بطريق الأمر بالإخبار لغيره.

وقرئ: "وُلْدًا"[٢] على أنّه جَمْع "وَلَد" كـ"أُسْد" جَمْع "أَسَد" أو على أنّه لغة فيه كـ"العُرْب" و"العَرَب".

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ ردّ لكلمته الشنعاء وإظهار لبطلانها إثرَ ما أشيرَ إليه بالتعجيب منها، أي: قد بلغ مِن عظَمة الشأنِ إلى أن ارتقى إلى عِلم الغيب الذي استأثر به العليم الخبير حتّى ادّعى أن يؤتى في الآخرة مالًا وولدًا وأقسم عليه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ بذلك فإنّه لا يُتوصَّل إلى العِلم به إلّا بأحد هذين الطريقين. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة للإشعار بعلّيّة الرحمة / لإيتاء ما يدّعيه. [٢٥ظ] وقيل: العهد: كلمة الشهادة.[٣] وقيل: العمل الصالح،[٤] فإنّ وعده تعالى بالثواب عليهما كالعهد، وهذا مُجاراة مع اللعين بحسب منطوق مقاله كما أنّ كلامه مع خبّاب كان كذلك.

﴿كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردع له عن التفوّه بتلك العظيمة وتنبيهٌ على خطائه. ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: سنُظهر أنّا كتبنا قوله، كقوله:

إذا ما انتسبْنا لم تلِدني لئيمةٌ[٥]

أي: يتبيّن أنّي لم تلِدني لئيمة.

---

[١] مريم، ١٩/٧٣.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٩.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٠.

[٤] مرويّ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ١٥/٦٢١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٥٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٣٠.

[٥] صدر بيت لزائد بن صعصعة الفقعسي، وتمامه:
ولم تجدي مِن أن تُقِرّي بها بُدّا
وهو له في شرح أبيات المغني للبغدادي، ١/١٢٤؛ وبلا نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ١/٦١ (البقرة، ٢/٩١)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٣/١٥٧ (البقرة، ٢/٩١)؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٣١.

. أو سننتقم منه انتقام مَن كتب جريمة الجاني وحفِظها عليه، فإنّ نفس الكَتَبة لا تكاد تتأخّر عن القول، لقوله عزّ وعلا: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق، ١٨/٥٠]، فمبنى الأوّل تنزيل إظهار الشيء الخفيّ منزلةَ إحداث الأمر المعدوم بجامع أنّ كلًّا منهما إخراج مِن الكُمون إلى البُروز فيكون استعارة تبعيّة مبنيّة على تشبيه إظهار الكتابة على رءوس الأشهاد بإحداثها، ومدارُ الثاني تسمية الشيء باسم سببه فإنّ كتابة جريمة المجرم سبب لعقوبته قطعًا.

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ مكان ما يدّعيه لنفسه مِن الإمداد بالمال والولد، أي: نُطوّل له مِن العذاب ما يستحقّه أو نزيد عذابه ونُضاعف له لكُفره وافترائه على الله سبحانه واستهزائه بآياته العِظام، ولذلك أُكّد بالمصدر دلالة على فَرْط الغضب.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾

﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ بموته ﴿مَا يَقُولُ﴾ أي: مسمًّى ما يقول ومِصداقه وهو ما أوتيه في الدنيا مِن المال والولد، وفيه إيذان بأنّه ليس لِما يقول مِصداق موجود سوى ما ذُكر، أي: ننزِع عنه ما آتيناه. ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا فضلًا أن يؤتى ثمّة زائدًا. وقيل: نزوي عنه ما زعَم أنّه يناله في الآخرة ونعطيه مَن يستحقّه.[١] ويأباه معنى الإرث.

وقيل: المراد بـ﴿مَا يَقُولُ﴾ نفس القول المذكور لا مسمّاه، والمعنى إنّما يقول هذا القول ما دام حيًّا فإذا قبضناه حُلْنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضًا له منفردًا عنه.[٢] وأنت خبير بأنّ ذلك مبنيّ على / أنّ صدور القول المذكور عنه بطريق الاعتقاد [٢٦و] وأنّه مستمرّ على التفوّه به راجٍ لوقوع مضمونه، ولا ريبَ في أنّ ذلك مستحيل ممّن كفر بالبعث، وإنّما قال ما قال بطريق الاستهزاء وتعليق أداء دَينه بالمُحال.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١﴾

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ حكاية لجناية عامّة للكلّ مستتبِعةٌ لضدّ ما يرجُون ترتّبه عليها إثرَ حكاية مقالة الكافر المعهود واستتباعِها لنقيض مضمونها،

---

[١] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣١/٣.

[٢] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٨/٢.

أي: اتّخذوا الأصنام آلهةً متجاوزين الله تعالى. ﴿لِيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ أي: ليُعزّزوا بهم بأن يكونوا لهم وُصلةً إليه عزّ وجلّ وشفعاءَ عنده.

﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم مِن ذلك الاعتقاد الباطل وإنكار لوقوع ما علّقوا به أطماعهم الفارغة. ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ أي: ستجحد الآلهة بعبادتهم لها بأن يُنطِقها الله تعالى وتقولَ: ما عبدتمونا، أو سيُنكر الكفرة حين شاهدوا سوء عاقبة كفرهم عبادتهم لها، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام، ٢٣/٦].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ على الأوّل تكون الآلهة التي كانوا يرجُون أن تكون لهم عِزًّا ضدًّا للعزّ، أي: ذلًّا وهَوانًا، أو تكون عونًا عليهم وآلةً لعذابهم حيث تُجعل وَقود النار وحصَب جهنّم، أو حيث كانت عبادتهم لها سببًا لعذابهم. وإطلاق الضدّ على العَون لِما أنّ عَون الرجل يُضادّ عدوّه وينافيه بإعانته له عليه.

وعلى الثاني يكون الكفَرة ضدًّا وأعداءً للآلهة كافرين بها بعد أن كانوا يحبُّونها كحبّ الله ويعبدونها. وتوحيدُ الضدّ لوَحدة المعنى الذي عليه يدور مُضادّتهم، فإنّهم بذلك كشيء واحد، كما في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «وهم يد على مَن سواهم»،[1] وقرئ: "كَلًّا"[2] بفتح "الكاف" والتنوينِ على قلب "الألف" نونًا / في الوقف قلْبَ ألِفِ الإطلاق في قوله: [٢٦ظ]

أقِلّي اللومَ عاذِلَ والعِتابَنْ وقُولي إن أصبتُ لقد أصابَنْ[3]

أو على معنى كَلَّ هذا الرأي كلًّا، وقرئ: "كُلًّا"[4] على إضمار فعل يفسّره ما بعده، أي: سيجحدون كلًّا سيكفرون... إلخ.

---

[1] مسند أحمد، ٢٦٧/٢ (٩٥٩)؛ سنن أبي داود، ٣٧٩/٤ (٢٧٥١)؛ شعب الإيمان ٤٠/٣ (١٣٧٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٢/٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهيك. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٩.

[3] البيت لجرير في ديوانه ٨١٣؛ وهو له في كتاب سيبويه، ٢٠٥/٤؛ وسِرّ صناعة الإعراب لابن جنّي، ١٣٦/٢؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٠٠/٣ (الأحزاب، ١٠/٣٣).

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مجاهد. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢١٣.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تعجيب لرسول الله صلّى الله عليه وسلَم ممّا نطَقت به الآيات الكريمة السالفة وحكَته عن هؤلاء الكفَرة الغُواة والمَرَدة العُتاة مِن فنون القبائح مِن الأقاويل والأفاعيل، والتمادي في الغيّ، والانهماكِ في الضلال، والإفراط في العِناد، والتصميمِ على الكفر مِن غير صارف يَلويهم ولا عاطف يَثنيهم، والإجماعِ على مدافَعة الحقّ بعد اتّضاحه وانتفاءِ الشكّ عنه بالكلّيّة؛ وتنبيهٌ على أنّ جميع ذلك منهم بإضلال الشياطين وإغوائهم؛ لا لأنّ له مسوِّغًا ما في الجملة.

ومعنى إرسال الشياطين عليهم إمّا تسليطهم عليهم وتمكينهم مِن إضلالهم وإمّا تقييضهم لهم، وليس المراد تعجيبه عليه السلام مِن إرسالهم عليهم،[1] كما يُوهِمه تعليق الرؤية به، بل ممّا ذُكر مِن أحوال الكفَرة مِن حيث كونها مِن آثار إغواء الشياطين كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ فإنّه إمّا حال مقدَّرة مِن ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، أو استئناف وقَع جوابًا عمّا نشأ مِن صدر الكلام، كأنّه قيل: ماذا يفعل الشياطين بهم حينئذ؟ فقيل: تؤزُّهم، أي: تُغريهم وتُهيِّجهم على المعاصي تهييجًا شديدًا بأنواع الوساوس والتسويلات، فإنّ الأزّ والهزّ والاستفزاز أخوات معناها شِدّةُ الإزعاج.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بأن يَهلكوا حسبما يقتضيه جناياتهم ويَبيدوا عن آخرهم وتطهُر الأرض مِن فساداتهم. و"الفاء" للإشعار / بكون ما قبلها مَظِنّة [٢٧و] لوقوع المنهيّ عنه مُحوِجةً إلى النهي كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه، ٢٠/١١٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ تعليل لموجَب النهي ببيان اقتراب هلاكهم، أي: لا تستعجِل بهلاكهم، فإنّه لم يبقَ لهم إلّا أيّام وأنفاسٌ نعُدّها عدًّا.

---

[1] كما ذهب إليه الزمخشري في الكشّاف، ٣/٣٢.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ منصوب على الظرفيّة بفعل مؤخَّرٍ قد حُذف للإشعار بضيق العبارة عن حصره وشرحِه لكمال فظاعة ما يقع فيه مِن الطامّة التامّة والدواهي العامّة، كأنّه قيل: يوم نحشر المتّقين، أي: نجمعهم ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إلى ربّهم الذي يغمرهم برحمته الواسعة ﴿وَفْدًا﴾ وافدين عليه كما يَفِدُ الوفود على الملوك منتظِرين لكرامتهم وإنعامِهم.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما تُساق البهائم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ عِطاشًا فإنّ مَن يرد الماء لا يُورِده إلّا العطشُ، أو كالدوابّ التي ترِد الماء، نفعل بالفريقين مِن الأفعال ما لا يفي ببيانه نِطاق المقال.

وقيل: منصوب على المفعوليّة بمضمر مقدَّم خُوطب به النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم، أي: اذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يوم نحشر... إلخ. وقيل: على الظرفيّة لقوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾.[1] والذي يقتضيه مقام التهويل وتستدعيه جزالة التنزيل أن ينتصب بأحد الوجهين الأوّلَين، ويكون هذا استئنافًا مبيِّنًا لبعض ما فيه مِن الأمور الدالّة على هَوله، وضميره عائد إلى العباد المدلول عليهم بذِكر الفريقين لانحصارهم فيهما.

[٢٧ظ] وقيل: إلى المتّقين / خاصّة. وقيل: إلى المجرمين مِن الكفرة وأهل الإسلام.[2] والشفاعة على الأوّلَين مصدر مِن المبنيّ للفاعل، وعلى الثالث ينبغي أن يكون مصدرًا مِن المبنيّ للمفعول.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ على الأوّل استثناء متّصل مِن ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، ومحلّ المستثنى إمّا الرفع على البدل أو النصب على أصل الاستثناء، والمعنى لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم إلّا مَن استعَدّ له بالتحلّي بالإيمان والتقوى أو مَن أُمر بذلك، مِن قولهم: "عَهِد الأمير إلى فلان بكذا" إذا أمرَه به، فيكون ترغيبًا للناس في تحصّل الإيمان والتقوى المؤدّي إلى نَيل هذه الرتبة.

---

[1] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٣.

[2] القولان في المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤/٣٣.

وعلى **الثاني** استثناء مِن ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ على حذف المضافِ، والمستثنى منصوب على البدل أو على أصل الاستثناء، أي: لا يملك المتّقون الشفاعة إلّا شفاعةَ مَن اتّخذ العَهْد بالإسلام فيكون ترغيبًا في الإسلام.

وعلى **الثالث** استثناء مِن ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ أيضًا، والمستثنى مرفوع على البدل أو منصوب على الأصل، والمعنى لا يملك المجرمون أن يُشفَع لهم إلّا مَن كان منهم مسلمًا.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩﴾

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ حكاية لجناية اليهود والنصارى ومَن يزعُم مِن العرب أنّ الملائكة بنات الله -سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- إثرَ حكاية جناية عبَدة الأصنام بطريق عطف القصّة على القصّة.

وقوله تعالى: **﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾** ردّ لمقالتهم الباطلة وتهويلٌ لأمرها بطريق الالتفات المنبئ عن كمال السخط وشدّة الغضب المُفصِح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيلٌ عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة. و"الإدّ" / بالكسر والفتح: العظيم المنكَر، والإدّة: الشِّدّة، و"أدّني الأمر وآدني": أثقلني وعظُم عليّ، أي: فعلتُم أمرًا منكَرًا شديدًا لا يقادَر قَدْره، فإنّ "جاء" و"أتى" يستعملان في معنى فعَل فيُعدَّيان تعدِيتَه. [٢٨و]

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١﴾

وقوله تعالى: **﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾**... إلخ، صفة لـ﴿إِدّٗا﴾،[١] أو استئناف لبيان عِظَم شأنه في الشدّة والهَول. وقرئ: "يَكَادُ"[٢] بالتذكير. **﴿يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾** يتشقّقن مرّة بعد أخرى مِن عِظَم ذلك الأمر. وقرئ: "يَنْفَطِرْنَ"،[٣] والأوّل أبلغ؛ لأن "تفعّل" مُطاوِع "فعّل" و"انفعَل" مُطاوِع "فَعَل"، ولأنّ أصل التفعّل التكلّف.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] قرأ بها نافع والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.

[٣] قرأ بها أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.

﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: وتكاد تنشقّ الأرض ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: تسقُط وتتهدّم، وقوله تعالى: ﴿هَدًّا﴾ مصدر مؤكِّد لمحذوف هو حال مِن الجبال، أي: تُهدّ هدًّا أو مصدر مِن المبنيّ للمفعول مؤكِّد لـ﴿تَخِرُّ﴾ على غير الصدر؛ لأنّه حينئذ بمعنى التهدّم والخُرور، كأنّه قيل: وتخِرّ الجبال خرورًا، أو مصدر بمعنى المفعول منصوب على الحاليّة، أي: مهدودة، أو مفعول له، أي: لأنّها تُهَدّ. وهذا تقرير لكونه إدًّا، والمعنى أنّ هَول تلك الكلمة الشنعاء وعِظَمها بحيث لو تَصوَّرَت بصورة محسوسة لم تُطِق بها هاتيك الأجرام العِظَام وتفتَّتت مِن شدَّتها، أو أنّ فظاعتها في استجلاب الغضب واستيجاب السخط بحيث لولا حِلمه تعالى لخُرِّب العالم وبُدِّدت قوائمه غضبًا على مَن تفوّه بها.

﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ منصوب على حَذْف "اللام" المتعلّقة بـ﴿تَكَادُ﴾[1] أو مجرور بإضمارها، أي: تكاد السماوات يتفطّرن والأرض تنشقّ والجبال تخِرّ لأن دعَوا له سبحانه ولدًا. وقيل: "اللام" متعلِّقة بـ﴿هَدًّا﴾.[2] وقيل: الجملة بدل مِن الضمير المجرور في ﴿مِنْهُ﴾،[3] كما في قوله:

على جُوده لضَنّ بالماء حاتِمُ[4]

[٢٨ظ] / وقيل: خبرُ مبتدأ محذوف، أي: الموجِبُ لذلك أن دعَوا... إلخ.[5] وقيل: فاعل ﴿هَدًّا﴾،[6] أي: هدّها دُعاء الولد.[7] والأَولى هو الأوّل. و﴿دَعَوْا۟﴾ مِن "دعا" بمعنى "سمَّى" المتعدّي إلى مفعولين، وقد اقتُصر على ثانيهما ليتناولَ كلّ ما دُعيَ له ولدًا، أو مِن "دعا" بمعنى "نسَب" الذي مُطاوِعه "ادّعى إلى فلان"، أي: انتسب إليه.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ حال مِن فاعل ﴿قَالُوا۟﴾ أو ﴿دَعَوْا۟﴾ مقرِّرة لبطلان مقالتهم واستحالة تحقُّق مضمونها، أي: قالوا: اتّخذ الرحمن ولدًا،

---

[1] في الآية السابقة.
[2] في الآية السابقة.
[3] في الآية السابقة. والقولان في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٥.
[4] مضى بتخريجه في تفسير البقرة، ٢/١١٧.
[5] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٨٠.
[6] في الآية السابقة.
[7] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٥.

أو أن دعَوا للرحمن ولدًا والحالُ أنّه ما يليق به تعالى اتّخاذُ الولد ولا يتطلّب له لو طُلب مثلًا لاستحالته في نفسه. ووَضعُ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ موضع الضمير للإشعار بعلّة الحُكم بالتنبيه على أنّ كلّ ما سواه تعالى إمّا نعمة أو مُنعَم عليه، فكيف يتسنّى أن يجانس مَن هو مَبدأ النِّعم ومُولي أصولها وفروعها حتّى يُتوهّم أن يتّخذه ولدًا؟

وقد صرّح به قوله عزّ قائلًا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما منهم أحد مِن الملائكة والثقلين ﴿إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ إلّا وهو مملوك له يأوي إليه بالعبوديّة والانقياد. وقرئ: "آتٍ الرَّحْمَنَ"[1] على الأصل.

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ﴾ أي: حصَرهم أو أحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج منهم أحد مِن حِيطة علمه وقبضة قدرته وملكوته ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي: عدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم، وكلُّ شيء عنده بمقدار.

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ أي: كلّ واحد منهم آتٍ إيّاه تعالى منفردًا / مِن الأتباع والأنصار. وفي صيغة الفاعل مِن الدلالة على إتيانهم كذلك البتّة [٢٩و] ما ليس في صيغة المضارع لو قيل: يأتيه، فإذا كان شأنه تعالى وشأنهم كما ذُكر فأنّى يُتوهّم احتمال أن يتّخذ شيئًا منهم ولدًا؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لمّا فُصّلت قبائح أحوال الكفَرة عُقّب ذلك بذِكر محاسن أحوال المؤمنين. ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ أي: سيُحدث لهم في القلوب مودّة مِن غير تعرّض منهم لأسبابها سوى ما لهم مِن الإيمان والعمل الصالح. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة لِما أنّ الموعود مِن آثارها. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إذا أحبّ الله عبدًا يقول لجبريلَ عليه السلام: أُحِبُّ فلانًا فأحِبّه،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأبي البَرَهسم وأبي حَيْوَة وطلحة والكَفَرتُوثي عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٩؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢١٧.

فيُحِبّه جبريلُ، ثمّ ينادي في أهل السماء: إنّ الله أحبّ فلانًا فأحِبُّوه، فيُحبّه أهل السماء، ثمّ يوضع له المحبّةُ في الأرض».[١]

و"السين" لأنّ السورة مَكيّة وكانوا إذ ذاك ممقوتين بين الكفرة فوعدهم ذلك ثمّ أنجزه حين دجا الإسلام، أو لأنّ الموعود في القيامة حين تُعرَض حسناتهم على رءوس الأشهاد فيُنزع ما في صدورهم مِن الغِلّ الذي كان في الدنيا، ولعلّ إفرادَ هذا بالوعد مِن بين ما سيُؤتَون يوم القيامة مِن الكرامات السنيّة لِما أنّ الكفرة سيقع بينهم يومئذ تباغض وتضادّ وتقاطُع وتلاعُن.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي: القرآنَ ﴿بِلِسَانِكَ﴾ بأن أنزلناه على لغتك، و"الباء" بمعنى "على". وقيل: ضُمّن التيسير معنى الإنزال، أي: يسرنا القرآن منزِلين له بلغتك.[٢]
[٢٩ظ] / و"الفاء" لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم، كأنّه قيل بعد إيحاء السورة الكريمة: بلّغ هذا المنزلَ أو بشّر به وأنذِر فإنّما يسَّرناه بلسانك العربي المبين.

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الصائرين إلى التقوى بامتثال ما فيه مِن الأمر والنهي ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ لا يؤمنون به لجَاجًا وعِنادًا. و"اللُّدّ" جمع "الألدّ"، وهو الشديد الخصومة اللَّجوج المعانِد.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ وعدٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم في ضمن وعيد الكفَرة بالإهلاك، وحثٌّ له عليه السلام على الإنذار، أي: قَرنًا كثيرًا أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله، أي: هل تشعُر بأحد منهم وترى؟ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي: صوتًا خفيًا، وأصلُ التركيب

---

[١] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١١١/٤ (٣٢٠٩)؛ وصحيح مسلم، ٢٠٣٠/٤ (٢٦٣٧)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٥٧/٥؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٣٦/٣.

[٢] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨١/٢.

هو الخفاء، ومنه "رَكَز الرُمحَ" إذا غَيَّب طرَفه في الأرض، والرِّكاز: المال المدفون المَخفيّ. والمعنى أهلكناهم بالكلّيّة واستأصلناهم بحيث لا يُرى منهم أحد ولا يُسمَع منهم صوت خفيّ.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة مريمَ أُعطي عشرَ حسنات بعدد مَن كذّب زكريّا وصدّق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الأنبياء المذكورين فيها، وبعدد مَن دعا الله تعالى في الدنيا ومَن لم يدْعُ الله تعالى».[١]

[١] بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/١٧ (مريم، ١/١٩)؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٣٧/٣. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/٣٤٢-٣٤٣. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد في أوائل جُمادى الأولى، سنة تسع وستّين وتسعمائة، حامدًا ومصلّيًا ومسلِّمًا.

[٣٠و]

/ سورة طه

مكّيّة، وهي مائة وأربع[1] وثلاثون[2] آيةً.[3]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝﴾

﴿طه﴾ فخّمهما قالونُ[4] وابن كثير وابن عامر وحفصٌ ويعقوبُ على الأصل، و"الطاء" وحدَه أبو عمرو ووَرشٌ[5] لاستعلائه، وأمالَهما الباقون.[6] وهو مِن الفواتح التي يُصدّر بها السوَر الكريمة، وعليه جمهورُ المتقِنين. وقيل: معناه "يا رجلُ"، وهو مرويّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد وسعيد بن جُبير

---

[1] ط س: وثلاثون.

[2] ط س: وأربع.

[3] ط س: آيات.

[4] هو عيسى بن ميناء بن وردان بن عيسى المدني، أبو موسى (ت. ٢٢٠هـ/٨٣٥م). الإمام المجوّد النحوي، مولى الأنصار، ومُقرئ المدينة وتلميذ نافع القارئ. وقيل: ربيبه ولقّبه قالون لجَودة حفظه ومعناه بلغة الروم: جيّد. انتهت إليه الرياسة في علوم العربيّة والقراءة في زمانه في الحجاز. وكان أصمّ يُقرَأ عليه القرآن وهو ينظر إلى شفتي القارئ فيردّ عليه اللحن والخطأ. روى عن نافع وعن ابن كثير وعن ابن أبي الزِّناد، روى عنه أبو زُرعة وأبو ديزيل وإسماعيل القاضي وأحمد بن صالح وغيرهم، وتلا عليه ابنه أحمد والحُلواني وأبو نشيط وغيرهم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٢٦/١٠-٣٢٧؛ والأعلام للزركلي، ١١٠/٥.

[5] هو عثمان بن سعيد بن عديّ المصري، أبو سعيد وأبو عمرو (ت. ١٩٧هـ/٨١٢م). مِن كبار القرّاء، أصله مِن القيروان، ومولده ووفاته في مصر. جوّد ختمتين على أستاذه نافع ولقّبه نافع ورشًا لشدّة بياضه، والورش لبن يُصنَع، وكان لا يكرهه ويقول: نافع أستاذي سمّاني به. كان أشقرَ أزرقَ رَبْعة سمينًا. وكان ماهرًا بالعربيّة، ثقة في الحروف حجّة، جيّد القراءة، حسن الصوت، إذا قرأ يهمز ويمدّ ويشدّد ويبيّن الإعراب، لا يملّه سامعه. انتهت إليه رئاسة الإقراء. تلا عليه أحمد بن صالح الحافظ، وداود بن أبي طيبة ويوسف الأزرق وغيرهم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٩٥/٩؛ والأعلام للزركلي، ٢٠٥/٤.

[6] انظر: النشر لابن الجزري، ٦٨/٢.

وقَتادةَ وعِكرمةَ والكلبي،[١] إلّا أنّه عند سعيد على اللغة النبطيّة،[٢] وعند قتادةَ على السُّريانيّة،[٣] وعند عِكرمةَ على الحبشيّة، وعند الكلبي على لغة عَكّ،[٤] وقيل: عُكْل،[٥] وهي لغة يمانيّة.[٦] قالوا: إن صحّ فلعلّ أصلَه "يا هذا" فتصرّفوا فيه بقلب "الياء" طاءً وحذفِ "ذا" مِن "هذا".[٧] وما استُشهد به مِن قول الشاعر:

إنّ السفاهة طه في خلائقكُمْ لا قدّس الله أخلاقَ الملاعينِ[٨]

ليس بنصّ في ذلك؛ لجواز كونه قسمًا كما في «حم لا يُنْصرون».[٩]

وقد جُوّز أن يكون الأصل "طَأْها" بصيغة الأمر مِن "الوطء"، فقُلبت "الهمزة" في "يطأ" ألفًا لانفتاح ما قبلها، كما في قول مَن قال:

لا هَناكِ المَرتعُ[١٠]

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ١٦/٥-٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٦٢؛ واللباب لابن عادل، ١٣/١٦٥.

٢ مرويّ عن ابن عبّاس وعِكرمةَ والضحّاك في جامع البيان للطبري، ١٦/٥-٦؛ وعن سعيد بن جُبير في اللباب لابن عادل، ١٣/١٦٥.

٣ مرويّ عن سعيد بن جُبير وابن عبّاس وعكرمةَ ومجاهد وقتادة في جامع البيان للطبري، ١٦/٦-٧؛ وعن قتادة في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٦٢.

٤ معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٦٢. | عكّ: هم بنو عَكّ بن عرقان بن الأزد، بطن مِن الأزد القحطانيّة. وذهب آخرون أنّهم مِن العدنانيّة، وهم بنو عكّ بن الديث بن عدنان. ودارهم بالأندلس معروفة باسمهم. انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ١/٣٢٨؛ ونهاية الأرب للقلقشندي، ١/٣٦٦-٣٦٧.

٥ عُكل: بطن مِن طابخة العدنانيّة، وهم بنو عوف بن وائل بن قيس بن عوف بن عبد مَناة بن أدّ بن طابخة. انظر: أنساب الأشراف للبلاذردي، ١١/٢٦٢؛ ونهاية الأرب للقلقشندي، ١/٣٦٧، ٣٨٣.

٦ القول في تفسير القرطبي، ١١/١٦٥؛ واللباب لابن عادل، ١٣/١٦٥.

٧ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨.

٨ البيت ليزيد بن المهلهل في تفسير القرطبي، ١١/١٦٦؛ وهو بلا عزو في جامع البيان للطبري، ١٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨، وغمَز من البيت بأنّ أثر الصنعة ظاهر فيه.

٩ مسند أحمد، ٢٧/١٦٢ (١٦٦١٥)؛ سنن أبي داود، ٤/٢٣٨ (٢٥٩٧)؛ سنن الترمذي، ٣/٤٨٣ (١٦٨٢).

١٠ وفي هامش م: تمام البيت:

ذهبتْ بمسلمةَ البِغال عشيةً
فارعَي فزارةُ لا هَناكِ المرتعُ

والبيت للفرزدق في ديوانه، ٢/٥٠٨. وصدره فيه:

ومضتْ لمَسلَمة الرِّكاب مُودِّعًا

والبيت له في كتاب سيبويه، ٣/٥٥٤؛ وضرائر الشعر لابن عصفور، ص ٢٢٩؛ وهو بلا عزو في الحُجّة لأبي عليّ الفارسي، ٢/٢١٨؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٣/٢٧٩ (البقرة، ٢/١١٩)، والكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨، وصدره في أكثر المصادر السالفة:

راحتْ بمَسلمة البِغال عشيّةً

وعجزه يُذكَر في الأمثال السائرة. انظر: مجمع الأمثال للمَيداني، ١/٢٨٩.

و"ها" ضميرُ الأرض، على أنّه خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يطأ الأرض بقدميه لِما كان يقوم في تهجّده على إحدى رجليه مبالغة في المجاهَدة.[١]

ولكن يأباه كتابتهما على صورة الحرف، كما تأبى التفسير بـ"يا رجلُ"، فإنّ الكتابة على صورة الحرف مع كون التلفّظ بخلافه مِن خصائص حروف المُعجم.

وقرئ: "طَهْ"[٢] إمّا على أنّ أصلَه "طَأْ" فقُلبت همزته هاءً كما في أمثال "هَرَقت"،[٣] أو قُلبت "الهمزة" في "يطأ" ألفًا كما مرّ، ثمّ بُني مِنه الأمر وألحِق به هاء السكْت، وإمّا على أنّه اكتُفي في التلفّظ بشطرَي الاسمين وأُقيما[٤] مُقامَهما[٥] في الدلالة على المسمَّيين، فكأنّهما[٦] اسماهما[٧] الدالّان / عليهما.[٨] [٣١ظ]

وعلى هذا ينبغي أن يحمل قولُ مَن قال: أو اكتُفى بشطرَي الكلمتين وعبّر عنهما باسمهما،[٩] وإلّا فالشطران لم يُذكرا مِن حيث إنّهما مسمَّيان لاسمَيهما ليقعا معبَّرًا عنهما؛ بل مِن حيث إنّهما جزءان لهما قد اكتُفيَ بذِكرهما عن ذِكرهما،[١٠] ولذلك وقع التلفّظ بأنفسهما لا باسميهما، بأن يُراد[١١] بضمير التثنية في الموضعَين الشطران مِن حيث هما مُسمّيان لا مِن حيث هما جزآن للاسمين، ويُراد باسمهما الشطران مِن حيث هما قائمان مقامَ الاسمين، فالمعنى اكتُفي في التلفّظ بشطرَي الكلمتين، أي: الاسمين فعُبّر عنهما، أي: عن الشطرين مِن حيث هما مسمَّيان بهما مِن حيث هما قائمان مقامَ الاسمين.[١٢]

---

١ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٣٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعِكرمة وأبي حنيفة وورش في اختياره والوليد بن مسلم عن ابن عامر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٥؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٢١٩.

٣ لأنّ أصله: أرقتُ.

٤ وفي هامش م: أي: الشطران. «منه».

٥ وفي هامش م: أي: مقام الاسمين. «منه».

٦ وفي هامش م: أي: الشطران. «منه».

٧ وفي هامش م: أي: اسما المسمَّيين. «منه».

٨ وفي هامش م: أي: على المسمَّيين. «منه».

٩ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٣٨.

١٠ وفي هامش م: أي: عن ذِكر الاسمين. «منه».

١١ السياق: أن يحمل... بأن يُراد...

١٢ وفي هامش م: ويجوز أن يرجع الضميران إلى الكلمتين، ويكون المعنى: اكتُفيَ بشطرَي الاسمين وعُبّر عنهما باسمهما، أي: بما يجري مَجرى اسمهما، وهما شطراها الدالّان عليها، وجَعْل الاسمين معبّرًا عنهما باعتبار أنّهما لم يُذكرا باسمهما، بل بما يدلّ عليهما. ولو قيل: "وعُبّر عنهما بهما" لكان أظهر. «منه».

وأمّا حَمْله على معنى أنّه اكتُفي في الكتابة بشطرَي الكلمتين يعني "طا" على تقديرَي كونه أمرًا وكونه حرفَ نداء، و"ها" على تقديرَي كونها كناية[1] الأرض وكونها حرفَ تنبيه، وعُبِّر عن ذينك الشطرين في التلفّظ باسمهما،[2] فبيّن البُطلان؛[3] كيف؟ و"طا" و"ها" على ما ذُكر مِن التقادير ليسا باسمين للحرفين المذكورين؛ بل الأوّل أَمر أو حرفُ نداء والثاني ضمير الأرض أو حرفُ تنبيه، على أنّ كتابة صورة الحرف والتلفّظَ بغيره مِن خواصّ حروف المعجم كما مرّ.[4]

فالحقّ ما سلَف مِن أنّها مِن الفواتح إمّا مسرودةٌ على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين في مطلع سورة البقرة،[5] فلا محلَّ لها مِن الإعراب، وكذا ما بعدها مِن قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾، فإنّه استئناف، مَسوق لتسليته صلّى الله عليه وسلّم عمّا كان يعتريه مِن جهة المشركين مِن التعب، فإنّ الشقاء شائع في ذلك المعنى، ومنه «أشقى مِن رائض مُهْر»،[6] أي: ما أنزلناه عليك لتتعبَ / بالمبالغة في مكابدة الشدائد في مقاولة العُتاة ومحاورة الطُّغاة وفَرْط التأسّف على كفرهم به والتحسّر على أن يؤمِنوا، كقوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ الآية [الكهف، ٦/١٨]؛ بل للتبليغ والتذكير، وقد فعلتَ فلا عليك إن لم يؤمنوا به بعد ذلك. [٣١و]

أو لصَرْفه[7] عليه السلام عمّا كان عليه مِن المبالغة في المجاهدة في العبادة، كما يُروى أنّه عليه السلام كان يقوم بالليل حتّى ترِم قدماه، فقال له جبريلُ

---

١ س + عن.

٢ القول في شرح مشكلات الكشّاف لقطب الدين الرازي، ٤٤٤و.

٣ السياق: وأمّا حَمْله... فبيّن البطلان...

٤ وفي هامش م: نعم لو حُمل على معنى أنّه اكتُفيَ في التلفّظ بشطرَي الكلمتين، أعني "طا" و"ها" وعُبِّر عنهما على تقديرَي كلّ منهما باسمهما، أي: بما يجري مَجرى اسمهما، أعني شطرَيهما الدالّين عليهما بطريق الرمز، على منهاج قوله:

قلتُ لها قفي فقالتْ لي قاف

لكان له وجه. «منه». | الرجز للوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط في شرح أبيات شواهد الشافية للبغدادي، ٢٧١/٤؛ وهو بلا نسبة في تفسير الطبري، ٢١٦/١ (البقرة، ١/٢)؛ ومعاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٦٢/١ (البقرة، ١/٢). وروايتها فيها:

قلتُ لها قفي قالتْ قاف

٥ فصّل ذلك في تفسير الآية الأولى منها.

٦ في مجمع الأمثال للميداني، ١٤٨/١؛ والمستقصى للزمخشري، ٣٥/١، وفيهما «أتعبُ» مكان «أشقى». جاء بلفظه هنا في أساس البلاغة للزمخشري، «شقي».

٧ السياق: مَسوق لتسليته... أو لصرفه...

عليهما السلام: «أَبْقِ على نفسك فإنّ لها عليك حقًّا»،[1] أي: ما أنزلناه عليك لتتعب بنَهْك نفسك وحملِها على الرياضات الشاقّة والشدائد الفادحة، وما بُعثت إلّا بالحنيفيّة السَّمْحة.

وقيل: إنّ أبا جهل والنضْر بن الحارث قالا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: إنّك شقيّ حيث تركتَ دين آبائك، وإنّ القرآن نزَل عليك لتشقى به، فرُدّ ذلك بأنّا ما أنزلناه عليك لِما قالوا.[2]

والأوّل هو الأنسب كما يشهد به الاستثناء الآتي.

هذا، وإمّا اسم للقرآن[3] محلُّه الرفع على أنّه مبتدأ ما بعده خبره، و﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ ظاهر أوقِع موقعَ العائد إلى المبتدأ، كأنّه قيل: القرآن[4] ما أنزلناه عليك لتشقى، أو النصبُ على إضمار فعل القسَم، أو الجرُّ بتقدير حرفه وما بعده جوابه.

وعلى هذين الوجهين يجوز أن يكون اسمًا للسورة أيضًا، بخلاف الوجه الأوّل[5] فإنّه لا يتسنّى على ذلك التقدير، لكن لا لأنّ المبتدأ يبقى حينئذ بلا عائد ولا قائم مَقامَه، فإنّ القرآن صادق على الصورة لا محالةَ، إمّا بطريق الاتّحاد بأن يُراد به القَدْر المشترَك بين الكلّ والبعض، أو باعتبار الاندراج إن أريدَ به الكلّ؛ بل لأنّ نفيَ كون إنزاله للشقاء يستدعي سَبْق وقوع الشقاء مترتّبًا على إنزاله قطعًا، إمّا بحسب الحقيقة / كما إذ أريدَ به معنى التعب، أو بحسب زَعْم الكفرة كما لو أريدَ به ضدّ السعادة، ولا ريبَ في أنّ ذلك إنّما يُتصوَّر في إنزال ما أُنزل مِن قبل. [٣١ظ]

وأمّا إنزال السورة الكريمة فليس ممّا يمكن ترتُّب الشقاء السابق عليه حتى يُتصدّى لنفيه منه، أمّا باعتبار الاتّحاد فظاهر، وأمّا باعتبار الاندارج فلأن مآله أن يقال: هذه السورة ما أنزلنا القرآن المشتمِل عليها لتشقى. ولا يخفى أن جَعْلها

---

[1] بمعناه في مسند أحمد، ١٣٨/٣٠ (١٨١٩٨)؛ وصحيح البخاري، ١٣٥/٦ (٤٨٣٧)؛ وسنن النسائي، ٢١٩/٣ (١٦٤٤)؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٣٨/٣.

[2] القول في أسباب النزول للواحدي، ص ٣١٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٨/٣.

[3] السياق: إما مسرودة... وإمّا اسم للقرآن...

[4] س - القرآن.

[5] وفي هامش م: هو الرفع على الابتداء. «منه».

مُخبَرًا عنها مع أنّه لا دخلَ لإنزالها في الشقاء السابق أصلًا ممّا لا يليق بشأن التنزيل الجليل.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ نصب على أنّه مفعولٌ له لـ﴿أَنزَلْنَا﴾،[1] لكن لا مِن حيث إنّه معلَّل بالشقاء على معنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بتبليغه إلّا تذكرةً، الآية، كقولك: "ما ضربتُك للتأديب إلّا إشفاقًا" لِما أنّه يجب في أمثاله أن يكون بين العلّتين ملابسة بالسببيّة والمسبَّبيّة حتمًا كما في المثال المذكور، وفي قولك: "ما شافهتُك بالسوء لتتأذّى إلّا زجرًا لغيرك"، فإنّ التأديب في الأوّل مسبَّب عن الإشفاق والتأذّي في الثاني سبب لزجر الغير، وقد عرفتَ ما بين الشقاء والتذكرة مِن التنافي.

ولا يُجدي أن يرادَ به التعب في الجملة المجامِع للتذكرة لظهور ألّا ملابسةَ بينهما بما ذُكر مِن السببيّة والمسبَّبيّة وإنّما يُتصوَّر ذلك أن لو قيل مكانَ ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾: إلّا تكثيرًا لثوابك، فإنّ الأجر بقَدْر التعب، ولا مِن حيث إنه بدل مِن محلّ ﴿لِتَشْقَىٰ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [النساء، ٦٦/٤] لوجوب المجانسة بين البدلين وقد عرفتَ حالَهما؛ بل مِن حيث إنّه معطوفٌ عليه بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراك المستفاد مِن الاستثناء المنقطع، كأنّه قيل: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب[2] في تبليغه ولكن تذكرة ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

[٣٢و] / وقد جُرِّد "التذكرة" عن "اللام" لكونها فعلًا لفاعل الفعل المعلَّل، أي: لمَن مِن شأنه أن يخشى الله عزّ وعلا ويتأثرَ بالإنذار لرقّة قلبه ولِين عَريكته أو لمَن عَلِم الله تعالى أنّه يخشى بالتخويف. وتخصيصُها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لأنّهم المنتفعون بها.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا﴾ مصدر مؤكِّد لمضمر مستأنَف مقرِّر لِما قبله، أي: نُزِّل تنزيلًا، أو لِما يفيده الجملة الاستثنائيّة فإنّها متضمِّنة لأن يقال: أنزلناه للتذكرة، والأوّل هو الأنسب بما بعده مِن الالتفات، أو منصوبٌ على المدح والاختصاص.

---

[1] طه، ٢/٢٠.

[2] وفي هامش م: على الوجه الأوّل.

وقيل: هو منصوب بـ﴿يَخۡشَىٰ﴾ على المفعوليّة، أي: يخشى تنزيلًا مِن الله تعالى.[١] وأنت خبير بأنّ تعليقَ الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود، نعم قد يعلَّق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونظائره، كما في قوله تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [التوبة، ٩/٦٤].

وقيل: هو بدل مِن ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ لكن لا على أنّه مفعول له لـ﴿أَنزَلۡنَا﴾،[٢] إذ لا يعلَّل الشيء بنفسه ولا بنوعه؛ بل على أنّه مصدر بمعنى الفاعل واقع موقعَ الحال مِن "الكاف" في ﴿عَلَيۡكَ﴾ أو مِن ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾،[٣] ولا مساغَ له إلّا بأن يكون قيدًا لـ﴿أَنزَلۡنَا﴾[٤] بعد تقيّده بالقيد الأوّل. وقد عرفتَ حاله فيما سلَف، وقُرئ: "تَنْزِيلٌ"[٥] على أنّه خبرٌ لمبتدأ محذوف.

و﴿مَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ متعلّقة بـ﴿تَنزِيلٗا﴾، أو بمضمر هو صفة له مؤكِّدة لِما في تنكيره مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، ونسبة التنزيل إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغَيبة بعد نسبته إلى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب / الأفعال والصفات إثرَ بيانها بحسب الذات بطريق الإبهام ثمّ التفسير لزيادة تحقيق وتقرير. [٣٢ظ]

وتخصيصُ خلقهما بالذِّكر مع أنّ المراد خَلْقهما بجميع ما يتعلَّق بهما كما يفصِح عنه قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية،[٦] لأصالتهما واستتباعهما لِما عداهما. وتقديمُ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ لكونه أقرب إلى الحسّ أظهرَ عنده. ووصفُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بـ"العُلا"، وهو جَمْع "العَلياء" تأنيثُ "الأعلى"، لتأكيد الفخامة مع ما فيه مِن مراعاة الفواصل.

وكلّ ذلك إلى قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[٧] مَسوق لتعظيم شأن المنزِل عزّ وجلّ المستتبع لتعظيم المنزَل الداعي إلى تربية المهابة وإدخالِ الروعة

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٠.
٢ طه، ٢٠/٢.
٣ طه، ٢٠/٢.
٤ طه، ٢٠/٢.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٥؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٢٢٠.
٦ طه، ٢٠/٦.
٧ طه، ٢٠/٨.

المؤدِّية إلى استنزال المتمرِّدين عن رتبة العتوّ والطُّغيان واستمالتهم نحو الخشية المُفضِية إلى التذكّر والإيمان.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ رفع على المدح، أي: هو الرحمن، وقد عرفتَ في صدر سورة البقرة[١] أنّ المرفوع مدحًا في حكم الصفة الجارية على ما قبله وإن لم يكن تابعًا له في الإعراب، ولذلك التزموا حَذْف المبتدأ ليكون في صورة متعلَّق مِن متعلَّقاته، وقد قُرئ بالجرّ[٢] على أنّه صفة صريحة للموصول. وما قيل مِن أنّ الأسماء الناقصة لا يُوصَف مِنها إلّا "الذي" وحدَه مذهبُ الكوفيّين.[٣]

وأيًّا ما كان فوَصْفه بالرحمانيّة إثرَ وصفه بخالقيّة السماوات والأرض للإشعار بأنّ خَلْقهما مِن آثار رحمته تعالى، كما أنّ قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [النبأ، ٣٧/٧٨] للإيذان بأنّ ربوبيّته تعالى بطريق الرحمة، وفيه إشارة إلى أنّ تنزيل **القرآن** أيضًا مِن أحكام رحمته تعالى، كما ينبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن، ٥٥/١-٢].

أو رَفْع على الابتداء[٤] و"اللام" للعهد والإشارة إلى الموصول، والخبرُ قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾. / [٣٣و] وجعلُ الرحمة عنوانَ الموضوع الذي شأنه أن يكون معلوم الثُبوت للموضوع عند المخاطَب للإيذان بأنّ ذلك أمر بيّن لا سُترةَ به غنيّ عن الإخبار به صريحًا. و﴿عَلَى﴾ متعلِّقة بـ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ قدِّمت عليه لمراعاة الفواصِل، والجارُّ والمجرور على الأوّل[٥] خبرُ مبتدأ محذوف، كما في قراءة الجرّ. وقد جُوِّز أن يكون خبرًا بعد خبر.[٦]

---

١ في تفسير طه، ٣/٢٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حُبيش. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٩٠.

٣ القول في **اللباب** لابن عادل، ١٧٥/١٣.

٤ السياق: رفع على المدح... أو رفع على الابتداء...

٥ وفي هامش م: هو كون ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ رفعًا على المدح. «منه».

٦ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠/٣.

والاستواء على العرش مجاز مِن المُلك والسلطانِ متفرّع على الكناية فيمَن يجوّز عليه القعود على السرير، يقال: "استوى فلان على سرير المُلك" يراد به "مَلَك" وإن لم يقعُد على السرير أصلًا. والمرادُ بيان تعلّق إرادته الشريفة بإيجاد الكائنات وتدبير أمرها.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سواء كان ذلك بالجزئيّة مِنهما أو بالحلول فيهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن الموجودات الكائنة في الجوّ دائمًا كالهواء والسحاب، أو أكثريًّا كالطير، أي: له وحدَه دون غيره لا شركةً ولا استقلالًا كلُّ ما ذُكر مُلكًا وتصرّفًا وإحياءً وإماتةً وإيجادًا وإعدامًا. ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أي: ما واراه التراب. وذِكرُه مع دخوله تحت ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لزيادة التقرير، رُوي عن محمّد بن كعب: «أنّه ما تحت الأرضينَ السبع».[١] وعن السُّدّي: «أنّ الثرى هو الصخرة التي عليها الأرض السابعة».[٢]

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ بيان لإحاطة عِلمه تعالى بجميع الأشياء إثرَ بيان سَعة سلطنته وشمول قدرته لجميع الكائنات، أي: وإن تجهَر بذِكره تعالى ودعائه فاعلَم أنّه تعالى غنيّ عن جهرك. ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي: ما أسررتَه إلى غيرك، وشيئًا أخفى مِن ذلك وهو ما أخطَرتَه ببالك مِن غير أن تتفوّه به أصلًا، أو ما أسررتَه / لنفسك وأخفى منه وهو ما ستُسِرّه فيها فيما سيأتي. [٣٣ظ]

وتنكيرُه للمبالغة في الخفاء. وهذا إمّا نَهي عن الجهر كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف، ٢٠٥/٧]، وإمّا إرشاد للعباد إلى أنّ الجهر ليس لإسماعه سبحانه؛ بل لغرض آخرَ مِن تصوير النفس بالذِّكر، وتثبيته فيها، ومنعِها مِن الاشتغال بغيره، وقطعِ الوسوسة عنها، وهضمِها بالتضرّع والجُؤار.

---

١ جامع البيان للطبري، ١٢/١٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠/٣.

٢ تفسير ابن أبي حاتم، ٢٤١٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠/٣.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والجملة استئناف مَسوق لبيان أنّ ما ذُكر مِن صفات الكمال موصوفُها ذلك المعبود بالحقّ، أي: ذلك المنعوتُ بما ذُكر مِن النعوت الجليلة اللهُ عزّ وجلّ.

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تحقيق للحقّ وتصريح بما تضمّنه ما قبله مِن اختصاص الألوهيّة به سبحانه، فإنّ ما أُسند إليه تعالى مِن خَلْق جميع الموجودات والرحمانيّة والمالكيّة للكلّ والعِلم الشامل ممّا يقتضيه اقتضاء بيّنًا.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ بيان لكون ما ذُكر مِن الخالقيّة والرحمانيّة والمالكيّة والعالميّة أسماءَه وصفاتِه مِن غير تعدّد في ذاته تعالى. فإنّه رُوي أنّ المشركين حين سمعوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «يا الله يا رحمن»، قالوا: ينهانا أن نعبُد إلهين وهو يدعو إلهًا آخرَ.[١] و﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ تأنيث "الأحسن" يُوصَف به الواحدة المؤنَّثة والجمعُ مِن المذكَّر والمؤنَّث كـ﴿مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه، ١٨/٢٠] و﴿ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ [طه، ٢٣/٢٠].

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠﴾

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ استئناف مَسوق لتقرير أمر التوحيد الذي إليه انتهى مَساق الحديث وبيانِ أنّه أمر مستمرّ فيما بين الأنبياء كابرًا عن كابر، وقد خُوطب به موسى عليه السلام حيث قيل له: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه، ١٤/٢٠]، وبه ختَم عليه السلام مقالَه حيث قال: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [طه، ٩٨/٢٠].

[٣٤و] وأمّا ما قيل / مِن أنّ ذلك لترغيب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الائتساء بموسى عليه السلام في تحمّل أعباء النبوّة والصبر على مقاساة الخطوب في تبليغ أحكام الرسالة،[٢] فيأباه أنّ مساقَ النظم الكريم لصَرْفه عليه السلام عن اقتحام المشاقّ.

---

[١] التفسير البسيط للواحدي، ٥١١/١٣ (الإسراء، ١١٠/١٧)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٥/٢ (الإسراء، ١١٠/١٧).

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤١/٣.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ ظرف للحديث. وقيل: لمضمَر مؤخَّر، أي: حين رأى نارًا كان كيت وكيت. وقيل: مفعول لمضمر مقدّم، أي: اذكرْ وقتَ رؤيته نارًا.[١]

رُوي أنّه عليه السلام استأذن شعيبًا عليهما السلام في الخروج إلى أمّه وأخيه فخرج بأهله وأخَذ على غير الطريق مخافةً مِن ملوك الشام، فلمّا وافى واديَ طُوى وهو بالجانب الغربيّ مِن الطُّور وُلد له وَلد في ليلة مظلِمة شاتية مُثلِجة وكانت ليلةَ الجمعة وقد ضلّ الطريق وتفرّقت ماشيتُه ولا ماءَ عنده، وقَدَح فصَلَد زَندُه،[٢] فبينما هو في ذلك إذ رأى نارًا على يسار الطريق مِن جانب الطُّور.[٣]

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي: أقيموا مكانكم، أمرهم عليه السلام بذلك لئلّا يتّبعوه فيما عزَم عليه مِن الذهاب إلى النار كما هو المعتاد، لا لئلّا ينتقلوا إلى موضع آخرَ، فإنّه ممّا لا يخطُر بالبال. والخطابُ للمرأة والولد والخادم. وقيل: لها وحدَها، والجمعُ إمّا لظاهر لفظ الأهل،[٤] أو للتفخيم كما في قول مَن قال:

وإن شئتِ حرمتُ النساءَ سواكمُ[٥]

﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرتُها إبصارًا بيّنًا لا شُبهةَ فيه. وقيل: الإيناسُ خاصّ بإبصار ما يؤنَس به.[٦] والجملة تعليل للأمر أو المأمورِ به. ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي: أجيئكم[٧] مِن النار ﴿بِقَبَسٍ﴾ أي: بشُعلة مقتبَسة مِن معظم النار، وهي المرادة بـ"الجذوة" في سورة القَصص.[٨] وبـ"الشهاب القبس".[٩]

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤١/٣.

٢ صَلَد زَنده: صوّت ولم يُخرِج نارًا. والزَّند: هو العودُ الأعلى الذي تُقتَدح به النار. لسان العرب لابن منظور، «صلد»، «زند».

٣ الخبر بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٥/٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٤/٢-٣٨٥.

٤ القول في التفسير البسيط للواحدي، ٣٦٣/١٤.

٥ وفي هامش م: تمامه:

وإن شئتِ لم أطعم نُقاخًا(١) ولا بَرْدا

| (١) هامش م: ماءً باردًا عذبًا. | ومضى البيت تامًّا بتخريجه عند تفسير الآية التاسعة والأربعين بعد المئتين من سورة البقرة.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤١/٣.

٧ وفي هامش م: فسّر بذلك للتنبيه على أنّه صيغة المضارع لا صيغة الفاعل. «منه».

٨ في الآية التاسعة والعشرين منها.

٩ في الآية السابعة مِن سورة النمل.

﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ هاديًا يدلُّني على الطريق على أنّه مصدر سُمّي به الفاعل مبالغةً، أو حُذف منه المضاف، أي: ذا هداية، أو على أنّه إذا وُجد الهادي فقد وُجد الهدى. وقيل: هاديًا يهديني إلى أبواب الدِّين، فإنّ أفكار الأبرار مغمورة بالهِمّة الدينيّة في عامّة أحوالهم لا يشغَلهم عنها شاغل.[1] / والأوّل هو [٣٤ظ] الأظهر؛ لأنّ مساق النظم الكريم لتسلية أهله، وقد نُصّ عليه في سورة القَصص حيث قيل: ﴿لَعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ﴾ الآية [القصص، ٢٩/٢٨].

وكلمة ﴿أَوْ﴾ في الموضعين لمَنْع الخلوّ دون منع الجمع. ومعنى الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أنّ أهل النار يستعلون المكان القريب منها، أو لأنّهم عند الاصطلاء يكتنفونها قيامًا وقعودًا فيُشرفون عليها.

ولمّا كان الإتيان بهما مترقَّبًا غيرَ محقَّق الوقوع صُدِّر الجملة بكلمة الترجّي، وهي إمّا علّة لفعل قد حُذف ثقةً بما يدلّ عليه مِن الأمر بالمُكث والإخبار بإيناس النار وتفاديًا عن التصريح بما يُوحشهم، وإمّا حال من فاعله،[2] أي: فأذهبُ إليها لآتيَكم أو كي آتيَكم أو راجيًا أن آتيَكم مِنها بقبس... الآية. وقد مرّ تحقيق ذلك مفصّلًا في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة، ٢١/٢].

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النار التي آنسها، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «رأى شجرة خضراءَ أطافت بها مِن أسفلها إلى أعلاها نار بيضاءُ تتّقدُ كأضوَأ ما يكون، فوقف متعجِّبًا مِن شدّة ضوئها وشدّة خُضرة الشجرة، فلا النارُ تُغيّر خُضرتها ولا كثرةُ ماء الشجرة تُغيّر ضوءها».[3]

قالوا: النار أربعة أصناف: صنف يأكل ولا يشرب وهي نار الدنيا، وصنف يشرب ولا يأكل وهي نار الشجر الأخضر، وصنف يأكل ويشرب وهي نار جهنّم،

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤١/٣.

[2] ط س – وإمّا حال مِن فاعله.

[3] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٥/٥؛ واللباب لابن عادل، ١٨٦/١٣.

وصنف لا يأكل ولا يشرب وهي نار موسى عليه السلام. وقالوا أيضًا:[١] هي أربعة أنواع: نوع له نور وإحراق وهي نار الدنيا، ونوع لا نورَ له ولا إحراقَ وهي نار الأشجار، ونوع له نور بلا إحراق وهي نار موسى عليه السلام، ونوع له إحراق بلا نور وهي نار الجحيم.[٢] رُوي أنّ الشجرة كانت عَوْسَجة.[٣] وقيل: كانت سَمُرة.[٤]

﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي: نودي فقيل: يا موسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، أو عُومِل النداء معاملةَ "القول" لكونه ضربًا مِنه. وقُرئ بالفتح،[٥] أي: "بأنّي".[٦] وتكرير الضمير لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشُّبهة.

رُوي أنّه لمّا نُودي يا موسى، قال عليه السلام: «مَن المتكلِّم؟» فقال الله عزّ وجلّ: / ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ فوسوس إليه إبليس: «لعلّك تسمع كلام شيطان»، فقال: «أنا عرفتُ أنّه كلام الله تعالى، بأنّي أسمعه مِن جميع الجهات بجميع الأعضاء».[٧] [٣٥و]
قلتُ: وذلك لأنّ سماع ما ليس مِن شأنه ذلك مِن الأعضاء ليس إلّا مِن آثار قُدرة الخلّاق العليم تعالى وتقدّس. وقيل: تلقّى عليه السلام كلام ربّ العزّة تلقِّيًا روحانيًا، ثمّ تمثّل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحسّ المشترك فانتقش به مِن غير اختصاص بعُضو وجهةٍ.[٨]

﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ أُمر عليه السلام بذلك لأنّ الحُفْوة أدخلُ في التواضع وحسنِ الأدب، ولذلك كان السلف الصالحون يطوفون بالكعبة حافين. وقيل: ليباشر الواديَ بقدميه تبرُّكًا به.[٩] وقيل: لِما أن نعليه كانا مِن جلد حمار

---

١ س – أيضًا.

٢ س: جهنّم.

٣ مرويّ عن قتادة ومقاتل والكلبي في معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٥/٥؛ واللباب لابن عادل، ١٨٦/١٣.

٤ مرويّ عن ابن مسعود في معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٥/٥؛ واللباب لابن عادل، ١٨٦/١٣.

٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.

٦ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٦/٥.

٧ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٢/٣.

٨ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٥/٢.

٩ مرويّ عن الحسن وعكرمة ومجاهد في جامع البيان للطبري، ٢٤/١٦–٢٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٦٦/٥؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤٢/٣.

غير مدبوغ.[١] وقيل: معناه فرّغْ قلبك مِن الأهل والمال.[٢] و"الفاء" لترتيب الأمر على ما قبلها، فإنّ ربوبيّته تعالى له عليه السلام مِن موجِبات الأمر وداوعيه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ تعليل لوجوب الخَلْع المأمور به وبيانٌ لسبب ورود الأمر بذلك مِن شرف البُقعة وقُدْسِها. رُوي أنّه عليه السلام خلعهما وألقاهما وراء الوادي.[٣] ﴿طُوًى﴾ بضمّ الطاء غيرَ منوّن، وقُرئ منوّنًا،[٤] وقُرئ بالكسر منوّنًا[٥] وغيرَ منوّن،[٦] فمَن نوّنه أوّله بالمكان دون البقعة. وقيل: هو كـ"ثُنًى" مِن الطيّ مصدر لـ﴿نُودِيَ﴾، أو ﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾، أي: نُودي نداءين، أو قُدّس مرّة بعد أخرى.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥﴾

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي: اصطفيتك للنبوّة والرسالة. وقُرئ: "وَأَنَّا اخْتَرَنَاكَ" بالفتح[٧] والكسر.[٨] و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ﴾ لترتيب الأمر أو المأمور به على ما قبلها، فإنّ اختياره عليه السلام لِما ذُكر مِن موجِبات الاستماع والأمر به.

[٣٥ظ] و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ / متعلِّقة بـ﴿ٱسْتَمِعْ﴾، و﴿مَا﴾ موصولة أو مصدريّة، أي: فاستمع للذي يُوحى إليك أو للوحي، لا بـ﴿ٱخْتَرْتُكَ﴾ كما قيل، لكن لا لِما قيل مِن أنّه مِن باب التنازُع وإعمال الأوّل،[٩] فلا بدّ حينئذ مِن إعادة الضمير

---

[١] مرويّ عن ابن مسعود والسدّي وقتادة في جامع البيان للطبري، ١٦/٢٣-٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٦٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٤٢.

[٢] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٨٥.

[٣] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٦٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٤٢.

[٤] قرأ بها ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٩.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش وعكرمة وأبي حَيْوَة وابن مجالد عن عاصم ويزيد بن قُطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٢٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السّمّال وأبي زيد ويونس والجهضمي ثلاثتهم عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٢٢.

[٧] قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٠.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والسُّلمي وطلحة وعيسى الهَمْداني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٢٣.

[٩] في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٢.

مع الثاني؛ بل لأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ بدل مِن ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ولا ريبَ في أنّ اختياره عليه السلام ليس لهذا الوحي فقط.[١]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾ لترتيب المأمور به على ما قبلها فإنّ اختصاص الألوهيّة به سبحانه وتعالى مِن موجِبات تخصيص العبادة به عزّ وجلّ.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خُصّت الصلاة بالذِّكر وأُفردت بالأمر مع اندراجها في الأمر بالعبادة لفَضْلها وإنافتها على سائر العبادات بما نِيطت به مِن ذِكر المعبود وشُغل القلب واللسان بذِكره، وذلك قوله تعالى: ﴿لِذِكْرِيٓ﴾ أي: لتذكُرني فإنّ ذِكري كما ينبغي لا يتحقّق إلّا في ضمن العبادة والصلاة، أو لتذكُرني فيها لاشتمالها على الأذكار، أو لذِكري خاصّة لا تشوبه بذِكر غيري، أو لإخلاص ذِكري وابتغاء وجهي لا تُرائي بها ولا تقصِد بها غرَضًا آخرَ، أو لتكون ذاكرًا لي غيرَ ناسٍ.

وقيل: لذِكري إيّاها وأمْري بها في الكتب، أو لأن أذكُرَك بالمدح والثناء. وقيل: لأوقات ذِكري وهي مواقيتُ الصلوات، أو لذِكر صلاتي،[٢] لِما روي أنّه عليه السلام قال: «مَن نام عن صلاة أو نسِيَها فليُصلِّها إذا ذَكَرها، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾».[٣] وقُرئ: "لِذِكْرَى"[٤] بألف التأنيث و"لِلذِّكْرَى"[٥] / معرَّفًا و"لِلذِّكْرِ"[٦] بالتعريف والتذكير. [٣٦و]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ تعليل لوجوب العبادة وإقامةِ الصلاة، أي: كائنةٌ لا محالةَ، وإنّما عُبّر عن ذلك بالإتيان تحقيقًا لحصولها بإبرازها في معرِض أمر محقَّق متوجِّه نحو المخاطَبين.

---

١ الردُّ منقول في اللباب لابن عادل، ١٩٣/١٣.

٢ هذه الأقوال في الكشّاف للزمخشري، ٤٢/٣.

٣ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٢٢/١ (٥٩٧)؛ وصحيح مسلم، ٤٧٧/١ (٦٨٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٣٢/١٣-٣٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٢/٣.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. اللباب لابن عادل، ١٩٥/١٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وأبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٦.

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. اللباب لابن عادل، ١٩٥/١٣.

﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: لا أُظهرها، بأن أقول: إنّها آتية، ولولا أنّ في الإخبار بذلك مِن اللطف وقطع الأعذار لَما فعلتُ، أو أكاد أُظهرها بإيقاعها مِن "أخفاه" إذا أظهره بسَلْب خفائه، ويؤيِّده القراءة بفتح "الهمزة"،[١] مِن "خفاه" بمعنى أظهره. وقيل: أخفاه مِن الأضداد يجيء بمعنى الإظهار والسَّتر.[٢]

وقوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ متعلِّق بـ﴿ءَاتِيَةٌ﴾، وما بينهما اعتراض، أو بـ﴿أُخْفِيهَا﴾ على المعنى الأخير، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: لتُجزى بسعيها في تحصيل ما ذُكر مِن الأمور المأمور بها. وتخصيصُه في معرِض الغاية لإتيانها مع أنّه لجزاء كلّ نفس بما صدَر عنها سواء كان سعيًا فيما ذُكر أو تقاعدًا عنه بالمرّة أو سعيًا في تحصيل ما يُضادّه، للإيذان[٣] بأنّ المراد بالذات مِن إتيانها هو الإثابة بالعبادة، وأمّا العقاب بتَرْكها فمِن مُقتضَيات سوء اختيار العُصاة، وبأنّ المأمور به في قوّة الوجوب والساعةَ في شدّة الهول والفظاعة بحيث يوجِبان على كلّ نفس أن تسعى في الامتثال بالأمر وتجِدَّ في تحصيل ما يُنجّيها مِن الطاعات، وتحترز عن اقتراف ما يُرديها مِن المعاصي.

وعليه مدارُ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ / أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١]، فإنّ الابتلاء [٣٦ظ] مع شموله لكافّة المكلّفين باعتبار أعمالهم المنقسِمة إلى الحسَن والقبيح أيضًا لا إلى الحسَن والأحسَن فقط قد عُلّق بالأخيرين، لِما ذُكر مِن أنّ المقصود الأصلي مِن إبداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع إنّما هو ظهور كمال إحسان المحسِنين وأنّ ذلك لكونه على أتمّ الوجوه الرائقة وأكمل الأنحاء اللائقة يوجِب العمل بموجَبه بحيث لا يحيد أحد عن سَننه المُستبين، بل يهتدي كلّ فرد إلى ما يُرشد إليه مِن مطلق الإيمان والطاعة، وإنّما التفاوت بينهم في مراتبهما بحسب القوّة والضعف.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الدرداء وسعيد بن جُبير ومجاهد وأبي البَرَهسِم والحسن وحُميد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٦؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٢٢٣.
٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٣/٣.
٣ السياق: وتخصيصه... للإيذان...

وأمّا الإعراض عن ذلك والوقوع في مهاوي الضلال فبمَعزِل مِن الوقوع فضلًا عن أن ينتظم في سِلك الغاية لذلك الصُنع البديع، وإنّما هو عمل يصدُر عن عامله بسوء اختياره مِن غير مصحِّح له ومسوِّغ. هذا ويجوز أن يُراد بالسعي مطلَق العمل.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أي: عن ذِكر الساعة ومراقبتها. وقيل: عن تصديقها.[١] والأوّل هو الأليَق بشأن موسى عليه السلام، وإن كان النهيُ بطريق التهييج والإلهاب. وتقديم الجارّ والمجرور على قوله تعالى: ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدّم والتشويق إلى المؤخَّر، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخّر تبقى النفسُ مستشرِفة له فيتمكَّن عند وروده لها فضلَ تمكُّن، ولأنّ في المؤخَّر نوعَ طول ربّما يُخِلّ تقديمه بجزالة النظم الكريم.

وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيًا للكافر عن صدّ موسى عليه السلام عن الساعة لكنّه في الحقيقة / نهيٌ له عليه السلام عن الانصداد عنها على أبلغ [٣٧و] وجه وآكَده، فإنّ النهيَ عن أسباب الشيء ومباديه المؤدِّية إليه نهيٌ عنه بالطريق البرهاني وإبطالٌ للسببيّة عن أصلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ [المائدة، ٢/٥]، فإنّ صدّ الكافر حيث كان سببًا لانصداده عليه السلام كان النهيُ عنه نهيًا بأصله وموجِبه وإبطالًا له بالكلّيّة.

ويجوز أن يكون مِن باب النهي عن المسبَّب وإرادة النهي عن السبب على أن يُراد نهيُه عليه السلام عن إظهار لين الجانب للكفَرة، فإنّ ذلك سبب لصدّهم إيّاه عليه السلام، كما في قوله: "لا أُرينّك ههنا"، فإنّ المراد به نهيُ المخاطَب عن الحضور لديه الموجِب لرؤيته.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: ما يهواه نفسه مِن اللذات الحسّيّة الفانية ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: فتهلِكَ، فإنّ الإغفالَ عنها وعن تحصيل ما يُنجي عن أهوالها مستتبِعٌ للهلاك

---

[١] كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٣/٣.

لا محالةَ، وهو في محلّ النصب على جواب النهي، أو في محلّ الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: فأنت تَرْدى.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ شروع في حكاية ما كُلّفه عليه السلام مِن الأمور المتعلّقة بالخَلْق إثرَ حكايةِ ما أُمر به مِن الشئون الخاصة بنفسه، فـ﴿مَا﴾ استفهاميّة في حيّز الرفع بالابتداء وتلك خبره أو بالعكس، وهو أدخَل بحسب المعنى وأوفَق بالجواب. و﴿بِيَمِينِكَ﴾ متعلّق بمضمر وقع حالًا، أي: وما تلك قارّة أو مأخوذة بيمينك، والعاملُ معنى الإشارة، كما في قوله عزّ وعلا: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود، ٧٢/١١].

وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ موصولة، أي: ما التي هي بيمينك؟ وأيًّا ما كان فالاستفهام إيقاظ / وتنبيه له عليه السلام على ما سيبدو له مِن التعاجيب. وتكريرُ النداء لزيادة التأنيس والتنبيه. [٣٧ظ]

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨﴾

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ نسَبها إلى نفسه تحقيقًا لوجه كونها بيمينه وتمهيدًا لِما يعقُبه مِن الأفاعيل المنسوبة إليه عليه السلام، وقُرئ: "عَصَيَّ"[١] على لغة هُذيل. ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ أي: أعتمد عليها عند الإعياء أو الوقوف على رأس القطيع ﴿وَأَهُشُّ بِهَا﴾ أي: أخبِط[٢] بها الورقَ وأُسقِطه ﴿عَلَىٰ غَنَمِي﴾. وقُرئ: "أَهِشُّ"[٣] بكسر الهاء، وكلاهما مِن "هَشَّ الخبزُ يهِشّ" إذا انكسر لهشاشته، وقُرئ بالسين غير المعجَمة[٤] وهو زَجْر الغنم. وتعديتُه بـ﴿عَلَىٰ﴾ لتضمين معنى الإنحاء والإقبال، أي: أزجُرها مُنحِيًا ومُقبلًا عليها.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق والثقفي والجَحدري، والزُّبيري عن يعقوب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٢٤.

٢ الخبط: ضَرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها. لسان العرب لابن منظور، «خبط».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والحسن، والمغيرة عن إبراهيم النخَعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٢٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٦.

﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: حاجات أخرُ مِن هذا الباب، مثلُ ما رُوي أنّه عليه السلام كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلّق بها أدواته مِن القوس والكِنانة والحِلاب[١] ونحوِها، وإذا كان في البرّيّة ركَزها وعرَض الزندين على شُعبتيها وألقى عليها الكِساء واستظلّ به، وإذا قصُر الرِّشاء[٢] وصله بها، وإذا تعرّضت لغنمه السباع قاتل بها.[٣]

قيل: ومِن جملة المآرب أنّها كانت ذات شُعبتين ومِحجَن،[٤] فإذا طال الغُصن حناه بالمِحجن وإذا أراد كسره لواه بالشُّعبتين.[٥]

وكأنّه عليه السلام فهِم أنّ المقصود مِن السؤال بيانُ حقيقتها وتفصيلُ منافعها بطريق الاستقصاء حتّى إذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة وبدت منها خواصّ بديعة عُلم أنّها آيات باهرة ومعجزات / قاهرة أحدَثها الله تعالى، [٣٨و] وليست مِن الخواصّ المترتّبة عليها، فذِكر حقيقتها ومنافعها على التفصيل والإجمال على معنى أنّها مِن جنس العصا مستتبِعةٌ لمنافع بنات جنسها ليطابقَ جوابُه الغرضَ الذي فهِمه مِن سؤال العليم الخبير.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ينساق إليه الذهن، كأنّه قيل: فماذا قال عزّ وجلّ؟ فقيل: قال: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ لترى مِن شأنها ما لم يخطُر ببالك مِن الأمور. وتكرير النداء لتأكيد التنبيه.

﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ على الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ رُوي أنّه عليه السلام حين ألقاها انقلبت حيّة صفراءَ في غِلَظ العصا، ثمّ انتفخت وعظُمت، فلذلك شُبّهت بالجانّ تارة وسُمّيت ثُعبانًا أخرى.[٦] وعُبّر عنها ههنا بالاسم العامّ للحالين.[٧]

---

١ الحِلاب والمِحلب: الإناء الذي يُحلب فيه اللبن. **لسان العرب** لابن منظور، «حلب».

٢ الرِّشاء: الحبل، ومنه حبل الدلو يُمدّ إلى البئر. **لسان العرب** لابن منظور، «رشا».

٣ بلفظ قريب **الكشّاف** للزمخشري، ٤٤/٣؛ وبعضه في **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٦٨/٥-٢٦٩.

٤ المِحجن والمِحجنة: عصًا معوجّة معقّفة الرأس. **لسان العرب** لابن منظور، «حجن».

٥ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٤/٣.

٦ الكلام في **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٦٩/٥؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٤٥/٣.

٧ الكلام في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٨٧/٢.

وقيل: قد انقلبت مِن أوّل الأمر ثعبانًا.[١] وهو الأليَق بالمقام، كما يفصح عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء، ٣٢/٢٦]. وإنّما شُبّهت بالجانّ في الجلادة وسُرعة الحركة لا في صِغَر الجُثّة.

وقوله تعالى: ﴿تَسْعَىٰ﴾ إمّا صفةٌ لـ﴿حيّةٌ﴾ أو خبرٌ ثانٍ عند مَن يجوّز كونَه جملة.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سبَق ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: انقلبت ثعبانًا ذكَرًا يبتلع كلَّ شيء مِن الصخر والشجَر، فلمّا رآه كذلك خاف ونفَر، وملَكه ما يملِك البشر عند مشاهدة الأهوال والمخاوف مِن الفزع والنِّفار.[٢] وفي عطف النهي على الأمر إشعارٌ بأنّ عدم المنهيّ عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط.

وقوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ مع كونه استئنافًا مَسوقًا[٣] لتعليل الامتثال بالأمر والنهي، فإنّ إعادتها إلى ما كانت عليه / مِن موجِبات أخذِها [٣٨ظ] وعدمِ الخوف منها، عِدَةٌ[٤] كريمة بإظهار معجزة أخرى على يده عليه السلام، وإيذانٌ بكونها مسخَّرةً له عليه السلام ليكون على طُمَأنينة مِن أمره ولا يعتريَه شائبةُ تَزلزُل عند مُحاجّة فرعونَ، أي: سنُعيدها بعد الأخذ إلى حالتها الأولى التي هي الهيئة العَصَويّة. قيل: بلَغ عليه السلام عند ذلك مِن الثقة وعدم الخوف إلى حيث كان يُدخل يدَه في فمها ويأخذ بلَحْيَيها.[٥]

و"السِّيرة" فِعْلة مِن "السَّير" تُجُوّز بها للطريقة والهيئة، وانتصابُها على نَزْع الجارّ، أي: إلى سيرتها، أو على أنّ "أعاد" منقول مِن "عاده" بمعنى عاد إليه، أو على الظرفيّة، أي: سنُعيدها في طريقتها، أو على تقدير فعلها وإيقاعِها حالًا مِن المفعول، أي: سنُعيدها عصًا كما كانت مِن قبل تسير سيرتَها، أي: سائرة سيرتَها الأولى، فتنتفع بها كما كنتَ تنتفع مِن قبل.

---

[١] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٩/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٥/٣.

[٢] ما وقفتُ عليه في مظانّه. وهو بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٤٥/٣.

[٣] س: مسوق.

[٤] السياق: وقوله تعالى... عِدةٌ...

[٥] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥/٣.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أُمر عليه السلام بذلك بعدما أخَذ الحيّة وانقلبت عصًا كما كانت، أي: أدخِلها تحت عضُدِك، فإنّ جناحَي الإنسان جنباه كما أنّ جناحَي العسكر ناحيتاه، مستعارٌ مِن جناحَي الطائر، وقد سُمّيا جناحَين لأنّه يُجنِحُهما، أي: يُميلهما عند الطيران.

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ﴾ جواب الأمر، وقوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ﴾ حال مِن الضمير فيه. وقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ متعلّق بمحذوف هو حال مِن الضمير في ﴿بَيْضَآءَ﴾، أي: كائنة مِن غير عَيب وقُبح، كُنّي به عن البرَص كما كُنّي بالسَّوأة عن العورة لِما أنّ الطِّباع تعافه وتنفِر عنه. رُوي أنّه عليه السلام كان آدمَ فأخرج يده مِن مِدْرَعته بيضاءَ لها شُعاع كشعاع الشمس تُغشي البصر.

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: معجزة أخرى غيرَ العصا. وانتصابُها على الحاليّة إمّا مِن الضمير في ﴿تَخْرُجْ﴾ على أنّها بدل مِن الحال الأولى، وإمّا مِن الضمير في ﴿بَيْضَآءَ﴾. وقيل: مِن الضمير في الجارّ والمجرور.[١] وقيل: هي منصوبة بفعل مضمر نحو "خذْ" / أو "دونك".[٢] [٣٩و]

وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ متعلّق بمضمر ينساق إليه النظم الكريم، كأنّه قيل: فعلنا ما فعلنا مِن الأمر والإظهار لنُريَك بذلك بعضَ آياتنا الكبرى، على أنّ ﴿ٱلْكُبْرَى﴾ صفةٌ لـ﴿ءَايَٰتِنَا﴾، أو نُريَك بذلك مِن آياتنا ما هي كُبرى، على أنّ ﴿ٱلْكُبْرَى﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿نُرِيَكَ﴾، و﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ متعلّق بمحذوف هو حال مِن ذلك المفعول.

وأيًا ما كان فـ"الآية الكبرى" عبارة عن العصا واليد جميعًا. وأمّا تعلُّقه بما دلّ عليه ﴿ءَايَةً﴾، أي: دلّلنا بها لنُريَك... إلخ، أو بقوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ﴾،

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٢١٩/١٣.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥/٣.

أو بقوله: ﴿تَخْرُجْ﴾، أو بما قُدّر مِن نحو "خُذْ" و"دونَك" كما قال بكلّ مِن ذلك قائل،[١] فيؤدّي إلى عَراء آية العصا عن وصف الكِبَر، فتدبّر.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ تخلُّص إلى ما هو المقصود مِن تمهيد المقدّمات السالفة، فُصِل عمّا قبله مِن الأوامر إيذانًا بأصالته، أي: اذهبْ إليه بما رأيتَه مِن الآيات الكبرى وادْعُه إلى عبادتي وحذِّره نَقمتي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب المأمور به، أي: جاوَز الحدَّ في التكبّر والعتوّ والتجبّر حتّى تجاسَر على العظيمة التي هي دعوى الربوبيّة.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ينساق إليه الذهن، كأنّه قيل: فماذا قال عليه السلام حين أُمر بهذا الأمر الخطير والخطب العسير؟ فقيل: قال مستعينًا بربّه عزّ وجلّ: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾، لمّا أُمر بما أُمر به مِن الخطب الجليل تضرّع إلى ربّه عزّ وجلّ وأظهَر عَجْزه بقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء، ١٣/٢٦]، وسأله تعالى أن يُوسِّع صدَره ويفسَح قلبه ويجعله عليمًا بشئون الحقّ وأحوال الخَلْق حليمًا حَمولًا، يستقبل ما عسى يَرِد عليه مِن الشدائد والمكاره بجميل الصبر وحُسن الثبات، ويتلقّاها بصدر فسيح وجأش رابط، وأن يُيَسِّهل عليه مع ذلك أَمْره الذي هو أجلّ / الأمور وأعظَمها [٣٩ظ] وأصعبُ الخطوب وأهولها بتوفيق الأسباب ورفع الموانع.

وفي زيادة كلمة ﴿لِى﴾ مع انتظام الكلام بدونها تأكيدٌ لطلب الشرح والتيسير، بإبهام المشروح والميسّر أوّلًا وتفسيرهما ثانيًا. وفي تقديمها وتكريرها إظهارُ مَزيدِ اعتناء بشأن كلّ مِن المطلوبَين وفَضْلِ اهتمام باستدعاء حصولهما له واختصاصهما به.

---

[١] هذه الأقوال في اللباب لابن عادل، ٢٢١/١٣.

﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾

﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ رُوي أنّه كان في لسانه عليه السلام رُتّة[1] مِن جمرة أدخلها فاه في صغره، وذلك أنّ فرعون حمَله ذات يوم فأخَذ لحيته فنتَفها لِما كان فيها مِن الجواهر فغضب وأمَر بقتله، فقالت آسيةُ: إنّه صبيّ لا يفرّق بين الجمر والياقوت، فأُحضِرا بين يديه فأخذ الجمرة فوضعها في فيه.[2] قيل: واحترقت يده فاجتهد فرعونُ في علاجها فلم تبرأ. ثمّ لمّا دعاه قال: إلى أيّ ربّ تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عَجَزتَ عنه.[3]

واختُلف في زوال العُقدة بكمالها: فمَن قال به تمسَّك بقوله تعالى: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ﴾ [طه، ٣٦/٢٠]، ومَن لم يقُل به احتجّ بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي﴾ [القصص، ٣٤/٢٨] وقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف، ٥٢/٤٣].[4] وأجاب عن الأوّل بأنّه لم يسأل حلّ عُقدة لسانه بالكلّيّة؛ بل حلَّ عُقدة تمنَع الإفهام، ولذلك نكرّها ووصفها بقوله: ﴿مِّن لِّسَانِي﴾ أي: عقدةً كائنة مِن عُقَد لساني، وجعَل قوله تعالى: ﴿يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ جوابَ الأمر وغرضًا مِن الدعاء، فبحلّها في الجملة يتحقّق إيتاء سؤله عليه السلام.[5]

والحقُّ أنّ ما ذُكر لا يدلّ على بقائها في الجملة: أمّا قوله تعالى: ﴿هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي﴾ فلأنّه عليه السلام قاله قبل استدعاء الحلّ، كما ستعرفه، على أنّ أفصحيّته منه عليهما السلام لا تستدعي بقاءها أصلًا؛ بل تستدعي عدم البقاء لِما أنّ الأفصحيّة تُوجِب ثبوت أصل الفصاحة في المفضول أيضًا، وذلك مُنافٍ للعُقدة رأسًا؛ وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ فمِن باب غلوّ اللعين في العُتوّ والطغيان وإلّا لدلّ على عدم زوالها أصلًا؛ / وتنكيرُها إنّما يفيد قِلّتها في نفسها [٤٠و] لا قِلّتها باعتبار كونِها بعضًا مِن الكثير.

---

[1] الرُّتّة: عجلة في الكلام وقِلّة أناة، وعيب قبيح في اللسان. **لسان العرب** لابن منظور، «رتت».

[2] مرويّ بلفظ قريب عن سعيد بن جُبير ومجاهد في **جامع البيان** للطبري، ٥٣/١٦-٥٤؛ وهو بلا نسبة في **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٧١/٥؛ و**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٨٨/٢؛ و**اللباب** لابن عادل، ٢٢٤/١٣.

[3] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٥/٣.

[4] القولان في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦/٣.

[5] هذا الجواب بلفظ قريب في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٨٩/٢؛ وبعضه في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦/٣.

وتعلُّق كلمة ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن لِّسَانِي﴾ بمحذوف هو صفة لها ليس بمقطوع به؛ بل الظاهرُ تعلُّقها بنفس الفعل، فإنّ المحلول إذا كان متعلِّقًا بشيء ومتَّصلًا به فكما يتعلَّق الحلُّ به يتعلَّق بذلك الشيء أيضًا باعتبار إزالته عنه أو ابتداء حصوله منه.

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي﴾ أي: مؤازِرًا يُعاونني في تحمّل أعباء ما كُلّفتُه، على أنّ اشتقاقه مِن "الوِزْر" الذي هو الثِّقَل، أو ملجأ أعتصمُ برأيه على أنّه مِن "الوَزَر" وهو الملجأ. وقيل: أصله "أَزِير" مِن "الأَزْر" بمعنى القوّة، فعيل بمعنى مفاعل، كـ"العشير" و"الجليس"، قُلبت همزته واوًا كقلبها في "مُؤازِر".[1] ونصبُه على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿ٱجْعَل﴾ قُدِّم على الأوّل الذي هو قوله تعالى: ﴿هَٰرُونَ﴾ اعتناءً بشأن الوزارة.

و﴿لِي﴾ صلةٌ لـ"الجَعْل" أو متعلِّق بمحذوف هو حال مِن ﴿وَزِيرًا﴾، إذ هو صفة له في الأصل. و﴿مِّنْ أَهْلِي﴾ إمّا صفة لـ﴿وَزِيرًا﴾ أو صلة لـ﴿ٱجْعَل﴾. وقيل: مفعولاه: ﴿لِّي وَزِيرًا﴾، و﴿هَٰرُونَ﴾ عطفُ بيان للوزير، و﴿مِّنْ أَهْلِي﴾ كما مرّ مِن الوجهين، و﴿أَخِي﴾ في الوجهين بدل مِن ﴿هَٰرُونَ﴾ أو عطفُ بيان آخرَ.[2] وقيل: هما ﴿وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾، و﴿لِي﴾ تبيينٌ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص، ١١٢/٤].[3] ورُدّ بأنّ شَرْط المفعولَين في باب النواسخ صحّة انعقاد الجملة الاسميّة، ولا مساغَ لجعل ﴿وَزِيرًا﴾ مبتدأ ويُخبر عنه بما بعده.

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ كلاهما على صيغة الدعاء، أي: أحكِمْ به قوّتي واجعله شريكي في أمر الرسالة حتّى نتعاون على / أدائها كما ينبغي. [٤٠ظ]

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٧/٣.
[2] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧/٣.
[3] الوجه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٩/٢.

وفصلُ الأوّل عن الدعاء السابق لكمال الاتّصال بينهما، فإنّ شدّ الأزْر عبارة عن جَعْله وزيرًا، وأمّا الإشراك في الأمر فحيث كان مِن أحكام الوزارة توسّط بينهما العاطف.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة، فإنّ فِعل كلّ واحد منهما مِن التسبيح والذِّكر مع كونه مُكثِّرًا لفِعل الآخر ومُضاعِفًا له بسبب انضمامه إليه مُكثِّرٌ له في نفسه أيضًا بسبب تقويته وتأييده؛ إذ ليس المراد بالتسبيح والذِّكر ما يكون منهما بالقلب أو في الخلَوات حتّى لا يتفاوت حاله عند التعدّد والانفراد؛ بل ما يكون منهما في تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المَرَدة العُتاة إلى الحقّ، وذلك ممّا لا ريبَ في اختلاف حاله في حالتي التعدّد والانفراد، فإنّ كلًّا منهما يصدر عنه بتأييد الآخر مِن إظهار الحقّ ما لا يكاد يصدر عنه مثلُه حالَ الانفراد.

و﴿كَثِيرًا﴾ في الموضعين نعت لمصدر محذوف أو زمان محذوف، أي: ننزِّهك عمّا لا يليق بك مِن الصفات والأفعال التي مِن جُملتها ما يدَّعيه فرعونُ الطاغية ويقبَله منه فئتُه الباغية مِن ادّعاء الشركة في الألوهيّة، ونَصِفُك بما يليق بك مِن صفات الكمال ونعوتِ الجمال والجلال تنزيهًا كثيرًا أو زمانًا كثيرًا مِن جملته زمانُ دعوة فرعونَ وأوانُ المُحاجّة معه. وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى كي نصلّيَ لك كثيرًا ونحمَدَك ونُثنيَ عليك،[1] فلا يساعده المقام.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي: عالمًا بأحوالنا وبأنّ ما دعوتُك به ممّا يُصلِحنا ويُفيدنا في تحقيق ما كُلِّفتُه مِن إقامة مراسم الرسالة، وبأنّ هارونَ نِعمَ الرِّدْء في أداء ما أُمرتُ به. و"الباء" متعلِّقة بـ﴿بَصِيرًا﴾ قُدِّمت عليه لمراعاة الفواصل.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨﴾

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ أي: أُعطيتَ مسئولك، "فُعْل" بمعنى "مفعول" كـ"الخُبز" و"الأُكْل" بمعنى "المخبوز" و"المأكول". و"الإيتاء" عبارة عن / تعلُّق [٤١و]

[1] مرويّ عن الكلبي في معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٢/٥؛ واللباب لابن عادل، ٢٣٠/١٣.

إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام البتّةَ وتقديرِه إيّاها حتمًا، فكلُّها حاصلة له عليه السلام، وإن كان وقوع بعضها بالفعل مترقَّبًا بعدُ كتيسير الأمر وشدِّ الأزْر، وباعتباره قيل: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص، ٣٥/٢٨].

وقولُه تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تشريف له عليه السلام بشرف الخِطاب إثرَ تشريفه بشرف قَبول الدعاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما قبله وزيادةِ توطين نفس موسى عليه السلام بالقَبول، ببيان أنّه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النِّعم التامّة مِن غير سابقة دعاء منه وطلب، فلَأَن يُنعِم عليه بمثلها وهو طالب له وداعٍ أَوْلى وأحرى. وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك، أي: وبالله لقد أنعمنا. ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ أي: في وقت غير هذا الوقت، لا أنّ ذلك مؤخَّر عن هذا، فإنّ ﴿أُخْرَىٰ﴾ تأنيثُ "آخَر" بمعنى "غير".[١]

و"المرّة" في الأصل اسم للمرور الواحد، ثمّ أُطلق على كلّ فَعْلة واحدة مِن الفَعَلات متعدِّيةً كانت أو لازمة، ثمّ شاع في كلّ فرد واحد مِن أفراد ما له أفراد متجدِّدة، فصار عَلَمًا في ذلك حتّى جُعل مِعيارًا لِما في معناه مِن سائر الأشياء، فقيل: هذا بناء المرّة، ويقرب منها "الكرّة" و"التارة" و"الدفعة"، والمراد بها ههنا الوقت الممتدّ الذي وقَع فيه ما سيأتي ذِكره مِن المِنَن العظيمة الكثيرة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ ظرف لـ﴿مَنَنَّا﴾. والمراد بالإيحاء: إمّا الإيحاء على لسان نبيّ في وقتها كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الآية [المائدة، ١١١/٥]، وإمّا الإيحاء بواسطة المَلَك لا على وجه النبوّة كما أوحيَ إلى مريم، / وإمّا الإلهامُ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل، ٦٨/١٦]، وإمّا الإراءة في المنام. [٤١ظ]

والمراد بـ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ما سيأتي مِن الأمر بقذفه في التابوت وقَذْفه في البحر، أُبهِم أوّلًا تهويلًا له وتفخيمًا لشأنه ثمّ فُسِّر ليكون أقرّ عند النفس. وقيل:

---

[١] وفي هامش م: فلا حاجةَ إلى التكلّف بأنّه مؤخَّر عنه في الذِّكر. «منه». | والقول منقول في اللباب لابن عادل، ٢٣١/١٣.

معناه ما ينبغي أن يُوحى ولا يُخَلّ به لِعظم شأنه وفَرْط الاهتمام به. وقيل: ما لا يُعلم إلّا بالوحي.[١] وفيه أنّه لا يُلائم المعنيين الأخيرَين للوحي؛ إذ لا تفخيمَ لشأنه في أن يكون ممّا لا يُعلم إلّا بالإلهام أو بالإراءة في المنام.

﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾

و﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ مفسِّرةٌ، لأنّ "الوحي" مِن باب "القول"، أو مصدريّةٌ حُذف عنها "الباء"، أي: بأن اقذفيه، ومعنى القَذْف ههنا الوضعُ، وأمّا في قوله تعالى: ﴿فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ فالإلقاءُ. وهذا التفصيل هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [القصص، ٧/٢٨]، لا القذفُ بلا تابوت.

﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ لمّا كان إلقاء البحر إيّاه بالساحل أمرًا واجبَ الوقوع لتعلّق الإرادة الربّانيّة به جُعل البحر كأنّه ذو تمييز مُطيع أُمر بذلك، وأُخرج الجواب مُخرجَ الأمر، والضمائرُ كلّها لموسى عليه السلام، والمقذوفُ في البحر والمُلقى بالساحل وإن كان هو التابوتَ أصالة، لكن لمّا كان المقصود بالذات ما فيه، جُعل التابوت تبعًا له في ذلك.

﴿يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥ﴾ جواب للأمر بالإلقاء، وتكريرُ "العدوّ" للمبالغة والتصريح بالأمر والإشعارِ بأنّ عداوته له مع تحقّقها لا تؤثِّر فيه ولا تضرّه؛ بل تؤدي إلى المحبّة، فإنّ الأمر بما هو سبب للهلاك صورةً مِن قذفه في البحر ووقوعه في يد عدوّ الله تعالى وعدوّه مشعرٌ بأنّ هناك لُطفًا خفيًّا مُندرِجًا تحت قَهْر صُوري. وقيل: الأوّل باعتبار الواقع والثاني باعتبار المتوقَّع.[٢]

وليس المراد بـ﴿ٱلسَّاحِلِ﴾ نفسَ الشاطئ؛ بل ما يقابل الوسط، وهو ما يلي الساحل مِن البحر بحيث يجري ماؤه إلى نهر فرعونَ، لِما / رُوي أنّها [٤٢و] جعَلتْ في التابوت قُطنًا ووضعتْه فيه ثمّ قيّرتْه[٣] وألقتْه في اليمّ، وكان يشرَع منه

---

١ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٨٩.

٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٩٠.

٣ قيّره: طلاه بالقار أو القير، وهو شيء أسودُ تُطلى به السُّفن، يمنع الماء أن يدخل. لسان العرب لابن منظور، «قير».

إلى بستان فرعونَ نهر، فدفَعه الماء إليه فأتى به إلى بِرْكة في البستان، وكان فرعونُ جالسًا ثمّة مع آسيةَ بنت مُزاحِم، فأمر به فأُخرج ففُتح فإذا هو صبيّ أصبحُ الناس وجهًا، فأحبّه عدوّ الله حبًّا شديدًا لا يكاد يتمالك الصبر عنه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[1] كلمةُ "مِن" متعلِّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿مَحَبَّةً﴾ مؤكِّدة لِما في تنكيرها مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: محبّة عظيمة كائنة منّي قد زرعتُها في القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك مَن رآك، ولذلك أحبّك عدوّ الله وآله. وقيل: هي متعلِّقة بـ﴿أَلْقَيْتُ﴾، أي: أحببتُك ومَن أحبّه الله تعالى أحبّته القلوب لا محالةَ.[2]

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ متعلِّق بـ﴿أَلْقَيْتُ﴾، معطوف على علّة له مُضمَرة، أي: ليتعطّف عليك ولتُربّى بالحُنوّ والشفقة بمراقبتي وحِفظي، أو بمضمر مؤخَّر هو عبارة عمّا قبله مِن إلقاء المحبّة. والجملة مبتدأة، أي: ولتصنع على عيني فعلتُ ذلك، وقُرئ: "وَلْتُصْنَعْ" على صيغة الأمر بسكون اللام[3] وكسرها،[4] وقُرئ بفتح التاء والنصب،[5] أي: وليكونَ عملُك على عين منّي لئلّا يخالَف به عن أمري.

﴿إِذْ تَمْشِيَ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾

﴿إِذْ تَمْشِيَ أُخْتُكَ﴾ ظرف لـ﴿تُصْنَعَ﴾ على أنّ المراد به وقت وقَع فيه مشيُها إلى بيت فرعونَ، وما ترتَّب عليه مِن القول والرَّجْع إلى أمّها وتربيتها له بالبرّ والحُنوّ، وهو المِصداق لقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾،[6] إذ لا شفقةَ أعظم

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٨.
[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٨.
[3] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٠.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن شَيبة والدُّوري عن أبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٢٨.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهيك. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٢٨.
[6] في الآية السابقة.

مِن شفقة الأم وصُنعِها على موجب مراعاته تعالى. وقيل: هو بدل مِن ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا﴾،[١] على أنّ المراد به زمان متّسع متباعد الأطراف.[٢] وهو الأنسب / بما [٤٢ظ] سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾... إلى آخره، فإنّ جميع ذلك مِن المِنَن الإلهيّة ولا تعلُّق لشيء منها بالصُّنع المذكور، وأمّا كونه ظرفًا لـ﴿أَلْقَيْتُ﴾[٣] كما جُوّز فربّما يُوهِم أنّ إلقاء المحبّة لم يحصُل قبل ذلك، ولا ريبَ في أنّ معظم آثار إلقائها ظهَر عند فتح التابوت.

﴿فَتَقُولُ﴾ أي: لفرعونَ وآسيةَ حين رأتهما يطلبان له عليه السلام مرضعة يقبَل ثديَها وكان لا يقبَل ثديًا.[٤] وصيغةُ المضارع في الفعلين لحكاية الحال الماضية. ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ أي: يضمّه إلى نفسه ويُربّيه، وذلك إنّما يكون بقَبوله ثديَها.

يُروى أنّه فشا الخبر بمصرَ أنّ آل فرعونَ أخذوا غلامًا مِن النِّيل لا يرتضع ثديَ امرأة واضطُرّوا إلى تتبّع النساء، فخرجت أخته مريمُ لتعرِف خبره فجاءتهم متنكِّرة فقالت ما قالت وقالوا ما قالوا، فجاءت بأمّه فقبِل ثديَها.

فـ"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ فصيحة مُعرِبة عن محذوف قبلها يُعطَف عليه ما بعدها، أي: فقالوا: دُلّينا عليها فجاءت بأمّك فرجعناك إليها ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك، وإلّا فزوال الحزن مقدَّم على السرور المعبَّر عنه بقُرّة العين، فإنّ التخلية متقدِّمة على التحلية. وقيل: ولا تحزن أنت بفَقْد إشفاقها.[٥]

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ هي نفس القِبْطي الذي استغاثه الإسرائيلي عليه ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي: غمّ قَتْله خوفًا مِن عقاب الله تعالى بالمغفرة ومِن اقتصاص فرعونَ بالإنجاء عنه بالمهاجَرة إلى مَديَن. ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي: ابتليناك ابتلاءً أو فنونًا مِن الابتلاء على أنّه جَمْع "فَتْن"، أو فتنةً على ترك الاعتداد بـ"التاء"،

---

١ طه، ٣٨/٢٠.
٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٨/٣.
٣ طه، ٣٨/٢٠.
٤ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨/٣.
٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٠/٢.

كـ"حُجوز" في "حُجْزة" و"بُدور" في "بَذْرة"، أي: خلّصناك مرّة بعد أخرى، وهو إجمال ما ناله في سفَره مِن الهجرة عن الوطن ومفارقة الأُلّاف / والمَشْي راجلًا وفَقْد الزاد. [٤٣و]

وقد رُوي أنّ سعيد بن جُبير سأل عنه ابن عبّاس رضي الله عنهم، فقال: خلّصناك مِن محنة بعد محنة، وُلد في عام كان يُقتل فيه الوِلْدان، فهذه فتنة يا بن جُبير، وألقتْه أمّه في البحر، وهمّ فرعونُ بقتله، وقتَل قِبطيًا، وآجَر نفسه عشر سنين وضلّ الطريقَ وتفرّقت غنمُه في ليلة مظلمة.[١] وكان يقول عند كلّ واحدة: فهذه فتنة يا بن جُبير.

ولكنّ الذي يقتضيه النظم الكريم أن لا تُعدَّ إجارة نفسه وما بعدها مِن تلك الفُتون ضرورةَ أنّ المراد بها ما وقع قبل وصوله عليه السلام إلى مَدْينَ بقضيّة "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ إذ لا ريبَ في أنّ الإجارة المذكورة وما بعدها ممّا وقَع بعد الوصول إليهم. وقد أشيرَ بذِكر لُبثه عليه السلام فيهم دون وصوله إليهم إلى جميع ما قاساه عليه السلام في تضاعيف تلك السنين العَشْر مِن فنون الشدائد والمكاره التي كلُّ واحد منها فتنة وأيُّ فتنة. ومَدْينُ بلدة شعيبٍ عليه السلام على ثماني مراحلَ مِن مصرَ.

﴿ثُمَّ جِئْتَ﴾ إلى المكان الذي أُونسَ فيه النار ووقع فيه النداء والحِوار، وفي كلمة التراخي إيذان بأنّ مجيئه عليه السلام كان بعد اللُّتيّا والتي[٢] مِن ضلال الطريق وتفرُّق الغنم في الليلة المظلمة الشاتية وغير ذلك.

﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي: تقدير قدّرتُه لأن أكلِّمَك وأستنبئَك في وقت قد عيّنتُه لذلك، فما جئتَ إلّا على ذلك القدَر غيرَ مستقدِم ولا مستأخِر. وقيل: على مِقدار مِن الزمان يُوحى فيه إلى الأنبياء عليهم السلام، وهو رأس أربعين سنةً.[٣]

---

[١] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٦٤/١٦-٧٠، في حديث جدّ طويل، ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٧٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩/٣.

[٢] اللُّتيّا والّتِي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٩/٣.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰمُوسَىٰ﴾ / تشريف له عليه السلام وتنبيهٌ على انتهاء الحكاية [٤٣ظ] التي هي تفصيلُ المرّة الأخرى التي وقعت قبل المرّة المحكيّة أوّلًا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ تذكير لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾[١] وتمهيدٌ لإرساله عليه السلام إلى فرعونَ مؤيَّدًا بأخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المِنن السابغة السابقة تأكيدًا لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة. وهذا تمثيل لِما خوّله عزّ وعلا مِن الكرامة العظمى بتقريب المَلِك بعضَ خواصّه واصطناعه لنفسه وترشيحه لبعض أموره الجليلة.

والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّـٰكَ﴾ ونظيرَيه السابقين تمهيد لإفراد لفظ "النفس" اللائق بالمقام، فإنّه أدخَلُ في تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص، أي: اصطفيتك[٢] برسالاتي وبكلامي.

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ أي: وليَذهبْ أخوك حسبما استدعيتَ. استئنافٌ مَسوق لبيان ما هو المقصود بالاصطناع.

﴿بِـَٔايَـٰتِى﴾ أي: بمعجزاتي التي أرَيتُكَها مِن اليد والعصا فإنّهما وإن كانتا اثنتين لكن في كلّ منهما آيات شتّى، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران، ٩٧/٣]، فإنّ انقلاب العصا حيوانًا آية، وكونَها ثعبانًا عظيمًا لا يُقادَر قَدْره آية أخرى، وسرعةَ حركته مع عِظَم جِرْمه آيةٌ أخرى، وكونَه مع ذلك مسخَّرًا له عليه السلام بحيث كان يُدخل يده في فمه فلا يضرّه آيةٌ أخرى، ثمّ انقلابُها عصًا آيةٌ أخرى، وكذلك اليد فإنّ بياضها في نفسه آيةٌ وشُعاعَها آيةٌ، ثمّ رجوعُها إلى حالتها الأولى آيةٌ أخرى.

و"الباء" للمصاحبة لا للتعدية؛ إذ المراد ذهابهما إلى فرعونَ ملتبِسين بالآيات متمسِّكين بها في إجراء أحكام الرسالة وإكمال أمر الدعوة، لا مجرّدُ إذهابها أو إيصالها إليه.

---

[١] طه، ١٣/٢٠.

[٢] ط س: اصطنعتك.

﴿وَلَا تَنِيَا﴾ لا تفتُرا ولا تقصِّرا، وقُرئ: "لَا تِنِيَا"[١] بكسر "التاء" للاتباع ﴿فِى ذِكْرِى﴾ أي: بما يليق بي مِن الصفات الجليلة والأفعال الجميلة عند تبليغ رسالتي والدعاء إليّ. وقيل: المعنى لا تَنِيا في تبليغ رسالتي، فإنّ الذِّكر يقع على جميع العبادات، وهو أجلُّها وأعظمُها.[٢] وقيل: لا تنسَياني حيثما تقلّبتُما واستمِدّا به[٣] العون والتأييد، واعلما أنّ أمرًا مِن الأمور لا يتأتّى ولا يتسنّى إلّا بذِكري.[٤]

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝﴾

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ جمَعهما في صيغة أمْر الحاضر مع غَيبة هارونَ إذ ذاك للتغليب، / وكذا الحال في صيغة النهي. رُوي أنّه أوحيَ إلى هارونَ وهو بمصرَ أن يتلقّى موسى عليهما السلام. وقيل: سمِع بإقباله فتلقّاه.[٥] ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تعليل لموجَب الأمر. [٤٤و]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ لترتيب ما بعدها على طغيانه، فإنّ تليين القول ممّا يكسِر سَوْرة عِناد العُتاة ويُليّن عريكة الطُّغاة. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لا تُعنِّفا في قولكما».[٦] وقيل: القولُ الليّن مثل: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات، ١٨/٧٩-١٩]، فإنّها دعوة في صورة عَرْض ومَشورة.[٧] ويردّه ما سيجيء مِن قوله تعالى: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ الآيتين [طه، ٤٧/٢٠]. وقيل: «كنّياه».[٨] وكان له ثلاثُ كُنًى: أبو العبّاس وأبو الوليد وأبو مُرّة.[٩] وقيل: عِداه شبابًا لا يهرَم ويبقى له لذّة المَطعَم والمَشرَب والمَنكح ومُلكًا لا يزول إلا بالموت.[١٠] وقُرئ: "لَيْنًا".[١١]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٠.
[٢] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٩/٣.
[٣] وفي هامش م: أي: بذِكري.
[٤] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩١/٢.
[٥] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٩/٣.
[٦] معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٤/٥.
[٧] مرويّ عن مقاتل في معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٤/٥؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤٩/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩١/٢.
[٨] مرويّ عن السُّدّي في جامع البيان للطبري، ٧٥/١٦.
[٩] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٤/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩/٣.
[١٠] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٩/٣.
[١١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٠.

﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ بما بلغتُماه مِن ذِكري ويرغب فيما رغّبتماه فيه ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ عقابي. ومحلُّ الجملة النصب على الحال مِن ضمير التثنية، أي: فقولا له قولًا لَيِّنًا راجين أن يتذكّر أو يخشى، وكلمةُ ﴿أَوْ﴾ لمَنْع الخلوّ، أي: باشِرا الأمر مباشرةَ مَن يرجو ويطمع أن يُثمِّر عمله ولا يخيبَ سعيُه وهو يجتهد بطَوْقه ويحتشد بأقصى وُسْعه. وجدوى إرسالهما إليه مع العِلم بحاله إلزامُ الحجّة وقطعُ المَعذِرة.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾

﴿قَالَا رَبَّنَا﴾ أُسندَ القول إليهما مع أنّ القائل حقيقةً هو موسى عليه السلام بطريق التغليب إيذانًا بأصالته في كلّ قول وفعل وتبعيّةِ هارونَ عليه السلام له في كلّ ما يأتي ويذَر. ويجوز أن يكون هارونُ قد قال ذلك بعد تلاقيهما، فحُكيَ ذلك مع قول موسى عليه السلام عند نزول الآية، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ [المؤمنون، ٢٣/٥١]، فإنّ هذا الخطاب قد حُكي لنا بصيغة الجَمْع مع أنّ كلًّا مِن المخاطَبين لم يخاطَب إلّا بطريق الانفراد ضرورةَ / استحالة اجتماعهم في الوجود فكيف باجتماعهم في الخطاب. [٤٤ظ]

﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ أي: يعجَلَ علينا بالعقوبة ولا يصبِرَ إلى إتمام الدعوة وإظهار المعجزة مِن "فرَط" إذا تقدّم، ومنه "الفارط" و"فرَس فارط": يسبِق الخيل، وقُرئ: "يُفْرَطَ"[١] مِن "أفرَطه" إذا حمَله على العجَلة، أي: نخاف أن يحمِله حامل مِن الاستكبار أو الخوف على المُلك أو غيرهما على المعاجَلة بالعقاب.

﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أي: يزداد طغيانًا إلى أن يقول في شأنك ما لا ينبغي لكمال جرأته وقساوته. وإطلاقُه مِن حُسن الأدب. وإظهارُ كلمة ﴿أَن﴾ مع سَداد المعنى بدونه لإظهار كمال الاعتناء بالأمر والإشعار بتحقّق الخوف مِن كلّ منهما.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وأبي نوفل وابن مسعود والأعمش وسلام وأناس مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٠.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال الناشئ مِن النظم الكريم، ولعلّ إسنادَ الفعل إلى ضمير الغَيبة للإشعار بانتقال الكلام مِن مَساق إلى مساق آخرَ، فإنّ ما قبله مِن الأفعال الواردة على صيغة التكلّم حكاية لموسى عليه السلام بخلاف ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه، ٦٨/٢٠]، فإنّ ما قبله أيضًا وارد بطريق الحكاية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كأنّه قيل: فماذا قال لهما ربُّهما عند تضرُّعِهما إليه؟ فقيل: قال: ﴿لَا تَخَافَا﴾ما توهَّمتما مِن الأمرين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَا﴾ تعليل لموجَب النهي ومزيدُ تسلية لهما. والمراد بالمعيّة كمال الحفظ والنُّصرة، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: ما يجري بينكما وبينه مِن قول وفعل فأفعلُ في كلّ حال ما يليق بها مِن دَفْع ضُرّ وشرّ وجَلْب نَفْع وخير. ويجوز ألّا يُقدَّر شيء، على معنى أنّني حافظكما سميعًا بصيرًا، والحافظ الناصر إذا كان كذلك فقد تمّ وبلغت النُّصرة غايتها.[١]

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧﴾

﴿فَأْتِيَاهُ﴾ أُمِرا بإتيانه الذي هو عبارة عن الوصول إليه بعد ما أُمِرا بالذهاب إليه فلا تكرارَ، وهو عطف على لا تخافا باعتبار تعليله بما بعده. / [٤٥و] ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أُمِرا بذلك تحقيقًا للحقّ مِن أوّل الأمر ليعرِف الطاغية شأنهما ويبني جوابه عليه، وكذا التعرّض لربوبيّته تعالى له.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ كونهما رسولَي ربّه ممّا يوجب إرسالهم معهما. والمراد بالإرسال إطلاقهم مِن الأَسْر والقَسْر وإخراجُهم مِن تحت يده العاديَة، لا تكليفُهم أن يذهبوا معهما إلى الشام، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي: بإبقائهم على ما كانوا عليه مِن العذاب فإنّهم كانوا تحت مَلَكة القِبْط يستخدمونهم

---

[١] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠/٣.

في الأعمال الصعبة الفادحة مِن الحَفْر ونَقْل الأحجار وغيرهما مِن الأمور الشاقّة، ويقتُلون ذكور أولادهم عامًا دون عام ويستخدمون نساءهم.

وتوسيطُ حُكم الإرسال بين بيان رسالتهما وبين ذِكر المجيء بآية دالّة على صحّتها لإظهار الاعتناء به مع ما فيه مِن تهوين الأمر على فرعونَ، فإنّ إرسالهم معهما مِن غير تعرُّض لنفسه وقومه بفنون التكاليف الشاقّة كما هو حُكم الرسالة عادةً ليس ممّا يشُقّ عليه كلَّ المشقّة، ولأنّ في بيان مجيء الآية نوعَ طُول كما ترى، فتأخيرُ ذلك عنه مُخِلّ بتجاوب أطراف النظم الكريم. وأمّا ما قيل مِن أنّ ذلك دليل على أنّ تخليص المؤمنين عن الكفَرة أهمُّ مِن دعوتهم إلى الإيمان،[1] فكَلّا.

﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ تقرير لِما تضمّنه الكلام السابق مِن دعوى الرسالة وتعليلٌ لوجوب الإرسال، فإنّ مجيئهما بالآية مِن جهته تعالى ممّا يحقّق رسالتهما ويُقرّرها ويوجب الامتثال بأمرهما. وإظهارُ اسم الربّ في موضع الإضمار مع الإضافة إلى ضمير المخاطَب لتأكيد ما ذُكر مِن التقرير والتعليل.

/ وتوحيد الآيةِ مع تعدّدها لأنّ المراد إثبات الدعوى ببرهانها لا بيانُ تعدّد الحجّة، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ [الأعراف، ١٠٥/٧]، وقولُه تعالى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء، ٣٠/٢٦]. وأمّا قوله تعالى: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء، ١٥٤/٢٦]، فالظاهر أنّ المراد بها آية مِن الآيات. [٤٥ظ]

﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ المستتبع لسلامة الدارين مِن الله تعالى والملائكة وغيرهم مِن المسلمين ﴿عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ بتصديق آيات الله تعالى الهادية إلى الحقّ، وفيه مِن ترغيبه في اتّباعهما على ألطف وجه ما لا يخفى.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ﴾ مِن جهة ربّنا ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾ الدنيوي والأخروي ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ أي: بآياته تعالى ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عن قَبولها، وفيه مِن التلطيف في الوعيد حيث لم يُصرِّح بحلول العذاب به ما لا مَزيد عليه.

---

١ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٢/٢.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعونُ بعد ما أتياه وبلّغاه ما أُمرا به. وإنّما طُوي ذِكره للإيجاز والإشعار بأنّهما كما أُمرا بذلك سارعا إلى الامتثال به مِن غير تلعثُم، وبأنّ ذلك مِن الظهور بحيث لا حاجةَ إلى التصريح به.

﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ لم يُضِف الربّ إلى نفسه ولو بطريق حكاية ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ وقولِه تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾[1] لغاية عتوّه ونهاية طُغيانه؛ بل أضافه إليهما لِما أنّ المرسِل لا بدّ أن يكون ربًّا للرسول، أو لأنّهما قد صرّحا بربوبيّته تعالى للكلّ بأن قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء، ١٦/٢٦]، كما وقَع في سورة الشعراء.

والاقتصار ههنا على ذِكر ربوبيّته تعالى لفرعونَ لكفايته فيما هو المقصود. و"الفاء" لترتيب السؤال على ما سبق مِن كونهما رسولَي ربّهما، أي: إذا كنتما رسولَي ربّكما فأخبِرا مَن ربُّكما الذي أرسلكما؟ وتخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب إليهما لِما أنّه الأصل في الرسالة وهارون وزيره.

[٤٦و] وأمّا ما قيل مِن أنّ ذلك لأنّه قد عرَف أنّ له عليه السلام / رُتّةً فأراد أن يُفحِمه،[2] فيردُّه ما شاهده منه عليه السلام مِن حُسن البيان القاطع لذلك الطمع الفارغ. وأمّا قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف، ٥٢/٤٣] فمِن غُلوّه في الخُبث والدَّعارة كما مرّ.[3]

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام مجيبًا له: ﴿رَبُّنَا﴾ إمّا مبتدأ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ خبرُه، أو هو خبر لمبتدأ محذوف والموصول صفته، وأيًّا ما كان فلم يُريدا بضمير المتكلّم أنفسهما فقط حسبما أراد اللعين؛ بل جميعَ المخلوقات تحقيقًا للحقّ وردًّا عليه كما يُفصِح عنه ما في حيّز الصلة، أي: هو ربّنا الذي أعطى كلّ شيء مِن الأشياء خَلْقه، أي: صورتَه وشكله اللائق

---

[1] كلاهما في طه، ٤٧/٢٠.
[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١/٣.
[3] في تفسير طه، ٢٨/٢٠.

بما نِيط به مِن الخواصّ والمنافع، أو أعطى مخلوقاتِه كلَّ شيء تحتاج هي إليه وترتفِق به. وتقديمُ المفعول الثاني للاهتمام به.

أو أعطى كلَّ حيوان نظيرَه في الخَلْق والصورة حيث زوّج الحصان بالحِجْر[1] والبعير بالناقة والرجل بالمرأة، ولم يزوِّج شيئًا مِن ذلك بخلاف جنسه. وقُرئ: "خَلَقَهُ"[2] على صيغة الماضي على أنّ الجملة صفة للمضاف أو المضاف إليه. وحَذْف المفعول الثاني إمّا للاقتصار على الأوّل، أي: كلَّ شيء خَلَقه الله تعالى لم يَحْرِمه مِن عطائه وإنعامه، أو للاختصار مِن كونه مَنْويًا مدلولًا عليه بقرينة الحال، أي: أعطى كلّ شيء خَلَقه تعالى ما يحتاج إليه.

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: إلى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه وعرّفه كيف يَتوصّل إلى بقائه وكماله إمّا اختيارًا كما في الحيوانات أو طبعًا كما في الجمادات والقُوى الطبيعيّة النباتيّة والحيوانيّة، ولمّا كان الخَلْق الذي هو عبارة / عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام متقدِّمًا على الهداية التي هي عبارة عن إيداع القُوى المحرِّكة والمدرِكة في تلك الأجسام وُسِّط بينهما كلمة التراخي. [٤٦ظ]

ولقد ساق عليه السلام جوابه على نمط رائق وأسلوب لائق حيث بيَّن أنّه تعالى عالم قادر بالذات خالق لجميع الأشياء منعِم عليها بجميع ما يليق بها بطريق التفضّل، وضمَّنه أنّ إرساله تعالى إيّاه إلى الطاغية مِن جملة هداياته تعالى إيّاه بعد أن هداه إلى الحقّ بالهدايات التكوينيّة حيث ركّب فيه العقل وسائرَ المشاعر والآلات الظاهرةَ والباطنة.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ لمّا شاهد اللعين ما نظَمه عليه السلام في سِلك

---

١ الحِجْر: الفرس الأنثى. لسان العرب لابن منظور، «حجر».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهيك والأعمش والحسن وسلّام والرُّستمي عن نُصير عن الكسائي. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٩٠؛ **المغني في القراءات** للنَّوْزاوازي، ص ١٢٢٩.

الاستدلال مِن البرهان النيّر على الطراز الرائع خاف أن يظهر للناس حقيّةُ مقالاته عليه السلام وبُطلانُ خرافات نفسه ظهورًا بيّنًا، أراد أن يصرِفه عليه السلام عن سَننه إلى ما لا يعنيه مِن الأمور التي لا تعلّق لها بالرسالة مِن الحكايات، ويشغَلَه عمّا هو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتسلّق بذلك إلى أن يدّعيَ بين يدي قومه نوعَ معرفة، فقال: ما حالُ القرون الماضية والأمَم الخالية، وماذا جرى عليهم مِن الحوادث المفصَّلة؟ فأجاب عليه السلام بأنّ العِلم بأحوالهم مفصّلةً ممّا لا ملابَسة له بمنصِب الرسالة وإنّما عِلمها عند الله عزّ وجلّ.

وأمّا ما قيل مِن أنّه سأله عن حال مَن خلا مِن القرون وعن شقاء مَن شقيَ منهم وسعادة مَن سعِد،[1] فيأباه قوله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ فإنّ معناه أنّه مِن الغيوب التي لا يعلمها إلّا الله تعالى، وإنّما أنا عبد لا أعلم منها إلّا ما علّمنيه مِن الأمور المتعلِّقة بما أُرسلتُ به. ولو كان المسئول عنه ما ذُكر مِن الشقاوة والسعادة لأجيب ببيان أنّ / مَن اتّبع الهدى منهم فقد سلِم ومَن تولّى فقد عُذِّب، حسبما نطَق به قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾[2] الآيتين. [٤٧و]

﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: مُثبَت في اللوح المحفوظ بتفاصيله. ويجوز أن يكون ذلك تمثيلًا لتمكُّنه وتقرُّره في عِلم الله عزّ وجلّ بما استحفظه العالِمُ، وقيّده بالكِتْبة،[3] كما يلوّح به قوله تعالى ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يُخطِئ ابتداءً ولا يذهب عليه[4] بقاءً؛ بل هو ثابت أبدًا فإنّهما مُحالان عليه سبحانه، وهو على الأوّل لبيان أنّ إثباته في اللوح ليس لحاجته تعالى إليه في العِلم به ابتداءً أو بقاءً.

وإظهار ﴿رَبِّي﴾ في موقع الإضمار للتلذّذ بذِكره ولزيادة التقرير والإشعار بعلّة الحُكم، فإنّ الربوبيّة ممّا يقتضي عدم الضلال والنسيان حتمًا، ولقد أجاب عليه السلام عن السؤال بجواب عبقريّ بديع، حيث كشف عن حقيقة الحقّ حجابَها مع أنّه لم يخرُج عمّا كان بصدَده مِن بيان شئونه تعالى.

---

[1] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥١/٣.
[2] طه، ٤٧/٢٠.
[3] الكلام في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٩٣/٢.
[4] وفي هامش م: ذهب عليه: نسيَه. «منه».

ثم تخلّص إليه حيث قال بطريق الحكايةِ عن الله عزّ وجلّ لِما سيأتي مِن الالتفات: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ على أنّ الموصول إمّا مرفوع على المدح أو منصوب عليه أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: جعَلها لكم كالمهد تتمهّدونها أو ذات مَهْد وهو مصدر سُمّي به المفعول. وقُرئ: "مِهَادًا"،[١] وهو اسم لِما يُمهَد كالفِراش، أو جَمْع "مَهْد"، أي: جعل كلَّ موضع منها مَهْدًا لكلّ واحد منكم.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: حصّل لكم طرُقًا ووسّطها بين الجبال والأودية والبراري تسلُكونها مِن قُطْر إلى قُطْر لتقضُوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء، وهو عطفٌ على ﴿أَنزَلَ﴾ داخل تحت الحكاية، وإنّما التُفت إلى التكلّم للتنبيه على ظهور ما فيه مِن الدلالة على كمال القُدرة والحكمة، والإيذان / بأنّه لا يتأتّى إلّا [٤٧ظ] مِن قادر مُطاع عظيم الشأن تنقاد لأمره وتُذعِن لمشيئته الأشياء المختلفة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر، ٢٧/٣٥]، وقولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل، ٦٠/٢٧]. خلا أنّ ما قبل الالتفات هناك[٢] صريحُ كلامه تعالى، وأمّا ههنا فحكاية عنه تعالى.

وجعلُ قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ هو المحكيَّ مع كون ما قبله كلامَ موسى عليه السلام خلافُ الظاهر، مع أنّه يفوّت حينئذ الالتفات لعدم اتّحاد المتكلّم.

﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا سُمّيت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ بيان أو صفة لـ﴿أَزْوَٰجًا﴾، أي: كائنةً مِن نبات. وكذا قوله تعالى: ﴿شَتَّىٰ﴾ أي: متفرّقة جَمْع "شتيت". ويجوز أن يكون صفةً لـ﴿نَبَاتٍ﴾ لِما أنّه في الأصل مصدر يستوي فيه الواحد والجمع، يعني أنّها شتّى مختلفةٌ في الطعم والرائحة

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٠/٢.

٢ وفي هامش م: أي: في الآيتين. «منه».

والشكل والنفع، بعضُها صالح للناس على اختلاف وجوه الصلاح وبعضُها للبهائم، فإنّ مِن تمام نعمته تعالى أنّ أرزاق عباده لمّا كان تحصُّلها بعمَل الأنعام جعَل علَفها ممّا يفضُل عن حاجاتهم ولا يليق بكونه طعامًا لهم.[١]

وقوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡ﴾ حال مِن ضمير ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ على إرادة القول، أي: أخرجنا منها أصناف النبات قائلين: كلوا وارعَوا أنعامكم، أي: مُعِدِّيها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين في ذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن شئونه تعالى وأفعاله، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ رُتبته وبُعْد منزلته في الكمال. والتنكير في قوله تعالى: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ للتفخيم كمًّا وكيفًا، أي: لآياتٍ كثيرةٌ جليلة واضحة الدلالة على / شئون الله تعالى [٤٨و] في ذاته وصفاته وأفعاله، وعلى صحّة نبوّة موسى وهارونَ عليهما السلام.

﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ جمع "نُهْية" سُمّي بها العقل لنهيه عن اتّباع الباطل وارتكاب القبيح، كما سُمّي بـ"العقل" و"الحِجْر" لعَقْله وحَجْره عن ذلك، أي: لذوي العقول الناهية عن الأباطيل التي مِن جملتها ما يدّعيه الطاغية وتقبله منه فئته الباغية. وتخصيص كونها آياتٍ بهم مع أنّها آيات للعالمين باعتبار أنّهم المنتفعون بها.

﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ۝٥٥﴾

﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي: في ضمن خَلْق أبيكم آدمَ عليه السلام منها، فإنّ كلّ فرد مِن أفراد البشر له حظٌّ مِن خَلْقه عليه السلام؛ إذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه عليه السلام؛ بل كانت أنموذجًا منطويًا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواءً إجماليًا مستتبِعًا لجَريان آثارها على الكلّ، فكان خَلْقه عليه السلام منها خلقًا للكلّ منها.

وقيل: المعنى خلقنا أبدانكم مِن النُطفة المتولِّدة مِن الأغذية المتولِّدة مِن الأرض بوسائطَ. وقيل: إنّ المَلَك الموكّل بالرَّحِم لَيأخذ مِن تُربة المكان الذي يُدفن فيه المولود فيُبدِّدها على النطفة فيُخلَق مِن التراب والنُطفة.[٢]

---

[١] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٢/٣.

[٢] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٨/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢/٣.

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء. وإيثارُ كلمة "في" على كلمة "إلى" للدلالة على الاستقرار المديد فيها. ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتّتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة وردّ الأرواح إليها. وكونُ هذا الإخراج تارةً أخرى باعتبار أنّ خَلْقهم مِن الأرض إخراج لهم منها وإن لم يكن على نهج التارة الثانية. و"التارة" في الأصل اسم لـ"التَّوْر" الواحد وهو الجرَيان، ثمّ أُطلِق على كل فَعْلة واحدة مِن الفَعَلات المتجدِّدة كما مرّ في "المرّة".[١]

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾ حكاية إجماليّة / لِما جرى بين موسى عليه السلام وبين فرعونَ إثرَ حكاية ما ذكَره عليه السلام بجلائل نَعمائه الداعية له إلى قَبول الحقّ والانقياد له. وتصديرُها بالقسَم لإبراز كمال العناية بمضمونها. وإسنادُ الإراءة إلى نون العظمة نظرًا إلى الحقيقة لا إلى موسى نظرًا إلى الظاهر لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها وإظهار كمال شناعة اللعين وتماديه في المكابرة والعناد، أي: وبالله لقد بصّرنا فرعونَ أو عرّفناه ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ حين قال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۞ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الأعراف، ١٠٦/٧-١٠٨]. [٤٨ظ]

وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما في تضاعيفهما مِن بدائع الأمور التي كلّ منها آية بيّنة لقوم يعقلون، حسبما بيّن في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ [طه، ٤٢/٢٠]. وقد ظهر عند فرعونَ أمور أُخَرُ كلّ واحد منها داهية دَهْياء:

فإنّه رُوي أنّه عليه السلام لمّا ألقاها انقلب ثعبانًا أشعَرَ فاغرًا فاه بين لَحييه ثمانون ذراعًا وضَع لَحْيَه الأسفلَ على الأرض والأعلى على سُور القصر

[١] في تفسير طه، ٣٧/٢٠.

وتوجّه نحوَ فرعونَ، فهرب وأحدَث، وانهزم الناس مزدحِمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا مِن قومه، فصاح فرعونُ: يا موسى أَنشُدك بالذي أرسلك إلّا أخذتَه فأخذه فعاد عصًا.

ورُوي أنّها انقلبت حيّة ارتفعت في السماء قدرَ مِيل، ثمّ انحطّت مُقبلة نحو فرعونَ، وجعلتْ تقول: يا موسى مُرْني بما شئت، ويقول فرعون: أنشدك... إلخ. ونزَع يديه مِن جيبه فإذا هي بيضاءُ بياضًا نورانيًا خارجًا عن حدود العادات قد غلَب شعاعُه شعاع الشمس يجتمع عليه النظّارة تعجّبًا مِن أمره.[1]

ففي تضاعيف كلّ مِن الآيتين آيات جمّة لكنّها لمّا كانت غيرَ مذكورة صراحة أُكّدت بقوله تعالى: ﴿كُلَّهَا﴾ كأنّه قيل: أريناه آيتَينا / بجميع مُستتبَعاتهما [٤٩و] وتفاصيلهما قصدًا إلى بيان أنّه لم يبقَ له في ذلك عذر ما ولا مساغَ لعدّ بقيّة الآيات التسع منها لِما أنّها إنّما ظهرت على يده عليه السلام بعد ما غلَب السحَرة على مهَل في نحو مِن عشرين سنةً، كما مرّ في تفسير سورة الأعراف.[2]

ولا ريبَ في أنّ أَمر السحَرة مترقَّب بعدُ، وأبعدُ مِن ذلك أن يُعدَّ منها ما جُعل لإهلاكهم لا لإرشادهم إلى الإيمان مِن فَلْق البحر وما ظهَر بعد مهلِكه مِن الآيات الظاهرة لبني إسرائيل، مِن نَتْق الجبل والحجَر سواء أُريدَ به الحجَر الذي فرَّ بثوبه أو الذي انفجرت منه العيون.

وكذا أن يُعدّ منها الآيات الظاهرة على الأنبياء عليهم السلام بناءً على أنّ حكايته عليه السلام إيّاها لفرعونَ في حُكم إظهارها بين يديه وإراءتِه إيّاها لاستحالة الكذِب عليه عليه السلام، فإنّ حكايته عليه السلام إيّاها لفرعونَ ممّا لم يجْرِ ذِكره ههنا، على أنّ ما سيأتي مِن حَمْل ما أظهره عليه السلام على السِّحر والتصدي للمعارضة بالمِثل يأباه إباءً بيّنًا، وينطِق بأنّ المراد بها ما ذكرناه قطعًا. ولولا ذلك لجاز جَعْل ما فصّله عليه السلام مِن أفعاله تعالى الدالّة على اختصاصه بالربوبيّة وأحكامها مِن جملة الآيات.

---

[1] هذه الأخبار في الكشّاف للزمخشري، ١٠٤/٢ (الأعراف، ١٠٧/٧-١٠٨).

[2] في تفسير الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة منها.

﴿فَكَذَّبَ﴾ موسى عليه السلام مِن غير تردّد وتأخير مع ما شاهده في يده مِن الشواهد الناطقة بصِدقه جحودًا وعِنادًا. ﴿وَأَبَىٰ﴾ الإيمانَ والطاعة لعتوّه واستكباره. وقيل: كذّب بالآيات جميعًا وأبى أن يقبل شيئًا منها أو أبى قَبول الحقّ.[١]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ استئناف مبيِّن لكيفيّة تكذيبه وإبائه، و"الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه وادِّعاء أنّه أمر مُحال. والمجيء إمّا على حقيقته أو بمعنى الإقبال على الأمر والتصدّي له، أي: أجئتنا مِن مكانك الذي كنتَ فيه بعد ما غِبت عنا، أو أقبلتَ علينا لتُخرِجنا مِن مصرَ بما أظهرتَه / مِن السحر، فإنّ ذلك ممّا لا يصدُر عن العاقل لكونه مِن باب محاولة المُحال. [٤٩ظ]

وإنّما قاله لحَمْل قومِه على غاية المَقْت لموسى عليه السلام بإبراز أنّ مراده عليه السلام ليس مجرّدَ إنجاء بني إسرائيلَ مِن أيديهم؛ بل إخراجُ القِبط مِن وطنهم وحيازةُ أموالهم وأملاكهم بالكلّيّة حتّى لا يتوجّه إلى اتّباعه أحد ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة، وسمّى ما أظهره عليه السلام مِن المعجزة الباهرة سِحرًا لتجسيرهم على المقابلة.

ثمّ ادّعى أنّه يعارضه بمِثل ما أتى به عليه السلام فقال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ "الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و"اللام" جوابُ قَسَم محذوف، كأنّه قيل: إذا كان كذلك فوالله لنأتينّك بسِحر مِثل سِحرك ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: وعدًا كما ينبئ عنه وصفه بقوله تعالى: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ فإنّه المناسب لا المكان والزمان، أي: لا نُخلف ذلك الوعد ﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾.

وإنّما فوّض اللعين أمرَ الوعد إلى موسى عليه السلام للاحتراز عن نسبته إلى ضَعْف القلب وضِيقِ المجال وإظهار الجلادة وإراءةِ أنّه متمكِّن مِن تهيئة أسباب المعارضة وترتيبِ آلات المغالبة طال الأمد أم قصُر، كما أنّ تقديم ضميره على ضمير موسى عليه السلام وتوسيطَ كلمة النفي بينهما للإيذان بمسارعته إلى عدم الإخلاف، وأنّ عدم إخلافه لا يوجب عدم إخلافه عليه السلام، ولذلك أُكِّد النفي بتكرير حرفه.

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣/٣.

وانتصاب ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ بفعل يدلّ عليه المصدر لا به، فإنّه موصوف أو بأنّه بدل مِن ﴿مَوْعِدًا﴾ على تقدير مكان مضاف إليه، فحينئذ يكون مطابقةُ الجواب في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ مِن حيث المعنى، فإنّ ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ يدلّ على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه يومئذ، أو بإضمار مثلَ "مكانُ موعدِكم مكانُ يوم الزينة" كما هو على الأوّل، أو "وعدُكم وعدُ يوم الزينة". وقُرِئ: "يَوْمَ"[1] بالنصب، وهو ظاهر في أنّ المراد به المصدر. ومعنى ﴿سُوًى﴾ منتصَفًا يستوي مسافته إلينا وإليك / وهو في النعت كقولهم: "قوم عِدًى" في الشذوذ. وقُرِئ بكسر "السين".[2] [٥٠و]

قيل: ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾: يوم عاشوراءَ، أو يوم النَّيْروز، أو يوم عيد كان لهم في كلّ عام.[3] وإنّما خصّه عليه السلام بالتعيين لإظهار كمال قوّته وكونه على ثِقَة مِن أمره وعدم مبالاته بهم لِما أنّ ذلك اليوم وقتُ ظهور غاية شوكتهم، وليكون ظهور الحقّ وزهوق الباطل في يوم مشهود على رءوس الأشهاد، ويشيع ذلك فيما بين كلّ حاضر وباد.

﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ عطفٌ على ﴿يَوْمُ﴾ أو ﴿ٱلزِّينَةِ﴾، وقُرِئ على البناء للفاعل بـ"التاء"[4] على خطاب فرعونَ، وبـ"الياء"[5] على أنّ الضمير له على سَنن الملوك أو لليوم.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أي: انصرف عن المجلس ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ أي: ما يُكادُ به مِن السحَرة وأدواتِهم ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي: الموعدَ ومعه ما جمعه مِن كيده. وفي كلمة التراخي إيماءٌ إلى أنّه لم يسارع إليه؛ بل أتاه بعد لَأْيٍ وتلَعْثُم.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والحسن وأبي حَيْوَة وابن أبي عبلة وقتادة والجَحدري وهُبيرة والزّعفراني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٣١.

[2] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٢٠/٢.

[3] هذه الأقوال في الكشّاف للزمخشري، ٥٤/٣.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والجَحدري وأبي نَهيك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٣١.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والكَفَرتوثي والأديب، والعنبري عن أبي بكر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٣١.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾... إلخ، بطريق الاستئناف المبنيّ على السؤال يقضي بأنّ المترقَّب من أحواله عليه السلام حينئذ والمحتاجَ إلى السؤال والبيان ليس إلّا ما صدر عنه عليه السلام مِن الكلام، وأمّا إتيانه أوّلًا فأمرٌ محقّق غنيّ عن التصريح به، كأنّه قيل: فماذا صنع موسى عليه السلام عند إتيان فرعونَ بمَن جمعهم مِن السحَرة؟ فقيل: قال لهم بطريق النصيحة: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تدّعوا آياتِه التي ستظهر على يدي سِحرًا كما فعل فرعونُ.

﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ أي: يستأصلكم بسببه ﴿بِعَذَابٍ﴾ هائل لا يُقادَر قَدْره. وقُرئ: "يَسْحَتَكُمْ"[1] مِن الثلاثي على لغة أهل الحِجاز، والإسحاتُ لغة بني تميم ونجد. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي: على الله تعالى / كائنًا مَن كان بأيّ وجه كان، فيدخل فيه الافتراء المنهيّ عنه دخولًا أوّليًا، أو وقد خاب فرعونُ المفتري فلا تكونوا مثلَه في الخَيبة. والجملة اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبلها. [٥٠ظ]

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝٦٤﴾

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾ أي: السحَرة حين سمعوا كلامه عليه السلام، كأنّ ذلك غاظهم فتنازعوا ﴿أَمْرَهُم﴾ الذي أُريدَ منهم مِن مغالبته عليه السلام وتشاوروا وتناظروا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في كيفيّة المعارضة وتجاذبوا أهدابَ القول في ذلك ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي: مِن موسى عليه السلام لئلّا يقِفَ عليه فيدافعَه.

وكان نجواهم ما نطَق به قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: بطريق التناجي والإسرار: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾... إلى آخره،[2] فإنّه تفسير له ونتيجة لتنازُعهم وخلاصةُ ما استقرّت عليه آراؤهم بعد التناظُر والتشاوُر.

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر ورَوح وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٠.

[2] هذا الوجه في الذي تناجوا به مرويّ عن السُّدّي ووهب بن منبّه في جامع البيان للطبري، ٩٦/١٦-٩٧، وسيذكر المؤلّف قريبًا وجوهًا أخرى لذلك.

و﴿إِنْ﴾ مخفَّفة مِن "إنّ" قد أهمِلت عن العمل و"اللام" فارقة. وقُرئ بتشديد نون ﴿هَٰذَانِ﴾.[١] وقيل: هي نافيةٌ و"اللام" بمعنى "إلّا"، أي: "ما هذان إلّا ساحران".[٢] وقُرئ: "إنّ" بالتشديد،[٣] و﴿هَٰذَانِ﴾ اسمُها على لغة بَلحارث بن كعب، فإنّهم يُعربون التثنيةَ تقديرًا. وقيل: اسمها ضمير الشأن المحذوف و﴿هَٰذَانِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ خبرها. وقيل: "إنّ" بمعنى "نَعَمْ" وما بعدها جملة مِن مبتدأ وخبر، وفيهما أنّ "اللام" لا تدخُل خبرَ المبتدأ. وقيل: أصله "إنّه هذان لهما ساحران" فحُذف الضمير، وفيه أنّ المؤكَّد بـ"اللام" لا يليق به الحذف،[٤] وقُرئ: "إِنَّ هَذَيْنَ لَسَاحِرَانِ"[٥] وهي قراءة واضحة.

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ أي: أرض مصرَ بالاستيلاء عليها ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ الذي أظهراه مِن قبل ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ أي: بمَذهبكم الذي هو أفضل المذاهب وأمثلُها بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما، يريدون به ما كان عليه قوم فرعونَ، لا طريقةَ السِّحر، / فإنّهم ما كانوا يعتقدونه دِينًا. [٥١و]

وقيل: أرادوا أهلَ طريقتكم وهم بنو إسرائيلَ لقول موسى عليه السلام: ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾،[٦] وكانوا أربابَ علمٍ فيما بينهم.[٧] ويأباه أنّ إخراجهم مِن أرضهم إنّما يكون بالاستيلاء عليها تمكُّنًا وتصرُّفًا، فكيف يُتصوَّر حينئذ نَقْل بني إسرائيلَ إلى الشام؟

وحملُ الإخراج على إخراج بني إسرائيلَ منها مع بقاء قوم فرعونَ على حالهم ممّا يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله.[٨] على أنّ هذه المقالةَ منهم للإغراء بالمبالغة في المغالبة والاهتمام بالمُناصَبة، فلا بدّ أن يكون الإنذار والتحذير بأشدّ المكاره وأشقّها عليهم، ولا ريبَ في أنّ إخراج بني إسرائيلَ مِن بينهم والذهابَ بهم إلى الشام وهو آمنون في ديارهم ليس فيه كثير محذور. وقيل:

---

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.
٢ القول في اللباب لابن عادل، ٢٩٥/١٣.
٣ قرأ بها نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.
٤ هذه الأوجه في اللباب لابن عادل، ٢٩٦/١٣-٢٩٨؛ وبعضها في الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣.
٥ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.
٦ طه، ٤٧/٢٠.
٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣.
٨ القول في اللباب لابن عادل، ٣٠٤/١٣.

الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم لِما أنّهم قُدوة لغيرهم.[١] ولا يخفى أنّ تخصيص الإذهاب بهم ممّا لا مزيّةَ فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ تصريح بالمطلوب إثرَ تمهيد المقدّمات، و"الفاء" فصيحة، أي: إذا كان الأمر كما ذُكر مِن كونهما ساحرَين يريدان بكم ما ذُكر مِن الإخراج والإذهاب فأزمعوا كيدكم واجعلوه مُجمَعًا عليه بحيث لا يتخلّف عنه واحد منكم وارمُوا عن قوس واحدة. وقُرئ: "فَاجْمَعُوْا"[٢] مِن الجمع، ويعضده قوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾،[٣] أي: فاجْمَعوا أدواتِ سِحركم ورتِّبوها كما ينبغي. ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ أي: مصطفّين، أُمروا بذلك لأنّه أهيَب في صدور الرائين وأدخلُ في استجلاب الرهبة مِن المشاهِدين.

قيل: كانوا سبعين ألفًا مع كلّ منهم حبل وعصًا، وأقبلوا عليه إقبالة واحدة.[٤] وقيل: كانوا اثنين وسبعين ساحرًا،[٥] اثنان مِن القِبط والباقي مِن بني إسرائيلَ. وقيل: تِسعَمائة: ثلاثمائة مِن الفُرس، وثلاثمائة مِن الروم، وثلاثمائة مِن الإسكندريّة.[٦] وقيل: خمسةَ عشرَ ألفًا.[٧] وقيل: / بضعةً وثلاثين ألفًا.[٨] والله أعلم. [٥١ظ]

ولعلّ الموعدَ كان مكانًا متّسعًا خاطبهم موسى عليه السلام بما ذُكر في قُطر مِن أقطاره وتنازعوا أمرهم في قُطر آخرَ منه، ثمّ أُمروا بأن يأتوا وسَطه على الوجه المذكور.

وقد فُسّر الصفّ بالمصلّى لاجتماع الناسِ فيه في الأعياد والصلوات.[٩] ووجهُ صِحّته أن يكون علَمًا لموضع معيَّن مِن المكان الموعود.[١٠] وأمّا إرادة مصلًّى مِن المصلَّيات بعد تعيّن المكان الموعود،[١١] فلا مساغَ لها قطعًا.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٥.
٢ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢١.
٣ طه، ٢٠/٦٠.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٥.
٥ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٨٠.
٦ مرويّ بمعناه عن ابن جُريج في جامع البيان للطبري، ١٦/١٠٩.
٧ مرويّ عن وهب بن منبّه في جامع البيان للطبري، ١٦/١٠٨.
٨ مرويّ عن السُدّي في جامع البيان للطبري، ١٦/١٠٧-١٠٨.
٩ هو تفسير أبي عبيدة في مجاز القرآن، ٢/٢٣، ونقله عنه الزمخشري في الكشّاف، ٣/٥٥.
١٠ هذا التوجيه ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٣/٥٥.
١١ هذا الوجه مذكورٌ في الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٥.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ اعتراض تذييلي مِن قِبلهم مؤكِّد لِما قبله مِن الأمرين، أي: قد فاز بالمطلوب مَن غلَب، يريدون بالمطلوب ما وعدهم فرعونُ مِن الأجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء، ٤٢/٢٦]، ويمَن غلَب أنفسَهم جميعًا، على طريقة قولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء، ٤٤/٢٦]، أو مَن غلَب منهم حثًّا لهم على بذل المجهود في المغالبة. هذا هو اللائق بتجاوب أطراف النظم الكريم.

وقد قيل: كان نجواهم أن قالوا حين سمِعوا مقالة موسى عليه السلام: ما هذا بقول ساحر.[١] وقيل: كان ذلك أن قالوا: إن غَلَبنا موسى اتّبعناه.[٢] وقيل: كان ذلك قولَهم: إن كان ساحرًا فسنغلِبه وإن كان مِن السماء فله أمرٌ.[٣] فيكون إسرارهم حينئذ مِن فرعونَ ومَلئه، ويُحمل قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾... إلخ،[٤] على أنّهم اختلفوا فيما بينهم على الأقاويل المذكورة، ثمّ رجعوا عن ذلك بعد التنازُع والتناظُر، واستقرّت آراؤهم على ذلك، وأبَوا إلّا المناصَبة للمعارضة.

وأمّا جعلُ ضمير ﴿قَالُوٓا۟﴾ لفرعونَ وملَئه،[٥] على أنّهم قالوا ذلك للسحَرة ردًّا لهم عن الاختلاف، وأمروهم بالإجماع والإزماع وإظهارِ الجلادة بالإتيان على وجه الاصطفاف، فمُخِلٌّ بجزالة النظم الكريم، كما يشهد به الذوق السليم.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ناشئ مِن حكاية ما جرى بين السحَرة مِن المقاولة، كأنّه قيل: فماذا فعلوا بعد ما قالوا فيما بينهم ما قالوا؟ فقيل: قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾. وإنّما لم يَتعرّض لإجماعهم وإتيانهم بطريق الاصطفاف إشعارًا بظهور أمرهما وغناهما عن البيان.

---

[١] مرويّ عن وهب بن منبّه في جامع البيان للطبري، ٩٦/١٦.

[٢] مرويّ عن ابن عبّاس في الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣؛ وعن الكلبي في معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٠/٥؛ وهو بلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٥/٢.

[٣] مرويّ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ٩٥/١٦-٩٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣.

[٤] في طه، ٦٣/٢٠، وذكر المؤلّف ثمّة أنّ هذا كان هو ما تناجَوا به.

[٥] وهو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٥/٢.

﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ أي: ما تُلقيه أوّلًا، على أنّ المفعول محذوف لظهوره، أو تفعل الإلقاءَ / أوّلًا على أنّ الفعل منزّل منزلةَ اللازم. [٥٢و]

﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ما يُلقيه أو أوّلَ مَن فعل[1] الإلقاءَ، خيّروه عليه السلام بما ذُكر مراعاة للأدب لِما رأوا منه عليه السلام ما رأوا مِن مخائل الخير ورزانة الرأي، وإظهارًا للجلادة بإراءة أنّه لا يختلف حالهم بالتقديم والتأخير. و﴿أَن﴾ مع ما في حيّزها منصوب بفعل مضمر، أو مرفوع بخبريّة مبتدأ محذوف، أي: اختَرْ إلقاءَك أوّلًا أو إلقاءَنا، أو الأمرُ إمّا إلقاؤك أو إلقاؤنا.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف ناشئ مِن حكاية تخيير السحَرة إيّاه عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قال عليه السلام؟ فقيل: قال: ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أنتم أوّلًا مقابلةً للأدب بأحسنَ مِن أدبهم، حيث بتّ القول بإلقائهم أوّلًا، وإظهارًا لعدم المبالاة بسِحرهم ومساعدةً لِما أوهَموا مِن المَيْل إلى البدء، وليُبرِزوا ما معهم ويستفرِغوا أقصى جُهدهم ويستنفدوا قُصارى وُسعهم، ثمّ يُظهر الله عزّ وجلّ سلطانه فيقذف بالحقّ على الباطل فيدمَغه، لِما علِم أنّ ما سيظهر بيده سيلقَف ما يصنعون مِن مكائد السحر.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ "الفاء" فصيحة معرِبة عن مسارعتهم إلى الإلقاء كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ[2] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، أي: فألقَوا ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ﴾، وهي للمفاجأة، والتحقيقُ أنّها أيضًا ظرفيّة تستدعي متعلَّقًا ينصِبها وجملةً تُضاف إليها، لكنّها خُصّت بكون متعلَّقِها فعلَ المفاجأة، والجملةُ ابتدائيّة، والمعنى فألقَوا ففاجأ موسى عليه السلام وقت أن يُخيَّل إليه سعيُ حبالهم وعِصيّهم مِن سحرهم، وذلك أنّهم كانوا لطّخوها بالزئبق فلمّا ضربت عليها الشمس / اضطربت واهتزّت فخُيّل إليه أنّها تتحرّك. [٥٢ظ]

---

[1] س: يفعل. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلِّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[2] م ط س: فقلنا.

وقُرئ: "تُخَيِّلُ"[١] بـ"التاء" على إسناده إلى ضمير الحبال والعِصيّ وإبدالِ ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ منه بدلَ اشتمال، وقُرئ: "نُخَيِّلُ"[٢] بإسناده إليه تعالى، وقُرئ: "تَخَيَّلُ"[٣] بحذف إحدى التاءين مِن "تتخيّل".

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي: أضمر فيها بعضَ خوف مِن مفاجأته بمقتضى البشريّة المجبولة على النُّفْرة مِن الحيّات والاحتراز عن ضررها المعتاد مِن اللسع ونحوه. وقيل: مِن أن يُخالِج الناس شكّ فلا يتّبعوه.[٤] وليس بذاك كما ستعرفه. وتأخيرُ الفاعل لمراعاة الفواصل.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ أي: ما توهّمتَ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ تعليل لِما يُوجِبه النهيُ مِن الانتهاء عن الخوف، وتقريرٌ لغلَبته على أبلغ وجه وآكَده، كما يُعرب عنه الاستئناف وحرفُ التحقيق وتكرير الضمير وتعريفُ الخبر ولفظ العُلوّ المنبئ عن الغلَبة الظاهرة وصيغةُ التفضيل.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي: عصاك كما وقع في سورة الأعراف،[٥] وإنّما أُوثر الإبهام تهويلًا لأمرها وتفخيمًا لشأنها وإيذانًا بأنّها ليست مِن جنس العِصيّ المعهودة المستتبِعة للآثار المعتادة؛ بل خارجةٌ عن حدود سائر أفراد الجنس مبهمة الكُنْه مستتبِعة لآثار غريبة. وعدمُ مراعاة هذه النُّكتة عند حكاية الأمر في موضع آخرَ لا يستدعي عدم مراعاتها عند وقوع المَحكيّ.

---

[١] قرأ بها ابن ذكوان ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حنيفة وابن نِمس عن أبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٩؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٢٣٤.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. اللباب ابن عادل، ٣١٢/١٣.

[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦/٣.

[٥] في الآية السابعةَ عشرةَ بعد المائة منها.

هذا وحملُ الإبهام على التحقير بأن يراد لا تُبال بكثرة حبالهم وعِصيّهم وألقِ العُوَيد الذي في يدك، فإنّه بقدرة الله تعالى يلقَفها مع وَحدته وكثرتها وصِغره وعِظَمها،[1] يأباه ظهور حالها فيما مرّ مرّتين، على أنّ ذلك / المعنى [٥٣و] إنّما يليق بما لو فعلتْ العصا ما فعلتْ وهي على هيئته الأصليّة، وقد كان منها ما كان.

وقوله تعالى: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ بالجزم جوابًا للأمر مِن "لَقِفه" إذا ابتلعه والتقمه بسرعة. والتأنيث لكون ﴿مَا﴾ عبارةً عن العصا، أي: تبتلع ما صنعوه مِن الحبال والعِصيّ التي خُيّل إليك سعيَها وخِفّتَها. والتعبير عنها بـ﴿مَا صَنَعُوٓاْ﴾ للتحقير والإيذان بالتمويه والتزوير.

وقُرئ: "تَلَقَّفْ"[2] بتشديد "القاف" وإسقاط إحدى التاءين مِن "تتلقّف"، وقُرئ بالرفع[3] على الحال أو الاستئناف، والجملةُ الأمريّة معطوفة على النهي متمِّمة بما في حيّزها لتعليل موجَبه ببيان كيفيّة غلبته عليه السلام وعلوّه، فإنّ ابتلاع عصاه لأباطيلهم التي منها أوجسَ في نفسه ما أوجس ممّا يقلَع مادّته بالكلّيّة. وهذا كما ترى صريح في أنّ خوفه عليه السلام لم يكن ممّا ذُكر مِن مُخالجة الشكّ للناس وعدم اتّباعهم له عليه السلام، وإلّا لعُلّل بما يُزيله مِن الوعد بما يوجب إيمانهم واتّباعهم له عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾... إلخ، تعليل لقوله تعالى: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾، و﴿مَا﴾ إمّا موصولة أو موصوفة، أي: إنّ الذي صنعوه أو إنّ شيئًا صنعوه. ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ بالرفع على أنّه[4] خبر لـ﴿إِنَّ﴾، أي: كيدُ جنسِ الساحر، وتنكيرُه للتوسّل به إلى تنكير ما أضيف إليه للتحقير. وقُرئ بالنصب[5] على أنّه مفعولُ ﴿صَنَعُوٓاْ﴾

---

[1] هذا الوجه مذكور مع الوجه السابق في الكشّاف للزمخشري، ٥٦/٣.

[2] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام وأبو بكر وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

[3] قرأ بها ابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

[4] س - على أنّه.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٣٥.

و﴿مَا﴾ كافّة، وقُرِئ: "كَيْدُ سِحْرٍ"[١] على أنّ الإضافة للبيان، كما في "عِلمُ فقهٍ"، أو على معنى "ذي سِحْر"، أو على تسمية الساحر "سِحرًا" مبالغةً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي: هذا الجنس ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي: حيث كان وأين أقبل، مِن تمام التعليل. وعدمُ التعرّض لشأن العصا وكونها معجزةً إلهيّة / مع ما في ذلك مِن تقوية التعليل للإيذان بظهور أمرها. [٥٣ظ]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ كما سلف فصيحة معرِبة عن محذوفَين ينساق إليهما النظم الكريم غنيّين عن التصريح بهما لعدم احتمال تردُّد موسى عليه السلام في الامتثال بالأمر واستحالةِ عدم وقوع اللَّقْف الموعود، أي: فألقاه[٢] عليه السلام فوقَع ما وقَع مِن اللَّقْف ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ لِما تيقّنوا أنّ ذلك ليس مِن باب السِّحر، وإنّما هي آية مِن آيات الله عزّ وجلّ.

رُوي أنّ رئيسهم قال: كنّا نغلِب الناس وكانت الآلات تبقى علينا، فلو كان هذا سِحرًا فأين ما ألقَيناه مِن الآلات؟[٣] فاستَدلّ بتغيُّر أحوال الأجسام على الصانع القادر العالِم، وبظهور ذلك على يد موسى عليه السلام على صحّة رسالتِه، لا جرمَ ألقاهم بما شاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا وأتَوا بما هو غاية الخضوع.

قيل: لم يرفعوا رءوسهم حتّى رأوا الجنّة والنار والثواب والعقاب. وعن عِكرمةَ لمّا خرّوا سجّدًا أراهم الله تعالى في سجودهم منازلهم في الجنّة،[٤] ولا ينافيه قولهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾... إلخ،[٥] لأنّ كون تلك المنازلِ منازلَهم باعتبار صدورِ هذا القول عنهم.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف كما مرّ غيرَ مرّة. ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ تأخيرُ موسى عند حكاية كلامهم لرعاية الفواصل. وقد جُوّز أن يكون ترتيب كلامهم أيضًا هكذا، ٧٠ إمّا لِكِبَر سنّ هارونَ عليه السلام وإمّا للمبالغة في الاحتراز عن التوهّم الباطلِ مِن جهة فرعونَ وقومِه، حيث كان فرعونُ ربّى موسى عليه السلام في صِغَره،

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

[٢] وفي هامش م: أي: ما في يمينه. «منه».

[٣] الكلام في اللباب لابن عادل، ٣١٧/١٣.

[٤] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٧/٣.

[٥] سيأتي في طه، ٧٣/٢٠.

فلو قدّموا موسى عليه السلام لربّما توهّم اللعين وقومه مِن أوّل الأمر أنّ مرادهم فرعونُ.[١]

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعونُ للسحَرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: لموسى عليه السلام، و"اللام" لتضمين الفعل معنى الاتّباع. وقُرئ / على الاستفهام التوبيخي.[٢] ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: مِن غير أن آذن لكم في الإيمان له، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف، ١٠٩/١٨]، لا أنّ إذنه لهم في ذلك واقع بعده أو متوقَّع. [٥٤و]

﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ أي: في فنكم وأعلمُكم به وأستاذكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فتواطأتُم على ما فعلتُم أو فعلّمكم شيئًا دون شيء فلذلك غلبكم. وهذه شُبهة زوّرها اللعين وألقاها على قومه، وأراهم أنّ أَمْر الإيمان منُوط بإذنه فلمّا كان إيمانهم بغير إذنه لم يكن معتدًّا به وأنّهم مِن تلامذته عليه السلام، فلا عبرةَ بما أظهره كما لا عبرةَ بما أظهروه، وذلك لِما اعتراه مِن الخوف مِن اقتداء الناس بالسحَرة في الإيمان بالله تعالى.

ثمّ أقبل عليهم بالوعيد المؤكّد حيث قال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ أي: فوالله لأُقطعنّ ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: اليدَ اليمنى والرِّجلَ اليسرى. و﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة، كأنّ القطع ابتدأ مِن مخالفة العُضو العضوَ، فإنّ المبتدئ مِن المعروض مبتدئ مِن العارض أيضًا. وهي مع مجرورها في حيّز النصب على الحاليّة، أي: لأقطعنّها مختلفاتٍ. وتعيين تلك الحال للإيذان بتحقيق الأمر وإيقاعه لا محالةَ بتعيين كيفيّته المعهودة في باب السياسة، لا لأنّها أفظعُ مِن غيرها.

---

١ الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٧/٢.
٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر وروح وهشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٦٨/١.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: عليها. وإيثار كلمة ﴿فِى﴾ للدلالة على إبقائهم عليها زمانًا مديدًا تشبيهًا لاستمرارهم عليها باستقرار المظروف في الظرف المشتمِل عليه. قالوا: هو أوّلُ مَن صَلَب. وصيغة التفعيل في الفعلَين للتكثير، وقد قُرئا بالتخفيف.[1]

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا﴾ يريد به نفسه وموسى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾. و"اللام" مع الإيمان في كتاب الله تعالى لغيره تعالى،[2] وهذا إمّا لقصد توضيع موسى عليه السلام والهُزْء به؛ لأنه لم يكن مِن التعذيب في شيء، وإمّا لإراءة أنّ إيمانهم لم يكن عن مشاهدة / المعجزة ومعاينة البرهان؛ [٥٤ظ] بل كان عن خوف مِن قِبَل موسى عليه السلام حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعِصيِّهم، فخافوا على أنفسهم أيضًا. وقيل: يريد به ربَّ موسى الذي آمنوا به بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾.[3]

﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أدوَم.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ غيرَ مكترثين بوعيده ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك بالإيمان والاتّباع ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ مِن الله تعالى على يد موسى عليه السلام ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مِن المعجزات الظاهرة، فإنّ ما ظهر بيده عليه السلام مِن العصا كان مشتملًا على معجزات جمّة، كما مرّ تحقيقه فيما سلف، فإنّهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها.

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي: خلقنا وسائرَ المخلوقات، وهو عطفٌ على ﴿مَا جَآءَنَا﴾، وتأخيرُه لأنّ ما في ضمنه آية عقليّة نظريّة، وما شاهدوه آية حسيّة ظاهرة. وإيراده تعالى بعنوان فاطريّته تعالى لهم للإشعار بعلّة الحُكم، فإنّ خالقيّته تعالى لهم وكونَ فرعونَ مِن جملة مخلوقاته ممّا يوجب عدمَ إيثارهم له

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩١.

[2] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٧/٢.

[3] في الآية السابقة. والقول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٧/٢.

عليه سبحانه وتعالى. وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعونَ بقوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.[١]

وقيل: هو قسَم محذوفُ الجواب لدلالة المذكور عليه، أي: وحقِّ الذي فطرنا لا نؤثِرك... إلخ. ولا مساغَ لكون المذكور جوابًا له عند مَن يجوِّز تقديم الجواب أيضًا لِما أنّ القسَم لا يجاب بـ"لن" إلّا على شذوذ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ جواب عن تهديده بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾... إلخ،[٢] أي: فاصنع ما أنت صانعه، أو فاحكُم ما أنت حاكم به. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ مع ما بعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد ممّا سبق مِن الأمر بالقضاء، أي: إنّما تصنع ما تهواه أو تحكُم بما تراه في هذه الحياة الدنيا فحسبُ، وما لنا مِن رغبة في عَذْبها ولا رهبة مِن عذابها.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ التي اقترفنا فيها مِن الكفر والمعاصي ولا يؤاخذَنا بها في الدار الآخرة، / لا ليُمتّعنا بتلك الحياة الفانية حتّى نتأثّر بما أوعدتَنا به مِن القَطع والصَّلب. [٥٥و]

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ عطفٌ على ﴿خَطَٰيَٰنَا﴾، أي: ويغفرَ لنا السِّحر الذي عمِلناه في معارضة موسى عليه السلام بإكراهك وحشرك إيّانا مِن المدائن القاصية، خصّوه بالذِّكر مع اندراجه في خطاياهم إظهارًا لغاية نُفرتهم عنه ورغبتهم في مغفرته. وذِكرُ الإكراه للإيذان بأنّه ممّا يجب أن يُفرَد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالإكراه، وفيه نوعُ اعتذار لاستجلاب المغفرة.

وقيل: أرادوا الإكراه على تعلّم السِّحر حيث رُوي أنّ رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين: اثنان منهم مِن القِبط والباقي مِن بني إسرائيل، وكان فرعونُ أكرَههم على تعلّم السِّحر. وقيل: إنّه أكرَههم على المعارضة حيث رُوي أنّهم قالوا لفرعونَ:

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] في الآية السابقة.

أرِنا موسى نائمًا ففعل فوجدوه تحرُسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسِحر فإنّ الساحر إذا نام بطَل سِحره، فأبى إلّا أن يُعارضوه.[1] ويأباه تصدّيهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يُعرب عنه قولهم: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء، ٤١/٢٦]، وقولُهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء، ٤٤/٢٦].

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: في حدّ ذاته، وهو ناظر إلى قولهم: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾.[2] ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: جزاءً، ثوابًا كان أو عذابًا، أو خيرٌ ثوابًا وأبقى عذابًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلى آخر الشرطيّتين تعليلٌ مِن جهتهم لكونه تعالى خيرًا وأبقى جزاءً، وتحقيقٌ له وإبطالٌ لما ادّعاه فرعونُ. وتصديرُهما بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونهما؛ لأنّ مناط وَضْع الضمير موضعَه ادّعاءُ شهرته المُغْنية عن ذِكره، مع ما فيه مِن / زيادة التقرير، فإنّ الضمير لا يُفهَم منه [٥٥ظ] مِن أوّل الأمر إلّا شأن مبهَم له خطَر، فيبقى الذِّهن مترقّبًا لِما يعقُبه فيتمكّن عند وروده له فضلَ تمكُّن، كأنّه قيل: إنّ الشأن الخطيرَ هذا، أي: قوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ بأن مات على الكفر والمعاصي ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فينتهي عذابه، وهذا تحقيقٌ لكون عذابه أبقى، ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياةً ينتفع بها.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ به تعالى وبما جاء مِن عنده مِن المعجزات التي مِن جملتها ما شاهدناه ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ "الصالحة" كـ"الحسنة" جارية مَجرى الاسم، ولذلك لا تُذكر غالبًا مع الموصوف، وهي: كلّ ما استقام مِن الأعمال بدليل العقل والنقل.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾، والجمعُ باعتبار معناها كما أنّ الإفراد في الفعلين السابقَين باعتبار لفظها. وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بعُلوّ درجتهم وبُعد منزلتهم، أي: فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات ﴿لَهُمُ﴾ بسبب إيمانِهم وأعمالهم الصالحة ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: المنازل الرفيعة. وليس فيه

---

[1] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٨/٣.
[2] في الآية السابقة.

ما يدلّ على عدم اعتبار الإيمان المجرّد عن العمل الصالح في استتباع الثواب، لأنّ ما نِيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقًا، وهل التشاجر إلّا فيه.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بدل مِن ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾[1] أو بيان، وقد مرّ أنّ عَدْنًا عَلَمٌ لمعنى الإقامة، أو لأرض الجنّة، فقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ حال مِن "الجنات"، وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مِن الضمير في ﴿لَهُمُ﴾، والعامل معنى الاستقرار أو الإشارة.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما أتيحَ لهم مِن الفوز بما ذُكر مِن الدرجات العُلى، ومعنى البُعد لِما مرّ مِن التفخيم. ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهّر مِن دنَس الكُفر والمعاصي بما ذُكر مِن الإيمان والأعمال الصالحة، وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى. وتقديم ذِكر حال المجرم للمسارعة إلى بيان أشدّيّة عذابه ودوامه ردًّا على ما ادّعاه فرعونُ بقوله: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾.[2] هذا وقد قيل: هذه الآيات الثلاث ابتداءُ كلامٍ مِن الله عزّ وجلّ.[3] قالوا: ليس في القرآن أنّ فرعونَ فعَل بأولئك المؤمنين ما أوعَدهم به، ولم يثبُت في الأخبار.

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ حكاية إجماليّة لِما انتهى إليه أمر فرعونَ وقومه، وقد طُوي في البين ذِكرُ ما جرى عليهم مِن الآيات المفصّلات الظاهرة على يد موسى عليه السلام بعد ما غلَب السَّحرةَ في نحو مِن عشرين سنةً، حسبما فُصّل في سورة الأعراف.[4] وتصديرها بالقسَم لإبراز كمال العناية بمضمونها.

---

١ في الآية السابقة.

٢ طه، ٢٠/٧١.

٣ وفي هامش م: كذا في اللباب. | انظر: اللباب لابن عادل، ١٣/٣٢٦. وأصله في الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٨.

٤ في الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة منها.

و﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ إمّا مفسِّرة، لأنّ "الوحي" فيه معنى "القول"، أو مصدريّة حُذف عنها الجارّ. والتعبير عنهم بعنوان كونهم عِبادًا له تعالى لإظهار المَرحَمة والاعتناء بأمرهم والتنبيهِ على غاية قُبح صنيع فرعونَ بهم حيث استعبدهم وهم عِباده عزّ وجلّ، وفعَل بهم مِن فنون الظلم ما فعَل، أي: وبالله لقد أوحينا إليه عليه السلام أن أسرِ بعبادي الذين أرسلتُك لإنقاذهم مِن مَلَكة فرعونَ، أي: سِرْ بهم مِن مصرَ ليلًا.

﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ﴾ أي: فاجعَل أو فاتّخِذ لهم ﴿طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي: يابسًا على أنّه مصدر وُصف به الفاعل مبالغةً. وقُرئ: "يَبْسًا"[1] / [٥٦ظ] وهو إمّا مخفَّف منه، أو وصف كـ"صَعْب"، أو جَمْعُ "يابس" كـ"صَحْب"، وُصف به الواحد للمبالغة أو لتعدّده حسبَ تعدّد الأسباط.

﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ حال مِن المأمور، أي: آمِنًا مِن أن يُدرككم العدوُّ، أو صفةٌ أخرى لـ﴿طَرِيقًا﴾ والعائدُ محذوفٌ. وقُرئ: "لَا تَخَفْ"[2] جوابًا للأمر.

﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ عطفٌ على ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ داخل في حكمه، أي: ولا تخشى الغرق، وعلى قراءة الجزم استئناف، أي: وأنت لا تخشى، أو عطفٌ عليه و"الألف" للإطلاق كما في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب، ١٠/٣٣]. وتقديمُ نفي الخوف المذكور للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه مِن الخوف العظيم حيث قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء، ٦١/٢٦].

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ أي: تبِعهم ومعه جنوده حتّى لحِقوهم، يقال: أَتْبعتُهم، أي: تبِعتُهم، وذلك إذا كانوا سبقوك فلحِقتَهم، ويؤيّده أنّه قُرئ: "فَاتَّبَعَهُمْ"[3]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩١.

[2] قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة وهارون وعُبيد والأصمعي عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٣٦.

مِن الافتعال. وقيل: المعنى أَتْبَعَهم فرعونُ نفسَه، فحُذف المفعول الثاني. وقيل: "الباء" زائدة، والمعنى فأَتْبَعهم فرعونُ جنوده، أي: ساقهم خلفهم.[1] وأيًا ما كان فـ"الفاء" فصيحة مُعرِبة عن مُضمَر قد طُوي ذِكرُه ثقةً بغاية ظهوره وإيذانًا بكمال مسارعة موسى عليه السلام إلى الامتثال بالأمر، أي: ففعَل ما أُمر به مِن الإسراء بهم وضَرْب الطريق وسلوكه، فأَتْبَعهم فرعونُ بجنودِه برًّا وبحرًا.

رُوي أنّ موسى عليه السلام خرج بهم أوّلَ الليل وكانوا ستّمائة وسبعين ألفًا، فأُخبر فرعونُ بذلك فأَتْبَعهم بعساكره، وكانت مقدِّمته سبعمائة ألفٍ فقصّ أثرهم فلحِقهم بحيث تراءى الجمعان، فعند ذلك ضرَب عليه السلام بعصاه البحر فانفلق على اثني عشر فِرقًا كلُّ فِرق كالطَّود العظيم، فعبَر موسى عليه السلام بمَن معه مِن الأسباط سالمين وتبِعهم فرعونُ بجنوده.[2]

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: علاهم منه وغمَرهم ما غمَرهم مِن الأمر الهائل الذي لا يقادَر قَدْره ولا يُبلغ كُنهه. وقيل: غشِيهم ما سمعتَ قِصّته.[3] وليس بذاك؛ فإنّ مدار التهويل والتفخيمِ خروجُه عن حدود الفَهْم والوَصْف / لا سماعُ قِصّته. وقُرئ: "فَغَشَّاهُمْ مِنَ اليَمِّ مَا غَشَّاهُمْ"،[4] أي: غطّاهم ما غطّاهم، والفاعلُ هو الله عزّ وعلا أو "ما غشّاهم". وقيل: فرعونُ؛ لأنّه الذي ورّطهم للهَلَكة.[5] ويأباه الإظهارُ في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ أي: سلَك بهم مَسلَكًا أدّاهم إلى الخَيبة والخُسران في الدِّين والدنيا معًا، حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوي المتَّصل بالعذاب الخالد الأخروي. [٥٧و]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: ما أرشدهم قطُّ إلى طريق مُوصِل إلى مَطلَب مِن المطالب الدينيّة والدنيويّة، تقريرٌ لإضلاله وتأكيدٌ له، إذ رُبّ مُضِلّ قد يُرشِد مَن يُضِلّه إلى بعض مطالبه. وفيه نوعُ تهكُّم به في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ

---

[1] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.

[2] بعضه في معالم التنزيل للبغوي، ١١٤/٦ (الأعراف، ٥٤/٧).

[3] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩١.

[5] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٩/٣.

إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر، ٢٩/٤٠]، فإنّ نفي الهِداية مِن شخص مُشعرٌ بكونه ممّن يُتصوّر منه الهِداية في الجملة، وذلك إنّما يُتصوّر في حقِّه بطريق التهكّم.

وحملُ الإضلال والهداية على ما يختصّ بالديني منهما،[١] يأباه مقام بيان سَوقه بجنوده إلى مَساق الهلاك الدنيوي. وجعلُهما عبارةً عن الإضلال في البحر والإنجاء منه،[٢] ممّا لا يقبله العقل السليم.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠﴾

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ حكاية لِما خاطَبهم الله تعالى بعد إغراق فرعونَ وقومه وإنجائهم منهم، لكن لا عَقيب ذلك؛ بل بعد ما أفاض عليهم مِن فنون النِّعم الدينيّة والدنيويّة ما أفاض. وقيل: هو إنشاءُ خطاب للذين كانوا منهم في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، على معنى أنّه تعالى قد منَّ عليهم بما فعل بآبائهم أصالة وبهم تبَعًا.[٣] ويردُّه ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾ الآية،[٤] ضرورةَ استحالة حَمْله على الإنشاء، فالوجهُ هو الحكاية بتقدير: "قلنا" عطفًا على ﴿أَوۡحَيۡنَا﴾،[٥] أي: وقلنا: يا بني إسرائيل.

﴿قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ فرعونَ وقومه حيث كانوا يبغونكم الغوائل ويسومونكم سوءَ العذاب / يذبّحون أبناءَكم ويستحيون نساءكم. وقُرئ: [٥٧ظ] "نَجَّيْنَاكُمْ"[٦] و"نَجَّيْتُكُمْ".[٧]

﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ بالنصب على أنّه صفة للمضاف. وقُرئ بالجرّ للجوار،[٨] أي: واعدناكم بواسطة نبيّكم إتيانَ جانبِه الأيمنِ نظرًا إلى السالك

---

١ وهو أحد وجهين في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.
٢ وهو ثاني وجهين في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.
٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٩/٣، وقال بعد إيراده: «والوجه هو الأوّل»، ولم يذكر سببًا لترجيحه.
٤ طه، ٨٣/٢٠.
٥ طه، ٧٧/٢٠.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد بن قيس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٠.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٠.
٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٠.

مِن مصرَ إلى الشام، أي: إتيانَ موسى عليه السلام للمناجاة وإنزالَ التوراة عليه. ونُسبت المواعدة إليهم مع كونها لموسى عليه السلام نظرًا إلى ملابستها إيّاهم وسِراية منفعتها إليهم وإيفاءً لمقام الامتنان حقَّه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف، ١١/٧]، حيث نُسب الخَلْق والتصوير إلى المخاطَبين مع أنّ المخلوق المصوَّر بالذات هو آدمُ عليه السلام. وقُرِئ: "وَاعَدْتُكُمْ"[١] و"وَعَدْنَاكُمْ".[٢]

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ أي: التَّرَنْجَبين والسُّمَانى،[٣] حيث كان ينزِل عليهم المنّ وهم في التِّيه مثلَ الثلج مِن الفجر إلى الطلوع لكلّ إنسان صاع، ويبعث الجنوبُ عليهم السُّمَانى فيَذبح الرجل منه ما يكفيه، كما مرّ مرارًا.

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾

﴿كُلُوا۟﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان إباحة ما ذُكر لهم وإتمامًا للنعمة عليهم. ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: مِن لذائذه أو حلالاته، وقُرِئ: "رَزَقْتُكُمْ".[٤] وفي البدء بنعمة الإنجاء ثمَّ بالنعمة الدينيّة ثمّ بالنعمة الدُّنيويّة مِن حُسن النظم ولطفِ الترتيب ما لا يخفى.

﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي: فيما رزقناكم بالإخلال بشُكره والتعدّي لِما حُدّ لكم فيه كالسَّرَف والبَطَر والمنع مِن المستحِقّ. ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ جواب للنهي، أي: فيلزمَكم عقوبتي وتجبَ لكم، مِن "حلّ الدَّينُ" إذا وجب أداؤه. ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي: تردّى وهلَك. وقيل: وقَع في الهاوية.[٥] وقُرِئ: "فَيَحُلَّ"[٦] بضمّ الحاء مِن "حَلّ يَحُلّ" إذا نزَل.

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

[٢] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢١٢/٢.

[٣] وفي هامش م: السُّمَانى كـ"حُبارى": طائر، للواحد والجمع. «منه».

[٤] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

[٥] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.

[٦] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ مِن الشِّرك والمعاصي التي مِن جملتها الطغيان فيما ذُكر. ﴿وَءَامَنَ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: / عملًا صالحًا [٥٨و] مستقيمًا عند الشرع والعقل. وفيه ترغيب لمَن وقع منه الطَغيان فيما ذُكر وحثٌّ على التوبة والإيمان.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: استقام على الهدى، إشارةٌ إلى أنّ مَن لم يستمرَّ عليه بمَعزِل مِن الغفران. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرُّتبي.

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ حكاية لِما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه السلام مِن الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجَب المواعدة المذكورة، أي: قلنا له: أيُّ شيء أعجلك منفردًا عن قومكَ؟ وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدُّمه على النقباء مَسوقٌ لإنكار انفراده عنهم، لِما في ذلك بحسب الظاهر مِن مخائل إغفالهم وعدم الاعتداد بهم مع كونه مأمورًا باستصحابهم وإحضارهم معه، لا لإنكار نفس العجلة الصادرة عنه عليه السلام لكونها نقيصة مُنافية للحزم اللائق بأولي العزم.

ولذلك أجاب عليه السلام بنفي الانفراد المنافي للاستصحاب والمعيّة حيث قال: ﴿قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ يعني أنّهم معي، وإنّما سبقتُهم بخُطًا يسيرة ظننتُ أنّها لا تُخِلّ بالمعيّة ولا تقدح في الاستصحاب، فإنّ ذلك ممّا لا يُعتدّ به فيما بين الرفقة أصلًا.

وبعد ما ذَكَر عليه السلام أنّ تقدُّمه ذلك ليس لأمر منكَر ذَكَر أنّه لأمر مَرضي حيث قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ عنّي بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك واعتنائي بالوفاء بعهدك. وزيادة ﴿رَبِّ﴾ لمزيد الضراعة والابتهال رغبة في قَبول العُذر.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية اعتذاره عليه السلام، وهو السرّ في وروده على صيغة الغائب، لا أنّه التفات مِن التكلّم إلى الغَيبة لِما[1] أنّ المقدّر فيما سبق مِن الموضعين على صيغة التكلّم،[2] كأنّه قيل مِن جهة السامعين: فماذا قال له ربّه حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْۢ بَعْدِكَ﴾ أي: ابتليناهم بعبادة العِجل مِن بعد / ذهابك مِن بينهم. وهم الذين خلّفهم مع هارونَ عليه السلام، وكانوا ستَّمائةِ ألفٍ، ما نجا منهم مِن عبادة العِجل إلّا اثنا عشرَ ألفًا.[3] [٥٨ظ]

و"الفاء" لترتيب الإخبار بما ذُكر مِن الابتلاء على إخبار موسى عليه السلام بعجَلته، لكن لا لأنّ الإخبار بها سبب موجِب للإخبار به؛ بل لِما بينهما مِن المناسبة المصحِّحة للانتقال مِن أحدهما إلى الآخر مِن حيث إنّ مَدار الابتلاء المذكور عجَلة القوم، فإنّه رُوي أنّهم أقاموا على ما وصّى به موسى عليه السلام عشرين ليلةً بعد ذهابه فحسَبوها مع أيّامها أربعين، وقالوا: قد أكملنا العِدَة وليس مِن موسى عليه السلام عين ولا أثر.[4]

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ حيث كان هو المدبّر في الفتنة فقال لهم: إنّما أخلَف موسى عليه السلام مِيعادكم لِما معكم مِن حُليّ القوم وهو حرام عليكم، فكان مِن أمر العجل ما كان. فإخبارُه تعالى بوقوع هذه الفتنة عند قدومه عليه السلام إمّا باعتبار تحقّقها في عِلمه تعالى ومشيئته، وإمّا بطريق التعبير عن المتوقَّع بالواقع كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف، ٧/٤٤] ونظائره، أو لأنّ السامري كان قد عزَم على إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه السلام، وتصدّى لترتيب مباديها وتمهيدِ مبانيها[5] فكانت الفتنة واقعةً عند الإخبار بها. وقُرئ: "وَأَضَلُّهُمُ السَّامِرِيُّ"[6] على صيغة التفضيل، أي: أشدُّهم ضلالًا لأنّه ضالّ ومُضِلّ.

---

[1] وفي هامش م: تعليل للالتفات.

[2] ما وقفت عليه فيما بين يديّ من المظانّ.

[3] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/٦١.

[4] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٩٩.

[5] وفي هامش م: حسبما يحكيه قوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾. «منه».

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن أحمد بن أبي معاذ، والرُّهاوي عن أبي بكر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٣٩.

والسامري منسوب إلى قبيلة مِن بني إسرائيلَ يقال لها السامرة.[١] وقيل: كان عِلْجًا مِن كَرْمان. وقيل: مِن أهل باجرما.[٢] واسمُه موسى بن ظفر، وكان منافقًا قد أظهر الإسلام، وكان مِن قوم يعبدون البقر.[٣]

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾﴾

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عند رجوعه المعهود، أي: بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة، لا عَقيبَ الإخبار بالفتنة، / فسببيّةُ ما قبل "الفاء" لِما بعدها إنّما هي باعتبار قيد الرجوع المستفاد مِن قوله تعالى: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾، لا باعتبار نفسه وإن كانت داخلةً عليه حقيقة، فإنّ كون الرجوع بعد تمام الأربعين أمر مقرَّر مشهور لا يذهب الوهمُ إلى كونه عند الإخبار بالفتنة، كما إذا قلتَ: "شايعتُ الحُجّاجَ ودعوتُ لهم بالسلامة فرجعوا سالمين"، فإنّ أحدًا لا يرتاب في أنّ المراد رجوعهم المعتاد لا رجوعُهم إثرَ الدعاء وأنّ سببيّة الدعاء باعتبار وصف السلامة لا باعتبار نفس الرجوع. و"الأسِف": الشديد الغضب. وقيل: الحزين.[٤] [٥٩و]

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ناشئ مِن حكاية رجوعه كذلك، كأنّه قيل: فماذا فعَل بهم؟ فقيل: قال: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ بأن يُعطيَكم التوراة فيها ما فيها مِن النور والهدى. و"الهمزة" لإنكار عدم الوعد ونفيه[٥] وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكَده، أي: وعَدكم بحيث لا سبيلَ لكم إلى إنكاره.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ -أي: الزمان- للعطف على مقدَّر، و"الهمزة" لإنكار المعطوف ونفيِه فقط، أي: أوعَدكم ذلك، فطال زمان الإنجاز فأخطأتُم بسببه. ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ﴾ أي: يجبَ ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾ شديد لا يقادَر قَدْره كائن ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: مِن مالك أمركم على الإطلاق.

---

١ السامرة: هي قرية بين مكّة والمدينة. انظر: معجم البلدان للحموي، ١٧٨/٣.
٢ باجَرْما: قرية مِن أعمال البَليخ، قرب الرقّة مِن أرض الجزيرة. انظر: معجم البلدان للحموي، ٣١٣/١.
٣ هذه الأقوال في الكشّاف للزمخشري، ٦١/٣.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦١/٣.
٥ وفي هامش م: أي: نفي عدم الوعد. «منه».

﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ أي: وعْدَكم إيّاي: بالثبات على ما أمرتُكم به إلى أن أرجِع مِن المِيقات على إضافة المصدر إلى مفعوله للقصد إلى زيادة تقبيح حالهم، فإنّ إخلافهم الوعد الجاريَ فيما بينَهم وبينه عليه السلام مِن حيث إضافته إليه عليه السلام أشنعُ منه مِن حيث إضافته إليهم.

و"الفاء" لترتيب ما بعدها على كلّ واحد مِن شِقَّي الترديد على سبيل البدل، كأنّه قيل: أنسيتُم الوعد بطول العهد فأخلفتُموه خطأ أم أردتم حلولَ الغضب عليكم فأخلفتموه عَمْدًا؟ وأمّا جَعْل الموعد مضافًا إلى فاعله / وحَمْل [٥٩ظ] إخلافه على معنى وجدان الخُلف فيه، أي: فوجدتُم الخُلف في موعدي لكم بالعَود بعد الأربعين، فممّا لا يساعده السِّباق ولا السِّياق أصلًا.[١]

﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٧﴾

﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ﴾ أي: وعدَنا إيّاك الثباتَ على ما أمرتَنا به. وإيثارُه على أن يقال: "موعدَنا" على إضافة المصدرِ إلى فاعله لِما مرّ آنفًا. ﴿بِمَلۡكِنَا﴾ أي: بأن ملَكنا أمورنا، يعنون أنّا لو خُلّينا وأمورنا ولم يسوّل لنا السامري ما سوّله مع مساعدة بعض الأحوال لَما أخلفناه. وقُرئ: "بِملْكِنَا" بكسر الميم[٢] وضمِّها،[٣] والكلُّ لغات في مصدر "ملَكتُ الشيء".

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ استدراك عمّا سبق واعتذار عمّا فعلوا ببيان منشأ الخطأ. وقُرئ: "حَمَلْنَا"[٤] بالتخفيف، أي: حمَلْنا أحمالًا مِن حُليّ القِبط التي استعرناها منهم حين همَمنا بالخروج مِن مصرَ باسم العُرس. وقيل: كانوا استعاروها لعيد كان لهم، ثمّ لم يردّوها إليهم عند الخروج مخافةَ أن يقفوا على أمرهم. وقيل: هي ما ألقاه البحر على الساحل بعد إغراقهم

---

١ القول وردّه بمعناه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٠٠.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٢.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٢.

٤ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر ورَوح. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٢.

فأخذوها.[١] ولعلّ تسميتَهم لها أوزارًا لأنّها تبعات وآثام حيث لم تكن الغنائم تحِلّ حينئذ.

﴿فَقَذَفْنَـٰهَا﴾ أي: في النار رجاءً للخلاص عن ذنبها. ﴿فَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلَ ذلك القذف ﴿أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي: ما كان معه منها وقد كان أراهم أنّه أيضًا يُلقي ما كان معه مِن الحُليّ فقالوا ما قالوا على زَعْمهم، وإنّما كان الذي ألقاه التربةَ التي أخذها مِن أثر الرسول كما سيأتي. رُوي أنّه قال لهم: إنّما تأخّر موسى عنكم لِما معكم مِن الأوزار، فالرأي أن نحفِر حَفيرةً ونسجِّر فيها نارًا ونقذفَ فيها كلَّ ما معنا ففعلوا.[٢]

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾

[٦٠و] ﴿فَأَخْرَجَ﴾ أي: السامري ﴿لَهُمْ﴾ للقائلين ﴿عِجْلًا﴾ / مِن تلك الحُليّ المُذابة. وتأخيره مع كونه مفعولًا صريحًا عن الجارّ والمجرور لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه مِن نوع طول يُخِلّ تقديمُه بتجاوب أطراف النظم الكريم، فإنّ قوله تعالى: ﴿جَسَدًا﴾ أي: جُثّةً ذا دم ولحم، أو جسدًا مِن ذهَب لا روحَ له، بدلٌ منه. وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: صوتُ عِجل، نعتٌ له.

﴿فَقَالُوا۟﴾ أي: السامريُّ ومَن افتُتن[٣] به أوّل ما رآه ﴿هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أي: غفَل عنه وذهب يطلُبه في الطُّور، وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامري فعلًا وقولًا مِن جهته تعالى قصدًا إلى زيادة تقريرها، ثمّ ترتيبِ الإنكار عليها لا مِن جهة القائلين، وإلّا لقيل: "فأخرَج لنا".

والحملُ على أنّ عُدولهم إلى ضمير الغَيبة لبيان أنّ الإخراج والقول المذكورَين للكلّ لا للعَبَدة فقط،[٤] خلافُ الظاهر مع أنّه مُخِلّ باعتذارهم، فإنّ مخالفة بعضهم للسامري وعدمَ افتتانهم بتسويله مع كون الإخراج والخطابِ لهم ممّا يهوّن مخالفته للمعتذِرين، فافتتانُهم بعد ذلك أعظم جنايةً وأكثر شناعةً.

---

[١] القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠١/٢.
[٢] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠١/٢.
[٣] وفي هامش م: لازم ومتعدٍّ. «منه».
[٤] ما وقفت عليه فيما بين يديّ من المظانّ.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المعتذرين هم الذين لم يعبُدوا العجلَ وأنّ نسبة الإخلاف إلى أنفسهم وهم بُرآء منه مِن قبيل قولهم: "بنو فلان قتلوا فلانًا"، مع أنّ القاتل واحد منهم، كأنّهم قالوا: ما وُجِد الإخلاف فيما بيننا بأمر كنّا نملِكه؛ بل تمكّنت الشبهة في قلوب العَبَدة حيث فعل السامري ما فعَل، فأخرَج لهم ما أخرَج وقال ما قال فلم نقدِر على صرفهم عن ذلك ولم نُفارقهم مخافةَ ازدياد الفتنة؛[1] فيقضي بفساده سِباق النظم وسِياقه.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝٨٩﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾... إلخ، إنكار وتقبيح مِن جهته تعالى لحال الضالّين والمُضلّين جميعًا وتسفيهٌ لهم فيما أقدَموا عليه مِن المنكَر الذي لا يشتبه بطلانه واستحالته على أحد وهو اتّخاذه إلهًا. و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: ألا يتفكّرون فلا يعلمون ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: أنّه لا يرجِع إليهم كلامًا ولا يردّ عليهم جوابًا، فكيف يتوهّمون أنّه إله؟ وقُرئ: "يَرْجِعَ"[2] بالنصب، قالوا: فالرؤية حينئذ بصَرية، فإنّ "أن" الناصبةَ لا تقع بعد / أفعال اليقين، أي: ألا ينظرون [٦٠ظ] فلا يُبصرون عدمَ رَجْعه إليهم قولًا مِن الأقوال. وتعليقُ الإبصار بما ذُكر مع كونه أمرًا عدميًّا للتنبيه على كمال ظهوره المستدعي لمزيد تشنيعهم وتركيكِ عقولهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ عطفٌ على ﴿لا يَرْجِعُ﴾ داخل معه في حيِّز الرؤية، أي: أفلا يرون أنّه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرًّا أو يجلُبَ لهم نفعًا، أو لا يقدر على أن يضرَّهم إن لم يعبدوه أو ينفعَهم إن عبدوه.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ۝٩٠﴾

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ جملة قسَميّة مؤكِّدة لِما قبلها مِن الإنكار

---

[1] هذا القول رجّحه الواحدي في التفسير البسيط، ١٤/٤٩١-٤٩٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وأبي البَرَهسم والزّعفراني وابن صُبيح وأبان والشافعي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١١؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٤١.

والتشنيع ببيان عُتوّهم واستعصائهم على الرسول إثرَ بيانٍ مكابرتهم لقضيّة العقول، أي: وبالله لقد نصح لهم هارونُ ونبّههم على كُنه الأمر مِن قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم وخطابِه إيّاهم بما ذُكر مِن المقالات.

وقيل: مِن قبل قول السامري، كأنّه عليه السلام أوّل ما أبصره حين طلع مِن الحَفيرة توهَّم منهم الافتتان به، فسارع إلى تحذيرهم وقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي: أُوقِعتم في الفتنة[١] بالعِجل.[٢] أو أُضللتُم به على توجيه القصر المستفادِ مِن كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ إلى نفس الفعل بالقياس إلى مقابله الذي يدّعيه القوم، لا إلى قَيده المذكور بالقياس إلى قيد آخرَ على معنى: إنّما فُعل بكم الفتنة لا الإرشادُ إلى الحقّ، لا على معنى: إنّما فُتنتم بالعِجل لا بغيره.[٣]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بكسر ﴿إِنَّ﴾ عطفًا على ﴿إِنَّمَا﴾ إرشادٌ لهم إلى الحقّ إثرَ زَجْرهم عن الباطل. والتعرّض لعنوان الربوبيّة والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحقّ، كما أنّ التعرض لوَصْف العِجل[٤] للاهتمام بالزجر عن الباطل، أي: إنّ ربّكم المستحقَّ للعبادة هو الرحمن لا غيرُ.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن مضمون الجملتين، أي: إذا كان الأمر كذلك فاتّبعوني في الثبات على الدِّين ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ هذا واترُكوا عبادة ما عرفتُم شأنه.

﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ۝٩١ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ۝٩٣﴾

﴿قَالُواْ﴾ في جواب هارونَ عليه السلام ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ﴾ على العِجل وعبادته ﴿عَٰكِفِينَ﴾ مقيمين ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ / إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ جعلوا رجوعَه عليه السلام إليهم غايةً لعُكوفهم على عبادة العِجل، لكن لا على طريق الوعد بتَرْكها عند رجوعه عليه السلام؛ بل بطريق التعلّل والتسويف، وقد دسُّوا تحت ذلك أنّه عليه السلام لا يرجِع بشيء مُبين تعويلًا على مقالة السامري. [٦١و]

---

[١] وفي هامش م: يقال: فَتَنَه: أوقَعه في الفتنة وأضلّه.
[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٦٢-٦٣.
[٣] وفي هامش م: والأوّل هو الأظهر. «منه».
[٤] وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾. «منه».

رُوي أنّهم لمّا قالوه اعتزلهم هارونُ عليه السلام في اثني عشرَ ألفًا، وهم الذين لم يعبدوا العِجل، فلمّا رجع موسى عليه السلام وسمع الصياح وكانوا يرقُصون حول العِجل قال للسبعين الذين كانوا معه: "هذا صوت الفتنة"، فقال لهم ما قال وسمع منهم ما قالوا.[١]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية جوابهم لهارون عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قال موسى لهارونَ حين سمع جوابهم له؟ وهل رضيَ بسكوته بعد ما شاهَد منهم ما شاهَد؟ فقيل: قال له وهو مغتاظ قد أخذ بلحيته ورأسه: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾ بعبادة العِجل وبلغوا مِن المكابرة إلى أن شافهوك بتلك المقالة الشنعاء ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: أن تتّبعَني، على أنّ "لا" مَزيدة، وهو مفعول ثانٍ لـ﴿مَنَعَ﴾ وعامل في ﴿إِذْ﴾، أي: أيّ شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم مِن أن تتّبعني في الغضب لله تعالى والمقاتَلة مع مَن كفر به؟

وقيل: المعنى ما حمَلك على ألّا تتّبعني؟ فإنّ المنع عن الشيء مستلزِم للحَمْل على مقابله. وقيل: ما منعك أن تلحقَني وتُخبرَني بضلالهم فتكونَ مُفارقتُك مَزجَرة لهم؟[٢]

وفيه أنّ نصائحَ هارونَ عليه السلام حيث لم يزجرهم عمّا كانوا عليه فلأَن لا يزجُرَهم مفارقته إيّاهم عنه أَولى. والاعتذار بأنّهم إذا علِموا أنّه يلحقه ويُخبره عليهما السلام بالقصّة يخافون رجوع موسى عليه السلام فينزجرون عن ذلك،[٣] بمَعزِل مِن حيّز القَبول، كيف لا، وهم قد صرّحوا بأنّهم عاكفون عليه إلى حين رجوعه عليه السلام.

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ أي: بالصلابة في الدِّين والمُحاماة عليه، فإنّ قوله له عليهما السلام: اخلُفني متضمّن للأمر بهما حتمًا، فإنّ الخلافةَ لا تتحقّق إلّا بمباشرة الخليفة ما كان / يباشره المستخلِف لو كان حاضرًا. و"الهمزة" [٦١ظ]

---

١ الكلام بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٩٠-٢٩١.

٢ القولان في اللباب لابن عادل، ١٣/٣٦٢-٣٦٣.

٣ ما وقفت عليه فيما بين يديّ من المظانّ.

للإنكار التوبيخي، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: ألم تتّبعني؟ أو أخالفتني فعصيت أمري؟

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ٩٤﴾

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ خَصّ الأمّ بالإضافة استعطافًا لحقّها وترقيقًا لقلبه، لا لِما قيل مِن أنّه كان أخاه لأمّ، فإنّ الجمهور على أنّهما كانا شقيقين.[١] ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ أي: بشَعر رأسي. رُوي أنّه عليه السلام أخَذ شَعر رأسه بيمينه ولحيتَه بشماله مِن شدّة غيظه وفَرْط غضبه لله تعالى، وكان عليه السلام حديدًا متصلِّبًا في كلّ شيء فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العِجل ففعل ما فعل.[٢]

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾... إلخ، استئناف سِيق لتعليل موجَب النهي ببيان الداعي إلى تَرْك المقاتلة وتحقيق أنّه غير عاصٍ لأمره؛ بل ممتثل به، أي: إنّي خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض وتفانَوا وتفرّقوا ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ برأيك مع كونهم أبناءَ واحد، كما ينبئ عنه ذِكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه، وأراد عليه السلام بالتفريق ما يستتبعه القتال مِن التفريق الذي لا يُرجى بعده الاجتماع.

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ يريد به قوله عليه السلام: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾... إلخ [الأعراف، ٧/١٤٢]، يعني إنّي رأيت أنّ الإصلاح في حفظ الدَّهْماء والمُداراة معهم إلى أن ترجِع إليهم، فلذلك استأنيتُك لتكون أنت المتدارِكَ للأمر حسبما رأيت، لاسيّما وقد كانوا في غاية القوّة ونحن على القِلّة والضّعف، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف، ٧/١٥٠].

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ٩٥﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عمّا نشأ مِن حكاية ما سلَف مِن اعتذار القوم بإسناد الفساد إلى السامري واعتذارِ هارونَ عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا صنع

---

[١] القول مع ذِكر رأي الجهور مذكوران في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٠٢.

[٢] الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٣/٦٣.

موسى عليه السلام بعد سماع ما حُكي مِن الاعتذارَين واستقرارِ أصل الفتنة على السامري؟ فقيل: قال موبّخًا له: هذا شأنهم، ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ أي: ما شأنك وما مطلوبك ممّا فعلت؟ خاطَبه عليه السلام بذلك ليُظهر للناس بُطلان كَيده / باعترافه ويفعل به وبما صنعه مِن العقاب ما يكون نكالًا للمفتونين به ولمَن خلفهم مِن الأمم. [٦٢و]

﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ۝٩٦ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ۝٩٧﴾

﴿قَالَ﴾ أي: السامري مجيبًا له عليه السلام: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ بضمّ "الصاد" فيهما، وقُرئ بكسرها في الأوّل وفتحها في الثاني،[1] وقُرئ بالتاء على الوجهين على خطاب موسى عليه السلام وقومه،[2] أي: علمتُ ما لم يعلَمه القوم وفطِنت لِما لم يفطَنوا له، أو رأيتُ ما لم يرَوه، وهو الأنسب بما سيأتي مِن قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ لاسيّما على القراءة بالخطاب، فإنّ ادّعاء عِلم ما لم يعلمه موسى عليه السلام جرأة عظيمة لا تليق بشأنه ولا بمقامه، بخلاف ادّعاء رؤية ما لم يرَه عليه السلام، فإنّها ممّا يقع بحسَب ما يتّفق.

وقد كان رأى أنّ جبريل عليه السلام جاء راكبَ فرسٍ وكان كلّما رفَع الفرس يديه أو رجليه على الطريق اليَبَس يخرج مِن تحته النبات في الحال، فعرَف أنّ له شأنًا فأخذ مِن موطئه حفنة، وذلك قوله تعالى: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾. وقُرئ: "مِنْ أَثَرِ فَرَسِ الرَّسُولِ"،[3] أي: مِن تربة مَوطئِ فرسِ المَلَك الذي أُرسلَ إليك ليذهبَ بك إلى الطُّور.

ولعلّ ذِكرَه بعنوان الرسالة للإشعار بوقوفه على ما لم يقِف عليه القوم مِن الأسرار الإلهيّة تأكيدًا لِما صدّر به مقالته والتنبيهِ على وقت أَخذ ما أَخَذه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وأبي السّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٢.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٢.

و"القبضة" المرّة مِن القَبْض، أُطلقت على المقبوض مرّةً. وقُرئ بضمّ "القاف"،[١] وهو اسمُ المقبوض كـ"الغُرفة" و"المُضغة"، وقُرئ: "فَقَبَصْتُ قَبْصَةً"[٢] بـ"الصاد" المهملة. والأوّل للأَخْذ بجميع الكفّ والثاني بأطراف الأصابع، ونحوُهما "الخَضْم" و"القَضْم".

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: في الحُليّ المُذابة فكان ما كان ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: ما فعلتُه مِن القبض والنَّبذ. فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده، ومحلُّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في الأصل النصب على أنّه مصدر تشبيهي، أي: نَعْت لمصدر محذوف، والتقديرُ: سولّت لي نفسي تسويلًا كائنًا مثلَ ذلك التسويل، / فقُدِّم على الفعل لإفادة القَصْر، واعتُبرت "الكاف" مقحَمة لإفادة تأكيد [٦٢ظ] ما أفاده اسم الإشارة مِن الفخامة فصار نفسَ المصدر المؤكَّد لا نعتًا له، أي: ذلك التزيين البديع زيَّنت لي نفسي ما فعلتُه، لا تزيينًا أدنى منه ولذلك فعلتُه.

وحاصلُ جوابه أنّ ما فعله إنّما صدر عنه بمَحض اتّباع هوى النفس الأمّارة بالسوء وإغوائها، لا بشيء آخرَ مِن البرهان العقلي أو الإلهام الإلهي، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿فَٱذْهَبْ﴾ أي: مِن بين الناس.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾... إلخ، تعليل لموجَب الأمر، و﴿فِي﴾ متعلِّقة بالاستقرار في ﴿لَكَ﴾، أي: ثابت لك في الحياة، أو بمحذوف وقع حالًا مِن "الكاف"، والعاملُ معنى الاستقرار في الظرف المذكور لاعتماده على ما هو مبتدأ معنى لا بقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ لِمَكان ﴿أَن﴾، أي: ثابت لك كائنًا في الحياة، أي: مدّة حياتك أن تُفارقهم مفارقة كلّيّة، لكن لا بحسب الاختيار بموجَب التكليف؛ بل بحسب الاضطرار المُلجئ إليها.

وذلك أنّه تعالى رماه بداء عُقام لا يكاد يمَسّ أحدًا أو يمَسّه أحدٌ كائنًا مَن كان إلّا حُمَّى مِن ساعته حُمَّى شديدةً، فتحامى الناسَ وتحامَوه، وكان يصيح

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة ونصر بن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ وابن الزُّبير وقتادة والحسن وحُميد ونصر بن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١١-٣١٢؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٤٢.

بأقصى طَوقه: "لا مِساسَ" وحُرِّم عليهم ملاقاته ومواجهته ومكالمته ومبايعته وغيرُها ممّا يُعتاد جرَيانه فيما بين الناسِ مِن المعاملات، وصار بين الناس أوحَشَ مِن القاتل اللاجئ إلى الحَرم ومِن الوحش النافِر في البرّيّة. ويقال: إنّ قومه باقٍ فيهم تلك الحالة إلى اليوم.[١] وقُرئ: "لا مَسَاسِ"[٢] كـ"فَجارِ" وهو عَلَم للمسّة.

ولعلّ السرَّ في مقابلة جنايته بتلك العقوبة خاصّة ما بينهما مِن مناسبة التضادّ، فإنّه لمّا أنشأ الفتنة بما كانت ملابسته سببًا لحياة المَوات عُوقب بما يُضادّه حيث جُعلت ملابسته سببًا للحمّى التي هي مِن / أسباب موت الأحياء. [٦٣و]

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: في الآخرة ﴿لَن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي: لن يُخلفك الله ذلك الوعدَ؛ بل ينجِزه لك البتّةَ بعد ما عاقبك في الدنيا. وقُرئ بكسر "اللام"،[٣] والأظهر أنّه مِن "أخلفتُ الموعدَ"، أي: وجدتُه خُلفًا. وقُرئ بـ"النون"[٤] على حكاية قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: ظلِلْتَ مقيمًا على عبادته، فحُذفت "اللام" الأولى تخفيفًا. وقُرئ بكسر "الظاء"[٥] بنَقْل حركة "اللام" إليها.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ جوابُ قسَم محذوفٍ أي: بالنار، ويؤيّده قراءةُ "لَنُحْرِقَنَّهُ"[٦] مِن الإحراق، وقيل: بالمِبْرَد على أنّه مبالغة في "حَرق" إذا بَرَد بالمِبرَد، ويعضده قراءة "لَنَحْرِقَنَّهُ".[٧]

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ أي: لنُذْرِينّه، وقُرئ بضمّ "السين".[٨] ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ رمادًا أو مبرودًا كأنّه هباء ﴿نَسْفًا﴾ بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر. ولقد فعَل عليه السلام

---

١ الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٦٤/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٢.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني، والضرير وابن مسلم والوليد وابن عطيّة كلّهم عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٢؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٢٤٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وقتادة وابن أبي عبلة والأعمش وأبي حَيْوَة وأبي البَرَهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٢؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٢٤٤.

٦ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهيك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٣.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٣.

ذلك كلّه حينئذ، كما يشهد به الأمر بالنظر، وإنّما لم يصرَّح به تنبيهًا على كمال ظهوره واستحالة الخُلْف في وعده المؤكَّد باليمين.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ استئناف مَسوق لتحقيق الحقّ إثرَ إبطال الباطل بتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكلّ، أي: إنّما معبودكم المستحقّ للعبادة الله ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ﴾ في الوجود لشيء مِن الأشياء ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وحدَه مِن غير أن يشاركه شيء مِن الأشياء بوجه مِن الوجوه التي مِن جملتها أحكامُ الألوهيّة. وقُرئ: "اللهُ لَا إِلَهَ إِلَا هُوَ الرَّحْمَنُ رَبُّ العَرْشِ".[١]

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي: "وسِع علمه كلّ ما مِن شأنه أن يُعلَم" بدلٌ مِن الصلة، كأنّه قيل: إنّما إلهكم الذي وسِع كلّ شيء عِلمًا لا غيره كائنًا ما كان، فيدخل فيه العِجل دخولًا أوّليًّا. وقُرئ: "وَسَّعَ"[٢] بالتشديد، فيكون انتصابُ ﴿عِلْمًا﴾ على المفعوليّة؛ لأنّه على القراءة الأولى فاعل حقيقةً، وبنَقْل / الفعل إلى التعدية إلى المفعولين صار الفاعل مفعولًا أوّلَ، كأنّه قيل: وسّع عِلمَه كلَّ شيء، وبه تمّ حديث موسى عليه السلام المذكور لتقرير أمر التوحيد حسبما نطقت به خاتمته. [٦٣ظ]

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ كلام مستأنَف خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بطريق الوعد الجميل بتنزيل أمثال ما مرّ مِن أنباء الأمم السالفة، وذلك إشارة إلى اقتصاص حديث موسى عليه السلام، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ رتبتِه وبُعدِ منزلته في الفضل. ومحلُّ الكاف النصبُ على أنّه نعت لمصدر مقدَّر، أي: نقصّ عليك ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ مِن الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية قصًّا مثلَ ذلك القَصّ المارّ. والتقديم للقصر المفيد لزيادة التعيين.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وقتادة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٢؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٢٤٥.

و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنبَآءِ﴾ في حيّز النصب إمّا على أنّه مفعول ﴿نَقُصُّ﴾ باعتبار مضمونه، وإمّا على أنّه متعلِّق بمحذوف هو صفة للمفعول كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن، ١١/٧٢]، أي: جَمْعٌ دون ذلك، والمعنى نقصّ عليك بعضَ أنباء ما قد سبَق، أو بعضًا كائنًا مِن أنباء ما قد سبَق. وقد مرّ تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾... إلخ [البقرة، ٨/٢].

وتأخيره مِن ﴿عَلَيْكَ﴾ لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، أي: مثلَ ذلك القصّ البديع الذي سمِعتَه نقصّ عليك ما ذُكر مِن الأنباء لا قصًّا ناقصًا منه تبصِرةً لك وتوفيرًا لعِلمك وتكثيرًا لمعجزاتك وتذكيرًا للمستبصرين مِن أمّتك.

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي: كتابًا منطويًا على هذه الأقاصيص والأخبار حقيقًا بالتفكّر والاعتبار. وكلمة ﴿مِن﴾ متعلِّقة بـ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾، وتنكيرُ ﴿ذِكْرًا﴾ للتفخيم، وتأخيرُه عن الجارّ والمجرور لِما أنّ مرجِع الإفادة في الجملة كونُ المُؤتى مِن لدنه تعالى ذِكرًا عظيمًا وقرآنًا كريمًا / جامعًا لكلّ كمال، لا كونُ [٦٤و] ذلك الذِّكر مُؤتى مِن لدنه عزّ وجلّ مع ما فيه مِن نوع طول بما بعده مِن الصفة. فتقديمُه يذهَب برَونق النظم الكريم.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ۝١٠١﴾

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن ذلك الذِّكر العظيم الشأن المستتبع لسعادة الدارين. وقيل: عن الله عزّ وجلّ.[1] و﴿مَنْ﴾ إمّا شرطيّة أو موصولة، وأيًّا ما كانت فالجملة صفة لـ﴿ذِكْرًا﴾.[2] ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي: المُعرِض عنه ﴿يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ أي: عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائرِ ذنوبه. وتسميتُها وِزرًا إمّا لتشبيهها في ثِقلها على المعاقَب وصعوبةِ احتمالها بالحِمل الذي يفدَح الحاملَ وينقُض ظهره، أو لأنّها جزاءُ الوِزْر وهو الإثم.[3] والأوّلُ هو الأنسب بما سيأتي مِن تسميتها حِملًا.

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٣/٢.
٢ في الآية السابقة.
٣ الوجهان في الكشّاف للزمخشري، ٦٥/٣.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي: في الوزر أو في احتماله المستمرّ، حال مِن المستكِنّ في ﴿يَحْمِلُ﴾، والجمعُ بالنظر إلى معنى ﴿مَنْ﴾ لِما أنّ الخلود في النار ممّا يتحقّق حالَ اجتماع أهلها، كما أنّ الإفراد فيما سبق مِن الضمائر الثلاثة بالنظر إلى لفظها.

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي: بئس لهم، ففيه ضمير مبهَم يفسِّره ﴿حِمْلًا﴾، والمخصوصُ بالذمّ محذوف، أي: ساء حِملًا وِزرهم. و"اللام" للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف، ٢٣/١٢]، كأنه لمّا قيل: ﴿سَآءَ﴾ قيل: لمَن يقال هذا؟ فأجيبَ: لهم. وإعادةُ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لزيادة التقرير وتهويل الأمر.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أو منصوب بإضمار "اذكُر"، أو ظرف لمضمر قد حُذف للإيذان بضيق العبارة عن حصره وبيانِه، حسبما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥] وقولِه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم، ٨٥/١٩]. وقُرئ: "نَنْفُخُ"[١] بالنون على إسناد النَّفْخ[٢] إلى الآمر به تعظيمًا له، وبـ"الياء" المفتوحة على أنّ ضميره لله عزّ وجلّ أو لإسرافيلَ عليه السلام، / وإن لم يجْرِ ذِكره لشُهرته. [٦٤ظ]

﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ يُنفَخ في الصُّور، وذِكرُه صريحًا مع تعيُّن أنّ الحَشْر لا يكون إلّا يومئذ للتهويل. وقُرئ: "وَيُحْشَرُ المُجْرِمُوْنَ".[٣] ﴿زُرْقًا﴾ أي: حالَ كونهم زُرْق العيون، وإنّما جُعلوا كذلك لأنّ الزُّرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب، فإنّ الروم الذين كانوا أعدى عدوّهم زُرق، ولذلك قالوا في صفة العدو: "أسودُ الكبد" و"أصهبُ السِّبال"[٤] و"أزرقُ العين"، أو عُميًا لأنّ حدَقة الأعمى تزرق.

---

[١] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٦٥/٣.

[٢] م: الفعل [صُحِّح في هامش م].

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والصرصري، والمَلَطي عن أبي بكر. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٩٢؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٢٤٦.

[٤] السِّبال جمع سَبَلة، وهي: الشارب. **لسان العرب** لابن منظور، «سبل».

وقوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: يخفِضون أصواتهم ويُخفونها لِما يملأ صدورهم مِن الرعب والهَول، استئناف ببيان ما يأتون وما يذرون حينئذ، أو حالٌ أخرى مِن ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، أي: يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ﴾ أي: ما لبثتم في الدنيا ﴿إِلَّا عَشۡرٗا﴾ أي: عشرَ ليال استقصارًا لمدّة لُبثهم فيها لزوالها أو لاستطالتهم مدّة الآخرة لتأسُّفهم عليها لمّا عاينوا الشدائد وأيقنوا أنّهم استحقُّوها على إضاعتها في قضاء الأوطار واتّباع الشهوات، أو في القبر، وهو الأنسب بحالهم.

فإنّهم حين يشاهدون البعث الذي كانوا يُنكِرونه في الدنيا ويعُدّونه مِن قبيل المُحالات لا يتمالكون مِن أن يقولوا ذلك اعترافًا به وتحقيقًا لسرعة وقوعه، كأنّهم قالوا: قد بُعثتم وما لبثتم في القبر إلّا مدّة يسيرة، وإلّا فحالهم أفظعُ مِن أن تُمكّنهم مِن الاشتغال بتذكّر أيّام النعمة والسرور واستقصارها والتأسّف عليها.

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهو مدّة لبثهم ﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً﴾ أي: أعدلهم رأيًا أو عملًا ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾. ونسبةُ هذا القولِ إلى أمثَلهم استرجاح منه تعالى له، لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق؛ بل لكونه أدلُّ / على شدَّة الهَول. [٦٥و]

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥﴾

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾ أي: عن مآل أمرها، وقد سأل عنه رجل مِن ثقيف. وقيل: مشركو مكّةَ على طريق الاستهزاء. ﴿فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ أي: يجعلها كالرمل ثمّ يُرسل عليها الرياح فتُفرِّقها. و"الفاء" للمسارعة إلى إلزام السائلين.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾

﴿فَيَذَرُهَا﴾ الضميرُ إمّا لـ﴿ٱلۡجِبَالِ﴾[١] باعتبار أجزائها السافلة الباقية بعد النَّسف، وهي مقارّها ومراكزها، أي: فيذَر ما انبسط منها وساوى سطحه

---

[١] في الآية السابقة.

سطوح سائر أجزاء الأرض بعد نَسْف ما نتأ منها ونشَز، وإمّا للأرض المدلول عليها بقرينة الحال لأنّها الباقية بعد نَسْف الجبال، وعلى التقديرين يذَر الكلّ ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ لأنّ الجبال إذا سُوِّيت وجُعل سطحها مساويًا لسطوح سائر أجزاء الأرض فقد جُعل الكلّ سطحًا واحدًا.

و"القاع" قيل: السهل. وقيل: المنكشِف مِن الأرض. وقيل: المستوي الصُّلْب منها. وقيل: ما لا نباتَ فيه ولا بناءَ.[1] والصَّفْصف: الأرض المستوية المَلساء، كأنّ أجزاءه صفّ واحد مِن كلّ جهة، وانتصابُ ﴿قَاعًا﴾ على الحاليّة مِن الضمير المنصوب، أو هو مفعول ثانٍ لـ﴿يَذَرُ﴾ على تضمين معنى التصيير. و﴿صَفْصَفًا﴾ إمّا حال ثانية، أو بدل مِن المفعول الثاني.

وقوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا﴾ أي: في مقارّ الجبال أو في الأرض على ما مرّ مِن التفصيل ﴿عِوَجًا﴾ بكسر العين، أي: اعوجاجًا ما، كأنّه لغاية خفائه مِن قبيل ما في المعاني، أي: لا تدركه إن تأمّلتَ بالمقاييس الهندسيّة. ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ أي: نتُوءًا يسيرًا. استئنافٌ مبيّن لكيفيّة ما سبَق مِن القاع الصَّفْصَف، أو حالٌ أخرى أو صفة لـ﴿قَاعًا﴾. والخطاب لكلّ أحد ممّن يتأتّى منه الرؤية. وتقديمُ الجارّ والمجرور على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، مع ما فيه مِن طول ربّما يُخلُّ تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ نُسفت الجبال على إضافة "اليوم" إلى وقت النَّسْف، / وهو ظرف لقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾. وقيل: بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾،[2] وليس بذاك. أي: يتّبع الناس داعيَ الله عزّ وجلّ إلى المَحشَر وهو إسرافيلُ عليه السلام يدعو الناس عند النفخة الثانية قائمًا على صخرة بيت المقدس، ويقول: أيّتها العِظام النخِرة والأوصال المتفرّقة واللحوم المتمزّقة قومي [٦٥ظ]

---

[1] هذه الأقوال في اللباب لابن عادل، ٣٨٩/١٣.

[2] طه، ١٠١/٢٠. والقول في الكشّاف للزمخشري، ٦٦/٣.

إلى عَرض الرحمن، فيُقبلون مِن كلّ أَوْب إلى صَوبه. ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا يُعوَجَ له مدعوّ ولا يعدِل عنه.

﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: خُفضت لهيبته ﴿فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ أي: صوتًا خفيًّا، ومنه الهميس لصوت أخفاف الإبل، وقد فُسِّر الهَمْس بخَفْق أقدامهم ونَقْلها إلى المَحشَر.

﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يوم إذ يقع ما ذُكر مِن الأمور الهائلة ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ مِن الشفعاء أحدًا ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أن يشفَع له ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ أي: ورضيَ لأجله قول الشافع في شأنه أو رضي قوله لأجله وفي شأنه، وأمّا مَن عداه فلا تكاد تنفعه وإن فُرض صدورها عن الشفعاء المتصدّين للشفاعة للناس، كقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر، ٤٨/٧٤].

فالاستثناء كما ترى مِن أعمّ المفاعيل. وأمّا كونه استثناءً مِن الشفاعة على معنى لا تنفع الشفاعة إلّا شفاعة مَن أذِن له الرحمن أن يشفع لغيره كما جوَّزوه،[١] فلا سبيلَ إليه لِما أنّ حُكم الشفاعة ممّن لم يؤذَن له ألّا[٢] يملِكها ولا تصدُر هي عنه أصلًا،[٣] كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ [مريم، ٨٧/١٩] وقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء، ٢٨/٢١].

فالإخبارُ عنها بمجرَّد عدم نفعِها للمشفوع له ربّما يوهِم إمكان صدورها عمّن لم يؤذَن له مع إخلاله بمقتضى مقام تهويل اليوم، وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة، ٤٨/٢] فمعناه عدم الإذن في الشفاعة، لا عدمُ قَبولها بعد وقوعها.

---

١ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٥/٢.

٢ ط س: أن. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلِّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٣ وفي هامش م: وجعلُه من قبيل:
ولا ترى الضبّ بها ينجحِر
أي: لا ضبَّ ولا انجحارَ، تعسّفٌ بعيد. «منه». | والشعر لعمرو بن أحمرَ الباهلي. انظر تفصيل الكلام عليه في خزانة الأدب للبغدادي، ١٩٢/١٠.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: ما تقدّمهم مِن الأحوال. وقيل: مِن أمر الدنيا.[١]

[٦٦و] ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ وما بعدهم ممّا يستقبلونه. / وقيل: مِن أمر الآخرة.[٢]

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ أي: لا تُحيط علومهم بمعلوماته تعالى. وقيل: بذاته، أي: مِن حيث اتّصافُه بصفات الكمال التي مِن جملتها العِلم الشامل. وقيل: الضمير لأحد الموصولَين أو لمجموعهما، فإنّهم لا يعلمون جميع ذلك ولا تفصيلَ ما علِموا منه.[٣]

﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ١١١ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾

﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾ أي: ذلّت وخضعت خضوعَ العُناة، أي: الأُسارى، في يد المَلِك القهّار، ولعلّها وجوه المجرمين، كقوله تعالى: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الملك، ٢٧/٦٧]، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «خسِر مَن أشرك بالله ولم يتُب».[٤] وهو استئناف لبيان ما لأجله عنَت وجوههم، أو اعتراض، كأنّه قيل: خابوا وخسِروا. وقيل: حال مِن ﴿ٱلۡوُجُوهُ﴾،[٥] و﴿مَنۡ﴾ عبارة عنها مُغنية عن ضميرها. وقيل: ﴿ٱلۡوُجُوهُ﴾ على العموم،[٦] فالمعنى حينئذ: وقد خاب مَن حمَل منهم ظلمًا.

فقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾... إلخ، قسيمٌ لقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾، لا لقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ﴾... إلخ، كما أنّه كذلك على الوجه الأوّل، أي: ومَن يعمل بعض الصالحات أو بعضًا مِن الصالحات على أحد الوجهين المذكورين في تفسير قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَ﴾ [طه، ٩٩/٢٠].

---

[١] القول في اللباب لابن عادل، ٣٩٤/١٣.

[٢] القول في اللباب لابن عادل، ٣٩٤/١٣.

[٣] القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٥/٢.

[٤] معالم التنزيل للبغوي، ٢٩٦/٥؛ اللباب لابن عادل، ٣٩٥/١٣.

[٥] الوجه في التبيان للعكبري، ٩٠٥/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٥/٢.

[٦] القول في المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٦٥/٤؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٣٩٥/٣.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فإنّ الإيمان شرط في صحّة الطاعات وقَبول الحسنات ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ أي: مَنْع ثواب مستحَقّ بموجَب الوعد، ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا كسْرًا منه بنَقْص، أو لا يخاف جزاءَ ظلم وهَضْم، إذ لم يصدُر عنه ظُلم ولا هَضْم حتّى يخافهما. وقُرئ: "فَلَا يَخَفْ"[1] على النهي.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطفٌ على ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ﴾،[2] وذلك إشارة إلى إنزال ما سبق مِن الآيات المتضمّنة للوعيد المنبئة عمّا سيقع مِن أحوال القيامة وأهوالها، أي: مثلَ ذلك الإنزال ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآنَ كلَّه. وإضماره مِن / غير سَبْق ذِكره [٦٦ظ] للإيذان بنباهة شأنه وكونِه مركوزًا في العقول حاضرًا في الأذهان. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ليفهمه العرب ويقفوا على ما فيه مِن النظم المُعجز الدالّ على كونه خارجًا عن طَوق البشر نازلًا مِن عند خلّاق القُوى والقُدَر.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: كرّرنا فيه بعض الوعيد أو بعضًا مِن الوعيد حسبما أشيرَ إليه آنفًا. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: كي يتّقوا الكفر والمعاصيَ بالفعل ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ اتّعاظًا واعتبارًا مؤدّيًا بالآخرة إلى الاتّقاء.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ استعظام له تعالى ولشئونه التي يُصرّف عليها عباده مِن الأوامر والنواهي والوعد والوعيد وغير ذلك، أي: ارتفع بذاته وتنزّه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله وأحواله. ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ النافذُ أمرُه ونهيه الحقيق بأن يُرجى وَعْده ويُخشى وعيدُه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ في ملكوته وألوهيّته لذاته، أو الثابتُ في ذاته وصفاته.

---

[1] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٢. [2] طه، ٢٠/٩٩.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: يتَمّ ﴿وَحْيُهُۥ﴾ كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا ألقى إليه جبريلُ عليهما السلام الوحي يتبعه عند تلفّظ كلّ حرف وكلّ كلمة لكمال اعتنائه بالتلقّي والحفظ، فنُهيَ عن ذلك إثرَ ذِكر الإنزال بطريق الاستطراد، لِما أنّ استقرار الألفاظ في الأذهان تابع لاستقرار معانيها فيها، وربّما يَشغَل التلفّظ بكلمة عن سماع ما بعدها.

وأُمر باستفاضة العلم واستزادته منه تعالى فقيل: ﴿وَقُل﴾ أي: في نفسك ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي: سَلِ الله عزّ وجلّ زيادة العِلم، فإنّه المُوصل إلى طَلِبتك دون الاستعجال. وقيل: إنّه نُهي عن تبليغ ما كان مجمَلًا قبل أن يأتيَ بيانه.[1] وليس بذاك، فإنّ تبليغ المجمَل وتلاوته قبل البيان ممّا لا ريبَ في صحّته ومشروعيّته.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾

[٦٧و] / ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما سبَق مِن تصريف الوعيد في القرآن، وبيانِ أنّ أساس بني آدمَ على العصيان وعِرْقه راسخ في النسيان، مع ما فيه مِن إنجاز الموعود في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾،[2] يقال: "عَهد إليه المَلك وعزَم عليه وأوعَز إليه وتقدّم إليه" إذا أمره ووصّاه، والمعهودُ محذوف يدلّ عليه ما بعده، و"اللام" جواب قَسَم محذوف، أي: "وأُقسم" أو "وبالله" أو "وتالله"[3] لقد أمرناه ووصّيناه. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل هذا الزمان.

﴿فَنَسِىَ﴾ أي: العهد ولم يعتنِ به حتّى غفَل عنه أو تَرَكه تَرْك المنسيّ عنه، وقُرئ: "فَنُسِّيَ"،[4] أي: نسّاه الشيطان. ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ تصميمَ رأي وثباتَ قدم في الأمور، إذ لو كان كذلك لَما أزلّه الشيطان ولَما استطاع أن يغُرّه، وقد كان ذلك منه عليه السلام في بدء أمره مِن قبل أن يجرّب الأمور ويتولّى حارّها

---

[1] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٠٦.
[2] طه، ٢٠/٩٩.
[3] وفي هامش م: ولم يذكر "الواو" لمكان واو العطف. «منه».
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٣.

وقارّها[1] ويذوقَ شَرْيها[2] وأَرْيها.[3] عن النبيّ عليه السلام: «لو وُزنت أحلامُ بني آدمَ بحلم آدمَ لرجح حلمه وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾».[4] وقيل: عزمًا على الذنب، فإنّه أخطأ ولم يتعمّد.[5]

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ﴾ إن كان مِن الوجود العِلمي فـ﴿لَهُۥ عَزْمًا﴾ مفعولاه قُدّم الثاني على الأوّل لكونه ظرفًا، وإن كان مِن الوجود المقابل للعدم، وهو الأنسبُ لأنّ مصبَّ الفائدة هو المفعول وليس في الإخبار بكون العزم المعدوم له مزيدُ مزيّة، فـ﴿لَهُۥ﴾ متعلّق به قُدّم على مفعوله، لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، أو بمحذوف هو حال مِن مفعوله المنكَّر، كأنّه قيل: ولم نصادف له عزمًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ شروع في بيان المعهود وكيفيّة ظهور نسيانه وفقدان عزمه. و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمر خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أي: واذكر وقت قولنا لهم. وتعليق الذّكر بالوقت مع أنّ المقصود تذكير ما وقَع فيه مِن الحوادث لِما مرّ مرارًا مِن المبالغة في إيجاب ذِكرها، / فإنّ الوقت مشتمِل على تفاصيل الأمور الواقعة فيه. فالأمرُ [٦٧ظ] بذِكره أمْر بذِكر تفاصيل ما وقع فيه بالطريق البرهاني، ولأنّ الوقت مشتمل على أعيان الحوادث، فإذا ذُكر صارت الحوادث كأنّها موجودة في ذِهن المخاطَب بوجوداتها العينيّة، أي: اذكر ما وقَع في ذلك الوقت منّا ومنه حتّى يتبيّن لك نسيانه وفقدان عزمه.

﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قد سبَق الكلامُ فيه مرارًا. ﴿أَبَىٰ﴾ جملة مستأنَفة وقعت جوابًا عن سؤال نشأ عن الإخبار بعدم سجوده، كأنّه قيل: ما بالُه لم يسجُد؟ فقيل: أبى واستكبر، ومفعول ﴿أَبَىٰ﴾ إمّا محذوف، أي: أبى السجود، كما في قوله تعالى: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر، ٣١/١٥]، أو غيرُ مَنويّ رأسًا بتنزيله منزلةَ اللازم، أي: فعَل الإباءَ وأظهَره.

---

[1] القارّ: البارد. لسان العرب لابن منظور، «قرر».
[2] الشَّرْيُ: الحنظل. لسان العرب لابن منظور، «شري».
[3] الأري: العسل. لسان العرب لابن منظور، «أري».
[4] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٨٥/١٦؛ وبلفظه ههنا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٦/٢.
[5] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٦/٢.

﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾

﴿فَقُلْنَا﴾ عَقيب ذلك اعتناء بنُصحه: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا﴾ الذي رأيتَ ما فعَل ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ أي: لا يكونَنّ سببًا لإخراجكما ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ والمرادُ نهيُهما مِن أن يكونا بحيث يتسبَّب الشيطان إلى إخراجهما منها بالطريق البرهاني، كما في قولك: "لا أُرينّك ههنا". و"الفاء" لترتيب موجَب النهي على عداوته لهما أو على الإخبار بها.

﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ جواب للنهي. وإسنادُ الشقاء إليه خاصّة بعد تعليق الإخراج الموجب له بهما معًا لأصالته في الأمور واستلزام شقائه لشقائها مع ما فيه مِن مراعاة الفواصل. وقيل: المراد بالشقاء التعب في تحصيل مبادئ المعاش، وذلك مِن وظائف الرجال.[1]

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ تعليل لِما يُوجبه النهيُ، فإنّ اجتماع أسباب الراحة فيها ممّا يوجب المبالغة في الاهتمام بتحصيل مبادي البقاء فيها، والجِدّ في الانتهاء عمّا يؤدّي إلى الخروج عنها.

[٦٨و] والعدول عن التصريح بأنّ له عليه السلام فيها تنعّمًا / بفنون النّعم مِن المآكل والمشارب وتمتّعًا بأصناف الملابس البهيّة والمساكن المَرْضيّة، مع أنّ فيه مِن الترغيب في البقاء فيها ما لا يخفى إلى ما ذُكر مِن نَفْي نقائضها التي هي الجوع والعطش والعُري والضحُوُ، لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيهِ على ما فيها مِن أنواع الشّقوة التي حذّره عنها ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدّي إليها.

على أنّ الترغيب قد حصَل بما سُوّغ له مِن التمتّع بجميع ما فيها سوى ما استُثني مِن الشجرة، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا[2] يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة، ٣٥/٢]، وقد طُوي ذكرُه ههنا اكتفاءً بما ذُكر في موضع آخرَ، واقتُصر على ما ذُكر مِن الترغيب المتضمّن للترهيب.

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٦٩/٣.

[2] م ط - ﴿قُلْنَا﴾.

ومعنى ﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾... إلى آخره، ألّا يصيبه شيء مِن الأمور الأربعة أصلًا، فإنّ الشبع والرّيّ والكسوة والكنّ قد تحصُل بعد عُروض أضدادها بإعواز الطعام والشراب واللباس والمسكَن، وليس الأمر فيها كذلك؛ بل كلُّ ما وقع فيها شهوة ومَيْل إلى شيء مِن الأمور المذكورة تمتُّع به مِن غير أن يصل إلى حدّ الضرورة.

ووجهُ إفراده عليه السلام بما ذُكر ما مرّ آنفًا.[1]

وفصلُ الظمأ عن الجوع في الذّكر مع تجانُسهما وتقارنهما في الذّكر عادة، وكذا حالُ العُري والضحوّ المتجانسَين، لتوفية مقام الامتنان حقَّه بالإشارة إلى أنّ نفيَ كلّ واحد مِن تلك الأمور نعمة على حِيالها، ولو جُمع بين الجوع والظمأ لربّما تُوهّم أنّ نفيهما نعمة واحدة، وكذا الحال في الجمع بين العُري والضحوّ، على منهاج قصّة البقرة،[2] ولزيادة التقرير بالتنبيه على أنّ نفي كلّ واحد مِن الأمور المذكورة مقصود بالذات مذكورٌ بالأصالة، لا أنّ نفي بعضها مذكورٌ بطريق الاستطراد والتبعيّة لنفي / بعض آخرَ، كما عسى يُتوهَّم لو جُمع بين كلّ مِن المتجانسَين. [٦٨ظ]

وقُرئ: "إِنَّكَ"[3] بالكسر، والجمهور على الفتح بالعطف على ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾. وصحّةُ وقوع الجملة المصدَّرة بـ"أنّ" المفتوحة اسمًا للمكسورة المشاركةِ لها في إفادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبرًا لها لِما أنّ المحذور اجتماع حرفَي التحقيق في مادّة واحدة، ولا اجتماعَ فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق فيما في حيّزهما، بخلاف ما لو وقعت خبرًا لها، فإنّ اتّحادَ المناط حينئذ ممّا لا ريبَ فيه.

بيانُه أنّ كلّ واحدة مِن المكسورة والمفتوحة موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبريّة المنعقدة مِن اسمها وخبرها، ولا يخفى أنّ مرجع خبريّتها ما فيها مِن الحُكم الإيجابي أو السلبي، وأنّ مناط ذلك الحُكم خبرها لا اسمُها،

---

١ في تفسير الآية السابعةَ عشرةَ بعد المائة.

٢ ذكر ذلك في تفسير الآية الثالثة والسبعين منها.

٣ قرأ بها نافع وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.

فمدلولُ كلّ منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها لا ثبوت اسمها في نفسه. فاللازمُ مِن وقوع الجملة المصدَّرة بالمفتوحة اسمًا للمكسورة تحقيقُ ثبوت خبرها لتلك الجملة المئوّلة بالمصدر.

وأمّا تحقيق ثبوتها في نفسها فهو مدلول المفتوحة حتمًا، فلم يلزَم اجتماع حرفَي التحقيق في مادّة واحدة قطعًا، وإنّما لم يُجوّزوا أن يقال: "إنّ أنّ زيدًا قائم" حقّ مع اختلاف المناط؛ بل شرطوا الفصل بالخبر، كقولنا: "إنّ عندي أنّ زيدًا قائم" للتجافي عن صورة الاجتماع.

و"الواو" العاطفة وإن كانت نائبةً عن المكسورة التي يمتنع دخولها على المفتوحة بلا فصل وقائمةً مقامها في إفضاء معناها وإجراء أحكامها على مدخولها، لكنّها حيث لم تكن حرفًا موضوعًا للتحقيق لم يلزم مِن دخولها على المفتوحة اجتماعُ حرفَي التحقيق أصلًا، فالمعنى إنّ لك عدمَ الجوع وعدم العُري وعدم الظمأ، خلا أنّه لم يُقتصَر على بيان أنّ الثابت له عليه السلام عدم الظمأ والضحوّ مطلقًا كما فُعل مثله في المعطوف عليه؛ بل قُصد بيانُ / أنّ الثابت له عليه السلام تحقيق عدمهما، فوُضع موضعَ الحرف المصدري المَحْض "أنّ" المفيدةُ له، كأنّه قيل: إنّ لك فيها عدمَ ظمئك على التحقيق. [٦٩و]

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ١٢٠﴾

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: أنهى إليه وسوسته أو أسرّها إليه. ﴿قَالَ﴾ إمّا بدل مِن ﴿وَسْوَسَ﴾ أو استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ منه، كأنّه قيل: فماذا قال في وسوسته؟ فقيل: قال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: شجرةٍ مَن أكَل منها خلَد ولم يمُت أصلًا، سواءٌ كان على حاله أو بأن يكون ملَكًا، لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف، ٢٠/٧]. ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي: لا يزول ولا يختلّ بوجه مِن الوجوه.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾

﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: عَريا عن النور الذي كان الله تعالى ألبسهما حتّى بدت فُروجهما.[1] ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ قد مرّ تفسيره في سورة الأعراف.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بما ذُكر مِن أَكْل الشجرة ﴿فَغَوَىٰ﴾ ضلّ عن مطلوبه الذي هو الخلود، أو عن المأمور به، أو عن الرشد حيث اغترّ بقول العدوّ. وقُرئ: "فَغَوِيَ"[2] مِن "غَوِيَ الفصيل" إذا أُتخم مِن اللبن. وفي وصفه عليه السلام بالعصيان والغَواية مع صغر زلّته تعظيم لها وزجرٌ بليغ لأولاده عن أمثالها.

﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾

﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: اصطفاه وقرّبه إليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها، مِن "اجتبى الشيء" بمعنى جباه لنفسه، أي: جمَعه، كقولك: "اجتمعتُه"، أو مِن "جُبيَ إليّ كذا فاجتبيتُه" مثل "جُليَتْ عليَّ العروسُ فأجتليتُها"، وأصلُ الكلمة الجمع. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مزيدُ تشريف له عليه السلام.

﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ أي: قبل توبته حين تاب هو وزوجته قائلَين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف، ٢٣/٧]. وإفرادُه عليه السلام / بالاجتباء وقَبول التوبة قد مرّ وجهه.[3] ﴿وَهَدَىٰ﴾ أي: إلى الثبات على التوبة والتمسّك بأسباب العصمة. [٦٩ظ]

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن الإخبار بأنّه تعالى قَبِل توبته وهداه، كأنّه قيل: فماذا أمره تعالى بعد ذلك؟ فقيل: قال له ولزوجته: ﴿ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا﴾

---

[1] تفسير الرازي، ١٠٨/٢٢؛ اللباب لابن عادل، ٤٠٨/١٣.

[2] قراءة شاذّة، غير منسوبة. أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٧/٢.

[3] في تفسير الآية السابعةَ عشرةَ بعد المائة.

أي: انزلا مِن الجنّة إلى الأرض. وقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ حال مِن ضمير المخاطَب في ﴿ٱهْبِطَا﴾. والجَمع لِما أنّهما أصل الذرّيّة ومنشأ الأولاد، أي: مُتعادِين في أمر المَعاش، كما عليه الناس مِن التجاذُب والتحارُب.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ مِن كتاب ورسول ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ وُضع الظاهر موضعَ المضمر مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتّباعه، ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: عن الهدى الذاكر لي والداعي إليّ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ في الدنيا ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيّقًا. مصدر وُصِف به، ولذلك يستوي فيه المذكّر والمؤنّث. وقُرئ: "ضَنْكَى"[1] كـ"سَكْرى"؛ وذلك لأنّ مَجامع هِمّته ومَطامح نظره مقصورة على أعراض الدنيا، وهو متهالك على ازديادها وخائف مِن انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة، مع أنّه قد يضيّق الله تعالى بشؤم الكفر ويوسّع ببركة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة، ٦١/٢]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف، ٩٦/٧]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة، ٦٥/٥] إلى قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة، ٦٦/٥]. وقيل: «هو الضريع والزقّوم في النار».[2] وقيل: «عذاب القبر».[3]

﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ وقُرئ بسكون "الهاء" على لفظ الوقف وبالجزم[4] عطفًا على محلّ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؛ لأنّه جواب الشرط. / ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ فاقدَ البصر، [٧٠و]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٣.

[2] مرويّ عن الحسن في جامع البيان للطبري، ١٩٤/١٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠١/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٧١/٣.

[3] مرويّ عن أبي سعيد الخُدري وابن مسعود وأبي هُريرة وغيرهم في جامع البيان للطبري، ١٩٦/١٦-١٩٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠١/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٧١/٣.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٣.

كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء، ٩٧/١٧]، لا أعمى عن الحجّة كما قيل.[١]

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما مرّ ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي: في الدنيا. وقُرئ: "أَعْمى" بالإمالة في الموضعين،[٢] وفي الأوّل فقط،[٣] لكونه جديرًا بالتغيير لكونه رأس الآية ومحلّ الوقف.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك فعلتَ أنت، ثمّ فُسّر بقوله تعالى: ﴿أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا﴾ واضحة نيّرة بحيث لا تخفى على أحد ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أي: عَميتَ عنها وتركتها تركَ المنسيّ الذي لا يُذكر أصلًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾[٤] ومثلَ ذلك النسيان الذي كنت فعلتَه في الدنيا ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تُترَك في العمى والعذاب جزاءً وفاقًا، لكن لا أبدًا كما قيل؛[٥] بل إلى ما شاء الله تعالى، ثمّ يُزيله عنه فيرى أهوال القيامة ويشاهِد مقعده مِن النار ويكون ذلك له عذابًا فوق العذاب، وكذا البَكَم والصمَم يزيلهما الله تعالى عنهم ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم، ٣٨/١٩].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٢٧﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء الموافق للجناية ﴿نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ بالانهماك في الشهوات ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بل كذّبها وأعرَض عنها. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ على الإطلاق، أو عذابُ النار ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: مِن ضَنْك العيش، أو منه ومِن الحشر على العمى.

---

[١] مَرويّ عن مجاهد في جامع البيان للطبري، ٢٠٠/١٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠١/٥.
[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٤٣/٢.
[٣] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٤٣/٢.
[٤] س + أي.
[٥] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٧١/٣.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما قبله مِن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ الآية.[1] و"الهمزة" للإنكار التوبيخي، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام.

واستعمال الهداية بـ"اللام" إمّا لتنزيلها منزلةَ اللازم، فلا حاجةَ إلى المفعول، أو لأنّها بمعنى التبيين والمفعولُ محذوف. وأيًّا ما كان فالفاعل هو الجملة بمضمونها ومعناها. وضمير ﴿لَهُمْ﴾ للمشركين المعاصرين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والمعنى: أَغَفلوا فلم يفعل الهدايةَ لهم، أو فلم يبيّن لهم مآلَ أمرهم كثرةُ إهلاكنا للقرون الأولى. وقد مرّ في قوله عزّ وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ الآية [الأعراف، ١٠٠/٧].

وقيل: الفاعل الضمير العائد إلى الله عزّ وجلّ، ويؤيّده القراءة بنون العظمة،[2] وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾... إلخ، إمّا معلِّق للفعل سادّ مسدَّ مفعوله، أو مفسِّر لمفعوله المحذوف، هكذا قيل.[3] والأوجهُ ألّا يُلاحَظ له مفعول، كأنّه قيل: أفلم يفعل الله تعالى لهم الهداية؟ ثمّ قيل بطريق الالتفات: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾... إلخ، بيانًا لتلك الهداية، و﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ في محلّ النصب على أنّه وصف لمميِّز ﴿كَمْ﴾، أي: كم قرنًا كائنًا مِن القرون.

وقوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ حال مِن ﴿ٱلْقُرُونِ﴾، أو مِن مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: أهلكناهم وهم في حال أَمْن وتقلُّب في ديارهم، أو مِن الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ مؤكِّد للإنكار والعاملُ ﴿يَهْدِ﴾. والمعنى: أفلم يهدِ لهم إهلاكُنا للقرون السالفة مِن أصحاب الحِجر وثمودَ وقُريّات قوم لوطٍ حالَ كونهم ماشين

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن يزيد وابن عبّاس والسُّلمي، وابن كامل والغضائري كلاهما عن رُويس، والزّعفراني عن رَوح. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٥٠.

[3] الوجهان في التبيان للعكبري، ٩٠٧/٢؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٤١٨/٣.

في مساكنهم إذا سافروا إلى الشام مشاهدين لآثار هلاكهم؟ مع أنّ ذلك ممّا يوجب أن يهتدوا إلى الحقّ فيعتبروا لئلّا يحلَّ بهم مثلُ ما حلّ بأولئك. / وقُرئ: "يُمَشَّوْنَ"[1] على البناء للمفعول، أي: يمكَّنون مِن المَشْي. [٧٠ظ]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ تعليل للإنكار وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم، وذلك إشارة إلى مضمون قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾... إلخ، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار ببُعد منزلته وعُلوّ شأنه في بابه. ﴿لَآيَاتٍ﴾ كثيرةً عظيمة واضحات الهداية ظاهرات الدلالة على الحقّ، فإذن هو هادٍ وأيُّما هادٍ. ويجوز أن تكون كلمةُ ﴿فِي﴾ تجريديّة، فافهمْ.

﴿لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ لذوي العقول الناهية عن القبائح التي مِن أقبحها ما يتعاطاه كفّار مكّة مِن الكفر بآيات الله تعالى والتعامي عنها وغير ذلك مِن فنون المعاصي. وفيه دلالة على أنّ مضمون الجملة هو الفاعل لا المفعول.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان حكمة عدم وقوع ما يُشعر به قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الآية،[2] مِن أن يصيبَهم مثلُ ما أصاب القرون المهلَكة، أي: ولولا الكلمة السابقة وهي العِدَة بتأخير عذاب هذه الأمّة إلى الآخرة لحكمة تقتضيه ومصلحة تستدعيه. ﴿لَكَانَ﴾ عقابُ جناياتهم ﴿لِزَامًا﴾ أي: لازمًا لهؤلاء الكفَرة بحيث لا يتأخّر عن جناياتهم ساعةً لزومَ ما نزَل بأولئك الغابرين.

وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تلويحٌ بأنّ ذلك التأخير لتشريفه عليه السلام، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال، ٣٣/٨]. واللّزام إمّا مصدر "لازمٌ" وُصف به مبالغةً، وإمّا "فِعال" بمعنى "مِفْعل"، جُعل آلةَ اللزوم لفَرْط لزومه، كما يقال: "لِزازَ خَصْم".

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن السّميفع، وعيسى بن عمر، والأديب عن أبي بكر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٥٠.

[2] في الآية السابقة.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطفٌ على ﴿كَلِمَةٌ﴾ أي: ولولا أجلٌ مسمًّى لأعمارهم أو لعذابهم -وهو يوم القيامة ويوم بدر- لَما تأخَّر عذابهم أصلًا. وفصلُه عمّا عُطف عليه للمسارعة إلى بيان جواب ﴿لَوْلَا﴾، وللإشعار باستقلال كلّ منهما بنفي لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآي الكريمة. وقد جُوّز عطفه على المستكِنّ في ﴿كَانَ﴾ العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم مِن السّياق تنزيلًا للفصل بالخبر منزلةَ التأكيد، أي: لكان الأخذ العاجل وأجل مسمًّى لازمَين لهم كدأب عاد وثمودَ وأضرابهم ولم ينفرد الأجل المسمّى دون الأخذ العاجل.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: إذا كان الأمر على ما ذُكر مِن أنّ تأخير عذابهم ليس بإهمال؛ بل إمهال وأنّه لازم لهم البتّة، فاصبرْ على ما يقولون مِن كلمات الكُفر، فإنّ عِلمه صلّى الله عليه وسلّم بأنّهم معذّبون لا محالةَ ممّا يُسلّيه ويحمِلُه على الصبر.

﴿وَسَبِّحْ﴾ ملتبِسًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صلِّ وأنت حامد لربّك الذي يبلّغك إلى كمالك على هدايته وتوفيقه، أو نزّهه تعالى عمّا ينسبونه إليه ممّا لا يليق بشأنه الرفيع حامدًا له على ما ميّزك بالهدى معترفًا بأنّه مُولي النّعم كلّها. والأوّل هو الأظهر المناسب لقوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾... إلخ، فإنّ توقيت التنزيه غير معهود، فالمرادُ صلاة الفجر. ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاتَي الظهر والعصر؛ لأنّهما قبل غروبها بعد زوالها. وجَمْعهما لمناسبته لقوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾. وقيل: صلاة العصر.[١]

﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾ أي: مِن ساعاته، جمع "إِنًى" بالكسر والقصر، و"أناء" بالفتح والمدّ. ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: فصَلِّ. والمراد به المَغرِب والعشاء. وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل، فإنّ القلب فيهما أجمَع والنفسَ

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٩/٢.

إلى الاستراحة أميَلُ، فتكون العبادة فيهما أشقّ، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل، ٦/٧٣].

﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ تكرير لصلاتَي الفجر / والمَغرِب إيذانًا باختصاصهما [٧١و] بمزيد مزيّة. ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس، كقول مَن قال:

ظَـهْـراهـمـا مِـثـلُ ظُـهـورِ الـتُّـرْسَـيـنْ[١]

أو أمرٌ بصلاة الظهر، فإنّه نهاية النصف الأوّل مِن النهار وبداية النصف الأخير، وجمعُه باعتبار النصفين، أو لأنّ النهار جنس، أو أمر بالتطوّع في أجزاء النهار.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ متعلّق بـ﴿سَبِّحْ﴾، أي: سبّح في هذه الأوقات رجاءَ أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك. وقُرئ: "تُرْضَى"[٢] على صيغة البناء للمفعول، مِن "أَرْضى"، أي: يُرضيك ربّك.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تُطل نظرهما بطريق الرغبة والمَيل ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦ﴾ مِن زخارف الدنيا. وقوله تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أصنافًا مِن الكفرة، مفعول ﴿مَتَّعْنَا﴾ قُدّم عليه الجارّ والمجرور للاعتناء به، أو هو حال مِن الضمير والمفعولُ ﴿مِنْهُمْ﴾، أي: إلى الذي متّعنا به -وهو أصناف وأنواع- بعضَهم على أنّه معنى ﴿مِن﴾ التبعيضيّة، أو بعضًا منهم على حذف الموصوف كما مرّ مرارًا.

﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ منصوب بمحذوف يدلّ عليه ﴿مَتَّعْنَا﴾، أي: أعطينا، أو به على تضمين معناه، أو بالبدليّة مِن محلّ ﴿بِهِۦ﴾، أو مِن ﴿أَزْوَٰجًا﴾ بتقدير مضاف أو بدونه، أو بالذمّ، وهي الزينة والبهجة.

---

[١] لخطام المجاشعي أو هِيمان بن قُحافة في كتاب سيبويه، ٤٨/٢، ٦٢٢/٣؛ وأمالي ابن الشجري، ١٦/١؛ وهو بلا عزو في البيان والتبيين للجاحظ، ١٥٦/١؛ والصحاح للجوهري، «مرت»؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٣١/٤ (البقرة، ١٩٧/٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ٧١/٣.

[٢] قرأ بها الكسائي وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.

وقُرِئَ: "زَهَرَةَ"[١] بفتح الهاء، وهي لغة كـ"الجَهَرة" في "الجَهْرة"، أو جَمْعُ "زاهر"، وَصْف لهم بأنّهم زاهرو الدنيا لتنعّمهم وبهاء زيّهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزُّهّاد.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ متعلّق بـ﴿مَتَّعْنَا﴾ جيء به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلًا إثر إظهار بهجته حالًا، أي: لنُعاملهم معاملة مَن يبتليهم ويختبرهم فيه، أو لنُعذّبهم في الآخرة بسببه.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي: ما ادخّر لك في الآخرة أو ما رزقك في الدنيا مِن النبوّة والهُدى ﴿خَيْرٌ﴾ ممّا منحهم في الدنيا، لأنّه مع كونه في نفسه أجلَّ ما يتنافس فيه المتنافسون مأمونُ الغائلة، بخلاف ما مُنحوه. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ فإنّه لا يكاد ينقطع نفسه أو أثره أبدًا، كما عليه زَهْرة الدنيا.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ أُمر عليه السلام بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له مِن أمّته بالصلاة بعد ما أُمر هو بها، ليتعاونوا على الاستعانة على خَصاصتهم ولا يهتمّوا بأمر المعيشة، ولا يلتفتوا لِفْتَ أرباب الثروة. ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ وثابرْ عليها غيرَ مشتغل بأمر المعاش ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نكلّفك أن ترزُق نفسك ولا أهلك.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإيّاهم ففرّغْ بالك بأمر الآخرة. ﴿وَالْعَٰقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: لأهل التقوى، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامه تنبيهًا على أنّ مَلاك الأمر هو التقوى. رُوي أنّه عليه السلام كان إذا أصاب أهلَه ضُرّ أمَرَهم بالصلاة وتلا هذه الآية.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾

---

[١] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٢.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ حكاية لبعض أقاويلهم الباطلة التي أُمر عليه السلام بالصبر عليها، أي: هلّا يأتينا بآية تدلّ على صدقه في دعوى النبوّة، أو بآية ممّا اقترحوها. بلغوا مِن المكابرة والعناد إلى حيث لم يعُدّوا ما شاهدوا مِن المعجزات التي تخرّ لها صُمّ الجبال مِن قبيل الآيات حتّى اجترأوا على التفوّه بهذه العظيمة الشنعاء.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماويّة، ردٌّ مِن جهته عزّ وعلا لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم فيما دسُّوا تحتها مِن إنكار إتيان الآية بإتيان القرآن الكريم الذي هو أمُّ الآيات وأسُّ المعجزات وأعظمها وأبقاها؛ لأنّ حقيقة المعجزة اختصاص مدّعي النبوّة بنوع مِن الأمور / الخارقة للعادات أيّ أمر كان. ولا ريبَ في أنّ [٧١ظ] العِلم أجلّ الأمور وأعلاها؛ إذ هو أصل الأعمال ومبدأ الأفعال، ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الأوّلين والآخرين على يد أمّي لم يمارس شيئًا مِن العلوم ولم يُدارس أحدًا مِن أهلها أصلًا، فأيُّ معجزة تُراد بعد وروده؟ وأيُّ آية تُرام مع وجوده؟

وفي إيراده بعنوان كونه بيّنة لِما في الصُّحف الأولى مِن التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماويّة، أي: شاهدًا بحقّيّة ما فيها مِن العقائد الحقّة وأصول الأحكام التي أجمعت عليها كافّة الرسل، وبصحّة ما تنطق به مِن أنباء الأمم مِن حيث إنّه غنيٌّ بإعجازه عمّا يشهد بحقّيّته حقيقٌ بإثبات حقّيّة غيره، ما لا يخفى[1] مِن تنويه شأنِه وإنارةِ برهانه ومزيدُ تقرير وتحقيقٍ لإتيانه.

وإسناد الإتيان إليه مع جَعْلهم إيّاه مأتيًا به للتنبيه على أصالته فيه مع ما فيه مِن المناسبة للبيّنة. و"الهمزة" لإنكار الوقوع، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، كأنّه قيل: ألم يأتهم سائرُ الآيات ولم تأتِهم خاصّة بيّنة ما في الصُّحف الأولى، تقريرًا لإتيانه وإيذانًا بأنّه مِن الوضوح بحيث لا يتأتّى منهم إنكاره أصلًا، وإن اجترأوا على إنكار سائر الآيات مكابرة وعنادًا.

---

[1] السياق: وفي إيراده... ما لا يخفى...

وقُرئ: "أَوَلَمْ يَأْتِهِمْ"[١] بالياء التحتانيّة. وقُرئ: "الصُّحْفِ"[٢] بالسكون تخفيفًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ﴾ إلى آخر الآية جملة مستأنفة سِيقت لتقرير ما قبلها مِن كون القرآن آية بيّنة لا يمكن إنكارها ببيان أنّهم يعترفون بها يوم القيامة، والمعنى لو أنّا أهلكناهم في الدنيا بعذاب مستأصل. ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ متعلّق بـ"أهلكنا" أو بمحذوف هو صفةٌ لـ﴿عَذَابٍ﴾، أي: بعذاب كائن مِن قبل إتيانِ البيّنة أو مِن قبل محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

﴿لَقَالُواْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا﴾ في الدنيا ﴿رَسُولًا﴾ مع كتاب ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ التي جاءنا بها ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ بدخول النار اليوم، ولكنّا لم نُهلكهم قبل إتيانها فانقطعت معذرتهم، فعند ذلك قالوا: بلى قد جاءنا نذير فكذّبنا وقلنا: ما نزّل الله مِن شيء.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ١٣٥﴾

﴿قُلْ﴾ لأولئك الكفرة المتمرّدين ﴿كُلٌّ﴾ أي: كلّ واحد منّا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظِر لِما يئول إليه أمرنا وأمركم ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾. وقُرئ: "فَتَمَتَّعُوا".[٣] ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ أي: المستقيم. وقُرئ: "السَّوَاءِ"، أي: الوسط الجيّد، وقُرئ: "السَّوْءِ"[٤] و"السُّوْءَى"[٥] و"السُّوَيِّ"[٦] تصغيرُ "السوء".

﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ مِن الضلالة و﴿مَن﴾ في الموضعين استفهاميّة محلُّها الرفع بالابتداء خبرُهما ما بعدهما، والجملةُ سادّة مَسدّ مفعولَي العِلم أو مفعوله،

---

١ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر وخلف وابن جمّاز بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٢-٣٢٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرف وطلحة بن سليمان. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٥٢.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤١١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وأبي مِجلز وعمران بن حُدير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٥٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري ويحيى بن يعمُر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٥٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمُر وعِصمة عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٥٣.

ويجوز كون الثانية موصولة بخلاف الأولى لعدم العائد، فتكون معطوفةً على محلّ الجملة الاستفهاميّة المعلَّق عنها الفعل على أنّ العِلم بمعنى المعرفة أو على ﴿أَصْحَٰبُ﴾، أو على ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾. وقيل: العائد في الأولى محذوف،[1] والتقدير: مَن هم أصحاب الصراط.

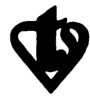
عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ طه أُعطيَ يوم القيامة ثوابَ المهاجرين والأنصار».[2] وقال: «لا يقرأ أهلُ الجنّة مِن القرآن إلّا سورةَ طه ويس».[3]

---

١ نقله عن الفرّاء العكبري في التبيان، ٢/٩١٠.

٢ لم أجده في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٣/٧٤. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/٣٥٦.

٣ س + والحمد لله ربّ العالمين. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد في أواسط جمادى الأولى، لسنة تسع وستّين وتسعمائة، حامدًا لله تعالى ومصلّيًا. | والرواية في الكشف والبيان للثعلبي، ١٧/٤٨٦ (طه، ٢٠/١)؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٧٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/٣٥٦.



Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları

Yayın No. 1000-1
İSAM Yayınları 236
Klasik Eserler Dizisi 46

İRŞÂDÜ'L-AKLİ's-SELÎM ilâ MEZÂYA'L-KİTÂBİ'L-KERÎM

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî

Cilt 5

Tahkik
Mehmet Taha Boyalık - Ahmet Aytep [Mukaddime - Bakara 98; Nisâ - Tevbe]
Ziyaüddin el-Kaliş [Bakara 99 - Âl-i İmrân 32; Yûnus - Hûd; Hicr - Tâhâ; Zâriyât - Nâs]
Muhammed İmâd el-Nabulsî [Âl-i İmrân 33-200; Yûsuf - İbrâhim; Enbiyâ - Kâf]



İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm
TDV İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM)
Tahkik Yayın Kurulu ilmî kontrolünde hazırlanmıştır.

İcadiye-Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
Tel. 0216. 474 08 50
www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

Yayın yönetmeni M. Suat Mertoğlu
Yayın koordinasyon Erdal Cesar
Tahkik editörü Okan Kadir Yılmaz
İnceleme kısmı son okuma (Türkçe) Mustafa Demiray
İnceleme kısmı üslup okuma (Türkçe) Metin Karabaşoğlu
Tercüme (Arapçaya) Merve Dağıstanlı Barsik
Tashih (Arapça) Said Kayacı, Münzir Şeyhhasan, Mohamed Shahin
(Türkçe) İsa Kayaalp, Abdülkadir Şenel, İnayet Bebek
Tasarım Ali Haydar Ulusoy, İbrahim Dervişmüezzin (Uygulama),
Hasan Hüseyin Can (Kapak), Ramzi Haj Mustafa (Kapak Hattı)
Yayın takip Münzir Şeyhhasan, Sema Doğan



Bu eser
TDV İslam Araştırmaları Merkezi'nin (İSAM)
İkinci Klasik Dönem Projesi
kapsamında yayınlanmıştır.

Proje koordinatörü Tuncay Başoğlu

Bu kitap
İSAM Yönetim Kurulu'nun
01/06/2020 tarihli ve 2020/05 sayılı kararıyla basılmıştır.

Birinci Basım: Ankara, Temmuz 2021 m. / 1442 h.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.)
978-625-7581-36-3 (5. Cilt)



Basım Yayın ve Dağıtım
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No. 11
Yenimahalle/Ankara
Tel. 0312. 354 91 31 Faks. 0312. 354 91 32
bilgi@tdv.com.tr
Sertifika No. 48058

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm [ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم] / Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî ; tahkik Mehmet Taha Boyalık , Ahmet Aytep , Ziyaüddin el-Kaliş , Muhammed İmâd el-Nabulsî. – Ankara : Türkiye Diyanet Vakfı, 2021.
5. c. , 668 s. ; 24 cm. – (Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları ; 1000-1. İSAM Yayınları ; 236. Klasik Eserler Dizisi ; 46)

Dizin ve kaynakça var.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.) 978-625-7581-36-3 (5. Cilt)



İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm

Ebussuûd Tefsiri

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
(ö. 982 h. / 1574 m.)

Kendisine ait notlarla (minhüvât) birlikte
müellif nüshasından ilk neşir

Tahkik

Mehmet Taha Boyalık　Ahmet Aytep
Ziyaüddin el-Kaliş　Muhammed İmâd el-Nabulsî

Proje Yürütme ve İlmî Kontrol
Mehmet Taha Boyalık

Beşinci Cilt



TÜRKİYE DİYANET VAKFI YAYINLARI

İKİNCİ KLASİK DÖNEM PROJESİ

"İslam medeniyetinin İkinci Klasik Dönemi" olarak adlandırılabilecek olan h. 7-13. (m. 13-19.) yüzyıllar arası entelektüel birikimin gereği gibi araştırma mevzuu edilmesi ve yaklaşık yedi asırlık bu dönemin ilmî ve fikrî boyutlarıyla ortaya çıkarılması hedefiyle Türkiye Diyanet Vakfı İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) tarafından, bünyesinde pek çok alt projeyi ihtiva edecek bir çerçeve proje olan İkinci Klasik Dönem Projesi gündeme alınmıştır. Günümüz tarih yazıcılığında İslam medeniyeti tarihi Moğol istilası sonrası genelde İslam medeniyetinde özelde İslam düşüncesi ve ilimlerinde gelişmenin inkıtaa uğradığı varsayımıyla yazılmaya çalışılmıştır. Batı'da 19. yüzyılda oluşturulan, sömürgeleşme süreciyle birlikte müslümanlar arasında da yaygınlık kazanan bu bakış açısı İslam tarihiyle ilgili yargılarımızı eksik bırakmıştır. Neticede İslam tarihi, düşüncesi, sanatı, kurumları, önde gelen şahsiyetleri, literatürü ve olaylarıyla insicamlı bir bütünlük içinde ele alınamamıştır.

Bu alandaki çalışmalarla sadece İslam medeniyet tarihinin bir dönemi değil aynı zamanda insanlık tarihinin çok önemli bir devresi aydınlanmış olacaktır. Bu proje vasıtasıyla İkinci Klasik Dönem'de tartışılan ilmî meseleler yeniden kazanılarak günümüz ilim ve fikir dünyasının gündemi haline getirilecek ve böylece yeni dönemin inşasında, hâlihazırdaki sorunların tespit, tahlil, tenkit ve hallinde geçmiş birikimden azami ölçüde istifade edilmesi sağlanacaktır.

Bu dönemle ilgili çalışmalar kapsamında İslam ilimleri, İslam düşüncesi, İslam bilim tarihi, İslam medeniyetinde beşerî ilimler ve sanat alanlarına dair çalışmaların yanı sıra İslam ile diğer medeniyetler arası mukayeseli çalışmalar yer alacaktır. Gerçekleştirilecek projeler Osmanlı coğrafyası, Sahrâaltı Afrikası, Delhi Sultanlığı döneminden itibaren Hint alt kıtası ve Moğol istilası sonrası Orta Asya ve İran'a yoğunlaşacaktır. Proje kapsamında kataloglama, telif, tahkik, tercüme türünden yayınlar yapılması öngörülmektedir.

M. Sait Özervarlı, *İbn Teymiyye'nin Düşünce Metodu ve Kelâmcılara Eleştirisi*, 2008; 2017
Yavuz Köktaş, *Fethu'l-bârî ve Umdetü'l-kârî'nin Metin Tahlili Açısından İncelenmesi*, 2009; 2020
Fatih Yahya Ayaz, *Memlûkler Döneminde Vezirlik*, 2009; 2017
Halil İnalcık, *Osmanlı İdare ve Ekonomi Tarihi*, 2011; 2018
Tuncay Başoğlu, *Fıkıh Usûlünde Fahreddin er-Râzî Mektebi*, 2011; 2014
Adalet Çakır, *Abdülkâdir-i Geylânî ve Kâdirilik*, 2012; 2021
İslâm Düşüncesinin Dönüşüm Çağında Fahreddin er-Râzî (ed. Osman Demir-Ömer Türker), 2013
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Kifâye fi'l-hidâye* (thk. Muhammet Aruçi), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Müntekā min ismeti'l-enbiyâ* (thk. Mehmet Bulut), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Türkiye'de Tarikatlar: Tarih ve Kültür (ed. Semih Ceyhan), 2015
Semih Ceyhan, *Üç Pîrin Mürşidi Halvetiyye, Ramazâniyye Kolu ve Köstendilli Ali Alâeddin Efendi*, 2015
Şükrü Maden, *Tefsirde Hâşiye Geleneği ve Şeyhzâde'nin Envârü't-Tenzîl Hâşiyesi*, 2015
İstanbul Şer'iyye Sicilleri Vakfiyeler Katalogu (haz. B. Aydın, İ. Yurdakul, A. Işık, İ. Kurt, E. Yıldız), 2015
Muhammed el-İsfahânî, *Kitâbü'l-Kavâidi'l-külliyye* (thk. Mansur Koçinkağ, Bilal Taşkın), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Kâdî Beyzâvî (ed. Müstakim Arıcı), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Adudüddin el-Îcî (ed. Eşref Altaş), 2017
Osman Güman, *Nahiv ve Fıkıh Usulü İlişkisi*, 2017
Mirzazâde Mehmed Sâlim Efendi, *Selâmetü'l-insân fî muhâfazati'l-lisân* (thk. Murat Sula), 2018
Tilimsânî, *Meâni'l-esmâi'l-ilâhiyye* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
Tilimsânî, *Şerhu'l-Fâtiha ve ba'zı sûreti'l-Bakara* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
İSAM Tahkikli Neşir Kılavuzu (haz. Okan Kadir Yılmaz), 2018
Mustafa Bülent Dadaş, *Şeyh Bedreddin: Bir Osmanlı Fakihi*, 2018
Mehmed Fıkhî el-Aynî, *Risâle fî edebi'l-müftî* (thk. Osman Şahin), 2018
Kâsım b. Kutluboğa, *Kitâbü Takrîbi'l-garîb* (thk. Osman Keskiner), 2018
Safedî, *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr*, (thk. Bahattin Darıma), I-V, 2019
M. Taha Boyalık, *el-Keşşâf Literatürü: Zemahşerî'nin Tefsir Klasiğinin Etki Tarihi*, 2019
Şeyh Bedreddin, *et-Teshîl Şerhu Letâifi'l-işârât* (thk. M. Bülent Dadaş), I-III, 2019
Rükneddin es-Semerkandî, *Câmiu'l-usûl* (thk. İsmet Garibullah Şimşek), I-II, 2020
Mahmûd el-İsfahânî, *Tesdîdü'l-kavâid fî şerhi Tecrîdi'l-akâid*; Cürcânî, *Hâşiyetü't-Tecrîd; Cürcânî'nin minhüvâtı ve başka haşiye notlarıyla birlikte* (thk. E. Altaş, M.A. Koca, S. Günaydın, M. Yetim), I-III, 2020; I-II, 2021
İbn Nüceym, *Lübbü'l-usûl* (thk. Muhammed Fâl Seyyid eş-Şinkîtî), 2020
Siğnâkî, *et-Tesdîd fî şerhi't-Temhîd* (thk. Ali Tarık Ziyat Yılmaz), I-II, 2020
M. Âkif Aydın, *Osmanlı Hukuku: Devlet-i Aliyye'nin Temeli*, 2020
Mehmet Sami Baga, *İslam Felsefesinde Cisim Teorisi: Hikmetü'l-ayn Geleneği*, 2020
Güllü Yıldız, *Siyerde Şerh-Haşiye Geleneği: Moğultay b. Kılıç Örneği*, 2020
Mehmet Çiçek, *Müfessir Olarak Ali Kuşçu*, 2021
Alî Kuşçu, *Hâşiyetü Alî el-Kuşcî alâ Şerhi'l-Keşşâf li't-Teftâzânî* (thk. Mehmet Çiçek), 2021
İbn Âbidîn, *Şerhu Ukûdi resmi'l-müftî* (thk. Şenol Saylan), 2021
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî, *İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm* (thk. Mehmet Taha Boyalık, Ahmet Aytep, Ziyaüddin el-Kaliş, Muhammed İmâd el-Nabulsî), I-IX, 2021



İrşâdü'l-akli's-selîm
ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm